الثقافة قمر لا يغيب

آن استوى التاريخ على قمة الشهب

الدكتورة نجاح العطّار

الثقافة قمر لا يغيب

آن استوى التاريخ على قمة الشهب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٦م

الثقافة قمر لا يغيب: آن استوى التاريخ عـلى قمـة الـشهب / نجاح العطّـار . - دمـشق: الهيئـة العامـة الـسورية للكتـاب ، ٢٠١٦ . - ٧١٢ ص؛ ٢٥ سم .

١ - ٣٠٦.٤ ع ط ا ث ٢ - العنـوان ٣ - العطّـار
مكتبـة الأسـد

إهــداء

إلى الـسيدة الجليلـة الفاضـلة، والأخـت الغاليـة، أنيـسة مخلوف الأسـد - أم الباسل - بل أم البواسل - بل أم الـسوريين جميعاً، في انتمائهم لك وللراحل الكبير، ولابنك البشار، القائد الفريد، بسالةً تربى عليها، وعزماً شديداً، وبأساً، وعمق فكر، وقدرة على التخطيط القويم.

أيام رائعة عشناها معك، هي مـن التـاريخ الـذي نحفظه في الـذاكرة، كنـت فيهـا منـارة تحمـل مـشعل النـور في ظـل القائـد الراحل، ثم بصحبة الابن البار البشار الذي يقبض كأبيه العظيم علـى الـسيف والقلـم ليكتـب مثلـه صـفحات يتعـانق فيهـا المجـد والبأس واللهب، كي يحقق النصر لوطنه العزيز.

يا أم البواسل

لك منا كل المحبة والمعزة، أنت الفائقـة بإنـسانيتك، ورفيـع قيمك، وحرصك الكبير على وطنك وأبنائه، وتقديم كل دعم ممكن..

ندعو الله أيتها السيدة الرائعة أن يرعاك ويحفظك، ويكـون معك دائماً، ومع أسرتك، أنت الجديرة برفيع التكـريم، وكـبير التقدير والإعزاز.

* * *

رمـت الأقـدار فأصـابت، وكانـت الفاجعـة كـبيرة كـبيرة، برحيل السيدة الجليلة إلى جوار ربها، قبل صدور هذا الكتاب، تاركة في جوانحنا ألماً بالغاً، وحزناً عميقاً عميقاً، وذكريات معطرة بنفح مكرماتها، ستظل عصية على النسيان.

الله نـسأل أن يتغمـدها بفـيض مغفرتـه، ويـشملها بـآلاء إحسانه، وأن تظل رحمته صبيب غيث على الثرى الطهـور، وفوح طيبٍ على كفن ضم الرفات.

والله نـسأل أن يمـسح بـالعزاء علـى قلـوب أبنائهـا وأهلـها وأحبائها، وكل من عرفها فاحترمها وأحبها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تقديـم

لتكن كلماتنا جسور تواصل
ومنبر صمودٍ وتضحيات

من بين الحقائق كلهـا، هنـاك حقيقـة واحـدة ثابتـة، هـي أن الكلمة سيدة الكون. إنها البدء فعلاً، والبدء حكاية، منها التكوين، وما قصه علينا من أسطورة الخلق، وهي، الكلمة، حمامة زاجلة، في منقارها غصن الزيتون، بشارة لمن في الفلك، وفي جناحيهـا بيـاض الثلج، في نصاعته البكر، حين تحلـق عاليـاً، حاملـة رسـالة المحبـة والسلام.

لقد عاشت حمامة بيكاسو طويلاً، وستعيش طويلاً، لأنهـا، في معناها، رسولة هذه المحبة وهذا السلام، وبوحي منهما أخـط هـذه الحروف، وأبعث بها إلى من ينشدون التفاهم سبيلاً، يحقق، في إرادة البقاء، بقاء يتجوهر، في ذهبه والمـاس، ليعطينـا، في معدنـه النـادر، هدفه النادر: الحياة الحقـة، يجلوهـا التعـاون بـين أبنـاء الإنـسانية، الطامحة إلى الأمن والطمأنينة، في أقصى، وأبهى، ما يكـون الطمـوح وسـيلة إلى التقـارب بـدل التباعـد، وإلى التعاضـد بـدل التنـافر، والمثاقفة، بما هي تفاعل حضاري، عوضاً عن التجاهل، الـذي هـو ضد الثقافة والحضارة معاً.

إننا، في سورية، ندرك أن البشرية أمام منعطف تاريخي، تحتاج فيه إلى نهضة حضارية، ينتفي منها الإرهاب والعدوان، والغدر، والتسلط، واحتلال أرض الغير بالقوة، واغتصاب حقوق الغير بالقوة، مادامت الحضارة، في أجلى معانيها، هي كل هذه القيم، فإذا لم تتحقق نهضة على مستوى هذا الطموح الإنساني، فإن قيم الحياة تصبح في خطر، وميزان العدالة يتعرض للاختلال، وكل مشروع نهضوي، في التفاهم والتعاون بين الأمم والشعوب، ينهار انهياراً كاملاً، ونعود إلى وراء قرناً بعد قرن، وهذا ما نرفضه، ونقاومه، وندعو الجميع إلى رفضه ومقاومته، لأن سيرورة التاريخ تأباه، وصيرورة البشر تجانبه.

ومن هذا المنطلق فإننا نسعى، وسنظل نسعى، إلى حوار مفتوح، على أساس الندية، بين الوطن العربي والعالم، وإلى تطوير هذا الحوار وصولاً إلى التفاهم المنشود، بعيداً عن كل تعسف، أو تعصب، أو تآمر، أو تمويه للقهر الممارس ضدنا، أو المحاولات المتواصلة لتذويب شخصيتنا، واستلاب هويتنا، وكل ما هو ناشئ عن ايديولوجية مضللة، تعمل لتشويه صورتنا أمام شعوب العالم.

إن الكلمة ذات دلالة كبيرة، مكتوبة كانت أو محولة إلى صورة مرئية، والشعب العربي السوري يريد لهذه الكلمة أن تكون رسول ثقافة وحضارة، وجسراً تعبر عليه ثقافة الآخرين إلينا، كما تعبر عليه ثقافتنا إلى الآخرين، وهذا هو التبادل الصحيح الذي، عبره، تتلاقى الأفكار، وتتلاقح، وتؤدي دورها في تفاعل خلّاق ومستمر.

* * *

مشروعنا الثقافي الكبير الذي عملنا على تحقيقه، ذات يوم، كان ينطوي على توجهات كثيرة منها أن نزرع كلماتنا، في أرجاء كرتنا الأرضية، لتكون جسور تواصل إنساني بنّاء، في دول العالم ومعها، وأن نستنبت أفكارنا وجوداً حضارياً، يربط ماضي شعبنا براهنه، ويتوّج متألقاً بعبق معرفي وأخلاقي، طالما سعينا لتقديم براهينه، وإغناء عطاءاته..

وكان علينا أن نؤكد، وسورية دولة المواجهة الوحيدة في وجه العدو الإسرائيلي، وهو على حدودها، أن الوقوف إلى جانبها، مادياً ومعنوياً، هو المحك للموقف الوطني، القومي، الوحدوي والإنساني، وكل من يتخلف يكون بعيداً عن قضيتي التحرير والوحدة، وأن التمسك بالهوية العربية، وبالانتماء العربي، وباللغة العربية، والوقوف في وجه الطائفية، والانعزالية، ومزاعم التباينات الدينية والإثنية، ومقاومة الغزو الثقافي الصهيوني، وتطبيع العلاقات مع إسرائيل، ومساعدة المثقفين والدارسين وأرباب الكلمة المبدعة، في مجال التراث والأدب والفن، المساهمين بنتاجاتهم في هذه المقاومة، هي أمور جوهرية، لا يمكن تجاوزها حين نسعى إلى نشر الوعي وتحقيق التقدم، وبناء العلاقات السليمة في كوننا الصغير الكبير هذا..

وفي سبيل ذلك أقمنا المؤتمرات والندوات في سورية، وحاضرنا في البلدان العربية والعالم، وما أقيم فيه من لقاءات

ومؤتمرات، وكتبنا في الداخل والخارج بمناسبات مختلفة، كثير منها قومي، وشاركت وفودنا بالموائد المستديرة، وإلقاء الكلمات هنا وهناك أيضاً.

ولعل نشر بعض ما أسهمت فيه أن يكون مفيداً..

أتساءل؟

* * *

واليوم، وسورية تعاني ما تعانيه، فإنها تقرع باب المستقبل، في وثوق واطمئنان، ينهضان على إيمان بالله وإيمان بالنفس، وعزة هي بعض الشيم العربية، وقوة هي الدرع الحصين، وصمود في وجه النائبات والمؤامرات، والتكفير والإرهاب، وتصدٍّ للهجمات العدوانية الشرسة، وثبات في المواقف المبدئية، وكفاح في سبيل تحرير أرضها الطاهرة، ودحر العدوان المسرول بالخيانة عليها، تحت عباءة الإسلام، والإسلام منه براء، والممول من دول التخاذل العربية، ومن دول الاستعمار التي تستعيد اليوم تاريخها البائس في بلداننا، تحت ألف شعار مزيف، لا يرتبط أبداً، بحقوق الإنسان كما يدّعون، ولا بديموقراطية النهج، ونحن الذين عرفنا ديموقراطيتهم التي عانينا منها في مراحل مختلفة، أشد أنواع القهر والظلم والاستلاب.

أقول للعملاء من الحكام الذين لا يمتون إلى العروبة والإسلام بصلة، مهما ادّعوا، واشتطّوا، في التبعية والاستسلام، وتصوروا أن سورية ستتخلى عن مواقفها العربية، أقول: سورية

كانت وستبقى، قاعدة للنضال الوطني والقومي، وكانت وستبقى، قاعدة للصمود والبسالة، للمفاداة والتضحيات في سبيل القضايا العربية التي نذرت النفس لها، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وفي سبيل القضية الفلسطينية التي هي جوهر القضية العربية، وفي سبيل مصيرنا ووجودنا وكرامتنا جميعاً.

ومهما عربد العدوان، بكل أشكاله الإرهابية والقتالية، فلن تتراجع عن مواقعها، ومهما اشتدت الضغوط لن تتخلى عن مواقفها، ومهما تكاثرت المخاطر، لن تأبه للمخاطر، كما في كل تاريخها، ولن تركع أبداً كما قال الرئيس البشار، وستعرف كيف تشق طريقها إلى النصر، بقيادته الشجاعة الصلبة، الفذة، المتمرسة، التي أثبتت قدرتها، على نحو خلّاق..

إن ملايين القلوب تشتعل مع القلب الذي يشتعل، في كل معركة من معاركنا..

فمن ضوئه ستكون لنا شعلٌ متوهجة..

ومن وهجه سيقبس شهداء يسدون الأفق..

إن القرن الواحد والعشرين سيكون لنا، ونحن نعرف وجهي هذا القرن، المجيد والوضيع، لأنهما يمثلان، في وقت واحد، نضال الشعوب وشراسة أعدائها، وفي المعركة الطويلة التي نخوض، ضد الإرهاب المستعر، نعرف أن النصر لنا، وإن كان هذا النصر يمر بالخراب والدمار، بالشوك والطين، بالموت والشقاء، ويأتي حاملاً معه بعض سواد الطريق الذي اجتازه وغباره، فإننا سنعرف كيف

نجلوه، وكيف نعاود الإعمار، وكيف نضفر، على هامته الورد والغار.

* * *

ختاماً، أود أن أذكّر بأن هذه النصوص كُتبت في ظروف دولية مختلفة، وكانت الأوضاع لا توحي، آنذاك، بحجم المؤامرة التي استحكمت، في أيامنا هذه، حاملة معها هواجس الاحتلال الذي هيمن، في النصف الأول من القرن الماضي على بلداننا.

ومن الجدير أن نذكر أن صداقات هامة قد بنيناها، آنذاك، في عالم الثقافة، مع مثقفين كبار، وأكاديميين، وإعلاميين، فرنسيين وإسبان، تخصيصاً، ولدي معهم ومنهم، مراسلات ورسائل ذات شأن، ولا أظن أنهم تغيروا، الذي تغير هو ساسة تلك البلدان، وأنظمة الحكم الراهنة فيها، وسقوط القيم في بلدان كثيرة متقدمة..

ولم أشأ أن أغيّر، أو أن أحذف، فكل نص مرهون بزمن كتابته، ولعله يذكّر بما كان، قبل أن تتغير معالم السياسة.

وإننا لنثق بأن الغيوم السوداء المخيمة على أرضنا، أرض الحضارات والبطولات، ستنحسر، وسيشرق الأفق من جديد، مشعاً بنور الانتصار القريب، كي تعود الحياة إلى بهائها مرة أخرى، رغم كيد المتآمرين والمتواطئين، والإرهابيين المجرمين، ويستعلي الوطن، بجهود المنافحين من أبنائه الميامين، وبطولات شعبه الأبي وجيشه العظيم، وقائده الذي يحمل راية النضال، ويقود المسيرة في مواقف هي اليوم للتاريخ..

ندوة للسياسة الثقافية

في جامعة أمريكية شهيرة(*)

تعدّ جامعة هارڤارد سنوياً ندوة سياسية أدبية يشرف عليها مسئولون، تعينهم الجامعة من أساتذتها المعروفين، أو من أساتذة جامعات أخرى، ويمول هذه الندوة منظمات أمريكية مختلفة، منتشرة في أنحاء متفرقة من العالم، على شكل جمعيات صداقات، أو جمعيات ذات أهداف ثقافية، وتساعد الدولة رسمياً في تمويل هذه الندوة، كما تسهم بعض المؤسسات الخاصة في ذلك، ويكون اختيار مندوبي الدول من مهمة الجامعة، كما أكد المسئولون، واستناداً إلى استمارات المرشحين.

والندوة مستمرة منذ أكثر من ستة عشر عاماً، بجانبيها الأدبي والسياسي، وبإشراف هذه الجامعة، ولها أصدقاء معروفون في أمريكا، يحيطون أعضاءها عادة بكثير من الحفاوة والتكريم، ويقيمون لهم المآدب والدعوات.

(*) شاركت في سمينار دولي في جامعة هارڤارد عام ١٩٦٦، وكان لهذا اللقاء الذي ضم واحداً وأربعين مشاركاً من بلدان العالم جانبان أحدهما سياسي والآخر ثقافي. ولم يكن بين المشاركين من العرب إلا أنا والشاعر صلاح عبد الصبور من مصر، ومن العراق شخص لم أعد أذكر اسمه، ما أذكره هو أنه كان من اتباع نوري السعيد، ومن المشيدين بالاحتلال البريطاني.

كان عـددنا واحـداً وأربعـين عـضواً، نمثـل عـدداً مـن دول أوروبـا الـشرقية والغربيـة، وبعـض الـدول الافريقيـة والـشرقية، وكانت سورية تمثل في هذه الندوة أول مرة، كما مثلـت فيهـا مـصر والعراق، وكان بين الأعضاء مندوب من إسرائيل.

انقسمنا إلى فئتين .. فئة المهتمين بالأدب، وفئة المعنيين بشئون السياسة والاقتصاد، بالنسبة لجلسات الـصباح، واشـتركنا معـاً في مناهج المساء، وحلقات النقاش، وبرامج الدعوات، وألوان النشاط الأخرى..

* * *

طرحـــت في جلـــسات الـــصباح بعـــض مـــشكلات الأدب الأمريكي المعاصر، ومشكلات النقد بشكل عـام، واحتـل الـشعر ممثلاً بـ« لويل» مكاناً كبيراً، كما نوقشت بعض الاتجاهات المسرحية الحديثـة، وبعـض المـسرحيين كـ بيكيتوتينـسيويليامز، والقـصة المعاصرة واتجاهاتها الحديثـة، وكانـت الحملـة شـديدة عـلى بعـض الروائيين من أمثال سالينجر.

أسهمنا جميعاً في هذه المناقشات، ولكننا لم نستطع أن نطرحهـا على صعيد الأدب المقارن، لأن من ناقشنا معهم هذه الموضوعات، من الأمريكيين، لم يكونوا على صلة بآداب الأمم الأخرى، ولأنهـم كانوا أحرص على البقاء في الجو الأمريكـي، وضـمن إطـار الأدب الأمريكي.

أشرف على جلسات الصباح هذه« جاك لودڤـيج»، وهو ناقد وقاص وأستاذ في جامعة نيويورك، عرفنا فيما بعد أنـه يهـودي، كـما

اكتشفنا أن جانب الادعاء في شخصه أكبر بكثير من طاقته الفكرية أو الثقافية، وأنه كان يتلمس الفرص كي ينحرف بالنقاش الأدبي إلى منحى سياسي، ظاهره الإيمان بالاتجاه الإنساني، والانتصار لليسار الحر، والنفور من سياسة الحكومة في ڤييتنام، وشجب موقفها من الزنوج، وحقيقته -كما انكشفت فيما بعد - ارتباط وثيق ببيئته العنصرية، وزيف في هجومه على سياسة الحكومة، أو انتصاره للزنوج.

كانت الأفكار الرئيسية التي حاول أن يعرضها ترتبط بظاهرة حديثة، تفصل الفرد عن مجتمعه، بل وتبتره عنه بتراً شديداً، بحيث يبدو الالتزام رجعية وضيقاً في الأفق، والتحرر تحدياً للمجتمع وقيمه، وما يلتقي الناس عليه، أو ما يحتاجون له، والعبقرية هدماً لكل ما يمكن أن يبني هذا المجتمع. أما الكتّاب اليهود عنده فهم هم الخاصة، من حياتهم الفكرية والفنية أمثلته، ومن اتجاهاتهم ترتسم في ذهنه خيوط الحركة الأدبية والفكرية في أمريكا، ونتاجهم هو المثل الأعلى دائماً .. وهم أبداً «الطلائع»، وهو لا يعرض أفكاره المرتبطة باليهود هذه عرضاً مباشراً، ولكنه يدسها دساً، كان يخفى في بادئ الأمر، ثم بدا واضحاً، وضاق به أكثر الأعضاء.

أما تشويه قضية الزنوج فقد اتخذ عنده معنىً أدبياً، وجاء عن طريق مناقشة القصة الشهيرة «الرجل اللامرئي« للكاتب الزنجي «رالف أليسون».. ولقد فوجئنا باعتبار هذه القصة القصة الأولى، وباعتبار كاتبها القاص الأول في أمريكا... لقد كتبت ببراعة، دون

شك، ومثلت لوناً من ألوان الدراما العنيفة المفجعة، وتركت في النفس أثراً حزيناً عميقاً، ولكنها، إلى جانب ذلك، لم ترقَ إلى أن تكون القصة الأولى فنياً، بل كشفت في جوانب منها عن لعبة سياسية واضحة، واقتنع كثيرون منا أنها أطروحة سياسية، عرض البيض آراءهم من خلالها، ثم مجدوها، لأنها تمثل موقف الزنجي كما يريدونه هم، وقد تأكد لنا أن ناقدين معروفين قد توليا مراجعة القصة أكثر من مرة، واقترحا إعادة كتابة فصول منها أو مقاطع.

واعتبر لودفيج القصة سابقة لهذه المرحلة التي تعيشها الولايات المتحدة، لأنها في مستوى أعلى من مستوى التعصب، ذلك أن أليسون يعتبر نفسه فيها إنساناً قبل أن يكون زنجياً!!

ودعي«أليسون» ليناقش معنا قصته، فكان في نقاشه أشد بياضاً من البيض المتعصبين، ومثل في نظري، ونظر بعض الأعضاء، الإنسان الذي يبيع قضيته وكرامته، وكان هزيلاً في ردوده إلى حد بعيد.

حاول لودفيج مراراً أن يحدثنا بحرارة عن موقفه الحر من قضية فييتنام، وموقف زملائه أساتذة الجامعة، ومنّانا بعودة كيسنجر -يهودي- المشرف الدائم على هذه الندوة، ونصير الشعب الفييتنامي.. والخبير الذي يعرف من مداخل القضية ما لا يعرفه غيره.. وأكد لنا أن فصل الخطاب ما سيقوله زميله هذا الذي يتسم بالموضوعية والجرأة والانعتاق من القيم المفروضة، والقدرة على الرؤية السليمة، والإخلاص الأكيد، لشعب فييتنام.. وعاد

كيسنجر بعد غياب شهر أو أكثر، فإذا حديثه، من أوله إلى آخره، لون مقنّع من ألوان الدفاع عن السياسة الأمريكية في ڤييتنام، وشكل من أشكال التبرير، وإحجام عن النقاش الجدي للموضوع، مع بعض من أحبوا أن يناقشوا جوانب منه، ودورة في فراغ، حصيلته أن درب الإنسانية الوحيد، والانتصار للقيم الحرة في العالم، يعنيان متابعة أو دعماً للخط الذي ترتئيه الدولة في أمريكا، وأن قوى العالم ينبغي أن تتكتل لتحارب الصين الشعبية، واتجاهاتها الإرهابية، وأكد غير مرة أن روسيا وأمريكا قد اتفقتا على ذلك في ڤييتنام، وأن أمريكا قد لجأت في محاربة الصين إلى دعم النفوذ الروسي هناك، وقد نجحت في ذلك إلى حد بعيد.

* * *

اعتمدت مناهج المساء على مجموعة من المحاضرين الضيوف الذين مثلوا الصحافة والنقد ورجال السياسة وزعماء بعض الحركات، وكان أكثرهم يمثل خط الدولة، في الاتجاهات الخارجية والداخلية على السواء، كما مثل بعضهم التعصب الأمريكي المكشوف، ومثلت قلة منهم المنطق العلمي الرصين، والنقاش الهادئ الموضوعي، والبحث السليم عن موقف صحيح، ولعل خير من تحدث هو جيمس فارمر، زعيم حركة الكور الزنجية المعروفة سابقاً.

والجدير بالذكر أن أكثر من دعوا للحديث كانوا يهوداً، وأن أكثر أمثلتهم، في أحاديثهم، قد انتزع من حياة اليهود الاجتماعية أو

الفكرية أو الفنية، مما لاحظه الأعضاء جميعاً. أذكر، على سبيل المثال، ناقداً أدبياً معروفاً «فيدلر» دعي للمحاضرة مرتين في يوم واحد، ودعينا لتناول طعام الغداء معه، وكان تافهاً في محاضرتيه إلى حد بعيد، ولقبه أعضاء ندوتنا بالمهرج، غير أن المسئولين خصوه بكثير من الحفاوة، ولم يرتاحوا لأسلوبنا في نقده، أو التعليق على حديثه.

ولقد شعرنا جميعاً أن المحاضرين والباحثين والمناقشين أدنى من حيث الرسوخ والتفتح والمنطقية والأصالة، من نظرائهم في الجامعات الغربية، وأن الحياة العقلية، بشكل عام، ما تزال أقل في مستواها، من الحياة العقلية في الغرب.. وأن الرصيد الكلاسيكي هنا أضأل بكثير منه في أوروبا، وقد يفسر هذا ظاهرة استقطاب مجموعة من أساتذة الغرب والشرق، يغريهم المسئولون بالمال، ويحملونهم على الحياة في أمريكا، والعمل في جامعاتها. ويتنبأ بعض المتنبئين بأن هذه العملية قد تسهم في رفع المستوى العام، وفي خلق جو فكري أرقى، يضاهي الجو الفكري في أوروبا.

* * *

تلقينا عديداً من الدعوات، في بيوت من مستويات مختلفة، دعينا إليها أحياناً دعوات جماعية، ودعي إليها أحياناً أفراد منا، ولقينا الكثير من الحفاوة والتكريم، وأتيحت لنا فرصة مناقشة أمور كثيرة، ترتبط بقضايا ذات طابع عالمي، وببعض قضايانا، كقضية الصهيونية.. والجدير بالذكر أن بعضاً ممن يسمون أنفسهم «أصدقاء

الندوة»، وممن أبدوا الكثير من السخاء في دعواتهم، كانوا يهوداً، كما عرفنا فيما بعد.

دامت هذه الندوة نحواً من سبعة أسابيع، وانتهت يوم الرابع والعشرين من آب، وأعد لنا برنامج أسبوع في واشنطن، قابلنا فيه مسئولين على مستوى وزراء، كما قابلنا روبرت كنيدي، وتناولنا بالنقاش بعضاً من شئون السياسة والاقتصاد، وسأعرض لبعض آرائهم فيما بعد.

* * *

يبدو أن الهدف الرئيسي لهذه الندوة، هو التعريف الدعائي بالحياة الأمريكية بمناحيها المختلفة، الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، والدفاع عن السياسة الخارجية الأمريكية، وتبريرها، في ڤييتنام خاصة، ولقد كانت هذه الندوة بمجموعها تجربة ثمينة، كشفت لنا جوانب من قضايا ذات شأن، في طليعتها قضية اليهود.

اليهود في كل مكان هناك، يجدون سبيلهم إلى كل المواضع الحساسة، في مجال العمل العام، وتغص بهم الجامعات والندوات، ويسيطرون سيطرة حازمة واعية، على مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات السياسية والأدبية، حتى تلك التي تصدرها الجامعات، ويتعصب بعضهم لبعض حتى ليتوهم من يلتقي بأناس منهم أنهم هم أمريكا، وأن الفكر خارج إطارهم مزور، وأن النخبة الممتازة هناك، أو في الغرب، يهودية، بالضرورة، وأن أحداً لا يوازيهم في عطائه الإنساني، كما لا يوازيهم فيما تحمّلوه من تشرد واضطهاد، وسعي وراء لقمة العيش.

ولقد أحاطوا بنا هناك، كما سبق أن أشرت، وكنا حيثما تلفتنا وجدنا بيننا يهودياً، أو مجموعة يهود، يتحدثون عن الإنسانية والاتجاه الإنساني، وحين يعرض موضوع إسرائيل، وكثيراً ما يعرض، يسقط القناع، ويبرز وجه صهيوني في ثياب مواطن أمريكي، ويتخذ النقاش طابعاً حاداً جاداً، يضعون فيه ثقلهم كله في سبيل الدفاع عن وجود إسرائيل.

تقوم بجانب هارفارد، وعلى مسافة نصف ساعة منها، جامعة يهودية صرفة، تدعى جامعة«براندايس»، وكان، في جملة برامجنا المرسومة، زيارتان لهذه الجامعة، احداهما للقسم الذي يعد ما يسمونه«إرساليات سلام»، تهيأ فيه شبكات من الشباب والشابات، للحياة في أماكن متفرقة من العالم، باسم تعليم الأميين، ورفع مستوى الريف الخ.. وأكثر طلابهم يهود.. والزيارة الأخرى لقسم الموسيقى الالكترونية، ولم يكن جديراً بالزيارة لولا أنه يهودي!!

اليهود في كل مكان.. ولم ينصرم يوم واحد دون سلسلة مناقشات معهم، أو مع أنصار لهم، أو دون رد على تخرصات مندوب إسرائيل، وإشاعاته ودعاياته، وأحب الآن أن أوجز بعض الحجج التي كانوا يتقدمون بها، والتي لاحظت أن بعضها قد غدا كليشيات متواترة، يسمعها السامع من كثيرين، وفي مناسبات مختلفة، وحين يعييهم الرد، وتعجزهم الحجة يقول أكثرهم: لم يكن ينبغي أن تنشأ دولة إسرائيل في قلب العالم العربي، ولكنها الآن أمر

واقع، وأمريكا مصممة على الحفاظ عليها وحمايتها، ولا سبيل لحل هذا الموضوع بشكل يرضي العرب إلا عن طريق الحرب، والحرب مأساة لا تليق بعقلية القرن العشرين!! ويؤكدون أن الدول الشرقية، بما في ذلك روسيا -إذا استثنينا الصين الشعبية - معهم، ولن ترضى بحل مثل هذا الحل، والعلاقات ودية إلى أبعد حد بين هذه الدول وإسرائيل.

يقولون: اشترى اليهود الأراضي العربية كلها، ولا حق للاجئين بها.

ويقولون: حمت بريطانيا العرب، وحاربت فرق بريطانية إلى جانبهم.

ويقولون: كان عدد اللاجئين العرب خمسمائة ألف فقط، طرد مقابلهم عدد موازٍ من اليهود من قبل العرب، في البلدان العربية، وسلبوا أموالهم وأراضيهم.

ويقولون : تقرر إنشاء وطن يهودي في فلسطين بعد أن فتك هتلر باليهود!!

ويقولون: إن فكرة التوسع اليهودي أسطورة، ولم ترد أبداً على لسان أحد من اليهود، منذ أن بدؤوا يعملون لإنشاء وطن قومي!!

ويقولون: إنّ العرب جميعاً مستعدون للتفاهم أو الصلح إذا استثنينا سورية.. سورية هي البلد الوحيد المشاكس الذي لا سبيل إلى التفاهم معه!!

ويقولون: إنّ حوادث الاعتداء تبدأ دائماً من الجانب السوري، وسورية تمثل دوماً الجانب المعتدي.

ويؤكدون: أن الصلح هو في صالح العرب، وإسرائيل التي تمثل بلد النخبة، تستطيع أن تدعم الاقتصاد العربي، وتمد بالخبراء والفنيين والأموال اللازمة، وتخرج المنطقة كلها من دوامتها!!

ويؤكدون: أن إسرائيل مستعدة لإعادة قسم من اللاجئين وتمويل القسم الآخر، حتى يغدو منتجاً، شريطة أن يقبل العرب بالصلح.

ويؤكدون: أن اليهود قد قلبوا وجه الحياة في فلسطين فغدت بلداً صناعياً منتجاً، ليس فيه أميون أو متعطلون، وأن التعليم بمختلف مناحيه مزدهر، وليس هناك أزمة جامعات أو متخرجين أو أزمة فنيين، بل هم يمدون الدول المتخلفة بكثير من المعونات الفنية الراقية، وقد أحالوا فلسطين إلى جنة، وهم من أجل ذلك أحق بها!

ويتبجحون بأن إسرائيل هي البلد الديموقراطي الوحيد، في منطقة الشرق الأوسط كلها، وأن بنية المجتمع الإسرائيلي بنية صناعية منتجة نادرة.

ويهاجمون فكرة الوحدة العربية، ويستشهدون بالحملات الإذاعية التي تشنها الإذاعات العربية، وتتبادل فيها ألوان الشتائم، ويرون في ذلك دليلاً على استحالة التعاون العربي.

وكان الرد على هذه التخرصات سهلاً مقنعاً، لأنها تعتمد على تزييف الواقع والتاريخ، وجهل السامعين بتاريخ أو حياة بلادنا. والوثائق في هذا الميدان متوفرة قريبة، ولقد كسبت كثيرين من

الأنصار، في كل المناقشات التي دارت، وشعرت أنه بإمكاننا كعرب أن نخوض بقضيتنا هذه كل معترك، ونكون نحن الفـائزين. ولقـد كنت ألمح على وجه مندوب إسرائيل كثيراً من الغـيظ في كثـير مـن المناسبات، واكتشفت أن اليهود يناقشون بكثير من الانفعـال، وأن أسطورة العلمية الموضوعية، والنقاش المنطقـي المتـزن، غـير واردة بالنسبة لهم، ولقد استطعت دائماً أن أقنـع دون أن أثـور، وأن أجـد تجاوباً من قبل كثيرين.

يعتمد اليهود، كما ذكـرت، عـلى جهـل الـرأي العـام بتـاريخ بلادنا، وبأسرار الصهيونية، وتاريخ فلسطين، ومـا أكثـر الـذين لا يعرفون عنا إلا أقل من القليل، وإلا ما تقوله الصحف التي يسيطر عليها اليهود، وما أكثر الذين يمكن أن ينطلي عليهم تزييف اليهود.

وإذا كان من الصعب أن يوازي إعلامنا إعلامهم، وأن نتمكن من الاحتكاك بالرأي العام احتكاكهم، لأنهم جزء من الحياة هناك، يملكون أقلاماً تجيد التعبير بلغـات مختلفـة، ويرتبطـون بمـنظمات ومؤسسات علمية وتربوية واجتماعية ذات نفوذ، فقد تأكـد لي أننـا كعرب مقصرون أبشع قصور، وأن لنا لو شـئنا سـبلاً للـدفاع عـن قضيتنا، ودفاعنا لا يتعدى حدود شرح هذه القضية، وإيضاحها في أذهان الناس، فحقنا أبلـج، ونحـن نـستطيع بمنتهـى الـسهولة أن ندحض كل التخرصات، والوثائق بين أيدينا كثيرة مقنعة.

إنهم يحتاجون إلى تزييف التاريخ،

ونحن نحتاج إلى جلائه كما هو،

وهم يحتاجون إلى تبرير عملية قرصنة،

ونحن نحتاج إلى عرض قصة هذه القرصنة على الرأي العام.

وكم ساءني أن أقارن بين مواقفهم الإيجابية المتعنتة، المستميتة في الدفاع عن وجود إسرائيل، ومواقفنا نحن السلبية الميتة، في إهمال كثير من الواجبات التي يرتبط مصيرنا بها.

لقد ذكر، في معرض النقاش، أكثر من يهودي، وعدد من أساتذة الجامعة اليهود هناك، أنهم رغم اتجاهاتهم الإنسانية، وقناعتهم بأنهم مواطنون أمريكيون، يدفعون جزءاً من رواتبهم، كل شهر، تبرعاً لإسرائيل..

وأن أكثر الشباب الذين ينجزون دراسة الطب أو الهندسة أو غير ذلك من الاختصاصات الفنية أو الأدبية، يضعون أنفسهم متبرعين، وعلى اختلاف جنسياتهم الرسمية، تحت تصرف إسرائيل، كي يعملوا فيها، أو في أي بلد تنتدبهم للعمل فيه.

وكانت السفارة، في نيويورك، تمد مندوب إسرائيل بنشرات دائمة، ومعلومات متصلة، وخصوصاً عن حوادث الحدود مع سورية -وقد أثرتها هناك في أكثر من مناسبة، وكانت إثارتها مثمرة - وبقيت جهودنا نحن فردية.

ولقد شعرت أن دور سفاراتنا يمكن أن يكون كبيراً في الخارج، وخصوصاً في بلد كالولايات المتحدة، وأنه ينبغي أن تخرج بلادنا من عزلتها خروجاً قوياً، عن طريق السفارات، فما أكثر من يتساءلون عن سورية أين تقع؟ وعن سكانها ما شأنهم ومن هم؟

وما أجدى أن تعنى سفاراتنا بتنظيم العرب الموجودين هناك، طلاباً أو مهاجرين، وتنسيق التعاون بينهم، وخلق جو مؤمن يتبنى قضايانا، ويدافع عنها.. ومن العار أن يتهرب الفنيون في بلادنا من العمل في بلادهم وهي في أمس الحاجة إليهم، في حين يتبرع اليهود طائعين بالعمل في افريقيا مثلاً أو إسرائيل، ومن العار أن يجمع اليهود المال لإسرائيل، على اختلاف نزعاتهم، وألا يصنع العرب وبينهم أثرياء ومشاهير شيئاً من هذا القبيل.

تمنيت أن نكون أكثر إيجابية في الخارج، وأشد نشاطاً واهتماماً بقضايانا المصيرية هذه.

ولقد تبين لي من المناقشات الكثيرة مع زملائي في الندوة، أن كثيرين أيضاً لا يعرفون وجه القضية الحقيقي، وأن الدعاية اليهودية قد سبقت إلى أذهان كثيرين، وكان أمراً جيداً أن تتاح لي فرصة تصحيح بعض المفاهيم.

ولقد قال لي مندوب دولة شرقية: إن اليهود في أوروبا الشرقية كاليهود في كل مكان، يحسون أنهم يهود قبل كل شيء، ويقومون بالدعاية لإسرائيل. إن الموقف الرسمي لهذه الدول مع العرب، ولكن كثيرين من مواطنيه لا يعرفون قضايا العرب كما ينبغي أن تُعرف، وضرب على ذلك مثلاً تشيكوسلوڤاكيا، إذ يسيطر اليهود فيها على الإنتاج السينمائي، ويقومون بدعايتهم بشكل خفي، وقال لي فيما قال: إنه يعتقد أن العرب مقصرون في هذا المجال، وانه ينبغي أن يعتمدوا أيضاً على التأييد الشعبي لا على التأييد الرسمي فقط.

ولقد كان بين مندوبي أوروبا الشرقية مندوب من يوغوسلافيا، شاعر وناقد وناشر، دعم بقوة قضيتنا، ودافع عن العرب في أكثر من مناسبة، وأبدى كثيراً من التفهم الواعي لشؤوننا.

ولا أنسى هنا أن أشير إلى حادثة صغيرة ذات دلالة، ترتبط بتغلغل النفوذ الإسرائيلي في افريقيا، إذ وقف مرة صحفي من نيجريا يقول: إن بلاده قد اختارت الشيوعية مذهباً، وهي مصممة على السير في هذا الطريق، وسأله أحد اليهود عن علاقة دولته بإسرائيل فأجاب: إننا في نيجريا، بل في افريقيا، نكن وداً عميقاً لإسرائيل، بل ونشعر أننا مدينون لها، لأن مشاريع توليد الطاقة من الكهرباء في افريقيا كلها، قد قامت على جهود فنيين من إسرائيل.

أما قسم الدراسات الاستشراقية في جامعة هارفارد فهو في أيدي اليهود، يدرِّس العربية فيه مدرسون يهود أيضاً، باستثناء قلة مهم، وقد ربط قسم الدراسات الإسلامية هناك بقسم الاستشراق القديم، حتى يضمن اليهود تسللهم الدائم إليه.

* * *

يحاول اليهود في أمريكا أن يتسللوا إلى بعض الحركات الزنجية، وأن يدعموا بعض الزعماء الزنوج، ومن هؤلاء المحاضر الذي سبق أن أشرت إليه أعني «فارمر» يرمون من وراء ذلك إلى الانحراف باتجاه هذه الحركات أو هؤلاء الزعماء، إذ إنّهم في حقيقتهم وواقعهم عنصريون متزمتون أكثر من غيرهم، وقد

كشفهم الزنوج، كما تبين لي من أحاديث كثيرة مع زنوج مسئولين أو عاديين، وكما أكدت لي زميلة في الندوة من غانا -كاتبة وشاعرة معروفة - نشأت بيني وبينها صداقة ودعمتها ودعمتني في المناسبات التي ترتبط بالزنوج أو اليهود، وهي على صلة وثيقة بالحركات الزنجية.

والخلاصة هي أن الزنوج عموماً لا يثقون باليهود، أو برغبة اليهود الصادقة في دعمهم، أو النضال من أجلهم، رغم الهالات التي يرسمها هؤلاء، ومظاهر التحرر التي يتخذونها.

* * *

واليهود في أمريكا على الأغلب أصداء دعاية للحكم، بينهم وبين الدولة ود موصول، وارتباط بخط يلمحه من يستمع إلى يهودي يتحدث عن سياسة الدولة، وصحافيوهم ملتزمون –على ما يبدو - التزاماً ذكياً، وقد يشذ أفراد منهم أو تسمع أصوات نشاز، ولكن أغلبهم على ما ذكرت، والمتتبع لكتّابهم ومفكريهم ومحاضريهم ينكشف له موقفهم دون عناء.

* * *

تتركز الدعاية الصهيونية الآن على إقناعنا بأن هناك فرقاً كبيراً بين يهودي أمريكي ويهودي صهيوني، وأن العداء على أشده بين الاتجاهين، وأن الصداقة ممكنة بين اليهودي الأمريكي والعربي، ولقد تأكد لي أن الفرق بينهما لا يقوم على أساس التنكر لإسرائيل كدولة، فكلاهما يؤمن بوجودها ووجوب حمايتها، ولكن اليهودي

الأمريكي حريص على الحفاظ على جنسيته، لا يريد لها أن تكون مزدوجة، وهو يعتقد أنه يكون أشد قدرة على حماية إسرائيل، حين يبقى أمريكي الجنسية، أو حين يتحدث عن ولائه لأمريكا.

ومن أنجع الوسائل في محاربة اليهود في أمريكا، الإلحاح على معنى المواطنة الذي يتنكرون له، والتذكير بما يتمتعون به في أكثر من بلد، وفي أمريكا على الخصوص، من حقوق، وإحساسهم مع ذلك بأنهم يهود قبل كل شيء، وفوق كل شيء، وذلك أمر يثير المواطن الأمريكي، لأنه واقعي ولأنه يعاني منه، كما يزيد من شعوره بوطأة التعصب اليهودي، ومن سخطه عليه(١).

ولقد لقيت أناساً في حلقات مختلفة - فيهم الشاعر والكاتب والمواطن العادي - أكدوا لي أنهم ساخطون أشد السخط على الأسلوب اليهودي، وأنهم يفهمون منطق العرب وموقفهم، وشعرت أنهم تربة خصبة، لرد معاكس على الدعايات الصهيونية، يكشفها من الداخل، لو استطاع العرب أن يفيدوا منهم.

وقبل أن أترك موضوع اليهود أحب أن أشير، على سبيل المقارنة، إلى الجهد السياحي الذي تبذله إسرائيل، والجهد العربي.. في كل شركة أو مكتب سفر رسمي أو غير رسمي، دعايات مصورة بارزة لإسرائيل... وفي كل فندق كبير نشرات سياحية مصورة،

---

(١) كسب اليهود العطف العام مع إنشاء وطن قومي، حين كانوا مضطهدين في أنحاء متفرقة من العالم، أما الآن، وبعد أن زالت أسطورة الاضطهاد، فقد صار بإمكاننا أن نفيد من تنكرهم لمعنى المواطنة في كسب الرأي العام.

تحض على زيارة إسرائيل، ومصر هي الدولة العربية الوحيدة التي توزع إعلاناتها على مستوى سياحي عال، أما سورية فكأنها لا تعيش على هذه الأرض.

*　　*　　*

أنتقل لآن إلى موضوع هام، كان هدفاً رئيسياً من أهداف الندوة، وكان يطرح كل يوم تقريباً، ثم طرح بحدة في واشنطن مع المسئولين، وكانت أكثر الآراء التي سمعناها في هذا الموضوع متقاربة متساوقة مؤداها:

أن أمريكا تدافع عن الديمقراطية، بقصف هانوي وغيرها من المدن..

وتصون حياة الڤييتناميين عن طريق تدمير الحياة..

وتحمي بذلك أنحاء أخرى من العالم، ستغزوها الصين حين تتمكن من السيطرة على ڤييتنام.. ذلك أن المد الصيني سيبلغ - لو تراجعت أمريكا - نيوزيلاندا واستراليا وغيرها من البلدان.

وأن أمريكا تدافع عن كبريائها كدولة أيضاً، فهي لا تريد أن تسجل هزيمتها وانتصار الصين.

وهي تؤدي رسالتها الإنسانية بتبني الدفاع عن الحريات في العالم، مهما كان أسلوب هذا الدفاع!

وهي ولا شك مبتئسة حزينة، تود لو لم تضطر إلى استعمال العنف واللجوء إلى القصف، ولكنها لم تجد سبيلاً آخر!!

الصين عندهم هي الخطر الذي يهدد الإنسانية، وهم من أجل ذلك قد التقوا على خطوط عريضة مع روسيا في ڤـيتنام، يمكنـون لها هناك لأنها أقدر على حرب نفوذ الـصين الـشيوعي، ولقـد ذكـر ذلك لنا مسئولون رسميون، حين لقيناهم في واشنطن. أما كينيدي فقد أعلن استياءه من استعمال العنف، ولكنه ذكر أيضاً أنه ليس ثمة من سبيل آخر.

إنهم يودون أن يعبئوا الرأي العام العالمي، ليكـون حربـاً عـلى الصين ودعماً لهـم في ڤــيتنام، باسـم محاربـة الـصين، ويعارضـون بعنف ما بعده عنف، فكرة أي تفاهم مع الصين، ولا يتقبلون أبـداً احتمال قبول الصين كعضو في هيئة الأمم... وحـين نـسألهم كيـف يمكن أن يتجاهلوا سبعمائة مليون يعيشون عـلى ظهـر هـذا العـالم، ويصروا على خصامهم وتحديهم، يكون ردهـم الـذي لا يرجعـون عنه، ولا يناقشون فيه، أن أي اعتراف بهم سيشجعهم على مزيد من العدوان، وهـم خطـرون شرسـون لا إنـسانيون، ومـن الـضرورة بمكان أن يحاصرهم العالم ضمن إطار حدودهم.

غـير أن كثـيرين مـن المـواطنين، والطـلاب مـنهم خاصـة، ساخطون على سياسة الحكومة في ڤـيتنام وإزاء الصين، لا تخدعهم الأقاصيص التي يـشيعها المـسئولون، ويـودون لـو يـستطيعون أن يحموا أبناءهم على الأقل من وطأة الحرب هناك.

أمـا الزنـوج فوضـعهم بـائس، إلى أبعـد حـد، بالنـسبة لهـذه القـضية، إذ إن الـسلطات تعمـد إلى إكـراههم عـلى الاشـتراك في

الحرب، وتعد فرقاً زنجية كاملة للعمل في ڤـيتنام غير عابئة بـرأي الزنوج في هذا الموضوع.

والجدير بالذكر أن كثيرين لا يحسون خطـر الـصين، بالـشكل الذي تحسه الحكومة، أو تصوره، بل إن هناك أسطورة بدأت تـشيع مؤداها أن الإنجيل قد وعد العرق الأصفر بالسيطرة يوماً مـا عـلى العالم!! والورعون المتقبلون لهذه الرواية، يتمنون لو يكـون موقـف الحكومة أكثر تعقلاً في قضية الصين!

وكان معنا صحفي من كوريا، مهمتـه عـلى مـا يبـدو تـصوير فظائع ما صنع العرق الأصفر، بشكل سيثير من يـسمعه، أو يوهمـه بأنهم وباء إنساني، وأن محاربتهم واجبة.. ولكن أكثر أعضاء ندوتنا كانوا سـاخطين عـلى الـسياسة الأمريكيـة في ڤــيتنام، ولم يتقبلـوا موقف أمريكا من الصين.

* * *

أما فيما يتصل بقضية الزنوج في أمريكا، فما يتصور متصور أن يشهد في القرن العشرين، تراجيديا أعنـف ممـا يـشهد عـلى مـسرح الحياة في أمريكا كل يوم، وفي كـل منطقـة، حتـى في الأجـزاء التـي تعتبر متحررة مفتوحة.

وما يدري الإنسان كيف تتحدث أمريكا عن الحريات، وحماية الديموقراطية، وما تزال هي تعيش في جو مـن التمييـز العنـصري، رهيب، يهون معه أحياناً الرقيق، بالأسلوب الـذي كـان شـائعاً في العصور القريبة.

وهذه أحياء الزنوج البائسة المنعزلة تشهد، في كل مدينة، على معنى الحرية في أمريكا.. على الاضطهاد المفجع الرهيب الذي تطمسه الدعاية، ولا نكاد نسمع نحن عنه إلا أقل من القليل، على كثرة ما نسمع.

ولقد أتيحت لي فرصة متابعة هذا الموضوع هناك، كما أتيحت لي فرصة الحديث إلى كثيرين من الزنوج، والاستماع إلى بعض زعمائهم المعروفين، وانكشف لي وجه بائس من وجوه الحياة، لا تستطيع أن تطمسه ناطحات السحاب، ودعايات الحرية والتحرر، وسيبقى عاراً يدين إنسانية القرن العشرين.

* * *

وفي أمريكا بعد ذلك، بلد الرفاه والثراء، مظاهر بؤس وتشرد[1]، لا يصعب على السائح العابر أن يلحظها، ولا ينفرد بها الزنوج، بل يصيب البيض منها نصيب.

وفي أمريكا أيضاً ظواهر اجتماعية كثيرة، كانت جديرة بالتعليق عليها، لولا أنها لا ترتبط بتقريري هذا.

* * *

---

(١) حي الباوري في نيويورك خير مثل على ذلك. إنه صورة بائسة للحطام الإنساني الذي يعيش على فتات الشارع، ممثلاً بعشرات من الناس لا مأوى لهم، ينامون على الرصيف.. وجوههم كالحة، وملابسهم ممزقة، يعبر بهم السائح فيقال له إنهم مرضى مدمنون، ولكنه يقتنع بأنهم فقراء معدمون، لم يجدوا لهم مأوىً في رحاب أروقة الناطحات المرمرية، في المدينة التي يرشحونها كي تكون عاصمة للعالم، تعكس أرقى مستويات التطور الإنساني!!

وأخيراً فأنـا أرى ألا يغيـب وجـه سـورية عـن أي محفـل، أو ندوةٍ، أو مجمع دولي، وأن يُسمع العرب كلمـتهم، وألا يـترك الجـو لإسرائيل، أو اليهود وأنصار اليهود.

* * *

تلك هي ملاحظاتي، وقد تعوزها الدقة أحياناً، أو المزيـد مـن الموضوعية، وقد يصحح الزمن بعض ما استنتجت، أو تـصورت، أو صورت، أو يؤكده[1].

(١) أتساءل وأنا اقرأ هذا التقرير الذي كتب قبل نصف قرن تقريباً: تُرى هل تغيرت الأمور في بلداننا وفي إسرائيل وفي توجهات السياسة الأمريكية، أم ظلت على حالها، أم ازدادت سوءاً؟ وماذا فعل العرب؟ وأي جرح راعف ازداد عمقاً في حياتنا..

التراث ذاكرة المستقبل(*)

التراث انتماء وهوية، وألق حضارة،
وحكاية تاريخ، ومجد إبداع..

* * *

في الشهر الثالث من عام ثمانين وتسعمائة وألف، أقمنا أسبوعاً للثقافة السورية في البلد العزيز - الكويت -

وقلت آنذاك، في الكلمة التي افتتحت بها الأسبوع الثقافي: «من دمشق، حيث التاريخ بداية كان، وأسطورة يبقى، آتيكم رسولة كلمة لا ضيفة شرف، فما بين الشآم وبينكم أخوة دم إلى الأجداد ترقى، وصلات حضارة إلى القومية تنتمي، وآصرة كفاح على اسم العروبة وفي سبيلها تتوثق»..

ولم يكن في ذلك الكلام شطط، ولا اعتداد بما كان، وإغفال لما ينبغي أن يكون، فقد حاولتم وحاولنا، وسعيتم وسعينا، واحتضنتم حركة ثقافية نادرة المثال، في تبنيكم معهد المخطوطات، وإصداركم سلاسل رائعة من الكتب والمجلات الحافلة بالمواضيع القيمة، ولقد

(*) أُلقيت هذه المحاضرة في دار الآثار الإسلامية، في الكويت عام ٢٠٠٧.

قدمتم للقارئ العربي، وبأسعار رمزية، كل هذه الكتب والمجلات التي احتلت مكان الصدارة، ثم حققتم مشروعاً ضخماً كان أقرب إلى الحلم، أعني وضع استراتيجية للثقافة العربية، بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ومن حق الراحل الكبير، والصديق العزيز المغفور له عبد العزيز الحسين أن أذكر له بعرفان أنه هو الذي تعهد هذا المشروع وتبناه، وأنفق عليه بسعة، واستدعى عدداً كبيراً من المثقفين العرب يقارب الستمائة، للتعاون من أجل إنجازه، على الصورة الأقرب إلى تحقيق الغاية منه، ليكون الدليل للعمل الثقافي العربي، في بلداننا المختلفة، وأشهد أنه ما يزال حتى هذه الساعة، أفضل نص عربي مشترك، وضع في هذا المجال، وكان ما جاء فيه عن الثقافة والتراث الذي هو من أهم مكوناتها، جديراً بأن يدرس، ليكون مرجعاً معتمداً لقضايا كثيرة، في العمل الثقافي العربي، بمضامينه، والأسس التي أرسى.

وإذا جئتكم اليوم لأتحدث عن الثقافة، وعن التراث المؤسِّس لمنظومتنا المعرفية الحضارية العربية، أكون بالتأكيد، وبعد كل ما ذكرت،«كحامل التمر إلى هجر»، لولا أن الإلحاح على هذا الموضوع، لإبقائه في بؤرة الضوء، جدير بأن يحظى منا باهتمام بالغ، تستدعيه ظروف دولية وإقليمية غير مواتية، وساحة عربية تمور بتيارات فكرية متباينة، تتقاطع وتتعارض، تلتقي وتفترق، ووجهات نظر تتحاور أو تتصارع، في حين ما نزال، جميعاً، نراوح على مشارف النهوض وتخوم التخلف، وعلينا في كل ذلك، أن ننفي

ما علق في الذهن من مقولات تفترض، والمنطق مُغالط، التناقض بين التراث والحداثة، ويبدو، معها، الأمر حدّياً: الانعزال ضمن الموروث، والنأي المنجي عن متغيرات العصر - أو نبذ هذا الموروث ليكون ممكناً تحقيق التطور والنهوض، لأمة ترفع شعار التنوير، وتسعى إلى الارتقاء الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي، بالمعرفة وآخر مستحدثات التقنيات، وبكل الوسائل والأساليب التي تنأى بها عن الغرق، في سيالة زمن بعيد مضى وانقضى، بمعطياته التي تستجرنا إلى الأمكنة الرمادية، أو الفضاءات المظلمة..

إن سقوط مشروع النهضة التي انبثقت في مطالع القرن العشرين، قد طرح الكثير من الأسئلة والتساؤلات القلقة والمقلقة، على مجتمعاتنا المحبطة، دون درس عميق، وتحليل دقيق لأسباب ما حدث. وأخذت بعض التيارات الفكرية والسياسية تحمِّل تراثنا والتغني به، وباستسهال كبير، مسئولية انكفائنا، وتخلفنا، وتنادي بالتالي، بالقطيعة مع ماضينا كله، وتبنّي مشاريع ضبابية، تتدثر بعباءة الدفاع عن إيقاظ الوعي، واستنهاض المستقبل - تنادي بقطيعة مع التراث، وكأنه هو فعلاً المسئول عن أوضاع الراهن، بل لقد مورس، في بعض الأحيان، انتهاك أليم لهذا التراث، بالعدوان على أنبل صفحاته، وأبهى رموزه، أعني شعراء العربية الكبار، أبا تمام والمتنبي وأبا فراس الحمداني وغيرهم، وأدبياتنا الرائعة، وبطولاتنا التاريخية، وفتوحاتنا العلمية، وبداوة صحرائنا الجليلة، تمشياً مع ما يقوله غير المنصفين من المستشرقين، وكان في تصور

هؤلاء، وأولئك، أن الالتحاق غير المتبصر، بكل ما هو غربي أو أجنبي، هو سبيل التقدم والارتقاء..

وكان الكثيرون، في المقابل، يرون في التخلي عن التراث، والتنكر له، والاقتداء بالآخر الأجنبي، ضمن هذه المفاهيم المغلوطة، تحت اسم المعاصرة والحداثة والتقدم العلمي والتقني، نمطاً من أنماط الانتحار المجاني، وأن الأمم، ونحن في الطليعة منها، إنما بالتراث تمتلك وجودها الشمولي الذي يصنعه تاريخها المعرفي، كما تمتلك مداها الحيوي الذي يعطيها أن تكون جزءاً من زمن كوني، بعيد الأغوار، موصول بالحاضر، مستشرف للمستقبل، كما يمنحها وعيها التاريخي الذي هو ضرورة من ضرورات الحياة، في شرطها الإنساني.

المعادلة لم تكن صحيحة، ومقولة الحدّين المتناقضين: التراث والحداثة أو المعاصرة، مقولة مغالطة، والإشكالية التي تنامت في بعض الأوساط، وصار لها انعكاساتها السياسية، على الساحة العربية، تنتمي إلى فهم خاطئ للأمور، وتحيّز غير مبرر، واختزال لمفهوم الثقافة غير القابل، في سعته واستيعابه، للانفصام بها عن كليتها وشموليتها، وتاريخيتها واستمراريتها، في منظومتها المعرفية، وعمقها الزمني من جانب، أو عن تجددها وحداثتها، ودورها المتقدم في بناء الإنسان ووعيه، للارتقاء بالحياة، وصنع التقدم، ورسم حدود المستقبل المنفتح على الممكن، في عصر الثورة التكنولوجية، ثم المعلوماتية، وفتوحاتها الالكترونية من جانب آخر، وفي ظل المتغيرات الكونية التي هزت العالم.

هيجل يقول: «بنياننا الثقافي متكامل تكاملاً تاريخياً» وميرسيا إيلياد يقول: «الإنسان المعاصر يقدّم نفسه ككائن تاريخي، تشكّل بفعل تاريخ الإنسانية بمجموعه» ويؤكد دوكويار، في تقرير التنمية الثقافية الذي أعدته لجنة شكلتها منظمة اليونيسكو برئاسته، وهو يتحدث عن الدور الذي يمكن أن تلعبه الثقافة في ولادة عالم جديد: «الصورة الأوربية للحداثة كانت تتنازعها يقينيات العقل وقناعات الموروث».. ولم يكن أحد يشكك في أن الحامل الإبداعي للتطور ترتبط عصريته بتراثيته، وأن التراث يقدم أرضية للبنيان الحضاري والفكري المقبل، ويشكل مساحات التنوير فيه، وبه يتصل ما كان بما هو كائن، بما سيكون، وتلتحم حلقات المسيرة الحضارية، ليبقى الموروث الحضاري المتلألئ في الذاكرة، رسالة وعي وجودي وإنساني، يقف سداً منيعاً أمام عملية تفتيت الشخصية.

ويتجلى هذا الموقف من التراث بما تنتجه المطابع في العالم، من كتب لا حصر لها، تصدر كل يوم، حول الفلسفة والآداب والدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، منذ فجر التاريخ الإنساني - تعرض وتدرس وتحلل وتترجم وتحقق وتنتقد، وتستعيد، على سبيل المثال، أفلاطون وأرسطو وسقراط وآباء الفلسفة، وعباقرة الشعر والمسرح والرواية، سوفوكليسوفيرجيل، وهومير وشكسبير وبايرون وجوته وإيبسن وجويس وبروست وغيرهم، تجد في هذه الأعمال

التي تقدمها للعالم قضيتها المعرفية، ومداراتها الفكرية التي تُغليهـا، وترى أنها لم تستنفدها، لأنها تعتبرها إرثاً إنـسانياً جـديراً بالتقـصي والتوثيق، يقدم إضافاته الهامة للفكر المعاصر، وللأجيال القادمة.

ولا أريد هنا أن أتحدث عـن حجـم تقـصيرنا بحـق موروثنـا وتاريخنا ولغتنا وحضارتنا التي وضـعتنا يومـاً في جبهـة الـشمس، وأضاءت مجاهل الدنيا، حـين حملـت رسـالة التنـوير إلى العـالم، في أبأس مراحل تخلفه.

ولعله من الضروري أن نذكر، وبتقدير لمنظمة اليونيسكو، أنها عنيت عناية فائقة بإرث العالم الحـضاري، دون تمييـز بـين دولـة أو أخرى، من منظور القوة أو الهيمنة أو الثروة أو الازدهـار والتقـدم، وكانت لها رؤيتها المستبصرة التي انطلقت منها أفكار طليعية، تؤكد إيمانها بالتعددية، ورفـضها للأحاديـة، وحرصـها عـلى أن يعـترف الجميع بأن لدى كـل شـعب، في تاريخيتـه، مـا يـستطيع أن يقدمـه للشعوب الأخرى، وينبغي ألا نطامن من شأن أحد، ومـن واجبنـا أن نوقظ وعي الأمم جميعاً بـذاتها وتاريخهـا وأهميتهـا، أي بحقيقـة وجودها.

لقد أرادت منظمة اليونيسكو، ومنذ بداياتها، أن تـصنع، عـبر التراث، ما هو نتاجه الأسمى، تواصلاً إنسانياً، وكوناً من العلاقات والارتباطات، ترتفع بالإنسانية إلى فضاءات رحبة، مسوّرة بالمعرفة والصداقة والوعي، والموازاة المساوية بين الأمم.

وربما، من أجل ذلك، اتُهمت يوماً بأنهـا لا تقـيم توازنـاً بـين الماضي وموروثه، والحاضر والمستقبل وحاجاته، وأنها، في سياستها

الثقافية، تمنح إنقاذ التراث أكثر بكثير مما تمنح لتطوير الإبداع، مع أن مهمتها لا تنحصر في الحفاظ على التراث، بل على تحريض الخلق، وكان يمكن أن يكون لهذه الحملة تأثير على عمل اليونيسكو في ميدان التراث، انحساراً، أو تباطؤاً أو إهمالاً.

في ذلك الحين، طرحت المنظمة مشروعاً بدا وكأنه شطحة من شطحات الخيال، وكان ضرورياً أن نتابعه باهتمام، فهو يدعو بكلمة شبه مبهمة، إلى «تخصيص حيّز لذاكرة المستقبل» ويرى أن «الحفاظ على هذه الذاكرة هو حفاظ على حقوق الأجيال القادمة» في تواصلها مع تراثها الخاص، المكوّن للهوية والانتماء، ومع الموروث الإنساني المكوّن «لذاكرة العالم».

وحتى لا يبقى هذا المشروع مجرد فكرة جميلة، اقترحت المنظمة على الدول المنتسبة إليها إنشاء بنك عام، وبشكل تدريجي، للصور والبيانات، يحمل اسم ذاكرة العالم. وقد كانت تشيكوسلوفاكيا آنذاك، أول دولة استجابت، فأعدّت أول أسطوانة ليزرية، بذاكرة قراءة، ضمنتها عيّنات لأنفس عناصر المجموعات التاريخية، في المكتبة الوطنية التشيكية. ولم أتابع بعد ذلك، للأسف، ما جرى لهذا المشروع، لكنه ظل ذا وقع خاص في نفسي، لأنني رأيت فيه ضرورة قومية، وسبيل تواصل مع أجيال المستقبل، فنحن لا نبني بالتراث ذاكرة الحاضر فحسب، لكننا نعطي للأجيال المقبلة ذاكرة انتماء، ووعي وجود.

ردتني إلى هذا الموضوع، وبشكل تراجيدي، صدفة لم تكن محسوبة، حين وجدتني منذ أمد قريب، في مدينة فينكس عاصمة

أريزونا، أجوس مواقع للرّوهايد والأباتشي، في محاولة لتكوين تصور ما، عن حياة المتبقين من الهنود، وماذا فعلت بهم الأيام.. ولماذا يتحدثون، في أمريكا عن حضارة قريبة العهد، حديثة، لا جذور لها كجذورنا الممتدة إلى مليون عام من الحضارة، حسبما اكتشف علماء الآثار، وعن قصر شوطهم الحضاري، بالتالي، قياساً إلى بلداننا نحن وبلدان العالم.

وبالصدفة أيضاً، ومحض الفضول، دخلت إلى متحف يدعى متحف هيرد لثقافات السكان الأصليين وفنهم..

في البداية أدهشتني المعروضات الفنية المتقدمة بفنيتها، من تماثيل تجسّد آلهتهم وأساطيرهم وأنماط حياتهم، بوجوه وأقنعة ووسائل معيشة ومنسوجات وأدوات عزف وحلي، إلى آخر ما يمكن أن نجده في المجموعات المتحفية البهية، المصورة للحياة في بعدها اللازمني..

وكانت المفاجأة في طابق علوي، تمتد على مساحات جدرانه صور فوتوغرافية، ورسوم بائسة، وكتابات حزينة تصف ما ألمَّ بهؤلاء حين اغتيلت أنماط حياتهم، وانتهكت كل الحرمات فيها، فالأطفال يسحبون من أيدي أمهاتهم الباكيات، وضفائر شعرهم التي يحبونها تُقص، ويُفرض عليهم أن يغيروا لباسهم وطعامهم، وينسوا لغتهم، ليعيشوا في مدارس داخلية، تقطع ما بينهم وبين أهلهم وتراثهم، وينسون فيها حياتهم السابقة، وحياة آبائهم وأجدادهم الأقربين وأسرهم، ولا يذكرون معها إلا نمط الحياة

الجديد المفروض عليهم بقسوة. تعليمهم المنبتّ بهم عن أصولهم، مقابل أرض آبائهم -التعليم مقابل الأرض - هذا ما قاله الرئيس جيفرسون حين وجد أن الأرض تضيق بعدد السكان الذين يتكاثرون -ومصير المرضى المصابين بالسل مستشفيات بدائية، ولا علاج لا غذاء، والصور المترامية على الجدران تحكي حكايات الإذلال والبؤس الذي عانوه، والكتابات المؤطرة للصور تفيض بالحنين الباكي والمبكي، إلى أجداد يجهلون عنهم كل شيء، ونمط حياة ما زالوا يحلمون بمعرفته، ولغة هي لغتهم وهم اليوم مغتربون عنها، داخل لغة بديلة، لكنها ليست جزءاً منهم.

وعلى مائدة للكتابة أوراق وأقلام، تدعو كل أبناء قبيلة الأباتشي إلى تسجيل ما يذكرون من قصص آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم، فقد يكون فيها ما يعيد إليهم ما ضاع، وهم يفتقدونه، وذكريات الأهل الذين استؤصلوا وكان عددهم أربعين ألفاً، فإذا بهم اليوم لا يجاوزون الآلاف العشرة.

وإذن فقد كانت قطيعة مرسومة مع تراثهم، وقطع لمسيلة الزمن بما يعيق بناء القدرات الإنسانية، وانفصام وجودي لا معنى له إلا إلحاق الأذى بالبنيان النفسي، وفكّ الارتباط بما هو تاريخي، وبما هو أسلوب حياة في مجتمعاتهم، قيماً وممارسات وعلاقات إنسانية وروحية، تتوّجها لغة خاصة كان الحفاظ عليها حقاً من حقوق إنسانيتهم، حتى لا تتعرض ذاكرتهم الوطنية والاجتماعية، للضياع المؤسي.

قد يستغرب البعض هذا الذي رويته، وقد يجد فيه وضعاً غير طبيعي، أو لا يجد فيه مدعاة للتعاطف، مع هؤلاء الباحثين عن أصولهم ولغتهم، فأمتنا، بشكل عام، لا يمكن أن تتعرض إلى هذا الحد من انتزاع الانتماء، بل لقد كان مستحيلاً أن يحدث لها ما حدث لغيرها، هي التي تمتلك هذا الحجم الضخم من التراث الحضاري، وهذه الآصرة الفريدة الجامعة: القرآن الكريم واللغة العربية.

ولكن علينا أن نتذكر أن تجارب التاريخ المريرة قد عصفت بشعوب وأمم حملت معاناتها عبر قرون، ولم تستطع أن تستسلم لما أصابها، أو تنسى محنها، وظل سؤال الجذور واللغة يلحّ عليها. والأمثلة كثيرة.

في عام ١٩٨٧ عُقد في البرازيل مؤتمر هام بين منظمة دول أمريكا اللاتينية وجامعة الدول العربية، بهدف البحث عن مزيد من التقارب، وعن إنماء علاقات المستقبل..

تضمن المؤتمر طرح مواضيع ثلاثة، اقتصادي وسياسي وثقافي، يحاضر في كل يوم اثنان، عربي ولاتيني، يقدمان وجهة النظر العربية واللاتينية وتجري المناقشات بعد ذلك. كان الحضور المشارك متميزاً على المستوى السياسي والمستوى الأكاديمي، وكان علي أن أقدم الموضوع الثقافي باسم جامعة الدول العربية. أذكر أنه أتى تحت عنوان: «الثقافة العربية تراثاً ومعاصرة -والعلاقات العربية اللاتينية المستقبلية».

خشيت وأنا ألقي موضوعي أن يثير حساسية ما، فقد أفضت بالحديث عن الثقافة العربية والحضارة العربية وما قدمته

للإنسانية.. وإن كنت لم أغفل عن التنويه بما حققته أمريكا اللاتينية المعاصرة من إبداعات رفيعة في المجالات المختلفة من آداب وفنون.. وقام في ذهني ما جرى في اليومين السابقين من مناقشات عنيفة حول قضايا الاقتصاد والسياسة وما فيهما ولهما من إشكاليات.

لكنني فوجئت بإطراء رئيس الجلسة للموضوع الذي قدمت، وتكرار موافقته على كل ما جاء فيه، ثم بنظيري اللاتيني يقول: كدت أطوي أوراقي، وأكتفي بما سمعت، فكل ما أوردته المتحدثة له مصداقيته، وما قدمته الحضارة العربية للإنسانية لا يستطيع أحد أن يجحده، لولا أنني أحب أن أضيف بعض المعلومات التي تخصنا، ومنها أن في لغتنا، في جمهورياتنا المختلفة، خمسة آلاف كلمة عربية، وتعرف الأرجنتين أن كلمات الملاحة كلها تقريباً عربية، محرّفة قليلاً، وتابع يؤكد حجم ما هم مدينون به لحضارتنا العربية.

مفاجأتي الكبرى كانت من جمهور القاعة، إذ كان كل متكلّم يعلن، بدايةً، موافقته على كل ما قلت، ويزيد بالاعتراف بأنهم مدينون لحضارتنا.

إلى هنا وليس في الأمر ما يستلفت، لولا أن عدداً كبيراً من الأساتذة والباحثين المشاركين، كانوا يضيفون أنهم يعتبرون أن الاسبان قد أساؤوا إليهم إساءة بالغة، حين جاؤوهم محتلين، وأن الشيء الوحيد الجيد، كان ما حملوه من الحضارة العربية البهية الإنسانية إليهم. الإساءة كانت في محو تاريخهم من ذاكرتهم،

والقضاء على لغتهم، فهم لا يعرفون الآن شيئاً عن المرحلة التي سبقت بدء الاحتلال لأرضهم -يقولون ذلك بأسى بالغ -، ويعملون اليوم جاهدين، في العديد من مراكز البحث في بلدانهم، على أمل أن يستعيدوا لغتهم، ويتلمسوا جذورهم، ويتعرفوا على أجدادهم الذين طوت أخبارهم القرون.

كانوا غاضبين إلى حد بعيد.

وكان غضبهم مفهوماً بالتأكيد، فالذاكرة الضائعة، حسب تعبير الأستاذ هيكل، تستثير شجوناً لا حيلة معها، ورغبة عميقة في اكتشاف مجهول مخبوء في أعماق اللاشعور..

وقد يكون من العسير علينا أن ندرك شعورهم، نحن الذين كتب تراثنا نفسه على المدى المسوّر بالقِدم، وترك وقائعه، على جدار الزمن، بصمات يصعب أن تمحى، وحملناه في الذاكرة وفي القلب، وفيه تجلى الجوهر الأبدي لأمتنا، قولة مكسيم رودنسون، وكان ثمة إجماع عالمي على أن حضارتنا قد أغنت الفكر الإنساني، وقدمت للعالم إنجازات باهرة، شكلت كنزاً من العطاء الإبداعي، ورفدت الثقافة العالمية، وأغنتها، ويكفي أن نشير إلى انتصاراتها في الفلسفة والفلك والرياضيات والكيمياء والطب، وإلى ما هو أهم أيضاً، أعني ما أكده الباحثون من أن المفاهيم والمقولات والمناهج الأساسية للعلم الحديث، قد صيغت، أول ما صيغت، على أيدي علمائنا، وما أكده الموسوعيون، وبشكل لا لبس فيه، حسبما جاء في الموسوعة الفرنسية، من أن«الغرب مدين إلى الأبد، للعرب الذين

شجعوا العلوم، وأعطوا للعالم أعلاماً كباراً، مؤرخين وشعراء وكتاباً ذوي شأن».

قد يكون من الصعب علينا أن ندرك شعورهم، هم الباحثين عن التاريخ والتراث واللغة، ونحن الذين نمتلك التاريخ والتراث واللغة، في أجمل تجلياتها.

لكنني أتساءل: ألا تدفعنا هذه المفارقة إلى أن نكون أكثر وعياً بواقعنا، وبما يجري في العالم من حولنا، وأكثر فهماً لهذه الحملات التي تتعرض لها أمتنا، بدعاوى مختلفة، على اسم تجاوز التخلف، وتحرير المجتمع، وتغيير الواقع المزري، بفك الارتباط مع التراث، وكسر طوق الدين، والتحرر من التاريخ..

ودون وازع من ضمير علمي أو أخلاقي، وتحت وطأة حصار سياسي، ينتقصون في هذه الأيام من حضارتنا وموروثنا وعقائدنا وقيمنا وماضينا وراهننا.. يطرحون مصادراتهم حولها، ثم يحولونها إلى مسلّمات ثم إلى قناعات، ونحن في شبه غفلة سادرون، بل إن البعض منا يشارك في مثل هذه الحملات أو الطروحات، عن قناعة أو عن عقدة نقص، يبهرها كل ما هو أجنبي، في حين أن الواجب يفرض علينا أن نتصدى لها، بالمنطق والحوار وحقائق التاريخ ووثائقه، وبالعمل الجاد والذكي للكشف عن تراثنا العريق، وإتقان التعريف به وحمايته، وتصحيح المغالطات التي تطرح، بسوء نية، في الغالب، حوله. علينا أن نتصدى لها لا لأننا نخشى على هذا التراث، فقد دلل على قدرته على الديمومة، واستعصائه على

الاندثار، بـل لأننـا لا نـرضى أن نـسقط في الحـصار والمـصادرات الفكرية التي تسم، زوراً، تكويننا الثقافي، وإرثنا المعرفي، بالأحاديـة والضيق والنمطية والتعصب، إلى آخر ما يزعمون، ولن ننـساق إلى التبرع السخي بتنازلات تمس جوهر وجودنا، وتقلـب، بعدوانيـة، كل معطى نبيل في حياتنا.

ودون غلوّ أو مبالغة، أو مجانفة للحقيقة يمكن أن نؤكد، وعلى عكس ما يقولون، أن تراثنـا العـربي، في تميـزه وخـصوصيته، كـان ويظل سمحاً إنسانياً، بعيداً عن الانغـلاق، في جـذوره، وفي القـيم التي يحمل.

وأننا كنا، دائماً، منفتحين على الثقافات الأخرى والحـضارات الأخرى، والشعوب الأخرى، دون أن نسقط في التبعيـة، أو نجيـز الاستلاب.

لقد سعينا في الماضي، كما نسعى في الحاضر إلى الانفتاح قناعة، والحـوار ضرورة، وإلى الإيـمان بالعقـل، والبراهـين عـلى ذلـك لا تحصى.

ودفعاً لكل مغالطـة تتهمنـا بأننـا، نحـن العـرب، في عـشقنا للتراث، نتصنّم هذا التراث، ونكتفي بالتغني به، والخضوع له، ممـا يبقينا في حال من الجمود، لا تسمح لنا بأي تقدم، أود أن أشـير إلى أن إيماننا بـالتراث كمكـوّن أسـاس للشخـصية العربيـة المتماسـكة والواعية، لم يعنِ، في مرحلة من المراحل، أن نرزح تحت وطأته، وأن يرتهن حاضرنا، فنلغي فكرنا، ونكتفي بالاعتزاز بـما كـان، دون أن نعمل على بناء ما ينبغي أن يكون.

ولم يـشكّل، أبـداً، حـاجزاً يحـول دون الـدخول في العـصر، والتطور باتجاه الارتقـاء، كـما يـدّعي الـبعض، ولم يـدفعنا إلى تحيّـز مراوغ، ينأى بنا عن رؤية دقيقـة تحليليـة نقديـة اصـطفائية، تعطـي للماضي آماده، وللحاضر رؤاه، وللمستقبل الذي نستشرف ذاكرتـه التي نريد.

إن ثمة ضرورة تاريخية، ترتبط بحاجة قومية عربية إسـلامية، تدعونا إلى التعامل مع تراثنـا العـربي الإسـلامي، تعـاملاً خلاقـا، واعياً، مستنيراً، مـن منطلـق البحـث في جـوهره، ونـشر حقيقتـه، والتعريف به، بكثير من الموضـوعية والعقلانيـة والالتـزام بمنطـق البحث.

وفي النهوض بهذا الواجب المقدس، علينا أن نبذل أقـصى مـا نستطيع من جهد، مستحضرين الدور الأخلاقي المنوط بنا، في حماية تراثنا، والحيلولة دون الذوبان في الإطار العـولمي الجديـد، المـرتبط بمحاولات التنميط.

وإذا كان يستحيل عـلى أي أمـة أو دولـة، في عـصر التواصـل المعمم والمعولم، عصرنا هذا، أن تنفصل عن حركة التطور الشامل، والتبدل المتسارع، ولا نحن نريد ذلك، فإن علينا ألا ننـسى، ودون حاجة إلى التواضـع، أن خريطـة عـصرنا تحمـل في كـل خطوطهـا وتضاريسها، وكل مواقعها وعواصمها، وبمعزل عـن الافـتراءات المتواصلة التي تحاك حولنا، أو صيغ الاتهام التي توجـه إلينـا، وإلى معتقداتنا وقيمنـا، إشـعاعاً مـن حـضارتنا، في توهجهـا الفكـري، وألقها الروحي، وريادتها العلمية، ورفعتها الإنسانية.

ولنتذكر أن اهتمامنا بالتراث ليس انغماساً في الماضي الذي مضى، بل هو عودة إلى حقيقة وجودنا، وجوهر الوعي بهويتنا، ومعنى الانتماء في ذاكرتنا، والدفاع عن الهوية هو دفاع عن وجودنا ذاته»«وإذا خسرنا معركة الهوية، كما يقول السيد سامبر، رئيس جمهورية كولومبيا، نكون قد خسرنا معركتنا الكبيرة للسيادة، تلك التي تجعل منا أوطاناً، وليس، ببساطة، شعباً مرتبطاً بلحظة تاريخية».

أمر أخير أحب أن أتوقف عنده وقفة سريعة، يرتبط باللغة العربية، وما أدخلناه عليها، وندخله، من ضيم كبير، مع أنها كانت، في حياتنا، وما تزال، الآصرة الجامعة، والرابطة الموحدة، والعروة الوثقى التي لملمت شمل الأمة، في أحلك الظروف، وصمدت لكل العاتيات والعاديات.

وكانت، كغيرها من اللغات الحية، الحامل الأساس لفكر الأمة، بل هي فكر هذه الأمة، وتراثها وثقافتها، وكل معطيات حياتها..

وإذا كانت قد تعرضت، في عصر الانحطاط إلى انتهاكات مفجعة، فقد كان ذلك بسبب ما تعرض له الفكر والحياة من انتهاكات مفجعة أيضاً.

لكن مشروع النهضة الذي وُضع في مطالع القرن العشرين، قد جعل في طليعة أهدافه، تحرير اللغة العربية، واستعادتها بكامل طاقاتها وإمكاناتها وبهائها، وإعادة الألق إليها.

ومع أن المشروع النهضوي قد أُحبط، إلا أن اللغة العربية قد نجت، وأخذت مكانتها، وتجلت فيما تم من تحقيق أمهات الكتب على أيدي باحثين ومحققين علماء أساتذة، وكتّاب أبدعوا أجمل النصوص، ومترجمين طوّعوا اللغة لأصعب الصياغات.

وبشكل عام فقد حظيت اللغة، في معظم البلدان العربية، آنذاك، بعناية فائقة كانت تتنامى بشكل متسارع، وتعطي للإبداع العربي والعالمي المترجم أبلغ أشكاله، إلى أن بدأ الغزو الفكري الأجنبي لمجتمعاتنا يحمل نتائجه بصور مختلفة، ويلف بظلاله القاتمة لغتنا الجميلة.

وإذا كانت المفارقات كثيرة، في عالمنا الراهن، فإن قضية العناية باللغة والحرص عليها، وإيلائها ما تستحق من اهتمام، وإحلالها الموقع الأبرز في حياة الأمم والشعوب، على اختلاف الأوضاع وتباين الرؤى وتفاوت المستويات، صارت قاسماً مشتركاً، ينبع من إدراك عميق بأنها أحد أهم مكونات الوعي في الفكر الجماعي للأمة، المرتبط بمحددات شخصيتها وهويتها.

ثمة شعوب كثيرة - كما رأينا - يغالبها الأسى لضياع لغتها، وتجهد بالغ الجهد، في محاولة لاستعادتها، ولو بأبسط أشكالها،

وفي تجربتنا العربية، كتّاب كبار، جزائريون على سبيل المثال، حال الاستعمار، أمداً، دون تعلمهم لغتهم العربية، فكتبوا بالفرنسية، لكنهم ظلوا يشعرون، كما قالوا، أنهم منفيون في تلك اللغة. أما الأمم المتقدمة فإنها لا تدّخر وسعاً من أجل التمكين

للغتها، وإبقائها حية دينامية متفجرةً مبدعةً غنيةً، قادرةً على تحدي محاولات الانتقاص أو الانكفاء، والمثل على ذلك اليابان التي لا تسمح أبداً بمحاصرة لغتها، وتصر على استخدامها، حتى فيما يتصل بخصوصيات العصر، وأحدث معطياته، المعلوماتية، وما يرتبط بها، والتي يرى البعض أن التعامل معها هو بالانكليزية ضرورةً واقتضاءً.

وفرنسا التي ضربت المثل في عشقها للغتها، وفي العمل على انتشارها، وحاولت، منذ سنوات، أن تصدر قانوناً يحرم استخدام أي لفظة من لغة أخرى، في إذاعاتها وأدبياتها، إذا كان لها بديل فرنسي، تحت طائلة المسئولية، المعنوية والمادية..

وحين كانت تضع الأسس لتعليم الصغار، أعد وزير ثقافة وتربية سابق - جاك لانغ - تقريراً هاماً، تحدث فيه عن اللغة، باعتبارها القاعدة الأساس في المسألة التربوية، وقال فيما قال: «اللغة بيتنا المشترك، والطفل الذي لا يملك مفتاح الدخول إلى هذا البيت هو طفل جريح، ذليل، ومنفي، اللغة وأيضاً ودائماً اللغة، وبها ومن أجلها ينبض قلب المدرسة الكبيرة - أحبّوها، احموها، بامتنان وحماسة».

أسوق هذا الذي سبق لأننا نشهد في هذه الأيام حجم الهوة التي نُسقط لغتنا فيها، حتى لا أقول نئدها، فاللغة العربية التي كانت القادرة، دوماً على استيعاب الفكر الإنساني، وأبلغ معطيات العلم والفلسفة، حين كنا واضعيها أو مترجميها، والتي تملك،

وبقوة، طاقاتها الفكرية والشعرية، وجماليتها المبدعة، وبيانها الفريد، وتماسك منطقها في التعبير، وروعة تلاوينهـا في التـصوير، ورهافـة دلالاتها ورموزها وإيحاءاتها، اللغة العربية هذه أخـذت في العقـود الأخيرة، تخرج من دائرة اهتمامنـا، يومـاً بعـد يـوم، دون أن نبـالي، فالدعوة مستمرة، في أوساط مختلفة، للتعليم باللغة الأجنبية بديلاً، ومباهاة الأهل بأن أبناءهم يجيدون اللغة الأجنبية أكثر من العربية، صارت أسلوباً شائعاً، والفضائيات والإذاعات تذيع بالعاميـة، إلى جانب الفصحى المشوّهة باللحن، في معظم الأحوال، وقليلون هم الذين يستشعرون هول هذا الذي يجري، وأخطـاره فـيما إذا تحولنـا عن لغتنا بهذا الشكل المزري.

ولعلنا لا نزال نذكر تلك الدعوات غـير البريئـة التـي بـرزت خلال القـرن العـشرين، واسـتمرت حتـى مراحـل متـأخرة منـه، وكانت تنادي باستخدام الحـرف اللاتينـي في الكتابـة، بـديلاً عـن الحرف العربي، أو استخدام اللهجة العامية التـي صـاروا يـسمونها اللغة المحكية، ومن حسن الحظ أنها ظلت هامشية إلى أن انحسرت أمـام المـدّ العـربي المتـصاعد، في تلـك المرحلـة، والـوعي القـومي المتنامي، والكفاح المتواصل لتحقيق حدّ من المنعة، في عالمنـا الـذي يعاني ما يعاني من ضـياع الـترابط الإنـساني، ومـن عـدوانات غـير مشروعة على حقوق الشعوب.

واليوم نحن جميعاً مـدعوون إلى دفـع الأذى عـن لغتنـا، وإلى حمايتها والحفاظ عليها، مشعة كما كانت، زاخرة بإمكاناتها، فياضـة

بحيويتها، وإيحاءات مدلولاتها، قادرة أكثر فأكثر على استيعاب شخصية الأمة في عميق طموحاتها، وتطلعاتها.

إن لغتنا لم تكن يوماً لغة عادية أو لغة بسيطة، أو بدائية، بل لقد كانت، وما تزال، من أبلغ لغات العالم وأغناها، والأهم أنها ظلت مشحونة بتراثنا وتاريخنا، بقيمنا وعروبتنا وحضارتنا ونسق وجودنا.

وما أحوجنا في هذه الظروف الصعبة، أو المحن التي يجتازها وطننا العربي، إلى كل ما يسهم في بناء الذات العربية - واللغة آصرةٌ أسمى - وإلى كل ما يمكن أن يشكل أداة تجميع وتوحيد وتضامن، وكل ما يستقوي بوجودنا الذاهب في أعماق التاريخ، وذاكرتنا المتوهجة في الحاضر، ويبني ذاكرة المستقبل - حق الأجيال القادمة علينا..

وحتى لا يبالغ أحد في الإدلال علينا، وليس من قبيل التباهي غير المشروع، نذكر بأن أجدادنا العرب قد صنعوا، يوماً، مجدهم الفكري الذي شكل في ذاته أعظم إنجاز علمي في زمنه..

وحملوا إلى ذاكرة العالم تراثهم الخاص الذي أبدعوه، وتراث الإنسانية الذي ترجموه وشرحوه، وقدموا، من خلاله، إضاءات مبهرة لذاكرة المستقبل.

كان موقفهم أكثر أخلاقية ونبالة بكثير من موقف دولٍ في العالم اليوم، تحاول أن تغمطنا حقنا، وتدعونا إلى تبني قيمها بديلاً عن قيمنا، وتلجأ إلى تشويه تاريخنا، وما أعطينا للبشرية، كما سبق

وذكرت، وتسعى لدفعنا إلى عولمة تفرض، عبرها، قناعاتها وأنماط حياتها وتفكيرها علينا، وعلى مختلف الشعوب.

إنما هذا كله لا يعني، ولمزيد من التوضيح، وحتى لا يحشرنا أحد في الزوايا الضيقة، لا يعني أننا لا ندرك إدراكاً عميقاً ضرورة أداء رسالتنا في الراهن، تماماً كما أديناها في الماضي، وأهمية العمل على الخلاص من تبعية التخلف، وفتح الآفاق الجديدة لكل ما هو مستقبلي تقدمي، متساوق مع رهانات العصر.

وإذا كنا نؤكد على أن يكون للغة العربية موضعها الراسخ والأول، فإننا نؤكد أيضا على أن يكون للغات الأجنبية بمكنوزها المعرفي دور أساس في ثقافتنا، لا يمس أو ينفي لغتنا..وكذلك الأمر بالنسبة للتراث، هذا الإرث الباذخ، الذي ينبغي أن يكون له شأن وحضور، لا يقل عن كل ما نوليه لمفاهيم العصر العلمية، وثورات التقنية، وآفاق المعرفة المتسعة، ولا تناقض أو حدّية، في منظورنا أو في رؤانا وتصوراتنا، بل تكامل يفرضه المنطق السليم.

«ذاكرة المستقبل» في مفهومنا الرحب، جزء أساس من«ذاكرة العالم»، و«ذاكرة العالم» في مدارات انداياحها، وفضاءاتها المتسعة، وموروثها العريض، جزء من ذاكرتنا..

ولقد تبنينا، عبر التاريخ، التراث الإنساني، بعقل منفتح، وحميناه من الضياع، وحفظناه في ذاكرة العالم، بجهود علمائنا، وما نزال حتى اليوم، نُعنى به عناية كبيرة، ونحرص أن ينحدر إلى أبنائنا، في منظومتنا التراثية، وفي النسيج العضوي لثقافتنا، وفي أبعاد

ذاكرتنا الراهنة، كي تبقى ذاكرة أجيالنا، في المستقبل، مستنيرةً، مشعة، بهية، عريضة الآفاق، بعيدة الآماد، بها يتحقق التواصل الإنساني، في أنبل معانيه.

* * *

أيها السادة

باسم السيد الرئيس وباسمي - أُحيي الكويت البلد العربي الصديق والعزيز، حاضن الثقافة والمثقفين، والإبداع والمبدعين، والعلماء والباحثين، أُحييه أميراً وحكومة وشعباً، كما أُحيي دار الآثار الإسلامية وصاحبتها الأخت الفاضلة الشيخة حصة الصباح، وأشكر لها جهودها في إنشاء هذه الدار التي فتحت بها للزائرين محراب التاريخ، ليروا إلى إبداعاته، ويعرفوا من أسراره ورؤاه ما يجعل الآفاق أرحب، والفكر أغنى، وسيرورة الزمن أكثر بهاءً.

في الثقافة القومية(*)

قيل إن رجلاً بنى بيتاً كبيراً فجاء إعصار كبير وأخذه.

وأعاد الرجل المحاولة، فبنى بيتاً أكبر، وجاء إعصار أكبر وأخذه.

وللمرة الثالثة، بنى بيتاً بحجارة أضخم، فجاء إعصار أضخم وأخذه.

واحتار الرجل في ما يفعل. تشاور مع الذين حوله، فقالوا له: كي يثبت بيت أمام إعصار، ينبغي أن تكون له قوة توازي قوته، ولأن أحداً لا يعرف، مسبقاً، قوة الإعصار المقبل، فإن أحداً لا يستطيع أن يبني بيتاً بالقوة نفسها.

وأصاب الرجل غم شديد..

غير أن شيخاً حكيماً مر من هناك، وسمع الحكاية، فقال للرجل: كي يصمد بيت أمام الإعصار، يجب أن يكون ثابتاً كالأرض.

وسأله الرجل: كيف؟

(*) أُلقيت في الأسبوع الثقافي في الكويت، في شهر آذار عام ١٩٨٠.

قال الحكيم: الإعصار يكتسح كل الكائنات إلا الأرض التي قامت عليها، وكي تواجه الكائنات الإعصار، عليها أن تلتحم بالأرض، أن تمد جذورها عميقاً فيها.

قال الرجل: تعني أن يكون لها أساس؟

فابتسم الحكيم وقال: هو ذاك.. إذا كان الأساس قوياً اصبح البناء قوياً أيضاً.. عمّق الأساس يا سيدي، يصمد بناؤك لكل الأعاصير..

وكذلك فعل الرجل، فبقي بيته قائماً..

بقي دوحة، الجذور في القاع والغصن في الأعالي..

ومن الدوحة، في سنديانية رسوخها، تهاويل، بعضها للخضرة، وبعضها للثمرة، وبعضها أفنان تعزف الأنسام عليها أناشيدها عند الهبوب.

وتضحك الدوحة من يقين، فيما العاصفة، زعزع يذرو القشور.

وتضحك لأنها من نسغ الأرض كانت نبتة فاستقوت، وأدركت حكاية الفصول فصارت شجيرة واستقوت، وفهمت سر الوجود، فأصبحت شجرة واستقوت..

والسر بسيط.. الذهاب في الأرض عمقاً..

هذه خلاصة الحكاية..

والشجر، كالإنسان، يفهم الحكاية ويبدعها..

لذلك بقيت الأشجار، وبقي الإنسان..

كلاهما يترجم الدنيا صيرورة حياة، ولا أبهى..

الأولى واقفة تموت، والآخر واقفاً يناضل..

وفي الموت شهادة، وفي النضال شهادة، ألا تباركت الشهادة، تباركت الشهادة، ففي موكبها السيف والنجم، وفي طريقها الفداء والآتي، وفي غايتها نبل القصد، إذ المستقبل فجراً أرجوانياً يلوح.

وفجرنا، رغم ليلنا، بهياً يلوح لنا، لأننا مع التاريخ ضربنا موعداً، والتاريخ لا يخون السائرين معه، أبداً لا يخون التاريخ من سار معه.

ثم إننا، من صحبة التاريخ على ثقة.. فقد رعيناه صغيراً، وكفلناه كبيراً، وكنا، في كتابه، المتن والعنوان، لا في وقائعنا فقط، بل في حضارتنا أيضاً، هذه التي هي بيتنا ودوحتنا وحكايتنا الذاهبة عميقاً في الأرض.

ذلك أن وجودنا العربي كان لساناً وكان بياناً، وبهذا اللسان قلنا الشعر في الجاهلية، وبه تنزل الوحي فرقاناً في الإسلام، وبه، على مدى العصور، غزلنا الفكر قلائد ازدان بها جيد العالم..

ولعلنا أن نكون، في منزل الوحي، الأمة الفريدة التي أولت الكلمة صياغة أدبية كالتي في القرآن، ومجدتها، لا منطوقة على الشفاه وحدها، بل مرسومة بالريشة أيضاً.

﴿اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

واقرأ تاريخ حضارة كان لها اثنان: الزهو والصمود، فهي زاهية طلعت على الدنيا، وهي صامدة عرفتها الدنيا، رغم كل محاولات الغزو، والإبادة، والتتريك، والفرنسة وما إليها.

وحين نقول حضارتنا، نعني جماع نشاطنا الثقافي عبر العصور، هذا الذي كان عربياً يداً ووجهاً ولساناً، وكان من إبداع المنتجين الثقافيين، في وحدة من النشاط الذهني، ووحدة من النشاط اللغوي، تحضنهما، وتشد أحدهما إلى الآخر، ووحدة من النشاط القومي، أساسها العقيدة واللغة والتاريخ والوطن العربي الكبير، بأقاليمه المتعددة.

ولقد كانت وحدة اللغة العربية من أهم أسس قوميتنا العربية. وهذا ينطبق تماماً على الحركات القومية في التاريخ، فهي، في القرن التاسع عشر وفي أوروبة بالذات، اعتمدت وحدة اللغة، هذه التي كانت -وما تزال- أداة في التعبير، وتشابهاً في التفكير، وحلقة في سلسلة نشاط الإنسان، تعكس خصائص الجماعة وأخلاقها، وتربط بين الأجيال الماضية والحاضرة وأجيال المستقبل، وعن طريقها يتلقى المواطن كل تراث أمته الفكري، ثم ينميه ويطوره ويصوغه فكراً وأدباً وفناً، أي نشاطاً ذهنياً، ويدوياً إنسانياً، يرفد الثقافة، ويراكمها، لتكون من بعد إرثاً حضارياً، يسهم في صنع الحضارة البشرية.

ولقد احتفظت أمتنا العربية بكيانها، واحتفظت قوميتنا العربية بمقوماتها، لأنهما عرفتا كيف تحافظان على اللغة والثقافة، في وحدة

متينة، وفي سياج من الدفاع عن الذات العربية التي كانت لغة القرآن بمثابة الروح والقلب فيها، فأسعفا جسد الأمة المقاوم، ضد كل الأخطار الخارجية والداخلية التي تناوبت عليه.

ودليلنا في هذا الصراع ما بين اللغة وأعدائها، أن كل الدول الاستعمارية عملت للقضاء على لغة الشعوب المستعمرة، كي تفقدها مقوماتها الذاتية، فيسهل عليها احتواؤها وإخضاعها لسيطرتها، ومن هذا القبيل ما فعلته الدولة العثمانية في البلاد العربية، وما فعلته فرنسا في سورية ولبنان وتونس والمغرب والجزائر، وما فعلته بريطانيا في مصر وفلسطين والعراق وغيرها.

لكن اللغة العربية التي وجدت نفسها، في بعض مراحل التاريخ، بين مجموعة من اللغات، ظلت هي السائدة، وهي التي يتكلمها معظم السكان، وهي لغة القرآن والعلم والأدب، وهذه الخصوصية فيها، وهذه السعة في انتشارها، تعودان إلى عراقتها.. ويكفي أن نذكر أن اللغة العربية وصلت إلى درجة الكمال قبل الإسلام بقرن على الأقل، بشهادة الشعر العربي الجاهلي الذي قيل فيها، وبشهادة الحكم والأمثال العربية التي كانت وعاءها، فلما جاء الإسلام كانت العربية ناضجة، فنزل الوحي بها متميزاً بالفصاحة والبيان، محكماً متدفقاً، سلساً، غنياً، معجزاً، ولم ينل، بعد ذلك، اختلاف اللهجات، في الأقطار العربية المتنائية، من وحدة هذه اللغة، لأن الفصحى ظلت هي الأساس، وهي الأم، وهي الحارس لنقاء اللغة وسلامتها، فوق أن هذه اللغة، على خصوصيتها، كانت

حيوية بما يكفي لمسايرة التطور الحضاري، فاتسعت لكل جديد، وأعطت وأخذت، وازدادت غنى وتألقاً مع الأيام.

هكذا تكون وحدة اللغة، ووحدة التاريخ، ووحدة الفكر والهدف، من عوامل وحدة هذه الأمة التي وجدت تعبيراً لها، في العصر الحديث، بوحدة قوميتها التي كانت دمشق لها ظئراً، والبلاد العربية لها حاضنة، فجاء الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وصيرها ايديولوجية كفاحية، ذات تقاليد كفاحية، وحضارة كفاحية، وثقافة كفاحية أيضاً. وهذه القومية، بما هي نتاج تفاعل سياسي واجتماعي وفكري واقتصادي ونفسي، أدى إلى اندماج العرب وانصهارهم في بوتقة واحدة، قد كانت إطاراً لتراث الأمة وتقاليدها، وإطاراً للثقافة القومية التي نسعى جاهدين لنشرها، واثقين أن هذه الثقافة، بما تملك من خصائص ومقومات، كفيلة، في وحدتها، أن تكون ممهداً ومرسخاً للوحدة العربية المنشودة.

ونحن إذ نتوجه إلى المستقبل في عملنا، فإننا نعرف أن هذا المستقبل، بما يستمد من الماضي، جدير بأن يتأسس على أصدق القناعات بأن حضارتنا الواحدة، وثقافتنا الواحدة، وجامعتنا القومية الواحدة، قادرة أن تحقق تلك الوحدة، رغم أسباب التجزئة، وفي مواجهة جميع المكائد والتحديات.

ولقد عرف تاريخنا، في بعض مراحله، تفتتاً سياسياً، كالذي نشهده اليوم، غير أن وحدة الحضارة والثقافة والنظم الاقتصادية والاجتماعية والقانونية، أدت إلى وحدة الأفكار والمشاعر العربية،

بما كانت تستمده من وحدة الدين واللغة، وبالتالي استطاع العـرب أن يحتفظوا بجوهر وحدتهم القومية، رغم الانقسام الكبـير الـذي جعل دولة العباسيين في بغداد، ودولة الأمويين في الأندلس، ودولة الفاطميين في مصر، على خلاف وتطاحن، وهـذا الواقـع التـاريخي يعزز ثقتنـا بـأن قوميتنـا العربيـة، في كفاحهـا ضـد أعـدائها، مـن امبرياليين وصهاينة، ستعرف كيف تنتصر، لأنها تعرف كيف تقرب بين أقطارها المتباعدة، وكيف توحد بين أجزائهـا المتفرقـة، وكيـف تحافظ على وحدتها اللغوية والثقافية والاجتماعية، وتجعلها سبباً من أسباب وحدتنا العربية، هذه التي هي أعظم أهدافنا، لأنها الحقيقـة الثورية الأعظم ضرورة وإلحاحاً في عصرنا.

وإذا كانت الوحدة الثقافية هي المدخل إلى الوحدة الـسياسية، وكانــت هــذه هــي المــدخل إلى الوحــدة العربيــة، بكــل ركائزهــا وأبعادها، فكيف ننتج ثقافة وحدوية قومية، وكيف ندافع عن هذه الثقافة بالثقافة نفسها، ونمكّن لها في أرضنا العربية؟

هنا أستميح زملائي رجال الثقافة أن أتحدث في الثقافة قليلاً.

أن أتناولها على مهابة، وأجوس حرمها لا متجرئة كما يحـدث، بل مترددة مـن فـرط خـشية أن ألامـس موضـوعها دون أهليـة أو جـدارة، أو اتقحمــه وفي الــنفس هــوى، فــالأهواء في الثقافــات مرفوضة، والكلام على الثقافة ينبغي أن يصدر واليد عـلى القلـب، خوف أن نريد بها شراً ونحن نزعم الخير، وخـوف أن نتخـبط مـن جهل ونحن ندعي التعالم في شأن هو من أجل شئون الحياة.

إن الثقافة، وهي جماع النشاط الذهني والسلوكي لشعب من الشعوب وأمة من الأمم، إنما تعني بناءً فكرياً كريماً، ينهض على أسس من النتاج العقلي، في تعبيره الأدبي والفني، وفي استمداده من الواقع، وانصبابه في الواقع، في حركة تأثر وتأثير، وفي تفاعل مستمر، يغني الحياة ويغتني بها، ويؤسس لمستقبل أفضل، مادام جهد الثقافة مستقبلياً، رغم فترات المحن التي تمر بها، وتعرف كيف تتجاوزها، فتشرق شمساً من وراء غيم كثيف، قشعته عواصف الريح إذ هي تذرو قشور الذين حسبوا، أو يحسبون، أنهم قادرون على وقف عجلة التاريخ.

والثقافة بناء فوقي، يعكس الكثير من ملامح البناء التحتي، الاقتصادي والاجتماعي، ويترجم عن الواقع المادي في صيرورته نتاجاً، من خلال العمل الذي يتضمن النتاج الفكري أيضاً، باعتبار أن المثقفين منتجون فكريون، يصوغون الواقع في إبداع، ويعبرون عنه في حالة ارتقاء فني، فإذا كان هناك نظام وطني قومي -كما هي الحال في بعض الأقطار العربية - فلابد أن يعكس ثقافة وطنية قومية، وإذا كان هناك نظام لا وطني ولا قومي -كما هي الحال في بعض الأقطار الأخرى - فلابد أن يتطلب -وأن يفرز - ثقافة لا وطنية إقليمية، وكذلك هي الحال في النظام التقدمي والنظام الرجعي، فكل بناء تحتي في الاقتصاد والمجتمع يعطي مردوداً معيناً في البناء الفوقي، الثقافي والفكري، ويعطي سلوكية معينة وأخلاقية معينة، وينسرح على مجمل المواقف السياسية والاجتماعية.

ولأن الثقافة نشاط ذهني وسلوكي، فهي أبعد ما تكون عن آلية الانعكاس. فقد تكون في هذا البلد أو ذاك أوضاع فاسدة متخلفة، وتكون فيه ثقافة جيدة متقدمة، قوامها الاحتجاج على التخلف والعمل لإزالته. إن الثقافة تعبر في أحيان كثيرة، عن أفكار انتشرت في الناس فاكتسبت قوة المادة، وصار لها تأثيرها في البناء الفوقي، فهي وطنية ثورية إبداعية، ينادي بها المفكرون والكتاب والفنانون، رغم أن النظام الذي يعيشون فيه ضد كل هذه القيم، وهنا يكون للثقافة دور تغييري، فهي استئناف ضد الواقع وليست انعكاساً بسيطاً مسطحاً له، وهي قائدة فكرية، تلهم الناس أفضل وأكرم أفكار النضال، ضد الواقع البائس الذي يحيونه، وتعلمهم أن يقلبوه ليبنوا واقعاً آخر تقدمياً، إنسانياً، ثورياً، كما في الثورات الكبرى في التاريخ.

وإذن فكي نعرف ثقافة ما يجب أن نعرف النظام الذي تنتمي إليه، والجو الذي تصدر فيه، والأشخاص الذين ينتجونها، وأن نناضل بغية امتلاك ثقافة متقدمة، من أجل نظام متقدم، متحرر، متطور اقتصادياً واجتماعياً، يقف مع حركة التاريخ وليس ضدها.

إن الكلام على الإنتاج الثقافي في الجمهورية العربية السورية، يأتي في سياقه الطبيعي. وتأسيساً على ما قلت سابقاً من دور النظام في تحديد الهوية الثقافية، ودور الثقافة في بلورة وترسيخ تطلعات الجماهير في هذا النظام، فإن منطلقنا الثقافي في سورية هو المنطلق القومي، التقدمي، الإنساني، العربي، أصالة وحداثة.

ذلك أننا، في سورية، نعيش في ظل نظام وطني، قومي، اشتراكي، أو هو يطمح لإرساء العدالة الاجتماعية، ويناضل على رأس حركة التحرر الوطني العربية، ويعتبر نفسه فصيلة من فصائل حركة التحرر الوطني العالمية، ويقاوم السياسة الاستسلامية، ويواجه، بشجاعة، المؤامرات والضغوط الامبريالية والصهيونية والرجعية، ويصدر عن مواقف ثابتة في تحرير الأرض واستعادة الحقوق، والعمل للوحدة العربية، ويواصل داخلياً بناء الوحدة الوطنية في حربه على الإرهاب والتخلف، وتحقيق التنمية والبناء الاقتصادي، والبناء الدفاعي، وتصنيع البلاد، وتحديث الزراعة، وتطوير المجتمع، قبل أن تشرع المؤامرة الكبرى على أرضنا في التوجه إلى تدمير ما بنيناه، والثقافة التي ينتجها مثل هذا النظام لابد أن تكون ثقافة معبرة عنه، ذات أهداف تخدم تطلعاته، وذات وظيفة اجتماعية في الحركة الجدلية للفعل والتفاعل.

لهذا أقول إن العملية الثقافية في القطر العربي السوري انطلقت من مفهوم بناء المواطن فكرياً، وبناء الوطن اقتصادياً واجتماعياً ونضالياً، ونشر وتعميق فكرة الوحدة العربية، على أساس التوجه القومي في كل أنشطة الثقافة، والعمل للوحدة الثقافية العربية باعتبارها عاملاً ممهداً ومرسخاً للوحدة السياسية، وبعث روح الكفاح والصمود والثقة بمستقبل الأمة التي تخوض صراعاً مصيرياً، وتواجه تحديات الامبريالية والصهيونية في كل ميدان.

إن الوحدة العربية هي الهدف الأسمى بين كل أهدافنا، وهي محور كل جهدنا الفكري والسياسي، ومن المنطلق القومي الذي

يجمع ويعزز كفاح الأمة، تصدر ثقافتنا، في اصالتها وجديتها، وارتباطها الوثيق بالتراث، عن وعي بالمهمة الكبرى، وهي تربية المواطنين، وخاصة الشباب والناشئة، بروح القومية العربية التي تعني في ترجمتها الفكرية والسلوكية حب الوطن، حب الأمة، حب الأرض، حب القيم، وحب الوطن العربي الكبير، والتفاني في سبيل الدفاع عنه، وتحقيق أهدافه في التحرير واستعادة الحقوق، وتطوير البناء الاجتماعي على أساس إنجاح التنمية، وتمجيد العمل، وبث روح المسئولية، ومحاربة التهاون والتواكل والنفعية والتحلل الأخلاقي، والاهتمام بقضايا الشعب.

ويجري التعبير عن هذه الأهداف، ونحرص على التعبير عنها، بأرقى أشكال الأدب والفن، وأكثرها أصالة وجدية ومعلمية، فالفكرة الجيدة تحتاج إلى شكل جيد، وأداء جيد، وإخراج جيد، لتعطي دلالتها من قلب حدثها، عن طريق طرح المشاكل طرحاً صحيحاً، وتوجيه الناس إلى الحلول الصائبة، دون صراخ أو افتعال أو اعتساف، لأن الأدب والفن لا يقتلهما سوى هذه الآفات، فالأداة التعبيرية، من الشعر إلى القصة إلى الرواية فالمسرحية والمقالة والبحث والنقد والفن التشكيلي والمعماري والموسيقا والفنون الشعبية، لابد أن تتوفر لها السوية الفنية الخاصة بها لتغدو شعراً وقصة ورواية ومسرحية ومقالة ونقداً وفناً، في كل فروعه وصوره، وإلا كان الفكر إسقاطاً، ينفر القراء، ويزهد المشاهدين، ويثقل على الروح، ويعطي ردود فعل مغايرة لما نريد.

من خلال هذا المفهوم لدور الأدب والفن، حين تتوفر لهما الأصالة والجودة، تتشكل الثقافة الوطنية والقومية، وتتشكل ثقافة المواجهة، وتعبر عن نفسها في الكتاب واللوحة والنغم والتمثال والفيلم والمسرح والأثر المكتشف والتراث المحقق، وفي كل مقومات النتاج الثقافي، وكل وسائل نشره، لإيقاظ الوعي، وبث المعرفة في الناس.

إن الكلمة في كل صورها، هي التعبير عن الثقافة، وهي التي تتحول إلى فعل، فالمدينة الفاضلة حلم بمدينة تختلف عن المدن القائمة، تطمح لأن تكون أكثر اتساقاً وعدلاً ورقياً، وهي بهذه الصفة حلم محول إلى فكرة، ونعبر عن هذه الفكرة بكلمات، ثم نصوغ الكلمات في قوانين وبرامج، ونناضل لتحقيق البرامج وفق القوانين، وعندما نتوصل إلى تحقيق المدينة الفاضلة -وهي النظام الاجتماعي الذي نريد - نكون قد بدأنا من الكلمة وانتهينا بالفعل ولا تعارض، لأن الفعل كان كلمة أصلاً.

وفي كل ما تنتجه وزارة الثقافة في سورية من كلمات ثقافية، يتجلى هذا التوق إلى المدينة الفاضلة، لا في مقولتها الطوباوية، بل في مدلولها العملي، الكفاحي، الذي ينطلق من الموقف القومي في بناء الوحدة العربية، وتحقيق المجتمع العربي الموحد، وإنجاز المهمات الوطنية والاجتماعية، وتأريث روح التضحية، وتثبيت المفهوم الثقافي التقدمي الإنساني، ومحاربة الثقافة الاستعمارية والعنصرية، ومكافحة كل ميل لترويج العنف والجريمة والابتذال والرخص والتحلل الأخلاقي، في الأدوات الثقافية.

ولقد كان أكبر إنجاز ثقافي تحقق في السنوات الأخيرة، في جملة ما تحقق من إنجازات، التعاون بين وزارة الثقافة والمثقفين، باعتبارهم أعمدتها، ومصدر وجودها ومبرره، وباعتبارهم منتجي ثقافة لا تتم العملية الثقافية دونهم، وقد وعينا، عن إيمان راسخ، أهمية الحرية الفكرية، وأوليناها كبير الاهتمام والعناية، فنحن أمة منفتحة الذهن والعقل، تعرف أن الثقافة لا تزدهر إلا في جو الحرية، وأن الإبداع لا يصير إلا في مناخها، وأن الحرية الفكرية ليست شعاراً حلواً يرفع، بل هي ممارسة عملية، تبدأ بتوفير وسائل إنتاج الثقافة، وتمر بحرية هذا الإنتاج، ولا تنتهي أبداً عند حد سوى المسؤولية، في التعبير عن الأهداف الوطنية والقومية والاجتماعية، التي تخدم مستقبلاً حراً موحداً سعيداً، نريده لنا ولأولادنا وأحفادنا.

والثقافة شمولية وليست أحادية الجانب، وثقافتنا القومية، في شموليتها، ذات موقع متميز على جبهة النضال، وفن النضال ان يحدد المناضل مواقفه جيداً، ما بين ضد ومع، وما بين عدو وصديق.. والأدب والفن باعتبارهما جوهر الثقافة، هما شموليان أيضاً، وعليهما أن يؤيدا الإيجاب، فالأدب مثلاً، حين يكون أحادي الجانب، لا يرى من الحياة سوى جانبها السلبي، يعزل نفسه ويصرخ في فضاء، ويصل، بحكم هذه السوداوية، إلى درب مسدود، وعلينا بهذه المناسبة أن نتذكر المقولة الشهيرة: «لدى الناس دائماً مادة للاحتجاج، للانتقاد، ولكن ليس لديهم، ويجب ألا

يكون، مادة لليأس»، وأدب الرفض هو أدب قبول أيضاً، فرفض الكل يؤدي، في النتيجة، إلى قبول الكل، وفي هذا تطرف يسيء إلى دور الثقافة.

إننا في سورية لا ننتج ثقافة رافضة ولا مظلمة، مادام واقعنا ليس سلبياً ولا مظلماً. هناك سلب، هناك نواقص، هناك ثغرات، ولكن هناك إيجاب وإنجازات ومواقف سياسية وطنية قومية، رائعة، يشهد لها العالم، ولهذا فإن أدب الرفض ظل تياراً ضعيفاً، معدوم الركائز، وظل المثقفون السوريون، في كل نتاجهم، يميلون إلى معالجة القضايا بروح نقدية بنّاءة، ويقولون الأشياء بجهارة الصوت، كما في المسرحيات التي أُلفت ومُثلت، وكما في الشعر والقصة والفن التشكيلي، وهذا أفضل في رأيي، لأن مصارحة الشعب بالحقائق هي الطريق الصحيحة، وعندما نصارح الشعب نفسح له كي يصارحنا هو أيضاً، والأدباء والفنانون، أي المثقفون بعامة، هم ألسنة الشعب التي تجاهر بقضاياه كي يتعرف إليها المسئولون، ويعملوا لإيجاد الحلول لها. إن مثقفينا، وهذا تاريخهم كله شهادة، ينتجون ثقافة وطنية قومية تقدمية إنسانية، ثقافة أصيلة جادة تطمح أبداً إلى التجويد، وتحقيق فنية رفيعة المستوى.

ومثقفونا، ومؤسساتنا الثقافية، حين يلتزمون بالخط الوطني القومي التقدمي، يعطون لإنتاجهم كل المدى اللازم للتعبير عن هذا الخط. إنهم مبدعون وليسوا كتاب عرائض، إنهم فنانون لا رافعوا شعارات في الهواء. إن كلمة يعيش ويسقط بعيدة عن

إبداعاتهم، لأنها بضاعة كتبة يسترون عجزهم بصراخهم، فالكفاح ضد الامبريالية وضد الصهيونية والرجعية، وضد المواقف اللاوطنية واللاقومية، وضد سياسة الاستسلام والتخاذل، لا يقاس أدبياً بعدد كلمات الاستعمار والصهيونية والرجعية التي ترد في كل نص أدبي، أو في كل تشكيل فني، أو في الإنتاج الثقافي بعامة، بل إن هذا الكفاح، في كل أداة فنية، يأخذ طريقته الإبداعية، فالمقالة الغبية التي «تلوك» شعاراً بعينه، ثم تعيده وتكرره، وتحارب فيه ولأجله، حرباً دونكيشوتية تخترع لها أعداء وهميين، وتحجز نفسها على مقولة واحدة، دون أن تستطيع تجاوز الكلمات إلى معانيها ودلالاتها، في الحياة الواقعية، هي مقالة لا تصنع ثقافة، ولا تخدم هدفاً.

إن قصيدة فنية ضد الاستعمار أو الصهيونية أو الرجعية، وضد الإقطاع أو الاستغلال، ولأجل التقدم، وتتناول الحب الإنساني، والوحدة الوطنية، والبناء الاجتماعي، وتحض على الكفاح والمقاومة، هي قصيدة وطنية قومية، لأنها تخدم الهدفين معاً.

وقصة تتحدث عن العمال والفلاحين، وعن بناء مصنع أو إقامة منشأة، وعن حرب تشرين أو عملية فدائية، هي قصة وطنية قومية، لأنها تخدم الأهداف الوطنية والقومية المتضمنة في كل هذه الأشياء.

ومقالة تسمي الأعداء بأسمائهم، والأصدقاء بأسمائهم، وتفضح المستسلمين والمتخاذلين، وتدعو إلى تحقيق التنمية، وبناء

الوطن اقتصادياً واجتماعياً وعسكرياً، وإلى الوحدة الثقافية من خلال التبادل الثقافي، وإلى مقاومة الثقافات الاستعمارية والبورجوازية المتحللة الضارة، هي مقالة وطنية قومية، لأن الأهداف الوطنية والقومية والتقدمية متضمنة في كل هذه المعاني.

وبحث يتصدى لثقافة الصهيونية العنصرية، ويفضح نازيتها وعرقيتها، ويشير إلى الخطر الذي تشكله على الثقافة والحضارة، ويحض على مقاومة العدوان الإسرائيلي الذي هو مقدمة للغزو الثقافي، هو بحث وطني وقومي وإنساني، لأن الأهداف الوطنية والقومية والإنسانية متضمنة في كل هذه المعاني أيضاً.

لقد كتب توفيق الحكيم عن «العبور الحضاري» بدلاً من «العبور العسكري» باتجاه إسرائيل. إن فضح هذه الدعوة هو عمل وطني وقومي، لأن القوة يجب أن تقابل بالقوة، والعدوان له معادل واحد هو التحرير، والاغتصاب له جواب واحد هو استرداد الحقوق، والمتعاونين مع أعداء وطنهم لهم اسم واحد: الخونة، وإذا كان توفيق الحكيم يظن أن الصهيونية -وهي نازية جديدة - تحترم الحضارة فهو واهم، ويستطيع الرجوع إلى ما فعلته النازية القديمة بالحضارة الإنسانية، وإلى ما تفعله إسرائيل اليوم بآثارنا ومعابدنا وبيوتنا، وعندئذٍ يتبين أن هذا الستار غير الساتر لدعوته التصالحية، مع الثقافة الصهيونية، لا يخفي أنه كان في كل تاريخه إقليمياً، متعاوناً مع أعداء العرب، من فرنسا بالأمس إلى إسرائيل اليوم.

ولقد دعت لجنة الدفاع عن الثقافة المصرية التي تضم كتاباً ومثقفين مصريين بارزين، إلى مقاومة سياسة السادات

الاستسلامية، واتفاقاته الثقافية والتربوية مع إسرائيل، وتأييد هـذه الدعوة، ومناصرة أحرار مصر ومناضليها، وفضح الغـزو الثقـافي الإسرائيلي الامبريالي، هو عمل وطني وقومي على صعيد الثقافـة، ومن لا يفهم هذه الحقائق كلها ويعمل لها، لا يقدم أي خدمة ثقافية وطنية قومية لبلده ووطنه وأمته.

إن ثقافتنا العربية القومية تواجـه في مـصر كامـب ديـفـيد، وعبرهـا في الـوطن العـربي كلـه، خطـراً داهمـاً مـن جـراء تطبيـع العلاقات مع إسرائيل، ورفع العلم الإسرائـيلي في القـاهرة، وفـتح الأبواب للغزو الإسرائيلي الثقافي والاقتـصادي والاجتماعـي. وفي مواجهة هذا الخطر ينبغي أن نستنفر كل أدواتنا الثقافية، ونحشدها، وأن نمنح أكـبر التأييـد وأصـدقه للمثقفـين المـصريين المناضـلين، للحفاظ على الثقافة القومية لمصر العربية، وأن نجعل وحدة الثقافة العربية سداً، دون تجزئة هذه الثقافـة، ودون فـك انتمائهـا العـربي، وبعـث الفرعونيـة والإقليميـة، أو بعـث أي شـكل مـن أشـكال التعددية الثقافية، وأي نوع من انعزاليتها، وأن نرفض مـا يزعمـون عن حضارة إسرائيل، وعن تخلـف العـرب، ونقـاوم مـد الجـسور الثقافية لأعدائنا، باسم التعامل الحـضاري، فالمعتـدون هـم هدمـة الحضارة، والإسرائيليون هم عنصريو الثقافة، وهم الذين يـسرقون آثارنـا في الأرض العربيـة المحتلـة، ويبيـدونها، ويغـيرون معالمهـا، وليس جسرهم إلا جسراً احتلالياً عدوانياً عنصرياً بغيضاً.

وقد أذاعت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، في حزب التجمع الـوطني التقـدمي الوحـدوي في مـصر، نـداءً ضـد الغـزو الثقـافي

الصهيوني قالت فيه: «إن الثقافة القومية في مصر تتعرض للخطر، منذ توقيع المعاهدة المصرية الإسرائيلية الأمريكية في ٢٦ مارس /آذار ١٩٧٩ التي تنص على قيام التعاون والتبادل الثقافي، وتوقيع اتفاقية بين مصر وإسرائيل قبل إتمام الانسحاب الإسرائيلي الكامل، عن الأراضي المصرية، والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وحقه في إقامة دولته المستقلة، الأمر الذي يتيح الفرص لهجمة صهيونية، على الثقافة المصرية القومية، تؤدي إلى ضياع الهوية المميزة لثقافة مصر، وبالتالي لشخصيتها، وعزل الثقافة العربية المصرية وحصارها، والتحريف الديني، وترجيح الثقافة الصهيونية الإسرائيلية، على ثقافة مصر وشخصيتها».

وقال بيان اللجنة إن ثقافة مصر الحديثة، منذ الثورة العرابية وإلى اليوم، قامت على منطلقات فكرية وطنية تحررية، معادية للاستعمار الأجنبي والتبعية الاقتصادية. وعلى هذا الأساس انطلق وارتكز كل ما أبدعه العقل المصري، واليد المصرية، في مجالات العلوم الإنسانية والتطبيقية والفنون والآداب والخبرة والتصنيع والتقدم الفني، ومن هذا الأساس استمدت الثقافة المصرية العربية مغزاها ومعناها، واستلهمت وألهمت الشخصية المصرية الهوية نفسها.

وماذا يجري الآن في مصر؟ إن الصحافة وأجهزة الإعلام الساداتية تشكك في هذه المنطلقات القومية الوطنية التحررية، وتضعها موضع التساؤل، وتقوم بحملة تشكيك في تاريخ مصر

الحديث، وتروج للعبقرية الإسرائيلية، والتقدم والتكنولوجيا في إسرائيل، مع التوكيد على حاجة مصر إلى التكنولوجيا الحديثة الإسرائيلية، ويجري تكريس القطيعة بين الشخصية المصرية والشخصية العربية، كما يجري تحريف ديني سافر، إذ بدأت إسرائيل فعلاً في منع آيات معينة من القرآن الكريم، وتحريم تلاوتها، في مساجد الأرض المحتلة، وقد سبق ذلك ارتكاب جريمة تحريف إسرائيل للدين المسيحي، وتعديل الكتاب المقدس، لتبرئة اليهود من دم المسيح، وقاومت الكنيسة القبطية في مصر، والكنائس الشرقية، هذه المحاولة، وثمة خطر من أن تتمكن الثقافة الصهيونية، في ظل أوضاع مصر الراهنة، وعزلتها العربية والدولية، من النفاذ والتغلغل والسيطرة.

وهذا الواقع يتطلب العمل السريع الجاد على الصعيد الثقافي، من قبل المثقفين المصريين الوطنيين والمثقفين العرب في كافة أقطارهم، بغية كشف المخططات الاستعمارية الصهيونية، والتصدي لها وإحباطها، ورفض أي شكل من أشكال التبعية، والدفاع عن الحضارة العربية، وعن المواقع القيادية التي تشغلها الخبرة المصرية الفكرية والإنتاجية، والتنبيه إلى محاولات تحريف وتشويه تاريخ مصر الحديث، وتأكيد الوحدة الوطنية، والمقاطعة الشاملة، لجميع عمليات التبادل الثقافي والعلمي والتربوي والفني، مع المؤسسات الصهيونية التي بدأت بوادرها بالفعل في عمليات التسلل إلى الجامعات، ومراكز البحوث، والمؤسسات العلمية، وأجهزة الإعلام.

وإذا كانت الثقافة لا تنفصل عن السياسة، فإنها لا تأخذ كذلك المقولات والتعبيرات السياسية، وتستخدمها. إن للثقافة أدواتها، وصيغها، ومستوياتها، وطرائق تعبيرها، وهي توظف كل ذلك في سبيل أن تقول ما تريده، بشكله الفني الأوفر تقنية وأصالة، ولكن الثقافة، في آخر المطاف، تدافع عن وجهة نظر سياسية أيضاً، حتى بالدلالة الاجتماعية التي تستنبطها من الحدث والموقف والرؤية، وبهذا تكون الثقافة وسيلة كفاح وطني وقومي، ونحن لا نريد من ثقافتنا القومية العربية أن تدافع عن الثقافة القومية في مصر وحدها، بل عن مصر كلها، والدفاع عن مصر يتطلب التصدي للنهج الاستسلامي الساداتي، نهج كامب ديـڤـيد، نهج الهجمة الأمريكية الإسرائيلية للهيمنة على المنطقة العربية، وبذالك نكون مدافعين عن القضية العربية، وجوهرها القضية الفلسطينية.

إن أمتنا العربية التي احتفظت، طوال قرون، بأهدافها القومية في التحرر والتقدم وبناء دولة الوحدة، ستعرف الآن أيضاً، أن تحتفظ بهذه الأهداف، وأن تبقيها حية، كما كانت حية على الدوام، ولن يستطيع السادات، ولا أمريكا، ولا إسرائيل، فصم مصر عن روابطها العربية، أو جزّها واقتطاعها من الوطن العربي، أو الحيلولة بين جماهير مصر وبين نضالها العنيد المتصاعد، حتى تسقط الخيانة، وتمحي آثار الجريمة، وتعود الشمس إلى إشراقها في وادي النيل، وتعود الخضرة إلى نضارتها، والماء النيلي الأزرق إلى صفائه وتدفقه الأزلين نحو البحر، حاملاً وحارساً رسالة الأمة العربية العظيمة، رسالة عرابي وعبد الناصر وزغلول والأفغاني وعبده والطهطاوي.

لقد قال الشيخ الحكيم للرجل صاحب البيت: عمّق الأساس يا سيدي، السر في عمق الأساس، في الذهاب عميقاً في الأرض.

ونحن، على الدهر، أحفاد الذين عمّقـوا جـذورنا في أرضـنا، حتى عجزت عواصف القرون أن تقتلعها.

إنما جذورنا هي الإسلام، هي اللغـة العربيـة، هـي الحـضارة العربية، وهي جماعها: القومية العربية.

وقوة، في الوجود، لن تستطيع اقتلاع دوحتنا،

وقوة في هـذا الوجـود، لـن تـستطيع منعهـا مـن الاخـضرار والإثمار،

وقوة، لن تستطيع، بأي شكل، أن تحول بيننا وبين النصر الذي سنبلغه بالتضحيات، مهما تغل التضحيات.

نفحات عطاء من تونس..(*)

أيتها الأخوات والإخوة

من تونس الخضراء تأتينا اليوم نفحات عطاء، هي في العطر شميم، وفي الفكر قبس، وفي الإبداع روائع، نعرفها عن هذا البلد العربي الشقيق الذي قدمت مواهب المبدعين من أبنائه كل مترف في الجمال، عميق في المعرفة، صادق في المشاعر الإنسانية العظيمة التي تترجم عن ذات المواطن التونسي، تاريخياً وحضارياً واجتماعياً، ويمتزج فيها حس القومية العربية التي كانت انتماء أصيلاً لديه، بالإطلاع الواسع على الثقافة التراثية، والثقافة العالمية، بما كان لتونس من إطلالات واسعة على تراث المعرفة البشرية.

ونحن سعداء غاية السعادة أن نستقبل في دمشق، ظئر العروبة، وحاملة راية الكفاح القومي، والصمود العربي، نتاج اخوتنا المبدعين التونسيين، هؤلاء الذين يمثلون مغربنا العربي، في كبير روافده الفكرية، وعظيم روائعه الفنية، وكشوفاته التي منها زهونا الحضاري، ومنها إضافتنا إلى التراث، وإسهامنا في كنز المعرفة الإنسانية.

(*) في افتتاح الأسبوع الثقافي التونسي في دمشق، ٢٢ /٥ /١٩٨٠.

إننا في هذا التبادل الثقافي، بين المشرق العربي ومغربه، وبين الأقطار العربية كلها، إنما نؤكد وحدة ثقافتنا العربية، كما نؤكد وحدة هويتنا، ووحدة أهدافنا وطموحاتنا، والرغبة المشتركة في أن نواصل شوطنا الثقافي الذي كان مجلياً في تاريخنا، وفي حاضرنا، وسيكون كذلك في مستقبلنا.

وهذا الجهد الثقافي المشترك، يعبر عن اتساق مع رسالتنا الثقافية، وانسجام مع رسالتنا الإنسانية، وهو خطوة جديدة نحو تحقيق ذلك الطموح العزيز في بناء الوحدة الثقافية العربية، ذات الدور الكبير والخطير في صياغة الوجدان الجمعي العربي، وصياغة مقومات وحدة عربية نعمل لها، ونعتبرها من أقدس أهدافنا.

كذلك فإن إقامة هذه الأسابيع الثقافية المتبادلة، هي تعبير عملي عن تنفيذنا لبيان مؤتمر وزراء الثقافة العرب الأول في عمان، الذي نص على أن ثقافة الأمة هي قوام شخصيتها، والمعبر الأصيل عن صبواتها وأمانيها، وأن التبادل الثقافي، بين الدول العربية، هو السبيل إلى التكامل والتماثل الثقافي، وهو السبيل إلى تداول الخبرات والتجارب، وإحداث التفاعل، والانتقال إلى وحدة الفكر، ووحدة المشاعر، تمهيداً لوحدة السياسة، ووحدة التطلعات المستقبلية.

إننا نرحب برسل الثقافة في القطر التونسي الشقيق، وننزلهم من أنفسنا وقطرنا منزلتهم من وطنهم، ونتشوق إلى الاطلاع على منجزاتهم الإبداعية، ونتمنى للأسبوع الثقافي التونسي نجاحاً مرموقاً، جديراً بالثقافة العربية الغنية في تونس، البلد العريق في حضارته، العريق في تراثه الفكري والفني على السواء.

لقاء على اسم المستقبل(*)

السيدة لودميلاجيفكوفا

رئيسة لجنة الثقافة - رئيسة المؤتمر

أيها الأصدقاء

أن يكون هذا اللقاء على اسم الطفولة، ولأجلها، فهو لقاء على اسم المستقبل ولأجله.

ذلك أن الطفولة هي المستقبل، وهكذا نكون، في بحثنا عن بسمة الطفل، نبحث عن شمس الغد، فلا شيء ينور الدنيا مثل أن يبتسم الصغير من سعادة، وأن يضحك الوجود من عدالة.

وإذا كانت سمة هذا العصر، هي السير دائماً إلى أمام، عبر صراع ضارٍ بين الجديد والقديم، بين التقدم والتخلف، بين العدوان، حرباً ظالمة، وبين حركة التحرر، كفاحاً عادلاً، فإن من سمات عصرنا المبارك هذا، العصر الذي مجد نضاله الشعراء، أنه ينهض بجناحيه كليهما، ويستنهض معه كل القوى الخيرة، فكأنه الموكب العظيم، تسير فيه البشرية إلى غاياتها سيراً حتماً لا رجعة فيه.

(*) ألقيت هذه الكلمة في مؤتمر عقدته بلغاريا احتفالاً بالطفولة في عاصمتها صوفيا عام ١٩٧٩.

والموكب البشري هذا لا يتأخر عن ميعاده المضروب، عند الأفق الأرجواني، ولا يتوقف عن هدفه المنحوت تمثالاً بأيدي المناضلين الأبطال، ولا يقهر لأنه يعتمد على الذي يولد، هذه القوة التاريخية التي لا أضخم ولا أقوى بين القوى جميعاً.

وتأتي الطفولة رمزاً وعنواناً.

هي رمز لا بتأكيد صيرورة الحياة، ربيعاً يتجدد، وفعلاً إنسانياً يحفظ النوع، وواجباً مقدساً نتداوله، جيلاً بعد جيل، بل أيضاً بما فيها، مع قوة النماء، من براءة القلب، فكأنها تنادينا أن نكون مثلها، على الكبر، نقاء ضمير، وطهارة يد، ووعداً بالعطاء، وعملاً لعالم ينتفي منه الظلم والحقد والاستغلال.

وهي عنوان لسفر اسمه الوجود، نحن فيه الكلمات، وعلى صورتنا يجب أن تكون، جميلة كالبنفسج، بيضاء كالزنبق، خضراء كشعب نيسان، تعرف أن الدنيا بدأت بها، إذ هي فكرة نبيلة، ومحبة وفعل طيب، وحلم من قوس قزح، ألوانه الخبز والزهر ودفتر المدرسة، وصورة الأبوة والأمومة والأسرة الهانئة، ومن معانيه الصحة، والنضارة، والعيش الرغيد.

ولقد قال شاعرنا العربي القديم:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

فالكبد هو الوعاء العضوي لأبهى المشاعر الإنسانية في تراثنا، والصغار الذين ينقط من أناملهم الضوء، هم قطع من الذات يبلغ حبنا لها درجة أن نفديها بذاتنا، والفداء المطلوب منا، أمهات وآباء،

أن نعمل ونعمل ونعمل لأجل الطفولة، بمقدار ما نعمـل ونعمـل ونعمل لأجل المستقبل، وأن نعي، في هذا العمـل الكبـير، مـا هـي الأخطار التي تتهدد الأطفـال، ومـا هـي الطـرق الـصحيحة التـي نسلكها لدفع هـذه الأخطـار، ثـم نعـرف كيـف نتنـادى، وكيـف نجتمع، وكيف نتضامن، في أوسع حشد ممكن، لا لإنقاذ الأطفـال من المرض والجوع والجهـل فقـط، بـل لنعـد لهـم وسـائل ممارسـة طفولتهم، ووسائل توجيهها الوجهة السليمة التي تضمن لنا ناشئة سليمة الأجسام، سليمة العقول، سليمة المفاهيم، تتلقى عنـا حـب الإنسانية العظيم، وحب الخـير الكبـير، وروح المـسئولية الجليلـة، ولغة التفاهم بين الشعوب، وشرف العمل الدؤوب الجاد، في سبيل أن ينتهي مـن عالمنـا وإلى الأبـد، الاسـتغلال البـشع، والاسـتعمار البغيض، والعدوان والحـرب والـدمار، وينتـشر الـسلام العـادل، ويتحقق التقـدم الاجتمـاعـي، وتزدهـر الحيـاة في جـو مـن الكفايـة والطمأنينية.

إننا في الجمهوريـة العربيـة الـسورية، نحـرص عـلى الطفولـة حرصنا على نور عيوننا، ونعمل، رغم التبعات الضخمة الملقاة على عاتقنا، كي نوفر لأطفالنا أفضل الشروط الحياتية الممكنة، ونبذل في سبيل سلامتهم وصحتهم وتعليمهم وتـوجيههم أقـصى جهودنـا، وتمتد مساحة رعايتهم منذ التكوين إلى اليفاعة، أي منـذ أن يكونـوا أجنة في الأرحام، حيث الاهتمام بالمرأة الحامل، إلى الـولادة حيـث الاهتمام بالأم والطفل، إلى أن يدرجوا وينموا حيث دور الحـضانة،

ورياض الأطفال، والمدارس الابتدائية، وبعد ذلك تأتي الطلائع وشبيبة الثورة واتحاد الطلاب، والتنظيمات الجامعية التالية.

ولكن علي، في هذا المجال، أن أقول إن الاهتمام بالأطفال، وتوفير حاجاتهم ووسائل رعايتهم، كانت تتضاعف، وترتفع إلى مستويات أعلى، لولا أننا في سورية مضطرون، أمام هجمات الامبريالية والصهيونية علينا، وأمام اعتداءات إسرائيل التي لا تنقطع، وبسبب من احتلالها أراضينا، واغتصابها حقوق الشعب العربي الفلسطيني، إلى تخصيص مبالغ كبيرة لشئون الدفاع والتحرير، وإلى بناء قواتنا المسلحة، لمواجهة عدو عنصري فاشي استعماري، بل هو أخطر حركة استعمارية عرفها التاريخ، ألا وهي الاستعمار الاستيطاني، والرغبة المحمومة في التوسع، والقضاء على الوجود العربي تدريجياً، وافتعال الأزمات لشن الحرب العدوانية، وآخرها أزمة الصواريخ السورية التي افتعلتها إسرائيل بتشجيع من أمريكا، والتهديد بحرب ضد سورية، والقيام باعتداءات وحشية يومية على جنوب لبنان، وقتل الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ، تماماً كما فعلوا من قبل إذ قتلت طائراتهم المئات من أطفال مدرسة بحر البقر في مصر، وأطفال مدرسة داعل في سورية قبيل حرب تشرين عام ١٩٧٣.

إننا بلد محب لسلام، محب للإنسان ولمجده وخيره، نعرف الحرب وكوارثها، ومدى ما تلحقه بالمدنية من دمار، وبالطفولة من شقاء، لكن إسرائيل التي زرعها الاستعمار العالمي في أرضنا العربية

المغتصبة، على أنقاض البيوت المهدمة، والسكان العرب المشردين، والمذابح الجماعية المرتكبة، تقوم بشن الحرب تلو الحرب، وتخرق ميثاق الأمم المتحدة، وترفض قراراتها، وتتشبث باحتلال أراضينا، واغتصاب حقوقنا، وتشريد شعبنا الفلسطيني الذي يعيش في المخيمات، وفي هذه الأيام تهدد بحرب عدوانية جديدة، لإرغام القوات السورية الشرعية، الموجودة في لبنان، على التخلي عن أسلحتها، ومنها الصواريخ الدفاعية التي تحمي بها نفسها، وتحمي الأرض اللبنانية من غارات الطيران الإسرائيلي. غير أننا لا نخشى العربدة الإسرائيلية، فمن حق قوات أي دولة أن تكون أسلحتها معها، حيثما وجدت وجوداً شرعياً، ونحن ثابتون في موقفنا الدفاعي، وصامدون في وجه المخططات الأمريكية الإسرائيلية العدوانية، وفي وجه اتفاقات كامب ديفيد، ولن نتنازل عن حقنا في تحرير أرضنا واستعادة حقوقنا، ونعلم أن قوى الحرية والسلام والاشتراكية معنا، وكذلك معنا كل الذين يؤيدون الحق، ويكرهون الحرب، ويريدون السعادة والطمأنينة للناس، والسلامة والازدهار للطفولة في كل مكان.

وإذا كنت، في هذا اللقاء المخصص للطفولة، قد تكلمت قليلاً في السياسة، فذلك لأن السياسة في القيادة، أي أن لكل شيء جانبه السياسي، والطفولة العزيزة علينا مهددة، أصلاً، بالسياسة الحربية العدوانية التي تسعى لتوتير الجو العالمي، ومنع الانفراج الدولي، والركض وراء التسلح، وتخصيص أضخم الموازنات للإنفاق العسكري، وإشعال الحروب المحلية التي تهدد بالاتساع، والتحول

إلى حرب عالمية، وإنشاء قوات التدخل السريع، وحشد الأساطيل والقوات العسكرية، كما يجري في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي، ومردود كل هذه التوجهات الاستفزازية، المعادية لروح ميثاق الأمم، ولقضية السلام العالمي، تنعكس على الطفولة بالدرجة الأولى، لا في البلاد النامية، الفقيرة، المتخلفة، التي يموت فيها ١٢ مليون طفل كل عام، من جراء الجوع وسوء التغذية، وسوء الشروط الصحية، والكوارث الطبيعية، ومن جراء الحرب، والعدوان، والمؤامرات الدامية التي تحيكها وتنفذها القوى الامبريالية والعنصرية، بل كذلك في البلاد الصناعية الكبرى، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، التي يعمل فيها الأحداث أعمالاً مرهقة، وفيها ثمانمئة ألف من «الأرقاء الصغار» الذين يجني أرباب العمل الثروات من استغلالهم، ويقتل فيها الأطفال الزنوج، وتجرب الأدوية عليهم.

إن تقرير مكتب العمل الدولي يشير إلى أن حوالي مئة مليون طفل في العالم مضطرون للعمل، و٢٥ مليوناً منهم يعملون في الميادين الصناعية والزراعية التي تفوق طاقتهم، و٤١ مليوناً يكدحون للحصول على لقمة العيش، وهناك أطفال مشردون، في افريقيا والشرق الأقصى، يباعون في سن الثانية إلى الثامنة من عمرهم، وكثيراً ما يرسل أطفال معسكرات اللاجئين والمعتقلات إلى العمل في بيوت الدعارة نفسها، كما في العاصمة التايلاندية، حسب تقارير مكاتب الأمم المتحدة.

لا أريد الإفاضة في وصف حالة الأطفال المأساوية، في كثير من أنحاء العالم، فكل منكم لديه معلومات ووثائق كافية عن ذلك،

لكنني أتوقف قليلاً عند مأساة الطفل العربي الفلسطيني، فالأطفال الفلسطينيون الذين شردوا من ديارهم وبيوتهم، منذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، وخضعوا هم وأهلهم للمذابح الجماعية، والإبادة الشاملة، والتهجير القسري، على أيدي الارهابيين الصهاينة، والسلطات الإسرائيلية العنصرية، قد عاشوا في فلسطين والبلاد العربية تحت المخيمات، عرضة للريح والبرد والمطر، ولأسوأ الشروط الصحية والطبيعية، مع الحرمان الشديد، وفي ظل أقسى الظروف، وهم كذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وقد انضاف إليهم، بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة، مئات ألوف الأطفال النازحين أيضاً، الذين سكنوا الخيام والأكواخ، ومازالوا في وضع مأسوي، ينتظرون العودة إلى ديارهم، وكثير منهم فقد أهله، بعد أن تشتتت الأسر، وضاع الأطفال خلال الهجرات الجماعية، وهرباً من المذابح.

أما أوضاع الأطفال الفلسطينيين، في الأراضي العربية التي تعيش تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي، فهي في غاية السوء، وتشير البيانات الإحصائية الإسرائيلية نفسها، وإحصاءات الأمم المتحدة واليونيسكو، التي جمعها مركز التخطيط الفلسطيني، إلى أن عدد هؤلاء الأطفال يبلغ ٤٩ بالمئة، أي نصف الشعب العربي الفلسطيني، وهم يعيشون في واقع مرير، من عدم الاستقرار النفسي، وفقدان الاحتياجات الضرورية لحياتهم، ويعانون من سوء التغذية، ومن الأمراض، وفقدان رياض الأطفال ودور الحضانة، ومن التمييز العنصري في المدارس، ومن محاولات التهويد الفظة

المفروضة عليهم، ومن تشغيلهم واستغلالهم، في وضع يعتصرهم، ويهدد حياتهم.

لقد أصدرت الأمم المتحدة، في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٩، «ميثاق حقوق الطفل» الذي ينص على أن جميع أطفال العالم، بغض النظر عن انتمائهم ولون بشرتهم ومعتقداتهم الدينية، يتمتعون بحق الصحة والتطور والتعليم والتربية والفهم والحب والحماية الخاصة والرعاية. ونص الميثاق على أن«البشرية ملزمة بأن تقدم للطفل أفضل ما لديها»، ولكن وضع الطفل، منذ ذلك الحين، لم يتبدل إلا قليلا، في الدول الرأسمالية والمتخلفة، فإن معطيات صندوق الأطفال التابع للأمم المتحدة، ومنظمة العمل الدولية، واليونيسكو، ومنظمة الصحة العالمية، تشير إلى أن ستمائة مليون طفل في العالم يعيشون حياة الفقر والفاقة، ومائتي مليون طفل يعانون من الجوع المستمر، وأن مليار إنسان في المعمورة لا يزالون مع أطفالهم، في ظروف سكنية وطبيعية، سيئة وقميئة.

وإزاء هذا الواقع، كان لابد من العمل الجماعي لأجل الطفل، وقد أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٩، عاماً دولياً للطفل، ولقي هذا القرار تأييد أغلبية بلدان العالم، ومنها سورية، كما لقي اهتمام المنظمات الشعبية، وجميع الأوساط الحكومية والاجتماعية والثقافية والتقدمية عندنا، وكان عاماً مكرساً للطفولة، تألفت فيه لجان قومية، مهمتها وضع دراسات عن حياة الأطفال، واتخاذ التدابير لزيادة الاهتمام بهم، وإثارة الانتباه الدائم حولهم، ووضع طاقات الدولة في سبيل حمايتهم، وحسن تنشئتهم.

وبإيجاز شديد، يمكن ذكر بعض النشاطات خلال هذا العام. فقد أقيم مهرجان شعبي كبير برئاسة السيد رئيس الجمهورية، وأقيمت مهرجانات متعددة في كافة المحافظات، اشترك فيها عشرات الألوف من الأطفال الذين قدموا فيها برامج فولكلورية ومسرحية وغنائية، وبذلت جهود خاصة للسهر على تطبيق قانون تعميم التعليم الإلزامي، للأطفال الذين هم في سن الدراسة الابتدائية، وأعفيت لعب الأطفال من الرسوم الجمركية، ونفذت مشاريع للإكثار من المكتبات ودور الحضانة ورياض الأطفال، علماً بأنه توجد الآن في سورية مئات المكتبات العامة الخاصة بالأطفال، وهي منتشرة في المدن والأرياف، وزيد عدد مراكز رعاية الطفولة والأمومة في كافة المحافظات، وصدرت قوانين لزيادة حماية الأطفال من العنف وأخطار الجنوح، وقوانين للاهتمام بالجانحين واللقطاء، وافتتحت معاهد للأطفال المعوقين، وأقيمت دورات متخصصة للصم والمكفوفين، وتركز اهتمام كبير على الوضع الصحي للأطفال، وتوفير الضمان الصحي لهم، ووضعت دراسات وبرامج إذاعية وتلفزيونية، لتنوير الطفل وإثارة خياله، وتوجيه الآباء والمربين، ونظمت مسابقات للرسم والعزف والغناء والأدب والفن للأطفال، وفتحت الأندية الصيفية بكثرة في المدارس، وجرى تنظيم معسكرات تعارف وتسلية للأطفال، وأصدرت مؤسسة البريد طابعين تذكاريين، وأصدرت وزارة الثقافة حوالي خمسين كتاباً للأطفال، مزينة بالرسوم، تشتمل على القصص والأشعار والحكايات، والأغاني، بالإضافة إلى كتب عن علم نفس

الطفل، ومشكلات الطفولة وأطفالنا كيف نفهمهم، وموسوعة علمية ميسرة لليافعين في أجزاء مصورة.

أستطيع، إذن، أن أؤكد أن عملاً ضخماً قد تم لأجل الأطفال، في العام الدولي للطفل، وما يزال مستمراً، كتقليد، وهو في اتساع دائم، وذلك بتوجيه وإشراف من الرئيس حافظ الأسد الذي قال بمناسبة العام الدولي للطفل: «إننا نحاول أن نوفر لأطفالنا كل ما يمكن أن يجعل منهم شباباً في الغد، صالحي الجسم والعقل، مؤهلين التأهيل الكامل لمواجهة التحديات، وصالحين لأن يكملوا مسيرة التحرير.. وأن نعزز في نفوسهم حب القومية العربية، حب الأمة العربية، والعمل الدؤوب الذي لا يعرف التوقف، لأجل تحقيق الوحدة العربية».

ومن أفق إنساني رحب، وبنظرة شمولية وضع الرئيس الأسد قضية الأطفال وضعاً عالمياً حين قال: «إن أمتنا، كما يؤكد التاريخ، أمة عريقة، لها حضارة ساهمت في تقدم الإنسانية، وقد قدمت لها ما يفيدها، ولم تكن، ولن تكون، إلا حاملة رسالة خير وحب للبشرية، وعلى أطفالنا، وأطفال الأمم الأخرى، أن يساهموا في رفع مستوى الإنسانية، وفي بناء ما هو مفيد لها، فنحن نحب لغيرنا من الأمم قدر ما نحب لأنفسنا، وهكذا نعلم أطفالنا الذين نرعاهم رعاية كاملة».

وبهذه التوجيهات الكريمة، الإنسانية والقومية، تغتني تجربتنا في تربية أطفالنا، وفي تشجيع إبداعهم، وتفتيح مواهبهم، وتسهم

وزارة الثقافة، والمؤسسات الأخرى المتخصصة، وفي مقدمتها منظمة طلائع البعث، رياضياً وتربوياً وفنياً، في بناء طفلنا فكرياً وجسدياً، وفي تهيئة كل ما يلزم له من وسائل ممارسة هواياته، من رسم وموسيقا ورقص وغناء وتمثيل وابتكار، وتتولى مراكزنا الثقافية، التي هي أيضاً قصور أطفال، والمنتشرة في كل أنحاء القطر، تقديم وتسهيل الأنشطة الثقافية والإبداعية الخاصة بالأطفال، كما تقوم معسكرات الطلائع، خاصة في الصيف، باستقبال مئات ألوف الأطفال كل عام، حيث توفر لهم برامج يشرف عليها الأخصائيون وتتنوع تنوعاً غنياً، من التدريبات إلى الرحلات، إلى اللوحات الفنية، والمعارض التشكيلية، والأفلام السينمائية، وتلقي الوعي والمعرفة والخبرات العلمية والتقنية، عبر نماذج ومجسمات، ومن خلال نشاطات يمارسونها طوال عام، في وحداتهم الطلائعية. وفي كل عام، وبمناسبة الاحتفالات القومية، تقوم أفواج الطلائع بفعاليات استعراضية وأدبية وفنية متعددة متطورة.

ولقد افتتحت، برعاية السيد الرئيس والسيدة الأولى عقيلته، وباهتمام أبوي منهما، مدارس أبناء وبنات الشهداء، هذه التي تعد من أرقى المدارس المماثلة في العالم، وأضخمها، يسهر عليها مشرفون ذوو اختصاص، ويجري فيها التعليم والتأهيل، وتقدم البرامج الفنية والتثقيفية، وفي عيد الشهداء من كل عام، وهو السادس من أيار، يحضر السيد الرئيس حفل عشاء مع المئات من هؤلاء الأبناء الأعزاء، الذين قال الرئيس في آبائهم الوطنيين إنهم أنبل بني البشر.

أيها الأصدقاء

لقد أقيم في ضواحي العاصمة البلغارية صوفيا، نصب فريد من نوعه وفكرته ومغزاه في العالم، نصب جميل رائع، أزيح الستار عنه في آب ١٩٧٩ بمناسبة انعقاد الجمعية الدولية للأطفال «راية السلام» في صوفيا، وتتدلّى من هذا النصب، وتقرع فيه الأجراس التي حملها أطفال العالم، من القارات الخمس، لتذكرنا بأن الطفولة مازالت تعيش حياة مأسوية، قاسية، وعلينا أن نتكاتف، ونعمل، لتحسين حياة أطفال العالم، ولحمايتهم من الفقر والجوع والمرض والأوبئة والكوارث والحروب العدوانية، وفي سبيل أن يربوا بروح التفاهم والصداقة بين الشعوب، في ظل سلام عادل وارف.

وإذا كان لي شرف الوقوف بينكم، ممثلة للسيدة عقيلة السيد رئيس الجمهورية العربية السورية، التي تفضلت فأنابتني عنها لأداء هذا الواجب الإنساني المقدس، لا يفوتني أن أنوه برعايتها للطفولة والأطفال، وبمشاركتها الصادقة في كل حركة عالمية تعنى بالطفولة، وإسهامها الكبير في هذا الحقل.

وختاماً أشكر الحكومة البلغارية الاشتراكية الصديقة، رئيساً وحكومة وشعباً، على هذا اللقاء العالمي لأجل الأطفال، وعلى اللقاءات السابقة التي أقيمت على أرضها، وبمبادرة منها، فهي تبرهن على أن الدول الاشتراكية تولي الطفولة كل عنايتها ورعايتها، وتوفر لها أسباب التفتح والازدهار، والصحة والسعادة، وهي تجعلنا في موقف الشكر وموقف التقدير.

وأحب كذلك أن أخص بالشكر السيدة لودميلاجيفكوفا، التي نلتقي بمبادرة ودعوة منها، والتي تبذل كثيراً من الجهد في سبيل الطفولة، عبر مسئولياتها الثقافية والإبداعية.

تحية لأطفال العالم من أطفال سورية، من أطفال فلسطين ومن أطفال الوطن العربي كله. ولتتبارك الطفولة، رمز غدنا الأفضل، وعنوان مستقبلنا الإنساني الذي نعرف أن كل ما هو جيد فيه سيكون للأطفال، ولأجل أن تشرق ابتساماتهم كالشموس المضيئة في سماء صافية، صافية.

الدور الكبير للعملية الثقافية في بناء الإنسان(*)

السيدة الرئيسة

السادة وزراء الثقافة

من دمشق، المدينة الأقدم في التاريخ، ومن سورية، بلد الحضارات، آتيكم رسولة ثقافة، يسعدها أن تلتقي رسل الثقافة من بلدان العالم، كي تبحث معهم، في جو من التعاون، الدور الكبير والخطير للعملية الثقافية في بناء الإنسان والمجتمع، وفي تطوير الثقافات الشعبية التي تحمل الخصائص الحضارية والتراثية لكل بلد، وتطمح إلى أن تؤكد ذاتها، قناة معرفية تصب في النهر الثقافي العظيم، النهر الذي يواصل، منذ فجر التاريخ، جريانه في أرض البشر، ترفده عطاءات الشعوب الإبداعية، ذهنياً وسلوكياً، وتسهم في حفظه وإغنائه، كيما يفيض بالخصب الفكري على ضفتيه، ويتابع مسيرته إلى بحر الحضارة البشرية الذي لا أبقى ولا أبهى منه بين البحار.

(*) في مؤتمر وزراء الثقافة الدولي الذي عقد في بلغاريا نهاية عام ١٩٨٠.

آتيكم إلى هذا اللقاء، وفي الذهن المفهوم المجيد للثقافة، من حيث هي وسيلة لنشر المعرفة والتقدم والسلام والإخاء بين الناس، ومن حيث هي الأداة للتبادل الفكري والفني، وإقامة الصلات بين الأمم، وزيادة التعارف، وتبادل الخبرات، وإنماء الإرث الحضاري المشترك، الذي ورثناه كبيراً من الماضي، وعلينا أن نورثه أكبر للمستقبل.

إننا في الجمهورية العربية السورية نعنى أفضل العناية بالتراث والمعاصرة، ليتشكل من لقائهما، ومن استخراج أفضل ما فيهما، خط ثقافي له كل مقومات ما كان، وما هو كائن، في الفكر والمعرفة. وأرضنا التي تزدحم بالآثار الحضارية، والتي يعود بعضها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وتتساوى مع حضارتي مصر وما بين النهرين، مثل حضارة إيبلا التي اكتشفناها مؤخراً في تل مرديخ شمال سورية، والتي ستلقي الضوء على مراحل مجهولة من التاريخ: أقول إن أرضنا هذه بكنوزها الأثرية، تتكشف كل يوم، بفضل بعثات التنقيب الوطنية والأجنبية، عن لقى حضارية لا حد لقيمتها، تثبت عراقة شعبنا العربي، وإسهامه القديم والمتواصل، في إغناء إرث الحضارة.

كما نهتم، تراثياً، بكل مخلفات أسلافنا الأوائل، من مخطوطات وكتب ورقم ولوحات حجرية وفنون شعبية، تعود إلى ما قبل التاريخ، وإلى العصر الإسلامي، وتتواصل حتى أيامنا هذه، فنعمل على ترميمها وتصويرها، وتحقيقها وترجمتها ونشرها، كي تكون فائدتها عامة.

ومثلما نهتم بالتراث، نفعل بالنسبة للحداثة. إن القديم والجديد، التراثية والحداثة، كلتاهما تنالان من جهدنا الثقافي قدراً كبيراً متزايداً. وأنتم تعرفون، دون حاجة إلى التفصيل، دور العرب الأوائل في مجال نقل وتطوير العلوم، من الفلسفة إلى الفلك إلى الرياضيات والمنطق وعلم الاجتماع وغيرها، ونحن نعرف، دون حاجة إلى التفصيل أيضاً، دور أوروبة في العلوم الحديثة، وخاصة في حقل التكنولوجيا، هذه التي أريد لها أن تكون عنوان عصرنا الصناعي. ولأن حضارتنا كانت منفتحة دائماً، تأخذ وتعطي، تفعل وتتفاعل، فإننا نواصل الشوط، طامحين إلى اللحاق بركب الحضارة في القرن العشرين، والإسهام فيها، عن طريق منجزات علمية وفنية ذات قيمة. وتلعب الثقافة، والتبادل الثقافي، في كل الحقول، دوراً بارزاً في هذا المجال.

قال مكسيم غوركي: «الإنسان هذه الكلمة تصدح بفخر» ونحن نفخر بالإنسان، ونعمل كل شيء لمجده، لخيره، للسلام والتفاهم والمساواة، وضد العنصرية والعدوان، والموت، لكننا نواجه، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عدواناً متواصلاً على أرضنا وحقنا وآثارنا، تقوم به إسرائيل، هذه الدولة الاستعمارية الاستيطانية التي غرستها ودعمتها الامبريالية العالمية، والتي تسلك سلوكاً توسعياً مسلحاً، وترفض قرارات الأمم المتحدة، وتخرق الميثاق الدولي، وتتشبث باحتلال الأراضي العربية، واغتصاب الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني الذي شردته، وتعمل

بمساعدة مسلحة كبيرة من الامبريالية، عـلى فـرض الأمـر الواقـع علينا، وإرغامنا على قبول حل استسلامي، يتمثل باتفاقات كامـب ديـڤـيد المعروفة.

أيها الزمـــلاء

إن الثقافة مدعوة لأن تلعب دورها في نـشر المعرفـة، وصـيانة الحضارة البشرية، وإغنائها، ولـيس كمثـل العـدوان والاغتـصاب والتزوير من أخطار مدمرة للثقافة والحضارة والقيم، وليس كمثلها من شرور على علاقات التعاون والتفاهم والسلام العادل في العـالم بأسره.

إنني أشكر الجمهورية البلغارية الاشتراكية حكومـة وشـعباً، على جهدها الكبير في تنظيم هذه الندوة الثقافية، ونأمـل أن تـؤدي إسهاماتنا جميعاً في إنجاحها، وفي تطوير علاقات الثقافة بين الـدول المشتركة فيها.

حين استوى التاريخ على قمة الشهب(*)

في تاريخنا العربي المجيد، كان عناق السف والقلم، عناق نجمة لأختها، في الفلك الذي إلى سدرة منتهى جناح، وإلى الأفق الذي لا حد له جناح آخر. كنا نأتي الفتح العظيم قناة على اسم الحق، ونأتي الحضارة يراعة على اسم المعرفة، وكان الموكب يتقدم، راية للهدى، وراية للنور، حين ظلام الجاهلية، في جزيرتنا الأم، غمامة ولا أسود.

هكذا كنا، في صناعة التاريخ العربي الإسلامي، رسلاً للوعد البكر المسوّر بألق النبوة، ورسلاً للإشعاع، المسرج بزيت إبداع ملأ الدنيا وأفاض، ومنه، في عطاءات العقول الملهمة، أعرنا العالم الآتي قبساً فقبساً، في الطب والفلك والجبر والهندسة والفلسفة وعلم الكلام وعلم الشريعة والفقه، ومن بعدنا، وبإسهامنا، زهت العلوم، وكان للثقافة طريق إلى المجرة.

إذن نحن لا نأتي الباب المرصود وعلى شفاهنا كلمة سر. نحن الكنز والرصد والسر جميعا، ونحن، في الطلوع على الدنيا، قادة عظاماً للسيف، كنا، أيضاً، قادة عظاماً للقلم، ومن بعدنا استوى التاريخ على قمة الشهب، وامتد، موغلاً في حكايته، إلى أيامنا هذه.

(*) في مؤتمر وزراء الثقافة حول الأمن الثقافي العربي، الجزائر عام ١٩٨٣.

لكن قروناً تلت، وأسبابها معروفة، دهت الوطن العربي داهية، فكان الحكم العثماني، وكانت، من بعده، الاحتلالات الأجنبية، وبذلت جهود، هي الطاقة وما فوقها، لاستلاب الفكر العربي، وطمس اللغة العربية، وقصم الانتماء، وتغييب القومية، واقتلاع جذور الحضارة، وعبثاً جهدوا وعملوا، على مدى عصور، لتحقيق بغية السوء هذه، لأن تاريخنا المشترك، وثقافتنا الواحدة، ولغتنا العربية الجامعة، وحضارتنا التي من الرسوخ ما أذهل، قد انتصرت، وكانت إلى بقاء، وكان أعداؤها إلى زوال، وعصفت بقشورهم ريح التغيير.. ومن جديد، منذ النهضة، استأنفنا المسيرة، وعاودنا الإسهام في شوط الحضارة، غير أن معنى الثقافة، في واقع العصر، ظل في المبهمات، وظلت هامشاً على دفتر الوقائع، وليس إلا بعد استقلال البلاد العربية، بدأت تأخذ حيزها وقيمتها، ومنذ بداية النصف الثاني لهذا القرن، أخذت النظرة إليها تتبدل، فبعد أن كانت حلية أصبحت ضرورة، وبعد أن كانت، في قصور النظرة ترفاً، صارت في هم النضال جبهة، وأصبحت، وستصبح أكثر، من أكرم جبهات النضال.

إننا نجتمع في الدورة الرابعة لمؤتمر الوزراء المسئولين عن الشئون الثقافية في الوطن العربي، وفي جدول أعمالنا بنود بالغة الأهمية، مثل الموقف التنفيذي للتوصيات السابقة، مشروعات الترجمة، نتائج المؤتمر السادس العالمي للسياسات الثقافية، وانعكاساتها على الثقافة العربية، وغيرها من عناوين تتفرع إلى

موضوعات محددة، مثل التخطيط الشامل للثقافة العربية، الموسوعة العربية، المكتبة القومية المركزية، الخطة القومية للترجمة، وغير ذلك، ولدينا حولها كلها دراسات ونشاطات مفصلة، ينبغي لنا أن نناقشها، وندرسها، ونستخلص منها نتائج، ونتخذ فيها قرارات، وهذا كله يحتاج إلى جدية، إلى مسئولية، وإلى نظرة جديدة لدور الثقافة، سبقت الإشارة إليها، ودونها، في هذا المجال الخطير لمهمتنا، لا يمكن أن نكون، أو نصبح، على قدر التحديات المعادية، التي لها، كما قلت، جبهتنا، وعلى هذه الجبهة يركّز عدونا، بل أعداؤنا، وينشطون، ويبذلون الجهد والمال، ويلجؤون إلى التخريب والتزوير، في محاولات مستميتة لغزونا ثقافياً، كما بينت المذكرة المقدمة إليكم من وزارة الثقافة في سورية، وفيها وقائع موصوفة، مما يجعل العنوان الرئيسي لمؤتمرنا«من أجل أمن ثقافي عربي» قضية القضايا في عملنا الثقافي كله.

إن الأمن الثقافي العربي كان يجب أن يكون موضوعاً متقدماً بالنسبة لدورتنا هذه، ذلك أم كل وسائلنا الثقافية، دون أمن ثقافي، تصبح معرضة للخطر، وحتى إنتاجنا الثقافي نفسه، الذي نوفر له، من خلال إنجازاتنا، وسائل الممارسة، لابد أن يضع في رأس توجهاته أنه مهدد إذا لم ندرأ عنه خطر الغزو الثقافي الصهيوني الامبريالي. لقد استشعرت دول متطورة وعريقة في حضارتها مثل فرنسا، على لسان وزير ثقافتها، في مؤتمر السياسات الثقافية في المكسيك، أن أمريكا تريد أن تسيطر ثقافياً، وتصادر المقومات الثقافية للدول الأخرى، وأنتم تعلمون عداء أمريكا للعرب،

وحلفها الاستراتيجي مع عدوتنا إسرائيل، وإذن فخطر الغزو الثقافي الأمريكي، المسوّق إلينا بألف وسيلة إعلامية، من الفيلم إلى الشريط إلى الكتاب فالأغنية، وكذلك خطر الثقافات المعادية، عبر كل هذه الأدوات، هو خطر قديم، ترافق مع ظروف الاحتلالات، وظل، بعدها، في صور مختلفة، ثم أضيف إليه الغزو الثقافي الصهيوني، فأصبح الخطر داهماً لابد حياله من يقظة كاملة، من وعي عميق، ونظرية، وموقف، وإجراءات للمقاومة، فالغزو الثقافي الصهيوني، سبق ورافق، وتلا، الغزو العسكري الإسرائيلي، وأصبح مضاعفاً بعد الصلح بين مصر وإسرائيل، وبعد تطبيع العلاقات، وتبادل الاعتراف والتمثيل الديبلوماسي، وعبر مصر واتفاقات كامب ديفيد، بل عبر النزعة الفرعونية، وعبر التعددية الثقافية الموجهة ضد وحدة الثقافة العربية، وفي محاولات التهويد الجارية في الأراضي العربية المحتلة، يمكن أن نلمس انسرابات الغزو الثقافي الصهيوني، الذي من أولى مهامه زرع روح الإقليمية، والتجزئة، والدعوة لدول الطوائف، وكلها ضد فكرة الوحدة العربية سياسياً، وضد فكرة الوحدة الفكرية ثقافياً، وفي وثائق مؤتمر وزراء الثقافة العرب الاستثنائي، الذي عقد في دمشق صيف عام ١٩٨٠، وقائع مخيفة عن هذا الغزو، وخاصة وقائع ما يجري ضد إخوتنا الفلسطينيين في ظل الاحتلال، وسيكون لدى مؤتمرنا الكريم هذا، ومن خلال كلمات الزملاء، وقائع جديدة وإضافية عن الغزو الصهيوني، مما يجعل موضوع الأمن الثقافي في مستوى موضوع الأمن القومي، لأنهما مترافقان، ومتلازمان.

إن إسرائيل التي شنت حروباً عدوانية عديـدة عـلى العـرب، واجتاحت لبنان بغزو وحشي في صيف العام الماضي ١٩٨٢، وكان صمود المقاتلين الفلـسطينيين، وقـوات الحركـة الوطنيـة اللبنانيـة، والقوات السورية الباسلة، بمثابة كسر لشوكتها وصـلفها، وربحـاً معنوياً وسياسياً لنا. إن إسرائيل هذه، تهدد بعدوان عـلى سـورية في الوقت الحاضر، وترفق عدوانها، بل تمهد لـه، بغـزو إعلامـي، هـو جزء من الغزو الثقافي. ونحـن في سـورية، بقيـادة الـرئيس حـافظ الأسد، نتخذ أقصى الاستعدادات لمجابهة الخطر، ولخوض المعركة، ونعلم، ويعلم العرب كلهم، أن سورية الصامدة لن تستسلم، وأنها بصمودها العسكري، تمثل صموداً ثقافياً أيضاً، ومن هنا فإن دعـم موقف سورية، في المجالين، يصبح جزءاً من موضوع الأمن الثقافي، وجزءاً من موقف التصدي للغزو الثقافي الإسرائيلي، وأنا عـلى ثقـة أن مؤتمرنا، سيولي هذه الناحية ما تستحق من اهتمام، وسيتوسـع في دراسة موضـوع الأمـن الثقـافي العـربي، ويتخـذ بـشأنه القـرارات اللازمة.

غير أن مقاومة الغزو الثقافي الصهيوني، ضماناً للأمـن الثقـافي العربي، تتوقف، إلى حد بعيد، عـلى تـوفر وسـائل إنتـاج وممارسـة الثقافة الوطنيـة، القوميـة، التقدميـة، الإنـسانية، المكافحـة، وعـلى وسائل نشرها، ومن هنا تكتسب مواضيع التخطيط للثقافة العربية، ووحدتها، والموسوعة العربية، والمكتبة القوميـة المركزيـة، والخطـة القومية للترجمة، قيمتها الكبرى، لا في مجال القرارات والتوصيات،

فهذه أصبحت كثيرة، ومكررة، بل في مجال تنفيذ هذه التوصيات تنفيذاً كاملاً، ومراقبة هذا التنفيذ، والمطالبة به، بل والإلحاح عليه أيضاً، وسنرى، من خلال دراسة موضوع التوصيات السابقة، كيف تقوم فجوة، وهي كبيرة، بين القرار وتنفيذه.

وإذا كان من البدهيات، أن الجهد الثقافي يتوقف على إنتاج الثقافة، فإن هذا الإنتاج لن يزدهر إلا في جو من الحرية والديمقراطية، وهذا ما ينبغي أن يكون مفهوماً تماماً، وأن تصدر عن هذا المؤتمر توصية تدعو إلى تعميق مبدأ حرية التعبير في الوطن العربي كله، وفي جو هذه الحرية، يمكن أن نرى إلى قضية التراث، وضرورة الحفاظ عليه وإحيائه، من وجهة نظر تقدمية، عصرية، تأخذ التراث ككل، وخاصة الجانب الحي منه، الذي يعطي إضافته للحاضر، ويؤكد بطلان الثقافات المقفلة، لأن حضارتنا كانت منفتحة دائماً، ومتفاعلة دائماً، ولا تلغي غيرها، ولا تسمح لغيرها بإلغائها، لأنه ليس من حضارة لاحقة تنفي حضارة سابقة، بل تؤكدها بالتداخل معها، تأثراً وتأثيراً، والحفاظ على التراث لا يكون لذاته، بل لاكتشاف ما يكمن فيه من عناصر التفكير البشري السليم، ذات الطابع الإنساني المشترك، والنظرة إلى التراث، وهو هويتنا ومصدر حضارتنا، على هذا النحو، ومن موقع الحاضر، يحسن ألا تكون ماضوية، بل مستقبلية بكل معنى الكلمة.

أما الوحدة الثقافية العربية، فإنها ستبقى، رغم الظروف والانقسامات العربية، هدفاً كبيراً من أهدافنا، ولابد من التأكيد

على مضمون هذه الوحدة، وعلى قوميته، وديموقراطيته، وروحه المستقبلية، وانفتاحه على ثقافة العصر، بما فيها من تكنولوجية وعلوم إنسانية، لا بصفتها أفكاراً ساكنة، ثابتة، بل كأفكار قابلة للتطور، ولاستمرار هذا التطور، وفي هذا السياق فإن وحدة الثقافة العربية، في ثقتها بذاتها، وبديمقراطيتها، وعصريتها، تستطيع أن تجسد مقومات الهوية الحضارية، أو الذاتية العربية، لتكون هذه المقومات ركناً أساساً من التكوين الثقافي العربي. وبغير ذلك لن نتوصل إلى الثقافة التي ننشدها، ولن نبلغ الوحدة الثقافية المرجوة.

ثم علينا، في موضوع الأمن الثقافي العربي، أن ندرس الفكر الصهيوني لنستطيع مقاومة غزوته، ونفهم، من خلاله، نشاط عدونا، ونفسيته، وطرائق تفكيره، وأساليب انسرابه، كي لا يظل عدونا شبحاً نجهله، ونحاربه في غبش من الجهل به.

إن العدو الصهيوني، الذي يحلم، ويعمل لحلمه مسلحاً حتى الأسنان، بإمبراطورية تمتد من الماء إلى الماء، يعتمد الثقافة الخبيثة كما يعتمد الآلة المدمرة، وعلينا، في المقابل، وإلى جانب مقاومة غزوه الثقافي، أن ننتج ثقافة أصيلة، معافاة، وأن نعتمدها في المقاومة، تماماً كما نعتمد السلاح في المعركة، وحسب هذا المؤتمر أن يخطط لإنتاج هذه الثقافة، ولتوفير وسائل ممارستها ونشرها، كي يحقق تقدماً كبيراً على الجبهة الفكرية.

إنني أشكر، باسم الوفد العربي السوري، الجمهورية الجزائرية الشقيقة، رئيساً وحكومة وشعباً، على استضافتها هذا المؤتمر،

وتنظيمه، وتوفير أسباب نجاحه، كما أشكر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على جهودها في الإعداد له، وأتمنى له كل التوفيق، وأحمل إليكم جميعاً أصدق التحيات والتمنيات من الرئيس حافظ الأسد، ومن سورية وشعبها.

الثقافة العربية والعالم
معاصرة وتراثاً
آفاق التعاون بين العرب وأمريكا اللاتينية(*)

الكلام على الثقافة هو الكلام على الحياة، فالبدء الذي كان كلمة، أي فعلاً، كان حياة، وفي هذا الفعل الذي يعطي للكائنات أن

(*) عُقدت في برازيليا، عاصمة البرازيل، من بين ٢١ -٢٣ أيلول ١٩٨٨، ندوة حول العلاقات العربية اللاتينية،نظمتها الجامعة العربية بالتعاون مع منظمة الدول الأمريكية اللاتينية، تناولت بالبحث والمناقشة الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية بين البلاد العربية وبلدان أمريكا اللاتينية.

وقد مثلت الجانب العربي في موضوع العلاقات الثقافية، حين كنت وزيرة للثقافة، وألقيت محاضرة باسم الجانب العربي في هذه الندوة الهامة والأولى من نوعها، والتي حضرها كبار المفكرين العرب والأمريكيين اللاتينيين الذين تناولوا علاقاتنا بالبلاد الإيبرية، في الماضي والحاضر والمستقبل، من الجوانب السياسية والاقتصادية، وكيفية تطويرها، لمصلحة الشعب العربي، وشعوب أمريكا اللاتينية التي تشغل حيزاً هاماً من مساحة الخريطة العالمية، وتشكل مجموعة كبيرة ذات أوضاع سياسية واقتصادية وثقافية متشابهة أو مشتركة ومتميزة، وذات فعالية وتأثير على العلاقات الدولية.

ولا بأس بأن أشير إلى أن ما جاء في هذه المحاضرة لقي تأييداً من الحضور، وعرفاناً بما قدمه العرب لبلدانهم، وكان الشيء الوحيد الذي كان فيه فضل للاستعمار الإسباني هو هذا النقل لحضارة العرب إليهم.

تعبر عن نفسها وجوداً، وعمراناً، وعلماً، وسلوكاً، أي يعطي للكون أن ينشئ نفسه كوناً، يتميز الإنسان باجتماعيته، ومن هنا قالت الفلسفة اليونانية ان الإنسان حيوان اجتماعي، فجاء العرب الذين أخذوا بالمنطق، فقالوا إن الإنسان حيوان ناطق، إذ بالنطق وحده يفترق، يتسامى، يبدع، يؤلف الوطن والأمة، بالكلام الذي به، وتحته، تندرج كل معطيات الوجود.

إذن مجد دنيانا، وما أكبر، هو مجد الكلمة إذ هي ثقافة، ومجد ثقافة إذ هي، في تراكمها على مدى التاريخ، حضارة، والحضارة نتاج علم وعمل، أي نتاج سلسلة طويلة من عطاءات العقول والأيدي، فمنذ كانت الكلمة البكر، كان الفعل البكر، لأن الكلمة، في صياغتها لوجدان الإنسان، فعل معرفة، تتحول، في التطبيق، إلى عمل معرفي، لذلك كانت اللحمة الأبدية، وستبقى ما بقيت الدنيا، بين الكلمة والفعل، ولا انفصام بينهما، فالنقلة التاريخية، منذ المشاعية البدائية إلى الاشتراكية، أي عبر الأنظمة الخمسة التي عرفتها البشرية في مسيرتها، كانت نقلة وعي تجسد في حركة، في اندفاعة، في ثورة، في انتقال من نظام إلى آخر. ومسيرة الحياة، في تقدمها، وتصاعدها، كانت تعبيراً عن فكر هو معرفة، هو وقود ليد صناع، وهو الزيت لسراج، بها ومعها، كان فأنار، واستنار، وأبدع، وأعطى، ومازال يبدع ويعطي وسيستمر.

هكذا شموخ المعرفة، من شموخ الحركة الناتجة عنها، وبالعكس، والمعرفة عقل، لذلك كانت العقلانية، في محاولاتها

للتجسد سلوكاً، منظومة أفكار، تترجمها الكلمات والأنامل، ويمشي بها الضوء في المادة، محيلاً الجمادات إلى نواطق، حاملاً، كالسلك المكهرب، ذرات النور التي تحس ولا تُرى، حتى تنتهي إلى مصباح يشع، وآلة تتحرك، وإلى وقود ذري في عصر التقنية هذا، صعدنا به إلى الفضاء، واكتشفنا مجاهله.

والمعرفة، في دلالتها الشاملة، هي ثقافة، وهذه في تعريف موجز لها، هي جماع النشاط الذهني والسلوكي لشعب من الشعوب وأمة من الأمم، وتعني، في مجموع عناصرها، بناء فكرياً كريماً، ينهض على أسس من النتاج العقلي، في تعبيره الأدبي والفني، وفي استمداده من الواقع، وانصبابه في الواقع، في حركة تأثر وتأثير، وفي تفاعل مستمر، يغني الحياة ويغتني بها، ويؤسس لمستقبل أفضل، مادام جهد الثقافة مستقبلياً، رغم فترات المحن التي تمر بها، وتعرف كيف تتجاوزها، فتشرق شمساً منيرة من وراء غيم كثيف، قشعته عواصف الريح إذ هي تذور قشور أعداء الثقافة الذين حسبوا، أو يحسبون، أنهم قادرون على وقف عجلة التاريخ.

والثقافة بناء فوقي، يعكس الكثير، بل مجمل ملامح البناء التحتي، الاقتصادي والاجتماعي، ويترجم عن الواقع المادي في صيرورته نتاجاً، من خلال العمل الذي يتضمن النتاج الفكري أيضاً، باعتبار المثقفين منتجين فكريين، يصوغون الواقع في إبداع، ويعبرون عنه في حالة ارتقاء، فإذا كان هناك نظام وطني وقومي فلابد أن يعكسوا ثقافة وطنية قومية تقدمية إنسانية، وإذا كان هناك

نظام لا وطني ولا قومي، فلابد أن يفرز فيما يفرز ثقافة لا وطنية، ولا تقدمية، عنصرية، فاشية، ذلك أن كل بناء تحتي في الاقتصاد والمجتمع، يعطي مردوداً معيناً في البناء الفوقي، الثقافي، وفكراً معيناً، وسلوكية معينة، وأخلاقية معينة بالتالي، وينسرح على مجمل المواقف السياسية والاجتماعية.

ولأن الثقافة نشاط ذهني وسلوكي، فهي أبعد ما تكون عن آلية الانعكاس. فقد تكون في هذا البلد أو ذاك أوضاع فاسدة، متخلفة، وتكون فيه ثقافة جيدة متقدمة، قوامها الاحتجاج على التخلف والعمل لإزالته.

إن الثقافة تعبر، في أحيان كثيرة، عن أفكار انتشرت في الناس فاكتسبت قوة المادة، وصار لها تأثيرها في البناء الفوقي، فهي ثقافة وطنية ثورية إبداعية، ينادي بها المفكرون والكتاب والفنانون، رغم أن النظام الذي يعيشون فيه ضد كل هذه القيم، وهنا يكون للثقافة دور تغييري، فهي استئناف ضد الواقع، وليست انعكاساً بسيطاً مسطحاً له، وهي قائدة فكرية، تلهم الناس أفضل وأكرم أفكار النضال ضد الواقع البائس الذي يحيونه، وتعلمهم ان يغيروه ليبنوا واقعاً تقدمياً، إنسانياً، ثورياً، كما في الثورات الكبرى في التاريخ.

وإذن فكي نعرف ثقافة ما يجب أن نعرف النظام الذي تنتمي إليه، والموقف الذي تتخذه، والجو الذي تصدر فيه وعنه، والأشخاص الذين ينتجونها. ولابد من أن نناضل بغية امتلاك ثقافة متقدمة، من أجل نظام متقدم، متحرر، متطور اقتصادياً

واجتماعياً، يقف مع حركة التاريخ لا ضدها، مع حركة التحرر الوطني، ضد العدوان، وضد احتلال أرض الغير بالقوة، وضد العنصرية والفاشية وجميع الشرور الاجتماعية.

لهذا فإن الثقافة العربية، في وقتنا الراهن، تنطلق من مفهوم بناء المواطن فكرياً، وبناء الوطن اقتصادياً واجتماعياً ونضالياً، ونشر المعرفة، والوعي، والتذوق الفني، وروح التفاهم والتبادل الثقافي بين الأمم، واحترام سيادة الغير، وبناء العلاقات المتكافئة بين الدول، على أساس الاحترام المتبادل، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، وتعميق فكرة الوحدة العربية، على أساس التوجه القومي في كل الأنظمة الثقافية، والعمل للوحدة الثقافية العربية، باعتبارها عاملاً ممهداً ومرسخاً للوحدة السياسية.

إن ثقافتنا، في أصالتها وجديتها وارتباطها الوثيق بالتراث، تصدر من منطلق قومي، وطني، ديمقراطي، منفتح، متسامح، وتعي مهمتها الكبرى، وهي تربية المواطنين العرب، وخاصة الشباب والناشئة، بروح القومية العربية التي تعني في ترجمتها الفكرية والسلوكية حب الوطن، حب الأمة، حب الأرض، حب القيم، حب التفاهم مع الشعوب الأخرى، وتطوير العلاقات الثقافية معها، عن طريق أوسع تبادل ممكن.

ويجري التعبير عن هذه الأهداف من خلال العملية الثقافية، بوعي لأثرها وخطرها، وبأرقى أشكال الإبداع الثقافي، في الأدب والفن، وأكثرها أصالة وجدية ومعلمية، فالفكرة الجيدة تحتاج إلى

شكل جيد، وأداء جيد، وإخراج جيد، لتعطي دلالتها من قلب حدثها، عن طريق طرح المشاكل طرحاً صحيحاً، وتوجيه الناس إلى الحلول الصائبة، وعلى أساس من هذا الفهم لضرورة الاجتهاد في الجودة، والتنويع، وإتاحة الحرية للمبدع، كي يعبر عن ذاته كما يريد، وضمن المسؤولية البناءة، تتشكل الثقافة العربية، ثقافة الإبداع، والبناء الفكري، وإيقاظ الوعي، وبث المعرفة في الناس.

ولأن الثقافة شمولية، فهي أبعد ما تكون عن أحادية الجانب، وفي التشكل أدباً وفناً، يفرض الصدق الفني التمييز بين الخطأ والصواب، بين السلب والإيجاب، وبمقدار ما ينتقد الأدب والفن السلب فإن عليهما أن يؤيدا الإيجاب، فالأدب مثلاً، حين يكون أحادي الجانب، لا يرى من الحياة سوى جانبها السلبي، وفي هذه الحال يعزل نفسه، يصرخ في فضاء ويصل بحكم هذه السوداوية إلى درب مسدود، إلى الرفض المطلق، الذي ينتج قبولاً مطلقاً، لذلك فإن الثقافة العربية، في قسمها الأكبر، ثقافة موضوعية، تنطبق عليها المقولة الشهيرة: «لدى الناس دائماً مادة للاحتجاج، للانتقاد، ولكن ليس لديهم، ويجب ألا يكون لديهم، مادة لليأس».

وفي التواصل الثقافي مع العالم، فإن تطوراً ملحوظاً، عاماً بعد عام، يتم في مجال المبادلات الثقافية، وتجري في الوطن العربي الآن حركة ترجمة نشيطة ومزدهرة، ليس لسعتها وتنوعها وغناها مثيل في التاريخ العربي الحديث، وتشمل هذه الترجمة الفكر والاقتصاد وعلم الاجتماع والعلوم الإنسانية والأدب والفن الكلاسيكيين،

والأدب الرومــانتيكي الأوروبي اليونــاني، والفكــر الأوروبي، الاقتصادي والفلسفي والاشتراكي، وأدب أمريكـا اللاتينيـة بكـل أجناسه، كما ترجمت مؤلفات معظم كتّاب الرواية والمسرح والقصة والشعر والبحـث العلمـي والموسـوعي، بكـل جوانبـه في مجـاميع كاملة، بالإضافة إلى الكثير من معطيات الفكر المعاصر، علـماً وفنـاً واقتصاداً وأدباً وفلسفة، ولدينا حركة نـشر واسـعة، كثيفـة، تتـسع وتزداد، كماً ونوعاً، عاماً بعد عام، ويحتاج الدارس لتحديد الوضـع الثقافي العربي، وموقعه من الثقافة العالمية، إلى دراسات ومقارنـات ومراجع، ليس هنا مجالهـا، ذلـك أن التطـور الثقـافي العاصـف، في عصرنا، يجري بسرعة، وبقفزات، وخاصة بعـد الفـتح الالكـتروني الذي أذهل الدنيا بمعطياته. ويولي المجتمع العـربي المعـاصر أهميـة خاصة للتكنولوجيا، فنحن نـترجم كتبهـا، وندرسـها في جامعاتنـا ومعاهـدنا، ولـدينا بعثـات كبـيرة في العـالم كلـه، تـدرس العلـوم التكنولوجيــة، كــما ويأخــذ المجتمــع العــربي في حــسابه قــضية التخصص، لأن عصرنا يواجه وضعاً من الرقي التقني، ومن تعقـد التكنولوجيا، ومن تشعب البحوث في العلـوم الإنـسانية والأدبيـة والفنية، يحتاج إلى تخصص دقيق، لا في الفروع التـي تـشققت عـن الموضوع الأم، الذي هو الفلسفة، وعلم الكـلام، وعلـم العمـران، والاقتصاد الـسياسي فحـسب، بـل في الفـروع العلميـة الخالـصة، كالرياضيات والفلك والطـب وعلـم الاجـتماع وعلـم الأجنـاس والكيمياء والفيزياء وغيرها كثير.

وباختصار أقول، اننا نقف ثقافياً في موقع جيد، ونقـف أدبيـاً وفنيـاً في موقـع متقـدم، قياسـاً إلى ثقافـة وآداب وفنـون البلـدان المتطورة، ويبقى فارق الحضارة الذي تتقاصر مـسافته مـع الـزمن، وبسرعة، لأننا أمة ذات حضارة عريقة، واستئناف شوطنا الثقافي في الحاضر، ينبني على صرحنا الحضاري في الماضي، وهذا الصرح كان من الضخامة والارتفاع، ومن التوهج والإشعاع، بحيث شع عـلى الدنيا، وفاض على أوروبا، وقدم للعالم إنجازات كبيرة، دفعت عالماً مثل جون درابر إلى القول: «عندما كانت أوروبة فيها تحصل لها مـن المعرفة، لا تكاد تفـوق كفراريـا الآن «مقاطعـة صـغيرة في افريقيـا الوسطى»، كان العرب يعملون على تهذيب العلـوم وترقيتهـا، بـل كانوا يخترعونها. إن انتصاراتهم في الفلـسفة والرياضـيات والفلـك والكيمياء والطب، أثبتت انها أبقى وأعظم من انتصاراتهم الحربية، ومن ثم أهم منها». وقال العالم همبولدت: «ينبغي علينا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية، آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية في عصرنا».

لقد عرف العالم حضارات كبيرة قبل الحضارة العربية، تفاعل بعضها مع بعض، كالحضارة المـصرية القديمـة واليونانيـة، وتـدلنا شواهد التاريخ على أن اليونان مثلاً تتلمذوا عـلى علـوم المـصريين، وتتلمذ العرب على العلوم اليونانية، وتتلمذت أوروبـة عـلى علـوم العرب وآدابهم، زهاء عشرة قرون.

ولقد عرف العرب بطاقة من النشاط الخلّاق التي تحدد عصراً مميزاً في تاريخ العالم، وكـانوا عـلى قـدر مـن الـسماحة والبعـد عـن

التعـصب، والانغـلاق، ممـا جعـل ميـولهم مـضادة للتعـصب العنصرية، وقد نشطت في عصورهم حركة الترجمة نشاطاً لم يسبق له مثيل في التاريخ، وتأسست المدارس في جميع أنحاء الامبراطورية العربية: في البصرة، وأصفهان، وسمرقند وفاس ومراكش والقاهرة ودمشق وصقلية وقرطبة واشبيلية وغرناطة وبغداد الخ... ويكفـي أن نذكر بعضاً من الأسماء المجيدة للعلماء العرب أمثـال جـابر بـن حيان، الكندي، الخوارزمي، الفرجـاني، الـرازي، ثابـت بـن قـرة، حنين بن اسـحق، الفـارابي، الطـبري، المـسعودي، البـيروني، ابـن الهيثم، الغزالي، ابـن رشـد، ابـن خلـدون، وغـيرهم، وجميـع هـذه الأسماء لمعت كالـشهب في فـترة قـصيرة نـسبياً، تمتـد بـين ٧٥٠ - ١١٠٠م.

وقد عرفت أول صناعة لملح النشادر في مصر، ومنها تـزودت أوروبة، وعرف العرب صناعة الورق عنـدما اختلطـوا بالـصينيين بعد فتح سمرقند، وتأسـست أول صـناعة للـورق في بغـداد سـنة ٧٩٤م في عصر هارون الرشيد، ثم أدخلت هذه الصناعة فـيما بعـد إلى اسبانيا وصقيلية، وانتقلت إلى إيطاليا وفرنـسا والعـالم، ويقـول اليعقوبي إنه كـان في زمانـه (٨٩١م) أكثـر مـن مئـة بـائع للكتـب (وراق) في بغداد، وإن محلاتهم كانت مركـزاً للنـسخ وللخطـاطين والمنتديات الأدبية، وكانت المكتبات منتشرة، واقتناء الكتب شائعاً، وعندما مات الواقدي ترك ٦٠٠ صندوق من الكتـب، يحتـاج كـل منها إلى رجلين لحمله، وملك الصاحب بن عبـاد مـن الكتـب، في القرن العاشر ما يقدر حينئذ بما كان في مكتبات أوروبة مجتمعة.

وإذا كانت اللغة العربيـة هـي وعـاء الفكـر وأداتـه، وكانـت اللسان المعبر عن الاكتشاف والإبداع، فإن اللغة العربيـة، بـما هـي لسان، قد أبدعت كلمات لكل معطيـات الحـضارة العربيـة في أوج ازدهارها، وحفلت بمفردات كثيرة من نحتها، اسـتوعبت التطـور الفكري والعلمـي، وعنهـا أخـذت لغـات أخـرى مثـل اللاتينيـة وغيرها، عدداً من هذه المفردات ذات الدلالة علمياً وصناعياً، مثل كلمة الـسكر والكحـول الطبـي، واللوغـاريتم نـسبة إلى مكتـشفه الخوارزمي، والجبر في الرياضيات، وغيرها كثـير، ممـا يؤكـد أيـضاً إسهام اللسان العربي، بالنسبة للمصطلح، في الألسنة الأخرى.

ومن المعروف أن الدولة العربية قامت، منذ البدء، على مبادئ سامية. فقد حمت جميع رعاياها، بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية أو أجناسهم وألوانهم، فلا فضل لعربي عـلى عجمـي إلا بـالتقوى، وقد عملـت الدولـة عـلى حمايـة المـسلم والنـصراني واليهـودي دون تفريق، ولما أسس المأمون مجلس دولته كان يتألف مـن ممثلـين لجميـع الطوائف، وكانت اسبانيا، إبان الحكم العربي هي الدولـة الوحيـدة في أوروبة التي تمتع فيها اليهود بحماية الدولة ورعايتها، أما النساطرة فإنه لم يسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية فحسب، بل عهد العرب إليهم بتثقيـف أبنـاء الأسر العربيـة الكبـيرة، وفي صـقيلية سـمح العـرب للنصارى بالمحافظة على قوانينهم وعاداتهم وممارسة شعائرهم.

ويقول غوستاف لوبون في كتابه« حضارة العرب» إنّ العـرب في اسبانيا، لم يلبثوا بعد ان تـم لهـم فتحهـا أن بـدؤوا بنـشر رسـالة

الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يخصبوا أرضها، ويعمروا مدنها المخربة، ويترجموا كتب اليونان، وينشئوا الجامعات التي ظلت وحدها المنهل الوحيد للثقافة في أوروبة، زمناً طويلاً، وأخذت حضارة العرب في النهوض منذ اعتلاء عبد الرحمن الأول العرش، وتأسيسه خلافة قرطبة عام ٧٥٦م، حيث صارت قرطبة أرقى مدن العالم القديم قاطبة، زهاء ثلاثة قرون، وأنشأ العرب مدارس ومكتبات ومعامل في جميع أنحاء البلاد، ودرسوا العلوم والرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والطب، وهكذا استطاعوا أن ينهضوا باسبانيا مادياً وثقافياً، وأن يجعلوها رأس الممالك الأوروبية.

ويقول ريتشارد كوك في كتابه«مكانة العرب تحت الشمس« إن أوروبة لتدين بالشيء الكثير لاسبانيا العربية، إذ حملت قرطبة مصباح العلم، وكان طالبوه يقصدونها من بلدان كثيرة متفرقة، منها انكلترا، ولم تكن الحياة الثقافية، في هذا العصر، تعليمية فقط، لكنها كانت تبتكر أفكاراً جديدة، كما دل على ذلك ظهور أمثال ابن رشد وموسى ابن ميمون، ثم إن التصور الخلّاق الذي استطاع أن يقيم صرحاً كالحمراء، ومسجداً للعبادة كجامع قرطبة، إنما يعطينا مثلاً للفارق الحضاري البعيد، بين العرب والفرنجة والنورمان، في ذلك الزمن.

كذلك كان التسامح العربي كبيراً في فلسطين خلال الحروب الصليبية، واستطاع العرب، في مصر، تحقيق ما عجز عنه الإغريق

والفرس، إذ تمكنوا بعد قرن من فتحها أن يرسوا فيها حضارة عربية مزدهرة، هي وحدها التي استطاعت أن تغير بمؤثراتها ما كان للحضارة المصرية القديمة من أثر، في المعتقدات والعادات والأخلاق.

أما أثر الفكر العربي، في الفكر الأوروبي، فقد كان واسعاً، عميقاً، عظيماً، ونرى جون درابر يعترف، في كتابه «تطور أوروبة الفكري» ان الذين كانوا يطلبون العلم، حتى في عصر متقدم كالقرن العاشر، كانوا يتخذون طريقهم إلى اسبانيا، من جميع الأقطار المجاورة. وتدل الوثائق المختلفة على ان طالب العلم الأوروبي، الشغوف بالعلم، المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة، ذاك الذي كانت الدراسة في باريس أو بادوا أو اكسفورد، لا ترضيه، إنما كان يذهب إلى طليطلة أو قرطبة.

ودون ميل إلى المبالغة، يمكن تأكيد حقيقة صارت تاريخية بوثائقها، هي أن تأثير العرب في الغرب كان عظيماً، وان أوروبة مدينة للعرب بحضارتها، ويقول غوستاف لوبون الآتي: «لا نستطيع أن نذكر، قبل القرن الخامس عشر الميلادي، عالماً أوروبياً ابتكر شيئاً غير استنساخ كتب العرب، وقد كان روجربيكون، وليوناردو دي بيز، وارنوديفيلنيف، وريموند لال، والقديس توما الاكويني، وألبرت الكبير، وألفونس العاشر القشطالي، الخ.. إما تلاميذ للعرب أو ناقلين عنهم»، وقد قال رينان: «إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا بكل شيء، والقديس توما الاكويني، بوصفه

فيلسوفاً، مدين لابن سينا بكل شيء، وكذلك لابن رشد في فلسفته»، ومن بين المؤلفات التي ترجمها جيرار أوف كريمونا، من العربية إلى اللاتينية، مؤلفات ابقراط وجالينوس، وتقريباً جميع المؤلفات اليونانية التي ترجمها قبله إلى العربية حنين بن اسحق، كما ترجم مؤلفات الكندي، وكتاب القانون (في الطب) الضخم لابن سينا، وجراحة أبي القاسم الهامة، ذات الأثر العظيم، وفي الفلسفة ترجم كثيراً من مؤلفات أرسطو والكندي والفارابي وثابت بن قرة.

أما في الأدب، فقد كان تأثير ألف ليلة وليلة، وتأثير الشعر العربي في شعر التروبادور، وما لعبته الثقافة العربية في جنوب فرنسا وصقلية، وما تكون في الأذهان عن رومانتيكية الشرق، وخاصة الحكايات والأساطير والقصص الخيالية، وتأثير الأصول العربية والإسلامية، مثل قصة الإسراء والمعراج، وتعليقات وتفسيرات المفكرين العرب، والمذاهب الصوفية، كانت هذه كلها ظاهرة بارزة، وقد اعترف الباحثون بتأثيرها في كوميدية دانتي الإلهية وغيرها.

ويقول الأستاذ انطون مقدسي في بحثه «التعريب في دلالته التاريخية» إن العلوم -والرياضة منها بخاصة، قد حققت تقدماً كبيراً مع الخوارزمي والبيروني وغيرهما، ومهدت السبيل، مع منهج ابن الهيثم وضوئياته، لقيام الفيزياء الرياضية (غاليله)، ونظرية المعرفة التي ستتكون في القرنين السابع عشر والثامن عشر (ديكارت - كنط) وسيكون لها شأن كبير، ولم يقتصر العرب على

حفظ التراث الإغريقي ونقله -سليماً معافى- إلى أصحابه، كما يزعم بعضهم، بل ألفوا بين الخطين الكبيرين في تاريخ الفكر الإنساني، وهما الخط السامي العربي من جهة، والخط الإغريقي من جهة أخرى، وهذا التأليف هو الذي قامت عليه الثقافة، منذ عصر النهضة، إلى المنعطف الذي يتكون اليوم مع الحداثة.

ويذهب هذا المذهب جورج سارتون أيضاً، فهو يقول:«كان القرن الثاني عشر، أو على الأخص الفترة ما بين ١١٠٠ و١٢٥٠م، هو عصر التحول والتلاقي في الأفكار، كما يعتبر عصر الاندماج والاستيعاب، فقد تقاربت الثقافات تقارباً كبيراً، وبخاصة الثقافتان الإسلامية والمسيحية، وإن امتزاجهما وتداخلهما قد كون العمود الفقري لأوروبة الحديثة».

إن ما تقدم عن الثقافة العربية، إنتاجاً ونشراً، وعن الحضارة العربية وانجازاتها وتأثيراتها الحاسمة، على التطور الفكري في أوروبة، بل على النهضة الأوروبية بعامة، يحدد، إلى درجة كافية من الوضوح، مكانة هذه الثقافة وهذه الحضارة، ويسمح، بالتالي، ان نلاحظ اننا في متابعة الشوط، نصل بين التراث والمعاصرة، وقد أظهرت اهتمامنا بالعلوم والآداب والفنون الحديثة، وينبغي أن أوضح، بكلمات، اهتمامنا بالتراث، ومفهومنا الخاص يه، المنطلق من عدم التنكر له، وعدم ممارسة طقوس تقديسية حوله، بل النظر إليه نظرة ناقدة ، تقدمية، عصرية، تأخذ التراث ككل، وخاصة الجانب الحي منه، الذي يعطي إضافته للحاضر، ويؤكد بطلان

دعوى الثقافات المقفلة، لأن حضارتنا كانت منفتحة، متفاعلة، لا تلغي غيرها، ولا تلغى بغيرها، ولأنه ليس من حضارة لاحقة تنفي حضارة سابقة، بل تؤكدها بالتداخل معها تأثراً وتأثيراً، وكذلك المحافظة على التراث، لا لأجل ذاته، كشيء لا يمس، ولا ينقد، بل لاكتشاف ما يكمن فيه من عناصر التفكير البشري السليم، ذي الطابع الإنساني المشترك.

وفي عملية التواصل، بين تراثنا وحاضرنا، نؤكد أبداً في نتاجنا الثقافي الجديد، على أن يكون معطىً عصرياً، ينطلق من الواقع الحي، في حركته ومستقبليته، في فرادته وشموليته، وفي تفاعله الخلاق مع الثقافات الأخرى، لأننا بذلك نغتني ونغني ثقافتنا، ونسهم في رفد نهر الحضارة العظيم، ذي المنسوب المتزايد، في مجراه الدائم بين قطبي الأزل والأبد.

ونحن نولي علاقاتنا الثقافية بأمريكا اللاتينية اهتماماً خاصاً، متسعاً، متزايداً، متسارعاً، لا في الترجمات فقط، بل في الدراسات أيضاً، وكتاب «أمريكا اللاتينية في آدابها» الصادر في المكسيك عام ١٩٧٢ معروف لدينا، وقد ألفه أساتذة أمريكيون لاتينيون عن الآداب في بلدانهم، فأصبح مرجعاً لأبحاث جامعية، وأكاديمية، في الوطن العربي، كما أصبح مصدراً أساسياً للعرب الباحثين في أدب أمريكا اللاتينية، وآخر دراسة واسعة ومتميزة عن هذا الأدب، نشرت مؤخراً، أي في عام ١٩٨٨ في مجلة «عالم الفكر» الصادرة في الكويت، وهي من أكبر المجلات العربية، وأعمقها

مادة، وأوسعها انتشاراً، بقلم الدكتور العربي السوري محمود صبح، الأستاذ بجامعة مدريد المركزية، الذي تناول أبـرز معـالم ومفاصـل الأدب الأمريكي اللاتيني، الصادر باللغتين الاسبانية والبرتغالية.

وقـد كانـت نبـوءة الفيلـسوف هيغـل ذات دلالـة اسـتقرائية حقيقية، حين كتب يقول:«ان أمريكا هي بلـد المـستقبل. وسـوف تظهر أهميتها التاريخية في الأزمنة المقبلة، ربما من خلال الصراع بـين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية.. إنهـا بلـد الحنـين بالنـسبة لكـل أولئك الذين سئموا متـاحف أوروبـة التاريخيـة العتيقـة.. فالـذي حدث إلى الآن ليس سوى صدى العالم القديم، وانعكاس أسلوب الحياة هذه». ومن حيث وحدة وتعدد أدب أمريكا اللاتينيـة، علينـا أن نقبل شهادة خوسيه لويس مارتينيث الأستاذ في الجامعة الوطنية المـستقلة في المكـسيك:«إن الميـزة الأولى لأمريكـا اللاتينيـة هـي وجودها على هذا النحو الذي هي عليه، أي إنها مجموعة مؤلفة مـن واحد وعشرين قطراً، ذات وشائج تاريخية واجتماعية وثقافيـة جـد عميقة، تجعل منها وحدة في معان كثيرة».

ولقد كان لطبيعة أمريكا اللاتينية الخلابـة، أثرهـا في ثقافتهـا، وقد أشار الكاتب والمفكر البرازيلي غونكالبيس دي ماغالهـايس إلى هذه الظاهرة بقوله:«إن التحرر الأدبي، بعد الاسـتقلال، يـتم مـن خلال«القوة الموحية لـدى طبيعتنـا»، ومنـذ ذلـك الحـين وأتباعـه يرددون ذلك في حماسة شديدة.

ويقول الـدكتور صـبح في دراسـته«ثقافـة أمريكـا اللاتينيـة» المشار إليها أعلاه:«ليس في تاريخ أمريكا اللاتينية الأدبي من حركة

أدبية مثابرة، في وضوح وجلاء، على وحدتها وأصالتها في هذا الجزء من العالم، مثلما هي عليه حركة مذهب الحداثة، ففـي فـترة أربعـين سنة من الزمن أسهمت في حركة الحداثة جميع أقطار هذه المنطقة».

وهذه الحداثة التي ميزت أمريكا اللاتينية، هيأت لهـا أن تحتـل بسرعة مكانة بارزة ومرموقة، بين الثقافات العالمية، ولعل أبرز أدب ولد عملاقـاً، وانتـشر بقـوة عملاقـة في العـالم، وفي وطننـا العـربي كذلك، هو أدب أمريكا اللاتينية، منذ نهاية الحـرب العالميـة الثانيـة وإلى الآن، وخاصة منذ مطلع السبعينات من هـذا القـرن، ويلقـى هذا الأدب احتفاءً كبيراً، وإقبالاً واسعاً لدى القراء العـرب، حتـى ليمكن القول إن أبرز مفكري وأدباء أمريكا اللاتينية معرفون لـدى القارئ العربي، من خلال الترجمات الواسـعة لنتاجـاتهم، في حقـل الشعر والرواية والقصة وغيرها.

تأسيساً على هذا، أستطيع التأكيد على أن ثقافة أمريكا اللاتينية معروفـة جـداً لـدينا، وخاصـة ثقافتهـا في القـرنين التاسـع عـشر والعشرين، وهي موضع اعتبار كبير، وتقدير فائق، وعلى هذا النحو من الاتصال، نجد أن آفاق التعاون الثقـافي بـين العـرب وأمريكـا اللاتينية واسعة، وأن التفاعل بين ثقافة العالمين، العربي والأمريكي اللاتيني، قد تجذر، وأعطى تأثيراته الرائعة في أدبهما كليهما، ويشكل أدبنا العربي المهجري، الذي كتـب أكثـره في بعـض بلـدان أمريكـا اللاتينية، معلماً بارزاً من معالم أدبنا الحديث، شـعراً ونثـراً، وتقـوم الجاليـات العربيـة، في الأرجنتـين والبرازيـل وتـشيلي وفنـزويلا

والمكسيك وغيرها، بنشاط توصيلي ثقافي، من خلال منتدياتها وجمعياتها والمراكز الثقافية العربية التي تنتشر في عواصم هذه البلدان وغيرها، انتشاراً متزايداً، ومن خلال البعثات الثقافية العربية الأدبية والفنية والتشكيلية والفولكلورية والمعارض والعروض للرقص الشعبي، ومن خلال الصحافة العربية في المهجر، والصحف والمجلات والكتب العربية التي تصل أمريكا اللاتينية من سائر أنحاء الوطن العربي، وقد ازداد، إلى درجة كبيرة، نقل أدب أمريكا اللاتينية إلى اللغة العربية، ويمكن إعطاء فكرة عن هذا الانتشار للأدب الأمريكي اللاتيني، من ترجمة مؤلفات أدباء أمريكيين لاتينيين ترجمة دقيقة، ومتعددة، وكاملة، مثل مؤلفات شاعر تشيلي الكبير بابلو نيرودا، والروائي الكولومبي الشهير غابرييل غارسيا ماركيز، والروائي البرازيلي الكبير جورج أمادو، والدواوين الشعرية لأوكتاف باز من المكسيك، وأعمال الكاتب الأرجنتيني خورخي بورخيس، ومسرحيات الكاتب دراكون وغيره، التي تترجم وتصدر في طبعات، وتمثل على مسارحنا، وتلقى احتفالاً ورواجاً كبيرين، بسبب القضايا المتشابهة والمشتركة بين بلدان أمريكا اللاتينية والبلاد العربية.

إن لدينا، في بعض البلاد العربية، جملة من المشاكل الراهنة، هي غالباً، مشاكل دول أمريكا اللاتينية نفسها، مثل التخلف الاجتماعي، والتبعية الاقتصادية والثقافية، والافتقار إلى التكنولوجيا، وإصلاح أنظمة التعليم، والأمية، وتحديث الزراعة،

وغير ذلك، ويمكن، في هذه المجالات، الإفادة من تجارب بعضنا البعض استفادة كبرى.

لقد وافقت الدورة العامة التاسعة عشرة لليونيسكو، المنعقدة في نيروبي عام ١٩٧٦، وكذلك اجتماع الهيئة الاستشارية للخبراء في العلاقات الثقافية الإيبرية والثقافية العربية، المنعقد في مدريد عام ١٩٧٧، على دورات ودراسات لتنمية وتوسيع هذه العلاقات، تقديراً للمؤثرات الثقافية العربية والإسلامية، في عدد من القارات، حسب التحديد الجغرافي الذي لاحظه المشروع، وشمل الأقطار العربية، والبلاد الإسلامية المتصلة بالثقافة الأندلسية والإيبرية، مثل اسبانيا والبرتغال وبلدان أمريكا اللاتينية، وتم الاتفاق على أن يستوعب البرنامج المقترح بعض المظاهر التي تتناول المؤثرات العربية والإسلامية، على التاريخ الثقافي والاجتماعي (مثل الفلسفة، العلوم، الفنون، الآداب، المؤسسات، العادات) للبلاد الإيبرية الأمريكية، دون إغفال المؤثرات المتبادلة، ووضع السادة الخبراء قائمة بالمشاريع الواجب القيام بها، لتحقيق التعاون الثقافي والاقتصادي والمؤسساتي، ولقد درست هذه المشاريع، ووجدتها ملائمة، وإني أوافق عليها، وأتبناها، ولا أجد حاجة لتكرارها، وأرغب أن أضيف إليها ثلاث فقرات هي:

١ - التوسع في تعليم اللغة العربية في دول أمريكا اللاتينية، وتعليم لغة هذه الدول في البلاد العربية.

٢ - زيادة تبادل الطلاب بين البلاد العربية والإيبرية وبلدان أمريكا اللاتينية، وتبادل المحاضرين والباحثين والكتّاب، على أساس المنح والزيارات المتبادلة.

٣ - الاهتمام بترجمة الأدب العربي، والحديث منه خاصة، إلى لغات البلاد الإيبرية، مع الاستزادة -بالمقابل - من ترجمة أدب دول أمريكا اللاتينية إلى العربية.

وأحب أن أؤكد، أن تنفيذ المشروعات آنفة الذكر، والشروع بذلك فوراً، سيلعب دوراً هاماً، لا في توسيع التبادل الثقافي بين البلاد العربية والبلاد الإيبرية فحسب، ولا في فتح مجالات للتأثر والتأثير المتبادلين بين الثقافتين فقط، بل وأيضاً في استئناف ذلك الشوط الحضاري التاريخي الذي عرفته العلاقات العربية الاسبانية في مجال الفكر، وامتد بإشعاعه إلى أوروبة كلها، وانتقل منها إلى أمريكا اللاتينية، ونحن في فهم الدور الحضاري المنشود، وفي التعامل مع الحضارة، نعطي إضافة متجددة كل يوم، من خلال التراكم الثقافي، ونعتبر الثقافة الكنز الإنساني الذي لا ينفد. أكثر من ذلك، انه إلى ازدياد، في وقت تؤكد الحياة فيه أن كل ثروة، ما عدا الثروة الثقافية، إلى نقصان.

وتأكيداً لما سبق حول موقفنا من الثقافة، أرغب أن أوضح أن مفهومنا الثقافي، إنتاجاً واستهلاكاً، يرتكز على أساس جيد من فهم روح العصر، والتعبير عنها، والتطلع الدؤوب إلى تعبير أكثر تقدماً، لا يقف شاهداً على ما يحدث في البيئة والعالم فقط، بل يفعل وينفعل في هذا الذي يحدث أيضاً، لتكون الثقافة عنصر تغيير، في الحركة التاريخية التي لا تعرف السكون، ولهذا فإن ثقافتنا وطنية، قومية، تقدمية، إنسانية منفتحة، تعمل لنشر أفكار السلم والعدل والخير والجمال، نشراً واسعاً، بيننا وبين كل دول العالم.

ختاماً فإنني أتقدم بالشكر على تنظيم هـذه النـدوة، وإتاحـة الفرصة للكلام على الثقافة العربية ماضياً وحاضراً، وعن العلاقات بينها وبين دول أمريكا اللاتينية الصديقة تأثراً وتأثيراً، وآفاقاً لعمل مستقبلي، نأمل أن يكون كبيراً وجـدياً، وأن يـشكل شـيئاً بـارزاً في تاريخ الحضارة المعاصرة، يجبه كل التحديات وينتصر عليها، وآمـل أن تغتني كلـماتي المتواضـعة هـذه بالتعليقـات والمـداخلات.. وأن يتكلل جهدنا بالنجاح الكامل.

توق النفس وسفارة الكلمة(*)

حين يقلع البحار، في مركب ذي شراع أبيض، يقتنص الشمس، في ساعة شروق أو غروب، ليصرها في منديل مطرز بالأويا، ويقدمها تحية حب لمن جاء من بعيد، من الوطن البعيد، حاملاً إليهم نبض قلوب لا عدّ لها، في خفقاتها دفق شعور، وفي شعورها حرارة ألق، هو في عيني، وكفي، وعلى أصابعي، هذه التي على أطرافها، غبطة بكم، اشتعلت مصابيح سلك مكهرب، في تياره الشوق المضيء، الدافئ، الحنون، شوق المقيمين هناك، إلى المرتحلين هنا، وسلام الذين لزموا الأرض الطهور، أرض الأجداد، إلى الذين نأوا عنها وما نأوا، لأنهم حملوها في ضلوعهم، وأطبقوا على أطيافها أهدابهم، وأخذوا منازلها، كالقمر، خمائل في عيونهم، وعاشت في وجداناتهم، ذكرى باقية، ما بقي روح يختلج به جسد، وصورة منقوشة في صدر، ما بقي في الصدر خافق يوقظ تلك الصورة، ويخرجها إلى عالم الرؤى، ويجليها، ويغليها، ويعيد رسمها

(*) أقام النادي اللبناني في برازيليا احتفالية كبيرة، دعا إليها الجالية المقيمة هناك وكل الوفود المشاركة في الندوة التي عقدت في برازيليا (بين ٢١ -٢٣ أيلول ١٩٨٨) حول العلاقات العربية اللاتينية، على شرف الدكتورة نجاح العطار. وقد ألقت فيها هذه الكلمة.

وتلوينها، ويعكسها في الذات المشوقة تهاويل، أين منها تهاويل غصون الصفصاف، في ساقية ماؤها رقراق، يشف عن أديم ماسي الحصى، ويحتوي، في رحابة مداه، كوننا هذا، كرتنا الأرضية، هذه التي هي برتقالة في استدارتها، زرقاء في لونها، غالية في عطرها، مسك في شميمها، حين يتفتح النوار في بيارات فلسطين، وتزهر شقائق النعمان في ربى ميسلون، وتتفتح ورود الثلج على جبل صنين، ويخضر بساط الهوى في بساتين الغوطة، وتتضوأ تباشير الفجر على ذرى قاسيون، وينبت النرجس على ضفتي العاصي، وتتوهج السحب الأرجوانية على امتداد شواطئ المتوسط، بحرنا الذي كان في التاريخ، ولما يزل في الحاضر، ملعباً للسفن، كما هي قنن جبالنا ملاعب للنسور التي في تحليقها، عبر الأعالي، تصنع مجدها، عزها، شموخها، وتذود عن حياضها، ذود القادر عن حدوده، والفارس الماجد عن أهله ودياره.

وما أدري ما الذي حملني إليكم، أهو توق النفس أم سفارة الكلمة، فأنا آتية إليكم وفي يدي من بلادي، بلادكم، ياسمينة نضرة، في نجومها البيض شذى الدور، ووشوشات الطرق، ونافورة ماء وسط حوش سماوي، على جنباته أصص الخضرة، ومجالس السمار، في ليالي الصيف، حين السماء بلورية، مضاءة بألف قنديل، وحين الصبا، نسمة رهوة، تهب من جهات أربع، في كل منها خفقة مغترب، نأى بالجسد، وظل حاضراً بالروح، وابتعد بالباصرة، وأقام بالخاطرة، هذه التي في تلفت القلب، منذ غابت الديار، تشمل المدى، وتخترق المسافة، وتجمع في بؤرة الخيال، كل

مرابـع الطفولـة، ومغـاني الـشباب، مـن مـدن وقـرى، وشـوارع وأسواق، ودروب وبيوت، قرميـدها الأحمـر مجمـع عـصافير، فيـه تحط، وتطير، وتزقزق، وتغرد، وتبني أعشاشها، وتنجب فراخهـا، وتتسيج حدائق القرى بـالحمام، وتـضج سـاحات المـدن بالحركـة، ويعمر سوق الحميدية، بين غـدوٍّ ورواح، والنـاس أفـواج أفـواج، والخلائق خلية بشرية، تفور وتمور بمن فيها وما فيها، ذاهبة آيبة بين قلعة دمشق وجامعها الأموي الشهير.

قلت ما أدري ما الذي حملني إليكم، أهو الرغبة في اللقـاء، ام الأمنية في السماع، فأنـا مـن الـشرق رسـولة ود، وحاملـة طيـوب، وناقلة تحيات، وذاكرة فيها حكاية لكل منكم، وقـصة شـوق لكـل مشوق، وخلجة قلب لكل محب، وآهة ناي تنـداح نغـماً أبعـد مـن مدى الظن، وترجيع موال، صداه في أذن الـدنيا، ورديّـات ميجانـا وعتابا، وقـولات زجـل ، فيـه القـصيد والمعنـى، وفيـه التلميحـة والتصريحة، وفيه شيل السواعد، حيث الدبكة رقصة رجولـة، ودلّ أنوثة، وتعبير عن شيء في النفس، في كل حركة منها بـوح عاطفـة، تسع الكون، وعذوبة حنين يسيل مع النظرات، فيحملها كل مـا في السريرة من لاعجة، تحرق ولا نار، وتكوي ولا جمر، فالنار ومـضة استرجاع، وجمرها ذكريات لا تبلى ولا تفنى.

وتشاء الظروف أن آتيكم رسولة مودة، وسـفيرة ثقافـة، وقـد وزعت ما في حقيبتي من هدايا الود، في تجليه صوراً وذكريات، وفي اندياحه دوائر دوائر، كل دائرة ترسم لوحة، لمـا خلّفـت هنـاك، في

ربوع الأهل والجيران، من لهفة تحار فيها اللهفة، وتتطلع أن تـصير غمامة، في سحابتها الشوق بدل المطر، وفي نـسيجها الغيمـي التـوق بدل القطرات، لأن الذين هناك، تتلظى ضلوعهم بالحنين إلى الذين هنا، وهم مقيمون على أمل اللقاء، لا في سطور رسالة، أو تحية على متن الأثير، بل في عنـاق الأب والأم والأخ والابـن، وعنـاق الجـد والجدة، والأخت والحبيبة، عناقاً يطفـئ لـواعج الأفئـدة، ويـروي عطش النفـوس، ويجعـل نعمـى الحيـاة، نعمـى حـضور بالجـسد، وتكحيلة عين بعين، ولمسة يد ليد، وتبادل كلمة بكلمة، عـن قـرب يختصر المسافات، ويجمع الشتات، ويؤلف بين قلوب طال فراقهـا، وطال حنينها، وطال عذابها، وآن لها أن تفرح برؤية الوجه، وضمة الرأس، في غمرة من السعادة لا يعرفها إلا الذين نأت بهم الدار عن الدار، وشطّ بهم المزار، وترددت على شفاههم كلمات المتنبي.

لك يا منازل في القلوب منازل   أقفرت أنت وهن منك أواهل

أما سفارة الثقافة فهي واجـب قـومي ومعـرفي، وهـي سـبيل تواصل وتفاهم، وهي قوام تبادل حضاري، بين الوطن العربي، ذي التاريخ العريق، وبين وطن المغترب، الذي هـو وطـن ثـانٍ، عريـق أيضاً، جئناه لتدارس ما بيننا وبينه مـن وشـائج ثقافيـة، وتـأثيرات حضارية، متقابلة، متبادلة، عبر عطاءات المواهب، ونتاجات الفكر والأدب والفن.

ذلك أن الحضور الثقافي في العالم، هو الـشهادة عـلى أن عالمنـا من القرن العشرين حقاً، وحضور أي بلد في هذا العالم هو حـضور

ثقافي أولاً، مادامت الثقافة كالمحيط، تنطوي في ذاتها علىى جداول المعرفة التي تصب فيها. وقد استطاع الوطن العربي، رغم كل الظروف الصعبة التي يمر بها، أن يكون له هذا الحضور، وأن يتسع، ويتطور، ويحفر اسم العروبة على صخرة الوجود الإنساني، بفضل كفاح أمتنا وصمودها، واختراقها للحصار الذي يفرضه الأعداء، الإمبرياليون والصهيونيون على السواء..

لقد جئت في مهمتين، كلاهما حلوة في النفس، أثيرة على القلب، فنهضنا بمهمة الثقافة، في ندوتها التي انعقدت في هذا البلد الكريم، الصديق، وننهض الآن، من خلال هذا اللقاء، بمهمة التعارف، والتواصل، وتبادل التحايا، ونثر المودات، والذكريات، وأعترف أنني بينكم كأنني بين أهلي، فأنتم أهلي، وأنتم أحبتي، وأنتم اخوتي، وأنتم آصرة القربى، بما فيها من صلة الرحم، ومن أرجوانية الدم، ومن نسيجية العظم واللحم، واجتماعي اليوم بكم، هو اجتماع جزأي وجودي، بين مقيم ومرتحل، وبين حاضر ومغترب، وقد أفأتم علي وزدتم، وبالغتم في الترحيب وفي التكريم، وسمعت منكم كلمات المديح التي تتجاوز شخصي إلى وطني وشعبي، وطربت لهذه البلاغة في القول، ولهذا الصدق في العاطفة، والشبوب في الانتماء الوطني القومي، والقدرة على التعبير، شعراً ونثراً، وتلك الحماسة في الترجمة عن الذات العربية التي مازالت ذاتكم، ووجدانكم، وخافقكم، على رغم الهجرة والبعد والعيش في الوطن الجديد، الثاني، حتى كأن ارتحالكم لم يكن، ولم يبلغ، أن يوهن من صلاتكم بالوطن الأول، وأن يغير من شعوركم العربي

نحوه، وأن يجد من إجادة اللغة الأم، التـي حفظتموهـا وحـافظتم عليها، وصنتموها صون الحدقة لبؤبؤ العين.

إنني أنحني تجلة واحتراماً لهـذا الـزخم العـاطفي، والحفـاوة الغامرة، والبهجة الآسرة، وأعجز عن اصطياد الكلمات التي تفـي ترحيبكم حقه، ومودتكم واجبها، وأبادلكم شعوراً بشعور، وأنقل لكم من سورية العربية تحيات الرئيس حـافظ الأسـد، فهـذا البلـد الأمين، قائداً وقيادة وحكومة وشعباً، حمّلني إليكم فوق مـا يمكـن للمرء أن يحمل، من تحايا وأشواق وعواطف، وأكثـر مـا يـستطيعه فرد، وهو يياسر إلى تمثيل أمة، من محبة وإعزاز.

لقد كانت سـورية تـوأم لبنـان، ومـا تـزال، وسـتبقى، وهـي صـامدة في وقفتهـا، مخلـصة في سـعيها لإحـلال الوفـاق الـوطني اللبناني، وبلسمة الجراح الناغرة، والحفاظ على وحدة لبنان، أرضـاً وشعباً، وقد أحسنت فيروز حين هتفت:

يا شام لبنان حبي غير أنّيَ لـو   توجّعَ الشام تغدو حبي الشام

ذلك أن دمشق هي بيروت، وسورية هـي لبنـان، وفي كلـماتي صوتهما معاً، وفي عيني صورتهما معاً، وآمل أن أكون قـد وفقـت في نقل مشاعر الأهل، وعـبّرت عـما تختلج بـه صـدور الأحبـة، مـن اشتياق يتخطى المسافات، ويغمر الجوانح، ويفيض جوى، وهوى، وينثني عطراً ونغماً، ويتضوع فوح جنان، وسحر بيـان، ويرتـسم في البصر والباصرة، دنيا من الأمل والرجاء والدعاء، وشكراً لكم على كل ما أفصحتم وأضمرتم، من مودة ولطف وكرم وحفاوة.

الثقافة خير أداة لبناء الإنسان والوطن(*)

السيد الرئيس

السيد المدير العام لليونيسكو

السادة رؤساء وأعضاء الوفود

باسم الثقافة التي كانت هي الكلمة في البدء، وكانت شرارة الثورة الفكرية التي صنعت التاريخ، بأدمغة الفلاسفة وأيدي الشعوب، نشارك في مؤتمر مكسيكو لبحث السياسات الثقافية، تملؤنا الرغبة والمسئولية في الإسهام بنجاح هذا المؤتمر، من خلال تبادل التجارب والخبرات الثقافية، ومن خلال مفهوم شامل للمعرفة يقوم على الاعتراف بحق الإنسان في الثقافة، وواجب

(*) في مؤتمر السياسات الثقافية العالمي الذي عقد في مكسيكو عام ١٩٨٢، وحضره وزراء الثقافة في العالم مع وفود كبيرة، أتيح لي أن ألقي عدة كلمات لأنني كنت رئيسة المجموعة العربية -وهذه إحداها- كما تمكنت من إقناع وزير الثقافة المكسيكي أن يدعو المؤتمر، في ختامه، إلى الوقوف دقيقة صمت، حداداً على أرواح شهدائنا، في لبنان، أيام الاجتياح الإسرائيلي، وقد استجاب الوزير بعد تردد، خوفاً من أن يفشل ولا يستجاب، ولكنه وجّه نداءه للمؤتمر بحماسة مقنعة، ووقف المؤتمر كله، مستجيباً، وكان ذلك حدثاً فريداً، رائعاً.

الدولة في تقديم الخدمات الثقافية لـه، وتوسـيعها وتطويرهـا عـلى الـدوام، وتـشجيع أوسـع الجماهـير عـلى المـشاركة في النـشاطات الثقافية، تحقيقاً لشعارنا القائل: «الثقافة للجميع وفي خدمة الجميع» وانسجاماً مع الخط الثقـافي العـالمي الـذي يتجـه لإحـلال الثقافـة الوطنية القومية التقدمية الإنسانية الجماهيريـة، محـل ثقافـة النخبـة المستوردة والغريبة، الثقافة الامبريالية اللاوطنية واللاإنسانية التـي تحرّض عـلى الحـرب والحقـد والتعـصب العرقـي، والتـي أدانتهـا المؤتمرات الدولية السابقة لوزراء الثقافة، إدانة صريحة وعامة.

إن بلادي، الجمهورية العربية السورية، تبنـي القاعـدة الماديـة للاشتراكية والتقدم الاجتماعي داخلياً، وتناضـل للتحـرر الـوطني والسلام العادل خارجياً، وتعمل للتبـادل الثقـافي دوليـاً، وتحظـى جهودها الثقافية برعاية كبيرة من الرئيس حافظ الأسد الذي يـرى «أن الثقافة خير أداة لنشر الوعي والمعرفة، ولبناء الإنسان والوطن، وإقامة أفضل العلاقات مـع الـشعوب والأمـم الأخـرى» والـذي كلفني أن أنقل إليكم أحر تحياته وتمنياته بنجاح العمل العظيم الذي اجتمعتم لإنجازه.

لقد أولت سورية الثقافة اهتمامـاً خاصـاً منـذ اسـتقلالها، وفي العام ١٩٥٩ أنشأت وزارة الثقافة ليكون من أهم أهدافها «تعمـيم المعرفة والثقافة بين الجماهير، والتعريف بالحـضارة العربيـة، ونـشر رسالتها، وتوفير كل الإمكانـات كـي تلتقـي بالحـضارات العالميـة الكبرى، ولتوجيه أفراد الشعب توجيهاً قوميـاً صـحيحاً، والعمـل

على تنمية وعيهم القومي، وإرشادهم إلى ما يرفع مستواهم الاجتماعي، ويقوي روحهم المعنوية، وشعورهم بالمسئولية، ويحفزهم على التعاون والتضحية، ومضاعفة الجهود في خدمة الوطن والإنسانية».

وسورية كبلد حضاري، يؤمن بالمستقبل الأفضل للنوع البشري، ويعمل له، ويدرك قيمة الثقافة في عصرنا هذا، باعتبارها مساعداً في تنفيذ خطط التنمية، وجزءاً لا يتجزأ من العلم والتكنولوجيا، وتعبيراً عن حق الفرد في التمتع الحر بنتاجاتها، تطبيقاً للمادة ٢٧ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تنص على حق كل شخص في أن يسهم بحرية في حياة الجماعة الثقافية، وأن يتمتع بالفنون، ويشارك في التقدم العلمي، وفي الخبرات التي تنتج عنه.

وإذا كان الاعتراف بحق الإنسان في الثقافة، يرتب على سلطات كل بلد، واجب توفير الوسائل لممارسة هذا الحق، وتطويره وتوسيعه، فإن بلادي تبذل مل ما في وسعها، من الناحية المادية، لتوفير هذه الوسائل، وهي تزيد موازنة وزارة الثقافة عاماً بعد عام، رغم الأعباء المالية التي تترتب عليها كنفقات للدفاع، بسبب توتر الوضع الدولي، وعدوانية إسرائيل التي تحتل الأراضي العربية، وتغتصب حقوق الشعب العربي الفلسطيني الذي شردته، وتوسع رقعة احتلالها، عن طريق الغزو المسلح، كما فعلت أخيراً في لبنان، وكذلك بسبب مخططات ومؤامرات الامبريالية العالمية علينا.

وقد أظهرت التجربة الثقافية في سورية، أهمية الثقافة في تطور الفرد ذهنياً وسلوكياً، وفي تطور المجتمع، نحو أفضل القيم

والمبادئ الأخلاقية والحضارية. ذلك أن ثقافتنا العربية ثقافة أصيلة، إنسانية، متسامحة، منفتحة على الثقافات الأخرى، ترفض كل أنواع التمييز العنصري والعرقي، وكل الدعوات التي تتنافى مع مسيرة البشرية وتقدمها وسلامها.

وتشمل ممارساتنا الثقافية كل ألوان الثقافة، بدءاً من تحقيق التراث وإحيائه وصيانته، إلى بعث التقاليد الشعبية، وإقامة المراكز الثقافية، والمعاهد الموسيقية، والفنون التشكيلية، والمهرجانات المسرحية، وإصدار الكتب والمجلات، وبناء المنشآت الثقافية الضخمة مثل مجمع المسرح ودار الأوبرا، والمكتبة الوطنية التي تتسع لستة ملايين كتاب، والمدينة السينمائية، والمتاحف والمسارح، والمعاهد الفنية المتخصصة، ونقيم كل عام المهرجانات المسرحية، العربية والمحلية، ومهرجان بصرى الدولي للفرق العربية والعالمية، وفي مقدمتها فرق الباليه الشهيرة.

إن الأرض العربية السورية، تنهض كما هو معروف تاريخياً، على كنز من الحضارات، وثمة عمل واسع للتنقيب عنها، تشترك فيه البعثات الوطنية والأجنبية، وكان آخر مكتشفاتها آثار إيبلا الشهيرة، التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وتتساوى في قدمها مع حضارتي وادي النيل وما بين النهرين، وقد أحدث هذا الاكتشاف هزة في الأوساط العلمية العالمية، وحاولت إسرائيل التي تعتدي على الآثار العربية تدميراً وسرقة وادعاءً، أن تزور الوقائع واللوحات الفخارية المكتشفة، لكن علماء الآثار دحضوا مزاعمها، وفضحوا نواياها.

إضافة إلى ذلك فإننا نهتم اهتماماً كبيراً بالتبادل الثقافي، عربياً ودولياً، ولا تقتصر علاقاتنا مع الدول الأخرى، متقدمة أو نامية، على المجالين السياسي والاقتصادي، بل تشمل المجال الثقافي، وقد عقدنا على هذا الصعيد، اتفاقات ثقافية وتربوية مع كثير من بلدان العالم، وبموجبها نستقدم الفرق الفنية والمسرحية، وبعثات التنقيب عن الآثار، والمحاضرين، ونترجم الكتب، ونقيم الأسابيع الثقافية، وأسابيع الأفلام، والمراكز الثقافية بصورة متبادلة.

إن الثقافة، وهي جماع النشاط الذهني والسلوكي للناس، والسمات المميزة، الروحية والمادية، العقلية والوجدانية، لمجتمع ما، تهدف قبل كل شيء، إلى الارتقاء بالإنسان، وإنماء وعيه وضمان حريته، وإغناء كنز التراث البشري المعرفي والحضاري، ومن هنا كانت للثقافة هذه الأهمية البالغة الخطورة، في حالتي السلب والإيجاب، على المجتمعات البشرية، وعلى خصوصية القيم الثقافية، وتفاعلاتها العالمية، وعلى التنمية، والديموقراطية، والحقوق الإنسانية بعامة.

ونحن لا نرى ضرراً في أن تكون الدولة في القطاع الثقافي، ولا خوف على الثقافة إذا تولت الدولة الوطنية التقدمية الاشتراكية تقديم الخدمات الثقافية إلى الشعب، فالنهج الثقافي، في هذه الحال، لا يتعارض مع حرية الإبداع، بل يقدم الوسائل اللازمة لممارسته، ومن المعروف أن الحرية والديموقراطية والثقافة، وكل ألوان النشاط الإنساني، تحتاج إلى وسائل لإنتاجها، وإلى وسائل لممارستها،

وهناك فرق بين أن تكون هـذه الوسـائل في يـد سـلطة لا وطنيـة، رأسمالية، استعمارية، وبين سلطة وطنية، تقدمية، تدعو إلى التحـرر والتقدم الاجتماعي، وتسعى لتنفيذ خطط التنمية، وازدهار المواهب كلها لتكون في خدمة هذه الأهداف.

ولأن ازدهار الثقافة يحتاج إلى جو من التفاهم، والثقة المتبادلة، والانفراج الدولي، والسلام العـادل، فـإن مؤتمرنـا هـذا مـدعو إلى العمل، دفاعاً عن الثقافة وقيمها، إلى شـجب الحـرب، والعـدوان، والاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، وانتهاك السيادة الوطنية، وإلى الوقوف ضد السياسات التي توتر الوضع الدولي، وتـؤجج الحقـد والعنصرية، وتشجع العدوان أو تبرره، انسجاماً مـع ميثـاق الأمـم المتحدة، والميثاق التأسيسي لمنظمة اليونيسكو الذي ينيط بهـا مهمـة «المساهمة في صون السلم والأمن، بالعمل عن طريق التربية والعلم والثقافة، على توثيق عرى التعاون بين الأمم».

قال شاعر تشيلي العظيم بابلو نيرودا: «يسألونني لمـاذا تكتـب عـن الزهـر، وأجيـبهم تعـالوا وانظـروا إلى الـدماء عـلى شـوارع مدينتي». ونحن نتكلم في الثقافة، بينما الدماء تغطي شوارع لبنـان، بسبب العدوان الإسرائيلي المسلح بأحدث وسائل الفتك والـدمار، على الأراضي اللبنانية، واحتلالها، ومحاصرة بيروت، ومنـع الطعـام والماء والمواد الطبية عنها، وقصف الأحياء السكنية، وقتل عـشرات آلاف الأبرياء، بحجة وجـود الفلـسطينيين عـلى الأرض اللبنانيـة، هذه الأرض التي أقاموا عليها مؤقتاً لأن إسرائيل اغتـصبت، ومـا

زالـت، وطـنهم فلـسطين، وشردتهـم، وهـي تلاحقهـم بإرهابهـا وأسلحتها الفتاكة، ومنها القنابل العنقودية المحرمة دولياً، فإلى أيـن تريد إسرائيل أن يذهب الفلسطينيون، إذا كانت تمنعهم من العـودة إلى وطنهم، وترفض حقهم في إقامة دولتهم المـستقلة، عـلى تـرابهم الوطني؟

إن الوضع الخطير في لبنان يهدد السلم لا في الـشرق الأوسـط وحده، بل في العالم كله، وقد أشعل عـدوان إسرائيـل عـلى لبنـان، بتحريض ومساعدة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، بـؤرة خطـيرة للحرب العالمية، هذه التي أصـبح خطرهـا حقيقيـاً ومتزايـداً عـلى البشرية، ولم يعد الكلام على هذا الخطر يكفي، بل لابد مـن العمـل ضده بصورة نشطة وفعليـة. وفي الوقـت الـذي يخـيم عـلى رؤوس الإنسانية شبح القنابل النووية، وخطر سباق التسلح، وتـوتر الجـو الدولي، يصبح لزاماً على هذا المؤتمر أن يقول كلمتـه الداويـة، ضـد كل هذه الشرور، داعياً الشعوب إلى مقاومتها بحزم.

لقد أجمع الزملاء الذين تكلموا عـلى دور الثقافـة في مناهـضة كل ما يهدد النوع البشري، وكل ما يدمر الحضارة، ومـا يحـول بـين الإنسان والتمتـع بثمـرة عملـه، وبحقـه في الحـصول عـلى المعرفـة والفنون، وقال زميل منهم: «إن الثقافة هي السماح لكـل بلـد بـأن يقيم النظام الملائم له»، وهذا كـلام صـحيح، أؤيـده كـل التأييـد، وألفت النظر إلى أن سورية تريد إقامة نظامها الاجتماعـي العـادل، وتــسعى لتحريــر الأراضي العربيــة المحتلــة، واســترداد الحقــوق

المغتصبة، وحماية مدينة القدس، وتقاوم ضم الجولان، وترفض اتفاقات كامب ديفيد، ولهذا فهي تتعرض لمؤامرات داخلية، وتهديدات خارجية، بتحريض مباشر من دولة كبرى، تريد فرض هيمنتها العسكرية والاقتصادية والثقافية، على كل البلاد.

السيد الرئيس، أيها السادة

من الواضح أننا أتينا إلى هنا للحوار في أهداف الثقافة، وخصوصيتها، وعلاقتها بالديموقراطية والتنمية، والتفاهم الدولي، لا للبحث في الماهية المجردة للثقافة، وأوافق على الرأي القائل بأن محاولة تعريف الثقافة تعريفاً محدداً قاطعاً جدل لا نهاية له، فالثقافة، في آخر الأمر، هي الإنسان، وفي سبيل خير وسعادة وسلام هذا الإنسان، ينبغي أن تتحدد أهداف الثقافة، وهذا ما لمسناه في بيان مؤتمر السياسات الثقافية في البندقية، وما يجب أن نطوره ونرسخه في هذا المؤتمر، من خلال بيانه العام وتوصياته.

أخيراً أود أن أنوه بجهود منظمة اليونيسكو التي تتجلى في كل النشاطات الثقافية الدولية، وفي تنظيم المؤتمرات الثقافية، الإقليمية والعالمية، وفي إنتاج الثقافة ونشرها، وتشجيع ودعم الأنشطة الثقافية في الدول الأعضاء مادياً ومعنوياً، كما أشيد بشكل خاص بالقدرة الخلّاقة التي يتمتع بها مديرها العام السيد مختار امبو، وبجهوده المخلصة في سبيل تحقيق أهداف هذه المنظمة.

ختاماً أشكر الجمهورية المكسيكية، على إتاحتها الفرصة لانعقاد هذا المؤتمر على أرضها، كما أشكر كل من أسهم في الإعداد

لهذا المؤتمر تنظيماً وإدارة، وأهنـئ باسـم المجموعـة العربيـة الـسيد فرناندو سولانا رئيس المؤتمر الذي أجمعنا على انتخابه، بسبب ثقافته الواسعة، وتوجهاته الطيبة، وما في شخصه من ميزات تبعـث عـلى الثقة، وأشيد بالمكسيك بلداً جميلاً، أرضه ذات ألوان، وسماؤه ذات ألوان، وحضارته العريقة لها طابع خاص فاتن، وتاريخـه المجيـد في الكفاح الثوري، يقدم أفـضل مثـال عـلى العمـل الـدؤوب لأجـل المستقبل المنشود.

مؤتمر للثقافة

عميق الدلالات(*)

السيد الرئيس

السيد المدير العام

الزملاء الأعزاء

ايها السيدات والسادة

انتهت اليوم رحلة زورقنا في بحر الثقافة العظيم، ولقد كانت رحلة ممتعة على متن الخليج المكسيكي، وكان الربان ماهراً، وكنا، جميعاً، بحارة تارة، ومسافرين طوراً، يداعب الموج مركبنا، رفيقاً حيناً، عنيفاً حيناً، لكن المحيط الأزرق كان فخوراً بنا، فهو يعرف من يحمل، ويقدر الثروة الثقافية التي على متنه، فهي أغلى الثروات، وأبقاها على الدهر.

ذلك أن الذهب ينفد، والماس ينفد، والفضة تنفد، والبترول والحديد والخشب كذلك، لكن كنز الثقافة يزداد، فهو الكنز الذي

(*) من الكلمات التي ألقيت في ختام مؤتمر السياسات الثقافية العالمي الذي عقد في مكسيكو عام ١٩٨٢، كانت كلمتي هذه، وباسم المجموعة العربية.

بدأ من الأزل، وسيدوم إلى الأبد، وأشعته كأشعة الشمس، لا يعتريها نقصان، بل إن الشمس تنقص، والقمر ينقص، والثقافة وحدها تكبر وتكبر وتكبر إلى ما لا نهاية.

ونحن حراس هذا الكنز الثقافي، وسلاحنا هو الكلمة الطيبة، وأنتم تعرفون أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، فالغذاء الروحي، مثل الغذاء الجسدي، عظيم الأهمية والخطر، وأسمح لنفسي أن أقول، بغير مغالاة، إن غذاء الروح، هو الذي، في النتيجة، يصوغ وجدان الإنسان، وهو الذي يعطي الإبداع زيته المقدس، وبالإبداع تستمر حياتنا وترتقي، جيلاً بعد جيل.

وكالزارع، والصانع، والباحث، والأديب، والفنان، ننظر في ختام هذين الأسبوعين اللذين استغرقهما مؤتمرنا، فنرى أن غلالنا وفيرة. لقد كنا في المجتهدين، وأنجزنا عملاً كبيراً، ورغم بعض الجدل، وبعض الخلاف، وهما أساس الحوار وجدليته، فإن التسامح كان يسود مناقشاتنا، وكان الاتفاق، في معظم الأحيان، هو السائد، وكنا، في إعلاننا، وتوصياتنا، صياغاً ماهرين، استطعنا، في النهاية، أن نصوغ عقوداً وأساور وخواتم، من معدن الثقافة النادر.

ومن خلال الحوار الثقافي، برز إجماع على حب السلام وإدانة الحرب، وضرورة العمل لأجل الانفراج الدولي، ووقف سباق التسلح، والمطالبة بمنع استخدام السلاح النووي، وشجب الاستعمار والعنصرية والحقد العرقي، وكل الشرور التي تشكل خطراً كبيراً يهدد الإنسانية بالدمار.

لقد قال مكسيم غوركي: «الإنسان، هذه الكلمة تتعالى بفخر». لكن هذا الإنسان، في الشرق الأوسط، وفي افريقيا، وأمريكا اللاتينية، وكثير من البلدان، يعاني ويلات الحرب والعدوان والاحتلال. إن أنهار الدماء تسيل في شوارع العاصمة اللبنانية، بيروت، بينما أقف الآن أمامكم. لقد تهدمت بيروت، وصارت الجامعات والمعاهد والمراكز الثقافية والمتحف أنقاضاً، ومئات الألوف من أفواه الضحايا الأبرياء تصرخ، وهي تتمزق وتحترق وتموت، من جراء القصف الوحشي المتواصل الذي دام شهرين حتى الآن، وإسرائيل ماضية في عدوانها، وفي قصفها للأحياء السكنية، بعد غزوها للأراضي اللبنانية، بقصد الاستيلاء عليها بالقوة، وهو ما يشكل خرقاً لشرعة الأمم المتحدة، والأعراف البشرية، وما استنكره الرأي العام العالمي بأسره، ذلك أن هذا العدوان يشكل، من الناحية الأخلاقية والإنسانية، جرحاً عميقاً، نازفاً، في وجدان كل الذين تعز عليهم النفس الإنسانية، والقيم الحضارية.

وليس الإنسان وحده هو المعرّض للموت في هذه الحروب، بل الممتلكات الثقافية معرضة للدمار أيضاً، وقد أحسن مؤتمرنا الدولي هذا، بالوقوف ضد إبادة الناس، وتدمير المنجزات الثقافية للشعوب.

وكما يجري عادة، بعد مائدة سخية، أن يشكر الضيوف صاحب البيت، فإننا نشكر المكسيك، رئيساً وحكومة وشعباً، على الخبز والملح اللذين تناولناهما على المائدة المكسيكية الغنية والكريمة.

إنني لا أعرف بلدان أمريكا اللاتينية، لكنني رأيت المكسيك، وأحسب أنني رأيت هذه البلدان جميعاً، وأنني أعرف شعوبها، وما تخوضه من نضال عنيد في سبيل استقلالاتها، وفي سبيل تقدمها الاجتماعي، وتطورها في سائر المجالات، وإني، من على هذا المنبر، أوجه تحية كبيرة إلى الشعب المكسيكي الصديق، وإلى كل شعوب أمريكا اللاتينية الصديقة، وأشد على أياديها شداً قوياً.

أما مؤتمرنا هذا فقد حقق أهدافه. ولن أتكلم عنها، فالإعلان الختامي، والتوصيات، والمناقشات التي دارت، والتي أضافت جديداً إلى الثقافة، ومفهومها، وغايتها، هي بين أيدينا، وستكون منذ اليوم بين أيدي ملايين الناس الذين تابعوا أعمال المؤتمر بجدية واهتمام، وأقول بكلمة: النجاح. لقد نجح المؤتمر نجاحاً عظيماً.

فباسم المجموعة العربية التي شرفتني بتمثيلها، أتقدم بالشكر من السيد فرناندو سولانا، رئيس المؤتمر، الذي استطاع، بحيويته ودماثته، وثقافته، والطيبة المكسيكية، التي يتحلى بها، وكذلك بالحزم المكسيكي المشهور، أن يقود سفينة المؤتمر إلى شاطئ السلام والنجاح، ويتوج أعماله بإكليل من ورود بلاده.

كما أشكر السيد مختار امبو، المدير العام لليونيسكو، والأمانة العامة وكل العاملين في هذه المنظمة الدولية التي رعت هذا المؤتمر، ونظمته، وأسهمت في إدارته، فكان جهدها بارزاً، متميزاً، كبيراً حقاً، كما هي الحال في كل الأنشطة الثقافية الناجحة التي تقوم بها.

وفي الختام أشكركم جميعاً.

أقول وداعاً؟

لا.. إلى لقاء آخر.

النساء من أجل قمة هادفة(*)

الزميلات المشاركات

بقلوب مفعمة بحب السلام العـالمي، والإيـمان بـه كـضرورة قصوى لدفع خطر الحرب عن العالم، وقبل كل شيء، عـن البـشرية التي تمثل المرأة، كـأم، أسـاس وجودهـا، وحارسـتها، وحاميتهـا، وينبوع الخصب الذي يمدها بأسباب الحياة، نـأتي إلى هـذه النـدوة النسائية الكريمة، المنعقدة تحت عنوان«النساء من أجل قمة هادفة» في عام السلام هذا، الذي تحتفل به الدنيا بأسرها، لأنه العام الـذي يأمل الناس جميعاً، في كل أنحاء المعمورة، أن يكون عامـاً فعـالاً في توطيد السلم، وترسيخ أسـسه، وتعميـق دعائمـه، بحيـث تعجـز الحرب، أو دعاتها، عن زعزعة هذه الدعائم، أو اقتلاعهـا أو إلقـاء

(*) في مؤتمر اليونان الذي عُقد في أثينا والذي دعت له السيدة باباندريو تمهيداً لحضور لقاء ريغان - غورباتشوف في موسكو المقرر عقده من أجل بحث وقف التجارب النووية، والإقلاع عن حرب النجوم عام ١٩٨٦. وقد قرر المؤتمر أن يشارك فيه سيدات خمس ينتخبهن. وقد انتخبت فيه ممثلة عن آسيا والبلدان العربية، واجتمعنا من بعد في موسكو بوزير الخارجية شيـفرنادزه اجتماعاً مغلقاً طرحنا فيه مشاكل بلداننا، ثم اجتماعاً أوسع، ضمّ عدداً من قادة العالم، مع الرئيس غورباتشوف. كما اجتمعنا مع السيدة غورباتشوف، في حين رفضت السيدة نانسي ريغان لقاءنا.

الإنسانية التي يعز السلم عليها، كما تعز الطفولة، والحياة، والحضارة، والثقافة، في أتون حرب مدمرة، مبيدة، ماحقة، هي الحرب النووية التي لن ينجو أحد من ويلاتها، ومن إبادتها ومن إفنائها للأحياء والكائنات على السواء.

إننا لنعلن هنا، باسم مئات ملايين النساء في العالم، عن إرادتنا القوية، الثابتة، في حماية السلام، ودفع خطر الحرب، وإيقاف سباق التسلح، ومنع التجارب النووية، والإقلاع عن عسكرة الفضاء، وحمل الدولتين العظميين الولايات المتحدة الأمريكية، واتحاد الجمهوريات السوفيتية، على العودة للتفاوض، بالجدية اللازمة، للوصول إلى تحقيق مطالبنا التي تصون السلم العالمي، وتنقذ البشرية من الفناء التام.

ومن الضروري، بل من الواجب، أن يسمع صوت المرأة الداوي هذا، لأنه صوت الحياة، صوت البقاء، صوت الإنسانية، صوت الطفولة، صوت كل القيم العزيزة، التي في وسع المرأة وحدها أن تقدرها التقدير الكامل، وأن تفرض صيانتها فرضاً، بقوة الحجة، وقوة الإقناع، وبمناشدة جميع الذين يريدون الحياة لأنفسهم، ولزوجاتهم، وأطفالهم، وإخوتهم، وأخواتهم، أن يضموا أصواتهم إلى أصوات نساء الأرض، مطالبين بالحفاظ على السلام، وتجنيب العالم ويلات الحرب الماحقة، الحرب النووية التي يبرز خطرها أكثر فأكثر، ويشتد رعبها أكثر فأكثر، نتيجة الإمعان في سباق التسلح ورفض وقف التجارب النووية، والإقلاع عن «حرب النجوم» التي تنقل الخطر الداهم، من الأرض إلى الفضاء.

وكما أن ارتفاع شجرة إلى جانب شجرة، يشكل غابة، كذلك فإن ارتفاع صوت إلى جانب صوت، يشكل غابة محيطية هادرة من الأصوات البشرية التي لابد من أن تبلغ الآذان، كمطرقة بقوة ألف ألف طن، وان تدخل هذه الآذان، وتنبهها، وتحذرها، وتحول بين أصحابها وبين التمادي في جنون التسلح، وتلجم كل المساعي المبذولة، بشعور رهيب من عدم المسئولية، لتطوير أسلحة الدمار، ونشرها في أربع رياح الأرض.

وإذا كانت المرأة، هي التي تأخذ المبادرة الآن، وفي عام السلام هذا، فإن ذلك يعود إلى كونها أم الوجود، وحافظة النسل، وحاضنة الطفولة، والساهرة على الحياة، وحافظتها كما يحفظ نور العيون، إضافة إلى أنها ربة البيت، ومربية الجيل، وحمامة السلام التي نقلت بشرى النجاة من الطوفان، جاعلة من غصن الزيتون، لا من فوهة البندقية، إشارة إلى الخلاص العام، وإلى استمرارية الحياة على الأرض، بعد أن كان الخطر يتهدد الوجود الحي على وجه البسيطة كلها.

ومبادرة النساء هذه، التي تعبر عنها ندوتنا تعبيراً بالغاً وشاملاً، قد كانت، منذ برز خطر الحرب، هتفة ضمير في صدر كل امرأة، وهي الآن صوت داوٍ على كل شفة من شفاه نساء العالم، وستبقى، وتتضاعف، إلى أن يزول خطر الحرب، ويتوقف سباق التسلح، وتتحسن العلاقات الدولية، ويتم التعاون السلمي بين جميع الشعوب، ومن أجل ذلك، فإن النساء المجتمعات هنا، يدعين كلاً

من الرئيس رونالد ريغان، والأمين العام ميخائيل غورباتشوف، إلى الإصرار على عقد قمة واشنطن لعام ١٩٨٦، والنظر إليها بجدية ومسئولية كبيرتين، وتحقيق نتائج جوهرية فيها، تبعد خطر الحرب النووية، وتوقف تجاربها، وتلغي مشروع عسكرة الفضاء، وتعيد الطمأنينة إلى قلوبنا الواجفة، خوفاً على أطفالنا وعلى أجيالنا القادمة.

ولو أتيح لأي امرأة في المعمورة، أن تقابل السيدين ريغان وغورباتشوف، لحملت طفلها على ذراعها، أو جمعت أطفالها في حضنها، كرمز للأمل المتمثل بهؤلاء الأطفال، وكرمز للخطر المحدق بهم من جراء الحرب النووية المقبلة، ولقالت لهما إنها من أجل الطفولة، من أجل الإنسانية، من أجل الحضارة والثقافة، من أجل الوجود والمصير البشريين، تريد أن يعم السلم العالم كله، شرقاً وغرباً، وأن يصار إلى فرض حظر شامل على التجارب النووية، واتخاذ خطوات جادة لنزع التسلح، وفرض اجراءات مجدية لصيانة السلام، لأنه بهذا وحده، يمكن أن تضبط سدادة القمقم، كما في الأسطورة، القمقم الذي ينحبس فيه عفريت القوة النووية، ويمنع هذا العفريت من الإفلات وتدمير العالم، فتطمئن البشرية إلى مستقبلها المهدد، وتأمن أن تعبث الأصابع بالأزرار، عمداً أو خطأ، فتفجر الكارثة، بل الفاجعة، ويعم البلاء العالم كله، العالم الذي سينطفئ ويصبح رماداً، وتدور الدائرة من جرائه على الجميع، حكاماً ومواطنين، في شرق الكرة الأرضية وغربها، في شمالها وجنوبها، وتصبح اليابسة والمحيطات، سواسية في الفناء، لأن التفجير النووي سيقضي على الحياة حيثما وجدت.

ولو أتيح لأي امرأة في كرتنا الأرضية، هذه البرتقالة الزرقاء الجميلة، أن تقابل السيدين ريغان وغورباتشوف، لتحدثت إليهما عن النقاط الأساسية الرئيسية التي تعالجها ندوتنا هذه، ولقالت لهما: إن نزع السلاح، ولو تدريجياً، يعيد بناء الثقة بين الدولتين العظميين، ويؤدي إلى الانفراج، وإلى الوفاق، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى توفير المال الذي ينفق على التسلح، لأغراض التنمية، ويساعد على تطوير البلدان المختلفة، ويوقف المجاعة الشنيعة، الرهيبة، في هذه أو تلك من بقاع الأرض، ويوفر المواد الغذائية لملايين المحرومين، ويساعد الشعوب النامية مساعدة مجدية، بعيدة عن مفاهيم الاستغلال والعدوان والاستعلاء والعنصرية، وبذلك تؤدي هذه الجهود السلمية التنموية، إلى خير البشرية ورفاهها، ويتاح المجال لتفتح العبقريات العلمية السلمية، وينفتح السبيل رحباً أمام الارتقاء الإنساني والحضاري، وتتوفر الحياة الكريمة للناس، ويتغذى الأطفال، ويشبون أصحاء سعداء.

ذلك أن الإنفاق على سباق التسلح يستهلك موارد العالم بصورة متزايدة، بينما تهمل المتطلبات الإنسانية الضرورية، ويغرق ثلاثة أرباع العالم في الفقر، ويرسفون في الشقاء، وتنفجر، هنا وهناك الانتفاضات والمعارك الدامية، في سبيل اللقمة، والداء، والقلم، والحصول على التعليم الذي يكافح الأمية، عار عصرنا، ونحن النساء لا نقبل بهذا البلاء، ونراه شراً فظيعاً، لذلك نقف، بتصميم، ضد سباق التسلح، وضد التجارب النووية، وضد

عسكرة الفضاء، ونرى بوادر أمل في التصريحات السوفييتية الأمريكية التي أعقبت قمة ١٩٨٥، وقمة إيسلندا الأخيرة، بمعاودة اللقاء، وبعقد قمة واشنطن المنتظرة. ونأمل أن تسفر هذه القمة عن نتائج إيجابية حاسمة، غير النتائج المخيبة التي أسفرت عنها قمة ريكيافيك، وشكلت صدمة للرأي العام في كل مكان، بسبب تعنت الرئيس ريغان، ورفضه وقف التجارب النووية، وإلغاء برنامج حرب النجوم، مع أن الاتحاد السوفييتي، أوقف هذه التجارب من طرف واحد، ومدد وقفها فترة أخرى.

إن وفدنا النسائي السوري يأتي من سورية، بلد الحضارات العريقة، إلى اليونان، بلد الحضارات العريقة والعظيمة، ونحن نحمل إلى هذه الندوة تحيات وتمنيات كل نساء سورية، بل كل شعبها، لأن قضية السلم تعز على السوريين، وعلى العرب جميعاً، ونحن نكره الحرب، ونعمل للسلم العادل، وقد أعلنت قيادتنا ذلك مراراً وتكراراً، وتضمنته كل خطب الرئيس حافظ الأسد ومقابلاته، غير أننا، منذ الربع الأول من هذا القرن، ومنذ نكبة عام ١٩٤٨ بالتحديد، نتعرض لعدوان إسرائيلي دائم على أراضينا وحقوقنا، وقد زرع الاستعمار البريطاني بخاصة، والامبريالية العالمية بعامة، إسرائيل في أرضنا، لتكون شوكة في خاصرتنا، واستعماراً استيطانياً توسعياً في وطننا، تبتلعه جزءاً فجزءاً بحروبها العدوانية، تنفيذاً لمشروعها الصهيوني القائل بالامتداد من النيل إلى الفرات.

ومنذ أن احتلت إسرائيل، بناءً على وعد بلفور البريطاني المشئوم، الأرض الفلسطينية، شردت ملايين العرب من وطنهم، وأخذت تمارس عليهم اجراءات قمعية عنصرية وإرهابية، وكان آخر عدوان لها هو اجتياح لبنان، البلد العربي المسالم، عام ١٩٨٢، وما زالت تحتل جزءاً من أرضه، ضاربة بقرارات الأمم المتحدة عرض الحائط، ومن هنا فإن القضية العربية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية السلام في العالم، لأن هذا السلام لا يمكن أن يتجزأ، وتحقيقه مرتبط بتصفية المواقع الإقليمية للامبريالية والعنصرية، والاستعمار الجديد، والاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، الذي قام على الإرهاب، واستخدم كل الأساليب الإرهابية والعدوانية، لاحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وجنوب لبنان.

وتعتبر إسرائيل بهذه الصفة، مبتدعة الإرهاب ومصدره في منطقتنا العربية، وفي محاولة لتغطية إرهابها، تقلب الحقائق، لتسويغ إرهاب الدولة الذي تمارسه هي وأمريكا وبريطانيا، وتحاول حكومات هذه الدول، عن طريق أجهزة الدعاية الضخمة التي تستخدمها، حمل بلدان العالم على الاعتقاد بأن نضال العرب، لأجل تحرير أراضيهم واستعادة حقوقهم، هو عمل من أعمال الإرهاب، وفي هذا تضليل فاضح، لأن العرب ضد الإرهاب، وقد كانوا دائماً ضحيته، إذ مارسته عليهم إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، عن طريق خطف الطائرات المدنية العربية، وقصف بعض العواصم العربية، وقصف بيروت والمدن اللبنانية، ثم قصف الأحياء السكنية في طرابلس وبنغازي في ليبيا.

إن سورية أبدت استعدادها مرات عديـدة للإسـهام في جهـد دولي مشترك، لمكافحة الإرهاب، وقد أعلن ذلك رئيس الجمهورية العربية السورية الرئيس حافظ الأسد، خلال زيارته الرسمية لأثينا بتاريخ ٢٧ /٢ /١٩٨٦، كما أعلن مؤخراً أننا«مع المقاومة والتحرير في كل مكان، وضد الإرهاب في أي مكان من العالم».

أما حادث الطائرة الإسرائيلية في لندن، فهو حـادث مزيـف، رتبته أجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية والموساد، بغية تلفيـق تهمة لا أساس لها من الصحة ضد سورية، وسخرت لذلك القضاء البريطـاني، كـي تتخـذ بريطانيـا مـن بعـد قـراراً اسـتفزازياً بقطـع العلاقات مع الجمهوريـة العربيـة الـسورية، هـو تتـويج للهجمـة الامبريالية الصهيونية الشرسة ضد سورية والأمة العربية، مما حـدا بـسورية إلى الـرد بـشكل حاسـم، بـسبب معرفتهـا أن الحكومـة البريطانية، وخاصة في عهد حكومة تاتشر، جعلت من نفسها تابعة مطيعة للسياسة الأمريكية الإسرائيلية، والهـدف مـن الحملـة عـلى سـورية، بهـذا الـشكل المسعور، ذو شـقين: الأول إعاقـة الجهـود والمساعي لإقامة سلام عادل ودائم في المنطقة، والثاني تهيئـة الـرأي العام لتقبل عدوان جديد على سورية، يتبارى في التلـويح بـه قـادة أمريكا وبريطانيا وإسرائيل، كما فعل جورج شولتز، وزير الخارجية الأمريكيـة، الـذي أعلـن مـؤخراً أن بـلاده تجـري مـشاورات مـع حلفائها الأوربيين لتنسيق«إجراءات فعالة» ضد سورية.

ومن المستغرب أن تدعي الحكومة البريطانية، أن قرارها بقطع العلاقات الديبلوماسية مع سورية بني على اتهامها بدعم الإرهاب،

في حين يعلم الجميع التاريخ الأسود للاستعمار البريطاني في الوطن العربي، والإرهاب الذي باشرته بريطانيا بنفسها، ورعته وباركته حين قامت به إسرائيل ضد العرب، منذ احتلالها لفلسطين، والأراضي العربية إلى الآن.

إن الجوقة الصهيونية الامبريالية كانت مستعدة، منذ ترتيب حادث الطائرة في لندن، لعزف لحن واحد، هو لحن الاتهام لسورية، لكن أمثال هذه الاتهامات والأكاذيب لن تنال من موقف سورية المبدئي والثابت. وسورية لن تتخلى عن مواقفها المبدئية في التحرير واسترداد الحقوق، مهما اشتد زعيق أبواق الجوقة إياها، ولن تستطيع هذه الأبواق إقناع العالم بأن سورية بلد يمارس الإرهاب، أو يؤوي الإرهابيين، وهذه وقائع التاريخ، تثبت اننا ضد الإرهاب وضد العدوان، ونحن لسنا دعاة حرب، بل ننشد سلاماً عادلاً ودائماً في المنطقة، وإذا كان الامبرياليون يمنون النفس بحمل سورية على التراجع عن موقفها، فهم واهمون، ذلك«أن الامبرياليين -كما قال الرئيس الأسد - لن يكونوا قادرين اليوم أو غداً على إعادة الوطن العربي إلى دائرة التبعية الاستعمارية والاستسلام أمام إسرائيل».

والعجيب في الأمر، بعد كل الذي بيناه، أن تتذرع الامبريالية والصهيونية، بمكافحة الإرهاب، لتشويه النضال الوطني التحرري العربي، بينما هي ذاتها تمارس إرهاب الدولة في فلسطين، وغرانادا، ونيكاراغوا، وليبيا، وجزر الفوكلاند، وغيرها، وبريطانيا هي صاحبة وعد بلفور، ومشجعة الإرهاب الصهيوني، الذي أدى إلى

ذبح العرب، وتشريدهم من فلسطين، ومازالت تضع كل ثقلها لمنع الشعب العربي الفلسطيني من نيل حقوقه المشروعة.

الزميلات المشاركات

إننا حين نشرح حملة الافتراءات الموجهة إلى سورية، ونفضحها، فإنما ننطلق من ارتباط قضية السلام بقضية التحرر الوطني، فما دام هناك عدوان، واحتلال، وقمع، واضطهاد، فسيظل هناك نضال، ومقاومة، والحملة المسعورة الموجهة ضد سورية، سببها أن هذه الأخيرة تؤيد النضال التحرري، وتقف ضد العنصرية والفاشية، ولن يستتب السلام في العالم، ما لم تردم بؤر الحرب والعدوان، وترتفع الأصوات، كما في ندوتنا هذه، ضد هذه البؤر، وضد سباق التسلح، والتجارب النووية، وعسكرة الفضاء، أما الحملة البريطانية الهوجاء ضد سورية، فقد قوبلت باستنكار عام، يتزايد كل يوم، وقد رفضتها دول أوروبية، منها الدولة اليونانية الصديقة، التي أدركت مغزى الحملة، وخفاياها، ونواياها العدوانية المبيتة، ولم تقتنع بها الحكومة الفرنسية التي رفضت الاتهام الموجه إلى سورية، بأنها دولة متورطة بالإرهاب، وشجب هذا الاتهام الباطل، وأدانه، الاتحاد السوفياتي، والمنظومة الاشتراكية، وكل القوى التقدمية المحبة للعدل والسلام.

إننا نشكر السيدة باباندريو على مبادرتها، كما نشكر اليونان الصديقة، حكومة وشعباً، ونحيي من الأعماق جهود النساء العاملات في سبيل السلام العالمي، وسنبذل كل جهودنا لإنجاح هذه الندوة، ولنشر مقرراتها وتوصياتها في وطننا العربي.

من أجل وضع استراتيجية ثقافية للعالم الإسلامي(*)

صاحب الفخامة الرئيس عبدو ضيوف
رئيـــس المؤتمـــــر

من مشرق الشمس، حيث الأرجوانية سحابة بهاء، وحيث الشفق روعة نظر، نأتيكم وفي القلب ألق الإيمان، وفي النفس توق إلى الملأ الأعلى، نتملى، والإعجاب يهزنا، كيف تنزّل منه على نبينا العربي الكريم، الفرقان العظيم، في سوره الرائعات، وآياته البينات، هدى للناس، وهداية إلى الصراط المستقيم، ودلالات على قدرة الله الخارقة، الذي جعل من ظواهر الطبيعة وكائنات الوجود، معجزات تثبت أن قدرته فوق المدارك البشرية، لأنها، في حقيقتها، السر الأعظم، سر الخلق الذي كان، لأنه تعالى أمره أن يكون.

وحين نجتمع، في رحاب هذا البلد المضياف الكريم، من أجل وضع استراتيجية ثقافية للعالم الإسلامي، وخطة تنفيذية لها، فإنما

(*) في مؤتمر وزراء الثقافة الإسلامي الأول في داكار عام ١٩٨٩.

نجتمع لشأن، هو في ضمائرنا وسرائرنا، وديعة أوصينا بها، وأدركنا خطورتها، وأمرنا بطلبها ولو في الصين، حين أمرنا أن نطلب العلم، وهو ثقافة من الثقافة، في ذلك القصي من المدى، في زمن كان فيه الوصول إلى الصين نوعاً من مشقة، دونها الأهوال الجسام.

إذن لن نبحث في قيمة الثقافة، بل في مبناها ومعناها، ولن نطرق على باب موصود، أو مغارة مرصودة، لاكتشاف هذا المعطى المعرفي، فهو موفور لدينا، موروث عن أسلافنا، نعيد إنتاجه كل يوم، من خلال عمل الذهن، وفعل السلوك، وعطاء اليد، هذه المصادر التي تبدع الثقافة، بما تبدع من ألوان النشاط الإنساني، وبذلك نقدم إسهامنا في الشوط الحضاري راهناً، بعد أن قدمنا إسهامنا في الشوط الحضاري الكبير ماضياً، فاستحقت أمتنا العربية الإسلامية، لقاء هذه الإنجازات الفكرية، في شتى حقول العلم، أن تكون حقاً وصدقاً خير أمة أُخرجت للناس، لأنها حققت لهم، في بلداننا العربية والإسلامية، فتوحات في المعرفة، ومكتشفات في العلم، هزت الدنيا بروعتها، وسارت مسار الريح الخيرة، والاندفاعة العاصفة، حاملة، عبر الممالك المترامية، من الشرق إلى الغرب إلى الأندلس، الكتاب الذي جئنا الوجود وهو في يميننا، وفي هذا الكتاب علوم اللغة والفقه والتشريع والكلام والمنطق والفلسفة والطب والفلك والرياضيات، وكل الإبداعات العلمية التي ابتكرناها، وترجمناها، وأضفنا إليها، بحيث كانت عربية إسلامية خالصة، أو صارت، بما بنينا عليها، عربية إسلامية خالصة،

وعنا أخذتها أوروبـة، ومـن أوروبـة انتقلـت إلى أصـقاع الأرض، حيثما امتدت الأرض، معروفة أو مكتشفة.

تأسيساً على هذا، يتبين لنـا، ويتأكـد بالوقـائع التاريخيـة، أننـا أصحاب ثقافة، تراكمت عبر العصور فكانت حضارة، انضافت إلى الحضارات التي سبقت ولحقت، وأننـا، في دراسـة الثقافـة العربيـة الإسلامية، والقيام بوضع اسـتراتيجية لهـا، ومعالجـة تخطيطهـا، لا نفتقر إلى التراث الثقافي، ولا إلى معطياتـه الكبـيرة، ولا نحتـاج إلى استنباط مفاهيم ثقافية، أو بنى حضارية جديدة، فما بين أيدينا تراث غني، ولعله أن يكون من أغنى التراثات الثقافية العالميـة، ومـا بـين أيدينا من روافد ثقافية أخرى، هي سـواقي حاضرنـا، ترفـد نهرنـا العظيم، نهر ثقافتنـا وحـضارتنا، وكـل مـا يتبقـى أن نـدرس، وأن نخطـط، وأن نعقلـن، نـشر كـل هـذا المـوروث الثقـافي العـربي الإسلامي، ونسعى له سعياً حثيثاً، ونعمـل لـه عمـلاً دؤوبـاً، كـي ينتشر ويزدهر في البلاد العربية والإسلامية على السواء، هذه الـبلاد التي كانت لغة القرآن الكريم جامعتها، ومقوماتها الثقافية العربيـة آصرتها، والتاريخ المشترك هو الفاعل المـؤثر في تقاربهـا، وتفاهمهـا ووحدة مواقفها، في كل مـا يعـود عـلى العـالم العـربي والإسـلامي بالخير، وكل ما يدفع عنه الأذى.

إنني سـعيدة بالمـشاركة في أعـمال مـؤتمر وزراء الثقافـة الأول الذي ينعقد في رحاب المؤتمر الإسلامي، وأشيد بهذه المناسبة بأعمال ندوات المنظمة السابقة، ومداولاتها المتتابعة، والمحاضرات القيمة،

المقدمة من الأساتذة الأجلاء الذين شاركوا في تلك الندوات، وبعضهم موجود في مؤتمرنا هذا، وسأحاول في كلمتي هذه أن أقدّم بعض الآراء التي قد تكون مفيدة في المهمة التي نتصدى لها، مهمة وضع استراتيجية ثقافية للعالم الإسلامي كله.

إن أول ما ينبغي علينا، في وضع هذه الاستراتيجية أن نفهم تراثنا الثقافي، لا فهماً آلياً جاهزاً، بل فهماً حركياً حياً، انسجاماً مع ما دلّل عليه تراثنا الثقافي، عبر العصور الطويلة، من قدرته على الديمومة واستعصائه على الاندثار، بفضل اللغة العربية، التي هي لغة القرآن الكريم، وما لعبته هذه اللغة من دور صمودي، في وجه كل محاولات التتريك والفرنسة، وغيرها من محاولات بذلها المستعمرون، ومازالوا، لكنها محاولات خائبة، خاصة في زمننا هذا، زمن استقلال الأقطار العربية والإسلامية، وزمن القدرة، لا على المحافظة على هذه اللغة، وبالتالي على التراث فحسب، وإنما أيضاً على إعطائها دفعاً جديداً، دماً جديداً، في النشر والتعميم، وفي ربطها بالبناء الاجتماعي، الاقتصادي والثقافي والدفاعي، لكل بلد من بلداننا العربية والإسلامية، وتحقيق ذلك التفاعل الخلاق، بين الثقافة والتنمية، عن طريق أخذنا لعلوم العصر، والتكنولوجية منها خاصة، والعمل بها، والتخصص فيها، وتوسيع التعليم العالي، الذي أصبح يتعدى التخصص إلى ما هو أعلى، إلى تخصص التخصص، الأمر الذي يتيح لإنساننا العربي المسلم أن يرفع إلى غير حد، قدرته على فهم الآلة، والتعامل معها، والإفادة القصوى من

الإمكانات التي توفرها، مثل الكمبيوتر والالكترونيات على أنواعها، وتفرعاتها، وبذلك نستطيع أن نقول إن الثقافة الإسلامية تسهم في التنمية في بلداننا، أو هي قادرة، في المدى المنظور، على الإسهام إسهاماً فعالاً وكاملاً في هذه التنمية، وأن نكون على بينة، وعلى عزم، وقرار، من أعلى مستويات القرار، في كل بلد، بضرورة إرسال البعثات العلمية للتزود بآخر فتوحات العلم، ثم لا نكتفي، لأن الحاجة قد أصبحت ماسة إلى الجامعات والمعاهد العليا ومراكز الأبحاث، هذه التي ينبغي أن تصدر عن مؤتمرنا هذا توصية مشددة بها.

وكي تكون هذه التوصية فاعلة، لابد من توصية أخرى، تابعة ومرتبطة بالأولى، أعني بها قضية التبادل الثقافي بين دول منظمة المؤتمر الإسلامي، التبادل الذي يشد بعضنا إلى بعض معرفياً، ويكون اللحمة الثقافية بين هذه البلدان، فيطور، نتيجة لوحدة الثقافية الإسلامية، علاقات التفاعل الثقافي، بما يقدمه، من خلال الكتاب والصحيفة والمجلة، والمعارض والفرق، والأفلام السينمائية، والبرامج التلفزيونية، وعروض المسارح القومية، ومعارض الفنون التشكيلية، من خبرات وتجارب، تفيد العاملين في هذه الحقول، وتغني تقنياتهم، وتقوم مقام الجسور الثقافية، الموصلة بين هذه الدول، وتربطها برباط اللغة والفن والتراث، وكل الإبداعات الإنسانية.

واسمحوا لي أن أضرب مثلاً على هذا التبادل، بما نقوم به نحن في سورية، حين نفتح الأبواب لمشاركة البلدان الإسلامية كلها، في

مهرجاناتنا الثقافية والفنية، المسرحية والموسيقية والسينمائية، وفي ندواتنا الآثارية والفكرية والتاريخية، ونترجم كتب هذه البلدان الشقيقة إلى اللغة العربية، بحيث أصبح القارئ في سورية على اطلاع واسع، على المؤلفات الشعرية والروائية والقصصية، التركية والفارسية والباكستانية والإفريقية وغيرها، الأمر الذي يتطلب مقابله، أي ترجمة الأدب العربي إلى لغات البلاد الإسلامية، غير الناطقة بالعربية، لما في ذلك من فائدة قصوى، لا تتوقف على الاطلاع وحده، بل تتعداه إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، بصورة متبادلة، إغناء لها، وترسيخاً لمفاهيمها، وتأميناً لوحدة عالم كبير، قوامه الدول العربية والإسلامية التي تجمع بينها لغة القرآن الكريم، وشهادة التوحيد، وقضايا النضال، بما فيها النضال لأجل التقدم الاجتماعي، وفي سبيل جبه المخاطر المحيقة بالعالم الإسلامي، من قبل الامبريالية والصهيونية على السواء.

يلي ذلك، أو يتقدمه، موضوع مهم جداً، فاعل ومؤثر في وحدة العرب والمسلمين، هو موضوع التراث المشترك، وموقفنا منه، وعملنا لأجله، بكل ماله من أثر وخطر، في تخطيطنا الثقافي والمعرفي والتربوي، سواء في إحياء هذا التراث، أو نشره، أو تحقيقه وتنقيحه، والاستمداد منه، ثقافة وعلماً وتاريخاً، كي لا نبقى في فراغ أو عطالة، من الناحية التراثية، تتجاذبنا تيارات مختلفة، بعضها يتخذ موقف الانتقاء، وبعضها يتخذ موقف النقد، وبعضها الثالث يتخذ موقف الرفض، بسبب اعتقاد خاطئ، هو التعارض بين

الـتراث والحداثـة، بـين الأصـالة والتجديـد، مـع أن القـضية، في حقيقتها، ليست كذلك ابداً، فمـن لم يكـن لـه قـديم لا يكـون لـه جديد، ومن لا أصالة له، لا تكون له حداثة، ومن انبتت صلاته مع التراث، أضاع موروثاً ثقافياً محيطياً، عظيماً في حجمه ونوعه، ومـن تنكر لتراثه تنكر لثقافته وحـضارته كلـيهما، ونحـن في موقفنـا مـن التراث وإحيائه، أبعد ما نكون عن الجمود، وأقـرب مـا نكـون إلى الحركة، نرصد هذا التراث من مسافة لا تجعلنـا بعيـدين عنـه، ولا رازحين تحت ثقاه ، وبذلك يتسنى لنـا ألا نخلـط الثمـين بالغـث، والجيد بغير الجيد، لا من منطلق الانتقاء فقط، بل من منطلق احياء ما كان عظيماً عند أسلافنا أيضاً، كي تنتفع به أجيالنا وذرارينا، وكي نحافظ على موروثاتنا الثقافية والحـضارية حفـاظ الأمـين المـؤتمن، وحفاظ من يعرف قيمة الكنـز الذي بين يديه، ويعـرف، إلى ذلـك، كيف يفرز الأحجار الكريمة فيه، ويبعد ما علق بهـا مـن شـوائب، وكيـف يعـرض هـذه الأحجـار عرضـاً مـشوقاً للقـارئ في قرننـا العشرين هذا، أو ما يليه من قرون قادمات، بحيث نـدخل الـتراث في مناهجنا التربوية، ونجعله، بذلك، قاعدة راسخة للاسـتراتيجية الثقافية التي نحن بصدد التخطيط لها.

إن موضوعة التراث موضوعة أساسية في عملنا، سواء في هذا المـؤتمر أو في مـا يليـه، مـن مـؤتمرات، تـستدعيها مهمـة وضـع استراتيجية ثقافية عربية إسـلامية، فـالتراث إرث عـربي إسـلامي، علينا أن نرفده، ونزيده ونغنيه بعطاءات الأجيال المتعاقبة، ونمكـن

له أن يكون منطلق عملنا الحالي والمقبل معاً، وبذلك نيسر لمشاعرنا القومية، العربية الإسلامية، سبباً أساساً للاعتزاز، ينعكس في ثقافتنا وأشكال أفكارنا الأخرى، المتقاطعة، المتبادلة، المتطلعة إلى تراث الماضي، بمنجزاته الثقافية العربية الإسلامية، هذا الماضي المجيد، الذي كان ثمرة عملنا، وزهوة فخرنا، على امتداد تاريخ طويل، بين دفتيه أمجاد العرب والمسلمين، وعطاءاتهم الكبرى الخالدة.

لماذا نولي تراثنا هذه المكانة؟ الجواب واضح، يتلخص في أننا أمة عربية إسلامية، تحمل مصداقيتها في تراثها، كسائر الأمم في سائر أنحاء العالم، وعندما نكون في صدد البناء على دعائم هذا التراث، وإشادة استراتيجية ثقافية عربية إسلامية متقاطعة، لابد لنا أن ندرك حقيقة ناصعة، هي بدهية من بدهيات عصرنا، مفادها أنه من الصحيح أن نقول: ليس ثمة ثقافة وجدت في فراغ، أو من فراغ، وكل ثقافة جديدة ظهرت إنما كانت مستمدة من التراث الثقافي السابق، ومستمرة فيه ومكملة له.

لقد رمى أعداء العرب والمسلمين، عبر دراساتهم الاستشراقية، اقله بعضها، إلى الاستصغار من شأن التاريخ والثقافة الإسلاميين لشعوبنا، وإغرائها بقطع علاقاتها معها، وإفراغ ماضيها من كل ما يعطيها حق الاعتزاز به، كي ينشروا أو يروجوا فكرة خاطئة، قاتلة في خطئها، هي أن شعوبنا قاصرة عن أن يكون لها حق الانتماء إلى أسرة الشعوب القادرة على إنتاج الثقافة أو

الحضارة، لا ماضياً فقط، بل حاضراً أيضاً، وفي هذا التضليل والتيئيس محاولة لاغتيال تراثنا، هذا الذي كان عصياً على الاغتيال، وثبت في وجه كل المحاولات التشويهية الإلغائية، ووصل إلينا بهياً مشرقاً، وعلينا، في عملنا لأجل استراتيجية ثقافية عربية إسلامية، أن نزيده إشراقاً وبهاءً.

ثمة، إلى جانب هاتين القضيتين، موضوعات أخرى، تطرح نفسها علينا وتدخل في صلب عملنا، مثل النظر في علاقة الثقافة الإسلامية بالمناهج التربوية والإعلامية، والنظر في علاقة الثقافة باللغة، والبحث في الوسائل الضرورية لإنجاز استراتيجية ثقافية عربية إسلامية، وقد تكلم ويتكلم عليها الاخوة المؤتمرون، وستتضح حدودها وأبعادها أكثر فأكثر، وتتجلى غاياتها، لذلك أكتفي بهذا القدر من الكلام على الجانب الثقافي، وأقارب مقاربة بسيطة الكلام على الجانب السياسي، المرتبط بما هو ثقافي ارتباطاً وثيقاً، تطرحه علينا الأحداث، وتحديات الأعداء، ويجدر بنا أن نلحظه، ونأخذه في الحسبان.

قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ وهذا العدو مواجه لنا، يقيم على حدودنا، عدواني في ذاته، وعدواني في مشروعه، وعدواني في حلفه الاستراتيجي مع الامبريالية العالمية، ولابد لنا، في المواجهة الثقافية مع الصهيونية، إذا ما أردنا الحفاظ على التراث الثقافي العربي الإسلامي أن ندرك خطرها على هذا

التراث، وعلى الحضارة، وعلى الوجود والمصير معاً، عرباً ومسلمين. إننا نخطط لاستراتيجية ثقافية إسلامية، ويتخذ هذا التخطيط، أو يجب أن يتخذ، صفة التمكين في الأرض العربية الإسلامية لهذه الثقافة، والسؤال، بعد، كيف نمكن لثقافتنا في عالمنا، مادام وجودنا نفسه مهدداً من قبل عدو، يمتد مشروعه الاستعماري الاستيطاني التوراتي من النيل إلى الفرات؟ هنا، وأشدد على العبارات، نواجه خطرين: أحدهما على الأرض، والآخر على الثقافة، وكل ثقافة لا تقوم في فراغ، ولا تتجذر في فراغ، إذ لابد لها من أرض تقوم عليها، وتتأصل في تربتها، وكل كلام على الثقافة الإسلامية إذن، مرتبط، بشكل لا ينفصم، بالحفاظ على الأرض الإسلامية، وهذا ما يتطلب منا أن ننمي إحساسنا بالخطر المصيري على أرضنا، وحقوقنا، ومستقبل أمتنا العربية الإسلامية.

إن الخطر الصهيوني خطر داهم، وهو أكثر الأخطار عمقاً وشراسة وتعقداً، بسبب من أنه عرقي، عنصري، يتفرد، عن كل مشاكل العصر، بأنه مشكل يرتكز على فلسفة عقائدية، ودعائم دينية ضالة مضللة. نقول مضللة لأننا نؤمن، ويؤمن العالم معنا، أن الله جل جلاله قوة عدل مطلقة، لا يمكن أن يخالطها ظلم، وأنه لا يمكن أن يعد فئة من الناس بامتلاك أرض ليست لها، وطرد أهلها، وتقتيل أبنائها، وتوجيه الأسلحة إلى صدورهم العارية، إلا من الإيمان بحقهم في أرضهم، وحقهم في تقرير مصيرهم، وحقهم في السيادة على هذه الأرض التي انتزعت بالقوة، خلافاً لشرعة الأمم التي لا تجيز الاستيلاء على أرض الغير بالقوة.

«إننا مؤمنون ونحترم الأديان وحرية التدين»، كما قال الرئيس حافظ الأسد، ولكن عندما تحاول فئة من الناس تحويل الدين إلى أداة للتمييز العنصري، ووسيلة لاستعباد الشعوب، ونهب ثرواتها، ومصادرة حقوقها، وتشريدها من أوطانها، وعندما تجعل هذه الفئة، من الظلم والقهر والعدوان والأطماع الإقليمية، عقيدة دينية لا تحتمل المناقشة، وتعمل كل يوم على تنفيذها، بدعم مادي ومعنوي من القوى الامبريالية، نجد من الواجب علينا أن نتصدى لها، وأن نقاومها، وأن نفضح مرتكزاتها العنصرية والعدوانية، وغاياتها السياسية» وأن نهب لدعم الانتفاضة الرائعة المجيدة والمستمرة، في الأراضي العربية المحتلة، التي تجبه المحتلين وجنودهم وأسلحتهم كلها.

إن هذا الكلام ليس خروجاً على الثقافة، بل هو في صلبها تماماً. فالحديث عن الخطر الصهيوني على الأرض هو، في عين الوقت، حديث عن خطره على الثقافة، وبما أننا وزراء ثقافة لدول إسلامية، فإن علينا أن ندرأ الخطر الوافد والداهم، من جانب الصهيونية، على ثقافتنا العربية والإسلامية، وبذلك نكون على بيّنة من الأمر، وعلى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقنا، في التخطيط الاستراتيجي للثقافة، وفي حماية هذه الثقافة التي إذا لم ندفع الغزو الصهيوني عنها، فإن التخطيط لها يصبح تخطيطاً عديم الجدوى، أو قليل الجدوى في أحسن الأحوال.

وبعد.. هل من حاجة إلى التأكيد على أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة أصيلة، عريقة، ثرية في إبداعها، وتنوع عطاءاتها، وتفاعلها مع

ثقافات العالم؟ إن هذا من فضل القول، ولسنا بحاجة إلى التدليل أو البرهنة عليه، ومادام ذلك كذلك، فإننا ندخل في صلب الموضوع، عبر صياغة وجهات النظر، بعد تدقيقها وتوحيدها، وتأليف لجنة تنبثق عن هذا المؤتمر، تتولى الإشراف على إعداد خطة الاستراتيجية الثقافية، للعالم الإسلامي، وتقديمها في الدورة المقبلة لمؤتمرنا هذا.

﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ ونحن نعمل، ولابد من مضاعفة العمل، والتسريع به، لتكون للعالم الإسلامي استراتيجيته الثقافية، وعدته اللازمة لحماية هذه الاستراتيجية، من الخطر الصهيوني، وكل الأخطار المحيقة بها.

أفضل تمنياتي بالنجاح الكامل للمؤتمر وأصدق الشكر وأعمقه للدولة الإسلامية المضيفة، ورئيسها المحترم صاحب الفخامة **عبدو ضيوف**، ولكم جميعاً مؤتمرين ومشاركين في هذا الجهد البالغ الأهمية، في الظروف الدولية التي نعيش فيها، وفي المساعي الحثيثة والمبذولة، من قبل المنظمات الثقافية العربية الإسلامية، لمعالجة وإرساء قواعد وحدة الثقافة الإسلامية، من خلال ما اصطلحنا على تسميته بالاستراتيجية الشاملة لها.

لا معنى لكلمة تقاعست

عن الانتصار للوطن(*)

من الأزل وإلى الأبد، صلاة بين الأرض والسماء، وسفيرة بين الضمير والوجدان، وبوح قلب إذا هو بالـشوق تنـدّى، وباللهـب المقدس اشتعل، وترجمان الذات إلى الذات، في كل صياغات الفكر، ونداء الثورة، إذ هي دبيب يتشهى على وجه الثرى.

تلك هي الكلمة، ونحن أصحابها، نقولها خلقة بكـراً، وبـدع جنان، فإذا الكائنات تنتشي مـن سـحر بيـان، هـو ترنيمـة ملائكـة ومعجزتها، وهو لحن أصيل على مشارف أفق، سكب الله فيه روحاً، وتنزل الفرقان وحياً، وتفاهمت شعوب وقبائـل، وأطلعـت الـدنيا حضارات باقيات.

ألا تبـارك الخـالق والمخلـوق إذن، فـالنعمى زنبقـة حقـل، والفيض لألاء، والقلب دواة، والقلم أداة، ومن ذوب هذا الخـافق نخط حرفاً، يشمخ حتى لا يطال، وحق لـه أن يفعـل، فمـن يهـب

(*) ألقيت في تجمع للأدباء العرب في تونس، في مقر اتحاد الكتّاب، والإضافة الأخيرة جاءت على ضوء الأحداث الأخيرة في سورية.

الوجود وجوداً آخر، من رؤىً وتهاويل، ومن حقائق ووقائع، ومن سير وابتهالات، تتكرم بها الشهادة، وتتمجد البطولات، يصير في الناس، فينا جميعاً، حياة لا أبهى، ولساناً لا أعذب، وكتاباً نأتي المصائر وهو في يميننا، لأنه شفيعنا، وزهونا، وحصيلة ما قدمنا وما أخرنا في دنيانا.

ومن دمشق، تلك التي قال فيها الجواهري:

دمشق عشتك ريعاناً وخافقة ... ولمة والعيون السود والأرقا
وها أنا ويدي جِلْدٌوسالفتي ... ثلج ووجهيَ عظم كاد أو عرقا
وأنت لم تبرحي في النفس عالقة ... دمي ولحميَ والأنفاس والرمقا
تموجين ظلال الذكريات هوىً ... وتسعدين الأسى والهم والقلقا

من دمشق، غوطة وهامة وقاسيوناً، أوجه إليكم، يا صانعي الكلمة، ومبدعي الحرف الجميل، تاريخاً وحضارة ومجداً، تحية من إخوتكم، من أبناء سورية، ومن حملة القلم الذين اتخذوه سلاحاً في المعركة، على طول المعركة، وبه أبدعوا روائعهم، نفح طيب وعطر أقحوان، ومابرحوا يصوغون أشواق أمتهم في الوحدة والكفاح والصمود، في وجه عدو شرس، مخاتل، نحن أدرى بقراعه، لأننا احترفنا قراع الأعداء أباً عن جد.

هل نوقظ التاريخ النائم قريراً في مطاوي الكتب؟ وما حاجتنا إليه؟ نحن، في النظرة الجديدة إلى الحياة، سنكتب تاريخاً جديداً، وحين يكتب التاريخ فإنما بعطاءاتكم يعنون، ولو سئل من مدّ نار

الثورات، ومن صاغ البطولات، ومن فرش الربى زهراً أنقاً، ومـن حفظ العهود أن تصبح دوارس، وخط للمستقبل درباً، واسـتولد للغد فجراً، لأشار إليكم، ولا أغالي، فأمة لا تزدهي بحملة الأقلام فيها، ليست أمة، ولن تكون أبداً.

غـير أن موقعـاً كهـذا، إلى الـسدرة العليـا يرتقـي، لـه تبعاتـه ومسئولياته، حيال الوطن، وحيال الشعب، وحيال النقلة من تخلف إلى تقدم، ومن عصور عرفنا فيها أذى العدوان والاحتلال، ووطـأة القهر والاغتصاب، وشرور الفقر والجهل، إلى عصر تحرر، ندفع فيه عنا كل ضيم، ونرد كل طامع، فنحـرر الأرض، ونـسترد الحقـوق، ونبني الأوطان، وننتزع المكانة التي نستحقها بين الأمم.

يصير ذلك عندما نعرف أن الفكر ثقافـة، وأن الفكـر إبـداع، وفي غير الأصالة، وغير الصدق، وغير الإجادة، وغير الإحاطة، لا نستطيع أن نقدم فكراً ينهض بهذه المطامح، ويسهم في التغيير الذي هو معركة الكاتب الأولى، حين لا يقف متفرجاً عـلى تخـوم قـضية عصره، بل في مركز الصراع منها.

إنني بينكم للتعارف، والتعاون، ولإزجاء التحايا، وسيكون كل وعظ مرغوباً عنه، فما أحببت المواعظ كاتبـة، ولا وزيـرة، ولـست في السلطة إلا خدمة للوطن ونشراً للثقافة، فهواي مع الكلمة، وسيبقى.

أحيـيكم، أشـد عـلى أيـديكم، وأبـارك جهـدكم، ثمـراً في الخالدات كان، وفي الخالدات سيظل.

* * *

واليوم.. يا أرباب الكلمة، أنتم تشهدون كيف كبرت المؤامرة، ودارت الدوائر، على وطنكم الأمثل، سورية، واستحكمت لغة الدم والعنف والهمجية والجريمة والعدوان والإرهاب والتدمير، واستقوت قوى الشر المهيمنة، أمريكية وفرنسية وبريطانية وتركية، وعربية الوجه، في بعض جبهاتها، قطرية سعودية، واسودّ الأفق العربي كله..

واليوم.. يا أرباب الكلمة، البطولات في سورية تكبر، والتضحيات تجلّ عن الوصف، فلا تقفوا على التخوم، وأنتم تشهدون ونحن، أن المؤامرة صارت إلى انحسار، والإرهاب إلى زوال، وبطولات إخوتكم في سورية، عسكرية ومدنية، وتضحياتهم، صارت أكبر من الوصف.

وسيكبر الأمل بكم، ويتسارع النصر حين تنضفر عزائمكم معهم، وتنهضون بدوركم إلى جانبهم، وتشحذون بالإيمان بسورية، قلب عروبتكم، سلاح الفكر والكلمة، كي تؤدوا رسالة النضال، دفاعاً عنها، وانتصاراً لها، حتى تطهر أرضها، ويعود السلام إلى ربوعها، وتتفجر، من جديد، ينابيع الخير على أرضها، وتنحسر سحب الظلام، وسيول الدماء..

الفكر كان سلاحنا الأهم، وسيظل، وسيذكر التاريخ لكم بتقدير، هذه الرسالة التي تحملون، وهذا الدور الذي تقومون به، وإلا فلا معنىً لكلمة تقاعست عن الانتصار للوطن، والنضال من أجله.

جهدكم، ثمراً في الخالدات كان، وفي الخالدات سيظل.

معالي الدكتورة / نجاح العطار
وزيرة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

السلام عليكم ورحمة الله.. وبركاته

لما كان يوم ٢ أكتوبر يوافق ذكرى مرور ٨٠٠ سنة على انتصار صلاح الدين على الصليبيين في بيت المقدس، ولما كانت الغزوة الصهيونية الراهنة للأراضي العربية هي حلقة من حلقات الحملات الصليبية التي تستهدف العروبة والإسلام، فقد رأى الاتحاد العام للفنانين العرب أن يناشدكم ألا يمر هذا اليوم دون تذكرة الشعب العربي بالذكرى الخالدة لانتصار صلاح الدين الأيوبي، ولا شك أنكم تستطيعون بأجهزتكم الثقافية والفنية أن تصنعوا من هذا اليوم عيداً للعروبة والإسلام.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

رئيس الاتحاد العام للفنانين العرب(*)
سعد الدين وهبة

١٣/ ٧/ ١٩٨٧

(*) أبلغنا السيد رئيس الاتحاد بأن سورية لم يفتها أبداً أهمية هذا الحدث التاريخي، وقد هيأت كل الظروف لذلك، وبدعم من السيد الرئيس، وربما تكون الدعوات قد وصلت إليكم..

مع خالص الشكر لكل المخلصين من رجالات الأمة وللسيد رئيس اتحاد المؤرخين العرب الدكتور مصطفى عبد القادر النجار الذي سيشارك بكلمة في الاحتفال.

حطين ليست معركة في التاريخ

إنها أمل أمة في المستقبل! (*)

لا أدري كيف يكتب التاريخ، لكنني أعـرف كيـف يقـرأ. إن الملحمة التي نسيجها برق، هي الزمردة التي نسيجها ضـوء، وبعـد ذلك يسطع لألاء كريم، إذ الجوهرة تعطي ذاتها، وتقول ذاتها، وبين العطاء والقول تلك المسافة الممتـدة بـين شـهود معركـة ووصـفها، ودور المؤرخ، عندئذ، أن يرتفع إلى الأعالي، ليرى من حالق، ويحيط بالأرض مـن ملعـب نـسر، فيـسجل بريـشة ماسـية، تحمـل أمانـة الحقيقة، كل نصاعة الحقيقة، وكل بهائها أيضاً.

وحـين آتـيكم، في موكـب الـذكرى، كاتبـة وشـاهدة، تأخـذني الرهبة أمام البطولة، كـما تأخـذني الرهبـة أمـام العـرش، فـالقبس في البطولة وفي الرسالة، قبس إلى الملأ الأعلى مصدره ومرده، مادام الذين فادوا، وجاهدوا، وقاتلوا في سبيل الله، كانوا في الأبطال زهو تضحية، وكانوا في الأنبياء مجد نبوة، تنزل بها الوحي الكريم، وانـبلج الـصبح المنير، وجاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

(*) في افتتاح ندوة حطين ١١ -١٣ /٧ /١٩٨٧، بمناسبة مرور ثمانمائة عام على الانتصار الذي حققته.

وأعتذر لو يشفع العـذر، فالخطـاب في أقـصى مـداه، كتـاب، والكتاب في غايته خبر، والأخبار في السيوف لا في الكتب صدقها، وهذا الصدق يختصر مجد الكلمة، لأنه يختصر مجد المعركة، هذه التي في غمارهـا النـصر والفـتح، وفي ضرامهـا الـشبوب والـوهج، وفي حسمها يبدأ تاريخ وينتهي تاريخ، وفي ذكراها ننحني احتراماً للدم الطهور الذي أشعل بأرجوانيته النيران في التربة.

قلت أعتذر، وأعني ما أقول، فأمام ذكرى حطـين، نقـف كـما أمام المعجزة، ليس لأن حطين معجزتنا، واقعتنا، معركتنـا، ولـيس لأنها كانت على اسمنا، وحملت رايتنا، بل لأنها فوق هذا كله، ومن أجل هذا كله، كانت شهادة لا تنقض، عـلى أن مـا أخـذ بالـسيف فبالسيف يـسترد، وتلـك حكايـة الحكايـة لقـوم يعقلـون، وتلـك خلاصة الخلاصة، في تاريخ كل الأمم، وكل الشعوب، وكل الذين ينهضون بعد قعود، ويجتمعون بعد فرقة، ويتوحدون بعـد شـتات، ويرفعون لوثبتهم منارة هي الأعلى في المنارات، لأنها منارة الوحـدة التي ليس بعدها بعد.

ويحار المرء، وهو بين يدي صلاح الدين، كيف يطاوع الكلـم، في أن يصنع قلادة ألفاظ، حروفها روح وريحـان، ونقاطهـا بـتلات فل واقحوان، لجيد ذاك الذي كان في التاريخ عنوان تـاريخ، تمـضي قرون، ويسلم دهر زمنه لدهر، وهو في معجزة ما صنع، بطـل كـل القرون، وكل الدهور، وكل الأزمان، لأنه بطـل حـروب امتـدت، وأناخت، وأزهقت، وتطاولت، كأنها الليـل الأبـدي، فـإذا بـه، في

موقعة واحدة، يقطع سلسلتها بمدية شجاعته، ويقشع ظلمتها بمصباح بطولته، وينهي أمرها بضربة حاسمة ما عرفت مثلها ضربات الأبطال الذين حسموا المعارك في أزمانهم، وكانت لهم صفحات في المدونات، وقصائد في الشعر، ليست إلياذة هوميروس، في تصويرها الرائع، إلا بعض مديح، وبعض فخر، مما حفلت به المدائح التي تغنت بمآثرهم.

ولن أحاول، وأساتذة التاريخ هنا، أن أروي تاريخ صلاح الدين، فهم الأولى، والأقدر على أن يفعلوا ذلك. ولن أبلغ في نثري، مبلغ الشعر في نظمه، حين يكون عبقر من منازل وحيه، لكنني أتقحم وعراً، إذ أتقحم صعبا، حين أياسر إلى قول فيه ألق الحقيقة، وفيه جمالها، وفيه رسم بالكلمات للوحة الماجدة التي خلفها لنا صلاح الدين الأيوبي، حين تسلم من عمه نور الدين الزنكي، المهمة الصعبة، ولكن غير المستحيلة، مهمة توحيد قطبي الكون العربي: مصر وبلاد الشام، في مواجهة حروب الفرنجة، أو الحروب الصليبية، كما أطلق عليها مؤرخو الغرب، الحروب التي استعارت شارة الصليب زوراً، لأنها، في واقعها، كانت حروب مطامع غربية في الأراضي العربية، قبل أن تكون، بالنسبة لقادتها على الأقل، حروباً لأجل الدين، فالدين براء مما فعل الفرنجة، حين هاجموا، وهيّجوا أوروبة، وزحفوا، فرساناً ومشاة، على هذه الأرض الطهور، يتقدمهم الرعب، ويحف بركابهم الموت، وتثور في دواخلهم شهوات مسعورة إلى نهب خيرات هذه البلاد، وتقتيل سكانها الأصليين، وتشريدهم، وبينهم المسيحيون أيضاً.

لقد ذعر الذعر، قولة المتنبي، من هول ما اقترف الفرنجة في حروبهم الصليبية تلك، والمؤرخون المنصفون، من عرب وأجانب، يروون الشيء الكثير عن الوقائع المفجعة، المدماة، الموغلة في سفك النجيع، ونهب المدن، وسرقة البيوت، وقتل وحرق وشنق السكان، وحتى سحق رؤوس الأطفال بالحجارة، حتى استطاعوا، مستفيدين من فرقة أصحاب البلاد، وتمزق شملهم، وعداوة بعضهم لبعض، فتحها واحتلالها، ثم إقامة الإقطاعات فيها، ومتابعة غزوهم الهمجي حتى الاستيلاء على القدس الشريف، حيث انصرفوا، بعد ذلك، إلى فتح الثغور، وإنشاء الممالك، وتقاسم الغنائم، والتنازع عليها، وفي ظنهم أن احتلالهم هذا إلى تأبيد، واستعمارهم إلى ديمومة، واستيلاءهم على المشرق العربي إلى بقاء لا زوال له.

لكن نور الدين الزنكي، الذي أدرك في وقت مبكر، قيمة الاتفاق، ونبذ الاختلاف، وأهمية ضم دمشق إلى حلب، وتوحيد الإمارات، وتولية صلاح الدين الأيوبي على مصر، وتحالف أرض الكنانة مع أرض الشام، قد كان ثاقب النظرة، قوي الهمة، يرى إلى الوحدة، في الصورة التي تمت عليها، السبيل إلى التحرر. وفعلاً آذنت تلك الوحدة بنهوض عربي، تولاه من بعده، بالرعاية والعناية، صلاح الدين الأيوبي، الذي كان رجل دولة، ورجل قتال، وبطل تحرير، يرى في وحدة مصر والشام، ذروة طموح إلى ما هو أكبر، وغاية أمل إلى ما هو أعظم: تحرير المشرق العربي، واستعادة القدس الشريف من أيدي غاصبيه.

وإذا كانت العزائم على قدر أهل العزم، فإن صلاح الدين كان ذا عزم لا يلين، وشجاعة ندرت بين الشجاعات، وحكمة فيها العقل والروية والتدبير، وكان، كما يقول المؤرخون، يرى التحرير قضية وليس مغامرة عسكرية، وفي الحرب التحريرية اختباراً لكل طاقات الأمة، وإمكاناتها المادية والمعنوية، وقد عمل، قبل أن يتوجه إلى قتال الأعداء، على توفير كل مقومات النجاح، وفي أساسها الوحدة التي هي حجر الزاوية، ومن دمشق التي كانت مركز إدارة الصراع، نادى المسلمين والعرب أن هبوا، وتجمعوا، واحتشدوا، ولبى الذين ناداهم صيحته، واستجابوا لدعوته، وهكذا راح يحشد قواته وينظمها، ويحسن تعبئتها، وبذلك قام بأعظم حركة في تاريخه، وأكبر مأثرة في حكمه، وهي التعبئة الشاملة لجميع القوى العربية والإسلامية، وحين تم له ذلك، اتخذ قراره الخطير. قرار الحرب والتحرير.

وفي معركة حطين، أي قبل ثمانية قرون من الآن، تجلت عبقريته الحربية، حين لم ينفرد بالرأي، ولم يستأثر بالقرار، بل عقد مجلساً حربياً، تدارس الأهداف العسكرية، ووضع الخطة التنفيذية، وكان هو، في الجيش الذي أعده للقتال، يتولى قيادة القلب، ليكون رأس حربة المجابهة، وببراعة نادرة ومدهشة، استدرج الفرنجة إلى طبريا، لنجدة حاميتها، وكان غرضه العسكري، بالغ الحنكة والتخطيط، حين قدّر أن زحف الأعداء، عبر الصحراء، ما بين صفورية وطبريا، سيجعل قواتهم تصل مجهدة مكدودة، في حين

تكون قواته مستريحة، مدخرة الجهد، جمة النشاط، وحين وقع الصليبيون في شباك خطته الرائدة، وبدؤوا الزحف باتجاه حطين، قال كلمته المشهورة«جاءنا ما نريد»، حيث احتل الصليبيون هضبة حطين وتمركزوا فيها، وتقدم صلاح الدين بقواته إلى قرية حطين، حيث الماء والمرعى، وفي الرابع من تموز، عام ١١٨٧، حاصر الهضبة، وأشعل النار في العشب الكثيف اليابس فيها، وتقدمت جيوشه، التي أحاطت بالعدو إحاطة الدائرة بقطرها، وبدأ القتال ضارياً، عنيداً، بطولياً، يسير وفق خطة وتكتيك مرسومين، وينفذ بدقة، فانهزم الصليبيون، ونقل ملكهم جاي خيمته إلى أعلى قمة في الهضبة، لكنها ما لبثت أن سقطت، ووقع الملك جاي ومن معه في أيدي المقاتلين العرب، وعندما رأى صلاح الدين ذلك، ترجل عن فرسه، وسجد على الأرض، وامتلأت عيناه بالدموع، وكانت حركته تلك، بكل ما فيها من معاني السمو والتواضع، إيذاناً بانتهاء معركة حطين التي دامت سبع ساعات، وبعدها انهزم الصليبيون هزيمة لم تقم لهم إثرها قائمة، إذ تم تحرير القدس، وتم على المدى الأبعد، تحرير أراضي المشرق العربي، وطويت صفحة الحروب الصليبية في بلاد الشام.

إن معركة حطين التي كانت أهم معارك القرون الوسطى، وشخصية صلاح الدين التي كانت أعظم شخصيات مرحلة الحروب الصليبية، والعوامل التي أدت إلى هذه الحروب، والنتائج المستخلصة منها، هي صناعة المؤرخين، وقد قلت، في مفتتح

كلامي، انني لا أدري كيف يُكتب التـاريخ، لكننـي أعـرف كيـف يُقرأ، وقد قرأته وأطلت، ودرسته وتمعنت، وكنت، في كـل قـراءة، أخرج باستنتاجات موحدة، هي أن انتصار حطين، قد فتح الطريق لكل الانتصارات التي تلته، وأن هذا الانتصار مـا كـان ممكنـاً دون وحدة العرب والمسلمين، ومـا كـان قـادراً عـلى الاسـتمرار لـولا النهـوض الـشعبي الـذي رافقـه، وأن أحـلام الفرنجـة، في إدامـة احتلالهم للمشرق العربي، قـد عـصفت بهـا ريـاح وحـدة الكلمـة ووحدة الموقف، ووحدة الاندفاعة العربية الإسلامية، وأن الحروب الصليبية هي النسخة السابقة للحروب الصهيونية اللاحقـة، التـي شنتها إسرائيل، والهدف منهما واحد، هـو الاسـتعمار والاسـتيطان والاحتلال، وأن أكذوبة«أرض الميعاد» التي تشدق بهـا الـصهاينة، قد تشدق بمثلها الفرنجة، حتى إن المؤرخ السوفييتي زابوروف، في كتابه«الصليبيون في الشرق»، يستخدم العبارة نفسها، وهو يكشف تلك المطامع التي حركت الصلبيين ودفعتهم باتجاه الشرق.

ولقد دام الاحتلال الـصليبي لـلأرض العربيـة حـوالي ثلاثـة قرون، وعجز الـصليبيون، رغـم هـذه المـدة الطويلـة، عـن تأبيـد احتلالهم، كما كانوا يأملون، فأين القرون من العقود، وأيـن مئـات الأعوام مـن عـشراتها، ولمـاذا يحسب الإسرائيليـون أن احـتلالهم لفلسطين والأراضي العربية سيتأبد، وهو، في تاريخه كلـه، لا يزيـد عن أربعين عاماً، هي لا شيء في عمر الزمن، وهي لا شيء حتى في عمر الاحتلال الصليبي نفسه، هذا الذي كان على إسرائيل ان تأخذ

العبرة منه، كما أخذت الإجرام عنه، بما قتلت وذبحت وشردت من عرب فلسطين. قد يقولون إن الامبريالية وراء الصهيونية، وإن أمريكا وراء إسرائيل، وإن الاستعمار العدواني وراء الاستعمار الاستيطاني، وأقول: نظار، فهذا العصر هو عصر الشعوب، عصر انتصاراتها على محتليها والمعتدين عليها، والفارضين عنصريتهم على رقابها، ومثلما عصفت رياح الوحدة المشرقية القديمة بالصليبيين، ستعصف رياح الوحدة العربية المجيدة الآتية، التي لا ريب فيها، بالصهيونيين.

إن الزمن لا يصاب بالعقم إلا حين يصاب بنوه بمثل ما أصيب به، وزمننا إلى خصب، لأننا نحن إلى خصب، فعلى أرضنا العربية ولد الذين أجلوا الاحتلال العثماني، كما أجلوا من بعده الاحتلالات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية وغيرها.

وفي زمن المؤامرة الامبريالية الصهيونية الكبرى، عام ١٩٤٨، التي زرعت إسرائيل، بقوة السلاح، رجساً شيطانياً في ربوعنا، استفاد الغزاة، كرة أخرى، من فرقة البلاد العربية، وتبعثرها جزراً منفردة، متباعدة، متنافرة، ليقيموا كياناً «صليبياً» جديداً، هو إسرائيل هذه المرة، وزودوها بكل أسباب القوة، وسلحوها حتى الأسنان، ودعموها في كل المحافل، وحرضوها، ودفعوها إلى العدوان تلو العدوان، لكننا قاومنا ولم نزل، وها هي المعركة، منذ أربعين عاماً، دائرة، وستظل دائرة، إلى أن نبلغ النصر، فالأرض التي أنجبت صلاح الدين الأيوبي، أنجبت أيضاً جمال عبد الناصر

وحافظ الأسد، وفيهما، معاً، من صلاح الدين شمائله، ومن بأسه دلائله، ومن شجاعته أمارات، ومن عمله للوحدة بينات، وفيهما، معاً أيضاً، من رجولته وبسالته وحكمته، رجولة وبسالة وحكمة.

وإذا كان عبد الناصر، ذلك النيزك العظيم الساطع، قد أضاء سماءنا كالبرق، ومثله انطفأ، إذ مات في غير أوانه، وارتحل في غير وقته، وخلف للعرب تركة ثقيلة، ليس أقلّها ذلك المرتد الخائن أنور السادات، وما فعله بفصل مصر عن العرب، وفصم عرى الكنانة عن الشآم، وإخراج وادي النيل من ساحة المعركة مع إسرائيل، أقول: إذا كان عبد الناصر قد انتقل إلى جوار ربه، فإن حافظ الأسد قد جاء ليكمل رسالة عبد الناصر في التحرير والتوحيد وإنهاض العرب وإعدادهم للمعركة، وقد خبر تجربة عبد الناصر، وأفاد منها، وبرهنت تجربته هو عن نفسها، وأعطت مصداقيتها في حرب تشرين، وما قبلها وبعدها، وفي هذا الصمود الرائع أمام كامب ديفيد، وامام الهجمة الامبريالية الشرسة، وإجرام إسرائيل المنكر، وكل المؤامرات والضغوط.

وفي الوقت الذي قارع فيه الأعداء في الخارج، قارع الإرهاب في الداخل، وانتصر في الحالين، وفي مدى عهده الماجد الذي عرف، بثاقب نظرته، وسداد رأيه، وشجاعة قلبه، كيف يجعله عهداً للعمل القومي، كانت الوحدة العربية شغله الشاغل، وكانت قضيتها قضيته، ودعوتها دعوته، وقد وقف، من منطلق العمل القومي، إلى جانب كل قطر عربي تعرض للضر، أو للخطر، ومازال يأخذ بنا في

طريق الكفاح، مستنهضاً الهمم، باعثاً الأمل، مؤرثاً للنـار حتـى في الصدور التي خمدت نيرانها وأصبحتْ رماداً.

على هذا النحو، كان حافظ الأسد بطل مرحلتنا، كما كان عبد الناصر بطل مرحلته، وأستطيع القول، بكل موضوعية وجهارة، ان التاريخ سيحفظ لحافظ الأسد، في أشـد صـفحاته إشراقـاً،، ذكـراً خالداً، لأنه هو، بما أوتي من صادق العزم وصادق النيـة، وصـادق الإيمان، سيبقى في المجلين مـن سـيرة أبطالنـا، وفي الـشجعان مـن ملاحم قادتنا، ومن هنا ثقتنا وثقة العرب العميقـة بخطـه النـضالي الصلب والصامد.

إن التاريخ خلق لينطق لا لينام في الكتب، وهـا نحـن نـوقظ التاريخ، ونستنطقه، ونحاوره ونفيد من خبراته، ونجعـل احتفالنـا به، وبقائده، وبوحدته، ومعركته الشهيرة، مناسبة للذكرى والعبرة، لا للحـسرة والرجعـى، ومناسـبة للعمـل والبـذل، لا للتبـاهي والتفاخر، وكذلك مناسبة لشد العـزائم، لا لتراخيهـا، ولـلإصرار على ما يجمع لا على ما يفرق، وعلى مـا يوحـد لا عـلى مـا يـشتت، وسنبلغ، بهذه الإرادة الصلبة، ما نسعى له، ونجاهد في سبيله، وهو الوحدة والنصر وتحرير الأرض واسترداد الحقوق، وهذا عهـد، إن العهد كان مسئولاً.

وما نشك في أن العرب جميعهم يعرفون مـسئولياتهم، خاصـة في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ أمتنا، وأنهم سينهضون بها. وأول هذا النهوض هو التوحد العربي، أو التضامن العربي الذي نرقى بـه

شيئاً فشيئاً، إلى الوحدة العربية التي دونها لن يكـون نـصر مـأمول، وغلبة مرجوة.

وفي هـذه الوحـدة العربيـة المنـشودة، نعـرف، نحـن أيـضاً، مسئوليتنا، وننهض بهـا، كـما يـنهض بهـا إخوتنـا العـرب، في كـل أقطارهم[1]، وكما كانت دمشق، في زمن صلاح الدين، منطلق وحدة وتحرير، ستكون في زمن حافظ الأسد منطلـق وحـدة وتحريـر، فيـا صلاح الدين، أيها الراقـد فينـا، وإلى جوارنـا، لنـبلغنّ مـا بلغـت، ونبلونّ كما أبليت، ونوحـد ونحـشد ونخطـط وننفـذ كـما فعلـت، ونختـار أرض المعركـة ووقتهـا كـما اخـترت أنـت أرض المعركـة ووقتها، لأننا مثلـك لا نـرى في التحريـر مغـامرة عـسكرية، وإنـما اختباراً لكل طاقات الأمة وإمكاناتها المادية والمعنوية، ولن نقع، كما لم تقع، في الإثارة والاستفزاز، إنما نتخذ قرار معركتنا على هدي من وحدتنا، وقوتنا، وتوازن استراتيجيتنا، ولن يفتّ في عضدنا تـصرّم الأعوام، فنحن نعرف الحساب، ونجيد قراءته، ونعرف أن تطـاول زمنه هو لنا، وفي مصلحتنا، وان العقود لا شيء، إذا كانت القـرون لا شيء، ولـن يتأبّـد احـتلال الـصهيونيين، كـما لم يتأبّـد احـتلال الصليبيين، مادامت المعركة بيننا مفتوحة، وستظل مفتوحـة، جـيلاً

(١) هذا ما كنا نحلم به ونتمناه، ولم يكن في مدى الوهم أو الظـن أن يـصيب أمتنـا مـا أصابها من تمزق، وتشرذم، وانهيارات، وخيانات صاعقة، لكننا لن نفقد أبداً الأمل في النصر.

فجيلاً فجيلاً، وقرناً فقرناً فقرناً، وأن التاريخ الذي ينادينا، سنكون موحدين في التلبية له، وسنمضي معه إلى أمام، ودائماً إلى أمام، لأنه في مبرم حكمه، لم يقف، ولم يتراجع إلى وراء أبداً.

هذه ندوة لحطين، ولكنها، في المآل، ندوة لدمشق والقاهرة وبيروت والرياض، كما هي ندوة لفلسطين والجزائر وتونس وعمان وطرابلس والخليج، وكل عاصمة عربية، وكل مدينة وبلدة وقرية عربية، ونحن إذ نستعيد ذكرى حطين، نعرف أن الخطر على حدودنا، وأن النار موجهة إلى صدورنا، وأن عدونا هناك، في الأرض المحتلة، وأنه، في مطامع الصهيونية، كما كان في مطامع الصليبية، مشروع للتوسع والاحتلال، من النيل إلى الفرات، ومن المشرق إلى المغرب، وأنه خطر كبير داهم، وعلى العرب، كل العرب الذين يعز عليهم بيت المقدس، والأراضي المقدسة، والمسجد الأقصى، وقبة الصخرة وكنيسة القيامة، وكل المقدسات المستباحة، أن يهبّوا وينهضوا، ويحتشدوا، ويبذلوا، ويصنعوا حطين عصرنا، كما صنع صلاح الدين حطين عصره.

وإذا كانت الكلمة، في مدعى شوقها، وفي مرمى الظن من مداها، تبقى كلمة، فإننا نريدها قضية، وهي قضية، فالكلمة كانت في أصل الفكرة، والفكرة كانت في أصل الثورة، والثورة عنوان وحدة وتحرير، لذلك لا نخشى على كلماتنا من الضياع، مادامت

على اسم الحق مكتوبة وملفوظة، وعلى اسم العمل مرئية ومسموعة، ومادمنا، نحن قائليها، نعني كل حرف فيها، ونترجم الحروف إلى وقائع، ونأتي الدنيا وكتابنا في يميننا، وهو كتاب للنضال متنه وعنوانه، وللمفاداة، حتى آخر نقطة دم، كلماته، وحروفه.

أرحب بكم، باسم وزارة الثقافة، ترحيباً حاراً كريماً، وآمل أن يكون النجاح حليف أبحاثكم ومناقشاتكم وندوتكم جميعاً.

بين يدي صلاح الدين حطين الشهادة على أن ما أُخذ بالسيف بالسيف يسترد(*)

ليست الذكرى لذاتها، بل لمعناها، وليس هذا المعنى، في شمولية الحدث التاريخي، سوى ذاكرة جمعية، تومض في بؤرتها الاسترجاعية وقائع المكان والزمان، فتتيح لنا، عبر أحداثها، أن نستخلص الدروس المستمدة منها، بكل تجلياتها، وبكل جوانبها السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية.

إن الأصابع التي تعبث بالزبد لا تتشكل من الموجة المرتطمة بصخور الشاطئ، قصاراها أن تتراءى فيها، ثم تتماهى والماء الذي، بين المد والجزر، لا يبقى هو ذاته، بل يتغير بتغير الموجة الآتية من أعماق اللجة، والأمواج في تدفقها وتلاحقها، لا تعود هي ذاتها أيضاً، ولا تصبح، في ذراها، محطات للنوارس البيض بالدورة نفسها، والشكل نفسه، وهذا هو شأن التاريخ الذي هو بحر الوجود وسفره. إنه لا يعطي أشياءه لتكون، ولتظل، أشياء ثابتة، ففي كوننا كل شيء إلى تطور وتبدل، وكل معطىً إلى دلالة، لها من

(*) في اختتام ندوة حطين في ١٣ /٧ /١٩٨٧.

زمانها ومكانها، عبرة مختلفة، غير التي كانت، في الدهر الذي كانته ذات يوم.

من هنا فإن ذكرى حطين، بكل انـدياحاتها، قد أمدتنا بالثوابت، ولكنها، في الوقت عينه، قد أبرزت لنا المتحولات، وفي أبحاثكم القيمة، الزاخرة بالمعلومات والاستنتاجات، قد توفرت لنا ثوابت، تصح، من حيث الأساس، مادة للمقارنة، حول الظروف التي قامت فيها الحروب الصليبية، وفي أسباب انتصار الصليبيين وانكسارهم، وفي الفرقة التي أدت إلى انهزام المشرق العربي، ثم في الوحدة التي أدت إلى ظفر هذا المشرق، على يد صلاح الدين الأيوبي، ومن جاء بعده. لكن دورة الزمن، لا تكون هي هي دائماً، والتاريخ لا يعيد نفسه على نحو نمطي، لأن ذلك يعني الأخذ بالثوابت، والتوقف عندها، وإهمال المتحولات، هذه التي هي في المحصلة، جديد الدنيا، وعليه تنبني دراسة الحاضر، حتى إذا صار ماضياً، بنينا، من جديد، دراسة المستقبل، على أساس من المتحولات التي هي مستجدات دائماً.

وإذا كان صحيحاً أن الحروب الصهيونية، هي النسخة اللاحقة للحروب الصليبية السابقة، وأن التطابق الحدثي، في قيامها وادعاءاتها ومراميها، يقترب، بين الأمس واليوم، اقتراباً يصل حد التشابه، فإن البلاد العربية، والمشرق العربي، ومنطقة الشرق الأوسط، في راهننا، تجابه عدواً غير الذي كان في ماضينا، وهذا ما يجب أخذه في الحسبان، وهذا ما هو خليق بالاستخلاص من

بحوثكم ومحاضراتكم ومناقشاتكم رفيعة المستوى، وقد لحظه التقويم القيم الذي قدمه السيد المقرر العام الدكتور شاكر مصطفى، حتى لنستطيع القول، باطمئنان، إن تقويمه بيان، وإنه لبيان موجه إلى العرب والمسلمين، في كل اقطارهم وديارهم، وموجه، بخاصة، إلينا نحن في الوطن العربي الذين نواجه خطر إسرائيل مواجهة مباشرة، وعلينا، تأسيساً على ذلك، أن نأخذ هذا البيان مأخذ الدراسة والتمحيص والعمل، بنا فيه من جديد، وما فيه من مفيد لنضالنا القومي المتطاول، المتضاري الذي يضعنا أمام معركة وجود ومصير، عليهما تتوقف حياتنا ومكانتنا ومستقبلنا جميعاً.

إن الحلقة الرئيسية، في الموقف المستخلص من دروس الحروب الصليبية، ودروس الحروب الصهيونية، تطرح سؤالاً مهما هو: أي مكان تشغل هذه الحروب في التاريخ؟ وفي الجواب يمكن، إلى حد كبير، ان نحيط بالظروف الدولية والمشرقية، التي ترافقت وهذه الحروب، أو جرت هذه الحروب في إطارها. والحلقة الرئيسة، كما تبين لنا، هي الوحدة العربية، والوحدة المشرقية، واستمساكاً بهذه الحلقة، يصبح العمل لأجل الوحدة، هو العمل الأكثر ثورية، والأشد خطورة، والأسمى هدفاً، لأنه بها، وبها وحدها، يمكن أن تتوفر لنا مقومات الانتصار، كما توفرت لبطلنا العظيم صلاح الدين. لكن الوحدة العربية، أو المشرقية، مع كل ما تضع في أيدينا من إمكانات، لابد من أن تقترن بتحالفات دولية، نميز، انطلاقاً منها، صديقنا من عدونا، فنتحالف مع الصديق،

ونقاوم العدو، وقد أتاحت لنا الأعوام الأربعون من عمر معركتنا مع الصهيونية، أن نعرف من هم أصدقاء العرب، ومن هم أعداؤهم.

نعود، مرة أخرى، لنشعل أصابعنا شموعاً، نقرأ في ضوئها الماضي، ونطرح السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام، وهو: أي مكان تشغل الحروب السابقة واللاحقة في التاريخ، وما هي نتائجها بعد أن عرفنا، من خلال الأبحاث، أهدافها؟ وفي البحث عن الجواب، لا نقف أمام مغارة مرصودة، ذلك أن مغارة التاريخ قد فتحت أبوابها منذ زمن بعيد، وفي النقوش التاريخية التي على صخور المغارة وبابها، يمكن أن نقرأ أن الأهداف المباشرة التي طرحها أصحاب الحروب الصليبية ومنظموها والمشتركون فيها، لم تتحقق نتائجها، وكذلك لن تتحقق نتائج أهداف أصحاب الحروب الصهيونية ومنظميها، والمشتركين فيها، مهما تكن وجهة الرياح، لأن المناضلين لأجل أوطانهم ومصائرهم هم الذين يسوقون الرياح أمامهم.

قال المؤرخ التشيكي ميروسلافغروخوف: «إن رمل النسيان قد طمر، منذ زمن بعيد، آثار الفرسان المدرعين الصليبيين، قبل أن تبهت الذكريات عن أفعالهم القاسية والإجرامية» ونحن نقول أيضاً: إن الرمال، في متاهاتها، ستطمر آثار الصهيونيين وحروبهم، قبل أن تبهت، في ذاكرة العالم، أفعالهم القاسية والإجرامية.

ومثلما رمى التاريخ، في حفرة النسيان، ايديولوجية الحروب الصليبية، سيرمي في حفرة العار ايديولوجية الصهاينة، مهما تمسكوا

بها، وتفننوا في صوغها، وحشدوا لها من منظرين ومؤدلجين، وحتى مهما حاولوا أن يسندوا هذه الايديولوجية الزائفة، المزورة، العنصرية، بكلمات من التوراة، أو غيرها من الكتب، التي وضعها دهاقنة الحركة الصهيونية العالمية.

إننا أصحاب أرض، وأصحاب حق، وأصحاب قضية عادلة، وهذه، في أسسها الفكرية، ايديولوجيتنا الصريحة، الصادقة، التي لا لبس فيها، ولا راد لقضائها، ذلك أن هذا القضاء مبرم، في عصر أحكامه مبرمة، حتمية، وهذه الأحكام بسيطة كالحقيقة، ساطعة كالشمس، نصها، حتى في شرعة الأمم المتحدة، أنه لا يمكن الاستيلاء على أرض الغير بالقوة، وأن هذا الاستيلاء لن يدوم، مهما عربدت القوة، ولبست دروع القتال.

لقد كانت أبحاث هذه الندوة، من التنوع والغنى، بحيث غطت مساحة القضية المبحوثة وزادت، وإذا فاتني سماعها جميعاً، والإفادة منها جميعاً، عند إلقائها في رحاب ندوتنا، فإنه لن يفوتني، ولن يفوت القراء العرب، أن يقرؤوها، ويفيدوا منها، حين تنشر غداً في كتاب، ونجاحنا في استعادة أوراق التاريخ ونشرها، هو في ذاته نجاح كبير، وقد تحقق بفضل جهدكم، وعملكم، وتجشمكم المشاق، لكننا نتطلع إلى نجاح آخر، أكبر وأخطر، هو الإيمان، عن قناعة هذه المرة، مردها العبر التاريخية، أن الغلبة ستكتب لنا في معركتنا مع إسرائيل، كما كتبت الغلبة لأسلافنا في معركتهم مع الفرنجة.

إن أوراق الأشجار ليست صحائف، وراحات الأكف ليست رقماً، لكننا نعرف كيف تصنع الرقم، وكيف تكتب الصحائف، فعلى هذه الأرض التي نجتمع فوق أديمها، قامت حضارات، نفخر أننا أخرجنا آثارها من ظلمة التراب إلى ضوء النهار، ونفخر أنها حضارات أجدادنا، وأنها الأقدم في الزمن، والأمجد في العطاء، وأمة لها مثل هذه الحضارات العريقة، هي في شوط الحضارة على سبق، غير اننا لا نكتفي بسبقنا في الحضارة القديمة، بل نعمل لبناء حضارة جديدة، هي متابعة شوط، ووصل وشيجة، واستمرار مسيرة، وستكون الحضارة التي نبنيها حضارة عصر، التكنولوجيا من ركائزها، وفي الطموح إلى اللحاق بركب الزمن، لن نبقى أبداً في المتخلفين، لأننا أحفاد أجداد كانوا في المتقدمين وفي المجلين، ولسوف ننسج على منوالهم، كائنة ما كانت الصعوبات.

لقد أمدتنا ندوة حطين هذه بدروس ثمينة، وأتاحت لذاكرتنا أن تنفتح، كرة أخرى، على ذاكرة كادت خطوطها تصبح في الدوارس، ونحن إذ نستعيد الزمن، فإننا لا نستعيده كتلة سائلة، في تقاطيعها دوائر ومستطيلات، وفي تضاعيفها شارات رسمت بالحبر أو بالرصاص، بل نستعيده حياً، نابضاً، ناطقاً، يعرض نفسه على أجيالنا الحاضرة، ليعرفوا سيرة حقبة اضطربت لها الدنيا، بسبب ما شهدته من صراعات دامية، رهيبة، هي الهولة التي يخشاها الجبناء، وينهض لها الأشداء، ويكون النصر فيها لمن يثبتون أقدامهم في مستنقع الموت، ويرتفعون عليه ببسالة الشهداء ومفاداتهم.

وإذا كنا، في المراجعة الشاملة لهذه الحقبة، قد ميزنا بين الثوابت والمتحولات، فذلك لأننا نريد أن نتعامل مع متحولات عصرنا، ونعرف كيف نقرؤها ونفهمها، ونخرج منها بمتحولات جديدة، وآفاق جديدة، هي آفاق عصرنا العربي الآتي على حصان أصهب، في غرته البياض، وفي حجته الأصالة، وفي اندفاعته تخوم الأفق التي هي قبلة كفاحنا الضاري، والذي سيبقى ضارياً، عنيداً، حازماً، إلى أن تتحرر الأرض، وتسترد الحقوق، مادام على قيادة المسيرة العربية مقاتل صلب هو الرئيس حافظ الأسد، ومادام العرب، في كل أقطارهم، يعملون، ويبذلون، ويستشعرون ما لوحدة الصف العربي من أثر في النهوض، وفي التضامن الكفاحي لأجل النصر.

وما من شك أن دوركم، أيها الاخوة المؤرخون، كبير في هذه المرحلة، إذ ان أناملكم المضيئة هي التي ستضع في الضوء، ما كان في الغياهب من تاريخنا، وفي هذا الصنيع الجليل، خدمة جلى للأجيال الحاضرة والمقبلة، التي ينبغي أن تعرف أن لها تاريخاً ماجداً، كي يحفزها هذا على أن تصنع تاريخاً ماجداً أيضاً، وفي هذه المعرفة وهذا الصنيع، تتشكل الرؤى التي تنير الدرب أمام السائرين في موكب الكفاح الطويل، الذي نمدّ له في الطول، إلى أن يبلغ المدى المنشود، المدى الذي تتحقق فيه أهداف هذه الأمة وغاياتها.

أقول أشكركم؟ إنني أشد على أيديكم، وأعتز أن الفرصة قد أتيحت لي كي ألتقي بكم، وأتعاون معكم، في سبيل إنجاح ذكرى هي الأغلى في الذكريات، على قلوب العرب والمسلمين جميعاً.

حطين ستبقى في الضمير العربي

الساحة التي نعيش عليها مكاناً ونحيا فيها زماناً(*)

تحت رعاية السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، وبدعوة كريمة من السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة، عُقدت في دمشق فيما بين السبت الحادي عشر من تموز والاثنين الثالث عشر منه ١٩٨٧ ندوة حطين الكبرى لاستشراف هذا الحدث القومي الكبير في التاريخ العربي، وتقصي معطياته القومية، ودروسه في الغد: إن حطين ليست معركة في التاريخ فقط ولكنها أمل أمة في المستقبل. بهذا المعنى جرت الدعوة إليها، وبهذا المعنى احتضنتها دمشق عاصمة صلاح الدين، وبهذا المعنى بحثت ودرست واستعرضت دروسها والأبعاد. ولم يكن في تخطيط هذه الندوة أن تكون أكاديمية بحتة، أو قطرية محدودة، أو تظاهرة إعلامية، لهذا جاءت عربية شاملة في منظورها، وعربية شاملة في بحوثها وحضورها، وعربية شاملة في هدفها الآتي. إن حطين تعود اليوم إلى الذاكرة العربية بقوة، بقدر ما يشعر كل عربي،

(*) أعد هذا البيان الختامي المغفور له الدكتور شاكر مصطفى بصفته المقرر العام لهذه الندوة في ١٣ /٧ /١٩٨٧.

بشراسة العدوان على أرضه، وعلى مقدساته وقيمه، بقدر تشابه الاحتلال الصهيوني في غزوه وعدوانه وأساليبه، مع الاحتلال الفرنجي القديم بجميع ملامحه.

إن صلاح الدين ليس فرداً، ولكنه روح أمة ممثلاً في بطل، وعنوان مقاومة يمتلئ كل يوم بمضمون جديد. وحطين التي بحثتها الندوة في تفاصيلها وظرفيتها التاريخية، لم تكن إسهاماً فقط في بلورة منهجية علمية معمقة، تشمل التاريخ العربي كله، ولكنها كانت أيضاً دروساً للمستقبل، ولمعركة المستقبل.

لقد نزل الاحتلال الصليبي هذه البلاد وهي على مثل التمزق الذي ينتاب الأمة العربية اليوم. نزل فكان همه احتلال الأرض، واستغلال موقعها بين الشرق والغرب. كان غزواً استعمارياً مبكراً، أي بثقافة غربية إلى أرض الحضارات، وبسكان غرباء من أركان الأرض الأربعة، فأنزلهم في أرض الشام، وبدعوى دينية فضحت الأيام زيفها. ورفض أهل هذه الأرض العربية الرفض القاطع، هذه الفئة الأجنبية، فبقيت حجرة غريبة مطوقة تسعين سنة، حتى حطين، فأنزلت بها الضربة القاصمة، بتحرير القدس، ثم حاصرتها مائة سنة أخرى، في مواقعها الأخرى، حتى طردتها الطرد النهائي.

ويلتفت العرب حولهم اليوم ليجدوا هذا الاستعمار الاستيطاني القديم يطل عليهم، باسم جديد، وان كان يحتفظ بكل استراتيجيته، ذلك الاستعمار الفرنجي القديم، وبكل أساليبه الدعائية.

ولقد وضح في الندوة أن حطين ليست نصراً عفوياً، أتى بمعجزة سماوية، أو صدفة من قدر، ولكنها كانت نهاية طريق طويل، من المقاومة والجهاد، زرع منذ اللحظات الأولى للاحتلال الصليبي، بالجثث والأبطال والمعارك، ولقد اقام العرب المسلمون حائط الدم، بينهم وبين الصليبيين، فلم يزيلوه إلا بعودة الحق إلى نصابه، منذ حطين.

ووضح في الندوة أن المعركة ليست جيشاً فحسب، ولكنها إعداد أمة الإعداد الكامل، لموقف عزّ ولحظة مجد، واسترداد حق. وإذا تعب صلاح الدين ثم تعب ليصوغ حطين تخطيطاً وموارد ودبلوماسية وتحيناً للفرص، فإن هذا يعني ان حطين الأخرى تحتاج إلى أصناف هذا الجهد المضني، وعلى مستوى العصر، وتقنياته، لتكون نصراً وتحريراً وإقرار للحق.

لقد أعقب حطين تحرير القدس. والقدس ليست أرضاً مقدسة فقط، ولكنها قبلة صلاة وجهاد. وإذا كان طريق صلاح الدين إليها قد بدأ من دمشق، يوم اجتمعت إليه قوى الإسناد من كل الأرض العربية، بين المغرب واليمن، إلى العراق، مادياً ومعنوياً فإن الطريق المقبلة إلى تحرير القدس إنما من دمشق تبدأ. إنها من خلال موقعها، على خط المواجهة الصعب، ومن خلال مسؤولياتها، على خط البطولة الصعب. ذلك قدرها ولا خيار لها في هذا القدر. وحين نقول دمشق فإنما نعني كل عاصمة عربية. نعني القاهرة وصنعاء والرباط، كما نعني عدن والجزائر وبغداد وعمان

وطـرابلس والكويـت والخلـيج وتـونس والريـاض والخرطـوم وبيروت. ونعني كل بلد عربي. كل قرية. كل حي. ونرى فيها جميعاً قوى الصدام، وقوى الإسناد، فليس ثمة صدر عربي أبعد من صدر على القنبلة الصهيونية، وليس ثمة عزم أقل مسؤولية من عـزم عـلى المعركة. وليس المؤرخون الذين جعلوا من يـوم تحريـر القـدس (٢ تـشرين الأول) عيـداً قوميـاً لهـم، هـم وحـدهم الـذين ينتظـرون وينتظرون، مـن خـلال الغيـب، إلى دمـشق وإلى حطـين الغـد. إن العرب جميعاً وبفارغ الصبر ينتظرون وينتظرون«ومهـل الكـافرين أمهلهم رويدا».

ووضح في الندوة أن الطريـق إلى حطـين واحـد، هـو طريـق التوحدة، طريق التضامن الذي يتكامـل ويـشد بعـضه بعـضاً. مـا هزمت أمة في هذه الأرض، أيام الصليبيين، إلا حـين هزمـت أولاً بالتمزق الداخلي، ولم تـستطع تحقيـق النـصر في حطـين إلا بعـد أن حققت النصر الداخلي، على ذاتها، بالوحدة التـي جمعـت طاقاتهـا، وسنابك خيلها، ومضارب سيوفها.

إن القيم الكبرى لا تقوم وحدها، ولكن تقوم بترابط العـصبة التي تحملها. لقـد كانـت حطـين رد فعـل الحـضارة ضـد البربريـة الصليبية، كما ان مقاومة الغزو الصهيوني اليوم هـي رد فعـل القـيم الكبرى ضد الباطل. وكما لم يكن لصلاح الدين من خيار في معركة فرضها عليه الوجود الفرنجي، فلا خيار لنا من معركة فرضها علينا الاحـتلال الـصهيوني الـذي يستـشري في الأرض، ويعربـد عـلى الناس.

ووضح في الندوة أن الجهاد ليس قتالاً من أجل الباطل أبداً، ولكنه صيحة الحق ضد الباطل، ودعوة إلى رفض الظلم والاحتلال، وإلى تحرير الأرض والدفاع عن العزة في الناس، بهذا المعنى حققت حطين الجهاد الأمثل، وبهذا المعنى يجب أن يتحقق اليوم.

ووضحت في الندوة وحدانية المعركة. كانت حطين معركة شاملة قامت بها كل نواحي الحياة معاً، ثقافية كانت أم عسكرية، واقتصادية كانت أم اجتماعية أم إعلامية، للعلم مكانه فيها، وللإعلام الحظ الوافي، كما للسيف والديبلوماسية. إن تكامل الإعداد لها يسير في كل الخطوط، لا على خط واحد.

كما وضح أيضاً أنها قد لا تكون حطيناً واحدة ولكن حطينات، وقد لا تكون في المثلث الأرضي الأقدس (اليرموك - حطين -عين جالوت)، ولكن في أي مكان من الوطن العربي، ومن المؤكد انها ستختلف سلاحاً وتنظيماً وتقنية وعملاً، عن كل ما عرفه الناس، وعلى مستوى العصر، وبقدرات جهنمية، ولكن سوف تكون، وإن ضمها الغيب اليوم.

ووضح من الندوة أن دراسة حطين ليست للتفاخر والتباهي، ولكن لأنها رمز الإصرار على ما يجمع لا على ما يفرّق، وعلى ما يوحّد لا على ما يشتت، ولأن قائدها بطل الإرادة الصلبة الذي عرف كيف يتخذ قرار المعركة، على هدى من الوحدة التي صنع، والقوة التي جمع، والاستراتيجية التي وضع، ولم يفتّ من عضده

تصرّم الأعوام، لأنه يعرف أنه على الحق، وإن الحق راجع إلى أهله، ولو كره الكافرون.

وإذا كانت حطين تتراءى اليوم حلماً في المستقبل، فإنما بدأت مشاريع الإنسانية الكبرى أحلاماً، ولابد للشعوب من حلم يسمو بها عن صغائر الواقع، ويدفعها إلى كبريات العزائم، بالفعل الدائب، وبالثقة بالذات وبالله.

إن ذكرى موقعة حطين ليست بالذكرى العابرة، وإنما تقوم في الضمير العربي منذ كانت حطين، وسوف تبقى مادام في الأرض العربية احتلال أو عدوان أو استيطان، وإذا كان الاحتفال بمعركة حطين قد وصل إلى هذا المستوى من الشمول، والمشاركة على المستويات كافة، والتأهيب المعنوي والأدبي الذي اتضح من خلال هذه الندوة، فإن هذه الذكرى سوف تتجدد، لا في كل قرن مرة، وليس في كل حول مرة، وإنما في كل يوم. وستبقى حطين الساحة التي نعيش عليها مكاناً، ونحيا فيها زماناً. وإن المشاركين في هذه الندوة وقد قدموا ما قدموا من أبحاث ودراسات تاريخية موثقة، يحفزهم في ذلك الشعور بالمسئولية الكاملة، لوضع حطين في مكانها الصحيح، من مخططاتنا المصيرية.

إن البحث عن الحرية لا يمكن أن يتم عن طريق الندوات والكلمات فحسب، وإنما يتم عن طريق العمل المؤمن والتحقيق الجريء. وإن المشاركين في ندوة دمشق ليعربون عن أملهم الكبير في أن ذلك الالتفاف والتعاطف، وتلك المشاركة الجدية التي قام بها

رجال الفكر والثقافة والتاريخ، لدليل على أن حالـة التأهـب التـي يعيشها الكاتب والمفكر وجدت متنفساً لهـا، في نـدوة حطـين، وأن هذه المشاركة هي بداية المسيرة إلى تحقيق التحرير والنصر.

ودمشق التي ضمت رفاة البطـل العظـيم صـلاح الـدين كـما ضمت هذه الندوة كانت قد شهدت يوم حطين القرار الحربي الذي حقق أروع النصر، ولتكن دمشق بل ولتكن أية عاصمة عربية مكاناً للقرار الحربي قرار التحرير.

إن ندوة حطين ستبقى علامة هامة في تاريخ النـضال العـربي، والمشاركون في الندوة إذ يعربون عن تقديرهم البالغ لمبادرة دمشق، بالدعوة وللرعاية السامية التي أحـاط بهـا النـدوة الـسيد الـرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، وللإعداد الطيـب والعناية الكريمة وحسن التنظيم الذي قامت به وزارة الثقافة، ممثلة بشخص السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيـرة الثقافـة، ليتقـدمون بالشكر الجميل للجميع على ما لقوه من الحفاوة البالغة، والـضيافة الكريمة، ويؤمنون بأن ذلك كان من أسـباب نجـاح هـذه النـدوة، ومن دواعي تحقيق أهدافها.

الشمس التي لا تعرف الغروب(*)

في غزله خيوط الشمس، إذ هي قرص أسلاكه الذهبية من نار، يغزل الإنسان خيوط شمس أشعتها حروف من لألاء المعرفة، تتوهج، تضيء، تتذهب وتنير دنيانا التي لولا هذه المعرفة، بما هي ثقافة، لظلت في ظلمات جهل لا تبدده أضواء جميع الأفلاك.

ثقافتنا، إذن، هي شمسنا، وهي شمس لا تعرف غروباً، لأنها إلى شروق أبداً، تشعل قناديلها من دمنا الذي في قرمزه لون الأرجوان الأحلى والأبهى، في الألوان.

من هذا التقدير للثقافة، بما هي شمس، تقدير لمبدعي الثقافة، بما هم كواكب، من حزمتها الذهبية تتواصل شمس السماء مع شمس الأرض، فتكون الإضاءة التي تجعل للحياة نهارين، أحدهما سناء الفلك، وثانيهما سناء الحرف.

والثقافة حروف، والحروف كلمة، والكلمة بدء، والبدء كون يتجلى مزهواً بإنجابه الإنسان، هذا الذي هو الأسمى بين الكائنات، لأنه الأوعى ثقافة، إنتاجاً واستهلاكاً.

(*) ألقيت هذه الكلمة في الندوة الإسلامية بدمشق التي عقدتها وزارة الثقافة بالتعاون مع مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في استانبول، وبمشاركة اللجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري الإسلامي، عام ١٩٨٧.

ولأن الثقافة على هذه الدرجة من الأهمية، فإنها تعرف قدر نفسها، وفي وقت تتلفت فيه الثقافات العالمية إلى مكوناتها، وتعيد إحياء تراثها، وكشف ترسبات الأيام عن حقائقها التاريخية، وتظهيرها، وإعلانها، وتسليط الأضواء عليها، أو بكلمة أخرى، في حين تسعى ثقافات الأمم، إلى تحقيق ذاتها، معاصرة وتراثاً، وكشف أصالتها وأمجادها، لتقيم الصلة بين ما كان لها في التاريخ من أثر، وبين ما لها في الحاضر من أثر، يجدر بنا، نحن العرب والمسلمين، الذين ارتبطت ثقافتهم، في انتشارها وتطورها وغناها، بفتوحاتهم التي صنعت، لا مجدهم الديني وحده، وهو في ذاته أعظم إنجاز تاريخي، بل مجدهم الفكري الذي شكل، في ذاته، أعظم إنجاز علمي في زمنه، يجدر أن نقدر نعمى ما نحن عليه من ثقافة رفيعة، كما يجدر بنا أن نتابع، بجدية ودأب، الشوط الذي بدأه أجدادنا، وأن نثمن تلك التفاعلات المتبادلة بين الثقافة العربية الإسلامية، وبين ثقافات الأمم التي دخلت الإسلام عن قناعة وعن يقين، وارتضته ديناً، بعد أن ارتضاه لها النبي العربي الكريم، وكان هدىً للناس، وكان رحمة وخيراً، وأن نعنى بثقافتنا هذه، ونرى إلى منجزاتها في ارتباط وثيق مع تاريخيتها، ونعمل جاهدين لكشف حقائقها، وإشاعتها، وإعلاء شأنها، بما نسلط من أضواء عليها، لا في إطار الخطب والأبحاث، بل في إطار المنجزات التي حققتها في ماضيها، والإنجازات التي عليها أن تحققها في حاضرها ومستقبلها أيضاً.

إن ثمة ضرورة تاريخية، ترتبط بحاجة قومية، عربية إسلامية، إلى إحياء هذه الثقافة، وإلى التعامل مع التراث الفكري للعرب والمسلمين، تعاملاً خلاقاً، من منطلق البحث في جوهره، ونشر حقيقته، وبناء مراكز البحوث والجامعات والمكتبات، التي تساعد في تعريف العرب والمسلمين والعالم إلى هذا الجوهر، وهذه الحقيقة، وبناء الجديد من الآثار الإسلامية، والتنقيب والترميم بالنسبة للقديم منها، وهي آثار غنية، شاهقة، باذخة، أصيلة، تمتد من دمشق وبغداد، إلى طليطلة وقرطبة، ومن الشرقين الأوسط والأدنى، إلى الشرق الأقصى، وقد شيدت، وسمقت، وكانت شاملة شمول فتوحاتنا، عظيمة عظم الأمم التي دخلت الدين الإسلامي الحنيف، وبها تنزلت الآية الكريمة: «إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً». وبدخول هؤلاء الناس، بما هم اقوام وأمم، في الدين الإسلامي، اتسعت الرقعة الإسلامية اتساعاً لم تعرفه وقائع التاريخ قبلها، وهكذا تلاقت وتلاقحت، وفعلت وتفاعلت ثقافتنا العربية الإسلامية مع ثقافات الشعوب التي انتشر فيها الإسلام، فكان لنا من ذلك كله تراث حضاري، شع بفكره وعلمه إشعاعاً باهراً، قبس منه العالم وما يزال، وامتد هذا القبس إلى أوروبة فأنارها بمعارفه، في وقت كانت فيه الممالك الأوروبية غارقة في الجهل كما يؤكد الباحثون الغربيون أنفسهم.

وإذا كنت، في افتتاح هذه الندوة، في غنىً عن الإسهاب والتعداد، في غنىً عن ذكر ما ذكره التاريخ، وما حفلت به

صفحاته، من أمجاد تراثنا وثقافتنا، فإن رصد الموجة المعرفية، في إقبالها من قلب الصحراء، واندفاعها نحو الشواطئ، لتنضم إلى مثيلاتها، حيث تتشكل منها سواحل البحار السبع، كما في الأسطورة، أقول: إن رصد هذه الموجة، يتيح لنا أن نقدر سعة تلك الاندفاعة، ويسمح لنا أن نرى في رصدها ضرورة وواجباً، للإحاطة بشمولية هذه الثقافة العربية الإسلامية التي تقلب في انداحها الأسطورة إلى حقيقة. ذلك أننا في النسب خير أمة أخرجت للناس، وفي شرف العطاء أكثر أمة بذلت معارفها بسخاء، وفي التواصل من أوائل الأمم انفتاحاً على الثقافات والحضارات، وتأسيساً على هذا كله نعمل، ونجهد، كي تعيد أمتنا سيرتها الأولى، في نشر كل هذه المكرمات، وفي تحقيق تواصل ثقافي بين شعوبنا العربية الإسلامية وشعوب العالم، وفي إبراز نشاطاتها، وتجسيدها في أفعال تعطي الأقوال مصداقيتها.

وتزداد الحاجة إلى هذا التجسيد، ونحن نجتمع اليوم في سورية الصمود، سورية حافظ الأسد، هذا الزعيم العربي الكبير، المؤمن والمقدام، الذي رفع في يمناه للجهاد راية، وللإيمان راية، وأعطى الثقافة العربية الإسلامية، من وقته وعنايته، عطاء كبيراً موصولاً، فأوصى دائماً وأبداً بالاهتمام غير المحدود بالتراث، تحقيقاً ونشراً، وأوصى، دائماً وأبداً، بالكشف عن الآثار الإسلامية وإيلائها رعاية خاصة، في التنقيب عنها، وترميمها وصيانتها، لتكون شاهداً أمام أجيالنا، على ما حققه أسلافنا، ولتكون لنا، في

سبق الحضارة، سبقاً أحرزناه بإبداعاتنا الفكرية والفنية، فكأننا، في شأنه، مردة جعلوا غير القابل للكينونة كائناً، وكأننا، في شأنه، بناة أنجزوا ما يعجز البناة عن انجازه، إلا إذا كانوا ممن نذروا أنسفهم لإشادة صروح الدعوة، وصروح المعرفة، وصروح العمارة، وصروح الفكر، فلكاً وطباً وجبراً ورياضة وهندسة، فأذهلوا الدنيا بما طلعوا عليها من مآثره، منفردة ومجتمعة على السواء.

من هنا سروري، وترحيبي، باسم هذا القطر العربي الصامد، المكافح، المتصدي لكل غزو ثقافي امبريالي صهيوني، بهذا اللقاء، ينعقد في رحاب دمشق، التي هي أبداً موئل لكل حركة، بل لكل بادرة، يكون من شأنها أن تعنى بالتراث الحضاري الإسلامي، بما هو تراث إنساني رفيع الشأن، في معناه ومبناه، جليل الأثر والخطر في هدفه وغايته، عظيم القيمة بعطائه الذي كانت منه الروائع الباقيات على الدهر.

وليس انعقاد الدورة الخامسة للمجلس الإداري لمركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في اسطنبول، والتئام الشمل في اجتماع اللجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري الإسلامي، في هذا البلد الأمين، دمشق التي كانت شاهدة على مولد هذا التراث، ثم حاضنة له، ومطورة لأصوله، ثم ناشرة للوائه، أقول: ليس انعقاد المجلس واجتماع اللجنة سوى حدثين متصلين، ملتحمين، في عناق الفن والثقافة مع تراثهما، وفي جلاء فعل هذا التراث، في حفظ هذا الفن وهذه الثقافة الإسلاميين، وفي النظرة والبحث في

اندياحهما دوائر محيطية، تتسع وتتسع حتى لتشمل العالم، مادامت خريطة عصرنا تحمل، في كل خطوطها وتضاريسها، وكل مواقعها وعواصمها، بقعاً مضيئة من إشعاع الإسلام، في توهجه الفكري الذي تألق قمراً، يحيط بنوره الوضاء كوننا، فيجعله كوناً مجيداً، متصل الماضي البهي، بالحاضر البهي، حيث تترسخ، وتمتد، وتشمل رسالة الإسلام العظيم، أربع زوايا الأرض من كرتنا الفضية، كرتنا التي تتعلق في مدار فلكها، تعلق النقطة الذهبية في حبل التاريخ، وتنتظم في سلكه انتظام الماسة المسحورة في عقد الزمن الذي يشيخ.

لقد أتيح لي أن اطلع على منجزات مركز الأبحاث الإسلامي، وأن أقف على ما قامت به اللجنة الدولية الإسلامية، وأن أتابع، بكثير من التقدير، ما يقومان به من بحث جاد، وتحقيق علمي، ومسح تراثي حضاري، ونشر للمطبوعات الهامة، وعقد للندوات، وتخصيص للجوائز الدولية في مجال العمارة وفن الخط العربي، وكان في اطلاعي على كل ما تحقق، أو معظمه، ما يبعث على الغبطة، ويحمل على اليقين، أن هذه المنجزات، إلى منجزات أخر، أكبر، وأشمل، وأشد تأثيراً في مجرى الفن والثقافة، للقرن الذي نعيش فيه.

وتأتي موضوعات الدورة الخامسة لاجتماعكم هذا، مؤكدة ما ذهبت إليه، فهي تتناول وضع خطة مرحلية لأعمال البحث العلمي، في مجال الفن والثقافة والتاريخ والتراث، كما ستتناول أعمال اللجنة الدولية وضع خطة مستقبلية، للحفاظ على التراث

الإسلامي، وبخاصة آثار القدس الشريف، والآثـار الإسـلامية في الأراضي العربية المحتلة من فلسطيننا الحبيبـة، وهـذا الجمـع مـن المواضيع المهمة، جدير، عند بحثه وتنفيذه، أن يخطـو بنـا خطـوات كبرى إلى أمام.

وإني لعـلى ثقـة تامـة، أن النتـائج سـتكون كبـيرة، مادامـت الأبحاث الجارية لتحقيقها كبيرة، ومـادام هـذا النفـر الكـريم مـن الباحثين والمعنيين بالثقافة العربية الإسلامية، هو الذي يتـوفر عـلى ذلك، وقد تحمل عناء السفر، ومشقة التحضير للبحوث، ونزل بيننا منازل الاخوة، ليقدم لنا، في هذا اللقاء الثقـافي التراثـي، خـيرة مـا اختزن من معارف وتجارب، مما سيدفع بالعمل الجليل الذي ننهض به دفعاً قوياً، في الوجهة الخيرة التي ننشدها.

أهلاً بكم في دمشق، بلدكم، وطنكم، أرضكم التـي أطلعـت خير سلف، أنتم له خير خلف، وشكراً لجهودكم، وتمنيات صـادقة بالتوفيق والنجاح لكم،«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسـوله والمؤمنون» والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحجة المكتوبة بالدم(*)

عصرنا هذا، وما أكبر، كتبت حجته بالدم لا بالحبر. من أجل ذلك سمي عصر الشعوب، لا تكريماً فقط. بل تذكيراً وتوكيداً للذين يريدون أن يكونوا من أحبته، وللذين اصطفاهم ليكونوا من أحبته، ألا مناص من أن يكونوا من بناته، وقبلاً من شهدائه، وعلى المدى، من مناضليه الذين يمضون ولا يلتفتون إلى وراء، حكاية الذي قطع البحور، بحثاً عن أميرته، وكان شرطها عليه ألا يتراجع دون أن يفوز بها، أو تتلقفه القاعات السحيقة.

إن الأسطورة، هنا، ليست بدع خيال بل صفوة تجربة. وكذلك الأساطير، في مصانع الأحداث، خلاصات مكثفة الرمز والدلالة، على أن المفاداة هي شجاعة قلب، تضحية نفس، واندفاع إلى الهدف، بغير حذر، هو الخوف في غلالة أخرى.

والفرد، حين يمشي في طليعة الجموع، يكون جموعاً، يكون شعباً، وحين يشهر السيف، لأجل الحق، وهو على نسب منه، يومض برق يكشف الآفاق للسائرين إلى أمام، بغيتهم صبوة بكر،

(*) في احتفال رابطة الحقوقيين بدمشق، بمناسبة عيد الجلاء عام ١٩٨٤.

وشوق ما عرفه صدر إنسان، لأنه مكتوب أن الرصد لا يفك، والعلى لا تنال، إلا بساعد يطول ويطول حتى يبلغ النجم..

وكم قيل، في بداية هذا القرن، للعاملين في سبيل الاستقلال، والدنيا استعمار له ظفر وناب، ان النجوم أدنى إليكم من القصد، لكنهم، أبطالنا الأُول، بلغوا النجوم على سلالم من حبال، على أراجيح من حبال، على مشانق شهدتها مرجتنا، دمشقنا، بلادنا، ولم ترهب، بل ضغطت على الجرح، استندت إليه، وتقدمت طوال نصف قرن، كان الصراع بينها وبين المستعمر، هو الطريق الدامي الذي أنارته ثورات تتالت، منذ وطئ المستعمرون أرضنا، حتى غادروها، فكان نيسان، وكان الجلاء، وكان الزمن الذي من عباءته الربيعية، خرجت لنا شهور للثورة، والتصحيح والتحرير أيضاً.

هكذا يكون شعبنا العربي في هذا القطر، شعبنا العربي في وطننا الكبير، قد دخل عصر الشعوب دخول المستحقين أن ينتسبوا إليه، كتاب ثوراته في يمينه، وقميصه الأرجواني على جذعه، وشهادته ربع قرن من النضال، من النار الملتهبة التي أشعلها الشيخ صالح العلي، وأضرمها إبراهيم هنانو، وسعّرها حسن الخراط، وحمل شعلتها سلطان الأطرش، وقبسناها، بعد ذلك، عاماً فعاماً، إلى أن جلونا الفاتحين، وقلنا لغورو الذي وقف على قبر صلاح الدين صائحاً: ها أنا في دمشق يا صلاح الدين، قلنا له: نظار، وكان الوعد الحق، وكان النصر، ومشت العاصفة على ألف هام، وصار غورو وأمثاله أو شاباً، في نهر التاريخ.

على هذا النحو الرائع مهرنا وثيقة استقلالنا بـدمائنا، ومـازال لدينا فضل من دم، على كثرة ما دفق الجرح ورعف، وكثرة ما تطرز الجسد بالرصاص وازدهى، وكثرة ما انتفض المارد بـين جوانحنـا، فإذا الذين حسبونا في الهالكين هم الهلكـى، ونحـن في الـصامدين، وفي الباقين الأكرمين.

وقد ألهمتنا ثورات نصف قرن، ما يكفي لنجعـل مـن نـصفه الباقي ثورة مـستمرة، ثـم نجـدد، ونتجـدد، ونـزداد عزمـاً، وقـوة وشكيمة، ورسوخ قدم، ونقـول للنـائحين مـن حولنـا، في أقطـار تصطاد الغيم ذرائع للاستسلام، ما قاله شاعرنا البدوي:

ويل الشعوب التي لم تسقِ من دمها   ثاراتها الحمر أحقـاداً وأضـغانا
تغضي على الذل غفراناً لظالمهـا   تأنق الـذل حتـى صـار غفرانـا

إنهم يتأنقون بذلهم، ويؤنقون ذلهم، ويتفرجون عـلى المعركـة، كأن لا صلة لهم بها، أو كأن المعركة ليست صراعاً في سـبيل الأمـة، في سبيل المصير، في سبيل الوجود، أو كأن لبنان ليس جـسماً عربيـاً طعن، أو المقاومة الفلسطينية ليست عيوناً عربية سُمِلت، أو صـبرا وشاتيلا ليست أكباداً لنا مزقت بسكاكين الجزارين.

لا بأس. إننا نترك النصفة من المتخاذلين لـشعوبهم، والإدانـة للتاريخ، ونقف ونستوقف في ذكرى الجلاء، لأنها، في مثل الوضـع الذي تمر به الأمة العربية، ناقوس خطر يدوي بزنة ألـف طـن مـن النحاس، لينبّه الغافلين والمتغافلين، إلى أن استقلال الـبلاد العربيـة في خطر، فالسيطرة الأمريكية، والامبراطورية الإسرائيليـة، اللتـان

تحلم بهما أمريكا وإسرائيل، ستطويان، لو تحقق الحلم العدواني، كل استقلالاتنا وكل سياداتنا، وكل ثرواتنا النفطية وغير النفطية، وعندئذ سيدرك الذين تهاونوا، وفرطوا، ووضعوا يدهم في جحر الأفعى، أن لدغتها، هذه المرة، ستكون الحاسمة والقاضية على وجودهم نفسه.

إن السحرة المتأمركين، المتصهينين، الذين يخرجون من أفواههم مناديل ملونة، يلقونها أستاراً على الحقائق، يجهدون، والعرق يكلل جباههم غير الناصعة، لإقناع الشعب العربي، أن مشروع ريغان الذي ينكر كل حق فلسطيني، وكل حق في التحرير واستعادة الحقوق، وليس إلا صورة مموهة لاتفاقات كامب ديفيد، هو في صالح التسوية في الشرق الأوسط. إنهم يريدون من جماهيرنا أن تصدق أن أمريكا وإسرائيل، تريدان سلاماً في المنطقة، وأن مشروع ريغان يحمل هذا السلام، وأنه إذا فاتنا قطار الحل ضاعت «الفرصة الذهبية» علينا، وكيلا تفوتنا علينا أن نضع رقابنا تحت النير المشترك، الأمريكي والإسرائيلي، وأن ننفض أيدينا من القضية والشرف، وأن ندخل، أو نسكت على دخول بعضهم باب الخيانة المؤدي إلى التصفية والصلح، وفقدان الاستقلال والسيادة.

لكننا في سورية، وقد غزلنا قلادة الاستقلال من نيران ثوراتنا، على مدى نصف قرن، ونسجنا حلم التقدم وعشناه، واطرحنا نير الاستعمار الفرنسي، لن نقبل، تحت أي غطاء، نير الاستعمار

الأمريكي، ولا نير الاستعمار الإسرائيلي الاستيطاني، فالاستقلال يعز علينا، وحلم السيادة والكرامة، يعز علينا، والثورة والتقدم يعزان علينا، ومجد الأمة العربية أمانة في رقابنا، ونريد للعرب، جميع العرب، أن يكونوا أسياداً في بلدانهم، مصيرهم في أيديهم، وثرواتهم لهم ولشعوبهم، وحقهم في الوجود مصان كحبة العين، ولهذا ننبه الجميع إلى المؤامرة التي تحاك، وإلى محاولة تمرير كامب ديفيد عن طريق بغداد، وندعو الجميع، في هذه الظروف الصعبة، أن يمدوا أيديهم إلينا، وأن يعملوا لتضامن عربي كفاحي، ولوحدة موقف عربية نضالية، ويتركوا جانباً أوهام طلب الإنصاف، من أعداء يحتلون الأرض العربية، ويغتصبون الحق العربي، ويدمرون ويقتلون، فمذابح قبية ودير ياسين وكفر قاسم، وقصف مدرسة بحر البقر، وداعل، وخرائب صيدا وأنقاض بيروت، وصبرا وشاتيلا، كل ذلك ما يزال ماثلاً في الذاكرة، وهيهات أن تمحوه الأيام والأعوام، وهيهات أن تمر مشاريع التصفية وسورية ترفع راية القضية العربية.

إن الكلمة التي تعانق الفعل هي قرارنا في الصمود. وهذا القرار الذي اتخذه قائدنا حافظ الأسد باسمنا، وباسم جماهيرنا، وأمتنا، لا رجعة فيه ولا نكوص. وفي غلاب العدوان، وطلاب الأرض والحق، لم نتخذ قراراً مجرداً، ولا متهوراً، ولا معلقاً في فضاء. إنه قرار مكتوب على الصدور، مدعم بالقوة، مؤيد بالإيمان،

معزز بالخيار العسكري، هذا الذي كان منطلقنا إلى قرارنا، وقاعدة له، وحصناً من دونه، وقد دعونا الأشقاء العرب(*) إلى أن يعملوا في سبيل التوازن الاستراتيجي، أو أن يتفهموا حاجتنا الشديدة إليه، ولما سدت الآذان دون الدعوة، أو أوشكت على ذلك، مضينا وحدنا، وأقمنا هذا التوازن، أو كدنا، ولنا من قوتنا الذاتية، ومن روح شعبنا الكفاحية، ومن التقاليد العريقة في النضال، ومن صداقات العالم لنا، وبأخص المنظومة الاشتراكية، وطليعتها الاتحاد السوفييتي، ما يرسخ أقدامنا التي من تحت أخمصها الحشر.

ولقد تبين الآن، والعدو يكشر عن نيوب ذئب، كم كان قرارنا في الصمود، وفي الخيار العسكري، وفي التوازن الاستراتيجي، على حق، وكم كان الرئيس حافظ الأسد عالي الهمة، ثاقب النظرة، حاد البصر والبصيرة، جسوراً في تحمل مسؤولية العمل القومي، دفاعاً عن الأمة العربية كلها، وناهضاً بهذه المسئولية بمنكبين قويين لرجل دولة، وقائد وطن، وزعيم أمة، يريد للبنان أن يعود سيداً موحداً، وأن يحل الوفاق بين أبنائه، وتجلو إسرائيل عن أراضيه، باسم القانون الدولي، وقرارات الأمم المتحدة، وبفعل المقاومة الباسلة للأشقاء اللبنانيين.

إن بلد هنانو والعلي والأطرش والخراط والأسد، الذي لم يستسلم يوماً، لن يستسلم أبداً، وهذه الأرواح التي عانقت

(*) ولم يكن في الوهم أو الظن آنذاك، أن يغدو بعضهم شريكاً في المؤامرة على سورية، وحليفاً مخلصاً لأعدائها.

الشهادة في سبيل الجلاء، لتطمئن وهي في جوار بارئها إلى أن دماءها لم تهدر، ولم تذهب في الأرض بددا، بل نبتت وأينعت وأزهرت، وأن لنا في سدرة المنتهى طموحاً، وأن شيئاً في هذا الوجود لن يحول بيننا وبين ما نطمح إليه، وأن الصمود الذي حقق إلغاء اتفاق ١٧ أيار، سيحقق إلغاء اتفاقات كامب ديفيد، هذا المطلب الذي ينبغي، الآن، أن يصبح شعاراً، وأن يشدد من عزيمة أشقائنا المناضلين في مصر، وعندما تلغى هذه الاتفاقات، وتتحرر مصر من التزامات الاستسلام لإسرائيل، ستجد سواعدنا مفتوحة لاستقبالها، وسيذكر التاريخ أسماء الذين يقدمون على هذه الخطوة المجيدة، وبذلك تمر الغاشية التي رانت على سماء العروبة، وتسطع شمس التضامن الكفاحي الأخوي من جديد.

فإلى شهدائنا الأبرار، الدارجين ضميرهم في الخالدين، وإلى مجاهدينا الأحياء، الذين من زيت كفاهم استنارت شعلة الجلاء، وإلى كل الصامدين في قطرنا ووطننا وأمتنا، وكل الثائرين والمفادين، والمقاتلين على أرض لبنان، وفي جنوبه الأشم، تحية وفاء وإكبار، وعهد من دمشق التي كانت السباقة في رفع راية الاستقلال، لا في دنيا العروبة وحدها، بل في القارات الثلاث أيضاً، أن تبقى هذه الراية رمزاً خالداً لثورة دائمة، وأن يكون لشعلة الجلاء، التي يشهد العالم كله توهجها في أيامنا هذه، زيت قرابين لا ينضب معينه، وأن تبقى سورية الأسد، آخذة بنا في طريق المجد، لأنه مكتوب أن الأمم التي تغزل مجدها من أعصاب أبنائها، تضفر عزماً أقوى من أن تقطعه، أو توهنه، صروف الأيام.

موسكو.. أكبر من عاصمة (*)

على طائر من جناحين: الصداقة والثقافة نأتي إليكم. الصداقة ولها بيننا تاريخ، أنتم، بتعاونكم، وتأييدكم، ووقوفكم إلى جانب القضية العربية، كتبتم فيه صفحات مشرقة، ونحن، بالحفاظ على هذه الصداقة وترسيخها، وتقدير مواقفكم للحق العربي، وبالتعاون المخلص، كتبنا صفحات مماثلة.

أما الثقافة فلها بيننا جذور عميقة ومشتركة، ليس بالمفكرين العرب الذين ولدوا وأبدعوا فوق أرض بعض الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، في آسيا الصغرى فقط، بل بالتأثير المتبادل، الذي مارسه أمثال الجاحظ وأبي العلاء المعري والمتنبي وميخائيل نعيمة وعمر فاخوري، وبوشكين وتولستوي ودستويفسكي وغوركي وشولوخوف، هؤلاء الأعلام الذين كانوا روافد كبيرة لنهر الثقافة العظيم.

ومن دمشق، بلد الحضارات العريقة، والتاريخ الضارب في أعماق التاريخ، وقائدة الصمود والنضال العربي، جئنا نحمل سنابل

(*) في افتتاح أيام الثقافة السورية في موسكو - أيار ١٩٨١.

الإبداع، وتحيات الوفاء، ودهشة الإعجاب بعاصمة هي مركز الإشعاع في عصرنا، ومصدر الفكر الذي كان فكانت ثورة أوكتوبر المجيدة، ومع ثورة أوكتوبر كانت ثورة تحرر الشعوب، والصداقة بين الشعوب، والتعاون بينها على أساس من المساواة والمنفعة المتبادلة، والاحترام المتبادل. لذلك فإن موسكو، بالنسبة إلينا، أكبر من عاصمة، وأضخم من مدينة. إنها المنارة التي تسطع بنور أرجواني، من ألوانه الصداقة والتعاون والدعم المادي والمعنوي، لحركات التحرر الوطني، وفصائل الثورة العالمية، ومن رموزه القوة التي يتقوى بها المناضلون في سبيل الاستقلال، وحق تقرير المصير، وضد الاغتصاب والعدوان، ومن معانيه الحرية والاشتراكية والسلام والعدالة الاجتماعية التي هي مطمح شعوب الدنيا، في سعيها للانعتاق من ربقة الماضي المظلم.

في الأسطورة أن مغارة كانت مغلقة على كنز، وقد عجز الجميع عن فك رصدها، فجاء حكيم وكلمها ففتحت. ولما سئل عما قاله لها أجاب: «قلت لها كلمة طيبة» إن غاية الثقافة، حين تكون أداة للبناء الفكري، أن تحمل الكلمة الطيبة، هي التي بدءاً كانت، وإلى ما لا نهاية ستبقى. والكلمة هي الفعل، وحين تكون فعلاً ثقافياً، فإن مفهومها المجيد هو أن تكون وسيلة لنشر المعرفة والتقدم، والتعايش والسلام، بين الناس، وأن تكون أداة للتبادل الفكري والفني، ولإقامة الصلات بين الأمم، وزيادة التعارف، وتبادل الخبرات، وإنماء الإرث الحضاري المشترك، الذي ورثناه كبيراً من الماضي، وعلينا أن نورثه أكبر للمستقبل.

وإذا كان جهدنا الثقافي يعبر عن طموح يتجاوز الواقع، وينمو باطراد، فإن مفهومنا الثقافي هو مفهوم صحيح متقدم، وعلى أساس منه ننتج وننشر ثقافة وطنية قومية تقدمية إنسانية، ذات توجه اشتراكي، ونعمل للتبادل الثقافي مع الدول الأخرى، إيماناً منا أن الثقافة هي الوسيلة الصالحة للتفاهم وإنماء المعارف، ولتحقيق التفاعل بين ثقافتنا العربية والثقافات العالمية، بقصد تبادل التجارب والخبرات، والإغناء والاغتناء، وتأدية إسهامنا في الحضارة البشرية.

وهذا المفهوم الثقافي هو تطبيق أمين للتوجهات الثقافية في الحقل الثقافي، لإرشادات الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، القائلة بأن الثقافة خير أداة لنشر المعرفة والوعي، ولبناء الإنسان والوطن، وإقامة أفضل العلاقات مع الشعوب والأمم الأخرى. وتنعكس مبادئ هذا المفهوم في إنتاجنا السينمائي والمسرحي، وفي مطبوعاتنا ودورياتنا، وفي فنوننا التشكيلية والشعبية، وفي سائر نشاطاتنا الثقافية.

إننا نترجم، في وزارة الثقافة، الكثير من الكتب السوڤياتية، في الاقتصاد والتخطيط والتنمية، وفي الأدب والفن والسينما والمسرح، وفي سائر العلوم الإنسانية والنظرية والفكرية، ونترجم في الوقت الحاضر، عن اللغة الروسية مباشرة، وقد استطعنا ان ننشئ كادراً من المترجمين عن هذه اللغة، ممن أنهوا دراساتهم العليا في الجامعات السوڤياتية. ونعرف أنكم تترجمون إلى لغاتكم بعض

مؤلفاتنا الأدبية المعاصرة، وقد سبق للمستشرق الروسي الكبير كراتشوفسكي أن ترجم ونشر الكثير من مؤلفات المفكرين العرب القدامى. كما يجري تبادل الأسابيع الثقافية والأفلام السينمائية والفرق الفنية، وفرق الباليه السوفياتية التي قدمت عروضها على مسرح بصرى التاريخي الشهير، وفي قصر العظم في دمشق، ولقيت إقبالاً وإعجاباً كبيرين، وهكذا تتطور وتتعمق علاقاتنا الثقافية، لتكون في مستوى علاقاتنا الاقتصادية والسياسية وغيرها.

إن دور الثقافة التغييري نحو الأفضل، يحظى باهتمامنا الكبير، فنحن نقدر التطور التكنولوجي الهائل في عصرنا، وندرك أن الحياة في العصر وسيلتها الثقافة، بما هي علم ومعرفة، ونسعى جاهدين لجعل الثقافة للجميع، وفي خدمة الجميع، ونخصص لها قدراً أكبر من الاعتمادات كل عام، برغم ظروف سورية، كدولة مواجهة، وما تنفقه على شؤون الدفاع الوطني، وفي سبيل تحقيق التنمية، هذين الحقلين اللذين نلقى فيهما دعمكم ومساعدتكم النزيهين المخلصين. ويهمني، بهذه المناسبة، أن أذكر أننا بلد محب للإنسان، ولمجده وخيره، ومحب للسلام والتفاهم الدوليين، ونقف ضد العنصرية والعدوان والموت، لكننا نواجه، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عدواناً متواصلاً على أرضنا وحقنا، تقوم به إسرائيل، هذه الدولة الاستعمارية الاستيطانية التي غرستها ودعمتها وسلّحتها الامبريالية العالمية، وخاصة الامبريالية الأمريكية، ومازالت ماضية في تسليحها وتشجيعها على العدوان، وسلوك طريق التوسع،

ورفض قرارات الأمم المتحدة، وخرق الميثاق الدولي، والتشبث باحتلال الأراضي العربية، واغتصاب الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني الذي شردته من دياره، والعمل على فرض الأمر الواقع علينا، لإرغامنا على قبول حل استسلامي، يتمثل باتفاقات كامب ديفيد.

وفي هذه الأيام تقوم إسرائيل، بتحريض وتشجيع من أمريكا، باعتداءات كثيفة على الجنوب اللبناني، وتتدخل في شؤون لبنان الداخلية، لمنع قيام الوفاق الوطني فيه، وتثير زوبعة مفتعلة حول ما يسمى بصواريخ سام التي أقامتها قوات الردع العربية الشرعية، في بعض الأراضي اللبنانية، لمنع العدوان الإسرائيلي عليها. وتهدد إسرائيل باستخدام القوة لإزالتها، كما تهدد بحرب ضد سورية، غير اننا سنتصدى لعدوانها، ولن نرهب أي قوة معتدية، من أي دولة كانت، ولن ننخدع بالمخططات الأمريكية الصهيونية، لأننا نعرف أن الخطر الأكبر، على الوطن العربي، هو أمريكا والوجود الإسرائيلي العدواني، ونحن، بقيادة الرئيس حافظ الأسد، صامدون في وجه اتفاقات كامب ديفيد، والهجمة الامبريالية الأمريكية على المنطقة، وثابتون في مواقفنا المبدئية، من مسألتي تحرير الأرض العربية، واستعادة الحقوق الفلسطينية المغتصبة، ونعلم أن قوى الحرية والسلم والاشتراكية، وفي طليعتها الاتحاد السوفياتي، معنا، وأن معاهدة التعاون والصداقة السورية العربية السوفياتية تلعب دوراً كبيراً، في دعم حقنا، والإسهام في لجم العدوان علينا.

إن الثقافة والفنون، وفي مقدمتها الفن السينمائي، الأكثر جماهيرية، هي سلاحنا الفكري، تشارك، بطريقتها الفنية، في السياسة، ونحن نعلم أن لا انفصال بينهما. لذلك فإننا إذ نتوجه إليكم بنماذج من نشاطاتنا الثقافية، نغتنمها مناسبة للكلام على بعض شؤوننا السياسية، ذات الاهتمام المشترك.

ختاماً أشكر الدولة السوفياتية الاشتراكية العظمى والصديقة، قيادة وحكومة وشعباً، على إتاحتها الفرصة لإقامة أسبوع الثقافة السورية على أراضيها، كما أشكر وزارتي الثقافة والسينما على الحفاوة التي نلقاها، وآمل أن يؤدي كل ذلك إلى تعزيز الصداقة والتعاون بيننا، وإلى تطوير العلاقات الثقافية بين بلدينا.

علاقة استراتيجية
وليست مرحلية أو عابرة(*)

الضيوف الأعزاء

أيها الرفاق والأصدقاء

الثقافة محصنة ضد الضياع، ضد النقصان، ضد الفقدان، فهي أبداً موجودة، متكاملة، مغتنية، ترفدها جداول الإبداع، الذهني والسلوكي، وتحمل إلى نهر الحضارة، عصارة العقول النيرة، المبدعة، المتفردة، في كل ألوان عطاءاتها، هذه التي لولاها، ما كانت الدنيا تحفل بهذا العيد المهرجاني للفنون، بشتى ألوانها، فتكسبها عمقاً في المعنى، ورؤية في المعرفة، وزهواً في اللون، ومخمليات من أجنحة الفراشات التي لا أبهى، في تزاويقها التي تحسدها عليها الأرض والسماء.

ونحن العاملين في حقل الثقافة، نعمل في ورشة لصياغة الماس، فالنتاج هو سطوع شموس، تقبس من وهج الكلمة في

(*) في افتتاح أيام الثقافة السوفييتية في دمشق، ٢ -١٥ أيلول ١٩٨٧.

الصداقة التي ربطتنا بعمقها وحرارتها ذات يوم بالاتحاد السوفييتي هي التي تربطنا اليوم بالاتحاد الروسي ولا فرق.

شعرها المذهل، ونثرها المبدع، كما تقبس من تهاويل لوحة، تقول ولا تقول، وتترك للصمت أن يكون كلاماً ترسمه الريشة الساحرة، ومثلما الشعر والنثر واللوحة، كذلك النحت والنغم والرقصة والإيماءة والأغنية والنجمة التي تطال إذ يطال كل هذا الإبداع، ويغدو صنيع إنسان تزهر في أنامله ورود الوعي والمتعة.

بهذا الفهم للثقافة، إبداعاً يفتح للعالم أبواب السحر، وكوى الإشراق المعرفي، ويخلق للبشرية جنة هي للواقع والخيال، وهي لزهر الربى وانداياح الموجة، في عناق أزلي أبدي، بين تجسيد لفهم ينير الأذهان، ويدفعها إلى تغيير الحياة، وبين تمجيد للتغيير، إذ هو فعل صيرورة نحو الأفضل، أقول: بهذا الفهم للثقافة ودورها وأثرها وخطرها، في تنشئة الأجيال، وتقريب المستقبل، وجلاء سناه وغناه وأناشيد بهجته المستمدة من الحرية والعدالة، نقيم بالتعاون بين وزارتي الثقافة في البلدين الصديقين، مهرجان الأيام الثقافية السوفيتية، على أرض سورية العربية الصديقة، ونرحب بالفنانين المشاركين في نشاطاتها، هؤلاء الذين جاؤوا إلينا، كما ذهب فنانونا إليهم، رسل محبة وتفاهم واحترام متبادل، وتعاون وطيد مثمر، يطرح جواهره التي هي عطاءات فعل وإرادة، وبناء وإنجاز، وليست دراري شَرْنَقَتَهْا محارات بحر موفور الكرم، جمّ السخاء.

وتأتي احتفالات الأيام الثقافية السوفيتية المقامة بيننا، مترافقة ومناسبتين كبيرتين، مناسبة الذكرى السبعين لثورة أوكتوبر الاشتراكية الكبرى، ومناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على توقيع

اتفاقية التعاون الثقافي بين الاتحاد السوفييتي والجمهورية العربية السورية، وكلا المناسبتين عزيزة، فثورة أوكتوبر فخر عصرنا ومجده، وانعطافة التاريخ البشري، وتحوله من خط سيره القديم، خط الاستثمار والاستغلال للإنسان، إلى خطه الجديد، خط تحرير الإنسان من ربقة العبودية، وإطلاق مبادراته الخلاقة، ليبني أول دولة اشتراكية على كوكبنا الأرضي.

أما تعاوننا الثقافي، الذي هو إلى اتساع مطرد، ونمو شامل بعيد الآفاق، فإنه تعاون أرست قواعده الصداقة التي لن تنفصم عراها، بين بلدينا وشعبينا.

إن اتفاقية الصداقة والتعاون المعقودة بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وبين الجمهورية العربية السورية، والتي يمتد التعاون بموجبها حتى يشهد مطلع العام ٢٠٠٠ من تاريخنا المكتوب، قد أعطت أفضل نتائجها، على الأرض وفي الفضاء، فهي التي أتاحت للصداقة الراسخة المتبادلة بيننا، وللتعاون النزيه المخلص بين بلدينا، أن يوفر إمكانات ومساعدات كبيرة، وعديدة، ومديدة، تحققت بفضلها إنجازات كبرى، شامخة، من دلائلها على الأرض سد الفرات العظيم، ومن تجلياتها في الفضاء التحليق الكوني السوفييتي السوري المشترك، الذي أدخل سورية عصر الفضاء، إضافة إلى الإنجازات الأخرى، في جميع الحقول، وعلى جميع الأصعدة، وأهمها الاقتصادية والعسكرية، التي مكنت بلدنا من أن يواصل نهضته الحديثة، ويمتلك القدرة الدفاعية الرادعة،

والقوة على مجابهة كامب ديفيد، وجميع المشاريع المشبوهة، والضغوط والمؤامرات المحاكة ضدنا.

ولا شك أن صعود سورية، ومجابهتها العنيدة والحازمة للامبريالية والصهيونية، وجميع أعداء السلام، والمروجين للحروب، وأخطرها الحرب النووية وعسكرة الفضاء، وكذلك المواقف المتميزة الشامخة والشجاعة للرئيس حافظ الأسد، ولقاءاته الناجحة مع قادة لاتحاد السوفييتي، ونتائجها القيمة التي نلمسها كل يوم، والتطابق في النظر إلى شئون المنطقة، والعلاقات الدولية، والوقوف المشترك إلى جانب حركات التحرر الوطني، ومع القضية العربية وجوهرها القضية الفلسطينية العادلة، لا شك أن كل ذلك، كان في أساس هذه الصداقة وهذا التعاون اللذين نص عليهما بعبارات واضحة وحاسمة، البيان الأول للحركة التصحيحية التي قادها الرئيس الفذ المناضل حافظ الأسد، ومنذ ذلك الحين، أي من ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٠، وإلى الآن، تتطور، وتتوطد كل أواصر الصداقة والتعاون، بين موسكو ودمشق، وستبقى كذلك وطيدة متطورة في المستقبل أيضاً، تطبيقاً لمقولة الرئيس حافظ الأسد«إن علاقتنا بالاتحاد السوفييتي علاقة استراتيجية وليست مرحلية أو عابرة».

وتتضمن احتفالات الأيام السوفيتية التي ستشهدها دمشق ومحافظات القطر العربي السوري، نشاطات متعددة، في الفترة الواقعة بين الثاني والخامس عشر من شهر أيلول ١٩٨٧، ويشارك

في هذه النشاطات أفضل الفرق الفنية السوفييتية، ومنها فرقة الرقص الشعبي السيبيرية، ذات الشهرة العالمية، وفرقة استونيا للرقص والباليه، والرباعي الأرمني ماتياس، ومعارض فنية لأشهر الرسامين السوفييت، بالإضافة إلى معرض للكتب والأسطونات السوفييتية التي تضم مجموعة رائعة من الأفلام الحديثة.

إن هذا المهرجان الثقافي السوفييتي، الذي سيتيح لشعبنا وجماهير أمتنا، أن تشاهد نماذج من أعلى المستويات للفنون السوفييتية، سيكون خطوة جديدة في الطريق الرحب، المديد، طريق التعاون الثقافي المشترك الذي عمره ربع قرن ونيف الآن.

إننا، في الجمهورية العربية السورية، سعيدون وفخورون بهذه التظاهرة الثقافية الضخمة، وتزداد سعادتنا ويزداد فخرنا انها تأتي وأعلام البلدين الصديقين، لم تعد مقتصرة على الخفقان على ساريات التراب الوطني لبلدينا، بل تعدتها إلى الخفقان في أجواء الفضاء الكوني، في الرحلة التاريخية التي شملت الكرة الأرضية بنظرة حب، ونظرة علم، من الأعالي التي تحيط بهذه الكرة، وتطوقها بسوار من ذهب، أو بما هو أغلى في المعادن، لأنه معدن صداقة وتعاون استراتيجيين، قلما عرفهما تاريخ العلاقات بين الشعوب.

على هذا النحو المجيد، يأتي موكب الثقافة، في تعاوننا المشترك، مكللاً لا بالغار وحده، بل بالإرادة والعزم والتصميم على أن يبقى هذا التعاون، وفي جميع الميادين، نشطاً، مثمراً، متطوراً، لخيرنا وخير العرب، وخير البشرية جمعاء.

أستعير بساطة تشيكوف

وأقول شكراً(*)

أيها الرفاق

أيها الأصدقاء والصديقات

لو قدِّر للشمس أن تغدو، وهي الكوكب الملتهب، برتقالة خضراء مشعة، لارتبكت أمام خضرتها، إذا كان عليها أن تقول لكوكب آخر، ما هو الشعور الذي خالجها وهي تلقي، عن كتفيها، وشاح الذهب، لترتدي ثوب عرس أخضر، وليس ذلك لأن الكواكب لا تتكلم ولكن لأنها، حتى بالومضة الضوئية، تعجز عن أن تشرح نفسها، إذا كانت الأشياء تعنيها هي ذاتها.

ولقد لقي مكسيم غوركي، وهو يحضر حفل افتتاح إحدى مسرحياته، حرجاً شديداً في أن يرد على الجمهور المتحمس، الهاتف باسمه، فما كان من مدير المسرح، إلا أن دفعه إلى المنصة، حيث

(*) كلمة موجزة ألقيتها حين تقلدت الوسام السوڤييتي، وسام الصداقة بين الشعوب،عام ١٩٨٧، الموقع من غروميكو، حين صار رئيساً للجنة التنفيذية الدائمة لمجلس السوڤييت الأعلى بعد أن كان وزيراً للخارجية لمدة ثمانية وعشرين عاماً.

وقف مكسيم، وقد نسي أن يطفئ سيجارته، أو ينتزعها من فمه، وقفة رجل مرتبك، لا يدري ماذا يفعل، أو ماذا يقول، بدا، كما وصف نفسه بعد ذلك، أخرق، صموتاً، وقد ضاعت منه الكلمات.

هكذا الذي يحب البساطة، يبدو أمام الإطراء، بأي شكل جاء، كالبحر الذي لا يعرف، وهو بحر، أن يرد على تحية ملاح، سوى أن يصطفق بموجة على جوانب زورقه، وقد أراد أحد أدباء الروسيا، أن يهدي كتابه إلى تشيكوف، فاحتار في صيغة الإهداء، حتى مد له تشيكوف يد المساعدة وقال له: اكتب«إلى أنطون تشيكوف»، وهذا يكفي.

أنا لست كوكباً، ولا نجماً، ولست بعظمة غوركي أو عبقرية تشيكوف، لكنني بحاجة، في وقفتي هذه، إلى من يمد لي يد المساعدة، ويفك عقدة لساني، لأستطيع التعبير، بأقصى البساطة والصدق، عن المشاعر التي تعتمل في ذاتي، أمام هذا التكريم المهيب، بمنحي وسام الصداقة بين الشعوب، الموقع من زعيم كبير هو السيد غروميكو، من قبل دولة عظمى، دولة كانت الرائدة، وكانت فائقة الأهمية التاريخية، حين فجرت في مطلع هذا القرن، ثورتها الكبرى المجيدة، وبنت أول دولة اشتراكية على هذا الكوكب الأرضي.

ولقد قرأت تلك الكلمات الودود، المخلصة، الدافئة، التي نشرت عني، في الصحافة السوڤييتية، فاغتبطت بانفعال طفولي، لأن الكلمات، وهي جواهر حسب تعبير بابلو نيرودا، قد نشرت على

رأسي المتواضع، ولمعت حروفها، كنجوم باهرة، على كتفي وفي أناملي، خالعة علي صفات نابعة من تقدير كريم، تقدير لا يوفى، لأن ما قمت به، كان قليلاً، حتى إنه يكاد لا يذكر، أمام المهمة الجليلة التي ينبغي على كل إنسان شريف في عصرنا أن يضطلع بها، وهي مهمة إقامة جسور الصداقة بين الشعوب، وقبل كل شيء، إقامة جسر متين، وطيد، للصداقة بين بلدي سورية واتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية.

اسمحوا لي، إذن، أن استعير بساطة تشيكوف، وأقول: شكراً. أقولها من القلب، من الأعماق، من كبير الإحساس بالمسئولية التي يرتبها علي كوني سيدة فازت بهذه الجائزة الرفيعة، لأنها في العاملات المجدات في سبيل أنبل قضية لقرننا العشرين هذا، قضية تحرير الشعوب والمحافظة على السلم العالمي، وصيانته كبؤبؤ العين، ودرء الحرب وأخطارها، والنضال في سبيل عالم ينتفي منه السلاح النووي، وترفرف حمامات السلام في أجواء سمائه الزرقاء.

إن الجمهورية العربية السورية، البلد الصديق، الوفي، للاتحاد السوفييتي، تواجه بصمود وبسالة، كل صنوف الضغوط والمؤامرات والتهديدات من قبل أعدائها: الامبريالية والصهيونية، وبالاستناد إلى التحالف الذي لن تنفصم عراه، وإلى الصداقة التي لن تتزعزع بين بلدينا، نمضي في دروب المواجهة، وفي الوقت نفسه نمضي في طريق البناء، ونلقى، في تنفيذ خططنا الخمسية للتنمية، وفي بناء دفاعنا الوطني، المساعدة الكريمة، النزيهة، من صديقنا وصديق

الشعوب كلها، الاتحاد السوفييتي، ونحن نثمن، كما قال رئيسنا القائد الكبير حافظ الأسد، هذه المساعدة، وتقوم علاقات التعاون والصداقة بيننا على أساس استراتيجي، يعطي مثلاً للآخرين، ويشكل قدوة لجميع الدول التي تناضل من أجل تحررها الوطني وتقدمها الاجتماعي، وتعمل بطموح راسخ في سبيل بناء القاعدة المادية للاشتراكية، هذه التي قال عنها لينين: إن كل الأمم ستأتي إليها.

وإذا كنت وزيرة وكاتبة، قد بذلت، من خلال المنصب والكلمة، جهداً متواضعاً في سبيل التعاون والصداقة بيننا، وفي سبيل التفاهم بين الشعوب، على أساس الاحترام المتبادل، فإنني، في هذه اللحظات التي أتسلم فيها الوسام الرفيع، ذا الدلالة القصوى على التقدير والتكريم، أؤكد أني سأتابع، في كل نشاطاتي المقبلة، السلوك الذي من أجله نلت هذا الوسام.

ليست هذه هي الكلمة التي نشدتها، في هذا الاحتفال التكريمي، ولكنها الكلمة التي استطعتها. اعذروني على التقصير، فما من إنسان يجيد الرد الجميل على الفعل الجميل، وأنا أعتبر منحي الوسام فعلاً جميلاً مؤثراً، فيه من التقدير لوطني، وشعبي أكثر مما فيه من التقدير لشخصي.

مرة أخرى أكرر الشكر، وآمل أن أكون حيث يجب أن أكون، في موكب النضال لأجل كل القيم السامية التي كانت في أساس إنشاء هذا الوسام الرفيع، ومنحه للذين يعملون لأجل الصداقة بين الشعوب.

بالحجارة صنعت الانتفاضة

مجـد الحجـــارة(*)

أيها الإخوة والأخوات

أيها الفلـسطينيون المناضـلون لإنهـاء الاحـتلال الإسرائـيلي، ولانتزاع حقكم في تقرير مصيركم، وإقامة دولـتكم المـستقلة عـلى ترابكم الوطني.

أيها المنتفضون في الأراضي العربية المحتلـة، الـذين بالحجـارة صنعتم مجد الحجارة، وبها ابتكرتم نوعاً من السلاح هو الأقوى بين الأسلحة، لأنه موصول بإيمان عميـق، وإرادة صـلبة، في أن يكـون الصدر درعاً، والساعد سناناً، وفدية الدم ترتفع صلاة إلى الأعـالي، في فجر هو موئل للإيمان والأمل كليهما.

وكما صارت القضية الفلسطينية محور القـضية العربيـة، صـار الفلسطينيون المنتفضون في أرض الآباء والأجداد جـوهر النـضال العربي.

إنهم الشهود على مأسـاة العـرب الكـبرى، والمقـاتلون لأمـل تبديل صورتها، والارتفاع بقضيتهم عن حضيض المهانة، إلى رفعـة

(*) في الذكرى السنوية للانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٩.

المكانة، والباذلون بذلاً سخياً، بالروح والمال وما ملكت الأيدي، في سبيل الانتصار التام في هذه المعركة التي تجاوزت الخمسين من الأعوام، ناهيك بما قبلها من ثورة، وبعدها من انتفاضة، صارت أسطورة وبطولة ومعجزة، بها كبر العرب، وبهم كبرت هي، حين استمدت عزيمتها من عزيمتهم، وأضاءت مشاعلها بقبسات من نيرانهم التي اشتعلت والتهبت، في حرب تشرين التحريرية، هذه التي كانت عناق نصر، وبشير ظفر، لولا ظروف طارئة تعرفونها كلكم جيداً.

إذن اسمحوا لي أن أنقل إليكم، من دمشق العروبة، تحية العروبة. وكم يسعدني أن أنوب عن السيد الرئيس حافظ الأسد، هذا القائد الصامد، الشجاع والمقدام، في حمل تحيته إليكم، وإعجابه بكم، حيث كنتم في مواقعكم، وحيث أنتم في مدنكم وقراكم، وحيثما تتجذرون عميقاً في أرض المعارك، شامخين بالهام والزند، صامدين، مفادين، يستطيل بكم الكفاح، ويتمجد النضال وتزهو انتفاضتكم وهي توشك أن تدخل عامها الثاني، وأنتم في ثورة دائمة، لأنها ثورة شعب، وثورة حق وعدل، وثورة شهداء يمضون في موكب تتقدمه راية مخضبة بالأرجوان، قلما عرفت الانتفاضات مثيلاً لها، لأنها راية انتفاضة هي الأطول، والأكبر، والأعظم، وهي التي، في عصر الشعوب هذا، تعطي للشعوب يقيناً راسخاً في أن انتصارها محتوم، وأن قدرها موعد مضروب مع الشروق الذي يلوح في أفق الدنيا، بكل جلاله وبهائه.

وكما رفعنا، على مدى كفاحنا، راية فلسطين، نرفع اليوم شعار انتفاضتها، وهو شعار على بيرقه حجر، وفي قلبه مقلاع، وفي أطرافه دماء تستصرخ الدنيا: أن هبّي واضطربي. ونسمع نحن، صرخة الحداء تلك، وتسبيحة التكبير ذاك، ودويّ النخوة المعتصمية، ونبذل للانتفاضة دعماً واجباً، وتأييداً مستحقاً، ونعمل بأكثر مما نتكلم، لأن الفعل النضالي صمود إلى صلابة الصخر ينتسب، ومن هذا الصمود، موصولاً عبر الحدود، تقبس الانتفاضة جذوتها ونارها وعصفها، وقدرتها على التحدي، وقدرتها على الاستمرار، وقدرتها على كسب الرأي العام العالمي، الذي هو إلى جانب الحق، حين يكون الحق مدعماً بالقوة، مسربلاً بالبسالة، مخضباً بنجيع الشهادة.

وبعيداً عن المغالاة، وعن حماسة الخطابة، وعن ارتجال الوعود الزئبقية، والأماني الخلبية، نؤكد أننا في سورية، نقف وقفة لا تتزعزع مع انتفاضة أهلنا في الأراضي العربية المحتلة. ويعود الفضل في هذه الوقفة القومية إلى شعبنا، وإلى قائدنا، ورئيس جمهوريتنا، الرفيق حافظ الأسد، الذي تفضل فكلفني بتمثيله في هذا الاحتفال، وحملني أمانة أن أنقل إليكم، وعبركم إلى إخوتكم المقاتلين في فلسطين، والمناضلين في كل قطر عربي، ثقتنا بالنصر، مهما تطل معركة النصر، ومهما يشتدَّ ضرامها، ويدلهمَّ ليلها. ما دمنا نخوض كفاحاً عنيداً ضد المحتلين والمعتدين، وكفاحاً شاقاً في المحافل الدولية، التي على صعيدها الديبلوماسي، نحارب

بالسياسة، كما نحارب بالرصاصة، بعد أن تمرّسنا بالسلاحين: سلاح الكلمة وسلاح البندقية.

من هنا يتخذ دعمنا للانتفاضة معناه الأكمل، ومداه الأشمل، ويتخذ وقوفنا إلى جانب القضية الفلسطينية مصداقيته من ثباته، وثباته ينبع من معرفتنا أن العدو الإسرائيلي، في سعيه لتحقيق مشروعه التوسعي التوراتي من النيل إلى الفرات، يعمل على بذر الفرقة بين العرب، لذلك علينا، على العرب جميعاً، أن يوحدوا صفوفهم، وينبذوا خلافاتهم، ويتقاربوا، ويتحالفوا، ويستعيدوا الخندق الواحد الذي كانوا فيه سداً ومتراساً، بعد أن يتحرروا ويحرروا أنفسهم من قيود تعيق خطاهم عن الحركة، وتحدّ من طاقة أيديهم على العمل، وتسلب فعاليتهم قدرة التأثير وبذلك، أي بتحررهم، يقتربون، عبر النضال القومي، من الغاية القومية الكبرى، أعني الوحدة العربية، هدفنا الأقصى والأمثل، والأخطر، وجامعتنا التي فيها قوتنا، وفيها وجودنا ومصيرنا معاً.

إننا ننطلق إلى رحاب العمل القومي، الذي هو في خدمة القضايا القومية، المصيرية، وفي سبيل وحدة العرب، وطناً وشعباً، كما هي الحال في لبنان الشقيق، وكما هي الحال في الوقفة الصمودية، التوحيدية، بالنسبة للفصائل الفلسطينية، والوقفة الكفاحية التحذيرية، من مغبة كل تخاذل أو استدراج إلى شباك العدو، امبريالياً وصهيونياً على السواء.

ولست بحاجة إلى تعداد ما قمنا به من أجل القضية الفلسطينية، فمواقفنا معروفة، ومساندتنا مشهودة، منذ نكبة عام ١٩٤٨ وإلى الآن، ومنذ الثورة ضد الاحتلال البريطاني، إلى الانتفاضة ضد الاحتلال الإسرائيلي، ولنا الشرف والفخر، أننا قدمنا للثورة الفلسطينية، ولمنظمة التحرير الفلسطينية، بكافة فصائلها كل دعم وتأييد، وقدمت سورية، في العقود السابقة، الآلاف من خيرة أبنائها، وأقواهم شكيمة، وأشدهم مراساً، شهداء في ساحات المعارك مع العدو البريطاني والصهيوني، وأننا أعلنا، وما نزال نعلن، أن قضية فلسطين، هي قضية قومية، مصيرية، وفي قضايا الوجود والمصير، كنا من المبادرين إلى التضحية، السباقين إلى المكرمة، فما ترددنا، ولا تخاذلنا، ولا بخلنا بالدم، والسلاح، والمال، ولا تراجعنا أو ساومنا، فأرض فلسطين هي أرض عربية، والضفة الغربية وقطاع غزة عزيزان علينا، معزة الجولان نفسه، حيث أبناؤنا يناضلون نضالاً لا هوادة فيه، وحيث كانت عملية الضم الإسرائيلي للجولان، انتقاماً من حرب تشرين، وتعبيراً عن الحقد المسعور على كفاحنا الوطني في سبيل تحرير الأراضي العربية المحتلة، واسترداد حقوق الشعب العربي الفلسطيني، الشقيق والغالي.

أيها الإخوة والأخوات

إن إيمان سورية بهذه الحقائق عرّضها، ويعرّضها دائماً، إلى ضغوط تسعى لحملنا على التراجع، وعلى التهاون، وعلى مبادلة

جزء من تراب الوطن بجزء آخر من هذا التراب، فماذا كان موقفنا؟ فكروا، وفتشوا، ودعوا الوقائع تترجم ذاتها، وتظهر لكم، بالأدلة، أن سورية مصممة على الصمود، أمس واليوم وغداً، ومصممة على الوفاء لمبادئها، وأمينة على نهجها السياسي المقاوم، وأنها لن تفرط بالأرض، أو بالحقوق، وأنها ترفض استعادة الجولان مقابل إضاعة قضية فلسطين، وأن عدونا الذي يمتلك قوة تدميرية، ويبيت أهدافاً عدوانية، لا يواجه بالمناورات أو بالتنازلات، وهو دائماً يطلب المزيد، ولا سبيل لمواجهة ترسانته من الأسلحة، واستراتيجيته في العدوان، إلا بالصمود، وبامتلاك مقومات الصمود، وأهمها وحدة العرب، واجتماع كلمتهم، وامتلاك القوة الضاربة، والاستعداد النفسي والقومي لتحمل المسئوليات، وتقبل الآلام، كما فعلت سورية، في دفاعها عن الأمة العربية، والقضية الفلسطينية، وفي سعيها لتحقيق التوازن الاستراتيجي الشامل، الذي هو وحده يختصر مقومات الصمود، والتحرير، ويدفع بالعرب خطوات إلى الأمام، في كفاحهم ذي التاريخ الطويل.

أما في لبنان، فإننا مع شعبنا العربي اللبناني الذي يكافح لتحرير جنوبه من المحتلين الإسرائيليين، ويعمل، في الوقت ذاته لاستعادة وحدته الوطنية، ووقف الاقتتال بين أبنائه، والخلاص من محنته التي بدأت عام ١٩٧٥، وتوكيد عروبته، وانتمائه إلى أمته العربية، وتحقيق وفاقه الوطني، والحيلولة دون وصول التقسيميين إلى غاياتهم الشريرة.

لقد دفع لبنان ضريبة الفداء، وأعطى مثلاً في ضراوة مقاومته الوطنية، واستمراريتها، وتنوع أساليبها، وهو بكفاحه لأجل ذلك كله، يؤكد أنه مع القضية الفلسطينية، هذه التي يتعرض لأجلها إلى مؤامرة خبيثة ومستمرة، منذ ثلاثة عشر عاماً، مثلما تعرّض للاجتياح الإسرائيلي، والتدخل الامبريالي والأطلسي عام ١٩٨٢، واستطاع بمقاومته وبسالته، أن يدحر الاجتياح، ويحمل الأطلسيين على الرحيل، بدعم من سورية، التي التزمت دائماً بمساعدة لبنان على تحرير أرضه، وتحقيق وفاقه، وتثبيت أمنه، واستعادة وحدته، وقدمت في سبيل ذلك تضحيات جساماً ما تزال قائمة، وما يبرح الوضع اللبناني يتطلب المزيد منها.

أيها الإخوة، أيها المنتفضون والمناضلون، في فلسطين والجولان والوطن العربي كله.

إن أهم ما يمكن أن تقدمه الأمة العربية لانتفاضة شعبنا العربي في فلسطين، ولصمود أهلنا في الجولان، ولدعم المقاومة الباسلة في جنوب لبنان، هو توجيه الجهود، والطاقات، والقوى المادية والمعنوية، نحو العدو الإسرائيلي، لجبه أطماعه، وكسر أنيابه، وتحطيم نزعته العدوانية الراعفة حقداً على العرب، والمهددة لهم بأسلحتها التقليدية وغير التقليدية.

وحين نوحد قوانا، ونوجهها نحو الاحتلال الإسرائيلي، الاستعماري والاستيطاني، نقدم دعماً نوعياً كاملاً للانتفاضة، ونساعدها على التحول من انتفاضة إلى ثورة، وحين نبني التوازن

الاستراتيجي، ونكبح عدوانية إسرائيل، ونحرر الأرض، ونسترد الحقوق، تسقط الصهيونية، ويرتفع علم التحرير، علم الوحدة والعزة والكرامة.

إن بناء التوازن الاستراتيجي، يرتبط بنضالنا من أجل بناء المستقبل العربي، مستقبل أجيالنا العربية، على امتداد الوطن العربي، وإن تصميم سورية على امتلاك القوة الرادعة، المتوازنة، يعني تصميمها على حمل عبء الأمانة، حتى يتحقق النصر، ويرتفع علم العروبة فوق كل شبر من أرضنا العربية.

ليكن، إذن، أسبوع الانتفاضة هذا، بمناسبة دخولها عامها الثاني، حافزاً لنا على العمل، وعلى التوحد، ونبذ الخلافات الجانبية غير الأساسية، وتحرير الإرادة العربية من قيودها، والتعبير أكثر فأكثر، وبالمواقف خاصة، عن التزاماتنا القومية، والوفاء لها، وليكن تعبيرنا عن نقمة وغضب الجماهير العربية على المحتلين الإسرائيليين، تعبيراً مدوياً، يقترن فيه الكلام بالفعل.

إن الأمة العربية تواجه امتحاناً عسيراً، امتحاناً مصيرياً، وعليها أن تثبت جدارتها بالفوز في هذا الامتحان، وستثبته، وبذلك تحقق أمل الانتفاضة، وأمل الجماهير، وترضي العلى في وثبتها على الأذى، وفي تصديها للأعداء، في كل ساحة من ساحات المعارك الدائرة بيننا وبينهم.

لقد بزغ، في سمائنا المرصعة بالنجوم، نجم جديد، ساطع وباهر، هو هذه الانتفاضة التي لفتت إليها عيون الأمم والشعوب،

وتعلقت بها أبصار أحرار الدنيا، ومناضليها، لأنها طريقة فذة في المقاومة، ومبتكرة في القراع، وفتح مبين لم يعرفه التاريخ، ولا خطر، بقوته وشدته وتأثيره، في بال المؤرخين.

من دمشق، عاصمة الصمود، والمواجهة، وخندق المقاومة الأمامي، نرفع راية الدعم، والمشاركة، والتقدير، للانتفاضة العربية التي تطفئ شمعتها الأولى هذه الأيام، وتشعل شمعة جديدة للأيام المقبلات، وهي ماضية في ثورتها العارمة، ثورة الحجارة، التي صارت منارة في وهجها، وعلى هديها، يسير السائرون إلى غاياتهم، في الوطن العربي الكبير، وفي كل بلد محتل، أو مهدد بالاحتلال، في العالم بأسره.

الانتفاضة الفلسطينية الموئل والنجاح(*)

مايا كوفسكي، الشاعر الكبير، قال: «أمجد وطني الكائن مرة، وأمجد وطني الذي سيكون ثلاثاً»، مجد الوطن، لا يقاس بما كان، وإنما بما سيكون، وفي هذا الإضمار للصيرورة، ينطوي، تعظيماً، النضال الشاق المرير، والمفاداة والتضحيات التي يبذلها أبناء الوطن، حين يقدمون، من أجله، الأرواح قرابين شهادة، ترتفع، وترفع إلى الأعالي، الحق ابتهالاً، بين أرضٍ وسماء، ليغدو الابتهال صلاة، على شفاه الذين يتوقون، إيماناً، أن يبلغوا بدعائهم الحار سدرة المنتهى، حيث الملأ الأعلى، الذي يصغي ويجيب، وأبداً، في هذه المناجاة، لا يخيب رجاء اللائذين بالله، في مواجهة الشدائد، وفي الارتفاع عليها أيضاً، لأنهم يقرنون، في متانة الشكيمة، بين نجوى القلوب وتضحيات الأرواح، بين ما تنزل من وحي كريم، وبين هتفة هذا الوحي أن أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل.

إن مواكب الناذرين أنفسهم للشهادة أو النصر، تتألق كالفولاذ المصقول، تحت برق العزيمة الجبارة، ولقد يكون للرعود

(*) في المؤتمر الدولي لدعم الانتفاضة الفلسطينية – طهران عام ٢٠٠١.

هديرها، وللعواصف عزيف رياحها، وللطبيعة، في تأرث غضبتها، زئيرها المخيف، ولكن للإنسان، للناس، للمنتفضين على أعـدائهم المحتلين، هديراً أقوى، وعزيفاً أشد، وزئيراً أمضى، ونحـن في كـل يوم نسمع، كالدوي في الشفق، أصـوات آبائنـا، امهاتنـا، إخوتنـا، أبنائنا، تتردد، ملء سمع الدنيا، بالهتاف المجلجـل، ألا رجعـة عـن المقاومـة، أو يـزول الاحـتلال الإسرائـيلي، عـن أرض فلـسطين الطهور، ولا ونى في الكفاح أو تزول آثار الأقدام الدنسة، عن باحة الأقصى الشريف، الذي كان منطلـق الانتفاضـة، وسـيكون، مهـما يطل الزمن، وتتسعر أرض المعركة، ختامَ هـذه الانتفاضـة المظفـر، وعندئذٍ تصدّع سواعد المجاهـدين أقفـال المغـاليق مـن الأبـواب، وتكون فرحة الانتصار الآتي، على اسـم الحـق والعـدل، مـن ثـورة البركان، النـابع مـن مـشاركة المفـادين، في بهجـة الـصورة المتقـدة باللهب، المؤطرة بأرجوان الدماء، المظللة بالسحب البيض، لأرواح الذين استشهدوا في سبيل الله، والأرض، والكرامة، والعزة الـشماء التي منحتنا إياها النجوم، في ألق السطوع، الشبيه بإيماض البروق.

لقد تعلمنا، في الوثبة الداوية على الأذى، كيف يكون الوثوب على الأذى، وتعلمنا، من الـصدور العاريـة، في مواجهـة رصـاص العدوان، كيف تصير الصدور تروساً في جبه الرصاص، وتعلمنـا، من رعف الجـراح، كيـف تكـون هبّـة البـسالة، ضـمادات لرعـف الجراح، وتعلمنا من المنازل المهدمة، والسقوف المتهاوية، والخـراب الشامل، والأطفال الأبرياء القتلى، كيف تكون الأقـدام ثابتـة أمـام

البربرية الإسرائيلية، وتعلمنا من مصرع الصبي محمد الدرة، المحتمي وراء ظهر أبيه، كيف يقطع منجل العنصرية النازية، زهرة الطفولة وهي برعم لم يتفتح بعد، وتعلمنا من القصف الوحشي، بصواريخ الطائرات، وقنابل الدبابات، كيف يكون الصمود، حتى على أنقاض الخرائب، وتعلمنا من الانتفاضة ما لم يسبق أن تعلمناه من كل انتفاضات الشعوب ضد محتليها، وهكذا عرفنا، بالرؤية المجردة، كيف يتفولذ حديد الأرواح من نيران الجهاد المقدسة.

وفي المؤتمر الدولي لدعم الانتفاضة الفلسطينية، الذي ينعقد في العاصمة الإيرانية طهران، بدعوة من مجلس الشورى الإيراني، للمرة الثانية، نجد أنفسنا أمام مبادرة جليلة، لا نملك أمامها سوى التقدير الكبير لها، إذ هي تتنامى نوراً للكفاح، يمزق أثواب الظلمة الدهماء، وسوء الإحساس، بأهميتها وبما تدعو إليه في محاورها، من فهم للانتفاضة الفلسطينية المباركة، وهو ضروري وواجب، ومنه، في تعميق مداركنا لها، يكون الاندفاع إلى دعمها بما ملكت الأيدي والقلوب، ومن تبيان الأهداف الاستراتيجية الصهيونية في منطقتنا والعالم، يتحقق أمر هو من الخطورة بمكان، وهو جزء من مسئوليتنا، به تنكشف الحقيقة، ويزول الالتباس، كي تكون البشرية، في أربع جهات الأرض، على علم، ووعي، واستيعاب، وقدرة على اتخاذ مواقف سديدة، في مناهضة هذه الأهداف الأثيمة، وكي تدرك البشرية أيضاً، أسباب مقاومة الفلسطينيين والعالم الإسلامي، بغي إسرائيل، التي تزدري الشرائع كلها، وتتجاهل

القوانين، وتسخر من قرارات الشرعية الدولية التي تمنع احتلال أراضي الغير بالقوة، وقتل الأبرياء، والعدوان الدائم على الآمنين، واستلاب الأرض وهدم المنازل، وممارسة العنصرية بأبشع أشكالها، وأشدها همجية.

إنه الظلم، الظلم المنفلت من كل حدود التصور، الظلم الذي ينزّ سماً أفعوانياً، الظلم الذي يتبدى مفترساً بأشداق رهيبة، فهل ندرك ما معنى أن يستمر الإنسان مقاوماً عنيداً في وجه كل هذا، وبرغم الدمار والسحق والموت؟ إنه، كما يقول مالرو: «معنى في الإفناء المتعمد، ومعناه أن يستمر الإنسان في الوجود حتى مع رهبة الموت الشنيع»، وكأن من يموت في هذا الجحيم، يراهن على نفسه في كل لحظة من لحظات القتل المتربص في كل شارع، كل ركن، كل زاوية، كل بيت، كل مكتب، تحت فضاء غطاؤه المدافع والصواريخ، وكل أنواع أسلحة الدمار الشامل.

أيها السادة

أحيي هذا المؤتمر الكريم باسم اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة، ومقاومة المشروع الصهيوني، هذه اللجنة التي تأسست في دمشق، مطالع هذا العام، وتقوم لها فروع في البلدان العربية، وفي جملة أهدافها المرتبطة أساساً بتحرير الأرض المغتصبة، دعم الانتفاضة مادياً ومعنوياً، وبكل الوسائل الممكنة، ومقاومة التطبيع، والتصدي لكل أشكال الغزو، واعتبار تجربة المقاومة اللبنانية الوطنية والإسلامية نموذجاً يمكن الانطلاق منه، للتأكيد على أن

المقاومة هي طليعة التحرير، واستئناف التشدد في مقاطعة إسرائيـل مقاطعة كاملة، لتعود الأمور إلى ما كانت عليه، قبل اتفاقات كامب ديـڤـيد التي أسقطت الحاجز النفسي، حـين كـان لمكتـب مقاطعـة إسرائيل المرتبط بجامعة الدول العربية دور مهم، وذو تأثير شـديد، من الوجهة الاقتصادية، على العدو الإسرائـيلي، وسـيكون ذا نفـع كبير، ووقع موجع على إسرائيل، إذا ما لجأنا إلى إحيائـه، وجعلنـاه يعود إلى لعب دوره الملزم والملتزم، بدقة وأمانة، وبشكل محكـم، في كل بلد عربي، وعلى النطاق العالمي أيضاً، وبـذلك ننتقـل، في دعـم الانتفاضة الفلسطينية، من الأقوال إلى الأفعـال، وهـو، أي سـلاح المقاطعة، مـع رفـض كـل ألـوان العلاقـات مـع الدولـة العبريـة، يشكلان حربة نافذة جداً في خاصرتها، مما يعطي المجابهة معها صفة الشمول الذي نحن بأمس الحاجة إليه.

إن الإيمان، في الموقف من دعم الانتفاضة الفلسطينية، يرسـخ الموقف العربي والإسلامي، ويكـون منطلقـاً في الاتجـاه الـصحيح، اتجاه دعمها مادياً، بكل ما تحمل هذه الكلمـة مـن دلالات، ولقـد كنا، في مقاومـة الـصهيونية، وإسرائيـل قاعـدتها في هـذه المنطقـة، صامدين، وثابتين دائماً، وسنظل على هذا الصمود والثبات، ونرتفع بهما درجات إلى الأعلى، مهما اشتدت أشكال العـدوان الإسرائـيلي، ومهما كان الدعم اللامحدود الـذي تتلقـاه إسرائيـل مـن الولايـات المتحدة الأمريكية، التي تمدها بالمال والسلاح المتطـور، وتـستعمل، في مجلس الأمن، كما فعلت عـبر تاريخهـا الطويـل، حـق الـڤـيتو لصالحا، حتى باتت أمريكـا، ومهـما تغـير الرؤسـاء فيهـا، معاديـة

للعرب والمسلمين بصورة سافرة، ممعنة في السفور والإيـذاء، ودون فهم الدور الأمريكي، في تأييـد العـدوان الإسرائـيلي عـلى إخوتنـا الفلسطينيين، ودون الإلمام بـما يفعلـه الإعـلام الأمريكـي في قلـب الحقائق، وفي تصوير العرب كإرهـابيين، ومعتـدين، وأن إسرائيـل هي المعتدى عليها، ومجابهة هذا الإعلام الأشر والبغيض، بكـل مـا نملك من وسائل، فإننا لن نتوصل إلى الإحاطة بالظروف الدوليـة المعادية التي علينا أن نفضحها بوسائل إعلامنا العربي والإسلامي، فضحاً حقيقيـاً، ذكيـاً، وبالحجـة الدامغـة، وخـصوصاً الأسـاليب المعادية المفترية المناورة التي تشيعها أمريكـا، بكـل مـا تملـك، مـن سيطرة على أجهزة الإعلام في الدنيا كلها تقريباً.

لذلك فإننا، إذا لم ندعم الانتفاضـة الفلـسطينية بالمـال وبكـل الوسائل الممكنة، وننتصر لأشقائنا وأنفسنا، ونـدافع عـن حقوقنـا الدفاع المستميت، فإن علينا ألا ننتظر نفعاً لقضيتنا، أو فهـماً لهـا، أو أي شيء من الدول الأخرى، ولنشهد في هذا المـؤتمر أن الجمهوريـة الإسلامية الإيرانية تشكل المثل والمثال، بما تبذله وتقدمه، دفاعاً عن قضايانا العادلة، وحرمة معتقداتنا ومقدساتنا، في مواجهة العدوان الإسرائيلي العنصري، وأن هذا المؤتمر الذي تقيمه على أرضها، هـو مؤتمر كل الذين نذروا أنفسهم لأداء الرسالة، والدفاع عن الحقـوق المقدسة، إلى أن يأذن الله بالنصر، ولينصرن الله من ينصره.

إنني، أيها الإخوة المؤتمرون، أنقل إليكم تحيات الرئيس بـشار الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، الذي يبذل كـل طاقاتـه

لأجل نصرة الانتفاضة، ويتمسك بحق السلام العادل والشامل تمسكاً قوياً، محدداً موقف سورية الداعم للانتفاضة بكل وضوح، وهو يوجه التحية حارة إلى هذا المؤتمر، وإلى السادة المشاركين فيه، ويأمل، واثقاً، في نجاحه المرتجى.

كما أوجه تحية الإجلال والإكبار، إلى قائد الثورة الإسلامية، الإمام الراحل الذي لا يغيب عن الوجدان، آية الله روح الله، الخميني، قدّس الله سره، وتحية التقدير والعرفان إلى قائد الجمهورية الإسلامية الإيرانية سماحة الإمام آية الله السيد علي الخامنئي، وإلى سماحة حجة الإسلام والمسلمين رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية السيد محمد خاتمي، وإلى حجة الإسلام السيد علي أكبر محتشمي الأمين العام للمؤتمر الدولي لحماية الانتفاضة الفلسطينية، وإلى مجلس الشورى الإسلامي، وإلى الحكومة الإيرانية والشعب الإيراني الصديق والعزيز.

إننا نغلي المواقف الرائعة التي يقفونها في تأييد الانتفاضة الفلسطينية ودعمها دعماً مطلقاً في كل شيء، وفي كل موقف، إلى أن يكتب لها النصر، وهو، بإذن الله، آتٍ لا ريب فيه.

تعقيب على المناقشات في المؤتمر

بعد كل هذا الكلام القيم والجريء الذي استمعنا إليه، أحب أن أضيف بعض الكلمات البسيطة وبإيجاز:

- في القمة مبادرات تتجه، إذا انتصرت، إلى إيقاف الانتفاضة.
- وفي القمة من لا يفكرون إلا بإبداء حسن النية، والتبرؤ مما أطلقت عليه أمريكا تسميات العنف والإرهاب، بالبحث عن سلام ديبلوماسي..
- وقد يرون أنه يكفي أن يصدر عن القمة ما يحمل منحى الليونة المسالمة.
- نحن أمام وقائع مستجدة –كنا نقول عند كل حدث أليم، لن يأتي يوم أشد سواداً، واليوم يحدث، وبالرغم من كل المآسي، تطور يحمل لنا شعلة نور، نرجو أن يزداد إشراقاً.
- نعترف - سبقنا، وفي كل أنحاء الوطن العربي، ثوار الانتفاضة.
- كسروا حاجز الخوف (كما كسر السادات الحاجز النفسي) وانطلقوا وتجاوزوا فرضياتنا.

- وجدوا طريقهم، وضروري –على الأقل - ألا نحـرفهم عنـه، وألا نلتمس الترضيات.
- في التاريخ العربي المعـاصر، مواقـف مـشابهة منـذ ثـورة عـام ١٩٣٦.
- بمعزل عن قراراتنا ومؤتمراتنـا، تجـاوزت الثـورة الفلـسطينية حدود الحصار العـربي، بأشـكاله المختلفـة، والمـرتبط ببعـضه بـالإرادة الأمريكيـة، والعـدوان الإسرائـيلي المـستقوي أيـضاً بالإرادة الأمريكية.
- ينبغي أن نكون واضحين.. ماذا نريد من القمة؟ مجرد قرارات رافضة لهذا الحل أو ذاك، أم المطلوب أن نكون جبهـة مـساندة حقيقية؟
- الدم يملأ شوارعنا، ونحن نكتفي، في الغالب، بالكلام المنفعل والخطابي المعبر عن الإعجاب، المتغني بالبطولات.
- كلنا نحمل قناعات واضحة حول ما يجري..
- كلنا نريد أن تدان أمريكا، وتفضح مواقفها أكثر فأكثر، ودون لبس أو التباس، وأن نرفض بالمطلق ضرب العراق، ونطالـب برفع الحصار عنه، ولكن هل هذا يكفي؟
- نحـن لـسنا مجـرد أنـصار أو مؤيـدين أو أصـدقاء لفلـسطين والعراق، نحن جزء من المعركة. إنهم نحـن ونحـن هـم. إننـا معنيون حتى الصميم، ومن هذا الموقف ننطلق..

- هذا المؤتمر حكومات وقادة، بيدهم القياد، والمفروض أن نسعى إلى إيجاد آليات حقيقية، كما أشار أحد السادة المتكلمين.
- لقد صدرت بيانات كثيرة، فليكن بياننا محدداً واضحاً، وليس مجرد دعوات نظرية..
- السلاح هو المطلوب، قلتم؟ وماذا أيضاً؟ بصدق كامل وبصراحة، وليكن بياناً مختلفاً.
- في الحضور شخصيات سياسية وفكرية هامة، وبإمكانها أن تقترح ما هو مفيد في معاركنا الراهنة.
- ولنضع القادة أمام مسئولياتهم.. وليكن بياناً مختلفاً..

من المقاومة إلى التطبيع(*)

لمحة سريعة

«إن النضال من أجل استعادة الحقوق العربية في فلسطين والأراضي المحتلة، مسئولية قومية عامة، وعلى جميع العرب المشاركة فيها، كل من موقعه، وبما يمتلك من قدرات..».

«إن الصراع مع العدو الصهيوني يتعدى إطار الصراع ضده من قبل الأقطار التي احتلت أراضيها قبل عام ١٩٦٧ إلى الأمة العربية كلها، لما يشكله العدو الصهيوني من خطر عسكري واقتصادي وحضاري على الأمة العربية كلها، وعلى مصالحها القومية الجوهرية، وعلى حضارتها ومصيرها.. الأمر الذي يحمّل كل أقطار الأمة العربية مسئولية المشاركة في هذا الصراع بكل ما تملكه من إمكانات..».

مؤتمر القمة العربي التاسع في بغداد

٢ -٥ تشرين الثاني ١٩٨٧

(*) قدمت هذه الورقة على هامش مؤتمر طهران الذي عقد عام ٢٠٠١، من أجل دعم الانتفاضة الفلسطينية.

إن هذا المقطع، من بيان مؤتمر القمة العربي التاسع، يفضح، بشكل كامل، عن وعي لطبيعة الصراع مع العدو الإسرائيلي، لدى الحكام العرب، وعن قناعاتهم التي لا تحمل أوهاماً، بوجوب النضال ضده، متوحدين متراصين، لكن الذي حدث بعد ذلك كان مختلفاً تماماً..

* * *

منذ المحاولات الأولى لإنشاء دولة إسرائيل، بدأنا ندرك جميعاً، مسئولين وغير مسئولين، أن الخطر في بيتنا وعلى حدودنا، وأن النار موجهة إلى صدورنا، وأن عدونا الذي احتل أرضنا هو، في مطامع الصهيونية، مشروع للتوسع والاحتلال، من النيل إلى الفرات، ومن المشرق إلى المغرب، وأنه خطر كبير داهم، وعلى العرب كل العرب، الذين تعزّ عليهم الأرض والعقيدة والقيم والمبادئ والمثل والتاريخ والتراث والمقدسات، أن يهبوا وينهضوا، ويحتشدوا ويبذلوا، متوحدين، أقصى ما يمكن من جهد، للحيلولة دون إنشاء الدولة الإسرائيلية، مفادين حتى آخر نقطة دم.

وحين استحال علينا أن نحقق النصر العسكري عام ١٩٤٨، لم نرضَ أن نكون الشهود على مأساتنا الكبرى ونستكين، بل قررت جماهيرنا أن تبقى أمينة على النهج السياسي المقاوم، ولم تنقطع مواكب الشهداء منها، واستمر البذل سخياً بالروح والمال، في سبيل تحقيق الانتصار الذي تمنيناه.

وأجمع العرب، دون تردد، على محاصرة إسرائيل، ومقاطعتها اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، وعلى كل صعيد، وأنشئ مكتب مقاطعة

إسرائيل، في مطلع الخمسينات، بقرار من جامعة الدول العربية، وتمكنا بالفعل من تحقيق انتصار في هذا المجال، ومن عزل إسرائيل، والتضييق على مشروعها التوسعي، أرضاً واقتصاداً وسياسة، وطبقت القرارات بكثير من الصرامة، في معظم البلدان العربية والإسلامية، وألزمنا الشركات الكبرى في العالم بالانصياع لمشيئتنا، وعدم التعامل مع إسرائيل..

ومع أن هزيمة حزيران كانت صاعقة وأليمة، إلا أننا، مع ذلك، حققنا انتصاراً إقليمياً ودولياً كبيراً، إذ قطعت دول كثيرة علاقاتها بالكيان الصهيوني، افريقيا كلها تقريباً، وبلدان كثيرة آسيوية، والاتحاد السوفييتي، وبلدان المنظومة الاشتراكية، ثم كانت حرب الاستنزاف في مصر عبد الناصر، بداية تحول للمعطيات، وتمهيد لحرب تشرين على الجبهتين السورية والمصرية، التي حققت فعلاً نصراً كبيراً للعرب، وهزيمة كبرى لإسرائيل، لولا التدخل الأمريكي السريع والشامل.

بعد ذلك بدأ التسلل الملفّع بالخيانة، يمد اليد الذليلة للقتلة من محتلي الأرض، ثم شرع يستعلن في اتفاقات كان أولها اتفاق كامب ديڤيد الذي كسر الحاجز النفسي، والتضامن العربي، وقصم ظهر المقاومة، على اسم السلام الذي لم يكن أكثر من استسلام، وعلى اسمه أرادوا للحصار أن ينتهي، وللمقاطعة أن تتوقف، وقاوم الشعب العربي في مصر ما استطاع، وتشكلت لجان الدفاع عن الثقافة القومية، ورفض الكتاب والمفكرون والفنانون

والمواطنون، أن يقاربوا أبسط أشكال التطبيع، مدركين مخاطره، وهكذا أسقطوه..

ثم، وبشكل متسارع، أخذ الخرق يتسع، والجو العالمي يتحول، ولم يعد في منظور معظم الدول الصديقة معنىً لقطع العلاقات الديبلوماسية مع إسرائيل، مادامت مصر السادات قد أقامتها معها، وكذلك الشركات الكبرى بدأت تتمرد على القرارات العربية، ولم يرد أحد أن يكون أكثر التزاماً من أبناء العروبة، وكانوا واثقين من أن أمريكا لن تسمح بأن تميد الأرض تحت أقدام المحتلين.

وشيئاً فشيئاً انهارت حصانة الموقف العربي، وبشكل معلن أو غير معلن، تراجعت بلدان عربية عن مواقفها، وبدأت على استحياء أولاً، ثم باستعلان ثانياً، علاقات ودوداً، لها جوانب اقتصادية وثقافية واجتماعية، بينها وبين إسرائيل، وكأن الدم العربي المطلول، والعدوان المتواصل، من عدو يمتلك كل إمكانات التدمير، لا يعني شيئاً بالنسبة إليهم، فقد صاروا «دعاة سلام» وتفاهم، وحرص على الاستجابة لكل ما يريده الراعي الأمريكي، الحليف الاستراتيجي لإسرائيل.

وتتابع الانهيار..

كامب ديفيد، ثم أوسلو، ثم وادي عربة.. اتفاقات القاهرة والخليل وواي ريفير، وشرم الشيخ.. وما سيأتي، وسيأتي، ومن يدري؟

مقابل ذلك، وبعيداً عن اليأس المتخاذل، والإحباط المدمر، كان التحرك الشعبي يأخذ أبعاده النضالية، على بطء أولاً، ثم بشكل متسارع، فالقلة التي سقطت في حضيض الاستسلام، وأرادت أن تبيع المستقبل، وتكبل بقيود الهزيمة الأجيال والذراري، بدأت تكتشف، وربما كانت تعرف، أن أبناء الشعب هم الحراس الحقيقيون لنضال الأمة ومصيرها، وهم الذين سيقفون بالمرصاد للتطبيع، ولكل أشكال الغزو، وأن شهداءانا في ساحات الوغى، وفي مواقع الصمود، ومعهم حملة رسالة الفكر والإيمان هم الرجال الذين يحدون قافلتنا المباركة، وهم الذين يقاتلون بالرصاص والحجارة والكلمة، كي يتحرر الوطن وتسترد الأمة حقوقها وكرامتها على السواء.

وكانت مصر أول من قدم البرهان على ذلك، فالتطبيع الذي أسقطته أرض الكنانة، سقط في الأردن وفي أماكن أخرى، وإذا الانتفاضة تغدو شكلاً حاسماً للنضال، ولا تبقى حدثاً عابراً في التاريخ.. امتدت وتواصلت، وصبرت وصابرت، ثم توقفت، لكنها عادت من جديد، بعنفوان جديد، ليقاوم أبناؤها بأضرى ما تكون المقاومة، وليضعونا أمام مسئولياتنا، وليقولوا لنا: صمودنا من صمودكم، وصمودكم من صمودنا، وليكونوا فعلاً غدنا وأملنا وثقتنا وصحوتنا ومجدنا الآتي وحماستنا..

أبناؤنا هؤلاء فعلوا ما عليهم ويفعلون، ويبقى أن نفعل نحن ما علينا، وليس يكفي الكلام، فعدونا المستمر في عدوانيته، لا

يواجه بالمناورات أو التنازلات، ولا سبيل لمواجهة ترسانته من الأسلحة، واستراتيجيته في العدوان، إلا بالصمود، وامتلاك القوة الضاربة، والاستعداد النفسي والقومي لتحمل المسئوليات، والوجه الوضاء المستقبلي لكل هذا، هو الانتفاضة.

* * *

في عام ١٩٨٠، دعت سورية إلى مؤتمر استثنائي لوزراء الثقافة العرب، بحضور ممثلين عن الجبهة الوطنية المناضلة في مصر، هدفه البحث في مواجهة الغزو الثقافي لمصر، بعد كامب ديڤيد، واتخذت مجموعة قرارات وتوصيات كانت آنذاك ذات أهمية بالغة، وقد حظيت بالإجماع، وحاولنا تفعيلها ما أمكن، والتزمنا في سورية بها، وربما يحسن أن أشير إلى بعض منها، وهي كثيرة:

١ - يؤكد المؤتمر على أهمية إحكام تطبيق إجراءات المقاطعة الثقافية بحزم.. والتنسيق بذلك مع مكاتب المقاطعة، كما يوصي المؤسسات الثقافية واتحادات الكتاب والفنانين والصحفيين العرب بتطبيق أحكام المقاطعة، بمختلف الوسائل.

٢ - يوصي المؤتمر أن تقوم الدول العربية بوضع خطة عربية شاملة موحدة، لمواجهة كافة أشكال الغزو الصهيوني الإسرائيلي للأمة العربية، تتوزع فيها المسئوليات والأعباء، بحيث تشارك جميع الدول العربية بتنفيذها.

٣ - يوصي المؤتمر بوضع خطة عربية طويلة الأجل، تستهدف مواجهة الثقافة الصهيونية المنتشرة في العالم، والقائمة على

تزويـر التـاريخ وتزييـف الحقـائق، والمعتمـدة عـلى العنـف والعنصرية وتبرير العدوان، على الأرض العربية والحق العربي.

٤ - العمل عبر وزارات التربية العربية على أن يـدخل، في منـاهج التربية، تدريس أخطار كامب ديـڤـيد، في مختلـف مجـالات الحياة العربية، الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٥ - يؤكد المؤتمر على مسألة الديمقراطية في الثقافة العربية، وحرية الأديب والمفكر العربي، واعتبار ذلك هو القاعـدة الأساسـية التي تقف عليها الثقافـة العربيـة، في مواجهـة الغـزو الثقـافي الامبريالي والصهيوني.

٦ - يؤكد المـؤتمر عـلى ضرورة التـدقيق فـيما ينـتج ويعـرض عـلى الشاشة العربية، من أفلام ومسلـسلات سـينمائية وتلفزيونيـة عربيـة وأجنبيـة، حمايـة لثقافـة الـشباب والأجيـال العربيـة، وحرصاً على تربيتها تربية سليمة.

٧ - يوصي المؤتمر بأن تـولي مؤسـسات البحـث العلمـي، في الـدول العربية، أهمية خاصة لمعالجة قضية الغزو الصهيوني، على المستوى العلمي، وتنظيم ندوات يساهم فيها خبراء لمعالجة هذه القضية.

٨ - رصـد وتوثيـق عمليـات الاعتـداء الـصهيوني عـلى الآثـار والمقدسـات الإسـلامية والمـسيحية في فلـسطين، واتخـاذ الإجراءات الكفيلة بحماية هذه الآثار والمقدسـات، وخاصـة مدينة القدس.

* * *

ومنذ التسعينات، عقدت مؤتمرات شعبية ورسمية، وشكلت لجان ذات طابع جماهيري، تناولـت جميعهـا، بعمـق ومتابعـة، أمـر المشروع الـصهيوني وأسـاليب مقاومتـه، ومقاومـة أشـكال الغـزو والتطبيع، وإسقاط الاتفاقات مع العدو، واعتبـار مجابهـة التطبيـع، بكل وجوهه، مهمة للشعب كله، وتفعيل قرارات المقاطعة لتكـون حاسمة، ضمن عملية التصدي، على كل الصعد، الاقتصادي منهـا والسياسي والثقافي والاجتماعي، إضافة إلى ما صدر عـن المـؤتمرات والندوات التي خصت بها مدينة القدس.

وتنـاول مفكـرون وبـاحثون وكتـاب مجمـل هـذه القـضايا، ودخلوا في تفاصيل هامة تتعلق بالأكاديميـات المـشبوهة، ومراكـز البحث والجامعات، والمشاريع التي طرحت وتطرح تحت مظـلات أوروبية أو أمريكية، ليكون لإسرائيل فيها أكثر من موقع، يسهم في توسيع الاختراقات، وفي دمجها كدولة متوسـطية في محيطهـا الـذي استعـصى عليهـا، ولا ننـسى في هـذا المجـال محـاولات«الـشرق أوسطية» التي شاؤوا، من خلالها، تحقيق المدى الحيوي لإسرائيـل، ومشاريعها الاقتصادية والتوسعية، التي تستهدف الهيمنـة إقليميـاً، والحلول محل المشروع القومي العربي، ولم يعد التوسع يقتـصر عـلى الأرض، وإنما يدخل في منظوره ومفهومه، أمور أخرى، لها أهميتهـا الاستراتيجية والحيوية، في بـسط نفـوذ إسرائيـل أرضـاً واسـتيطاناً واقتصاداً.

* * *

حين قرأت التقارير والتوصيات والبيانات التي كانت حصيلة مؤتمرات ونـدوات ولقـاءات، عقـدت في سـورية ومـصر ولبنـان والأردن، من مثل المؤتمر الشعبي للدفاع عن القـدس عـام ٢٠٠٠، وكذلك ما يخـص المـؤتمر الـشعبي الأردني لحمايـة الـوطن ومجابهـة التطبيع، ارتأيت أن ما جاء فيها يشكل مجمل أفكار تحصر موضـوع التطبيـع والمقاطعــة بدقــة كبــيرة، وبحــرص عــلى الاســتيعاب والاستيفاء، سواء فيما يخص البلدان العربية التي كبلـت باتفاقـات مع العدو، وصار وضعها أصعب، أو البلدان العربية الأخرى التي تشكل جبهة نضال صلبة، وأن النـصوص بمجملهـا كافيـة جـداً، كنقاط انطلاق لعمل لجنة مقاومـة التطبيـع والمقاطعـة، ولا حاجـة للتكرار، بصيغ أدبية موازية أو مختلفة، تحمل المضمون نفسه، ولقـد أكبرت الجهد، ورأيت ضرورة الإكـمال لا الاسـتئناف، وتبنـي مـا يعطي موضوعنا أبعاده، وبذلك تكون هذه التوصيات بمجموعها، قديمها والحديث، هي قراراتنا، ساعين إلى الحصول على مـا صـدر ويصدر عن لجان أخرى، كي نشكل من هذه النصوص كلها، نـصاً واحداً متكاملاً، يكون أساس خطتنا العربية الموحـدة، بـادئين مـن توصيات عام الثمانـين إلى توصـيات التـسعينات، ومؤكـدين عـلى قرارات مكتب مقاطعـة إسرائيـل الـذي كـان لـه دور كبـير، عـبر سنوات مديدة، مع توجيه الشكر إلى كل الـذين عملـوا بـإخلاص وإيمان وحرص على أداء الرسالة، ولم يبارحوا ساح النضال.

* * *

قلت قبل قليل، إن أبناءنا صانعي الانتفاضة، فعلوا ما عليهم، ويفعلون، ويبقى أن نفعل نحن ما علينا، وليس يكفي الكلام، في وقت أزرت فيه الحجارة بالكلمات، فالذين مرقوا في عبقرية شجاعتهم، من أحداق الردى، علينا أن نمرق إليهم من أحداق الدعم، وبكل ما لدينا من إمكانات، نتعلم منهم ولا نداري، ونفتح بهم صفحة جديدة، هي الصفحة التي يكتبونها بدمهم، ليكون دمهم كتابهم، وكتابهم حق يزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

السيد أمين عام المؤتمر الدولي لدعم الانتفاضة الفلسطينية
حجة الإسلام والمسلمين علي أكبر محتشمي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أود بداية أن أنقل إليكم مشاعر التقدير الكبير للجمهورية الإسلامية الإيرانية، على مواقفها، مواقفكم جميعاً، المبدئية الراسخة والثابتة، من القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني وانتفاضته البطلة التي ناصرتموها منذ بدأت، وعقدتم من أجلها مؤتمراً كان بالتأكيد من أهم المؤتمرات الداعمة لها، وسيرتم مؤخراً مسيرة بالغة الشأن، انتصاراً لدم الشهداء الذي لا يمكن أن يطلّ، بعيداً عن اليأس المتخاذل، والإحباط المدمر، واللامبالاة الشائنة التي تجلل أصحابها بالعار، وكنتم بما قدمتم وتقدمون، أمثولة لكل الذين تعزّ عليهم الأرض والعقيدة والقيم والمبادئ والمثل والتاريخ والتراث والمقدسات..

إننا وإياكم، على درب الكفاح الواحد، لا نريد أن نكون شهوداً بائسين على مأساتنا الكبرى هذه، نشارك بالحزن أو بالقليل من الدعم، ثم نستكين لتواطؤ أمريكا وعدوانية إسرائيل، ومغالطة العديد من بلدان العالم المتقدم، ونترك بعد ذلك أبناء فلسطين،

يصارعون البغي المدجج بأرقى أنواع السلاح، وحدهم، لا يشد من أزرهم إلا الإيمان العميق، والحرص على المقدسات..

وإذا كنا وإياكم نؤمن أن الانتفاضة الفلسطينية هي صحوة عربية إسلامية ماجدة وبامتياز، وأنها قادرة على الاستمرار والتنامي، إذا تلقت الدعم المعنوي والمادي من البلاد العربية، والعالم الإسلامي، فهذا يعني أنها جديرة بأن نقدم لها أقصى ما نستطيع من إسناد وحماية ومساعفة وإسهام فعال، وألا نعتبرها على هامش الهامش مما يسمونه «مصالحنا وارتباطاتنا، وظروفنا»، وضرورات الانسجام مع وضع دولي قاهر يتربص بنا، ويناهض كل تطلعاتنا وعقائدنا وحقوقنا.

إن ما فعلته الدول المعنية حتى الآن لا يتجاوز حدود مقررات لم ينفذ معظمها، وجمع تبرعات من هنا وهناك، وهي لا تعوض حتى عن بعض الخسائر لأولئك الذين دمرت بيوتهم وأراضيهم ومزروعاتهم، وقتّل أبناؤهم وتلقّاهم العراء، وصاروا لقمة سائغة يستفرد بهم العدو، وتتصيدهم بما يشبه «ممارسات الصيد للهواة» صواريخه، وطائراته ودباباته، في كل مكان تحت سماء فلسطين، ولا يأتي أي رد جاد يجاوز حدود الأسى، بل ما تزال بلدان عربية ترفض العودة إلى المقاطعة كما مُورست قبل معاهدات كامب ديفيد، وترفض إغلاق المكاتب الإسرائيلية، والسفارات الإسرائيلية، وترحب بالعلاقات الاقتصادية، وهذا ينسحب أيضاً على العديد من البلدان الإسلامية التي يسارع بعضها إلى مد جسور

التواصل، مع العدو الذي يعتدي على كل الحرمات الإسلامية، وتبقى إيران مثلاً فريداً لا يقاس عليه.

أمام هذا الوضع الأليم، أرى أن علينا الخروج من الحدود الضيقة، والأبواب الضيقة، والقرارات الضيقة أيضاً، إلى ميدان عمل جهادي واسع، يبدأ بالعمل، أو السعي على الأقل، باتجاه تحقيق تنسيق عربي إسلامي حقيقي، يعطي قضية الصراع العربي الإسرائيلي الأولوية، ويرقى إلى مستوى تعاون إيجابي، على الصعيد السياسي، يتضامن بقوة مع جبهة الداخل الفلسطينية، ولا يترك المناضلين وأهلهم وحدهم في الساح، يقرر مصيرهم عدو نازي، تناصره أعتى قوة باغية في العالم، دون أن يعبأ أحد بملايين ملايين المسلمين الذين لا يرتفع لهم صوت كاف، يشكل تهديداً لمصالح العدوان، ولا يستشعر العالم أنهم معنيون بما يجري، وينبغي أن يحسب لهم حساب يفرض على العديد من الدول أن يعيد النظر بمواقفه. ومن أجل تغيير هذا الوضع الجامد والمهين، يغدو من الضرورة بمكان، تحرك الدول العربية والإسلامية، ضمن علاقاتها بدول العالم المختلفة، أوروبية وآسيوية وافريقية، سعياً إلى خلق رأي عام إنساني أخلاقي متنور، وغير متحامل، لا يخضع لسلطان أمريكا وإسرائيل، ويرى الحقائق كما هي على أرض الواقع، ويعي أبعاد ما يجري من سلب للأرض، واستيطان عدواني، واعتداء على كل المحرمات.

إن الظروف الصعبة الراهنة التي تجاوزت كل الحدود، والممارسات الإسرائيلية المحمية من أمريكا، بهمجيتها ووحشيتها

المفرطة، ومحاولات التضليل في عكس المواقف، ووصم الفلسطينيين بالإرهاب وتشجيع العدوان عليهم، وتبرئة الإسرائيلين العنصريين حتى كأنما هم يدفعون الأذى عن أنفسهم، والصمت المشبوه المتواطئ من جهات عربية وإسلامية ودولية عديدة.. إن كل ذلك يفرض الدعوة السريعة والملحة إلى مؤتمر إسلامي استثنائي، يستهدف حماية أبنائنا ومقدساتنا وأرضنا، وتبني النهج المقاوم، ومحاصرة إسرائيل، ومقاطعتها حقاً وصدقاً، اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، وعلى كل صعيد، وفضح ومقاومة أشكال الضغوط الأمريكية والدولية التي تزداد عتواً، في موقف إنقاذي حازم رافض، يستخدم كل ما يمتلك من أدوات وإمكانات، من أجل قلب المعادلة، وإحداث تغيير في الموقف الدولي، ومنع الاستفراد بالفلسطينيين العزل، والإمعان العنصري في اغتصاب حقوقهم، والعدوان عليهم، إضافة إلى تقديم الدعم اللامحدود المادي والمعنوي والإعلامي. إن الإعلام سلاح لم يستخدم بعد في المعركة كما هو مطلوب، وهو مدعو إلى أن يأخذ دوره في معارك الأمة، وأن يتسم بوعي أكبر، وجدية أكبر، وألا يكتفي بلقطات سريعة للانتفاضة، أو بسرد لبعض أخبارها. عليه أن يكون سنداً حقيقياً لها، ولكل ما هو مطلوب لأجلها، وأن يناصر بقوة حقوق الشعب الفلسطيني، ويفضح بقوة عدوان إسرائيل، مما يجعل المواقف المساندة أشد وضوحاً، تأخذ حجمها الدولي الحقيقي، ولا تمر على استحياء لا يعبأ به أحد.

إن عقد مـؤتمر إسـلامي اسـتثنائي مـن أجـل دعـم فلـسطين ومقدساتنا فيها، وأهلنا وأطفالنا ومجاهدينا، سيكون بحد ذاته أمراً ذا شأن، فالمعتدون في أمريكا وإسرائيـل، وفي الغـرب وغـيره، كـما أشرت، لم يعودوا يحسبون حساباً للـشعوب العربيـة والإسـلامية، وهم، على العكس من ذلك، يحسبون أنهـم، في الظـروف الراهنـة، قادرون على فعل ما يشاؤون، بالشعب الأعزل، وبمقدسات العـالم الإسلامي، دون خشية مـن أي رد فعـل إيجـابي. و«الديبلوماسـية» المفرطة التي يواجههم بهـا العـالم العـربي والإسـلامي، تجعلهـم لا يعبؤون بنا، إضافة إلى ما نعيشه من حال التشرذم والتفرقة، وألوان الانقسام والتناحر التي تُطمع الأعداء، وتجعلهم شبه واثقين من أننا غير معنيين أو حريصين على اتخاذ أي موقف صلب، تجاه عدوانهم.

إن مؤتمر دوربان القادم يعطي صـورة عـن المـساومات التـي تجري، لغض الطرف عـن معانـاة الأرض المحتلـة، وعـدم مقاربـة إسرائيل الدولة العنصرية بأي سمة من الـسمات التـي تتـصف بهـا وتمارسها، وما تزال الصور الشنيعة لقتل الأطفال، والتمثيل بجثث الشهداء، ومجاوزة كل الحدود، تعرض على شاشات العالم، لتكـون عار هذا القرن، كما كانت عار القرن الماضي، وواجبنا ألّا نـستجيب للضغوط، وأن نستفيد مـن هـذا المـؤتمر الـدولي، لفـضح عنـصرية إسرائيل التي لم يعد يحتاج فضحها إلى مزيـد مـن التوثيـق، دون أن نرهب الضغوط، ودون مجـاملات أو ديبلوماسـيات عـلى حـساب الدم الفلسطيني المقدس المهدور.

إن الدعوة إلى هذا المؤتمر الإسلامي الاستثنائي المطلوب، قد لا تكون سهلة، وقد تلقى اعتراضات، لكنها ضرورة ماسة لرص الصفوف، وتوحيد المواقف، وتحتاج إلى كثير من التصميم، وأتمنى على الأقل أن تبذل جهود في هذا السبيل.

السيد الأمين العام

قدمت في مؤتمر طهران جملة مقترحات وردت في الصفحة السادسة والسابعة أتمنى أن يتم الاطلاع عليها، علماً بأنني أرى أن العمل الأساس ينبغي أن يتركز على موقف شمولي موَحّد وصامد، يأخذ موقعه على الصعيد الدولي، واثقة من أن النتائج ستكون أكثر إيجاباً.

أكرر الشكر لكم، وأؤكد ثانية حرصنا على متابعة العمل، بكل ما نملك من إمكانات، انتصاراً لقضية عادلة، ولحق لا يمكن للباطل أن يزهقه، ولانتفاضة يكتب شهداؤها بدمهم أغلى صفحاتها، على مدار الأيام.

الإكبار لجهودكم، والنصر للأبرار في فلسطين.

دمشق، ٢٤ /٨ /٢٠٠١

الدكتورة نجاح العطار

السيد رئيس المكتب التنفيذي

للجنة الشعبية العربية لدعم الانتفاضة(*)

الرئيس علي ناصر محمد

تحية عربية

عطفاً على كتابكم تاريخ ١٢ /٢ - وبعد الاطلاع على مشروع اللائحة الداخلية للجنة الشعبية العربية لدعم الانتفاضة الفلسطينية، ومقاومة المشروع الصهيوني، ومشروع اللجان الفرعية وخطة العمل، أرى أن يكون ما جاء في رأس الصفحة السابعة، وتحت عنوان:

ثالثاً - لجنة مقاومة التطبيع والمقاطعة، ومهمتها - على الشكل التالي:

١ - اعتبار رفض التطبيع مع العدو، وفرض المقاطعة، قضية رئيسية، في مقاومة المشروع الصهيوني، ودعم الانتفاضة، وهي الآن من الخطورة والضرورة بمكان، بسبب اتفاقات التسوية التي عقدتها بعض الدول العربية مع إسرائيل.

(*) تأسست عام ٢٠٠١

٢ - مقاومة التطبيع الثقافي، ومناهضة كل أشكاله الغازية، ما كان صريحاً منها أو مستتراً، والتي تأتي أحياناً بصيغ أكاديمية أو جامعية، وتحت مظلات بحث أجنبية، متوسطية أو غير متوسطية، ممولة بشكل لافت، من أجل دمج إسرائيل في المنطقة، والعمل على حصرها، وكشفها، ومتابعتها.

٣ - الارتفاع بمقاومة التطبيع إلى درجة أعلى، عن طريق مقاومة كل أشكال التعاون الاقتصادي، والتبادل التجاري، مع العدو، في الإطار الإقليمي والدولي، وممارسة ضغوط شعبية، لإغلاق المكاتب الإسرائيلية التي فتحت في بعض البلدان العربية.

٤ - التصدي لكل مشاريع التعاون الإقليمي مع إسرائيل، بصيغها المختلفة، الشرق أوسطية وغيرها، وكل ما يستهدف تحقيق المدى الحيوي لإسرائيل، ومشاريعها التوسعية والاقتصادية، كما يستهدف الهيمنة إقليمياً، وبسط النفوذ الإسرائيلي، أرضاً واستيطاناً وثقافة واقتصاداً.

٥ - تطبيق إجراءات المقاطعة الثقافية بحزم، خصوصاً وأن بعض الاختراقات قد بدأت بالفعل -تحالف كوبنهاغن، تعاون فني أو مسرحي، مهرجانات -والعمل مع المؤسسات الثقافية الرسمية وغير الرسمية، واتحادات الكتاب والفنانين والصحفيين العرب، لتطبيق أحكام المقاطعة بشتى الوسائل.

٦ - التشدد البالغ في المقاطعة العربية لإسرائيل، وتفعيل قرارات المقاطعة لتكون حاسمة، والتنسيق مع مكاتب المقاطعة

والـسعي إلى إحيائهـا، وتـصليب دورهـا، بأشـد ممـا كـان في السابق.

٧ - توثيق كل ما صدر، ويصدر، عن المؤتمرات السابقة، واللجـان الشعبية المختلفة، من توصيات وقرارات، وتبني كل ما يـدعم عمل لجنتنا الراهنة، ويحقق أهدافها، ويسهم في رسـم الخطـط المقبلة، للجان الشعبية، في الوطن العربي.

٨ - التوسع في تشكيل لجان لمقاومة التطبيع في الوطن العربي، وبـما يشكل شبكات متصلة الحلقات.

أخيراً وليس آخراً، بل ربما كان الأهم على المدى البعيد:

٩ - وضـع خطـة عربيـة طويلـة الأجـل، للتـصدي للأدبيـات الصهيونية، المنتشرة في العالم، بدعم لا حدود له، والقائمة عـلى تزوير التاريخ، وتزييف الحقائق، وقلـب المفـاهيم، والمعتمـدة على العنصرية، وتبرير العـدوان عـلى الأرض العربيـة، والحـق العربي، والشعب العربي، وذللك بالتعـاون مـع كـل الجهـات المعنية، الأكاديمية والاقتصادية والفنية، وبالتنسيق بين اللجان كلها في اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة، وبإشراف رئيسها.

* * *

أما بالنسبة للجنة الإعلام ومهمتها فـأرى أن ينقـل البنـد ١ - نشر نشاطات اللجنة الخ... إلى نهاية البنود، وأن يضاف في البدايـة هذا النص: دعوة الإعلام العربي، بكـل فـضائياته وأدواتـه، إلى أن يأخذ دوره في معارك الأمة، وأن يتسم بوعي أكـبر، وجديـة أكـبر،

وألا يكتفي بلقطات سريعة للانتفاضة، أو بسرد بعض أخبارها. عليه أن يكون سنداً حقيقياً لها، وبكل ما هو مطلوب لأجلها، مستعيناً بمفكرين ومناضلين يمتلكون كفاءات رفيعة.

* * *

وفي خطة عمل اللجان، أرى أن يعاد النظر فيما ورد من بنود بالنسبة للجنة مقاومة التطبيع، فالعمل الأساسي فيها ليس إعلامياً إلا في جزء منه، ولابد من:

١ - تكوين فريق عمل مهمته تقصي موضوع التطبيع والمقاطعة، على الصعد كافة، ومعرفة الواقع الراهن بعد أن حدثت اختراقات كبيرة، في الوطن العربي، وأنشئت أكاديميات، ونهض كتاب وإعلاميون يدافعون عن صيغ للتعاون أو التبادل مع إسرائيل، وقام بالفعل تعاون زراعي وتجاري وصناعي، بين دولة العدو ودول عربية.

٢ - الاتصال المباشر بالجهات التي تخلت، إلى حد ما، عن المقاطعة ومارست التطبيع، وحضها على التراجع.

٣ - يبقى بند الاتصال بالفعاليات في السطر السادس كما هو ويضاف إليه: وكذلك مقاطعة المشاريع الإقليمية المشبوهة، والتعاون لكشف أبعادها ومخاطرها.

٤ - يلغى ما جاء في البند الثاني، السطر الخامس، ذلك أن وضع قائمة بالشركات ليس من مهام لجنة مقاومة التطبيع وحدها، وهو بند جزئي بالنسبة لما هو مطلوب، ويستعاض عنه بالبند التالي:

وضع قوائم بالمشاريع الإقليمية والدولية والثقافية والعلمية والتجارية والصناعية التي يراد منها ولها أن تضم إسرائيل إلى المجموعة العربية، ومتابعة الكشف عن الأسماء الوهمية التي تخفي وراءها شركات إسرائيلية أو متعاونة مع إسرائيل، كي يتم التسويق بتسميات عربية، والاهتمام بفتح أقنية مع المكتب المركزي لمقاطعة إسرائيل، والمكاتب الفرعية، ليكون التعاون معها وثيقاً، والإفادة من كل الخبرات والمعلومات المتحصلة.

٥ - استخدام كل وسائل الإعلام الممكنة ومنها الانترنت، والاستعانة بأصحاب الإمكانات الفكرية، للدعوة للمقاومة والمقاطعة، وكشف أهداف المشروع الصهيوني{مادمنا لا نسعى فقط لدعم الانتفاضة الراهنة، وإنما يرتبط عملنا أساساً بمقاومة المشروع الصهيوني}.

٦ - الحث على التواصل مع أوسع الجماهير، والإفادة من كل اللقاءات والندوات والمهرجانات، للتأكيد على مبدأ رفض التطبيع، وفرض المقاطعة، ودعم الانتفاضة، وخلق إمكانات تعامل مع وسائل الإعلام المختلفة.

٧ - تستبدل عبارة مؤتمر شعبي في البند الرابع، من الصفحة العاشرة، وتصبح: مؤتمرات شعبية عربية ولقاءات.

* * *

وفي ملاحظة أخيرة حول الإعلام ومهام اللجنة الإعلامية، أشير إلى ضرورة توفير إمكانات الوصول إلى الإعلام العالمي، وفتح مغاليقه، لطرح وجهات النظر العربية.

إن بعض الفضائيات العربية قد استحدثت أسـلوباً جديـداً، يفتح نوافـذ عـلى جماهيرنـا، للحكـام الإسرائيليـين، وللإعلاميـين والسياسيين، لطرح وجهات نظرهم، ومناقشة الوضع الفلـسطيني من خلالها، في حين أن العرب يحارَبون، إعلامياً، في الإعلام العالمي - إلا فيما ندر - وفي إعلامنا العربي، في كثير مـن الأحيـان، ضـمن مماحكات ومخاوف، ولابد من بذل جهود خاصة، كي نجعل العـالم ينفتح علينا ويـصغي، وإعلامَنـا العـربي يوسـع في فـسحة الحريـة، ليكون صوت الضمير العربي، والمعبر عن جماهير الأمة.

ورقــة عــمــل(*)

الضيوف الأعزاء

أيها الأصدقاء

أرحب بكم رجال فكر وثقافة وسياسة، واجد في لقائنا هـذا، على هامش مهرجان التضامن مع الانتفاضة، فرصة ثمينة، تتيح لنا أن نتدارس الوضع العربي بعامة، والفلسطيني بخاصة، في ظـل مـا فرضته أحداث الحادي عـشر مـن ايلـول مـن مـستجدات كبـيرة، ومتغيرات لم تكن في حسابنا قبل الأحـداث، وكـان مـن شـأنها أن تضع منطقتنا في دائرة الخطر، بعد أن وضعت العروبة والإسلام في قفص الاتهام، وطالت كل مـن ينتمـي إلـيهما في أوروبـة وأمريكـا ومناطق أخرى من العالم.

لقد كان ما جرى أليماً وحزيناً، أصـاب العـالم أجمـع بـما يـشبه الذهول، لكن ردّ الفعل الأمريكي كان أعنـف وأخطـر، والحـشود

(*) ألقيت في مؤتمر اللجنة العربية لدعم الانتفاضة بعد أحداث ١١ أيلول - كورقة عمل - دمشق، ٢٠٠١.

العسكرية التي تُعدّ، تُجاوز بما لا يقاس مفاهيم مكافحة الإرهاب، وتنذر بشن حرب لا يستعصي عليها شيء، وتعني فرض هيمنة مطلقة على العالم.

معنا أو مع الإرهاب، تلك هي المسألة، من وجهة النظر الأمريكية.. الأرض مباحة، والمطارات مباحة، والقواعد العسكرية كلها مباحة أيضاً، ونحن متهمون، ومدعوون في الوقت نفسه للمشاركة بما يشبه الابتزاز، خياران هما: الدخول في حلف معهم لمكافحة الإرهاب، أو الوقوف على الضفة الأخرى. تسليم من ترى أمريكا أنهم إرهابيون، أو تعريض البلدان لعدوان لا يدّخر مدنيين أو غير مدنيين.

والحرب التي يعلنونها ستستمر سنين طوالاً، كما يقولون، والقرار لا يحتاج إلى بينات..

وليس هناك شيء اسمه المقاومة.. كل ما يمس المصالح الأمريكية ووجهات النظر الأمريكية، مدان يدخل ضمن علامات الإرهاب، ولا نكوص..

والأسئلة تترى، ماذا وراء كل هذا؟ ابن لادن يستحق هذه الحشود؟ أم هي فرصة للسيطرة، أو محاولة السيطرة، على منابع الطاقة في آسيا الوسطى والقوقاز، وممارسة إرهاب الدولة لفرض الهيبة المستعلية على العالم؟

وإسرائيل أيضاً تستعلي أكثر، وتستفرد بالفلسطينيين «الإرهابيين» حسب تعبيرها، دون خشية أو حرج من تعرض

لمواجهة دولية، من أي نوع.. ونواجه نحن هذه الهجمة في فلسطين اعتداء وقتلاً وتدميراً، وفي بلدانا المختلفة اتهامات وتهديدات، ومحاولات استمالة ابتزازية لنكون في الركاب، ثم لا نعرف الطريق إلى رأي جميع، لا نلتقي حتى في الحدود التي يفرضها الوضع الخطير المستجد، كي نحدد موقفاً مشتركاً نلتزم به، ونستقوي على الأقل، فنحن بالفعل على حدّ الحدّ، ولا سبيل لمجابهة المنطقية إلا بالموقف العربي الموحد الذي يلتزم بالعقلانية، في محاولة لانتصار «ثقافة الحياة على ثقافة الموت».

الأسئلة المطروحة كثيرة، على العالم وعلينا.. كيف نكافح الإرهاب؟ بالمزيد من الإرهاب؟ أم بالبحث عن أسبابه الكامنة في ممارسات الاضطهاد والعدوان واستلاب الحقوق وقهر الشعوب، تماماً كما يجري في فلسطين، أو تلك التي تنطلق من البؤس الذي يجتاح العديد من دول العالم، ويتجلى بالفوارق الكبيرة بين الشمال والجنوب، وحتى بين أبناء الدول الغنية؟

ونحن، مرة ثانية، أين هي مواقعنا؟ هل سيشلنا الخوف وننتظر؟ هل سنلتقي على موقف واضح، صلب، يطالب فعلاً بالعدالة، وبوقف الهجمة التي نتعرض لها بغير وجه حق، كما يطالب بالقضاء على الإرهاب الإسرائيلي في فلسطين؟

لقد ارتفعت، بعد أن زال أثر الصدمة الأولى أو خفّ، في بلدان مختلفة، أصوات كثيرة تنادي بالتعقل، وتناشد أمريكا ألا تلجأ للحرب والقتل والتدمير، وأن تلتزم بالعقلانية التي يفترض

بالدول الكبرى أن تمارسها، في الظروف الصعبة والحالكة.. أصوات نتمنى أن تشتد وتستقوي..

أين نحن من هذا كله؟

وكيف ندافع عن توجهاتنا في الحرص على السلام العادل، ودفع العدوان، والحفاظ على الكرامة الإنسانية، وإنقاذ الشعب الفلسطيني المستلب المضطهد، من معاناته البالغة؟

ما هي تصوراتنا للمقبل القريب، للنضال العربي بعامة، للوضع الفلسطيني بخاصة، للمقاومة الوطنية والانتفاضة، أمام ممارسات العنف الهمجي المتواصل؟

أسئلة كثيرة يمكن أن نطرحها، بل نحن مدعوون إلى طرحها، وظني أننا سنتبادل وجهات النظر حولها، ونتدارسها، على أمل أن نرسم بعض الخطوط التي تستمد قوتها من أرائكم السديدة، وحرصكم النضالي على شد الآصرة، وفولذة العزم، بما يجتاز بنا مرحلة هي من أصعب المراحل، وأشرسها، وأشدها خطورة بالتأكيد.

الثقافة العربية
جامعة أمة عربية(*)

لا شيء كالثقافة، في عصرنا هذا، سبيلاً إلى التواصل الإنساني، ولا شيء، في عصرنا هذا، جامعاً للروابط القومية كالثقافة أيضاً، ونحن في أيام الثقافة العربية السورية هذه، في بلدكم الشقيق والتوأم، لسنا طلبة تواصل إنساني، ما دام نسغه في الدفق من عروقنا، وصورته في القسمات من وجوهنا، ومكانه بين القلب وغشائه، لحمة عربية عضوية لا انفصام لها، وتوحداً في الأخوة، ماضياً وحاضراً، عجزت كل غاشية مرت بنا، أن توهن من وحدته التي نسيجها لغة مشتركة، وتاريخ مشترك، وكفاح مشترك، بين مشرق ومغرب، هما جناحا أمتنا العربية، في ارتفاعها على الشدائد، وفي قهرها لها، وفي البذل عطاء دم، امتزج في مثار النقع من معاركنا، وأضاء في حلكة النزال، طلباً للاستقلال الذي أردناه فكان، عنوة أخذ، لا منة عطاء.

كذلك، لسنا في أيام الثقافة هذه، وعلى اسمها المعرفي، نشدة روابط قومية كانت، منذ كان الشعور القومي، بدءاً لا انتهاء له،

(*) في افتتاح أيام الثقافة السورية في المغرب - ١٩٩١.

وآصرة عروتها الوثقى عهد تنزل في محكم الآيات، وسيرورة انطلقت من الجزيرة العربية، أعلامها كتبها، وإيمانها انبلاج هديها، وعزمها وثوق بالله والفتح والنصر، وتعبيرها في قولة القائد العربي عقبة بن نافع، وهو يواجه بحر الظلمات هنا، على الشاطئ المغربي هذا: «اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً، وإنك لتعلم أني أطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين، وهو أن تعبد ولا يشرك بك، اللهم لو كنت أعلم وراء هذا البحر أرضاً لخضته إليها في سبيلك»، وقد خاضه، بعده، طارق بن زياد، فتحول بحر الظلمات إلى منارات تتلألأ بأضواء العبور من ضفة إلى أخرى، والسفن إلى حرائق لها سيرة مجيدة في غزواتنا.

إذن في معنى المعنى هذا، نأتيكم رسل منبر ثقافي في دمشق، إلى منبر ثقافي في الرباط، ونحن على علم مسبق بعلماء وأدباء وشعراء المغرب، من ابن طفيل، إلى ابن رشد، إلى عبد الواحد المراكشي، إلى الشاعر ابن حبوس، إلى الرحالة ابن بطوطة، الذي دوّى صيته في الدنيا، فكان فخركم وفخرنا على السواء.

هكذا تغدو الثقافة العربية جامعة أمة عربية، تمد حبل الأمل، وتعزز الثقة، في هذه الظروف الصعبة التي يمر بها وطننا العربي، كما تعلمون ونعلم. ولأن الثقافة على هذه الدرجة من الأهمية، فإننا نرعاها رعاية ذات تمايز، تبلغ بنا أن نشعل أصابعنا شموعاً لها، من فرط حرص وتوكيد، وننفتح بها على عالمنا الرحب هذا، انفتاحاً قبسناه عن أسلافنا، ونريد أن نطوره ونزيده ثراء، لنا ولأجيالنا، كي

نجاري به العصر، بين عطاء وأخذ، وضمن رؤية مستقبلية، تحول بيننا وبين السقوط في وهدة اليأس، وترتفع بنا عن دونية الاندهاش المذل، أمام ما نرى من تقنيات الغرب وحضاراته الكبرى، لأننا، نحن أيضاً، من أصحاب الامكانات الثقافية والإبداعية الكبرى، ومن أصحاب الحضارات العريقة الكبرى، وقد طلعنا بها على الدنيا قديماً، وفي وسعنا، دون ميل إلى المغالاة، أن نطلع بها كرة أخرى على الدنيا، بما نسهم به من قسط ثقافي وحضاري، في حاضرنا ومستقبلنا على السواء..

إننا لا نغتر، ولدينا من الحذر ما يجنبنا الغرور، لكننا لا نتطامن، فالثقافة العربية، بما هي مسئولية في حالنا الراهن، هي مسئولية في حالنا المقبل، وهذه الثقافة تملك قدرة اختراق بوابة المستقبل، بالنسبة لنا وللبشرية، ولديها من الإمكانات ما تبرهن به على أنها كفؤ للتحدي، ففي كل جديد من الأيام، يثبت الواقع أن الثقافة، بما هي جماع النشاط الأدبي والفكري والفني والسلوكي للإنسان العربي، تغدو ضرورة للتنوير الذي يمهد فكرياً للتغيير المنتظر نحو الأفضل، هذا التغيير المتمثل في جبه عدوانية الصهيونية، والإصرار على الغلب في قراعها، وجبه الغرب في سياساته المعادية، وتقبل معطياته التقنية والحضارية المفيدة.

ذلك أن الموقف أمام هذا الإشكال، يتطلب التفريق بين ثقافة وثقافة، غربية كانت أم عربية، بسبب من أن العقلية الاستهلاكية المبددة للطاقات، قد تسربت إلينا عبر قنوات الاقتصاد والإعلام

الغربيين، ولا عاصم لنا من شرور هذه العقلية سوى التفريق، في تلقي الثقافة وأدائها، بين ثقافة منتجة وثقافة مستهلكة، بين ثقافة تبني وأخرى تهدم، وكذلك بين ثقافة توحد أمام المحنة، وثقافة تشتت أمام المحنة ذاتها.

نقول ذلك ونحن على دراية تامة، بأننا لا نأتي بجديد، فالأزمة على فرض وجودها، هي الأزمة القائمة، والتي تتداولها الدراسات. وهي أزمة سياسية وثقافية، اجتماعية وحضارية، ولئن كان من شأن السياسيين وعلماء الاجتماع، أن يعالجوا ما هو في حكم المعضلة السياسية والاجتماعية، فإنه من شأننا، نحن المسئولين عن الثقافة العربية، معالجة الأزمة الثقافية المفترضة التي تؤدي إلى اغتراب المثقف العربي، والتي تتفاقم، نتيجة ضيق الحيز الديموقراطي في هذا القطر العربي أو ذاك، وكذلك نتيجة الافتقار إلى المزيد من جو الحرية التي لا تزدهر الثقافة إلا معها وفيها.

تأسيساً على هذا، لا مندوحة لنا من الاعتراف بأن هناك ما يشبه الإشكالية، في تكون العقل العربي الحديث، وهناك إشكالية في موضوع هوية المثقف العربي وانتمائه، ولن نبلغ أن نتغلب عليهما إلا بالحوار الديموقراطي المفتوح، وبالجدل الذي لا يصادر فيه الرأي الرأي الآخر، وباليقين الذي ينفي إيجابه سلبه، في النظرة العلمية الواعية إلى نتاجنا الثقافي، وإلى دور المثقف فيه، مادمنا نعترف أن هذا المثقف هو المفكر الفاعل في تشكل العقل العربي، وترسيخ الانتماء العربي، واستعادة الهوية العربية، وإحداث التغيير الفكري

والاجتماعي الذي أصبح ضرورة في حياتنا الراهنة، ومهمة رئيسية من مهام ثقافتنا التي تطمح إلى الريادة، ونريدها كذلك.

إنما علينا، في هذا المجال، أن ننتبه إلى أمرين: الاستغراق في التراث ككل، أو الافتراق عنه ككل. فقد أصبح من النافل القول أنه لا حداثة جديدة دون أصالة قديمة، ولا استمرارية بغير اتصالية، فالجذور المنبتة، تعطي فكراً منبتاً، يحوم في فراغ، دونما ارتكاز على واقع، ومن المؤكد أن من يرفض ماضيه الفكري، يفقد، تالياً، مستقبله الفكري، ومن لا يهتم بالماضي الموضوعي، لا يهتم بالمستقبل الموضوعي، وفي هذه النقطة يكمن خطر انفصام المثقف عن مجتمعه، وتخليه عن دوره في قيادة هذا المجتمع، الذي يبحث عن ريادة قيادة فكرية له، تهديه إلى طريق التخلص من تخلفه، وطريق احتضان تقدمه، ونصرة هذا التقدم في وجوهه كلها.

وإذا كان التعميم يتجسد على نحو أمثل في التخصيص، فإنني أشير، ههنا، إلى ظاهرة معروفة لديكم كما لدينا، وهي تستعلن في هذا التباعد الثقافي، تبادلاً وتفاعلاً، بين مشرقنا ومغربكم. صحيح أن هناك منظمة عربية للتربية والثقافة والعلوم، وهناك مؤتمر دوري لوزراء الثقافة العرب، وثمة خطة عربية شاملة للثقافة العربية، وتوصيات ومقررات، وكذلك ندوات ومهرجانات، يلتقي فيها ومن خلالها المبدعون العرب، في سائر الأجناس الأدبية والفنية، إلا أن الكتاب العربي، في انتقاله بين تخم وتخم، من حدود أقطارنا

العربية المتجزئة، والمتفرقة كجزر متباعدة، متنافرة، يصطدم بكثير من العقبات، بعضها ناشئ عن الرقابة، وبعضها عن الحواجز الجمركية، وثالثها عن تباعد أنظمة النقد، ورابعها عن التسويق، وإني لأتصور أن الكتاب المشرقي يصل إليكم بسهولة، وبكثرة، بينما الكتاب المغربي، أو الصادر في إحدى الدول المغربية، لا يصل إلينا بهذه السهولة أو بهذه الكثرة، بل إن وصوله نادر، وربما معدوم، إذا لم ينشر في بيروت أو غيرها من عواصم الدول العربية المشرقية. هذا مثل واحد له أشباهه، ومثل هذه الصعوبة في انتقال الكتاب، تنسحب على انتقال الفيلم السينمائي والعرض المسرحي وغيرهما، ولابد من تذليل هذه المصاعب بقرارات سياسية، لا ثقافية فحسب، كي يتيسر لنا أن نرى ما لديكم، وتروا ما لدينا، ونسمعكم محاضرين ومنتدين ومتحدثين ومناقشين في الشأن الثقافي الذي يلعب، في التنوير والتثوير المطلوبين، دوراً تغييرياً حقيقياً وجذرياً، في الوطن العربي كله.

وبانتظار أن نبلغ من تبادلنا الثقافي هذه المرحلة المتقدمة، لا مندوحة لنا من اعتماد وسائل أخرى في هذا التبادل، كالمهرجانات والندوات والأيام الثقافية، بما فيها من عروض تتناول بعض أوجه النشاط الثقافي، كأيامنا الثقافية المقامة لديكم، بدعوة كريمة منكم، وتلبية حارة منا، تبنّاها ورعاها ودفع إليها الرئيس حافظ الأسد، كما تبنى الدعوة ورعاها ودفع إليها جلالة الملك الحسن الثاني، وهما قائدان مرموقان لبلدينا، لهما من رباط الأخوة

والتضامن والتكامل ما يوطد علاقاتنا، على كل الصعد، وفي سائر الميادين، وهذا التعاون الأخوي بيننا، ثقافياً وغير ثقافي، مرده إليهما معاً، وإني لأغتنم هذه المناسبة لأنقل إلى جلالة الملك الحسن وإلى الشعب المغربي الشقيق، وإلى الحكومة المغربية، تحيات الرئيس حافظ الأسد، هذا القائد الذي يولي المجابهة مع العدو اهتمامه، والتحرير دأبه، والصمود ما يتطلب من إعداد، ومع كل هذه المشاغل يجد، أو يقتنص، هو المثقف رفيع الثقافة، من الوقت ما يتيح له الاهتمام بالثقافة ورجالها، اهتماماً فائقاً، كان من شأنه أن أرسى للثقافة دعائم نهضة ثقافية في سورية، تتساوق وتتكامل مع نهضتنا الشاملة، في كل أصولها وفروعها، مما يعطي لتحياته الحارة المزجاة إليكم، في هذه المناسبة الاحتفالية، دلالة سياسية وثقافية معاً، تحمل في ذاتها مغزى عميقاً، فيه إعزاز للأخوة المتواشجة بيننا، إعزاز هو الجوهر وما عداه العرض، وهو الفكر رفيعاً يهدي في تجلياته سلاماً عطراً إلى كل المثقفين والمفكرين العرب بعامة، وإلى المثقفين والمفكرين المغاربة بخاصة.

إن زرقة البحر على شاطئ المتوسط، هي لكم بمقدار ما هي لنا، ونعميات مياهها تحمل موداتنا المشتركة، في وشوشات الأمواج إلى الرمال، ونحن نسمعها، ونندى لها، ونعزها، ولا نشك أنكم في هذا مثلنا، يحدوكم التوق، فتجعلون من قناديل المجرات مصابيح، أضواؤها اللألاءة تحمل بعض مشاعركم النبيلة إلينا، فنتقبلها ونرد بمثلها، مستشعرين التقصير في بلوغ ما يزيد عنها، فالفيض في عاطفة الأخوة هو فيضكم المعروف والمأثور.

وإذ نـــأتيكم في موكـــب الثقافـــة، فإننـــا نـــأتيكم في زورق الأسطورة، كلمتها الطيبة مفتاح بابها المرصود، وفي داخلها تهاويـل رؤى، لها من الجنان وشيها، ومن أندائها عطرها، ومن ترفها اللوني أزهار أيكتها، غير أننا، وهذا إلى الصدق مرده، نأتيكم عـلى وجـل، فأن نقول الثقافة نقول المنتهى، والمنتهـى دون بلوغـه شـأو عـسير، لكننا نياسر، وفي هذا بعض الرجاء، في أن يكون ما لدينا من فنون، يقابل ما لديكم من فنون، أنتم مبدعوها وبناتها وحماتها والرافعـون صرحها أعلى فأعلى.

المغرب في دمشق(*)

الضيوف الأعزاء

أيها الإخـوة

أن نرعى الثقافة، فكأننا نرعى لؤلؤة، محارتها عطاء بحر كريم، وحده قادر أن ينبت في جفنين من صدفة غائصة في الأعماق، زهـرة نادرة، مخبأة في حرز مـسحور، حيـث يحـسب الـيم ألا سـلطة ولا طاقة، لإنسان اليابسة، أن يستبيح مملكة الماء، وينتزع من تاج الملكة درتها الأجمل في الدراري.

هكذا الثقافة، عطاء تاريخ، في مدى التاريخ، هي الـدرة التـي نزهو بها، لأنها اللؤلؤة التي تسطع ألقـاً، منـه مجـد الـوطن وشرفـه وعنوانه، وسفارته إلى جميع الأوطان، حين السفارة، في دنيانا، لسان مبين، ونطق سديد، وصياغة رسالة، تتجلى فصاحة عـلى الـشفتين، وبياناً في الورق، وإبداعاً في الخطـاب، ونجـوى جارحـة لأخـرى، وبوح ضمير لضمير، ورسول قلب إلى قلب.

ومع أن كل معنى له كلمة تحمل هـذا المعنـى، وكـل اسـم لـه دلالة تشخص هـذا الاسـم، فـإن الثقافـة، في تعاريفهـا، أعجـزت

(*) في افتتاح أيام الثقافة المغربية في دمشق ١٩٩٠.

التعاريف، فهي تفيض عنها، وتتفلت من تحديداتها، وتتسع لكل وصف، وتستوعب كل نعت، ثم يظل فيها مجال للقول، باعتبارها نتاج فكر وسلوك، بهما أزلاً وأبداً، كان هذا العالم عظيماً، وكان رائعاً، وكان رفيفاً، ينداح من النفس المبدعة، ثم يتوزع في أجناس من الأدب، وأشكال من الفن، تأخذنا إليها، وتأسرنا في دائرتها، وتستولي علينا، استيلاء فرح، وإعجاب، ونشوة، من العبث أن نحاول سبرها، أو نسعى لتفسيرها، أو نعمد إلى تأطيرها، أو تحديدها، بالألفاظ التي سرعان ما تتهرأ لكثرة تداولها، وتهرم، وتشيخ، وتبقى الثقافات شابة، ما بقي الدهر فتياً، بسبب من أن الثقافة تعطي للدهر أن يكون بها دهراً آخر، جديداً، لطيفاً، لا نحس بوقع زمنه الفاجع، ويعطي الدهر للثقافة أن تكون به ثقافة شمولية، ننعم بحلاوتها، ورحابة أفقها، وعذوبة ألوانها، وغنى تنويعاتها، ونراكمها، جيلاً بعد جيل، ونورثها بعدنا جيلاً بعد جيل، كنزاً لا ممنوناً ولا منقوصاً.

من هنا يتملكنا ذلك الإحساس البهيج، الممزوج بالتوقع الحالم، والغبطة السابغة، كلما كان لنا مع الثقافة، في تجلياتها، موعد جديد وعطاء جديد، ومن هنا إحساسنا هذا اليوم، ونحن على موعد مع أيام الثقافة المغربية، ذات الأصالة والغنى والإبداع، وذات الماضي العريق، بكل ما يحمله من نعمى التراث، ونعمى الحداثة، ونعمى التجديد، وبكل ما يزخر به من أناقة الأداء، واكتناز المعرفة، وروعة المتعة، وجلال السفارة، بين قطرين

شقيقين، لهما في التاريخ روابط متينة، عراها الوثقى عصية على الانفصام، ولهما في الحاضر هدف مشترك، إلى الوحدة ينتمي، وإلى التضامن ينتسب، وإلى الحفاظ على الوجود والمصير مأتاه ومغداه معاً.

وإذا كنا نرحب برسل الثقافة المغربية ترحيباً قلبياً حاراً، في وطنهم سورية، وبين أهلهم وإخوتهم، فإننا نعرف لهذا الترحيب الثقافي حقاً، له من ذاته فرادة، ومن معدنه صياغة، ومن واجبه طلاقة، تتعدى كل شكليات الترحيب المعتادة، لأنه ترحيب نسيجه الإبداع، وما بعد الإبداع من شيء، فهو المبتدأ والخبر، وهو الجامع المانع، الذي في تنوع مجالاته الثقافية، يؤكد، مرة أخرى، أن الوحدة الثقافية قائمة وباقية، وأنها أملنا وسبيلنا وقصدنا، في السير المحتوم نحو وحدتنا العربية السياسية المحتومة.

ولقد أفادت وحدتنا الثقافية من تبادلنا الثقافي، وهذا ما عززها ورسخها، وانطلاقاً من هذا المغزى الوطني والقومي، نياسر إلى مزيد من التلاقي، ومزيد من التبادل، ومزيد من المشاركة في الأنشطة الثقافية المتعددة والمتنوعة، سواء في الأيام الثقافية المتبادلة، أو الندوات والمهرجانات، أو الزيارات المكرسة للمحاضرات والأمسيات الأدبية والفنية، وفي هذا المجال نحن على استعداد دائم للعمل المشترك الذي يتيح للتلاحم الثقافي العربي القومي أن يبرز حقيقته، ويثبت حقيقته، كي نرتفع إلى المستوى الذي يجعل من الوحدة الثقافية دعامة وطيدة من دعائم النهضة العربية، الفكرية

والثقافية، في عصر التنوير الذي ننشده، لوصل ما انقطع من خيوطه، وما تراخى من وشائجه، وما غاب أو غيب، بفعل الأحداث، من أثره وخطره معاً.

وكما تطمحون، أيها الأشقاء، في المملكة المغربية الشقيقة إلى المزيد من حرية الإبداع، نطمح، نحن أيضاً، في الجمهورية العربية السورية، إلى المزيد من حرية الإبداع، ومن إتاحة الفرصة للمبدعين كي يعملوا في جو من الطمأنينة الوجدانية، والراحة النفسية، وشعارنا في ذلك مقولة قائدنا الرئيس حافظ الأسد،«لا رقابة على الفكر سوى رقابة الضمير»، وإني لأؤكد أن هذا الشعار المطبق تطبيقاً دقيقاً، قد وفر، لا جو الحرية للإبداع فقط، بل وسائله أيضاً، وهذا هو السبب في أن دمشق، بما تقوم به من أنشطة ومبادرات ثقافية، قد غدت مركزاً من مراكز الإشعاع الفكري، في الوطن العربي، وهي ماضية في سبيلها هذا، مسهمة إسهاماً كبيراً في العملية الإبداعية، إيماناً منا أن الأدب والفن العربيين، هما أدب وفن قوميان، فالمحلية والخصوصية، لا تجعلان الأدب أو الفن قطريين، لأنه ليس هناك، ولن يكون، إلا أدب عربي قومي وفن عربي قومي، وثقافة عربية قومية، تصب الجداول المحلية والقطرية، في بحيرتها القومية التي لا حد لاتساعها وعمقها وشموليتها وطاقتها على الاستيعاب.

لكن المثقف العربي، وهو الأساس في إنتاج الثقافة، مثلما هو دعامة من دعائم نهضتها، جدير بأن نوفر له الأسباب الكفيلة بأن

يعمل وهو ناعم البال، معيشة، وحرية، وإمكانية، وأن نحصنه من الأذى، كي يقوى على دفع الأذى، عن وطنه وشعبه وأمته، وأن نفسح له كي يقول ما يريد قوله دون خوف. ذلك أن المثقف ثائر بحكم دوره التاريخي، يعي أن الثورة هي صنع المستقبل، ودون مشاركته لن تكون هناك ثورة، ولن تكون هناك نهضة، ولن يكون هناك نصر، وأن عليه أن يجبه الظلم في سبيل العدل، والتخلف في سبيل التقدم، والتبعية في سبيل الاستقلالية، والظلام في سبيل النور، والواقع السيء في سبيل الواقع الجيد، الأفضل والأكرم.

أعترف. هذه الحقائق، بمقدار ما هي حقائق، ليست مجهولة من أحد، ويبقى أن ننقلها، من حيز الكلام إلى الفعل، وهذا هو الجهد المشترك الذي ينبغي أن ينهض به المثقفون العرب جميعاً.

أرحب بالضيف الصديق وزير الشئون الثقافية المغربية، والوفد المرافق في دمشق، وسورية، وكل بقعة من هذا القطر، وأغتنم هذه المناسبة كي انوه، بما يتحلى به السيد الوزير من ثقافة واسعة، وعلم غزير، وخلق كريم، ودفاع معروف عن الثقافة وأهلها، إيماناً منه أن الكلمة والحق، كما القلم والسيف، في عناق أبدي، ،ان الفكر يحمل حصانته في ذاته، وجواز سفره في يده، وليس ثمة من حواجز تحول بينه وبين أن يبلغ الشأو الذي يريده، وأن يحقق الغاية التي يصبو إليها، وهي منح الرؤية للناس، جميع الناس.

أيها الاخوة القادمون من شواطئ الأطلسي،

أهلاً بكم في سورية، وأصدق التمنيات في أداء ثقافي ناجح، عبر كل النشاطات التي ستقدمونها والتي نحن على ثقة بأنها ستحمل إلينا الفرحة والمتعة والمعرفة والخبرة، هذه المضامين التي هي المحتوى لكل ما هو رائع في الفن، الذي مجده فوق كل الأمجاد.

إسهام التربية في التنمية الثقافية

«توصية صادرة عن اليونيسكو»(*)

اطلعت وزارة الثقافة في الجمهورية العربية لسورية، وباهتمام كبير، على المشروع الأولي للتوصية رقم ٧٨ الموجهة إلى وزارات التربية والثقافة بشأن إسهام التربية في التنمية الثقافية، والصادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونيسكو)، ودرسته بدقة وعناية، آخذة في اعتبارها ضرورة الإسهام في مناقشة هذا المشروع، وصولاً إلى تقديم ملاحظات قد تكون مفيدة في تطويره وإغنائه، وكذلك في تقديم تصور عن دور التربية والثقافة في سورية، ومدى التفاعل المتبادل بينهما، والنشاطات التي تقوم بها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، فيما يتعلق بجوانب المشروع الأولي، وسعيها الحثيث والناجح في تحقيق أكثر ما تشير إليه عناوين المشروع المذكور، سواء لناحية التربية والثقافة، أو

(*) عقد في جنيف المؤتمر الدولي للتربية بين ١٤ و١٩ أيلول ١٩٩٢، ودعي إليه وزراء التربية والثقافة. لكن ظروفي لم تسمح لي بالحضور، واكتفيت بإرسال الموضوع المرافق بناءً على طلب الجهة الداعية.

للصلات المؤثرة والمتأثرة بينهما من جهة، وبين التنمية وحماية البيئة من جهة ثانية.

إن مفهومنا للثقافة يتحدد، وطنياً وقومياً، إنسانياً وعالمياً، بأن الثقافة هي جماع النشاط الذهني واليدوي للإنسان، في إطار المجتمعات البشرية كلها، وأن الثقافة، في المعطى الشامل لها، هي نتاج هذا النشاط العقلي والجسمي، وان النظرة إليها ترتكز إلى ضرورتها كغذاء روحي للإنسان، وليست ترفاً مضافاً إلى الترف الروحي عنده، لذلك كان على الثقافة أن تسهم في بناء المواطن قومياً ووطنياً، نفسياً وخلقياً، اجتماعياً وإنسانياً، انطلاقاً من كون ثقافتنا ثقافة شمولية، وطنية، قومية، إنسانية، تقدمية، منفتحة على جميع الثقافات العالمية، في مجرى التفاعل والتبادل المتكافئين بينها كلها، وفي أرحب مدى التبادل والتكافؤ والاحترام، على أساس العمل المجدي في سبيل ضمان أمن الشعوب واستقلالها وحريتها وتقدمها، ودفع العدوان والظلم اللاحقين بها، وإحلال السلام العادل في سبيل غد أفضل للبشرية كلها، السلام الذي تنتفي معه الحروب والاعتداءات، وتسوّى النزاعات الإقليمية تسوية عادلة، تستند إلى قرارات الأمم المتحدة والشرعية الدولية.

لقد كانت الثقافة منذ كان الإنسان، وتطورت، تدريجياً، منذ بدأ يعي وجوده وما حوله، ويعبر عن ذلك بالصوت والحركة، ثم بالنشيد للزرع، واصطناع الأدوات الحجرية البدائية للانتفاع بها، واستمر هذا التطور الثقافي عبر الأنظمة الخمسة التي عرفتها

البشرية، وعندما اكتشف هذا الإنسان الحرف، وتشكلت منه لغة، بدأت مرحلة جديدة في تطور الثقافة، يرفدها التعلم والتعليم، فكان هذا منطلقاً رحباً للتبادل المتقابل، حيث أضاف التعليم للثقافة، واستمد منها، وظل هذا التفاعل مستمراً، مشكلاً عنصراً أساسياً في إنماء الثقافة والتعليم كليهما، إلى أن بلغا، عبر الاكتشافات المذهلة للعلم، آفاقاً بغير حدود، في القرنين التاسع عشر والعشرين، وخاصة القرن العشرين، بما أحدثت الثورة التكنولوجية، ومعها الثورة المعلوماتية، من قفزات فاقت كل توقع، في حقل المعرفة الإنسانية.

إننا، في الجمهورية العربية السورية، ومنذ ثورة الثامن من آذار ١٩٦٣، توسعنا في التعليم، بكافة مراحله، توسعاً شكّل طفرة عامة، ومنذ عام ١٩٧٠، اتخذت هذه الطفرة التعليمية صفة الشمول، ويمكن أن يقدم تقرير وزارة التربية السورية، للمؤتمر الدولي للتربية، الذي سيعقد في جنيف بين ١٤ -١٩ أيلول ١٩٩٢، بياناً مفصلاً في مجال التعليم وفروعه كلها، يشكل وثيقة متكاملة، لذلك فإنني سأعرض، في كلامي على الثقافة، وبتكثيف وإيجاز، أهم المنطلقات الثقافية، في حقول نشر الكتب المؤلفة والمترجمة (حوالي مئة عنوان في العام) وتحقيق نشر التراث، والتوسع في إنشاء المراكز الثقافية (٨٢ مركزاً في الداخل و٣ مراكز في الخارج)[١]، وفي المسارح التي لدينا منها أربعة: المسرح القومي، المسرح التجريبي،

(١) تجاوز عدد هذه المراكز في نهاية التسعينات الثلاثمائة في كافة أرجاء القطر.

المسرح الجوال (الذي يتنقل في كل أنحاء الريف) مسرح العرائس للأطفال، وكذلك في مجال السينما التي تنتج عشرات الأفلام الروائية والقصيرة والتسجيلية في العام، ومجال المتاحف والآثار، والعدد الكبير من بعثات التنقيب الوطنية والأجنبية، وإحداث متاحف عديدة في عواصم المحافظات السورية، وكذلك المسارح والمكتبات، وتدوين وفهرسة الوثائق والمطبوعات، والمخطوطات وترميمها وحفظها، إلى مراكز الثقافة الشعبية، وفرق الفنون الشعبية، ومكتبة الأسد الحديثة والضخمة جداً، التي تتسع لستة ملايين كتاب، والمجمع المسرحي الكبير الذي هو قيد الإنجاز[1]، والمدينة السينمائية التي شرعنا ببنائها، إلى المعهد العالي للموسيقا (غربية وشرقية)، إلى معهد الفنون المسرحية الذي يعد ويخرّج مئات الفنانين منذ سنوات، إلى مديريات ومؤسسات ثقافية أخرى، تابعة لوزارة الثقافة التي ترفع شعار «الثقافة للجميع وفي خدمة الجميع» وتطبقه تطبيقاً كاملاً.

ومما تقدم، يمكن إيراد الملاحظات التالية:

١ - ثقافتنا ذات نزعة إنسانية وعالمية، وهي للجميع، كما التعليم للجميع.

٢ - التقدم في مكافحة الأمية ومحوها بنجاح، عن طريق تعليم الكبار في كل أنحاء سورية، ومنع تسرب الأطفال من التعليم

(١) تم إنجازه ليشكل دار أوبرا ومجمعاً للثقافة والفنون.

الابتدائي (وخاصة في الريف) تحت طائلة العقوبات القـضائية بالنسبة للأهل.

٣ - إدراك المتغـيرات العالميـة في مجـال التكنولوجيـا والمعلوماتيـة، والعمل وفق متـضمناتها لتجديـد القـيم التعليميـة والثقافيـة، وإصلاح التعلـيم بـشكل يتوافـق مـع بلوغنـا مـشارف القـرن الحادي والعشرين.

٤ - الأخذ بأحدث تعريفات الثقافة، وما فيها مـن سـمات روحيـة ومادية وفكرية وعاطفية، تنسجم ومتطلبات مجتمعنا بكل فئاته، وتشمل الآداب والفنون وطرائق الحياة الاجتماعية السلوكية.

٥ - الربط بين الثقافة والتنمية، والإفادة مما تضيفه إلى ثراء الإنـسان ونوعية حياته الهادفة نحو الأفضل.

٦ - التبادل الثقافي مع كـل دول وشـعوب العـالم، وبـشكل متـسع باطراد وتطـور دائمـين، عـلى أسـاس التكـافؤ والنفـع الثقـافي المتبادل.

٧ - اعتماد التنوع الثقـافي، عـلى أسـاس التفـاهم والتفاعـل المثمـر والمتبادل، انطلاقاً من التعددية الحزبية والسياسية والاقتـصادية التي ترتكز إليها سياسة سورية داخلياً وخارجيـاً، مـع ممارسـة نظرية وتطبيقية منسجمة وفعلية.

٨ - التنسيق المستمر والخلاق في سياساتنا التنموية للتربية والثقافة، وإدراك مدى أهميـة التعلـيم في تـأمين حريـة المـواطن، وتلبيـة حاجته إلى العلم والتكنولوجيا، بغية التحـرر الـوطني والتقـدم

الاجتماعي، وللإسهام في الشوط الحضاري العالمي، وإثرائه عن طريق الثقافة، بكل نتاجاتها وروافدها.

٩ - ربط التربية والثقافة بالتنمية بشكل أوثق دائماً، عبر التنسيق بين سياسات التربية والتعليم والثقافة، وتعاون مؤسساتها تعاوناً متسقاً ومتكاملاً.

١٠ - الاهتمام، وإلى حد بعيد، بإحياء التراث المعرفي العربي والإنساني، والتعريف به تعريفاً يتصف، ويستند، إلى الحداثة ومعطياتها.

١١ - الحرص على تعليم اللغات الحية، في كل مراحل التعليم، واستخدامها في كل نتاجات العملية الثقافية، مع أخذ موضوعة التربية الجمالية والفنية والتذوقية ورفع مستواها، في اعتبارات التعليم والنتاج الثقافي وما يتصل بهما من حقول واختصاصات.

١٢ - الربط المحكم بين الثقافة والتنمية، إدراكاً منا لأهمية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، التربوية والثقافية، ولكون التنمية، بما هي نوع من التخطيط لإنماء القدرات الاقتصادية، الصناعية والزراعية، تتبادل التفاعل بصورة دائمة مع الثقافة، فالثقافة معطى تنمية، والتنمية معطى ثقافة، وعلى هذا النحو الجدلي تتطور مجالات الإنماء، ومعها المناشط التربوية والثقافية.

إن مقولـة«الثقافـة أسـاس التنميـة» مقولـة صـحيحة جـداً، فـالمثقفون أنـاس فـاعلون، منتجـون، ذوو مواهـب، وأصـحاب اختـصاصات، ومـنهم مـن تحقـق لـه، في دراسـته، اختـصاص الاختصاص، وهم يعطون العطـاء الـلازم للتخطـيط التنمـوي في المرحلة الأولى، وتنفيذ المخططات التنمويـة الموضـوعة في المرحلـة الثانية، ثـم الابتكـار، الناشـئ عـن الخـبرة، في المرحلـة الثالثـة، في متواليات هندسية ذات بعد أفقي وعمودي. ذلك أن عقـلاً مثقفـاً، في مكننة الزراعة، يعطي قمحاً أكثـر مـثلاً، وعقـلاً مثقفـاً ومختـصاً يعطي، في التعامل مع الآلة، إنتاجاً صناعياً أوفـر وأفـضل، ويأخـذ من الآلة أكثر ما يمكن أخذه من طاقتها، ومن هنا يتأكد، على نحـو واضح، وفي النصف الثاني من القرن العـشرين، أن الثقافـة ليـست نتيجة النشاط الاقتصادي فحسب، بل هي مطورة له في آن، والقول الشائع أن على الإنسان أن يأكل قبل أن يتفلسف، هو قول خـاطئ، لأن الأكل سـلوك، وكـل سـلوك يـدخل في الثقافـة، لـذلك فـإن الاقتصاد يتفاعل مع الثقافة، ويتوازيان، وأصبح من البدهيات الآن أن الثقافة والتنمية متفاعلتـان، وكـل مـنهما يـؤثر في الآخـر إيجابـاً وسلباً.

وأخـيراً فـإن الثقافـة، كنـشاط معـرفي، ينـتج سـلعاً ثقافيـة استهلاكية، مثل كل الـسلع التنمويـة، وهـي تخـضع، أي الثقافـة، لقوانين الطلب الاجتماعي، وما تبقى هو ضرورة التمييز بين ثقافـة تنموية مفيدة وبين ثقافـة ضـارة، وصـفية، تزيـف الحقيقـة وتاليـاً

الـوعي، ونحـن، في الجمهوريـة العربيـة الـسورية، نأخـذ بالثقافـة المفيدة، التنموية، التي تقدم الخـبرات والكفـاءات اللازمـة لتنفيـذ الخطط التنموية، وتطويرها، عن طريق الحض على المشاركة الفعالة بين العملية الثقافيـة والعمليـة التنمويـة، والـربط بيـنهما بإحكـام، وكذلك الربط بين الثقافة والتنمية، وحل مسائل البيئة التـي باتـت تشكل خطراً جدياً على البشرية بسبب التلـوث واسـع الانتـشار في العالم.

دور الثقافة النهضوية التنويرية
هو دور التلاقي على الصعيد الإنساني(*)

أيها السادة

أيها الأصدقاء

وحدها، الثقافة، تتخطى الحدود وتخترق الحواجز، دون جواز سفر، ودون أوراق ثبوتية وشكليات قانونية. إنها والتاريخ ثنائية دهرية، هي منه وهو منها، لكنها، في السبق، تتقدم، تكتب نفسها على الأزل، صفحة أولى هي البدء، وبعدها يأتي كل شيء، الوعي المستولد من عفوية هي البراءة الأولى، يوم الإنسان صانع ثقافة تتجلى كلاماً وسلوكاً، والفكر هذا الابن الشرعي للوعي، يتملكه المخلوق وهو يتفرس فيما حوله، محاولاً الفهم عبر التجربة، والتعبير الذي هو تجسيد للوعي والتفكير، في النطق كلمة، والابتهال صلاة، والرقص طقساً، فيه تمتزج دعوتان: درء الشر واستجلاب الخير، وصولاً إلى الحجر سلاحاً، والنار نفعاً، والزرع استقراراً، تخرج به

(*) في افتتاح الملتقى الذي عُقد بمناسبة مرور سبعين عاماً على إنشاء المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، في ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٢، بالتعاون مع وزارة الثقافة ووزارة الخارجية الفرنسية والمركز الثقافي الفرنسي في دمشق.

البشرية من المشاعية إلى الرق، كنظام جديد، كان في وقته تقدماً، ثم تخلف لتتعاقب الأنظمة تباعاً، الجديد فيها يزيح القديم، ليأتي جديد آخر فيزيح ما كان جديداً فصار قديماً.

هكذا كانت الثقافة تأريخاً للتاريخ، فهماً للطبيعة، وترجمة عنها، واقتداء بها، ثم ترويضاً لها، لتكون في أنسنتها، لوحة تشكيلية وفق التصور والإبداع، يرى إليها الإنسان صنيعاً جميلاً، وغاية يراد بها ما هو جوهري فيها: النفع، وبعده التطور والتراكم، عطاء يزداد ويتحول، وفي ازدياده وتحوله يغتني ويغني، في ارتقاء متواصل، هو الفكر جلوة ثقافة، لا تني تزداد عبر الزمن، سحيقه الأبعد فالأبعد، ولا نقصان، وفي هذا افتراق عن أشياء الوجود، هذا الذي ثرواته الطبيعية كلها تتضاءل، تنفد، إلا الثقافة التي تتمرد على قانون لاقوازيه في اللاحدوث واللانفاد، لأن ثروتها إلى نمو لا ينقطع.

ماذا، إذن، في وسع الحدود والسدود، مع الأثير الثقافي في هذا الكون؟ الجواب: لا شيء، فنحن إذ نقول ثقافة نقول: حقيقة ووهم. الحقيقة لأنها، الثقافة، ماثلة في كل الحضارات، والوهم لأنها، الثقافة، تدرك ولا تلمس، ترف، كنورس، غير مرئي، على زرقة كرة أرضية هي أمنا جميعاً، وتحلق في فضاءات لا نهاية لها، سديمية لكنها كائنة، فعل نسر أسطوري، بل ما هو أكبر منه، لأن للنسر جناحين من لحم وريش، والثقافة ذات جناحين هما الظن في مداه المتخيل، فلا لحم عليهما ولا ريش، إنما شعاع بعضه غمام وبعضه رؤىً، الغمام يسفر لنا لدى الدنيا، والرؤى سفارة الدنيا

إلينا، وبذلك تكون الثقافة جامعة، لا حد لحدها اتساعاً، ولا أسر لها في مصطلحات مبتكراتنا، وهذا هو شأن المعاهد الثقافية في العالم، ومنها المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، الذي نحتفل بالذكرى السبعين لتأسيسه، لقيامه، في حدود النزاهة العلمية، بدور ثقافي رائد في حياتنا، على النحو الذي يفصله الأساتذة المنتدون، من عرب وفرنسيين، تفصيلاً، وأكتفي بالإشارة إليه تشميلاً، في إطار التعاون العربي السوري الفرنسي، الذي في تفاعل الثقافتين، العربية والفرنسية، قد أينع وأثمر، ووطد من علاقات التعاون والصداقة بيننا ما نشهده، وما سوف نسمعه، من خلال كلمات وأبحاث مديريه وباحثيه، والمشاركين في ندوته، من الشخصيات العلمية والثقافية العربية السورية.

نقلة أخرى، في حدود هذا الاستهلال الافتتاحي للندوة، أريدها تلميحاً وتذكيراً، ففي التلميح ألفت إلى ما قلته، على إيجازه، في الشأن الثقافي، وأثره منذ بدء الخليقة إلى الآن. وفي التذكير تعداد -على ما بين الثقافة والتعداد من جنف- لبعض انجازات هذا المعهد. أقول بعض الانجازات، وفي قولي قصدية موضوعية، لأن سبعين عاماً من العطاء الثقافي، لا تؤطر ولا تكال، حتى مع التركيز الشديد، إنما الأمانة تتطلب هنيهة من التوقف، عند أكثر من مئة وعشرين مجلداً من التحقيق التراثي، والدراسات الإسلامية والاجتماعية، والأبحاث في اللغة والنحو، والمؤلفات الضخمة عن المدن السورية، إضافة إلى الإسهام في تسجيل دمشق القديمة، بنت

مروان الأميرة هذه، وتعمير مكتبة عربية إسلامية متخصصة بالغة الأهمية، وفوقها التنقيب في موقعين آثاريين إسلاميين.

أيها السادة

إن تحقيق التراث ونشره، كما التنقيب عن الآثار وتظهيرها، كلاهما فعل انبثاق من بطون الكتب وطبقات الأرض إلى عالم النور. هنا إيقاظ الكلمات يساوي إيقاظ المستحاثات، والجهد الإنساني في الحالين خلّاق، يقتضي سهر الليالي وكدح النهارات، لتأتي، بعد ذلك، الكلمات قطرات حياة جديدة، تنقط من الأنامل فتزهر على الورق، أو تغوص الأكف في التربة، لتمسح ظلمة القرون، عن إبداعات على شكل لقىً، يصير لها بيننا وجود في انبعاث كالذي بشرنا به نحن الأحياء، ومعه ينتفي العدم، لنسلك طريق الصيرورة اللامتناهية.

نعرف إذن ما يعني الإحياء في الكلم، وما دلالة نطق اللقية بعد صمت، طاول الدهر موحشاً. نعرف ونعترف. هنا يتجلى، إبداعياً، فعل المخلوق الخالق معاً. فقد وجد ليكون، وكان ليوجد، وفي هذا الجدل العظيم سر الديمومة، وقد أعطى الذين عملوا في هذا المعهد الثقافي، لمثل هذا الجدل، حقيقته الماثلة في ما أنجزوا، فغدت مكتبته التي لا أغنى، حتى في حدود القياس المقارن، منهلاً للدارسين والباحثين، من مستشرقين وعرب، وفي هذه المكتبة وجد بعض المعنيين، مصادر لعصر النهضة العربية الحديثة، كتباً ومجلات،

تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتسعين من القرن العشرين، فكانت، بالنسبة إليهم، كنزاً حقيقياً، اشتغلوا عليه في أبحاثهم التي صدرت عن وزارة الثقافة، مجلدات هي الأثمن الآن، في استحضار تلك الحقبة، والتعرف على ما قدم أجدادنا الأقربون فيها، من إسهامات في الفكر العلمي، هي، على اختلافها، وتضادها، مراجع تؤرخ للتباشير الأولى، في نماذج هذا الفكر الذي كان، في زمنه، يقرع لنا باب المعرفة، كما تقرع قبضة الساحر باب مغارة مرصودة، وقد انفتح البابان، ودخلنا عبرهما إلى عالمين من معرفة ومعرفة، وكنا بذلك من الغانمين، اطلاعاً على ما كان مجهولاً، بالنسبة لأجيالنا الراهنة والمقبلة.

وتأتي المخطوطات التي جمعتها إدارة هذا المعهد على امتداد السنوات الطوال، واحتوتها خزائنه مفهرسة، محققة، منشورة، لتشكل إضافة ثقافية جديدة وباقية، تخلقت بالحرف الذي نذر نفسه لتدوين ما كان، فحفظ لنا ما يحفظه التدوين من تراث، وما أكبر التراث، سلسلة من لآلئ القرون، فيها حلقات متواصلات، تتيح لنا أن نربط ما بين عطاءات الأسلاف الأقدمين، وعطاءات الأسلاف المحدثين، هذه التي نحتاجها اليوم، واليوم أكثر من أي يوم، حيث تقدم النهضة العربية، وما رافقها من تنوير، نفحاً طيباً لنا، وذاكرة واعية لباحثينا، يسترشدون بها في عملهم، لا لاستعادة هذا التنوير فحسب، بل لاستئنافه عبر الإضافة إليه، مادمنا نعرف، عن وثوق، أن دور الثقافة النهضوية التنويرية القومية، هو الدور الذي أصبح، في أيامنا هذه، ضرورة تاريخية.

إن هذا المعهد الذي نحتفل بعيده السبعيني، قد تأسس في ظروف لم تكن سهلة، لكن علماءه الأجلاء ذللوا الصعاب، وأنموا، وطوروا، وراهنوا على قوة الحقيقة، وانتصروا بها ولها. وبمقدار ما كان الأساس متيناً، عميقاً في الأرض والمعرفة، كتبت له الديمومة، وإلى استمرار مرجو، لأنهم هم، مؤسسوه، ومديروه، والساهرون على أداء رسالته الثقافية، قد أرادوه كلاً دائماً، لا جزءاً راهناً، وبيتاً للبحث والتثقيف يتطاول، ويطاول الزمن، دون أن تنعكس عليه آثار المراحل القلقة التي مر بها انعكاساً سلبياً، فتبلغ أن توهن من بنيته وعزيمته، أو تشل من قدراته وفعالياته، وذلك مفهوم تماماً، حين نستعرض تاريخه، فنجد الالتزام بالصدق والموضوعية هدفاً نأى به عن انحرافات بعض ألوان الاستشراق، تلك التي كانت بعض مدارسها في هذا الشرق ذات وجوه، منها وجه لثقافة معلن، ووجه لتزييف الثقافة وتاريخها مضمر، ووجه ثالث ورابع غايتهما أبعد ما تكون عن نبل الرسالة الثقافية التي اتخذتها عنواناً لها، فانكشف أمرها، وتقاصر عمرها، واختفت بأنشوطة ضلالها وتضليلها، فتوقفت أو رحلت.

سبعون؟ إنه لتاريخ، به نحتفل اليوم ونحن سعداء، بسبب من أن هذا المعهد قد أعطى الجدية في البحث العلمي صدقيتها، وقدم، بمن تناوب عليه من مدراء وأساتذة وطلاب، مثالاً يحتذى في طلب المعرفة لذاتها ونفعها، وفي صيرورته وعاء للثقافة وأداة لنشرها، بعيداً عن أي مثلبة في هذه المنطقة العربية التي كانت متابعة

لسيرورتها الثقافية التاريخية، منفتحة على كل الثقافات، متفاعلة معها عطاء وأخذاً، صادرة في ذلك عن قناعة بأن الثقافة ليست حكراً موقوفاً على هذا البلد أو هذه الأمة أو ذاك الشعب، بما هي نتاج البشرية وملكها في آن.

وفي سياق هذه المتغيرات التي زلزلت عالمنا، بقيت الثقافة متوازنة، ملتحمة ما بين شمال وجنوب، متواصلة في نسيجها الحريري الذي يستمسك به مثقفو دنيانا، رغم ما بينهم من اختلاف في الرؤية، وافتراق في القصد، وتمايز في الأسلوب، وفرادة في التعبير، وإني لأزعم أن هذا هو مفهومنا للثقافة ودورها، في قطرنا الصغير الكبير هذا، دور التجميع لا التشتيت، دور الإنارة لا التظليم، دور التلاقي، على الصعيد الإنساني، لا التنائي على الصعيد نفسه، دور الكره للحرب والعدوان والاغتصاب، ودور الرغبة الصادقة في الوصول إلى السلام العادل لقضيتنا العادلة، وأخيراً دور الكفاح، في سبيل علاقات مبنية على أسس الشرعية الدولية، لا مكان فيها لغاصب ومغتصب، بل تسليم بالحق حين هو صريح، أبلج، وبناء للتفاهم الدولي على أساس الاحترام المتبادل، ومن الواضح أن سياستنا الخارجية، في هذا المجال، تملك شهادتها ودليلها وثباتها على مبادئ لا تفريط فيها، ولا تنازل عنها، كما تملك سياستنا الداخلية برهانها على الأخذ بالتعددية الحزبية والاقتصادية، وعلى صيانة حقوق الإنسان، وإشاعة الحريات، والتزام الديموقراطية الشعبية بأوسع معانيها وأبعد آفاقها.

الثقافة تجمع؟ نعم! والبرهـان نحـن، في اجتماعنـا الاحتفـالي هذا، وفي حرصنا على إقامة وترسيخ العلاقـات الثقافيـة بـين كـل الأمم والشعوب.

تمنيـاتي للنـدوة والمنتـدين بالنجـاح، وسروري في أن أكـون شاهدة وراعية لهذا التتويج المهيب، لرحلة طويلة قطعتهـا الثقافـة، بدفع من هذا المعهد الذي عمل لها بدأب وإخلاص.

تكريم يتجاوز شخصي إلى بلدي(*)

السيد وزير الخارجية الفرنسية رولان ديما المحترم

أيها الحفل الكريم

تتقدم الثقافة، في أيامنا هذه، لتكون في المقام الأرفع، سفيرة بين شعب وشعب، وجسراً للعبور المعرفي بين أمة وأخرى، وعامل تغيير نحو الأفضل، في العلاقات الثقافية المتبادلة، وفي التفاهم المشترك، وكذلك في المساعفة على خلق جو من الثقة، في أن الغد الآتي، أكثر إنسانية من الأمس الذي مضى، وأن العدالة الاجتماعية في هذا الغد المأمول، ستتحقق، وتحقق بدورها مدى رحباً للتعاون على إعلاء شأن الحضارة، كنز البشرية الثمين والمتوهج، الذي في ضوئه تتبدد ظلمة الحياة، في حالك الخطوب، وترتفع عالياً مشاعل الحق والخير والجمال، في زمن نحتاج فيه، أكثر من أي شيء آخر، إلى

(*) ألقيت بالفرنسية في الحفل الذي أقيم في مبنى وزارة الخارجية الفرنسية في باريس، وقلدني فيه السيد وزير الخارجية رولان ديما وسام جوقة الشرف من مرتبة قائد عام ١٩٩٣، وكنت قد منحت وسام الاستحقاق برتبة القائد الكبير عام ١٩٨٤، والوسامان ممنوحان من الرئيس الفرنسي السيد ميتران.

هذه المشاعل التي تنير لنا درب المستقبل، وما نرجو فيه من تمسك بالمبادئ الصحيحة والعادلة من قبل الجميع، ومن تطبيق متكافئ لقرارات الشرعية الدولية على الجميع.

إن العلاقات الثقافية بين الدول، تصبح، أو يجب أن تصبح، نسيجاً إنسانياً عاماً، فيه من القوة والمتانة ما يكفي لصياغة مشاعر جديدة، أكثر إنسانية، أكثر عمقاً وبعداً، قادرة على بناء فكر عالمي، مؤسس على أنبل ما جاءت به الرسالات السماوية، والشرائع الأرضية، وما نادى به المفكرون المستنيرون، الذين بشروا، ودافعوا عما بشروا به، من قيم الحق والمثل العليا، وفي تاريخنا العربي، وكذلك في التاريخ الفرنسي، وفي تاريخ العالم ككل، نماذج من هؤلاء المفكرين الذين أوقدوا اللهب المقدس للثورات التاريخية، ونقلوا البشرية، في كل ثورة، خطوات إلى أمام، في مجال التحرر الوطني، والتقدم الاجتماعي، ونشر روح الإخاء والمساواة، ونبذ البغضاء والعدوان، والوقوف في وجه كل مظلمة تقع على الإنسان، في الجهات الأربع للأرض، أمنا جميعاً.

ووسط هذا العالم المتغير، المثير بما يحفل به من مفاجآت، نتمسك في سورية بمفهومنا الثقافي، المرتكز على فهم العصر، والترجمة عنه، والتطلع الدؤوب إلى تعبير أوفر تقدمية، أرحب إنسانية، لا يقف شاهداً على ما يحدث في المجتمع والبيئة العالميين فقط، بل يفعل وينفعل في هذا الذي يحدث أيضاً، لتكون الثقافة عنصر تغيير في الحركة التاريخية التي لا تعرف الوقوف أو السكون.

وانطلاقاً من هذا المفهوم الشامل، نحرص على إبداع ثقافة وطنية قومية تقدمية إنسانية منفتحة على ثقافات الأمم، ونسعى سعياً حثيثاً لإقامة أوسع الصلات الثقافية بيننا وبين الآخرين، ونعمل لإيجاد وسائل لأنشط تبادل ثقافي ممكن، بيننا وبين كل من يرغب في هذا التبادل، الذي هو في مصلحة كل الدول بعامة، وفي مصلحة بلدينا سورية وفرنسا بخاصة، نظراً للروابط الثقافية الراسخة بينهما، على مدى عقود تصل إلى ما يقرب من قرن، وتتجاوزه كذلك، إذا ما أردنا تفحص هذه الروابط بدقة.

إن الثقافتين، العربية والفرنسية، غنيتان، عريقتان، وهناك معرفة وتقدير متبادلان في هذا المجال، ويهمنا، في الوقت الحاضر، أن يزداد أحدنا معرفة وتقديراً لثقافة الآخر، وهذا ما هو حاصل، ومرحب به أيضاً، ويأتي منحي وسام جوقة الشرف من رتبة كوماندور، من قبل الرئيس المحترم فرانسوا ميتران، رئيس الجمهورية الفرنسية، في هذا السياق، وإني لشاكرة جداً هذه البادرة التي تنطوي على تكريم يتجاوز شخصي إلى بلدي سورية، وواثقة أنكم تشاطرونني القناعة في أن توطيد العلاقات الثقافية، وكذلك إنماؤها وتطويرها، بين دمشق وباريس، هو في مصلحة المعرفة الشاملة، وهو مؤشر واضح على كل المعاني السامية للجهد الثقافي المشترك الذي ينهض به بلدانا في سبيل خير البشرية جمعاء.

لقد أراد، على ما أذكر، أديب مشهور أن يهدي كتابه الجديد إلى أديب آخر، واحتار في صيغة الإهداء، فقال المهدى إليه: اكتب

إلى فلان، وهذا يكفي، وفي وقفتي هذه، أنا التي أهدي إليها الوسام الرفيع، ألجأ إلى هذا الإيجاز البليغ فأقول: شكراً جزيلاً، ففي بساطة التعبير عن المشاعر، ينطوي كل الصدق، وإني لأحمل مشاعر قـد لا تسعفني الكلمات في التعبير عنها، ومثلي في ذلك مثل البحر الذي لا يعرف، وهو بحر، أن يرد على تحية الملاح، سوى باصطفاف موجـه على جوانب زورقه ذي الشراع الأبيض.

وإذا كنت قد لجأت، في هذا الاحتفال التكريمـي، إلى بـساطة التعبير، فلأنه الأقدر على الإفصاح عن الإحساس الذي يعتمـل في ذات المكّرم، أو لأنـه، وباختـصار، مـا اسـتطعته في كلمتـي هـذه، فالعذر منكم، على التقصير الذي كان مني، فما من محتفـى بـه يجيـد الرد الجميل على الفعل الجميل، وإني لأعتـبر منحـي هـذا الوسـام الرفيع، فعلاً جميلاً مؤثراً، فيه من التقدير لوطني، ولثقافة وحضارة هذا الوطن، أكثر مما فيه من التقدير لشخصي المتواضع.

مرة أخرى أكرر شكري وتقـديري للـرئيس فرانـسوا ميـتران المعـروف بثقافتـه الواسـعة والأصـيلة، ولـك أيهـا الـسيد الـوزير وللسيدات والسادة الحضور، وآمل أن أكون حيث يجب أن يكـون المثقف الذي يدرك أثر الثقافة ودورها في حياتنا الراهنة، وأن أستمر في العمل الثقافي الخلّاق، الذي أثمر، برعاية الرئيس حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، نهضة ثقافيـة متكاملـة، وجعـل من دمشق مركزاً للإشعاع الفكري، كما هي باريس، مدينـة النـور، مركز للتنوير المشع على العالم، وأن أبذل قـصارى جهـدي في تمتـين

علاقات الثقافة بين سورية وفرنسا، لما فيه النفع الكبير والمتبادل للإبداع في كل منهما.

أن نقول ثقافة، فكأننا نقول جماع المعرفة الإنسانية، ولشد ما تشدو هذه الكلمة الرائعة بنشيدها الذاتي، حين هي، في لألاء سطوعها، أكرم الجواهر، وفي شدوها، نشيد أناشيد دنيانا، قديماً وحديثاً على السواء. ولئن جئت في موكبها إليكم، فإنما جئت في موكب حرق وسلام، الحرف بما هو زهو الوجود، أبجدية بها كان النطق انتقالاً من الصمت إلى الكلام، وما أمجده وأعظمه، وسلام عادل نريده، نطلبه، نؤمن به ونصر عليه، لأنه حمامة محبة بين بني الإنسان، وفي فمها كان غصن الزيتون الذي حمل إلى نوح بشارة الخلاص.

تحية من دمشق، أقدم مدن العالم، في عصرها شميم المودات بين شعبينا، وفي ثناياها كل عظمة تاريخهما المظفر.

التقابل والتبادل الثقافيان(*)

ماذا تقول المدينة العريقة للمدينة العريقة عندما تلتقيان؟ وماذا تقول الموجة الزرقاء، في خريرها على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، للموجة الزرقاء في خريرها على الشاطئ الغربي من هذا البحر؟ وهل ثمة حاجة لترجمان بين فكر وفكر، وبين حضارة وحضارة؟ أسئلة! وما الثقافة، في أقصى مرامها، إلا طرح الأسئلة، على نفسها أولاً، وعلينا ثانياً، نحن الذين على اسمها، وما أمجد، نلتقي اليوم، في حرم السوربون، الجامعة الأعرق في صيتها، الأبهى في عطائها، والتي كانت، مثلما كانت الدنيا، جيلاً بعد جيل، مهوى أفئدة طالبيها، من قبسة الحرف، في استنارة النور من النور، وفي انسكاب الشمس في أكواب من الفخار التدمري، التي آتيكم حاملة بعض شعاعها، وبعض تاريخها، وبعض حضارتها، كأنما أنا سفيرة مطلقة الصلاحية -حسب تعبير مايا كوفسكي - لشمس الشرق إلى سماء الغرب.

(*) ألقيت هذه المحاضرة باللغة الفرنسية في جامعة السوربون في ١٧ /٥ /١٩٩٦ – باريس.

سفيرة شمس الشرق؟! ومطلقة الصلاحية أيضاً؟! في وسعي القول أن نعم! مادمت يد دمشق التي جاءت تصافح يد باريس، وتشد عليها بحرارة الصداقة، والعراقة والحضارة، التي في انفتاحها، وتحاورها، وتكاملها، يكون زهو الإنسان اليوم، كما في الأمس، أو لا يكون.

وإذ نقول دمشق، الطريق المستقيم، نقول الشرق، في كل تجلياته، عبر ماء وصحراء، ماء أبيض ودافئ، هو ماء بحيرتنا المتوسطية، وصحراء لها من بحيرة لامارتين، في انداياحات الشعر الألق، سعة لا تحد، لأمداء لا تحد، يلتمع فيها سراب أضناه اليتم، فهو شريد البيد، يغري ويغرى به، والرمال السافيات، أمل خلبي في الري، يدعو العطاش إلى السقيا ولا سقيا، وإنما وعد بها، مثل حلم ليلة صيف في مملكة إيبلا، ومثل نهارات الإشراق في مملكة ماري، ومع هذا يظل الحلم أملاً، والنهار منبلجاً له، وتأتي الفكرة وليدة هذا الحلم، والنهار سعياً لتحويل هذه الفكرة إلى حقيقة، وكل حقيقة، وأنتم تعلمون، قد كانت حلماً ثم فكرة، ثم واقعاً، من خلال الممكن في الحلم، والممكن في الفكر، هذا الذي يلي، إذا ما أخذنا في حسابنا أن أنبل الاكتشافات، قد كانت أنبل الأحلام، ثم أنبل الأفكار في رؤوس الفلاسفة والعلماء، على مدى التاريخ المكتوب، وقبله وقبله، إلى مدى الظن، في بعده الذي يتجاوز الآفاق، لأنها بعض تهاويله.

ولن أقول جديداً، أو غريباً، إذا قلت إنني أعرفكم، الغريب ألّا أعرفكم، وألّا أبادر، وبي شوق وشغف، إلى تلبية دعوتكم،

والوقوف ههنا، أتكلم من فوق منبر طالما كان مرقى العلى، لمن وقفوا عليه، من قادة الثقافة، ومن أصحاب الكلمة الشعرية، فراشة في تلاوينها، مخملية في عذوبتها، وشرارة في نورها ونارها معاً، وكذلك من أصحاب الكلمة النثرية الألقة، فالنثر، هذا المقدس، به تنزل الوحي على الرسل والأنبياء فكان لنا منه هدى، وكان لنا منه إطلال على معارف أغنت كنزنا المعرفي ولا تزال، وكان لنا، منه أيضاً، سبيل إلى الكلام عن فلاسفتنا وفلاسفتكم، كل في المجال الذي كان له فيه فتح، ورسالة، ونظرية، صارت مع الأيام نظريات، يكمل بعضها بعضاً، في غير إلغاء، مادامت الثقافة، في تقادم العصور، إلى اغتناء، لا فقر معه ولا نقصان، بل غنى وازدياد، بعد غنى وازدياد.

قلت أعرفكم، وما اشك في أنكم، أو بعضكم على الأقل، يعرفون من نحن، إذ يعرفون أننا أبناء حضارة، لها، في التاريخين، القديم والحديث، موقع وموقف، كلاهما يعطيانها، قصدت حضارة الشرق، أن تعتز بإنجازاتها على مر العصور، وتتسامى في دلالاتها، لأنها، في ذاتها، حضارة إنسانية، كما هي إنسانية، الحضارات الأوروبية وغيرها، هذه التي أبدعها بنو البشر، فكانت منها المواقع والمواقف الحضارية، وكان هذا التقابل، والتبادل الحضاريان بيننا وبينكم، مادام فضاء الحضارة قسمة بيننا، كما هو قسمة بيننا وبين البشرية جمعاء.

وبروح من الحميمية أصارحكم أنني، في المرحلة الثانوية من تعليمي، ثم الجامعية الأولى، كنت أرغب في متابعة الدراسة في

السوربون، بسبب من إعجابي المبكر بما كنت أقرأ من آداب اللغة الفرنسية، وإعجابي أيضاً، بكتابها الكبار، كلاسيكيين ومحدثين، لكن الرغبة حملتني، على أجنحة القدر، إلى جامعة بريطانية، وها هو القدر، ولو متأخراً، يحقق رغبتي الأولى، ولكن على نحو مغاير، وبعد سنين طويلة، فآتي اليوم متكلمة في حرم جامعتكم، بدل أن أكون طالبة فيها، تاركة لكم أن تقدروا ما إذا كان هذا من حسن الطالع، طالما الأمنية ثقافية كانت، وثقافية كائنة، الآن، وفي كل آن، وهي، الأمنية الثقافية، أعز الأماني، لأنها الأكثر عطاء، وفي كل الحقول، خاصة حقل الأدب الذي منه الإبداع والمعرفة، هذان الأقنومان المتلازمان في الإبداع جميعه.

ذلك أننا، أنتم ونحن على تعارف حضاري، وتبادل أيضاً، وقد كانت لنا، قبل قرون طويلة، جسور إليكم، عبرت فوقها حضارتنا العربية الإسلامية من خلال الأندلس، وتلاقحت مع الحضارة الأوروبية، وتفاعلت، وتبادلت التأثير والتأثر، وهذه أمور تكاد تكون، في المدونات التاريخية، من البدهيات، فجحيم دانتي غير بعيد عن رسالة الغفران، للفيلسوف والشاعر العربي الكفيف أبي العلاء المعري، وفي رأيي أن «مقدمة» ابن خلدون وكتابه «العمران»، قد كان لهما شأن كبير في تأسيس علم الاجتماع، وخاصة علم الاجتماع السياسي، اللذين أصبحا بعد ذلك من أركان العلوم الإنسانية في الغرب، ودونما تفصيل، وللتذكير فقط، أشير إلى أن لافونتين، بما كتبه على لسان الحيوان، لم يكن خالي الذهن مما كتبه ابن المقفع، في كتابه «كليلة ودمنة» على لسان الحيوان أيضاً، في

رمزية مبكرة، حيث الرمزية لم تكن أصبحت مدرسة، في فرنسا وأوروبة كلها، سواء في الآداب أو الفنون، وليس، ثمة، من في وسعه أن يتجاهل حكايات«ألف ليلة وليلة»، أو قصائد «المعلقات»، في الوجدان الأوروبي، من حيث قدرتها الفائقة، على تحريض الخيال، كما في الحكايات التي قصتها شهرزاد على شهريار، أو ما انطوت عليه«المعلقات» من أمداء الصحراء التي تخومها الأفق، ويكفي، في هذا المجال، أن نذكر شاعر ألمانيا العظيم غوته، فقد توشى إبداعه النثري، بألوان زاهية من«ألف ليلة وليلة»، وتأكد تأثره بالمعلقات، من خلال معلقة شاعرنا الجاهلي امرئ القيس، ومطلعها«قفا نبكِ»، فنظم قصيدة«دعوني أبكِ» التي مطلعها:

دعوني أبكِ في صمت الليل وفي هدوء الصحراء
على طريق القوافل وعلى آثار الجمال

وهي قصيدة جميلة ، ومعروفة جداً، أوردها، وعلق عليها، أستاذ جامعي عربي، في بحثه عن جذور التأثير العربي، تنشيطاً لذاكرة الغرب، وتدليلاً على أن الأدب لا يخص وطناً معيناً، فهو عالمي الأفق والمحتوى دائماً. أما في مجال التقابل، وكذلك التأثر والتأثير المتبادلين، فإنه يحسن بنا وبكم أيضاً، في مجال تنشيط الذاكرة أن نتساءل: وذاكرة الشرق، ألا تحتاج إلى تنشيط مستمر؟ أعترف. تحتاج هذه الذاكرة إلى هذا التنشيط وباستمرار، ولكن بدرجة أقل، فالذاكرة الشرقية مترعة بعطاءات مبدعي الغرب، منذ رفاعة

الطهطاوي، في القرن الثامن عشر، الذي أوفد في بعثة إلى باريس، أيام محمد علي باشا الكبير، ورجع إلى القاهرة ليضع كتابه الرائد «تخليص الإبريز، في أخبار باريز»، والذي كان فاتحة كتب ودراسات وترجمات لا حد لها، شكلت، فيما بعد، بواكير النهضة العربية في الميدان الثقافي، ومن أعلامها طه حسين ولطفي السيد وأحمد أمين وغيرهم وغيرهم.

هكذا نرى أن الحضارة ليست عطاء بلد واحد أو زمن واحد، إنها نتاج البشرية جمعاء، وعطاءات شعوب قديمة قدم العالم، وتراكمات ثقافية، يدخل فيها جهد الإنسان وسلوكه، دماغه ويده، إبداعه اجتماعياً وتاريخياً، وكل ذلك العطاء الذهني واليدوي، يرفد نهر الحضارة العظيم، المتدفق في أربع جهات الأرض، بين قطبي الأزل والأبد.

ولعله من نافل القول، تعريف ما هو معروف، ففي الوطن العربي، على كبره وامتداده، ليس من مثقف، وحتى ليس من قارئ عادي، إلا وله إلمام أو اطلاع، على أعمال المبدعين الأوروبيين، من فرنسيين وإنكليز وروس وأمريكيين وغيرهم، من كلاسيكيين ومحدثين، فنحن، وبدرجات متفاوتة، نعرف راسين وموليير ورابليه ولافونتين وروسو وهوغو، كما نعرف لامارتين ودوموسيه وسانت اوكسيبري وأندريه جيد وأندريه موروا، وأناتول فرانس ورومان رولان وكامو وسارتر ومورياك وفلوبير وأراغون وسان جون بيرس وسولير وباشلار، ونعرف أيضاً ماسينيون وبلاشير واندريه

ميكيل ودومينيك شوفاليه، وكثيرين من المبدعين والمستشرقين الفرنسيين، بمثل، ما نعرف شكسبير وديكنز وبايرون وعزراباوند وجويس وإيليوت من الانكليز، وبوشكين وتشيكوف وتولستوي وليرمانتوف ودوستويفسكي وشولوخوف من الروس، والأمر ذاته مع ابسن وشيلر وريلكه وفوكنر وهمنغواي وشتاينبك وغيرهم وغيرهم، ومن كل هذا نستنتج أن ذاكرة الشرق نشطة، ورغم ذلك تحتاج، كذاكرة الغرب، إلى مزيد من التنشيط.

وكما أن فرنسا، إذا ما أردنا التخصيص، بلد النور، فكذلك هي سورية بلد الإشعاع، لأنها، سورية، في طليعة بلدان العالم، اهتماماً بتراثها الحضاري من جهة، وبناء مستقبلها المشرق من جهة أخرى. ونعتقد أن الأمم كلها، بحاجة إلى حضارتها وثقافتها وتراثها، كحاجة الأشجار إلى جذورها، لأن التراث الثقافي يسهم في توكيد الهوية الحضارية والشخصية القومية، وتنمية شعور الاعتزاز بالانتماء القومي والإنساني، لأن من لا يهتم بتراثه يبدو كمن لا أسرة له، أو لا مجتمع يحمل تأريخيته، أو وطن يفخر بالانتماء إليه، دون تعصب أو انغلاق.

ولا بد، في هذا المجال، من الإشارة إلى علاقات سورية المتوسطية، حيث نلاحظ أن علاقة بلاد الشام مع شعوب المتوسط، ترقى إلى عصور قديمة جداً، ويرى علماء ما قبل التاريخ أن الزراعة، وحتى بعض أنواع الماشية، نقلت من سورية إلى قبرص، في الألف الخامس قبل الميلاد، وكانت هناك علاقات تجارية مع

جزيرة كريت، في الألف الثالث قبل الميلاد، ولم تنقطع المبادلات، بفرعيها الثقافي والتجاري مع اليونان القديمة، وهي مستمرة مع اليونان الحديثة، وكذلك مع الدول المتوسطية الأوروبية.

يقال، ميتافيزيقياً، إن التاريخ يعيد نفسه، وهذا، في رأيي، غير صحيح، فالتاريخ لا يعيد نفسه، لأنه يمضي إلى الأمام في حركة حلزونية، مركبة، كثيرة الانعطافات والمنعرجات، لكنه يمضي، ولا عودة إلى الوراء، وعلى هذا فإن الصفحة الماضية، من العلاقات الفرنسية العربية السورية، في النصف الأول من هذا القرن قد طويت، وكان لابد أن تطوى لأنها علاقات عابرة، بين انتداب ومنتدب عليهم، وهي، بحكم هذا التفاوت، علاقات سيئة، لكن على المرء أن ينسى الأشياء السيئة التي لا فائدة من تذكرها، وأحسب أننا، نحن وأنتم، قد طوينا هذه الصفحة ونسيناها، لأن قانون الاصطفاء يجعل ما هو عكر حتى في الماء، يترسب في القاع ويغيب، ويغدو سطح هذا الماء صفحة إلى صفاء، فيها يتمرأى وجه الحاضر بكل قسماته.

تأسيساً على هذا، فإن العلاقات العربية السورية -الفرنسية، منذ منتصف القرن العشرين، كتبت نفسها على لوح آخر، في دفتر آخر، ملون، مشرق هذه المرة، سواء في الثقافة، أو الاقتصاد، أو السياسة، أو العلاقة الدولية في إطار الأمم المتحدة، مع كل ما يقتضيه ميثاقها من احترام متبادل، وتعاون متبادل، يرتكز إلى مبدأ التكافؤ، وهذا كله في الإطار العام، أما في الإطار الخاص، أو في

الخصوصية العلائقية بيننا وبينكم، فقد كانت ثمة تميزات واضحة دائماً، ذات صلة وثقى، تمت إلى ما هو حضاري وثقافي مشترك بيننا، سواء في اللغة، أو المعرفة، أو الأعراف الذهنية والسلوكية، أو تقاليد الكفاح الثوري، وغير ذلك، انطلاقاً من إيماننا بأن لكل بلد دوره في العطاء الثقافي والحضاري، وبأن التواصل ينبغي أن يكون القاعدة، وما عداه استثناء، وعطاء فرنسا الثقافي معروف ومشهور، كما أن عطاء سورية غير خافٍ، خاصة في المجال الحضاري، ويسرني أن أذكر ههنا، وانا أسجل جدية التعاون مع فرنسا في هذا المجال، أن الآثاري الفرنسي الكبير، الأستاذ كلود شيفر، هو من قام بالتنقيب عن مملكة أوغاريت، على مقربة من اللاذقية، لؤلؤة ساحلنا، وهو من اكتشف الأبجدية المسمارية، أول أبجدية في التاريخ.

إن التعارض لا يعني، بالضرورة أيضاً، الاختلاف، خاصة في زمن الحوار المفتوح هذا، وعلى أقصى مداه، فجميعنا يجد في هذا الحوار خبزه اليومي، وحسناً فعلنا، في العقود الأخيرة من قرننا هذا، باتجاهنا إلى التوسع في نشاطنا الثقافي المشترك، من خلال الندوات والمعارض المتبادلة، المقامة في دمشق وباريس، ومن شاهد منكم معرض «سورية ذاكرة وحضارة» في معهد العالم العربي في باريس، يجد نفسه في صورة ما أقول تماماً، ويعرف، معرفة عيانية، من خلال هذا المعرض، أن البلد الذي أنتمي إليه، يمتد جغرافياً من شاطئ المتوسط إلى نهر الفرات، إلى كثبان الرمل في الصحراء

العربية، إلى التلال البكر في الجزيرة السورية، التلال التي رغم تنقيباتنا التي تضاعفت عشرات المرات فيها، فإنها لا تزال تحتفظ بكنوزها، وأميل إلى التأكيد، في غير جنوح إلى أيما مبالغة، أن مكتشفاتنا الأثرية حتى يومنا هذا، تقدم لوحة كاملة لتاريخ الإنسان، منذ نشوء الحياة إلى الآن، ومن طفولة الإنسان إلى القرن العشرين، وعلى امتداد مليون وأكثر من الأعوام.

ماذا يعني كل هذا؟ وماذا يضيف، في تعاوننا الثقافي والحضاري، إلى ثقافة البشرية وحضارتها؟ في الجواب، وبموضوعية، انه يضيف شيئاً غير قليل، ولهذا يشكل تعاوننا في هذين المجالين، نموذجاً يحتذى، ونرغب، لذلك، في إنماء هذا التعاون، دون قيد أو حد، وبرغبة صادقة من طرفنا، بسبب من إدراكنا، ونحن نجوس مشارف قرن جديد، أن مثل هذا النموذج، أو هذه النماذج، تحمل قيمها المعرفية والأخلاقية، في عالم مضطرب، جنّ أو يكاد، ولم تتمكن المعارف العلمية والتقنية، وكذلك الاكتشافات الالكترونية المذهلة، أن تحد من اضطرابه، أو تحجزه عن الإمعان في جنونه، ولم يبلغ التمدن الاجتماعي، أو مجتمع العلمنة، أو العقلنة، أو الرقي الحضاري، أن يبسط، في هذا العالم ، بساط الطمأنينة الأخضر، أو الرخاء الذي يفيء بالأمان عليه، أو يأتي بالسلام له، وبدلاً من ذلك نرى المخاطر، ومن كل الأنواع، تحيق بالعالم الراهن، حاملة إليه تلوث البيئة، وتفشي الأوبئة، والانقسام العرقي، وجائحة البؤس الذي يرتعد لهوله من يطالع

صفحته السوداء، إضافة إلى التفاوت المتسارع، المتجذر أكثر فأكثر، بين بلدان الوفرة وبلدان الجوع حتى الموت، وتأتي ثقافة التهافت، والقوة، والعنف، والاستبداد، والرغبة في التفرد، سياسياً وثقافياً، وكذلك الرغبة في الهيمنة، لتعمم هذه الشرور، بغرض جعل الثقافات الأخرى، البديلة، خاضعة، ومجتاحة، ومستباحة، وفي هذه النقطة، من ناحية مقاومة ثقافة الاجتياح، نجد أنفسنا في موقع غير متباعد، نحن وأنتم، بل في موقع متقارب، وهذا هو المأمول، فالثقافة الإنسانية، ثقافة المعرفة والحق، ثقافة الخير والعدل، ثقافة الإخاء والمساواة، في خطر، لأن الثقافة الأخرى، المحمولة على بساط ريح النظام العالمي الجديد، وبساط الشرق أوسطية تهب علينا، وتقوم، بدور تمهيدي، كمقدمة لما وراءها من مطامع اقتصادية وسياسية، غايتها فصم ما بيننا، أو إحلال التباعد بيننا، وهذا ليس في صالحنا كلينا، فنحن نأمل بدور نشط لأوروبة في التسوية الجاري البحث في شأنها، لدرء الأخطار الساعية إلينا بشكل محموم، تحت غطاء التعاون الشرق أوسطي المموه الذي يراد له أن يكون جسراً، تعبر عليه مشاريع السيطرة المبيتة، ومشاريع من يقف معها، ويدعمها، وهذا ما نرفضه، لا لأننا ضد التعاون الدولي المتوازن، ولا لأننا، في زمن التكتلات الكبرى، نميل إلى الانغلاق، أو الوحدانية، أو لأننا ضد التسامح الروحي، في معنى السمو، وإنما لأن الستائر المخملية الظاهرية هذه، تخفي، أو المراد لها أن تخفي، بشاعة الجدران الكالحة، للنوايا الكالحة، المعادية لكل القيم

الإنسانية النبيلة، وهدفها، أي المشاريع المعادية، فرض الاستسلام علينا، وفي كل المجالات، والثقافي تخصيصاً، وصولاً إلى الغاية القصوى، وهي محو الذاكرة العربية بكل تجلياتها الإبداعية، بوسائل غير نزيهة، قوامها عربدة القوة الضاربة، وإغراءات التمويل الضخم، والتملكات الأخطبوطية، تحت عناوين خادعة، مثل «الشراكة في الاستثمار، أو الشراكة في الشراء»، لكل ما تفرزه، وتوفره، الخصخصة المطلقة، من فرص يكون فيها التحكم للشريك الأكبر تمويلاً، وبعد ذلك، وبالتدريج، وحسب قانون الأكبر الذي يلتهم الأصغر، تنتقل الملكية تدريجياً إليه، وبصورة كاملة.

لقد قلت، وأكرر، أننا نريد الحوار، وعلى أوسع مدى، لكن الحوار لا يكون بين الجلاد والضحية، ونحن نؤمن أن الحوار بابه الديمقراطية، إلا أن الديموقراطية لا تستوي بين محتل للأرض بالقوة، وصاحب هذه الأرض المحتلة، ولا تكون الديموقراطية مع هذا المحتل الذي يهيمن الآن، على مرافق الحياة كلها.

إن الديموقراطية تقوم على أساس المساواة، بين دول حرة ومتساوية، سواء في الحقوق أو الواجبات، ومن منطلق الإرادة الشعبية في كل بلد على حدة، ولكل إنسان على حدة، والحداثة تصبح مفهومة، عندما تتمسك بحرية الموقف، وحرية الإبداع، ولا تجمّل ما هو سيء، أو تروج لنظام عالمي جديد، وحيد الطرف، غايته السيطرة والاستلاب، وما عدا ذلك فإن الحداثة تصبح مطية للشر، إذا استغلت في نشر ما هو سائد، من ثقافة ذات نمط نفعي،

ويصبح ما بعد الحداثة، إذا تجرد من فضيلة حق الفرد في الحرية، وفي امتلاك وسائل ممارستها، ضرباً من الجنوح الأناني، لكل ما هو محض ذاتي، ولكل ما يتعارض مع التعددية الاقتصادية والسياسية التي نأخذ بها ونطبقها.

إذن لنعترف بأن اللوحة العالمية ليست إلى بياض، فثمة مخاطر واقعية لا خيالية، مخاطر فساد وإفساد، حتى في المجال الثقافي، وهذه المخاطر تلوح في الأفق، ونحن نراها، وندرك غاياتها الخبيثة، لا من مصدر الخوف على ثقافتنا، فهي منيعة، صامدة، مثل ثقافتكم، وثقافة الأمم العريقة في حضارتها، وإنما من مصدر التسلطية، المرتكزة إلى تمويلية لا حد لضخامتها، ومن مصدر الأخذ بمقولة«العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة»، فالثقافة غير الإنسانية وما تنطوي عليه من تفاهة، وما يتفرع عنها من تهافت، قد تطرد الثقافة الجيدة، إذا لم نقاوم، ولم نتحصن، سياسياً وثقافياً، ضد مثل هذه الانزياحات عن الموقف الصح، والخطر، بعد، في مثل هذه الحال، هو علينا كما عليكم، لأن الهجمة، في هذا المجال، تطالكم كما تطالنا، ومن هنا ضرورة التعاون الثقافي بيننا جميعاً، ولزومية إنمائه وترحيب أمدائه.

قلت إن السوربون، بالنسبة إلي، قد كانت حلماً، وها هو يصبح واقعاً، وكم أنا سعيدة بهذا الواقع، الذي أتاح لي أن ألقاكم، وأن أعرض على مسامعكم بعض الخواطر التي تراودنا، وما أشك في أنها تراودكم أنتم، أو بعضكم، أيضاً.

عميدة الأكاديمية
رئيسة جامعات باريس

السوربون، ١ /٧ /١٩٩٦

سيدتي الوزيرة العزيزة

أشكرك من كل قلبي رسالتك بتاريخ الأول من حزيران، وأحتفظ لك بذكرى طيبة جداً عن لقائنا بعد المحاضرة الرائعة التي قدمتها في السوربون التي ما تزال أصداؤها تصلني حتى اليوم.

إنك لشخصية فذة تلعب دوراً استثنائياً في التبادل بين بلدينا، وإني سعيدة لكونك تهتمين في تطوير العلاقات الثقافية والعلمية والجامعية بين سوريا وفرنسا. وهذا المنظور الذي تتحدثين عنه بما لديك من موهبة، لهو رسالة أهميتها من الدرجة الأولى وإني ممتنة لك لأنك تعطينه هذا الطابع الإنساني الأكثر وداً.

وإني لأشكرك أيضاً للدعوة التي تفضلت وقدمتها لي، وأقبلها بحماسة لاعتقادي الجازم بأنه علينا أن نعرف الجمهورية العربية السورية بأحسن كثيراً مما نعرفها الآن وبكل أبعادها التاريخية وتقاليدها الثقافية وحضورها في العالم المعاصر.

وإني لأرجوك أن تتفضلي وتقبلي، يا سيدتي الوزيرة العزيزة، أطيب تمنياتي والتعبير عن صداقتي واحترامي.

ميشيل جاندرو ماسالو

تكريم العالم تكريم للعلم...(*)

العلم الذي يشع كالشمس، لا حاجة به للتعلق بأشعة الشمس، عندئذٍ يكون علماً أثيرياً، ينبت لنا البهجة والفرحة، في غرائبية ألوانه القوس قزحية، ويبقى كمجرة كبيرة، منيرة، نعجب لها نحن البشر، لكننا لا نستطيع أن ندفئ بحرارتها أصابعنا المقرورة من برد في الشتاء، أو نستنبت النرجس في الربيع، أو ننعم بنسماتها الرهوة في الصيف، أو نوشح بصفرتها غلالة دمشقية دمقسية، في بريقها بعض ذهب، وفي ملامستها بعض حرير، وفي مرآها خطف للبصر، من فتنة وفتون.

العلم، على الصورة التي أشرت إليها، علم خلّبي، في سرابه إغراء ولا ماء، وفي تمرئيه توهج موصول بتخوم الأفق، يشف في الأصباح والأماسي، معطياً، في جماله، بهاء ورواء، مقدماً، للنظر، لوحات من رؤى الملاحة، لكنه، على ألقه والولوع، توق قلب، اتقاد عاطفة، سحر باصرة، وهذه كلها مطلوبة في الأدب والفن، ويفيد منها، في وصف الطبيعة ورسمها، الأدب والفن أيضاً،

(*) في تكريم الباحث الجليل أندريه ريمون عام ١٩٩٨.

لكنها، في عطاء العلم، تبقى تأمل عـالم، وتعبّـد خاشـع، وانـسراح بصر، في ساعة تفكير، أو هنيهة اسـتيحاء وتـدبير، وهـذا جميـل في ذاته، يفيد منه العلماء، وهم يستروحون الفكرة العلمية، يتابعونها في مظانها، البعيدة أو القريبة، ويلاحقونها بعيونهم المتـصلة بعقـولهم، إلا أنهم، عندما يحولون فكراتهم العلميـة إلى عمـل، يعـودون مـن رحلاتهم تلك، ومن انسراحاتهم الذهنيـة هـذه، إلى أرض الواقـع، لأنه على الأرض، كما المعمار الهندسي، يكـون المعـمار العلمـي، وفي الواقع لا الخيال، يتحرون البحوث، ويدونون الملاحظات، للإفادة منها في جعل العلم اكتشافاً، أو نـسجه معرفـة، فيهـا الكـلام عـلى الكون، معطى كون علمي، من عطاياه، في تأريخ التاريخ، أو تاريخ المدن، أو تاريخ الحياة والوجود، حقائق لها طعم الحقـائق وحـدها، حلوة ومرة على السواء، فالمهم، هنا، هو الغاية العلمية في صيرورتها وقائع ثابتة، أو منطلقاً إلى هذه الوقائع الثابتة، القابلة للتطـوير مـع الأيام، وغير المتجانفة مع التغيير، الذي هـو نـاموس مـن نـواميس السيرورة البشرية.

العالم الجليل، أندريـه ريمـون، في هـذه النـدوة التـي ينظمهـا المعهد الفرنسي في دمشق، تكريماً له، واستجلاء لبحوثـه، وإحاطـة غير محيطة، بكل ما قدم على مدى عمره، عالم موسوعي، عـالم فـذ، مجد، مثابر، عمل فأنتج، وكان لعملـه ونتاجـه، هـذا الألـق الـذي يكون للعالم الجدير بأن يسمى عالماً، بسبب من أنه، في تدويناته، قد درس حقباً، مدناً، كشوفاً، وأوجد فـضاء مكتنـزاً بـزخم الدراسـة

المتأنيـة لمـا رأى، وشـاهد، وعـاش، وأمعـن النظـر، وسـجل الملاحظات، ثم أنشأ فيها الكتب، على نحو ما فعـل كاتبنـا العـربي الجاحظ، الذي بنى كل ما كتب عـلى أسـاس المعايـشة، ألملاحظـة، التجربة، الخبرة، الدرس، والدقة والتمحيص.

إن أجمل تكريم، وأنبله، للعلم ورجاله، هو تكريمهم في إطار العلم نفسه، وليس هنـاك مـن صـيغة ترتفـع، علـواً، عـن صـيغة التكـريم هـذا، إلا بالاسـتزادة مـن البحـث والكـشف، هـذين الأقنومين المتلازمين أبداً، مع استمرارية تتابع النتاج العلمي في كل ميادينـه، تلـك التـي تغنـي، وتغتنـي بالدراسـات، بالأبحـاث، بالكشوفات المفيدة لها، الداخلة في نسيجها، المضيفة إليها صحائف جديدة يتألق فيها الحدث المدون زمناً بعد زمـن، ويتـضاعف عامـاً بعـد عـام، مـستمداً مقوماتـه مـن النتـائج، في سـياقها التـاريخي والحضاري.

لقد شاء المعهد الفرنسي للدراسات العربية أن يكرم الباحـث العالم أندريه ريمون، بعقد ندوة تتمحور مواضيعها حول «الفـضاء والمجتمع في المدن العربية الكبرى»، متابعة لجهوده المتواصلة في هذا الميدان، تلك التي امتدت على أكثر من نـصف قـرن، وكـان هـو في بعض مراحلها، مقيماً في دمشق التي أحبها، وألفها، وكـان فيهـا في البداية باحثاً، وفيما بعد مديراً مساعداً للمعهد الفرنسي، ثـم مـديراً لهذا المعهد الذي احتفلنا منذ أمد غير بعيد بمرور سبعين عاماً عـلى إحداثه.

وكما عرف أندريه ريمون دمشق جيداً، عرفت دمشق الأستاذ ريمون جيداً، وأحبته، وقدرت جهوده حين كان فيها، وحين غادرها ليعمل في مدن عربية أخرى، كالقاهرة وتونس، أو في فرنسا، منشئاً لمعاهد البحوث والدراسات، أو مسهماً في إنشاء جمعيات فرنسية وأوروبية للدراسات العربية الإسلامية، أو مشاركاً، بأسلوبه الأكاديمي، في الحوار الثقافي العربي الأوروبي، أو مؤكداً دوره في نشاط معهد العالم العربي في باريس.

وفي تاريخه العلمي كله، وليس في عمله التأسيسي فحسب، كان السيد ريمون مثال الباحث المخلص في بحثه، المعني بالدراسة المعمقة التحليلية التي لا تصف وإنما تحلل، ولا تبقى على السطح أبداً، لكنها تتجاوزه إلى الأعماق، بفعل نظرة علمية نافذة، لا تكتفي برؤية الوقائع في ظاهرها، وإنما في باطنها أيضاً. ومن هنا فإن دراساته التي عنيت بأشكال العمران والحياة الاجتماعية، في المدينة العربية، وبخاصة في القرن الثامن عشر، إبان العهد العثماني، بما امتازت به من رصانة البحث، باتت تشكل نقاط ارتكاز أساسية للباحثين، بمفاصلها التأريخية التي تتمحور على تحليل البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مستندة إلى وثائق يومية وحياتية، لا تقف عند حدود ما يرويه الرواة، أو يؤرخه المؤرخون، أو ما يسردونه من وقائع السياسة، ونستطيع أن نقول بثقة: إن أبحاث الأستاذ ريمون، قد عرفت بالحياة، في هذه الحقب، تعريفاً أكثر شمولية، فتح أبواباً للدارسين من بعده، يجعلهم أقدر على فهم

التطـور في المراحـل التاليـة، بعواملـه الاقتـصادية والعمرانيـة، الاجتماعية والإنسانية.

ومن نافل القول أن نحاول التعريف بالأستاذ ريمـون، لأنـه، في إنجازاته والشهرة، لـيس بحاجـة إلى أي تعريـف، ولقـد كـان، خلال إقامته في دمشق، مثالاً للعالم المجد، المثـابر، الـدؤوب، وقـد أحب دمشق، كما قلت، وأحبته هي، وتفضل السيد الرئيس حـافظ الأسد فمنحه وسام الاستحقاق السوري عام ١٩٧٥، وبعد ذلـك غادر دمـشق دون أن يغادرهـا، فهـو بـاقٍ فيهـا بعلاقاتـه وموداتـه والذكريات الغوالي، وكذلك باقٍ فيهـا بكتبـه، وأعمالـه، وصـلاته، وصـداقاته، ومـن هنـا نفهـم حرصـه عـلى المـشاركة في النـدوات العلمية، التخصصية التي تقام في سـورية، وتكـريس وقتـه لحياتـه العلمية الاستشراقية التي تابعها، وكان أبداً وفياً لها.

ولقد ارتبط اسم أندريه ريمون ارتباطاً وثيقاً بالمعهد الفرنـسي للدراسات العربية، في عاصمتنا دمشق، وكما قلت سابقاً، وبصدق العبارة، وحرارة الكلمة، ونبض الموضوعية، مفصحة عن تقـديري العالي لدور المعهد، فـإنني أعـود لأفـصح عـن التقـدير نفـسه، لـه ولأمثاله من المؤسسات التي لعبـت أدواراً، في إلقـاء الـضوء، عـلى الحضارات الزاخرة بها أرضنا، الحفية بهـا، العاملـة بجـد للكـشف عنها، وقد كـان للمعهـد الفرنـسي، إلى جانـب نـشاطاته البحثيـة، العلمية، مبادراته الطيبة في الاهتمام بآثارنا، والكـشف عنهـا، قبـل إحداث المعهد الأركيولوجي، وها هو اليوم يقـوم بمبـادرة جميلـة،

أثيرة، بتكريم الأستاذ الفاضل أندريه ريمون، الـذي أضـاء أكثـر مـن شعلة، في عمله لإنارة ما لم يكن منيراً، في مجال اختصاصه، وأزاح مـن ضباب التاريخ، ما أسهم في جلوة مراحـل مهمـة، مـن حيـاة المدينـة العربية ككل، بكثير من الأمانة العلمية، والدقة الموضـوعية، وإعـلاء شأن العطاءات العلمية، في مسئولياتها والأهداف والغايات.

وإذا كـان شـأن هـذه الكلمـة، حـصراً، هـو تقـديم التحيـة والتكرمة، والغالية، للعالم أندريه ريمون المحتفى به اليوم، فإنه يعـز على من يتكلم حول شخـصه، ألا يـتكلم عـلى إنجازاتـه في حقـل التدريس بالجامعات المختلفة، سواء في فرنسا، بـاريس، واكـس ان بروڤـانس، أو في القاهرة وتونس ودمشق وغيرهـا، كـما يعـز عـلى المتكلم ألا يكون في الوسع والمتسع مجال لتعداد ما أنشأ، وما أرسى، وما شيد من دعائم معاهـد، ومؤسـسات مختلفـة، كلهـا تهـدف إلى غرس بذور المعرفة التي أمضى أكثر سنوات عمره في طلابها.

تحية قلبية، خالصة، صادقة، حارة، للأستاذ الـصديق أندريـه ريمون، وتحية مماثلة للمعهـد الفرنـسي بدمـشق، عـلى مبادرتـه إلى تكريم هذا العالم الذي هو للعرب بقدر ما هو للفرنسيين، وهـو إلى العلم الخالص، بقدر ما هو للود الخالص، وهو إلى الحـضارة بهيـة، بقدر ما هو إلى الثقافة نقية، وهو، أخيراً، إلى الوفاء النادر، بقدر مـا هو للبذل النادر، في سبيل إنجاز مهماته العلمية والمعرفية والثقافية، ككل لا يتجزأ، لأنه، الأصيل في العلـم، يكـون أصـيلاً في كـل مـا يتفرع عن هذا العلم، في عالمنـا الـراهن، والعـالم الآتي، مـع القـرن الواحد والعشرين الذي نحن على عتبته.

السيد الرئيس حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

تحية المودة والتقدير

عطفاً على حديثنا الشفوي يوم أمس الذي تناول، فيما تناول، موضوع الشراكة العربية الأوروبية، أرسل هذه المذكرة التي حرصت على تقديم صورة موجزة مكثفة لما تنطوي عليه الشراكة الأوروبية من إيجابيات وسلبيات، ويبدو من رؤوس الأقلام التي تحتويها هذه المذكرة أن السلبيات هي الأكثر والأشمل، بحيث يتساءل المرء عن الإيجابيات المفقودة، أو شبه المفقودة تماماً.

وهذه المذكرة ذات هدف محدود، هو تبيان الأمور من كل نواحيها، وفي الإمكان اعتماد كل سطر أو سطور منها للتوسع والإفاضة، عند تناول هذه الشراكة في إعلامنا، أو إبقائها للاطلاع الشخصي مبدئياً.

* * *

الشراكة العربية الأوروبية

عقد مؤتمر برشلونة في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٩٥.

تم إنشاء الشراكة الأوروبية -المتوسطية في هذا المؤتمر.

هل يمكن أن تنجح هذه الشراكة فيما فشل فيه الحوار العربي - الأوروبي؟

كان هدف هذه الشراكة، المتباينة دولها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، هو التعاون لتحقيق شراكة شاملة، في المستويات السياسية والتنموية والثقافية، لكن هل نجحت في تحقيق هذا الهدف بعد مرور ثلاث سنوات على مؤتمر برشلونة؟

الأمل كان معلقاً على نجاح عملية السلام في الشرق الأوسط، وقد جمع مؤتمر برشلونة بين الدول العربية وإسرائيل في إطار واحد للتعاون والمشاركة.

كان مؤتمر برشلونة، والشراكة الأوروبية -المتوسطية، أفضل في نظر العرب، إذا ما قورن ذلك بمشروع الشرق -أوسطية، الذي كان مشروعاً إسرائيلياً أمريكياً لتكريس النفوذ الأمريكي والإسرائيلي في المنطقة.

كانت هذه الشراكة، أفضل أيضاً بالنسبة للأطراف الأوروبية، لأنها تساعدها، كأوروبا موحدة، على استعادة دورها في المنطقة، خصوصاً بعد انتهاء الحرب الباردة، ولمعالجة المشاكل الاجتماعية والثقافية والأمنية والاقتصادية، مع بلدان جنوب المتوسط، وتوفير

الأمن والاستقرار بما يحافظ على الهوية الثقافية للمجتمعات الأوروبية.

إسرائيل وجدت في هذه الشراكة، حسب صيغة مؤتمر برشلونة، إطاراً مكملاً لما بدأته في مؤتمرات التعاون الاقتصادي الشرق أوسطية، من حيث إمكان الحضور فيها.

كذلك كان هدف إسرائيل الدائم هو الاندماج في اقتصاديات منطقة الشرق الأوسط، وهذا ما أخذ يتحقق مع الشراكة العربية الأوروبية!

لكن ما تحقق من الشراكة الأوروبية -المتوسطية لا يمثل سوى حصاد هزيل، وما تبقى، في المحصلة، كان الاندماج الإسرائيلي، أو السعي له.

مؤتمر باليرمو لوزراء الخارجية العرب والأوروبيين، بمن فيهم إسرائيل، كانت حصيلته ترداد الصياغات اللفظية، ولم يقم الاتحاد الأوروبي بدور فاعل في عملية السلام في الشرق الأوسط، كأنما الغاية، كل الغاية، هي وجود التمثيل الإسرائيلي، وهذه الغاية، في تواجد الإسرائيلي دائماً في المؤتمرات واللقاءات العربية الأوروبية، أخذت تتجلى كهدف لذاته، وفي ذاته، وهو هدف يتعارض مع المواقف والأهداف العربية، وهذا ما يجب الانتباه إليه، والحذر منه، والريبة فيه، لأنه يشكل خطراً بالنسبة للعرب، ويمهد السبيل أمام الراغبين في التعاون مع إسرائيل، علناً أو سراً، مثل عرفات، والملك حسين، وحكّام قطر وسواهم.

العنصر الأساسي لمؤتمر برشلونة، كان تحريك عملية السلام، وضغط دول الاتحاد الأوروبي على حكومة نتنياهو الإسرائيلية، للالتزام بما كانت قد وافقت عليه حكومة حزب العمل الإسرائيلي، مثل الانسحاب من الجولان ومن جنوب لبنان، لكن الاتحاد الأوروبي لم يضغط على إسرائيل للالتزام بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وليس في الأفق ما يدل على أنه سيضغط، أو قادر على الضغط، بما يكفي، وهذا كله أفقد صيغة مؤتمر برشلونة صدقيتها، وأفرغها من مضمونها. ويلاحظ، في هذا الصدد، ان هناك تفاوتاً في مواقف الدول الأوروبية، فموقف فرنسا القوي إلى جانب العرب، غير مواقف بريطانيا، ألمانيا، والدول الأوروبية الأخرى، وهذا ما يجب الانتباه إليه.

نتائج مؤتمر باليرمو كانت مخزية، فجمود عملية السلام أثر على الشراكة الأوربية -المتوسطية، وليس الشرق -أوسطية وحدها.

ما هو أخطر يتمثل في الشّق الأمني -السياسي، لهذه الشراكة، فقد قام أو حاول، بعض الدول الأوروبية: فرنسا، إيطاليا، اسبانيا، البرتغال، تكوين قوة عسكرية للتدخل السريع، في بلدان جنوب المتوسط، وبارك ذلك كل من بريطانيا وأمريكا، وهذا ما أثار الشكوك والانتقادات من جانب كثير من البلدان العربية المتوسطية، خصوصاً مصر وبلدان الشمال الافريقي باعتبارها المستهدفة.

نفس الخطر نجده في المجال الاقتصادي، فالسياسات الأوروبية، في هذا الصدد، لا تساعد بلدان الجنوب المتوسطي على تحقيق الفضاء الاقتصادي الملائم لها، وتتبنى أوروبا، راهناً، السياسة الحمائية تجاه المنتجات الزراعية الواردة من بلدان الجنوب المتوسطي، إضافة إلى أن المبالغ الضعيفة التي خصصتها دول الاتحاد الأوروبي لتمويل المشاريع وبرامج التعاون (١٩٩٦ - ١٩٩٩) والمقدرة بنحو (٦) بلايين دولار فقط، قليلة جداً بالنسبة لمتطلبات الجنوب المتوسطي، خصوصاً في حقل العمالة في أوروبا، والبطالة المتزايدة في الجنوب، رغم ارتفاع معدلات النمو في أكثر البلدان العربية، وبينها سورية مثلاً، وتخفيض العجز في موازناتها.

الخطر نفسه نجده في المجال الثقافي والإعلامي، فالإعلام الأوروبي مستمر في تشويه الصورة القومية للبلدان العربية، خلافاً لما نصت عليه صيغة برشلونة، واجتماعات الخبراء لبحث هذا الموضوع باءت بالفشل، فمقولة «الشرق شرق والغرب غرب لا يلتقيان» هي السائدة حتى اليوم، وهذا يتناقض وروح مؤتمر برشلونة.

مسيرة الشراكة الأوروبية المتوسطية أخفقت كلياً لسببين: جمود عملية السلام، والهيكلية المتعلقة بأطراف الشراكة في أوروبا، فهذه الهيكلية، اقتصادياً وإعلامياً وثقافياً، لم تتبدل لصالح الدول العربية، الجنوب أوسطية، وبقيت ذاتها بالنسبة للدول العربية المتوسطية الأخرى، وعدم التبدل هذا هو لصالح إسرائيل.

وكمثل على ذلك، وقف الاتحاد الأوروبي في اجتماع مؤتمر بالرمو موقفاً سيئاً، إذ أعطى، حرصاً منه على حضور إسرائيل هذا المؤتمر، ضمانات لوزير خارجية تل أبيب بعدم مهاجمة المؤتمر للسياسة الإسرائيلية تجاه عملية السلام في المنطقة، ولا بد لنا، هنا، أن نلاحظ أن تحقيق «السلام» على الطريقة العرفاتية -الأردنية، ليس كفيلاً بإنجاح الشراكة الأوروبية العربية، ومن الأفضل للعرب، في مثل هذا الوضع، أن تتعامل منفردة، مع الدول الأوروبية المنفردة، بسبب المصالح المختلفة لكل من الطرفين، سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

نجاح صيغة مؤتمر برشلونة يتوقف على الإرادة الفاعلة، من كلا الطرفين، لإنجاح هذه الصيغة، وهذه الإرادة مفتقدة في الدول الأوروبية، لذلك سيكون الإخفاق، إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه، نصيب الشراكة الأوروبية العربية، مثلما كان الإخفاق نصيب الحوار العربي -الأوروبي.

يسعى العرب إلى إدخال ليبيا وموريتانيا والجامعة العربية لهذه الشراكة، في مؤتمر شتوتغارت في أيار ١٩٩٩، وتبيان موقف العرب من الإرهاب.

هناك إيجابيات وسلبيات للشراكة العربية الأوروبية، ورغم أن السلبيات أكبر بكثير، فإن العرب يحرصون على الاحتفاظ بصيغة برشلونة.

محاولات إسرائيل الدائمة للدخول من أي نافذة تفتحها لها مؤتمرات ولقاءات الشراكة العربية الأوروبية، بعد العجز عن الدخول من الأبواب.

من المشكوك فيه إصدار بيان رسمي عن مؤتمر شتوتغارت، لعدم إحراج إسرائيل، والعرب يصرون على إصدار بيان رسمي حول التسوية في الشرق الأوسط، وتبيان تهرب إسرائيل من استحقاقات السلام، إلا أن أكثر الدول الأوروبية تعارض ذلك، وقد توقف وزراء الخارجية العرب عند هذه النقطة، في اجتماعهم التنسيقي في القاهرة خلال مطلع شهر أيلول ١٩٩٨!

هناك بنود دائمة عبر مقترحات أوروبية لعقد ميثاق الأمن والاستقرار الذي يرفضه العرب قبل إحراز تقدم ملحوظ في عملية السلام.

حذر سورية من الدعوة المصرية -الفرنسية لعقد اجتماع حول عملية التسوية، يعود إلى أن إسرائيل ستحضر هذا الاجتماع الذي يعقد بمبادرة مصرية -فرنسية، وحذر سورية في محله.

إن حضور العرب وإسرائيل في الندوات والمؤتمرات أصبح واقعاً موضوعياً، لكن هذا شيء، وعقد الندوات والمؤتمرات بقصد التواجد الإسرائيلي فيها لا أكثر، هو شيء آخر.

السيد رئيس المجموعة العربية
لدى اليونيسكو(*)

الحضارة تراث إنساني يتشكل، على مر العصور، مـن ثقافـات الشعوب والأمم عبر التاريخ كله، والثقافة، في أبسط تعريفها، هـي نتاج الذهن واليد والسلوك الذي يستمد مقوماته من واقع حياة أي شعب في أية أمة، والدين، على ما له من إجـلال، ودور، هـو أحـد روافد الثقافة في تراكمها، وصيرورتها حضارة في الماضي والحـاضر والمستقبل، لكنه ليس الرافد الوحيد، فهناك روافد أخرى إلى جانبه، أهمها المعرفة في كل حقولها، والإبداعات الحرفية، كالعمارة وغيرها، والفنون والآداب التـي هـي عطـاءات ذهنيـة مـشتركة للـشعوب والأمـم، إضـافة إلى مكونـات أخـرى عقليـة ونفـسية واجتماعيـة وأخلاقية، على أساسها ينبغي أن ينظر إلى موضوع مساهمة العـرب في الأندلس، أو التفاعل الثقافي في الأندلس، حسب عنوان التقريـر النهائي للاجتماع الأول للباحثين في هذا المشروع مـن خـلال شـبه

(*) ردّ على التقرير النهائي حول التفاعل الثقافي في الأندلس للاجتماع الأول المنعقد في تشرين الأول ١٩٩٠، ومذكرة رئيس المجموعة العربية آنذاك للمندوبين الدائمين لليونيسكو بتاريخ ٢٩ /٥ /١٩٩١.

الجزيرة الإيبيرية، المنعقد في ٢٩ -٣٠ تشرين الأول /أوكتوبر ١٩٩٠، ومذكرة رئيس المجموعة العربية للمندوبين الدائمين لليونيسكو بتاريخ ٢٩ /٥ /١٩٩١، الموجهة إلى السيد وزير التربية -رئيس اللجنة الوطنية السورية لليونيسكو، لبيان الرأي.

إن مشروع «التفاعل الثقافي في الأندلس -مساهمة المسيحيين واليهود والمسلمين في الحضارة الكونية من خلال الجزيرة الإيبيرية» يضع الأشياء مقلوبة حين يرتكز إلى جهود المسيحيين واليهود والمسلمين على أساس ديني، وليس على أساس ثقافي أو حضاري، ففي المجال الثقافي وحده، وفي وحدته المتكاملة، يمكن أن يفهم الإسهام العربي في الأندلس وتفاعله، وليس على أساس ديني مبني على مساهمة المسيحيين واليهود والمسلمين، وذلك للأسباب التالية:

١ - الثقافة هي نتاج مثقفين من أديان مختلفة، وهذا النتاج الذي هو وطني وقومي معاً، يشكل العطاء الثقافي وتفاعله مع الثقافات الأخرى، منسوباً إلى وطن وأمة، لا إلى دين أو ثلاثة أديان، فالثقافة الفرنسية، مثلاً، يسهم فيها فرنسيون من أديان مختلفة، ولا يمكن، عند دراسة هذه الثقافة، تجزئتها دينياً، وإلا أنكرنا عليها الطابع الوطني الذي هو الأصل والأساس.

٢ - الثقافة العربية، كالثقافة الفرنسية أو الروسية أو البريطانية، أنتجها مثقفون عرب ينتمون إلى أديان مختلفة، لكنها، في المحصلة، ثقافة عربية وطنية وقومية، يقاس إسهامها وتفاعلها مع الثقافات الأخرى، على حضورها ومدى تأثيرها في حقبة

تاريخية معينة، وفي بلد معين، كاسبانيا أو الجزيرة الإيبيرية موضوع البحث، ولا يمكن تجزئة الثقافة العربية على أساس ديني، لأنها، عندئذٍ، تكون نتاج هذا الدين كعامل أساسي ووحيد، بينما الثقافة العربية، وكل ثقافة أخرى، تتكون وتنهض على عوامل عديدة، منها النتاج الذهني واليدوي والسلوكي، ولم يسبق للعرب، أو لأية أمة أخرى، ان قرأوا تاريخهم الثقافي على أساس تقسيم ديني، ففي هذا تجزئة لهذه الثقافة، وتفتيت لها، وإضاعتها، أو إضعافها إلى حد المحق، بسبب من طرحها طرحاً مغلوطاً، كما هي الحال في الطرح الوارد في التقرير النهائي للاجتماع الأول للباحثين في مشروع «التفاعل الثقافي في الأندلس».

٣ - القاعدة الفقهية تقول: «كل ما بني على فاسد فهو فاسد»، وتأسيساً على هذه القاعدة، فإن كل ما بني على الطرح المغلوط لموضوعة التفاعل الثقافي في الأندلس هو مغلوط، وقد أظهرنا، وأثبتنا بالأدلة والشواهد، في البندين (١) و(٢) ان الثقافة الوطنية والقومية، لأي شعب وأية أمة، لا تقرأ، ولا تفسر، إلا على أساس وحدتها، وكل تجزئة لها على أساس ديني، تحرمها من مرتكزاتها الحقيقية، وتفقدها انتماءها الذي هو الأصل في التعريف الثقافي الحضاري.

٤ - ما جاء في خلاصة المشروع المشار إليه آنفاً، يدل على أنه كانت هناك اختلافات بين الباحثين المجتمعين لإعداد المشروع، وإذا

كانت الخلاصة قد وصفت هذه الاختلافات بالطفيفة، فإنها، على الأرجح، ليست كذلك، ومادام«المشروع في طوره الجنيني» فإن طرحه الخاطئ يجب أن يصوّب، فيكون أساسه ثقافياً لا دينياً، وبذلك يستقيم الأمر، وينتقل المشروع من «الطور الجيني» إلى طور التكامل، عبر النظرة إلى إسهام الثقافة العربية في الأندلس نظرة علمية، موضوعية، بعيدة عن الشبهة التي تطبع«التقرير النهائي» بطابعها، في جملته وتفصيله.

٥ - مع رفض الطرح المغلوط على أساس ديني ثلاثي، كما جاء في «التقرير النهائي»، فإن هذا الطرح، حتى في مغالطته هذه، يستتبع مغالطة أخرى، نشير إليها إشارة عابرة، مع كونها هي - المغالطة الأخرى - تكتسب مشروعيتها المعرفية والتاريخية من أن هناك في العالم أدياناً أخرى، مثل البوذية والهندوسية وغيرهما، فإذا لم يصحح الخطأ في الطرح على أساس الأديان الثلاثة: المسيحية واليهودية والإسلام، فكيف يكون الأمر مع الأديان الأخرى المتعددة، وكيف ينظر في الثقافة الصينية على أساس بوذي، أو في الثقافة الهندية على أساس هندوسي؟ إن التجزؤ الثقافي، في هذه الحال، سيكون تجزؤاً خطيراً، تنعدم، في ضوئه، الرؤية الثقافية الشاملة، إسهاماً وتفاعلاً، لأي شعب أو أية أمة.

٦ - الدخول في العمق يبيّن أنّ مشكلات العالم الحديث والسلام فيه، ليست مشكلات دينية، بل هي مشكلات نابعة من عصر

المعلوماتية، عندما توضع هذه -في عالم أضحى صغيراً- في خدمة قضايا ومشكلات بعيدة عن تحقيق السلم ومغايرة له، لأنها مشكلات شمال وجنوب، غنى وفقر، احتلال ومقاومة احتلال، استغلال ونهب، سيطرة قوة عسكرية ضخمة، ومقاومة لهذا الاستغلال والنهب وسيطرة القوة العسكرية الضخمة، ففي كل طرف من طرفي هذا الصراع الذي يهدد الثقافة والسلم، يوجد مسيحيون ويهود ومسلمون، إذن الأديان لا يمكن النظر إليها نظرة تقابل وتضاد مطلقة، فالتعارض الخطير ليس بين اليهود والمسلمين، بل هو تعارض بين احتلال يهودي صهيوني إسرائيلي عنصري، وبين مقاومة عربية إسلامية لهذا الاحتلال في كل وجوهه، والصراع في الشرق الأوسط ليس دينياً، في الأساس، حتى يمكن حله عن طريق الحوار الثقافي بين الأديان، إنما هو صراع سياسي يتخفّى في لبوس ديني، وعلى مختلف جبهات الصراع.

٧ - التفاعل الثقافي -الحضاري الذي كان سائداً في الأندلس، خلال القرن الثامن حتى الثالث عشر، كان تفاعلاً ثقافياً عربياً إسلامياً مع ثقافة اسبانية مسيحية، وكان، في كلا الثقافتين العربية والاسبانية، عناصر لا شأن لها وغير سائدة من أديان أخرى دون تمييز، مع تعاون كبير معترف به تاريخياً بين فلاحي الحدود من المسلمين والمسيحيين ودون عوائق، ومع تقليد جميل في المشاركة الجماعية، العربية -الإسلامية والمسيحية، في المناسبات والأعياد والمهرجانات والاحتفالات وتبادل الهدايا.

٨ - الأندلس لم تكن وحدها مكاناً للتعايش العربي -الإسلامي والأندلسي -المسيحي، فهناك أماكن أخرى، تعايش فيها الإسلام والمسيحية، وقد تأثرت وأثرت الثقافة الأندلسية في العلوم الإنسانية، ومن منطلق فكر إنساني نيّر ومشرق، وكان لها دور بارز في مختلف نتاجات الثقافة، مثل العمارة والشعر والأدب والموسيقا، وقبست أوروبة من الثقافة الأندلسية - العربية الشيء الكثير.

٩ - من مراجعة أسماء الباحثين الذين اجتمعوا ووضعوا صيغة «التقرير النهائي» لا يوجد اسم أي عالم عربي أو أجنبي مشهور، بل أسماء يهودية مغربية، وفرنسية، ومن قراءة هذا التقرير يتثبت المدقق في الأمور، ان شعار السلام، وعالم المستقبل، وعالمية الثقافة، والعقد التنموي الثقافي الذي شرعته اليونيسكو، يتخفى تحته هدف محدد، هو إبراز دور اليهود في الثقافات التي حققها الجنس البشري بعامة، وفي ثقافة الأندلس بخاصة، وهنا مكمن الخطر.

١٠ - يهدف«التقرير النهائي»، عبر الكلام على الثقافة في الجزيرة الإيبيرية، إلى هدم حاجز التضاد النفسي بين المحتلين اليهود الإسرائيليين، وبين العرب المحتلة أراضيهم، وهذه محاولة ماكرة تعود إلى سنين بعيدة ومحاولات عديدة، قامت بها الصهيونية ولا تزال، ويمكن مقارنتها بمحاولات المتعاونين الأوروبيين الذين عملوا لهدم الحاجز النفسي، بين المحتلين

النازيين وبين شعوب ودول أوروبة المحتلة - فرنسا مثلاً - دون طائل، وقد أدان التاريخ هؤلاء المتعاونين الأوروبيين الداعين إلى ردم تلك الهوة النفسية، في الحرب العالمية الثانية، بين المحتلين الألمان وشعوب أوروبة المحتلة أراضيها.

١١ - استكمالاً للهدف المنوه عنه في البند (١٠)، يهدف التقرير النهائي لا إلى تظهير دور الثقافة العربية وإسهامها وتفاعلها في الأندلس، ولا إلى خدمة السلام، بل إلى تربية جيل جديد، يتقبل مفاهيم هدم الجدار النفسي بين المحتل الإسرائيلي وبين العربي المحتلة أرضه، وإدخالها في الكتب المدرسية المقررة، قبل أن يتحقق السلام العادل المرتكز إلى قراري هيئة الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ و٣٣٨، والقائم على شعار الأرض مقابل السلام، الذي تماطل إسرائيل وتناور وتختلق العقبات للحيلولة دون التوصل إليه، في مباحثات السلام الجارية الآن.

إن القبول بـ«التقرير النهائي» للاجتماع الأول للباحثين في مشروع مساهمة العرب في الأندلس، أو«التفاعل الثقافي في الأندلس« في صيغته القائمة على الدين، وليس على الثقافة، كما يفترض المنطق العلمي الموضوعي، هو تحقيق لمآرب الصهيونية، وافتئات، وحتى خيانة، للنضال العربي، وللانتفاضة العربية الباسلة في الأراضي العربية المحتلة، وللموقف المبدئي العربي المستند إلى

الشرعية الدولية، في تحرير الأرض واستعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني، وقد توصلنا إلى هذه القناعة، بعد قراءة دقيقة، ودراسة تحليلية، لوثيقة«التقرير النهائي» المنوه عنها في هذه المطالعة.

جلسة التنمية الثقافية
في مجال التعاون العربي الافريقي (*)

باعتزاز كبير، وسعادة مؤطرة بالأمل المشترك، وبالحلم العربي الافريقي الذي كان حلماً واحداً منذ نهاية الحرب العالمية وما قبلها، تقبلت الدعوة إلى رئاسة جلسة التنمية الثقافية في مجال التعاون العربي الافريقي التي تنعقد، برعاية الأمانة العامة للجامعة العربية، ومنظمة الوحدة الافريقية، في تونس، البلد العربي الشقيق، الذي إلى العروبة منتماه، وفي افريقيا أواصره، أرضاً وكفاحاً وتطلعاً إلى مستقبل بغدو فيه التعاون العربي الافريقي، شاملاً لكافة وجوه النشاط الثقافي والاقتصادي والسياسي، ومرتفعاً، بالطاقة المتاحة، إلى مستوى أعلى فأعلى، لأن قدر الوطن العربي، هو نفسه قدر الوطن الافريقي، في القارة الافريقية العظيمة، ذات الرحابة الرحباء في المدى، والعطاء المخصاب في الموارد، والبسالة التي صارت مضرب المثل في نضالها الطويل المتطاول، لأجل الاستقلال،

(*) حالت ظروفي دون السفر للإسهام في هذا اللقاء الهام، واكتفيت بإرسال هذه الكلمة التي كنت أعددتها للمناسبة.

وإجلاء القوات الأجنبية، والخلاص من ربقة التمييز العنصري، وبناء قواتها المسلحة، واقتصادها الوطني المستقل، وبلوغ مكانتها المتميزة التي نريدها، ونريدها معها، إلى رفعة ماجدة، هي جديرة بها، لا كقارة مترامية، شاسعة، متعددة البلدان، غنية بالسكان فحسب، بل كقارة ذات موقع جغرافي بالغ الأهمية، بالغ الخطورة، في الإطلالة على ما حولها من بحار، واستشراف ما يجاورها من صحراء، وما يسمق على أرضها من غابات، لا تزال بكراً رغم كل ما تداولها من اعتداءات غاشمة، وانتهاكات ظالمة، ونهب أجنبي صريح أو مقنع.

وإذا كانت البلاد العربية، بفضل كفاحها المسلح والجريء، وثوراتها الدامية والمتتالية على الاحتلالات الأجنبية، قد سبقت إلى نيل استقلالها الوطني، والشروع ببناء دولها الحديثة، فإنها، إلى جانب ذلك، كانت تعي وعياً كاملاً ومبكراً، ما للقارة الافريقية من دور كبير في التلاحم الجغرافي، والترابط الثقافي، والتعاون الاقتصادي، والتضامن الكفاحي ضد عدو مشترك، امبريالي في بعض صوره، وصهيوني في بعضها الآخر، فقاومت سعيه إلى الفصل ما بين آسيا وافريقيا، وردعت مطامعه في فصم العرى بين البلدان العربية والافريقية، في تداخلها القاري، وتمازجها الحضاري، وتفاعلها المصيري، ووحدة أهدافها، من كل الوجوه، بسبب من أن بلداناً عربية كبرى، تقوم على الأرض الافريقية، جهد الأعداء، وما زالوا، في إقناعها، على الأفرقة، لا حباً بافريقيا، ولكن

كي تنقطع الصلات ما بينها وبين شقيقاتها العربيات، فلما خابت محاولاتهم، عملوا على التفريق بين هذه البلدان العربية، الأصيلة في عروبتها، لغة وديناً وتاريخاً مشتركاً، والبلدان الافريقية المجاورة، الأصيلة في افريقيتها، هي أيضاً، وفي عراقتها كفاحاً وتاريخاً، لكننا كأشقاء في وحدة الموقف والهدف، أحكمنا الربط بين شعوبنا، وتوجناه بهذا التعاضد بين الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية، وها نحن الآن نتلاقى بفضل هذا الربط العربي الافريقي الذي لا فاصم لعراه الوثقى، والذي منه كان التضامن الافريقي مع العرب، في كفاحهم ضد عدوان إسرائيل ومطامعها التوسعية، وكان التأييد العربي لكفاح الافريقيين، ضد العنصرية في جنوب افريقيا، وضد التدخل الأجنبي في شؤون البلدان الافريقية الأخرى، وما ابتعثوه من فتن، ومن احن، ومن حروب بين بعض هذه البلدان، وبين أبناء البلد الافريقي الواحد أحياناً.

ولقد كان لافريقيا بطولاتها وأبطالها، في كفاحها الطويل المرير، وكان للعرب بطولاتهم وأبطالهم، في كفاحهم الطويل والمرير أيضاً، فتحية تقدير وإكبار لهؤلاء الأشاوس، الأحياء منهم والأموات، لأنهم تصدوا بالصدر للحرية، وبالزند للفتكة، وهزئوا بقضبان السجون، لياليها طوال، وأعوامها ثقال، فما هانوا وما لانوا، إلى أن تحقق النصر، أو أكثره، في إجلاء المحتلين، وقهر العنصريين، وكان للتضامن العربي الافريقي أثره في كل ذلك، وهذا، ضرورة، يحدو بنا الآن، أكثر من أي وقت مضى، إلى تمتين

هـذا التـضامن وترسـيخه، وإلى تقويـة الـصلات، بـأكثر مـا هـو مستطاع، بين الجامعة العربيـة، جامعتنـا(*)، وبـين منظمـة الوحـدة الافريقية، وحدتنا.

وكما لا ينبني جدار على فراغ، كـذلك لا تـنهض بطـولات في فراغ، إذ من المفروغ منه، كواقع موضوعي، أن الثقافة بما هي تراكم حضاري، قد كانـت ذات إسـهام في صـياغة وجـدانات الأبطـال، أصـحاب هـذه البطـولات، وهـي اليـوم، أي الثقافـة، في تأثرهـا وتأثيرها المتبادلين مع التنمية، مـدعوة للعـب دور أكـبر في التنميـة الثقافية، افريقية وعربية، ونحن موجودون هنـا، وفي هـذه الجلـسة التي كان سيكون لي شرف رئاستها وإدارتها، للبحث في تنمية الدور الثقافي، وما أشك في أن الأبحاث، والمداخلات، في حـوار صريـح ومفتوح، ستغني موضوعة التنمية الثقافية، ودور التنمية في الثقافة، مادام التفاعل بينهما قائماً، ونريده إلى ازدياد، ومادام المجال مفتوحاً، لإنماء العلاقـات الثقافيـة والتعـاون الثقـافي، في مـا يتعلـق بتبـادل المعلومات والخبرات الفنية، والتجـارب الاسـتراتيجية، والتعـرف على الامكانات المتاحة، وإقامة المشروعات الثقافية المشتركة.

«إن الثقافة في وقتنا الحاضر، لا تبحث عن دور مـا، في الحيـاة السياسية والاجتماعية والتنموية، بل هي الدور كلـه في جميـع هـذه المجالات، مادام الفكر، تنويرياً، نهضوياً، معرفياً، مطلوباً بأشد ممـا

(*) ذلك كان للأسف من الماضي حين كانت جامعتنا ما تزال جامعة وليس كما غدت فيما بعد، أداة فرقة وتمزيق وعدوان على العروبة ومفاهيمها.

كان سابقاً، لأن عليه، كفاعل تغييري، أو كممهد أساسي في التغيير، أن يعد الأرضية اللازمة لكل تصاعد مقبل، نكافح لأجله كفاحاً دؤوباً، بعد هذا الانخفاض الذي تشهده الخريطة العربية الافريقية في الطاقة النضالية، وهذا التراجع في تحقيق الأماني القومية، الاقتصادية والتنموية، لأسباب كثيرة، منها أن الخطاب السياسي بمفرده، لم يعد قادراً على استنهاض همم الجماهير، بعد التغييرات الدولية التي كان انعكاسها خطيراً على نفسية الفرد والمجموع في قارتينا»، وعندما يفتقد الدور السياسي تأثيره الذي كان، ينفسح المجال للدور الثقافي الذي سيكون، باعتباره الحامل المأمول للطموحات الوطنية والإنسانية في تقصير زمن الجزر، والتسريع في زمن المد، حيث نستعيد ذلك الزخم الذي عرفناه في النهوض الشعبي العام، خلال منتصف القرن العشرين وما تلاه».

وإذا كنا نعتبر الاستقلال، هو المرتكز الأهم للاستقلال السياسي، والحافظ له، فإن البناء الاقتصادي، وهذا دوره، لا يكون تنمية اقتصادية، والتنمية هي معطى ثقافي، بقدر ما هي الثقافة معطى تنموي، وعلى هذا النحو الجدلي تتطور مجالات الإنماء كلها، وخاصة الثقافي منها.

ولأنني حريصة على السمع بأكثر من القول، أكتفي بهذا التمهيد الذي بعضه ترحيب، وبعضه تحفيز، وبعضه الثالث تذكير بما حققه التعاون العربي الافريقي من خير للطرفين، وما ينتظر تحقيقه من خير أكبر، للطرفين كليهما، مفسحة المجال للبدء في

الكلام، من قبل السادة المختصين، حول كل مـا يتعلـق بموضـوع التنمية الثقافية والتعاون العربي الافريقي، لافتة النظر إلى أن الثقافة العربية والافريقية، دواتا تاريخ عريق في الإبداع، وقـد تجـاوز هـذا الإبداع تخومنا إلى العالم كله، ونال إعجاب العالم كله أيضاً.

طهران والثقافة والكتاب.. (*)

في الكلام على الثقافة، كلام على أغلى، وأبهى، ما منحت السماء الأرض، فالثقافة، بما هي مصدر للمعرفة، هي، في الوقت نفسه، انـدياح ساطع للرؤى المعرفية، تخومها الآفاق البعيدة، والصبوات التليدة، منها كانت الحضارات نجوماً تـأتلق، في دورة فعل وتفاعل، ودورة، بل دورات، تنافس في العطاء، لا دورات صراعات للامحاء.

وكما الدستور مصدر القوانين، فإن الثقافة مصدر التواريخ، في تدويناتها تخليد للوقائع والأحداث، وفي استنطاقها بيان وتبيين لما غيبته صروف الدهر، في تقلباتها العصية على السكون، وفي توثباتها المؤكدة، كل يوم، أن الحركة هي المحرض، وهي الدافع، لتقدم البشرية إلى أمام.

غير أن التاريخ، منذ نشوء البشرية، كان صفحات بيضاء، نحن الذين ملأناها بالكلمة والفعل، وما الكلمة، بدءاً، سوى الفعل، وهكذا يكون التاريخ فعلاً، حاملاً لأمالي الإنسان، في

(*) في افتتاح معرض الكتاب في طهران مشاركة مع الرئيس خاتمي عام ١٩٩٨.

سلبها والإيجاب. ويأتي الذين اصطفاهم ربهم، حاملين كتابهم في يمينهم، وفي هذا الكتاب جلوة الحق، لأنها، أساساً، جلوة الإيمان، والمؤمن مؤتمن على الحقائق، تاريخياً واجتماعياً، ومؤتمن، تالياً، على صدق الوقائع، ودقة الأحداث، ومن هنا كان الأسلاف والأجداد المؤمنون بالله ورسوله، صادقين في تدوين وقائع تاريخنا العربي الإسلامي، وصادقين في تدوين تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

لقد أرهف العالم سمعه، قبل أربعة عشر ونيف من القرون، إلى انبثاق صوت سماوي رسولي، في أرض مكة المكرمة، وفي أرض المدينة المنورة، بكل ما لها من قدسية عند كل مسلم في دنيانا، وما كانت، قبل هذا الانبثاق، لتكون هذه القدسية وهذا الدوي، الذي أقام الدنيا بالضجة الكبرى، تبعتها ضجة أخرى، كبرى، للحضارة العربية الإسلامية، المرافقة للانبثاق الإسلامي العظيم، والفتح الإسلامي العربي، والمنتشرة مشرقاً ومغرباً، حاملة رسالة القرآن إلى الجهات الأربع، لهذه البرتقالة الزرقاء التي اسمها الكرة الأرضية، الكرة المتوهجة بزرقة السماء، الملونة بخضرة الربيع، المذهّبة بأشعة الشمس، المفضضة بضياء القمر.

قلت أرهف العالم السمع، وما كان له في ذلك من بد، لأن صوتاً جديداً، حميداً، سامياً، متألقاً، متناغماً، مموسقاً، رنّ في أذني هذا العالم، وكان هذا صوت الحضارة العربية الإسلامية، التي هي جماع التراكم الثقافي العربي الإسلامي، وشأنه أبداً إلى ازدياد،

وثروته أبداً إلى نماء، بينما كل الثروات الأخرى إلى نقصان مع الأيام، ووهن مع الأعوام.

أجيء طهران العريقة، عاصمة الثورة الإسلامية، من مدينة دمشق، عاصمة الثورة السورية، رسولة للثقافة، للحضارة، للأخوة، وللصداقة الخالصة المخلصة، وما كان لهذه الثقافة، وهذه الصداقة، وهذه الأخوة، وهذا الترابط العربي الإسلامي، من أثر ظاهر، مبين، مؤكد، في الأخذ بعزم الأمور، وباستنهاض الهمم، وتعزيز المواقف النضالية، والتقاليد الكفاحية، التي أدت إلى خطوة حاسمة هي الخطوة السيادية، ذات العنوان الواحد الذي هو الوثوب على الردى، من أي مطل أتى، والصمود لريح العدوان، من أي صوب هبت، والثبات على المبادئ، مهما كلف ذلك من عنت، والمفاداة غير المحدودة، حرباً وسلماً، مع التأكيد على أننا طلاب سلم، عادل، كامل، غير منقوص، استجبنا فيه للمبادرة الأمريكية للسلام، عام ١٩٩١، على أسس معروفة، تحددت بتنفيذ قرارات مجلس الأمن، ذات العلاقة بهذا السلم، وعلى مبدأ الأرض مقابل السلام، بما يؤدي إلى الانسحاب الإسرائيلي من جميع الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، ونحن، في طلاب هذا السلم، على موقفنا المعروف والمشهور، المتسم بالصمود إلى النهاية، واستمرار الكفاح إلى أن تتحقق المطالب، رافضين، على أساس حقوقي، شرعي، دولي، الاستيلاء على أرض الغير بالقوة، عاملين على التنسيق العربي الإسلامي، وصولاً إلى التضامن على هذا المستوى،

مدركين أن القوة العسكرية لا يمكنها، كما قال السيد الرئيس حافظ الأسد، في خطابه في المؤتمر الإسلامي في طهران«أن تقهر إرادة التحرير، أو تتغلب على إرادة الصمود».

أيها السادة

إن معرض طهران الدولي الحادي عشر للكتاب، ومعرض المعلوماتية المرافق له، والتظاهرات المختلفة على هامشه، والبرامج المتعلقة بالذكرى العشرين لانتصار الثورة الإسلامية في إيران، والذكرى الخمسين الكئيبة الدامية، لتأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين العربية، والذكرى المقابلة، الخمسينية أيضاً، للمقاومة الفلسطينية الضاربة للاحتلال الإسرائيلي، والنضال العنيد، دفاعاً عن القدس والمقدسات، الذي يخوضه الشعب الفلسطيني بلا هوادة، كل ذلك، ودفعة واحدة، يرمز إلى أمرين مهمين: أولهما أن هذا الاهتمام الكبير، بكل هذه المناسبات، ما كان ليكون في طهران، لولا الثورة الإيرانية الإسلامية الإمامية الخمينية المجيدة، وثانيهما أن المشاركة العربية السورية بخاصة، والمشاركة العربية الإسلامية بعامة، ما كانت لتتحقق لولا أن إيران الثورة، منذ الأيام الأولى لانتصارها، أعلنت، بجهير الصوت، انها مع نضال فلسطين العربية ضد الاحتلال الإسرائيلي، ولولا أن الثورة الإيرانية قرنت القول بالفعل، وفوراً، فأغلقت السفارة الإسرائيلية في طهران، وطردت الممثلين الإسرائيليين من أراضيها، وأحلت الفلسطينيين محلهم.

ذلك أن الثورة، في اشتياقها إلى التعبير عن نفسها، تحتاج إلى القائد الفذ، وتحتاج إلى القاعدة الشعبية العريضة، وإلى نسور البر والبحر والجو، هؤلاء الذين هم صانعو التاريخ في وثباته، والذين هم من أحبة الله في عليائه، والقدر في فرسانه، والشعب في اصلابه، والقلم في أصحابه، وغزلة النار بأصابع الفولاذ، والمدركين للسيرورة والصيرورة التاريخيتين، والعارفين جيداً المسار القويم للتاريخ، والمجدين السير دؤوباً في دربه.

لقد كانت لنا، في سورية، محطات للتاريخ، وكانت لكم، في إيران، مثيلاتها، غير أن الثورة الإيرانية على حكم الشاه وظلمه، لم تكن محطة فقط، كانت نقطة تحول أساساً، كانت ضجة أخرى، كبرى، في العصر الحديث، ارتجت لها الأرض، واستنارت بها السماء، وكان مفجّر هذه الثورة، سيف الحق والحقيقة، آية الله العظمى الإمام الخميني، ومحققها، ومثبت أركانها، وواضع لبنات بنائها، فلما ارتحل إلى الملأ الأعلى، انتقلت القيادة إلى حامل الأمانة، الإمام علي الخامنئي، الذي أخذ بهذه الثورة في طريق الظفر، وقاد الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وهي الأولى في التاريخ الحديث، قيادة حكيمة، تتصف بالموضوعية، والمعرفية، والتطورية، وتولى دفة الحكم الرئيس الأول للجمهورية الإسلامية آية الله الشيخ علي أكبر هاشمي رفسنجاني، ثم تلاه حجة الإسلام والمسلمين د. سيد محمد خاتمي، رئيساً منتخباً، بإجماع كبير، نظراً لما له في الثقافة من شأن، وفي المعرفة من شأن أكبر، وفي الفلسفة من شئون أكبر فأكبر.

وفي جمعه بين التدين الصادق العميق من جهة، ومتطلبات الفكر التنويري الحداثوي من جهة أخرى، حقق ضلاعة عظمى في سعتها والعمق، حتى ليعد السيد خاتمي في النادرين، إن لم يكن في الأندرين، من شمولية النظرة، ونفاذها، ومتانة أساسها العلمي، وبنائها المعماري، وانفتاحها على العالم بغير إسراف، وبغير تقتير، وفي صيانة الحدود التي رسمها لها بألمعية، وحدة ذكاء شديدتين، الإمام الراحل، آية الله العظمى، الإمام الخميني.

أيها السادة

إننا، ونحن في المعرض الضخم للكتاب، لا يسعنا إلا أن نعطي الكتاب حقه وشأوه، وأن نوجز فنقول: «المجد للكتاب.. أولاً وأخيراً»، وأن ننوه باشتراك ستين امرأة عاملة في حقل النشر فيه، وفي هذا الاشتراك السنوي، دلالة كبرى على تقدير المرأة، وفسح المجال أمامها لتأخذ دورها، وتؤدي في بناء الوطن قسطها، كما أراد الإسلام لها، وهذا، في المحصلة، موقف مشترك بيننا، لكنه، بدقة الكلمة، فرع من أصل، فسورية وإيران، في انتمائهما الواحد، عبر تاريخ طويل طويل، هما الأصل، وما تبقى فروع، ولهذه الفروع، في العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، دور أساس، وهذا الدور إلى تعاظم، إضافة إلى صلات الموقف الواحد، في المجال الخارجي، والموقف الديبلوماسي، والتأييد الثابت للإخوة الفلسطينيين، في سعيهم لتحرير أرضهم، واسترداد حقوقهم، ثم في الموقف الواحد، من مراوغات إسرائيل نتنياهو

وأضاليلها، ومن ختل السياسة الأمريكية وزئبقيتها، ومن الحلف الثنائي، العسكري والاقتصادي، بين أنقرة وتل أبيب، وكل هذا، يجعل تمتين الصلات إلى أقصى درجة، بين طهران ودمشق، من الأولويات، ومن البدهيات، والضروريات أيضاً، فنحن، في سورية، نسعى أبداً لحسن الجوار مع تركيا، ولا نحرص، أو نؤلّب، أحداً على أحد، ولعل العكس هو الصحيح، فالتأليب، والتحريض، والمناورات المشتركة، عسكرية وسياسية، كل هذا من فعل غيرنا، ولا نملك أمام هذا الغير، إلا أن نأمل في أن يثوب إلى رشده، وأن يكف عن اتهاماته، وأن يستمسك بالعروة الوثقى لدينه الإسلامي، الذي هو قاسم مشترك بيننا، فنحن حريصون، واضحون، ساعون إلى بناء وطن مزدهر، يكافح لدعم حق الشعوب في تقرير مصيرها، ومساندتها في صراعها ضد الظلم والطغيان والهيمنة الأجنبية، وحاجتنا كبيرة إلى امتلاك إرادة مقاومة الأخطار، والتحديات المحدقة بالعالم الإسلامي، والدول النامية، ونمد اليد، لا الكماشة، لكل بلد يتعاون معنا في تحقيق هذه الغايات، خصوصاً البلدان التي تجمعنا بها العقيدة السمحاء، والرسالة السماوية الواحدة، والهدف الإنساني النبيل الواحد.

وما أحسبني بحاجة إلى ترداد ما يتردد كل يوم، من فضائح الممارسات الإسرائيلية، كقتل الأبرياء العزّل، وهدم البيوت على رؤوس أصحابها، وارتكاب المجازر الدامية في حق أهلها، هؤلاء الذين لا يطلبون سوى تطبيق قرارات الشرعية الدولية، أسوة

بتطبيقها على غيرهم، حتى لا يكون هناك كيل بمكيالين، كما يجري بحق الشعب العراقي الشقيق، الذي انصاع إلى كل القرارات الدولية، وآخرها الاتفاق المبرم مع الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان، وما التزم به العراق من تطبيق كامل له، ومع ذلك لا تزال العقوبات مفروضة عليه، بينما يموت الأطفال العراقيون كل يوم بالعشرات، من نقص الأدوية، وفقدان المواد الغذائية.

اسمحوا لي، في الختام، أن أنقل إلى إيران، إماماً ورئيساً وحكومة وشعباً، تحيات الرئيس الأسد الحارة، وتمنياته الصادقة لبلدكم الشقيق المسلم، الذي نأمل، وأملنا وطيد، أن يحقق ما ينشد من انتصار في كل مجالات بنائه، وأن يواصل طريق ازدهاره، ولحمة أبناء شعبه، ومنعة قوته، وأن يواصل، أيضاً، انفتاحه على الجوار من بلدان مسلمة مثله، تتقاسم معه صلات القربى، والمودة، والهدف المشترك، والغاية المشتركة، في سبيل استتباب الأمن في منطقة الخليج كلها، وفي العالمين العربي والإسلامي كليهما.

تقول الأسطورة إن قوة الإنسان، في ثبات قدميه، وانغراسهما عميقاً في تربة وطنه، وعندئذ يصبح عصياً على الاقتلاع، وعلى الأخذ من يمين أو يسار، وهذا الإنسان، في عصرنا، هو الإنسان صاحب العقيدة، وصاحب القضية، وصاحب الحق، وصاحب العدل، والساعي إلى السلام العادل، وكل هذه الصفات تنطبق على الإنسان في إيران، كما الإنسان في سورية، وفي البلدان العربية والإسلامية جمعاء.

الأميـر الأسـطورة
بمناسبـة مرور مائة عام على وفاتـه(*)

عصرنا هذا، وما أكبر، كتبت حجته بالدم لا بالحبر. كتبها الذين، في عناق الشهادة جعلوا من المفاداة نشيداً رفعته الأرض إلى السماء، فكانوا من أحبة الله، ومن الذين اصطفاهم الله ليكونوا من أحبته، ماداموا، على اسم الحق والوطن والشعب، رفعوا السيف ومضوا، كما في الأسطورة، يقطعون بحور الكفاح ولا يلتفتون إلى وراء.

فرنسا في القرن التاسع عشر، دولة ولا أعظم، وعبد القادر الجزائري، في القرن نفسه مجاهد ولا أعظم. رجل يتحدى دولة. بطل جعل الحشر من تحت أخمص البطولة، وقال للدنيا اضطربي. وماجت المعارك بالراسيات من جبال الجزائر طوال ستة عشر عاماً، كان خلالها مارداً في الحرب، عملاقاً في المقاومة، باسلاً في التصدي

(*) كلمة ألقيت عقب زيارة «معسكر»، مدينة الأمير الراحل، في احتفالية أقيمت أثناء انعقاد مؤتمر وزراء الثقافة الرابع في الجزائر، ونقلها الإعلام الجزائري المرئي والمسموع عام ١٩٨٣.

لقوى تفوق قوته بما لا يقاس. وقبل ذلك، في أعـوام الإمـارة التـي قبلها على كره، وأعطاهـا مـن شـمائله شـمائل، في الإرادة والتنظـيم وبناء الجيش، خشيت فرنسا هيبته ورهبته، فبدأت تجيش الجيـوش ضده، وهو على رأس نفر من المجاهدين، ينقصهم المـال والـسلاح والعتاد، يواجه عتو الجبار بقوة الإيمان، ويهزأ بـه، ويـذل كبريـاءه، ويقاوم، في وقت لم يكن للوطنيين المقاومين مـن سـند سـوى إرادة الحرية، وعنفوان الذات، ونفح الشجاعة.

إن سيرة عبد القادر الجزائري، في إمارتـه وحربـه وجـسارته، تـدخل التـاريخ مـن بـاب الأسـطورة، لأنـه كـان سـيد مـن بنـى الأساطير، وسيد من هدم الأساطير، وحطم الخرافات حول العـين التي لا تقاوم المخرز. فقد كان قناة شكت كبد الغطرسة، وأوهنـت عظمة الدولة الكبرى، حين عالمنـا، مـن دهـش وإعجـاب، صـفق لثوار الأوراس، جيلاً فجيلاً فجيلاً.

وحين حملته البارجة إلى سجن أمبواز في فرنسا، حمحمت مياه البحر غضباً، وسحت أحجار سجنه دمعاً، وفي سماء الجزائر البطلة، ومض برق، سـيكون لـه في النـيران شـعلة لا تنطفـئ، إلا بـالثورة الكبرى، حين عالمنا، من دهش وإعجاب، صـفق لثـوار الأوراس، وباركهم، وقبس منهم، ومنحهم، حباً وتكرمة، كتاب المجد الـذي مايزال في يمناهم.

وتسألون، ما نحن وجزائـركم، وأمـيركم وبطلكـم؟ سـائلوا دمشق إذن، وقاسيون، والغوطة، سائلوا تلك العروة الـوثقى، بـين

بلد إلى النضال منتماه، وبين بلد إلى البطولة مأتاه ومغداه، سائلوا سورية والجزائر، كيف كانت اللحمة في العروبة والإسلام وأخوة السلاح، وقرابين الثورة، هي الوحدة التي نسجتها من لحم ودم، يدا عبد القادر الجزائري، ومن بعده استطالت حتى أيامنا هذه.

ونفخر، ونفاخر، لأن الشام، بعد معسكر، كان لها شرف احتضان الأمير البطل، الطالع كوكباً في سماء الشرق المظلمة، ونوسع له، في هدب العين، مقاماً، ولإخوته الثوار في القلوب منازل، وفي سورية، كما في الجزائر، يكون للمجاهد الأعظم مآثر لا تنسى، لأنها في متون الخطط صارت، وفي أحاديث الآباء للأبناء قصة رجولة وسماحة أضحت، ومن وهجها قبسنا عزماً، كان له في ثورتنا عنوان، ومازال له في نضالنا عنوان، وفي خفقان قلوبنا لثورة الأوراس عنوان آخر، أما سفر الشهادة، فأنتم متنه، والمليون ونصف المليون شهيد حرفه، ونصركم المؤزر كلمته الداوية.

وحين رفت الروح بجناحي نسر، صاعدة إلى بارئها، كفنا الجثمان بالغالية والعرفان، وإلى جوار الشيخ الأكبر، محي الدين ابن عربي، أرقدناه مثوى غدا شاهدة للمكارم، ومزاراً للذين انضفر الوطن في سواعدهم سواراً فكانوا في قوافل الشهداء شعلاً، أوقدت الأفق بجمرات حمر، وبعد انتصار الثورة الجزائرية، نقلت الرفاة إلى التراب الذي أنبت غرستها، فكان نقلها تتويجاً بالغار للفارس الذي كانت صيحته في وجه فرنسا: أن اخرجي، قد أصبحت هديراً رعدياً في مسمع الكون، وكانت مفاداته الأولى، قد

صارت مفاداة شعب، بل أمة باسرها، تمجدت بالبطولة، وتعطرت بعبق التضحية، وتاهت على الدنيا هاتفة: هذه جزائرنا!

واليوم، بعد مئة عام على الوفاة، نحجّ إلى الأرض الطهور وفي الخواطر ذكريات، وفي الأيدي زهر، وفي الأنفاس عطر، وفي العيون ومض وفاء للذي كان في فكانت المعجزة، وكبرت، وازدادت كبراً، وكانت معها الخاتمة المظفرة التي زهت ببداية مظفرة.

أيها الكبير فينا، كبر الأوراس، أيها البطل بيننا بطولة وهران، أيها الثائر الذي علم الشرق كيف يثور، ويا أيها الذي كتب التاريخ دماً، لأنه مكتوب بالدم وحده تتحرر الأوطان، نم في الخالدين، وفي الراضين المرضيين، وتقبل منا انحناءة الإجلال، فقد كنت جليلاً في سيفك، جليلاً في قلمك، وجليلاً في صلاحك وتقواك، وبالغ الجلالة بما اجترحت من أعجوبة الصمود في وجه الطغيان، حتى دكت ركائزه وصارت في الأرض بدداً تذروه الرياح.

قاسـيون والأوراس

الـذرا تعرف الـذرا[*]

في تاريخ العرب الحديث، كانت البطولة صلة عراقة في تقاليد الكفاح، ومنها تستمد القيم والشيم، وكل الشمائل الغاليات. وقـد ضرب بلدانا، الجزائر وسورية، مـثلاً يحتـذى في هـذا المجـال، فيـه توكيد على أن الدم الثوري هو قبس من نور، وبه يسمو، هذا الـدم، إلى مـصادر النـور، حيـث نـشيد الحيـاة يـدوي في أذن الكـون أن استيقظ، فثمة نداء تحدو به القافلة، في تسيارها إلى أمام، وبه تترجع، في أربع جهات الأرض، أنغام المروءات، مغزولة بالمآثر التـي هـي، عند الله والنـاس، اصـطفاء لله مـن أحبتـه في المكرمـات، وازدهـاء للنـاس بأبنـائهم الـذين، في قـراع المعتـدين، يجترحـون معجـزتهم الأغلى، لأنها الأكرم، الأنبل، مادامت الشهادة، أرجوانية في اللون، شماء في الأرج، وهاجة في الـسطوع، متماثلـة والـشمس في الألـق، تشق طريق الشعب إلى الوجود، وطريق الأمة إلى المصير، وفي هـذا يتحقق الظفر للوجود والمصير معاً.

(*) أُلقيت في افتتاح أيام الثقافة الجزائرية في دمشق - مكتبة الأسد، ١ /٤ /١٩٩٥.

إن الأحـداث، في وقائعهـا الغـر، تكتـسب مـصداقيتها مـن التضحية، ولقد ضحت الجزائر، وضحت سـورية، فكانـا البلـدين اللذين أشعلا ثورة حمراء خالدة على الزمن. وهذا الرباط الثـوري، في أخوة العروبة، قد كـان رباطـاً للخيـل، كـما الوصـية في منـــزل التحكيم، وكان العروة، في وثوق الإيمان، وكان، فوق ذلـك، فديـة أرض حرة، أنتم ونحن من كتبها على خضرة الأديم، وزرقـة المـاء، وصفحة الـتراب الـوطني الـذي استـسقانا، في نـشدانه الانعتـاق، فسقيناه وزدنا، وتحررنا به، وتحرر بنا، وجلونا المحتلين بالرصاصـة لا بالضراعة، وبالفتكة البكر، لا بالعتـاب الـذي إذا لم يتـضر ظـل عتاباً بائساً مسكيناً.

هكذا كان، وهكذا صار، وهكذا شاء قدر الثورة في الغوطـة، أن يكون قدر الثورة في الأوراس، قتالاً، موصـولاً، عنيـداً، داميـاً، مفادياً، إلى أن حققت الثورتان، مع فارق الـزمن، هـدف التحـرر، فبلغنا بذلك ما نصبو إليه، وتتوجت ثورتانا بالظفر، وتتوج شعبانا بالأمل، هذا الذي يبقى، وكل ماعداه يـزول، مهـما اضـطربت بنـا الدنيا، وتقلبت الأمور، لأن الأمل حلم إلى الممكن يرتقي، وحلمنا كما هو حلمكم، ممكن اليوم وغداً وبعد غد، بسبب من رسـوخه في الصدر، ونبضه في الضمير، والغاشية تمر، والغيم سحابة تـسفوها، كالرمل في البيداء، الريح الهبوب، ثم يكون الشفاء الذي يبلسم كل الجروح، جروحكم وجروحنـا، هـذه التـي هـي واحـدة، لأنهـا في صلات الـرحم واحـدة، وفي وشـيجة الكفـاح واحـدة، وفي آصرة

الأخوة واحدة، لذلك فإن أيامكم الثقافية بيننا، هي أيامنا الثقافية، بينكم، حقيقة لا مجازاً، ونريدها حقيقة لا مجازاً، إنكم في ألوان فنونكم التي سنرى إليها خلال هذه الأيام، تعرضون علينا إبداعات غنية في تنوعها، وتعددها، وغنية أكثر في تمثيلها لليد الجزائرية المبدعة، الخلّاقة، ولوجه الجزائر الأصيل والمضيء، ولكل ما نعرفه فيكم من صفات عربية أصيلة، حافظتم عليها، يوم كان الحفاظ عليها يتطلب ثمناً باهظاً، تجاه محاولات الفرنسة التي خابت على أيديكم، وبقيت الثقافة العربية الإسلامية، كما عهدناها، في تجذرها والصمود.

إن نظرة واحدة إلى ما تحملون إلينا من عطاءات الثقافة، تكفي كي نعرف، ونتأكد، ونتجاوز التأكد إلى اليقين، ان الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر بخير، وهذا يعود إلى تقديركم لدور الثقافة في وقتنا هذا، ولارتقائكم في الشأن الثقافي إلى ما يزيد في تعزيز هذا الدور وازدهاره، وفي هذا نجد، مرة أخرى، تماثلاً آخر بيننا، لأننا، نحن أيضاً، نضع الثقافة في الصدارة، ونقيم لها، وفق تصور واضح، ركائز نهضة دائمة، هي فرع من أصل في نهضة سورية الشاملة، وكل ذلك ينتمي إلى العناية والرعاية اللتين يسبغهما الرئيس الأسد على كل ما يمت إلى الثقافة بصلة، لإدراكه، هو المثقف بحق، أن الفعل الثقافي، إنتاجاً ونشراً، هو المعيار في بناء دولتنا العربية الحديثة، المرتكزة على أساسين من القوة الضاربة، والقوة الفاعلة، ففي البندقية يكون التحرير، ويكون الذود عن

الوطن، ويكون، أيضاً، التمسك الـذي لا هـوادة فيـه بـالحق، وفي الكلمة، تكون صياغة وجدان من يحمل البندقية، تحريراً لـلأرض، واسترداد الحقوق، ونشداناً للسلام العادل الـشامل، ولا أميـل، أو أجنح، إلى أيما مبالغة، إذا قلت ان القائد الأسد يدرك إدراكاً عميقـاً حقيقة التلازم والتلاحم بين جبهة الكفاح وجبهة الفكر، ولهذا فإنه يـولي، رغـم المـشاغل والالتزامـات، الآداب والفنـون، اهتمامـاً استثنائياً، يكاد يكون فريداً من نوعه، وتأسيساً على هذا، وانطلاقـاً منه، فإن دمشق الآن، أحـد أبـرز منـابر الثقافـة العربيـة في الـوطن العربي، وهي مركز إشعاع إبداعي يضيء في دائرة هذا الـوطن، وفي هذا بعض اعتدادنا الوطني والقومي، وفيه، إضافة إلى ذلـك، هـذا الحضور العربي الثقافي في العالم، ودونه لا تستقيم الأمور في مواجهة التحديات، قريبة وبعيدة، ولا يكون لنا تـأثير، أو إسـفار، في الغـير وإليه، ولا تتجلى سورية حضارياً، هي العريقة في الحضارة، والتـي كانت، منذ فجر استقلالها الوطني، تحتاج إلى مثـل القائـد الأسـد، الذي يتحلى بشجاعة نادرة، وقـدرة خارقـة عـلى رؤيـة الأشـياء في شموليتها وجزئيتها، فيقيم التوازن بينهما، ويعطي الاهـتمام للكـل، بمثل ما يعطيه للجزء، وبذلك حقق لسورية، لأول مرة في تاريخها، النهضة المرتجاة، دفاعيـاً واقتـصادياً وثقافيـاً، وبـذلك حقـق أيـضاً المعادلة الصعبة، التي أحد طرفيها السيف، والطرف الآخر القلـم، وبكلمة أخرى، أوجد أداة التحريـر وأداة الإبـداع، وجعلهـما عـلى توازن، وتفاعل، وإيناع مشترك، وإثمار مشترك، أتاح لنـا أن نتخـذ

موقفاً عربياً قوياً بامتياز، في طرحنا للسلام الشامل مقابل الانسحاب الشامل، وثباتنا في هذا الطرح، رغم الضغوط والمناورات، ورغم الختل والخداع اللذين عرفناهما في العدو الإسرائيلي، ونعرفهما الآن، كرة أخرى.

وفي افتتاحنا هذا لأيام الثقافة الجزائرية في دمشق، نشعر بسعادة غامرة، غير عادية، غير مألوفة، مردها إلى أننا نعرف، ونألم، لظروف الجزائر الشقيقة، ونفاجأ، مع التشديد، بأن هذه الظروف لم تحل دون أن يكون للإخوة الجزائريين هذا الحضور الثقافي الكبير، الأمر الذي يثير الإعجاب، ويبعث على الدهشة، لا لأن العطاء الثقافي الجزائري غير متطور، أو غير معروف، بل لأن تطوره قد واصل مسيرته رغم العوائق، ولأن العملية الثقافية في الجزائر تخطت الموانع، وتغلبت على الصعاب، وأثبتت أنها ذات حضور كامل، ما كان ليتحقق لولا أن ثمة اهتماماً فاق التوقع، في تقدير ما للثقافة من شأن، سواء في نشر المعرفة، والوعي، والرؤية، أو في جعل الثقافة حقيقة حضارية، تعتز بها الجزائر، بمقدار ما تعتز بها سورية، وهذا دليل آخر، على أننا نملك تصوراً واحداً تقريباً لأهمية الثقافة، ولأثرها، وضرورتها، في كل الظروف وبإطلاق، وعلى أن مفهوم التبادل الثقافي، الذي نوليه قدراً رفيعاً من الأهمية، هو لديكم بمثل ما هو لدينا، وأن العطاء الإبداعي العربي يتكامل، وفي تكامله يتيح لنا أن نثمن منجزاته، في الداخل والخارج، ونقدر كم هو نافع لنا، في صياغة مشروع نهضوي تنويري، لا مندوحة عنه،

إذا ما أردنا أن نكون على سوية الأمم الأخرى، خاصة ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين.

ومن البديهي أن العمل الثقافي الجماعي، في الإنتاج والنشر والتبادل، هو المعمول عليه في وقتنا الراهن، ذلك أنه ليس هناك من مثقف يستطيع أن يكون كبيراً في ذاته، ولذاته، فالشعور الجمعي، في الألم وانتفائه، في الفرح وانديّاحه، في السعادة وغمرتها، هو الذي يجعل هذا الشعور عميقاً في انغرازه بتربة المجتمع والتاريخ، والمثقف الذي لا يعرف أن يشارك في هذا الشعور، ليس في وسعه أن يكون لسان مجتمعه وزمنه وإنسانيته، ولا يستطيع، تالياً، أن يكون ممثلاً لهذه المكونات.

لقد أورد الناقد الشهير بيلنسكي في نصوصه المختارة، هذه الفكرة النيرة التي تصح على كل وجه، وتنسرح على كل زمن، عندما أكد أنه«بقدر ما تكون الفكرة الجوهرية التي تخصب حياة الشعب أكثر إنسانية، وبقدر ما يعبر الشعب بحياته عن الإنسانية، وبقدر ما يؤثر في مصائرها، تنضوي ثقافة هذا الشعب في صميم الثقافة الحقة، وتكون ذات قيمة أكبر في تأثيرها وتأثرها معاً».

إن السؤال، في صدد هذه الفكرة، هو التالي: إلى أي حد تعد ثقافتنا العربية إنسانية، وفي خدمة الإنسانية، وقادرة على إخصاب وتنوير شعبنا؟ والجواب ليس بسيطاً طبعاً، ولا يمكن توجيزه وتكثيفه في كلمات، غير أن من يتتبع عطاء الثقافة العربية، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وإلى ايامنا هذه، يجده عطاء

إنسانياً حقاً، فقد كان نزوع آدابنا والفنون، نزوعاً لإخصاب الشعب وتنويره، وتجلى هذا النزوع بصورة خاصة في محاولات رواد النهضة العربية، التي لم تكتمل مع الأسف، لأسباب لا مجال لتعدادها في هذه الكلمة، ومن واجبنا الآن، وبكل ما نملك من إمكانات، أن نستأنف ما انقطع من وشائج هذه النهضة، وأن نستعيد محاولات الرواد من مفكرينا، لا أن نعيدها هي بذاتها، لأن هذا غير ممكن، مادامت الأفكار انبثاقاً للحالة الاجتماعية، وتعبيراً عنها في كل مرحلة. غير أننا نقصر في حق أبناء شعبنا، إذا لم نسعَ إلى اطلاعهم على أفكار الرواد من مفكرينا، مادام البناء لا يشاد بغير أساس، ومادامت الثقافة لا تنهض ولا تنطلق من فراغ، ومادام الاطلاع على التراث التنويري، لأمتنا والأمم الأخرى، يتيح لنا أن نستأنف، ونبدأ، من حيث توقف التنوير، في حياتنا الثقافية العربية، وبذلك نكمل ما شرع به الأسلاف.

ولا شك عندي في أن الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، قد كانت، وستبقى، إنسانية المحتوى، وأنها عطاء وفير، مكمل لعطاء الثقافة العربية في بلدان هذا الوطن العربي، ومن هنا تنبع أهمية التبادل الثقافي العربي، وتنبع، كذلك، أهمية التلاقح الثقافي مع الثقافات الأخرى، ذات المضمون الإنساني، وليست إقامة الأيام الثقافية مسألة شكلية، غايتها الاستعراض، وإنما هي ضرورية، وذات هدف ثقافي رفيع، وأنها تأتي في سياق الإغناء والاغتناء الثقافيين، وتأخذ ضرورتها ومشروعيتها من هاتين الغايتين، وتثبت

من جديد، ما لاحظه المثقفون العرب، حول مسالة الوحدة الثقافية العربية التي اجتازت امتحان التجزئة، وظلت متماسكة، حاضرة، رغم التمزق العربي الذي مررنا به، ونمر به الآن أيضاً.

أهلاً بكم في سورية، أهلاً بكم في دمشق، دمشقنا ودمشق العرب كلهم، هذه التي كانت الرئة التي تنفس بها الأحرار من المناضلين العرب ماضياً، ويتنفسون بها حاضراً، وإنه لاعتزاز لنا أن يكون أميركم الأسطورة، عبد القادر الجزائري، قد تنفس بها ومنها، شميم الحرية، يوم نفي إليها، أو اختارها منفى اضطرارياً، بعد إبعاده من الجزائر، وإني لواثقة أن الأيام الثقافية الجزائرية، الغنية، المتعددة، المتنوعة، ستسهم في اطلاع شعبنا على ما لديكم من إبداعات رائعة، وستكون هذه الإبداعات رافداً من روافد الثقافة، وبها تزداد إبداعاتنا غنى، وتكتسب مهارة، وتترسخ جذوراً، وهذا، في المحصلة، أحد أهداف التبادل الثقافي العربي الذي نسعى له، ونصر عليه، ونحرص على ديمومته.

إن قاسيون يرنو إلى الأوراس، فالذرا تعرف الذرا، كما يعرف الإنسان الإنسان، وليس قاسيون سوى الشقيق، ولستم أنتم سوى الأشقة، ينزلون في الرحب من الصدر، وفي التكرمة من الخافق، وفي منازل الأعزاء الذين معزتهم كان لها تاريخ، ولا يزال لها تاريخ، وستبقى هذه المعزة عامرة، غامرة، مادمنا في الكفاح معاً، وفي الدفاع عن الوجود، وعن المصير، معاً أيضاً.

عبد القادر الجزائري
الأمير النبيل، والبطل الأسطورة(*)

الإمارة الحقيقية، وما أمجد، هي النبالة الحقيقية وما أكرم، والإمارة ليست لقباً يتوارثه الناس أباً عن جد، فمثل هذه الوراثة هي الاسم مجرداً من الفعل، لأن الإمارة، في زهو تحققها، وفي جدارة اكتسابها هذه الصفة، تأتي من مصدرين: السماء في منحتها، والأرض في عطائها، وقد كان عبد القادر الجزائري منحة سماء، وعطاء أرض، هي أرض الجزائر التي كتب عليها أن تتعمد بالدم، ليكون الأرجوان، في لونه وعطره، وكذلك في ألقه ونفحه، هو الصلاة الصامتة، الصلاة البكر، التي يرفعها المجاهدون في سبيل أوطانهم وشعوبهم، تحية زنبقة إلى نجمة، وما أروع الزنابق، في حقول المستحقين، وما أسطع النجوم في أكف الذين يقبضون عليها.

عبد القادر الجزائري كان أميراً، ووارث إمارة، لكنه بفعاله، أعطى الإمارة عزها، وحفظ للوراثة حقها، لا بالسيف وحده،

(*) ألقيت في الجزائر بمناسبة احتفال خاص أقيم للأمير المجاهد عام ٢٠٠٠.

ولا بالقلم وحده، بل بهما معاً، حين يمناه، وبيض الهند فيها، تطعن صدور الأعداء، دون حساب للموت، هذا الذي هو البداية والخاتمة للمفادي، وحين القلم يمسح على العيون فتنفتح، كنوزاً من الإيمان والرحمة والمودة، وحين الصدر، في التصوف، يشف عن أضلاعه، فإذا هي، في القفص الصدري، انتشاء العوالي، وجواهر الكلم، وصدق العقيدة، وتوهج العبقرية، في صوفية خالصة، هي الكشف، وهي الشطح والوجد والتوحد، وهي الجلوة الربانية، والنزعة الإنسانية، مادام صاحبها، في الحالين، هو هو، فولاذاً سقاه غمام السماء، ودرعاً زانته التقوى، وإشراقاً قدسياً امتزج بغالية الطهر، وشفّ بنبالة القلب والوجدان.

ولطالما، في مثار النقع، وضع الأمير الجزائري المقاوم، المجاهد، رجله، وقال لها قولة المتنبي:«من تحت أخمصك الحشر»، ولطالما استوحى الشعراء في الشرق والغرب، صورة الجهاد البهية، ومن بعدها النصر المجنح، مأثرة تضحية، وزهو كفاح، وضريبة وطن، عبر عنها رامبو بشفافية وعمق في قصيدته«هدايا رأس السنة« حين قال:«نجومي في السماء كانت ترتعش في حنان، وكنت أحس قطرات من الندى على جبيني»، فالفارس الذي يمس بجبهته غرّة السماء، هو الفارس الذي ترتعش له النجوم، ويهمي الندى كرمى اعتراف على جبينه.

إن حداء الجهاد، هو ترنيمة النار المقدسة، نار العوسجة الملتهبة، التي منها يأتي صوت الأعالي، وقد سمع أمير الجزائر هذا

الصوت، ممزوجاً بصوت شعب الجزائر المستباح، من قبل غزاة فرنسيين برابرة، فهب من عرين الراحة إلى تعب الجهاد، مدركاً أن الدم فدية وطن يكون أو لا يكون، وقد كان الدم الجزائري فدية مبكرة لوطنه، ستتبعها فدية أخرى، هي استمرار لها، في قرن آخر، هو قرننا الذي شهد ثورة المليون ونصف المليون شهيد، وسمع فيلسوف فرنسا، سارتر، يصرخ في قادة الجيوش الفرنسية«عارنا في الجزائر»، وهكذا، بالدم يصبغ برود الثائرين، وبالعار يجلل ثياب المستعمرين، تبلغ الثورة غايتها، ونهايتها، وتتحرر الجزائر حرة وإلى الأبد.

قال جوكوف، القائد السوفييتي الكبير، في الحرب العالمية الثانية، في مذكراته:«لولا التصنيع في الثلاثينات، لما استطعنا دحر الجيوش الألمانية الغازية في الأربعينات» فهل في وسعنا، ونحن نتحدث عن قائد جزائري شهير أيضاً، أن نقول: إنه لولا مقاومة الجزائر للغزو الفرنسي، الذي بدأ في العام ١٨٣٠، لما استطاعت الثورة الجزائرية الثانية أن تنتصر في الستينات من القرن العشرين؟ في الجواب يمكن أن نقول: نعم! فريادة عبد القادر الجزائري، في مقاومته لفرنسا، في القرن التاسع عشر، أعطت مثلاً، وقدمت برهاناً، على أنه يمكن مقاومة القوات الفرنسية، بل الانتصار عليها، رغم التفاوت في العدد والمعدات، الحربية، فالريح المثقلة بنداءات الجهاد، التي انطلقت في قرن، هي نفسها الريح المثقلة بنداءات الجهاد في قرن آخر، العالم فيه قد تغير، وظروف الانتصار على المحور، قد أعطت الشعوب إمكان الانتصار على مستعمريها.

ففي عام ١٨٣٠، انقض الفرنسيون، مسلحين حتى الأسنان، على الجزائر في غزو مفاجئ، اضطر فيه الولاة الأتراك إلى الاستسلام، لكن عبد القادر الجزائري، الأمير ابن الأمير، كان هناك، وكان قد بدأ يبني حكماً مزدهراً عاصمته مدينة معسكر، فنهض رافعاً راية الإسلام والمسلمين لمقاومة الفرنسيين، وجبه غزوهم، ومارس دوراً إيجابياً في الأحداث، حدده بقوله: «إنني لم أصنع الأحداث، بل هي التي صنعتني. إن الإنسان مثل المرآة، والمرآة لا تعكس الصور الحقيقية إلا إذا كانت واضحة وصافية»، وكان صنيعه للأحداث باهراً، حتى أصبح، بعد وقائعه الحمر، بطلاً عالمياً، بعد أن كان خلال المقاومة، بطلاً عربياً وإسلامياً فقط.

لقد قارع، مبايَعاً من الشعب الجزائري، الغزو الفرنسي، واضطره إلى عقد أول معاهدة معه، ثم كانت معركة المقطع عام ١٨٣٥، وكانت المعاهدة الثانية، والغزاة يعقدون المعاهدات، ويحبرونها قصاصات من ورق، ولم يكن هذا يفوت الأمير عبد القادر، إلا أن الظروف الدولية اضطرته إلى القبول، وكما نقض الغازي الفرنسي المعاهدة الأولى، نقض المعاهدة الثانية، وجلب المزيد والمزيد من قواته العسكرية، فأعلن بطل الجزائر الحرب على فرنسا، وخاضها ببسالة نادرة، إلى أن نفدت وسائل مقاومته، ولم يعد قادراً على الاستمرار، أو على مناجزة القوات الغازية، فألقى السلاح نزولاً عند واقع، اللاتكافؤ الرهيب عنوانه، فاعتقله الفرنسيون، ونفوه إلى طولون، ثم إلى سجن أمبواز الذي أمضى فيه

مدة الاعتقال، وكان في معتقله الذي لم يسمح له بمغادرتـه، كـما في مقاومته، كبيراً كبيراً، عصياً عصياً، لم تلن له قناة، إلى أن أفرج عنه، وامتلك حريته، وأصبح طليقاً، فانتقل أولاً إلى بروسه في تركيا، ثم إلى دمشق، ظئر العروبة، الرازحة بدورها تحت نير الحكم العثماني.

* * *

لا يمكن، قولة الفلاسفة، فهم الحاضر من المـاضي، بـل فهـم الماضي من الحاضر، وعلينا، كي نفهم حرب الأمير عبد القادر ضد فرنسا، أن نفهمها على ضـوء حاضرهـا، الحـاضر المتـسم بالعزلـة، وعدم ملاءمة الظروف، واستحالة نجاح الثورات، وهـي محـاصرة بالقوى الاستعمارية العاتية، ممـا يـستدعي ضرورة اتـسام أحكامنـا بالإنصاف.

ولقد حاول بعض المـؤلفين والكتّـاب، العـرب والأجانـب، التشكيك بشخصية الأمـير المجاهـد، إلى حـد الـزعم بأنـه«صـار مواطناً فرنسياً مخلصاً» وبأنه«تخلى عن قـضية الجزائـر»، وأنـه تمتـع بصداقة نابليون الثالث ورعايتـه، وأن نـابليون الثالـث قـد جـاوز المعارضين والمعترضين بعد أن زاره في معتقلـه في أمبـواز، وعاملـه بإجلال واحترام، وبشره بالسماح لـه بالمغـادرة إلى بـلاد الإسـلام، إضـافة إلى مـا صـار يتمتـع بـه، أيـضاً، مـن شـهرة في بـاريس، في الأوساط الفنية والأدبية والأكاديمية، ممـا جعلهـم يعينونـه عـضواً مراسلاً لمجمع الخالدين في باريس، ويختاره فنانون معنيـون برصـد سيرة العظماء موضوعاً للوحاتهم..

ولا يخفى ما في ذلك من تعنت ومجانفة لموضوعية تسلسل الأحداث، وتزييف لحقائق يصعب تزييفها، ويكفي، في الرد على ذلك، إيراد نص للأمير كتبه في رسالة إلى صديق له سويسري، يقول فيه: «ويعرف مواطنيّ، أنني لم أستسلم للفرنسيين إلا بعد خمس عشرة سنة من الكفاح، وأنني لم أفعل ذلك إلا ممتثلاً لإرادة الله».

ويعنينا جميعاً، في هذا الصدد، أن نعيد دراسة الوثائق التي يحاول البعض قطعها عن سياقها، وإيرادها بشكل يرسم صورة مغايرة تماماً، لما نعرفه عن الأمير المناضل، وبما يخدم أهدافاً يراد منها التشكيك بتراثنا الوطني، وبالرجال الذين كانوا منارات للنضال المقدس في تاريخنا.

لقد حظي الأمير، في تلك الحقبة البعيدة من التاريخ، بكل ظروفها وملابساتها، بتقدير كبير لشخصه، في العالم من حوله، فقد جمع في ذاته سمات نادرة، إذ لم يكن الفارس المغوار فحسب، بل كان، أيضاً، شاعراً مجيداً ينظم في كل ألوان الشعر، وصوفياً كبيراً في العصر الإسلامي الحديث، حجبت أسطورته الوطنية الجزائرية، وإلى حدّ ما، شخصيته الحقيقية، كشاعر ومتصوف، عدّ في زمانه ولياً، وعالماً، وشاعراً، وبطلاً، فضلاً عن صفاته العسكرية، وتجلياته كرجل دولة، ولا يصح، كما يرى الباحثون الجزائريون، أن نتوقف عند نشاطه السياسي، أو القتالي فقط، لأنه تحلى، إلى جانب إتقانه

للفن السياسي، بإتقانه فنوناً أخرى، لا تقل أهميـة، وهـي كفيلـة أن ترفعه إلى مصافّ الزعماء الخالدين، ويكفي أن نذكر له أنـه رفـض، بإصرار لا حيـدة فيـه، ولا رجعـة عنـه، الانـسياق في أي مـشاريع استعمارية، استسلامية، أرادوا جرّه إليها.

واختار الأمير العظيم، بعد إقاماته في المنفى، في أكثر من دولة وأكثر من مدينة، أن يستقر في دمشق، ولقد أتاها، هي الغرّة الأموية في جبين التاريخ العربي الإسلامي، مكرّسـاً بهـالات الـضوء، عـلى نحو ما جاءها ذات يوم، المفكر الكبير، الجليـل، المتـصوف، الـذي أحبه وتتلمذ عليه، الشيخ محي الدين بن عربي، ومنذ نزلها لقي فيها من الترحاب، ما يلقاه الذين استحقوا التكريم، بما أعطـوا، كفاحـاً وبسالة وموهبة وسطوعاً، له مع التاريخ ضوء وميعاد، وقـد كتـب هو تعقيباً يقول فيه: «لقد استقبلني الدمـشقيون أحـسن اسـتقبال، وعدوا يوم دخولي مدينتهم يوم عيـد، فالرجـال والنـساء تـسابقوا أمامي»..

وفي دمشق ارتفع الأمير، في فروسية الفكر والخلق والكلمـة، على فروسية السيف، فأحيط بالمحبة والإكبـار مـن النـاس جميعـاً، ونزل أول ما نزل، في دار أستاذه ابن عربي، الـذي وضـعه بتـصرفه الوالي العثماني عزت باشا، ثم انتقل إلى منـزل آخـر أرحـب، يتـسع للزائرين الكثر الذين كانوا يقصدونه ويؤمون بيته، أو يطلبون العلم

على يديه، وكان هذا المنزل يقع في حي العمارة الشهير في دمشق القديمة، وفي زقاق النقيب الذي كان الناس يقصدونه لزيارة مقام السيدة رقية.

ومن فضائل هذا الرجل المتواضع، الذي ينتمي إلى الأسرة الهاشمية، ويتمثل فيه الورع الحقيقي، أنه كان يقف في نهاية الزقاق المنفتح على حي العمارة، ويجهر، بلهجته المغاربية المتميزة، بالأذان وقت الصلاة، وأن الناس كانوا يهرعون إليه طلباً للبركة منه، ولم يكن يضن عليهم بالحنان والمودة، وكان يمسح على رؤوسهم، ويدعو لهم، ويسأل عن حاجاتهم.

إضافة إلى ذلك، فقد احتل موقع الصدارة في بيوت أهل الشام الذين أحبوه، وأحاطت به نخبة من العلماء يقبسون منه ويحاورونه، واختير عضواً في مجلس المدينة، وسارع إليه أعيان أهل الشام، وأبرز الأسر فيها، وكانت دروسه وحواراته في الجامع الأموي، وفي خلوته المتفردة، في منزله في قرية أشرفية صحنايا، وفي التكايا والزوايا، والمساجد المختلفة، مثار تقدير واهتمام، كما كانت أحياناً مصدر قلق وإزعاج للسلطة العثمانية المتهاوية والظالمة. ولقد استمر على هذا الحال من ممارسة التدريس والبحث، في التصوف والتاريخ وعلوم الدين، مدة عشرين عاماً.

ولقد عرف عنه أنه كان كريم اليد، ينفق على المشاريع العامة، ويساعد المحتاجين، ويوفر الفرص لتيسير المعرفة، والبحث عن

مصادرها، في مظانّها، حتى لقد أوفد، بحثاً عن مخطوط، أحد العلماء المعروفين، على نفقته، إلى اسطنبول ومكتباتها، التي حفظت فيها ذخائر المخطوطات، ومنها مخطوطات ابن عربي.

لقد جسّد هذا الأمير البطل، مثال الإنسان الكامل، بقدر ما يمكن للإنسان أن يكون كاملاً، في زهده وتواضعه، ووجده الصوفي، ورفضه لمغريات الدنيا الفانية، مقتدياً في ذلك بسلوك معلمه الذي أجلّ، وفي هذه العاصمة الأموية، اجترح مأثرته الكبرى، بحمايته للمسحيين، في فتنة عام ١٨٦٠. لقد جمع وجهاء القوم، وأصحاب النفوذ، ليقول لهم:«إن الأديان، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، أجلّ وأقدس من أن تكون خنجر جهالة، أو معول طيش، أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم. أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيباً، أو أن يكون له إلى نفوسكم سبيل» وفتح بيته للائذين به، يحميهم ويضمن سلامتهم، كما فتحت آنذاك بيوت أخرى للمتنورين والمؤمنين المخلصين، يستضيفون فيها العديد العديد من الأسر، وكان له، إلى ذلك، دور كبير وأثر أكبر، في إنهاء هذه الفتنة الظالمة، ومن عيون ما كتب، آنذاك، بشفافية المؤمن العالم، هذه الكلمات التي يخص بها المسيحية، في سماحة يندر ما يشبهها في السماحة:«آه لو كانوا سمعوا، آه! لو وجدوا لي ذلك الراغب في معرفة الطريق.. آه! لو استمع إلي المسلمون والمسيحيون، لكنت قد قضيت على تناحرهم، ولجعلت منهم إخوة في الداخل والخارج».

ولا بد من أن أذكر، بتقدير كبير، لصاحب الجهادين، الأصغر والأكبر، أنه انصرف، بعد أن نكث الغزاة الفرنسيون بوعدهم، ومقاومته الطويلة لهم، إلى ما يجعل منه عالماً، من خلال معرفته لنفسه، ومعرفته لما حوله، بحيث تجذرت دوحته في الأرض، وسمقت فروعها في الفضاء، وكان الكتاب رفيقه الدائم، وقد عرف عنه، من خلال حربه للقوات الفرنسية الغازية، أنه كان يحمل مكتبته معه، حباً بالعلم، وشغفاً في الاستزادة من المعرفة، وإذا كان قد اهتم بشق قناة السويس، فلأنه كان يرى فيها الأمل في أن تكون جسراً معرفياً حضارياً، بين الشرق والغرب، يحقق التواصل بين الشعوب بوجهه الإنساني.

وازداد الضغط التركي على الناس جميعاً في سورية، ومسَّ الأمير المجاهد منه ما يؤذي الكرامة، حين استدعاه الوالي العثماني إليه، وقال له، كما تجمع روايات الذين ارتبطوا بالأمير بصلات خاصة: «أتريد أن تكون دولة داخل الدولة؟» ووجه له إنذاراً غير لائق، بضرورة التوقف عن ممارسة النشاطات التي رآها الوالي آنذاك مدعاة للإخلال بالأمن، وكانت الأعصاب متوترة، والمخاوف تزداد في بنية الدولة كلها.. واختار الأمير أن ينتقل إلى دمر، وكانت ما تزال ضاحية لدمشق، يمتلك فيها منزلاً واسعاً حوّله حفيده الأمير سعيد الجزائري، فيما بعد، إلى قصر، ثم هجره

بعد ذلك، وصار الآن مقهى ومطعماً، وإن ظل معلماً يشير إلى تاريخ الأمير، ويحمل اسمه بين الناس حتى الآن.

ولم يطل به المقام في دمر، حين ارتأى أن يلجأ إلى العزلة هناك، ورغب عن لقاء الناس كالسابق، وكان حزيناً جداً كما يروي الناس، أوجعه ما طلبه منه الوالي، ولم يشأ أن يُؤذى أحد بسببه، أو أن يساء إلى كرامته، وأخذ الجسد يتهاوى، وملامح الرحيل تتبدى سعالاً شديداً، متواصلاً، وليلة وفاته استدعى أحد مريديه، وأملى عليه وصية أقتبس منها مقطعاً يكشف عن قوة الشكيمة، والصلابة في مواجهة الموت: «أنت أيها الإله الحي القيوم، أتضرع إليك أن تلطّف ليلي، وتغمض عيني.. إنا لله، وإنا إليه راجعون.. اغفر يا الله للأحياء والأموات، وللحاضرين والغائبين، وللصغار والكبار، وللرجال والنساء، أنت العليم بحلّنا وترحالنا»..

وأنهى الإملاء حسب رواية الكاتب، وأدار وجهه إلى الحائط، وتمتم بالشهادة، ثم أسلم الروح، منتصف ليلة الرابع والعشرين من أيار، عام ١٨٨٣.

* * *

خرجت الأمة تشيع النعش الذي حوى حسب قول شوقي، أمة وبحراً عبابا.. وصلي عليه في الجامع الأموي الذي كان يمضي الكثير من ساعات نهاره فيه، معلماً، ومدرساً ومتعبداً، وحمل النعش

بعد ذلك، ليدفن في الصالحية، في الجامع المعروف باسم الشيخ محي الدين، إلى جانب ضريح ابن عربي الذي أحب وأكبر، رحمهما الله رحمة واسعة، وأوسع لهما في جناته.

* * *

جان جينه، في«حوارات وشهادات» قال:«حتى لو لم تكن فعالية الفدائي مباشرة، فإنها تبقى على أي حال، شحنة ثورية حية»، وقال بعد زيارته لأماكن تواجد الفدائيين:«إسرائيل هي الغرب، مزروعاً في البلاد العربية»، وفي هذه الأيام التي يعربد فيها العدوان الإسرائيلي، ويرمي، بقذائف دباباته وحواماته، البيوت والأماكن السكنية، مستبيحاً حرمة أراضي السلطة الفلسطينية نفسها، حيث سقط من أطفال الحجارة وشبابها، مئات القتلى وألوف الجرحى، في هذه الأيام، علينا، وبمناسبة الكلام على بطل الجزائر، أن نذكّر بأبطال انتفاضة الأقصى المبارك في فلسطين، وأن نرفع الصوت، ونقدم المساعدة لهم، الصوت استنكاراً لوحشية العدوان الإسرائيلي، والمساعدة كي يستطيع المفادون من المقاومين، مواصلة مقاومتهم.

الموت للمعتدين الإسرائيليين، والمجد للشهداء الأبرار، يقبسونه من جمرة المقاومة التي أضرمها، وألهب نارها، ذات فجر، الأمير عبد القادر الجزائري، ضد الغزاة الذين اندحروا، والذين

سيندحر مثلهم كل معتـد أثـيم، يحتـل أراضي العـرب، ويغتـصب حقوقهم، والله أكبر، والنصر بداية وخاتمـة، للمـؤمنين المناضـلين، على أي جبهة نضال وقفوا.

عبد الرحمن الداخل
صقر قريش
البطل الذي صنع أسطورته(*)

السادة العلماء الأجلاء

يسعدني أن أنوب عن السيد الرئيس **حافظ الأسد**، رئيس الجمهورية العربية السورية، الذي تفضل برعاية هذه الندوة الدولية، بمناسبة مرور اثني عشر قرناً على انتقال عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، قادماً من بلاد الشام، وبناء جامع قرطبة الكبير، وأن أنقل إليكم تحيات السيد الرئيس وتمنياته بالنجاح والتوفيق.

إن موضوع ندوتنا هذه، موضوع يبعث على الاعتزاز، ويتطلب، في الكلام عليه، أن نستعيد تاريخاً مجيداً، له عندنا، كما عند الإسبان والأوروبيين، وكل المشتغلين بتاريخ الدول والحضارات، قيمة عظمى، لما ينطوي عليه من مجد باذخ، وحدث فريد، ومساحة

(*) في افتتاح ندوة «من الشام إلى الأندلس». في دمشق ٢٨ /٤ /١٩٨٦..

في الزمن، تعطي احتفالنا هذا طابعاً مميزاً، في ضرورته وخطورته معاً.

ذلك أن عبد الرحمن الداخل قد صنع أسطورته، كما يصنع عظماء الرجال أساطيرهم، فكان فذاً، جريئاً، خارقاً في ما أتاه، مع أنه إنسان فرد اعتمد الشجاعة، والموهبة، وحسن التدبير، لا في إنشاء الدولة فحسب، بل في مآثر هذه الدولة، وروعتها، ومكانتها، وعطاءاتها العمرانية والمعرفية، ثم في مجدها الشامخ، الذي قام على بناء حضارة، عربية الوجه، عربية اليد، عربية اللسان والسجايا، انتشرت في الأندلس، وانتشرت من الأندلس، فبلغت أوروبة التي أخذت عنها الكثير من العلوم والفنون والآداب، نقلاً، وتأثراً، ونهلاً من معين ثر، في حقبة الازدهار التاريخي الذي عرفته الدولة الأموية الأندلسية، طوال ثلاثة قرون ونيف من حكم عبد الرحمن الداخل وأولاده وأحفاده، ويكاد المرء، وهو يستعرض سيرة هذا البطل، أن يخرج بها عن السيرة المألوفة للملوك والأمراء الذين كان لهم صيت بعيد في التاريخ، ويجنح به الخيال إلى المعجزة، أو الأعجوبة، مع أن وقائع التاريخ تضعه أمام حقائق من صنع البشر، اجترحها سليل الأمويين الذي خرج وحيداً، متخفياً، من بلاد الشام التي آل الحكم فيها إلى العباسيين، قاصداً مصر أولاً، ومنها إلى المغرب حيث اجتاز البحر سنة ١٣٨ هجرية إلى مدينة المنكب الأندلسية، في قارب سماك، وفي هذه المدينة كشف عن نفسه،

وجاهر بأمره، فأتاه القادة، وكانوا من موالي بني أمية، فبايعوه، وأظهروا بيعته، بعد ثمانية أشهر من وصوله، وعندئذ قصد مدينة قرطبة، وانتصر على والي الأندلس يوسف الفهري، وخاض المعارك ببطولة نادرة، فقهر الذين تصدوا له، ووطد حكمه في الأندلس الذي شهد في عهده، وعهد الأمراء من خلفائه، عصراً جديداً، قوياً، مرهوباً، بعد أن كان الحكم العربي في الأندلس، قبل وصول عبد الرحمن الداخل، ضعيفاً، مفككاً، يتصف بالمنازعات المختلفة.

على هذا النحو من الخروج الجريء من الشام، والانقضاض الخاطف في الأندلس، والمغامرة الشبيهة بالاستحالة، نشأت الدولة الأموية التي ماتت في المشرق، لتبعث في المغرب، وكان قيامها في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، الذي أدرك أن البحر بينه وبين هذه الدولة، وأن بطلها الشجاع عصي على الأخذ، وأن ما أتاه عبد الرحمن الداخل يمت إلى الأسطورة بصلة، فلقبه بصقر قريش، وأبدى إعجابه به بغير تحفظ، وهادنه بعد أن جرب النيل منه فأخفق.

إن مأثرة عبد الرحمن الداخل، لا تتحدد بإنشائه الدولة الأموية الأندلسية، على عظمة المغامرة التي انطوى عليها إنشاؤها، ولا بتلك السلطة الوطيدة التي دانت له ثلاثة وثلاثين عاماً وأربعة أشهر، وامتدت بعده في ذراريه قروناً، وإنما بما أحدث في هذه الدولة من عمران، وما بنى من دور الثقافة، وما جمع من مخطوطات، وما كرم من علماء، قصدوه وأقاموا في كنفه، بعد أن

اتخذ من قرطبة عاصمة لملكه، وأبى أن يلقب بالخليفة، تأدباً مع الخلافة، واكتفى هو وأولاده بلقب الأمير، فكان هذا التواضع المقرون بمجد الملك، سبباً في جعله من عظماء التاريخ العربي، ومن العظماء الذين حكموا الأندلس، وشادوا فيها كل تلك المآثر المعمارية الباقية على الدهر.

وأنتم تعرفون أن الملك لم يستتب له بسهولة، حتى بعد أن انتصر على والي الأندلس يوسف الفهري، بل واجه مصاعب مختلفة، ومنازعات عدة، تغلب عليها كلها بقوة إرادته، وذكائه وحكمته وشجاعته، ولما فرغ من ذلك التفت لبناء الدولة، فشاد جامع قرطبة الشهير على مرحلتين، وبناه بسبعة أبهاء، ثم زاد أحفاده في أبهائه حتى بلغت تسعة عشر بهواً، وصنع المنبر من خشب الأبنوس والصندل والعناب والبقم، ونهض الجامع على ١٤٠٩ من الأعمدة، فكان إحدى عجائب الدنيا في الفن المعماري، وقد تأثر بنيانه بالهندسة المعمارية للجامع الأموي بدمشق، واعتبر جامع قرطبة بمثابة جامعة علمية، وأصبح معهداً للدراسات والبحوث العلمية.

بعد ذلك أسس مدينة الرصافة، في ضاحية قرطبة، تيمناً برصافة جده هشام، واتخذ لها قصراً رفيع العماد، عالي الشرفات، وأنشأ الحدائق والبساتين حولها، مما يجسد مدى اهتمامه بالعمارة التي اعتبرها مرآة الحضارة، كما جدد أسوار عاصمته، وشاد الحصون والأبراج الضرورية لها، واهتم اهتماماً خاصاً بالفن المعماري، هذا

الفن الإسلامي الذي أسهم في تزيين اسبانيا، بأجمل المباني التي ما تزال قائمة، وتعد من المفاخر الاسبانية في البناء، ويقصدها السياح من كل مكان، وتعد جهوده المعمارية امتداداً للنهضة المعمارية، في سورية في عهد الأمويين.

وقد غرس بيده نخلة في الرصافة، أحضرها من بلاد الشام، في نزوع وحنين، إلى موطنه الأول، وكانت حدائق الرصافة وبساتينها ممتلئة بالورود والأزهار والأغراس، وكل ما يذكره ببلاده سورية، وقد رأى النخلة الفريدة التي غرسها في إحدى حدائق الرصافة، فهاج شجنه وقال فيها:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول ابتعادي عن بنيّ وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك عوادي المزن من صوبها الذي ... يسحّ ويستمري السّماكين بالوبل

وتذكر كتب التاريخ، أن عبد الرحمن الداخل كان شاعراً، أديباً، مفوّهاً، ويقول ابن زيدون إنه كان أصهب، خفيف العارضين، في وجهه خال، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان. ويصفه مؤرخ الأندلس ابن حيان بقوله:«كان راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يسكن إلى راحة، ولا يخلد إلى دعة، لم ترفع له قط راية على عدو إلا وهزمه، ولا بلد إلا فتحه، شجاعاً، مقداماً، بليغاً، سخياً، سمحاً.. دخل الأندلس فألفاه ثغراً

قاصياً، فدون الدواوين، وفرض الأعطيات، وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقل له الأمر فيها».

ولقد جابه الأعداء، ونازلهم، وانتصر عليهم، في الداخل والخارج، ومن هؤلاء شارلمان الذي حاول أن يحتل الأندلس، فزحف عليها بجيش كبير، لكنه اضطر إلى الانسحاب، والعودة منكسراً، بعد أن تحطم القسم الأكبر من جيشه، وعندئذ عمد إلى المداراة، ودعا عبد الرحمن إلى المصاهرة والسلم، فأجابه إلى ذلك، ولم تتم المصاهرة، لأن عبد الرحمن كان قد تقدم به العمر.

ومع انتقال عبد الرحمن الداخل من بلاد الشام إلى الأندلس، انتقلت الحضارة العربية الأموية إلى هناك أيضاً، وكانت الأندلس معبر هذه الحضارة إلى أوروبة. أما مسجد قرطبة الأعظم، فإنه إضافة إلى ما قلته عنه، من أوسع المساجد، وأعظمها أهمية عمرانية، ويعد مع قصر الحمراء في غرناطة، من أروع ما خلّفه العرب في فن البناء الإسلامي، خلال القرون الثمانية التي استغرقها الحكم العربي في الأندلس، حيث تم فتح الطرق وتعبيدها تيسيراً للمواصلات، ونظم البريد السريع، وبنيت دار لصك النقود، وقسم شبه الجزيرة إلى ستة أقسام، لكل قسم حاكم عسكري ومستشار.

وقد جذب تأسيس الدولة الأموية العربية في الأندلس، كبار رجال الفكر والأدب والموسيقا، من ديار الشام إلى قصر قرطبة، وأسهمت شخصية عبد الرحمن الداخل، وأعماله العظيمة، في

ميادين الحرب والسياسة والعمارة والآداب والفنون، في ظهور مدرسة أنجبت الأبطال وعظماء المفكرين، وعمالقة الفن المعماري، في عصر كانت فيه أوروبة تعاني التخلف والجهل، وكان للمنافسة الشديدة، التي احتدمت بين العاصمتين الكبيرتين، عاصمة العباسيين بغداد، وعاصمة الأمويين قرطبة، شأن في تشجيع تنقل المفكرين والمؤلفين بين العاصمتين، وكان من أثر هذه المنافسة أن تأسست المكتبات العامة والخاصة، وتعاظمت الرغبة في الاطلاع والتدوين، وتبادل المؤلفات، ورحلات العلماء والفنانين التي منها رحلة زرياب إلى الأندلس، وبداية ظهور حركة فنية موسيقية فيها.

وكان من شأن توحيد الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل، أن فتح الطريق أمام ازدهار الحضارة العربية فيها، وهي جزء من التراث العربي الحضاري في الشام وبغداد، حتى أجمع المستشرقون، وأجمعت كتب التاريخ، أن القرون الثمانية التي حكم فيها العرب الأندلس، كانت أزهى حقب تاريخ اسبانيا، بما أعطت، في ميادين الحضارة المختلفة، من عطاء كريم مبدع.

لقد أظهر عبد الرحمن الداخل، حيال المواطنين النصارى من سكان الأندلس، آيات من التسامح والمعاملة الحسنة، وكتب لهم كتاب أمان قال فيه: «كتاب أمان ورحمة، وحقن دماء وعصمة، عقده الأمير عبد الرحمن بن معاوية.. للبطارقة والرهبان، ومن تبعهم من سائر البلدان، ما داموا على الطاعة في أداء ما تحملوه»، وأشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية ما فرض

عليهم كل عـام.. ولم يحـدث طـوال فـترة حكمـه، أن نكـث أحـد الطرفين بهـذا العهـد، حتـى ان هـذه الوثيقـة لعبـت دوراً مهـماً في التعاون بين المـواطنين، عـرب وأندلـسيين، مـسلمين ومـسيحيين، وكان من شأنها أن حضارة الأندلس التي تأثرت بحضارة الأمويين في بلاد الشام، ازدهـرت ازدهـاراً كبـيراً، واعتـبرت بعثـاً وتجديـداً ومتابعـة لرسـالة الأمـويين، تميـزت بالإبـداع في مختلـف ميـادين الحـضارة، مثـل تنظـيم المـدن، وإحيـاء فـن العـمارة، والـنقش، والزخرفة، والخط، والصناعات الفنية، والفنون الأدبية والموسـيقية والتقاليد الشعبية.

ولم يلبث ازدهار الحضارة في الأنـدلس، أن انتـشر خارجهـا، فتأثرت بها أوروبة، وأقبلت البعوث العلميـة إلى الـبلاد الأندلـسية التي كانت بمثابة معهد للثقافة، درس فيـه المثقفـون الأوروبيـون، وأخذوا الكثير من فنون النهضة العمرانية والعلمية والفنية، وظهـر أثـر ذلـك في كثـير مـن مبـاني فرنـسا ذات الطـراز الرومانـسكي. وتتحدث كتب تاريخ العمارة الفرنسية عن أثر العمارة العربية في بناء كنيسة«فيزلي» الفرنسية، وكان أول مخطط لمدينة بـاريس، المعـروف باسم مخطط بـاريس، ذي الأشـخاص الثلاثـة، قـد رسـم بطريقـة عربية، لوجود ثلاثة أشخاص في أسفل المخطط، وجهة الجنوب فيه إلى الأعلى، لأنها جهة مكة المكرمة، وجهة الشمال في الأسفل، وهذا ما ذكره العلماء الفرنسيون في محاضراتهم، حول مدى تـأثير دروس الجغرافية العربية في أوروبة، وما يقال عن هذه ينطبق عـلى مختلـف

ميادين المعرفة، وخاصة الفلسفة، فرجال الفكر الأوروبيون لا يخفون تقديرهم لابن رشد، وتأثرهم به وبغيره، من فلاسفة الأندلس. وقد لعب كتاب حي بن يقظان، للفيلسوف العربي ابن الطفيل، دوراً بارزاً في الفكر الإنساني الأوروبي، ويتحدث مؤرخو الغرب، بكثير من التقدير والإعجاب، عن شخصية العالم العربي الكبير عباس بن فرناس، ومحاولته الرائدة في الطيران، كما أثرت الموسيقا العربية، والأغاني الأندلسية، تأثيراً بعيد المدى، في إنماء الحس الجمالي الموسيقي في اسبانيا، وعن طريقها في أوروبة، وظل هذا التأثير العربي الجمالي متطاولاً، حتى قرننا هذا، وبرز ذلك جلياً في شعر فريدريكو غارسيا لوركا، الشاعر الذي اغتاله الفاشيست، إبان الحرب الأهلية الاسبانية، في النصف الأول من هذا القرن.

وبكثير من الاطمئنان، يستطيع المؤرخ، في أيامنا هذه، كما كانت الحال في أيام أسلافنا، أن ينظر إلى أسطورة عبد الرحمن الداخل على أنها حدث تاريخي خارق، جسد جمالية البطولة والكفاح، وقوة الإرادة والحكمة، وكان شأنه في ذلك، شأن العظماء في التاريخ البشري، إذ ترك بصمات حضارية بارزة، وخاصة في فن العمارة، على حياة العصور والأجيال من بعده، وهذا هو السبب في أن العالم، ونحن معه، نولي هذا الاهتمام الكبير، للحكم العربي في الأندلس، وهذا هو السبب الذي حدا برجال الفكر في الوطن العربي واسبانيا، إلى إقامة هذه الندوة الدولية.

السادة العلماء

إن كلمة الافتتاح هذه، قد أشارت بإيجاز إلى مآثر عبد الـرحمن الداخل، وأعماله العظيمة، والتفصيل فيها متروك للسادة العلماء، الذين هم أهل الاختصاص، في الكلام على المرحلة العربية الأموية في الأندلس، من جوانبها المختلفة، وأجد من المناسب، أن أنوه بأهمية هذه الندوة، وتميزها، وأن أقدر، كما تقدرون، تفضل السيد رئيس الجمهورية حافظ الأسد برعايتها، تكريماً منه للبطولة، والشجاعة، والحكمة، هذه التي خلقت، على يدي عبد الـرحمن الداخل، حضارة باذخة، ستضيء دراساتكم ومداخلاتكم جوانبها، وتغني مضامينها، وأرى أن رعاية السيد رئيس الجمهورية لهذه الندوة، تزداد قيمة إذا تذكرنا الظروف التي تمر بها المنطقة العربية، مما يثبت أن سورية التي تكافح على جبهة الكفاح، تبني الحضارة على جبهة البناء، وبينما هي تصمد للعدو، وتعد العدة لجبه عدوانيته ودحرها، تواصل عملها في التنمية، وبناء الاقتصاد والثقافة، ورعاية النهضة العمرانية ومواصلتها، وتقف موقف التضامن المطلق، مع كل قطر عربي يتعرض للعدوان، كما وقفت بكل وزنها وقوتها إلى جانب الشقيقة ليبيا، التي كانت هدفاً لعدوان أمريكي مجرم، أدانته أمم وشعوب الأرض، ولم تشارك فيه سوى بريطانيا التي تعرضت لحملة نقد عنيفة، في الصحف البريطانية نفسها.

ولا أحسب أنني أقول جديداً، إذا أكدت أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل هما الدولتان الإرهابيتان في العالم الراهن، وهما

اللتان باشرتا الإرهاب ومارستاه في كل مكان، ولا حاجة لتعداد الوقائع المعروفة، ومن غير المستبعد، بل من المؤكد، أنهما ضالعتان في حوادث الخطف والتفجير وزرع القنابل، كي تتخذا من ذلك ستاراً لعدوانهما على الشعوب، وتدخلهما في شئونها الداخلية، وكان آخر ما فعلته إسرائيل، هو دفع عملائها في لبنان، لتفجير السيارات الممتلئة بالركاب الأبرياء، على طرقات المحافظات السورية، وهذا يبرهن، بما لا يقبل الجدل، على أن الإرهاب الدولي صناعة أمريكية صهيونية، وأن سورية هي المستهدفة، لخلق جو من القلق فيها داخلياً، يترافق مع الافتراءات والتهديدات الأمريكية الإسرائيلية خارجياً.

وسيكون المراقب على درجة كبيرة من السذاجة، إذا لم يلحظ أن توقيت التفجيرات التي قتلت الشباب والشيوخ والأطفال في سورية، قد تزامن مع توقيت العدوان على الجماهيرية الليبية، ومع تصعيد التوتر الأمني في لبنان، وتحشيد الأساطيل الأمريكية الأطلسية في الخليج، وإعلان أمريكا أن حاملات طائراتها ستبقى في المتوسط، وتجري الآن مناورات أطلسية جديدة فيه، وكل هذا يترافق مع تهديدات ريغان الطائشة، الهتلرية، بالعودة إلى ضرب ليبيا، تحت ذرائع مماثلة للذرائع التي اتخذتها الإدارة الأمريكية في عدوانها على خليج سرت، وعدوانها على الأراضي الليبية في الآونة الأخيرة.

إن نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش، لم يخفِ أبداً الغاية من العدوان الأمريكي على ليبيا، حين أعلن أن هذا العدوان كان

يهدف إلى إسقاط نظام العقيد القذافي، ويستطيع المرء، بكثير من اليقينية، أن يرى أن أمريكا وحلفاءها الأطلسيين، يعملون لإسقاط بعض الأنظمة العربية التي تقاوم عدوان أمريكا، ومؤامراتها، ومغامراتها الحمقاء، لإخضاع المنطقة، وحقد أمريكا على هذه الأنظمة سببه أنها تشكل عقبة في وجه توسع كامب ديفيد، وتحول دون تحقيق مشروع التوسع الصهيوني، وتشكل القوة العسكرية المتوازنة، والمستعدة لجبه العدوان الإسرائيلي. لكن خطط العدوان الأمريكية الإسرائيلية لم تنجح في ليبيا، وقبلها في لبنان، ولن تنجح في سورية، رغم الحصار الاقتصادي عليها، والضغوط الممارسة ضدها، وحملة التفجير الوحشية الإرهابية التي تعرضت لها، وكانت غايتها خلق جو من الاضطراب، يسهل، كما في حساباتهم السرابية، أخذ سورية بشكل ما، لكن سورية هي الاستحالة، ولن ينالوا منها، وستتحطم جميع ضغوطهم، ومؤامراتهم، وهجماتهم التفجيرية، أو العدوانية المباشرة عليها، فقد أثبتت سورية، وستثبت في كل وقت، أنها عصية على الأخذ، من الداخل أو الخارج، مادام الحكم فيها قوياً، مؤيداً من الشعب، ومن الجماهير العربية كلها، ويلقى دعم ومساندة كل القوى التقدمية، وكل قوى السلم والحرية في العالم، وله من صداقة الاتحاد السوفييتي، بموجب المعاهدة بينهما، ما يشكل جداراً ضد التحالف الاستراتيجي الأمريكي الإسرائيلي في المنطقة.

إن على ريغان، وصقور أمريكا وإسرائيل، ومن يساندهم في بريطانيا، وبعض دول حلف الأطلسي، أن يتخذوا عبرة من صمود

ليبيا، وفشلهم في تغيير نظام حكمها، هذا الفشل الذي هـو هزيمـة معنوية في ذاتها، إضافة إلى حملة الإدانة العالمية التي جابهتم وماتزال، وستتكرر هذه الهزيمة فيما لو حاولوا التحرش بـسورية، وسـتكون هزيمة أكبر، وهزيمة موجعة، لأن باع سـورية طويـل، ولأن قوتهـا العسكرية قادرة على إنـزال ضربـات ماحقـة بإسرائيـل، وفي عقـر دارها، وقد أوضح الرئيس حافظ الأسد، في خطاباته الأخيرة هـذه الحقيقـة، وعلـيهم أن يأخـذوا كـل كلمـة مـن كلماتـه بحجمهـا، وبصدقها، وقوتها، وواقعيتها، لأن الرئيس الأسد زعيم أمة لا قطر، وزعيم وطن عربي كبـير، وأسـمح لنفـسي، بمناسـبة هـذه النـدوة المكرسة لذكرى عبـد الـرحمن الـداخل، صـقر قـريش القـديم، أن أصارح الأعداء، كل الأعداء، أن الرئيس الأسد هـو صـقر قـريش القرن العشرين، وهذه سيرته، سلماً وحرباً، تـشهد بهـذه الحقيقيـة، وتؤكد أن سورية بقيادته، ستظل صخرة صـامدة، صـلبة، ممتنعـة، وستكيل الصاع صاعين، لكل من تسول له نفسه التحـرش بهـا، أو شنّ عدوان عليها.

ومثلما قامت في الأندلس، قبل اثني عـشر قرنـاً، دولـة قويـة، مرهوبة الجانب، مزدهـرة الحـضارة، تقـوم في سـورية الآن، دولـة حديثة، قوية، أثبتت الأعـوام فولاذيـة هيبتهـا، وهـي تبنـي للـسلم، وتستعد للحرب، وتزدهر فيها حضارة سيكون لها شأنها في التاريخ.

ولكم يسعد هذه الدولة أن تنعقـد نـدوتنا عـلى أرضـها، وأن تكرم بطلاً عربياً فذاً، وتسلط الأضواء على مآثره وصنائعه الرائعـة

والأسطورية، بما فيها من خارق الفعل، وخارق التـدبير، وخـارق العطاء، وأن تأمل، وأن نأمل جميعاً، بنجاح هذه الندوة، وأن تتكلل أعمالها بالتوفيق، وتلقى، وهي تلقى، الاهتمام الخليق بها.

ويطيب لي، بهذه المناسبة، أن أشيد بجهـود العلـماء الإسـبان، واهتمام الحكومة الاسبانية ببطلنا العربي، الذي أقامـت لـه اسـبانيا ندوة دراسية مهمة في العام المـاضي، في المنكـب، مدينـة المـونييكر، ونصبت فيها تمثالاً، تخليداً لذكراه، واعترافاً بما بنى، وما أرسى، وما جدد، من صروح معمارية، باقية على الدهر، وبكل تلـك الحـضارة الفنية التي ازدهرت في الأنـدلس، خـلال حكمـه، وحكـم أولاده وأحفاده من بعده، بحيث صنع للأندلس مجداً، ومكانة، وحـضوراً عمرانياً وثقافياً، ذاع صيته في الدنيا، ومازال هذا الصيت ينداح، في دوائر أكبر فأكبر في وقتنا الراهن. كما أن ثمة فضلاً يـذكر لاسـبانيا الصديقة، في الاهتمام بإقامة ندوتنا هـذه، وحـضور الـسيد لـويس يانس وزير الدولة والسيد كاركوس بينابيدس، حاكم مدينة المنكب والسيدة زوجته حفلة افتتاحها، وتقديم تمثـال رائـع لعبـد الـرحمن الداخل، وكذلك نذكر مواقف اسبانيا من العرب وقضاياهم، كـما نذكر العلاقات العربية الاسبانية، والتعاون الثقافي الواسع والمثمـر بيننا، لما فيه مصلحة البلدين.

وفي الختام، أشكر الذين بادروا بالدعوة لإقامة هـذه النـدوة، وكل من أسهم في التخطيط لها، والإشراف على تنظيمهـا وأخـص

بالشكر اللجنة التحضيرية التي حملت العبء الأكبر، كما أشكر العلماء الأجلاء المشاركين فيها، وأخص منهم الأشقاء العرب، والأصدقاء الإسبان، على تلبيتهم الدعوة، وتحملهم المشاق، في سبيل وضع تاريخ بطل، وتاريخ دولة، ومنجزات حضارة كان لها شأنها العظيم، في دائرة الضوء مجدداً.

عبد الرحمن الداخل
الحدث التاريخي الخارق(*)

السادة العلماء الأجلاء

الفهم العميق، الشامل، للتاريخ، يعني إدراك الماهية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، للعملية التاريخية، ومن هذا المنطلق، فقد كانت ندوة مدينة المنكب، المونييكر، الأندلسية، والندوة الدولية في دمشق، بمناسبة مرور اثني عشر قرناً على انتقال عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، قادماً من الشام، وبناء جامع قرطبة الكبير، ندوتين توأمين، سلطتا الضوء على تاريخ عبد الرحمن الداخل، وعلى حقبة حكمه في الأندلس، وعلى القرون الثمانية التي دام فيها الحكم العربي في البلاد الأندلسية.

وقد توفرت لنا، من خلال البحوث والمداخلات، في هذه الندوة، معطيات ساعدتنا في إدراك الماهية الحضارية، في جوانبها العمرانية والثقافية والاجتماعية، للعملية التاريخية، خلال حكم عبد

(*) في اختتام ندوة«من الشام إلى الأندلس»، دمشق في ٣ /٥ /١٩٨٦

الرحمن الداخل وأولاده وأحفاده، وخلال الحكم العربي الـذي دام ثمانية قرون في الأندلس، وهذا ما أضـاء دور أهـل الـشام في بنـاء الدولة العربية الأموية في الأندلس، وما كشف، بمزيد من العمـق، عن جوانب من شخصية عبد الرحمن الـداخل، ونـشأته في الـشام، وانتقاله من دمشق إلى قرطبة، عاصمته الجميلة والعظيمـة، ومـآثره المعمارية والإدارية، وبناء جامع قرطبـة الكبـير، وطـرازه المعـماري، وسعته، وفخامته، ووصـف أبهائـه وأعمدتـه، وعلاقتـه الهندسـية بالجامع الأموي في دمشق.

لقد بذلت النخبـة الكريمـة مـن الـسادة العلـماء، في المملكـة الاسبانية الصديقة، وفي جمهورية البرازيـل، والنخبـة المتميـزة مـن علماء البلاد العربية الشقيقة، ومن سورية، جهوداً كبيرة وقيمـة، في البحوث التـي قـدمتها، وطبعـت ملخـصات مـن البحـوث التـي ألقيت، والتي أرسلت من قبل السادة العلماء، ووزعت على الـسادة المحاضرين والمشاركين في هذه الندوة، وهذا كسب كبـير للتـاريخ، والحضارة، وكشف رائع عن شخصية عبد الرحمن الـداخل، صـقر قريش، ومأثرته العمرانيـة، في تأسـيس الدولـة الأمويـة، وتـشييده جامع قرطبة الكبير، والمباني الهامة، مثل الرصافة وقصرها، وقـصر الحمراء، والمنشآت الأخرى، كالقنطرة وغيرها.

لقد اهتمت اسبانيا في القرنين السادس والسابع عشر والقـرن الثامن عشر، بعلاقاتها العمرانية والثقافيـة، مـع أمريكـا اللاتينيـة، لكـن المفكـرين الإسـبان لم يغفلـوا عـن علاقـة اسـبانيا بـالعرب،

ومستقبل العلاقات الاسبانية العربية، وكانت النـدوتان التوأمـان، من نتائج هذه الالتفاتة التاريخيـة، الواقعيـة، المفيـدة، لأن التعـاون الثقافي، بين اسبانيا والبلاد العربيـة، عريـق وماجـد، بفـضل تلـك المعاهـد للدراسـات العربيـة التـي تأسـست في قرطبـة وغرناطـة وغيرهما، وبفضل نشر المخطوطات العربية، ووضع تأثير الحـضارة العربية الأموية في الأندلس في دائرة الضوء.

إن عظماء التاريخ يمجدون تـاريخهم، ويتمجـدون بـه، ومـن حقهم علينا أن نخلدهم، ليكونوا أبداً في ذاكرة الأجيال التالية، وما تسمية الساحة، جنوب ساحة الأمويين، في قلب دمشق، باسم عبد الرحمن الداخل، وتزيين مدينة المنكب بتمثال برونزي، لهـذا البطـل العربي الفذ، إلّا تأكيداً جديداً على الرغبة المشتركة، في تخليد العظماء الخليقين بالخلود، وتأكيداً أيـضاً عـلى تقـدير اسـبانيا والاسـبانيين للتاريخ والحضارة، في عصر يعتبر فيه تقدير العظام من الرجال، من المعايير المتقدمة، التي تعبر عن وعي الأمم وتقـدمها ورقيهـا. وقـد أفاءت مدينة المنكب، وزادت، في تكريمها لبطلنا العربي، بإهـدائها نسخة برونزية مصغرة عن تمثال عبد الرحمن الـداخل، وسـنعرض هذا التمثال في المتحف الوطني بدمشق، تقديراً لمعناه، وقيمته الفنية والجمالية، وأهميته التاريخية، التي نجلوهـا، ونظهرهـا لـشعبنا، مـن خلال عرضه في متحفنا الوطني.

إن ما اطلعت عليه من جلسات هذه الندوة، ومـن أخبارهـا، ومن أهمية بحوثها، وجديتها، يسمح لي بالقول بأنها ندوة ناجحـة،

وسيحملنا هذا النجاح، ويحمل المهتمين بالدراسات العربية الأندلسية، على تنظيم لقاءات ثقافية جديدة، في المستقبل المأمول، في عواصم الأقطار العربية، واسبانيا نفسها، إتماماً للفائدة التي تجلت واضحة في ندوتي المنكب ودمشق.

وسنعمل على جمع البحوث العلمية التي ألقيت في هذه الندوة، ونشرها في مجلد ضخم، تكون له المكانة الخليقة به، في المكتبة العربية والمكتبة الأندلسية على السواء، ونحن سعداء، ومتفائلون بالجو العلمي الرائع الذي ساد جلسات هذه الندوة، وسيسود الندوات المماثلة التي نتطلع إلى إقامتها في المستقبل، وسيكون من شأن الشعور العام الذي خلفته ندوة دمشق، في نفوس الجماهير، والمثقفين، والعلماء، ما يحدو الجامعات العربية والأندلسية إلى مضاعفة جهودها واهتمامها، بهذه الحقبة التاريخية المجيدة.

إن عالمنا، بفضل التطورات التكنولوجية، قد صار واحداً، والاعتراف بوحدة العالم، وبالصلة الوثيقة بين الظواهر التي تحدث فيه، هو من صلب القوانين الأساسية والجوهرية، للمعرفة العلمية الحقيقية.

وبمثل مشاعر السعادة والغبطة التي افتتحت بها هذه الندوة، أعلن اختتامها، وسيصار إلى توزيع الميداليات على السادة العلماء المشاركين فيها، لتكون تذكاراً، وتقديراً، واعترافاً بالفضل والجهد والعمل المثمر الذي بذلوه في إنجاحها.

ثقافتان متعانقتان على جناح الشمس
ورؤى تتنداح بين مشرق ومغرب(*)

السادة العلماء

أنا لم أكن يوماً في القمر. هذه أمنية تتجاوز طموحي، في الوقت الحاضر، أو الوقت المنظور على الأقل، لكنني أملك اليقين، علمياً، أن هذه الأمنية البشرية التي تحققت إفرادياً، ستتحقق جماعياً أيضاً، وعندئذٍ سيستطيع إنسان الأرض، أن يكون إنسان القمر، وعلى مغزله العجيب، الذي غزل عليه من أشعة الماضي البعيد جداً، خيوط التاريخ، سيغزل من أشعة القمر، تاريخ أسطورة فريدة في التاريخ، لأنها حكاية دهرية، عاشها جدنا الأول، وسيعيشها الجد الأخير، إذا كان لهذه الخريطة الأرضية، المستديرة، الزرقاء، الفلكية، من نهاية، ككل شيء في هذا الكون، الذي بين بدايته ونهايته خط دائري، ما دامت الصيرورة، بين نشوء وفناء، قانوناً طبيعياً ولا مناص.

(*) في افتتاح ندوة «الثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ»، دمشق في ١٠ /١٢/ ١٩٩٠

أجل، أنا لم أكـن يومـاً في القمـر، لكننـي قرأتـه. إنـه كتـاب، صفحاته الفضية تقول ذاتها، بين هلال وبـدر، حـين يطلـع وحـين يغيب، حين يبزغ وحين يأفـل، حـين يولـد طفـلاً، وحـين يمـوت شيخاً، في هذه السيرورة العجيبة، التـي تتكـرر كـل شـهر، وتظـل جديدة، كل شهر، كسيرة الجديدين: النهـار والليـل، في ديمومتهـا الأبدية، التي تقول لنا إن الصباح لابـد مـن أن يـصير مـساء، وان الشفق مآله أن يـصبح غـسقاً، وان العتمـة فجـر، والفجـر عتمـة، وكذلك التعاقب، أجيالاً إنسانية، والتعاقب أجيالاً زمنية، بين النور والظلمة، في توالج مستمر، أحدهما يبدأ لينتهي، وثانيهما يبدأ لينتهي أيضاً، لكن في عودة دائمة إلى الأصل الذي كانه.

هكذا، ودفعـة واحـدة، تطـرح هـذه النـدوة، في عنـوان مـن كلمتين، نفسها علنياً: العودة إلى الأصول! أمـا لمـاذا هـذه العـودة، فهذا مـن اختـصاصكم، أمـا بالنـسبة إلي، فـإن هـذه العـودة هـي الاستئناف. نعود لنستأنف، نبحث عن الأصـول، لنـستنبت منهـا أصولاً أخرى، هي التواصل الذي نبتغيه، وتبقى أسـطورة القمـر، التي قرأتها في القمر، أشعته الفضية، ومنها تعلمت حكمة بـسيطة، معروفة، وغير معروفة، حاضرة غائبـة، مفادهـا أن كـل مـا تـم إلى نقصان، فالهلال يصير بدراً، والبدر يتناقص ليعـود هـلالاً، وهـذه قصة القصة، في نشوء الأمم، والـدول، والمجتمعـات، وتكاملهـا، وتناقصها، وأفولهـا، ثـم في نـشوئها وتكاملهـا ونقـصانها وأفولهـا وبزوغها من جديد، في أشكال جديدة، ونظم جديدة، إذا ما أخذنا بمنطق الفلسفة، مادة وتاريخاً.

مرة أخرى، وأخيرة، أنا لم أكـن في القمـر، لكننـي قرأتـه، ولم أعش في الأنـدلس، لكننـي قرأتهـا، عبـد الـرحمن الـداخل، صـقر قريش، كان قمراً، والوجود العربي في الأندلس كان قمـراً، تكامـل فتناقص، فأفل، ومن جديد، يبزغ الآن، في أصوله التي نعود إليهـا، فكراً وعمراناً وثقافة وحضارة وتاريخاً، ومطلوب من هذه النـدوة، أو مرجو منهـا، إذا أردنـا أناقـة اللفظـة، أن تـسهم، وستـسهم، في استنبات أصول الثقافة العربية الاسبانية، واسـتعادتها، لا إعادتهـا، كي تكون إضافتها الباقيـة إلى يومنـا هـذا، منطلقـاً لنـا في تطـوير، وتوسيع، العلاقات الثقافية، والمبـادلات الثقافيـة، احيـاءً للـماضي وتجديداً له.

إن وثبة عبد الرحمن الـداخل عـلى الحكـم في الأنـدلس، هـي وثبة في المكان والزمان، ذات بعد وسعة، وبمثلها، وعـلى أساسـها، تشاد دولة ما، وتمتلك القوة والثقافة، إذ تمتلك العمران، الـذي بـه وحده ينهض الحكم، وتالياً المجتمع، نهوضاً جباراً، مبنياً على أسس راسخة، في مضاء السيف والكلمة معاً، وفي عناقهما الدائم. فدولـة لا تملك قـوة التحريـر والـردع، دولـة ضـعيفة، خدّجيـة، عرضـة للاندثار السريع، ودولـة تملـك القـوة دون الثقافـة، دولـة فقـيرة، منكفئة، عاجزة عن صنع دائـرة إشـعاعها، وهـي، في هـذه الحـال، محدودة الطموح في البقاء، أو إنهـا تطلبـه في غـير مظانـه، وفي غـير مقوماته، ولهذا فإنها لا تبلغ، دون العمـران، في بنيتـه الاقتـصادية، وفي بنيته الحضارية، أن تتجذر في التربة التي نبتـت فيهـا، وتـصبح

عرضة للانقلاع والانخلاع معاً، أمام عصف الريح، وأمام هبوب العداوات، من داخلها وخارجها على السواء.

لقد غدا تاريخنا الآن، قارب ذلك السمّاك الذي نقل عبد الرحمن الداخل، على متن موجة بكر، من شاطئ المغرب إلى شاطئ الأندلس. ومدينة المنكب التي يربض فيها تمثاله، مدينة تبدأ سيرتها في اليوم الذي وطئت فيه قدماه ثراها، في العام ١٣٨ للهجرة، ففيها كشف عن نفسه، وتخلى عن فرقه، هو الهارب من حكم العباسيين في بلاد الشام، بعد أن دالت دولة الأمويين فيها، والخارج وحيداً متخفياً، معانداً، عازماً أن يعيد حكم الأمويين في المغرب، بعد أن انهدم في المشرق، وأن يحقق اللحمة بين قادة من موالي بني أمية فرّقتهم الخلافات، وأوجعتهم الحزازات، فيجعلهم ينضوون تحت لوائه، ويأتمرون بأمره، ويخوضون معه معركة انقضاضية خاطفة، ضد والي الأندلس يوسف الفهري، وضد كل الذين تصدوا له من بعده، ويقطف النصر قطف نجمة في الأعالي، فتتبدى بسالته، وبطولته، ومأثرته، كأنها مكافأة من السماء، وليست أعطية من الأرض، فقرطبة التي جعلها عاصمة ملكه، تشمخ أميرة في المدن، وإذا لم تكن طريقاً مستقيماً مثل دمشق، أو سامر دجلة مثل بغداد، فإنها، في المآتي الكبار، مثلهما حضارة ووعاء علم، أما السيوف الطليطلية، وهي من قرطبة على نسب يعربي، فإنها كالسيوف الدمشقية، فتحاً لو أرادت، وجبهاً للنزاعات حين أرادت، حتى كان الاستقرار، وكان معه البعث، وقامت الدولة الأموية في

المغرب، وباصرة الخليفة العباسي، أبي جعفر المنصور، ترمق الصقر الأندلسي، في نظرة أسيفة، بينها وبين أن تطوله بحر، تدرك أنها دون نزاله قدرة، فتغضي من مهابة وإعجاب، وتؤثر، بعد تجربة، الهدنة، وتطلق اللقب الشهير، الذي منذ ذلك يحلق، ويحلق، ويظل صقرياً يحلق، ثلاثة وثلاثين عاماً وأربعة أشهر، أميراً بالشيم، وبالرجولة، وبالتواضع، وبالعزوف، أدباً هو الكبرياء، عن أن يكون خليفة، مادام الخليفة هناك، في المدى الأبعد، في الشرق الذي سفارته الشمس، تحمل تحية بغداد إلى قرطبة، في طلوعها من الفرات، وغروبها في المضيق، وما بينهما من مسافات، ذللتها همة الأمير للتي هي أبقى: الحضارة، مبتدعة ومجلوبة، ولكنها، في الضخامة، والفخامة، تنافس حضارة الرشيد، وتسمق، وتنافس مجد دمشق، وتند، وتأخذ بقبضة جبار يبني، وبقريحة شاعر يلم به الحنين، فيكون في قرطبة للعمران صرح، وللعلم صرح، وللأدب والفن صرح، وينهض جامع قرطبة، صنو جامع الشآم، ورصافة عبد الرحمن، صنو رصافة هشام، ولكل منهما بستانه، ونخيله، وبلاطه، والثقل في كفة الميزان، يعطي إمارة قرطبة وزناً يفوق، ويتفوق، ويشعل في سمائها شموعاً باقيات.

إن الزمن لا يقطع بمدية، ولا يوصل بشريط من حرير، وهو في كتلته، ومسيله، شاهد إثبات وشاهد نقض، يثبت وينقض بغير كلام، تاركاً للتاريخ أن يدون الوقائع في صحائف الدهر، على النحو الذي كانت، وبالدوافع التي أدت إليها. وهذا الزمن، قبل

١٣٠٠ سنة، خط الجملة الأولى في مطلع حكم عبد الرحمن الداخل، وخط الجملة الأخيرة في أواخر حكم أبي عبد الله الصغير، ثم وضع نقطة النهاية، في قصة الحكم العربي في الأندلس، الذي دام ثمانية قرون، كحكم ينهض بنيانه على أركان دولة، لا مناوشات متفرقة، بين شراذم متفرقة، يقودها، أو يتزعمها، هذا أو ذاك من القادة والزعماء العرب، قبل وبعد التاريخ الأندلسي المسطور، والمعترف به كتاريخ للحكم العربي الرسمي.

على هذا، وطوال ثمانمائة من الأعوام، حكم العرب الأندلس، وسيطروا عليها سيطرة كاملة، في دول متعددة متعاقبة، مثل دولة المرابطين، ودولة الموحدين، ودولة بني الأحمر، التي أسسها محمد بن نصر، وعرفت بمملكة غرناطة، ودام حكمها قرنين ونصف، وفيها ومعها، كانت خلاصة الحضارة الأندلسية العربية، كأنما شاء القدر، لهذه الإمارة الصغيرة، أن تنطوي فيها كل حضارة أندلسية سبقتها ولحقتها، في تمركز مكثف، جمع بين صباح عبد الرحمن الداخل، ومساء أبي عبد الله الصغير، ليكون النهار الحضاري بينهما، نهاراً حافلاً بالمروءات، والعبقريات، والمواهب، والمذاهب، وفيه اختصرت الأيام والأعوام اختصاراً معجزاً، من حيث هي نهار في كتاب، أو كتاب في نهار، للدارس أن يطالع صفحاته العجيبات، التي تنقسم، كالذرة في عصرنا، إلى جزيئات، وكل جزيئة مجلد ضخم، يتفرع، بدوره، إلى مجلدات ضخام، من المؤكد أنكم، أيها العلماء المنتدون، قد اطلعتم عليها، أو على بعضها، كل حسب

اختصاصه، وأنكم ستتكلمون عليها كلها، فيكون علي، في كلمة الافتتاح هذه، أن أدعكم لعلومكم واختصاصاتكم، فلا أقربها، كي لا أصادر عليها، حتى في العناوين، مادام شأني بينكم، أن أقص الشريط الأحمر، لمعرض تاريخي ماجد، وأدعوكم للدخول، لا إلى فردوس مفقود، بل إلى فردوس موجود، كان، ومازال، وسيبقى، في مسيلة الزمن، حقبة طويلة حافلة، إذا ما قيست الحقب بأعمارها التاريخية، وإذا ما قيست الحضارات بدورتها لا بدورة الزمن، بين أزل وأبد، وفي حدود كهذه، يسهل تناول الأشياء، تناولاً علمياً وأدبياً محدداً، إحدى منارتيه جامع قرطبة، والمنارة الأخرى قصر الحمراء، وما بينهما، وفي ثنايا سيرتهما الكثير الكثير مما يقال، ويكتب، وينشر، حين نطمئن، وسنطمئن، في رحلة العودة إلى الأصول، أن بقايا هذه الأصول لا تبرح منغرسة في الآثار والنفوس، لأنها لقاح قرون، أثر فيها العرب وتأثروا، بل أثروا بأكثر مما تأثروا، بما هم حملة حضارة عربية مشرقية، كانت في أوج ازدهارها، وكان لها في العصرين، الأموي والعباسي، عطاء أفاء على دنيا العرب وأفاض، بناء دولة، وتنظيم خراج، وإنشاء ديوان، وسك نقود، وإقامة هيكلية تنظيمية متقدمة للحكم، لا في المركز فقط، بل في الأطراف أيضاً، وليس في العاصمة، أكانت دمشق أم بغداد، فقط، بل في حواضر البلاد المفتتحة، في المشرق والمغرب، أيضاً، وكل ذلك مؤسس على بنية عمرانية تحتية، بنية اقتصادية - تجارية، كان لابد لها، وبصرف النظر عن مصطلح إنتاجها، أن

تؤسس بدورها، وبحكم التلازم معها، بنية فوقية، ثقافية حضارية، أزهرت فأثمرت، علوماً ومعارف في كل ميادين العلم والمعرفة، ليس هذا مجال الكلام عليها، وان كان السياق يقتضي التنويه بها، فقد قال أحمد شوقي«لولا دمشق لما كانت طليطلة» ولولا الجامع الأموي في دمشق، ما كان جامع قرطبة في الأندلس، ولولا قصر الحير ما كان قصر الحمراء، ولولا الشعراء والكتّاب والفقهاء والعلماء والفلاسفة والموسيقيون والمعماريون والمترجمون والفلكيون والرياضيون العرب المشرقيون، وغيرهم الكثير، وفي كل حقول العلوم الإنسانية والطبيعية، وفي كل الأجناس الأدبية والفنية، ما كان للأندلس قرطبية وغرناطية، أن تستقي، وتنهل، وتنقل، وتضيف إلى كل هذه الإبداعات إبداعاتها هي، ولما كان لبلاطاتها أن تكون قصد المشاهير، في كل هذه الفروع العلمية والأدبية والفقهية، حيث جاؤوها وملء برودهم زاد معرفي وفني، زاد صناعي وحرفي، زاد فلسفي وتشريعي، ثم لما كان الأندلس جسراً للحضارة المشرقية المغربية إلى البلاد الأوروبية، دون أن نغفل، أو نبخس، أو نطامن من شأن الأندلس، التي أخذت وأعطت، وكانت لها، بين الأخذ والعطاء، إضافات كبيرة، هي إضافاتها الذاتية، التي تحمل طابعها الخاص، ذا النكهة الخاصة، المعمقة والموسعة، في كل ما ذكرت من ألوان ثقافية وحضارية زاهية، نبتت غراسها في أرضها هي، فحملت نسغها، وماهيتها، وتجاوزت بعيداً، حين تأصلت، فكانت أندلسية خالصة، أو صارت أندلسية

خالصة، هي هذه الأصول التي نعود إليها، في عملية بحث وإحياء، لأنها هناك، في اسبانيا، باقية، ملهمة، نتلمس آثارها في الأدب والفن الاسبانيين حتى يومنا هذا.

وإذا كانت الأندلس معبراً ومستقراً، وكانت جسراً وقاعدة، وكانت حاملاً ومؤصلاً، فإنها كانت في حالاتها هذه كلها، مؤسساً، إلا أن تأسيسه نهض على ركائز تأسيس سابق له، وفي هذا اعتراف موضوعي لابد منه، إذ بفضله تسارعت وتائر النهضة الأندلسية، عمراناً ومعرفة، لا في حرق المراحل، بل في الإفادة منها، في جعلها مرجعاً ومنطلقاً في استلهامها وإغنائها، وفي استيعاب كامل ومدهش، للمقولة الفلسفية اليونانية التي ترى أن كل شيء ينبثق من شيء كان قبله، وهذا ما أعطى لحكم عبد الرحمن الداخل، في ثلاثة عقود ونيف، أن يبني، ويعلي، أن يحتضن ويخصب، أن يجلب ويؤصل، ثم يفيض من كل هذا البناء والخصب والتأصيل، على ما حوله، وما بعده، وبذلك أنجز في عقود ما كان يحتاج في إنجازه إلى قرون، فكان قدوة لخلفائه الذين فعلوا، أو فعل بعضهم على الأقل، ما فعله هو بالذات.

هل قلت جديدا؟ أبداً. إنما ابتغيت لفتكم، أو لفت نفسي قبلكم، وأنا أبحث في المرحلة الأندلسية، وفي نهضتها، وسيرورتها، إلى المصادر التي تشكلت منها، أو استعانت بها في تشكلها على هذا النحو الرائع، كي نجرد المعجزة من وهمها الماورائي، وننبذ الخرافة ونحن في ندوة وفي عصر صارت الخرافات فيه لغة قديمة جداً،

نادرون هم الذين يستندون إليها، ويكثرون من علامات التعجب بعدها، في مساءلة للغيب، الأجدى منها، والأصح، أن تكون مساءلة للوجود، مادمنا فيه، وبالطريقة الخلدونية العمرانية، أو الطريقة المادية الاقتصادية، نبلغ أن نكتشف القوانين التي تلعب دورها في النقلة بين نظام ونظام، وحقبة وحقبة، وبين ما كان حضارة، وما بقي منها، في استمرارية إضافتها، التي وحدها تفسر لنا عهود الإغريق والبابليين والمصريين القدامى، ومن سبقهم ولحقهم على السواء.

لكننا في الوجه الآخر لازدهار الحضارة العربية في الأندلس، سواء في إمارة قرطبة أو إمارة غرناطة، أو كليهما، وطوال حكم عبد الرحمن الداخل وخلفائه، نجد التجارة والعمران قائمين ومزدهرين. إن اقتباس حضارة المشرق في الأندلس، بعد قيام دولة الأمويين فيها، وتجذرها في تربتها، كان يتطلب ازدهار هذه التربة، كمعادل عمراني لما هو ثقافي، وهذه التربة هي الاقتصاد، زراعة وصناعة وتجارة وعمراناً، وهذا الازدهار العمراني الثقافي ما كان معطى عفوياً. عبد الرحمن الداخل، ومن حوله رجال دولته، كان على وعي بوجهي العملية الواحدة، فباشروها بوجهيها معاً، عملوا للعمران كما عملوا للثقافة، فازدهر العمران وازدهرت الثقافة، وفي هذه النقطة يكمن السر الذي ليس سراً، لأنه ناتج فهم علمي لقانون رسوخ الدولة، واكتسابها القوة والمنعة، وتحصينها بالمقدمات العمرانية والثقافية، وتزيين إحداثاتها، من جوامع وجامعات

وقصور، بمن يعمرها، وهم رجال الفقه والعلم والشعر والموسيقا وشتى صنوف المعارف.

في ضوء هذا نفهم بناء جامع قرطبة وتوسيعه، وبناء قصر الحمراء، ومدينة الرصافة، ومدينة الزهراء، التي كانت أفخم بلاطات أوروبة في ذلك الحين.

لقد ترجمت، في العصر الأندلسي، مئات الكتب العربية إلى الاسبانية، وكان الأوروبيون يؤمون مدن الأندلس للدراسة، ثم ينقلون إلى أوروبة، ومنها إلى غيرها، ما تعلموه وترجموه، ويمكن القول، بل التأكيد، أنّ ما بقي من حضارة العرب في الأندلس كثير، فهناك الآثار المعمارية الشهيرة، والأغاني والأشعار والموشحات الرائعة، والفلسفة بأنواعها، من تصوفية ومشائية وأرسطية وأفلاطونية حديثة، ومن رشدية اهتمت بإظهار التوافق بين العقل والدين، وكانت صلة الوصل، لعدة قرون، بين فلسفة الإغريق وأوروبة. لهذا كان التأثر والتأثير، بين الثقافتين العربية والاسبانية كبيرين، وكان اللقاء بينهما يشبه «اللقاء بين الوسادة والوجنة، وبين البلور والضوء».

إن رعاية ندوة ما، أو إقامة مهرجان ما، تتخذ عند الراعين طابعاً بروتوكولياً، لكن رعاية الرئيس الأسد، تتخذ دائماً صفة المشاركة القلبية الحميمة، لأنه هو، في سعيه إلى البناء والإحياء، عمراناً وثقافة، وفي سهره على التنفيذ، ومراقبته وملاحقته له، يجعل من العناية ما هو فوق العناية، ومن الرعاية ما هو فوق الرعاية،

وهـذا هـو الـسبب في أن كـل شيء إلى نهـوض، وإلى اسـتمرار في النهوض، خلال عقدين من عهـده الـشبيه بعهـود القـادة الكبـار، ورجال الدولة العظام، الذين بنوا، وحـرروا، وقـادوا شـعوبهم إلى جعل المستحيلات في الممكنات من الأمور.

وحين شمل ندوتنا هذه برعايته الكريمة، كان فيها لأنه منها. فقد صاغها فكرة، وتبناها مرحلة مرحلة، ورعاها واقعاً، صادراً في كل ذلك عن معزته للثقافة إذ هي معرفة، وللمعرفة إذ هـي رؤيـة، وللرؤية إذ هي وعي، ومن الوعي وبه تكون النهـضة أو لا تكـون، وقد كانت نهضتنا بعض صـنيعه، وبعـض فيئـه، وكـان التواصـل الثقافي سبيلاً اختطه لنا في التفاهم بين الدول والأمم، وكان إحيـاء الأصول الثقافية، العربية الاسبانية، أمنية من أمنياته التي تحققـت، لأنه شاء لها أن تتحقق، وبكل العزم الذي وحده يمتلك مثيله.

وفي قلب اهتماماته اليومية، السياسية والعسكرية، أولى، ويولي الثقافة، فائق تقديره، لأنها، حسب تعبيره، الحاجة العليـا للبـشرية، وهذا تنظير علمي، يضع الثقافة في المكانة اللائقة بها، ويجعلها، بـما هي فعل، وسيلة كفاح، حين يكون الكفاح دأبنـا اليـومي، ونحـن نواجـه أزمـة الخلـيج وذيولهـا، وقـضية لبنـان ومتطلباتهـا، ودعـم الانتفاضــة الفلــسطينية الباســلة ومقتــضياتها، في وجــه القمــع الإسرائيلي الوحشي لها، الرامي إلى جعل نارها تخبو، ومحال أن تخبو، مادامت انتفاضة ضد محتل، ينهض بها، ويوري زندها، أبناء وإخوة لنا، صمموا أن يجابهوا الاحتلال الإسرائيلي العدواني، وهم ماضون

في ما أخذوا به منذ سنوات ثلاث، وها هم يدخلون عام الانتفاضة الرابع، والدنيا من حولهم في حيرة وعجب من بطولتهم، بطولة الحجر ضد الرصاص، وبطولة الزند ضد الفاتك من السلاح.

أتمنى، أخيراً، لكم النجاح المؤزر، في عملكم الثقافي التاريخي هذا، مرحبة بكم باسم السيد رئيس الجمهورية ترحيباً حاراً، بعضه غالية تعطر لقاءنا، وبعضه الآخر خبز وملح وبنفسج، يعربن العلاقة والصداقة المتناميتين بين سورية واسبانيا.

إن قمر الوجود العربي الأندلسي تدرج في التكامل، فالهلال الذي كان، صار البدر الذي كان، وماذا بعد أن يتوسط القمر قبة السماء؟

إنه سؤال يسأل، والجواب لديكم، وأنا على ثقة أنكم ستعطونه، وبامتياز أيضاً.

نشوة العربي في قرطبة
سبقت زفرة العربي في غرناطة(*)

السادة العلماء

قبل عقدين من الزمن تقريباً، زرت اسبانيا التـي فيهـا مكتبـة الاسكوريـال، وبيت الشاعر فيديريكو غارثيـا لوركـا، مـثلما فيهـا جامع قرطبة وقصر الحمراء. ولم تكن هذه زيارتي الأولى لاسـبانيا، إلا أن المشاعر التي أورقت كزهر الرمان، وتأسونت كهديل الحمام، كانت مشاعري في تلك المرة، كـما في كـل مـرة. فقـد رحـت، وأنـا أجوس الأرض الاسبانية، أستسقي الغمام ذكريات، هـي صـور في قلبي وكتب التاريخ معاً، بل هي في قلبي بأكثر، وأنضر، مما في كتب التاريخ، لأنني أحياها وأنفاس الماضي تلفحني، بسبب من أن زمان الوصـل الأندلـسي، هـو كـل الأزمنـة، كـذلك سـيبقى، أنغامـاً وموشحات وتصوفاً وفلسفة واحورار عين، بين سوادها والبياض، يلتقي مجدان، وتتعانق ثقافتان، وترحل، على جناح الشمس، وبقدر

(*) في ختام ندوة «الثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ»، دمشق في ١٣ /١٢ /١٩٩٠

زهوها، رؤىً تنداح إلى أن تبلغ، وتحيط، بـالمغرب والمـشرق، هالـة هي بعض غار، وبعض أشعة، وبعض غالية، تعطر الدنيا.

ولقد يكون غريباً أن يجتمع في خاطري، في ومضة برق نيزكية، الاسكوريـال ولوركـا، الجـامع والقـصر، زريـاب والتروبـادور، سرفانتس وابن عربي، لولا أن هناك، بين هؤلاء جميعـاً، رابطـاً هـو الأدب، وقاسـماً هـو الفـن، ونـسيجاً هـو المعرفـة، وشـبكة ذهبيـة الأعراق هي الثقافة العربية الاسبانية، هذه التي على اسـمها كانـت ندوتنا، ابتداء وختاماً، نـدوة أصـول حـضارية، ظلـت هاجعـة في الذات، حتى أيقظناها بالكلمة، وظلـت كامنـة في ضـمائر العلـماء، حتى أشعناها بين الناس، إحياء لما كان حياً فزدناه حياة، إذ جعلنـاه يولد ولادة جديدة، في علاقات جديدة، دمشق، وحـدها، في عُمـر ماضيها، وأسد حاضرها، وفي نهـضتها، عمرانيـة وثقافيـة، تعـرف كيف تقيم من وشـائج الأصـول القديمـة روابـط ثابتـة للأصـول الجديدة.

ولن أضيف إلى ما قيل في هـذه النـدوة شـيئاً، لأنـه يكـون في النافل من الأشياء، بعد أن حققت أغراضها، وتقـصت في أبحاثهـا ومتفرعاتها، الصلات الثقافية المشتركة، تقصياً علمياً، اختـصاصياً، ممعناً في العمق والمـدى، متطـاولاً في القـصد والهـدف، فيـه الحـب والإخلاص والدأب على استيفاء الأمور، من خـلال المحـاضرات والمداخلات والمناقشات، استيفاء جمـيلاً، كـاملاً، شـاملاً. وأقولهـا كلمة علنية، صريحة، صادقة، متطلبة في ذاتهـا، ومتطلبـة لحقيقتهـا،

وهي أن ندوتنا قد نجحت النجاح المأمول، والفضل في ذلك يعود إليكم أنتم الذين تحملتم مشاق السفر، أو عناء البحث، وتعب السهر، لإعداد الأبحاث وحدها، بل وضعاً للكتب الخاصة بهذه الندوة معها، حرصاً منكم أن تكون ندوتنا منطلقاً لما بعدها، في متابعة ما أخذنا به من نشر وترجمة وكتابة كل ما يزيد في التعريف بالثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ، وكل ما يساعد على إقامة علاقات ثقافية عربية اسبانية متنامية عبر الراهن، وفي المقبل من الأعوام، عقوداً وقروناً، تتكافأ مع العقود والقرون التي كانت فيها الأندلس شعلة حضارة أنارت، وبها استنارت أوروبة، وسطعت شمساً باهرة الضياء، باهرة العطاء، لنفسها وللعالم من حولها.

إن مجرد انعقاد ندوتنا هو كسب كبير، وهذا الكسب يتمثل في أنه لأول مرة، في التاريخ الحديث، تعطى للعلاقات الثقافية العربية الاسبانية هذه الأهمية، وتسلط عليها هذه الأضواء، وتلفت أنظار العرب والاسبان لفتاً قوياً، إلى ما كان بينهم من ثقافة مشتركة، ولغة مشتركة، ودم مشترك، وهذا، في رأيي، سيكون حافزاً لنا في متابعة جهودنا، لاستئناف ما كان في الغابر، كي يكون مرة أخرى في الحاضر، وكي تقام، في دمشق كما في مدريد، منابر للثقافة العربية الاسبانية، تظل آهلة بكم، وعامرة بإبداعاتكم.

ومن منطق المودة، وتعزيز اللحمة، وإقامة البرهان على الانغراس الثابت لآثار العرب في الأندلس، قال الباحث الصديق خيسوس ريوساليدو، في ما يشبه المفارقة، أو الطرفة، ان الاسبان

سموا المرتفع الذي أطل منه أبو عبد الله الصغير الإطلالـة الأخـيرة على غرناطة«زفرة العربي»، لكن العرب، وكذلك الإسبان، في زفرة الألم، لا يستكينون للألم. يرتفعون عليه، يسمون فوقه، ويتجاوزونه إلى ما هو أبقى: مجد التـاريخ، ومـا سـحب هـذا المجـد، ولا يـزال يسحب، من ذيول موشاة بالعز من مفاخرنا، والعظيم مـن مآثرنـا، ثم لا اكتفاء، بل عمل دؤوب بعده، لأن مجـد التـاريخ مجـد معـاد، حين نحن، في حاضرنا، نواصل شوط ماضينا، عطاء ثقافياً يتكافـأ وأرفع ثقافات عالمنا، وعلى هذا الصعيد، في التكافؤ، نطمـح إلى أن يكون التبادل والتفاعل الثقافيان مؤسسين بيننا وبين الأمم الأخرى على قاعدة قوية راسخة.

إن زفرة العربي في غرناطة، قد سبقتها نشوة العربي في قرطبـة، على امتداد المسافة الزمنية التي أوفت على ثمانيـة قـرون مـن وجـود العرب في الأندلس، بين بزوغ نجم عبد الـرحمن، وافـول نجـم أبي عبد الله الـصغير، ولكـن البـزوغ والأفـول همـا قـانون الحيـاة كـما أسلفت، والمهم في هـذا القـانون، أن تكـون آثـاره إلى بقـاء، ولقـد شهدتم أن الآثار العربية في الأندلس إلى بقاء، وأنتم، ونحن معكم، لم ننتدِ لننقب عنها، فهي قائمة هناك، وبارزة، وشاهدة، بل انتـدينا لنفيد منها، في وصل ما انقطع، وتطوير ما اتصل، وهذه هي المهمـة الجليلة التي نهضتم بها، والتي سنتابعها، وتتابعونهـا معنـا، كـلّ في حقل اختصاصه، ومـن خـلال حـوارات حـرة، بنـاءة، ينبغـي أن تتواصل، وستتواصل، لأنها في متغـيرات العـصر، هـي روح هـذه المتغيرات.

إن الأمة العربية تواجه، كغيرها من الأمم، تحديات كبيرة، وعداوات مسعورة، واستعماراً إسرائيلياً استيطانياً باغياً، لكنه، في بغيه، عاجز عن تحقيق حلمه التوراتي المزعوم، وعاجز عن إطفاء شعلة الانتفاضة التي بقدر ما ينزف دم إخوتنا وأبنائنا وأطفالنا فيها، نتيجة للقمع الإسرائيلي الوحشي والفاشي ضدها، يتألق هذا الدم شعلاً ترفد شعلاً، في مصباحها، حتى لكأن ناراً أسطورية تتأرث في أرضنا المحتلة، يمتد لهبها ويمتد، ويحيق بالمحتلين من الجهات الأربع، ولن ينفك هذا اللهب في الامتداد، لأن نار الانتفاضة لن تنفك في التأرث، ونار المقاومة الوطنية اللبنانية في التسعر، ونضال العرب في التطاول، عقداً فعقداً، وإلى انتصار الحق، ولن يتمكن المحتلون وحماتهم ومسلحوهم من تحقيق ما يطمعون فيه، وهو التأصل في أرض ليست أرضهم، ومحيط ليس محيطهم، وحلم إلى الخرافة منتماه، ودليلنا على ذلك أن نصف قرن مضى حتى الآن، وعبثاً يحفرون للقضية الفلسطينية، وعبثاً يحاولون وأدها، فالرمل العربي يئد المحتلين، والغازين، والطامعين، والتتار الإسرائيليون ليسوا أكثر قدرة أو قوة من جميع أصناف التتار الذين هزمناهم على مدى التاريخ.

وبمثل ما افتتحنا به هذه الندوة نختتمها. لقد رحبت بكم باسم السيد الرئيس حافظ الأسد في ساعة اللقاء، وأودعكم باسمه في ساعة الفراق، ولئن كانت لديه مشاغل جمة، في هذه الظروف الصعبة التي تجتازها أزمة الخليج، فإن لديه اهتمامات جمة، في طليعتها الشأن الثقافي، بما هو شأن معرفي، عنه تصدر وإليه تعود،

كل عوامل النهضة الجبارة في هذا القطر، النهضة التي تحققت قطرياً، وقائدها وبانيها يريدها نهضة قومية، في إطار وحدة عربية، تقوم بالرضى، وتنبني بالقناعة، وتصان بالإرادة، ويكون من شأنها أن تبعد كل قوة أجنبية عن الأرض العربية، لا أن تكون ذريعة لدخول القوات الأجنبية إلى الأرض العربية، ويكون من أمرها أن توفر الطاقات لجبه العدو الإسرائيلي، ونحن لا نزال نأمل، والأمة العربية تأمل، أن يثوب العقل إلى رشده، ويعود الحق إلى نصابه، وعندئذٍ تصبح القضية القومية، لا القضية القطرية، هي الضمير والصوت والملاذ الذي يقي العرب شر الكارثة.

أوجه الشكر عميقاً إلى كل من أسهم في تنظيم هذه الندوة، وكل من بذل الجهد في سبيل انعقادها ونجاحها، وأخص الأساتذة رجال الإعلام، بشكري الجزيل، على التغطية الإعلامية الجيدة والمتتبعة، قبل انعقاد الندوة وخلالها، مشاركة منهم في الاحتفاء بالثقافة العربية الاسبانية، ومآثر العرب في الأندلس.

إن أجمل ما يؤثر عن عاصمتنا، شجرة ذات نجوم بيض نبتت فيها، ولازمتها، وتلألأت معها، هي شجرة الياسمين، وأجمل زهرة في دمشق، هي ياسمينة دمشق، وبودّي، وأنا أسأل لكم السلامة في العودة، كما سألت لكم السلامة في القدوم، أن أعلق، في عروة كل منكم، زهرة ياسمين، بياضها غرة صبح، وشميمها عبق مسك، وخضرتها لون غوطتنا، وبهاؤها شموخ قاسيوننا، لأنكم أنتم، بين الغوطة وقاسيون، كنتم لنا منارات علم، به نستضيء، وبه نهتدي، وبه نرتقي، وبه، كذلك، نسفر لعسجدية الأرض عند زرقة السماء.

لولا دمشق لما كانت طليطلة
ولولا الجامع الأموي ما كان جامع قرطبة(*)

الأمم فئات: فئة تكتب التاريخ وتقرؤه، وفئة تقرأ التاريخ ولا تكتبه، وفئة بين بين، أي أنها تكتب حيزاً من التاريخ، وتقرأ حيزاً منه أيضاً، وتلك هي سير الأمم الفتية، الطالعة على الدنيا، أو الطامحة إلى الدنيا، لأنها حديثة الوجود، فليس لها، من الدهر، وهو يعد بملايين السنين، سوى قرون، تبدأ بزمن اكتشافها، وهو قريب، لم تدوّن فيه من الحضارة إلا صفحات قليلات، إذا ما قيست بغيرها من الأمم، ذات التاريخ العريق، التي دونت مجلدات ومجلدات، منذ نشوئها، وتكونها، وتطورها، وانطلاقها في العالم من حولها، بصرف النظر عن نوع هذا الانطلاق، وما إذا كان حرباً أو سلماً، أو كان انتشاراً حضارياً، أو أخذاً حضارياً، عادت هي، في تدرج رقيها، فطورته، أو قل خلقته خلقاً جديداً، غير مبتوت الجذور، لكنه تجاوزها بكثير، إذ نما نبتها الحضاري، في أرضها هي، بعد أن تلقح هذا النبت مستورداً، وصار نبتاً مستقراً، من البيئة ذاتها والبنية

(*) مقدمة لكتاب «نفح الطيب» للمقري الذي أعدنا طباعته محققة لترافق ندوة «الثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ من ١٠ -١٣ /١٢ /١٩٩٠.

ذاتها، والنتاج المنتمي ذاته إلى أمـة بعينهـا، أو بلـد بعينـه، في إعـادة الإنتاج الذي يؤصل الأشياء تأصيلاً ثابتاً.

فإذا كان التاريخ، حسب ابن خلدون، عمرانـاً، وهـو كـذلك حتماً، فإن الأمة العربية، بما شـيدت مـن عمـران، هـي أمـة كتبـت التاريخ جيداً، وقرأتـه جيـداً، وتـشهد لهـا هـذه الحـضارات التـي تتكشف عنها أرضنا كل يوم، والتي تعـود إلى آلاف الأعـوام قبـل الميلاد، والتي بناها العرب في الـدهور الـسحيقة، ومازالـت، قبـل الميلاد وبعده، شاهدة عـلى هـذه الحـضارة العربيـة الباذخـة، التـي يعرفها الآثاريون، وتحفظها الأسفار متناً وهامشاً، تدويناً وتحقيقـاً، وتدرس في كتب التاريخ، في كل جامعات العـالم، وقـد ألـف فيهـا المؤرخـون والآثـاريون، ومـازالوا يؤلفـون ويؤرخـون، يـضيفون ويـصوبون، وفـق أحـدث المكتـشفات الأثريـة، ومنهـا في بلادنـا أوغاريت وماري وإيـبلا، وحـضارة مـا بـين النهـرين، والحـضارة المصرية، وحضارة العـرب الأنبـاط، التـي هـي كلهـا، في متنـاول الجميع، بسبب من أنها، في القرن العشرين هـذا، اغتنـت وأغنـت، وعن طريقها عرفنا الأبجدية المسمارية، العربية، التـي يـرى العلـماء أنها أم الأبجديات.

إنني ههنا، لا أدرس، ولا أتتبع، ولا أحقق، إنما أريد أن أقول إن علم العمران الخلدوني، هو علم الاجـتماع الأوروبي، وإذا كـان فهم العالم، وفق الفلاسفة الاشتراكيين، وحتـى غـير الاشـتراكيين، هو فن فهم الاقتصاد، فإن ابن خلدون، قد تقدم في هـذا، وتخطـى،

وسبق، فالعمران، في آخر المطاف، ليس سوى الاقتصاد، وهـذا مـا أراده، وما عناه، ابن خلدون، الذي أرسى قواعد العلوم الاجتماعية الحديثة، في وضع مبادئها الأولى على الأقل.

ولأن الأمة الإسبانية، كالأمة العربية، كتبت التاريخ وقرأتـه، وانبتت، في سيرورة حياتها، على العمـران، ومنـه حـضارتها، ومنـه إسهامها الثقافي، الممعن في القـدم، والـذي تـشبعت بـه، وأخذتـه، وصدرته إلى أوروبة، وأمريكا اللاتينية – الإيبيرية - فكانت بـذلك جسراً حضارياً، كما كانت في ذاتها موئلاً حضارياً، فـإن الأحـداث التاريخية والمؤتمرات الثقافية، متشابكة، متداخلة، فاعلـة ومنفعلـة، بين الحضارتين: العربية والاسبانية، تستدعي منا دراسـة متكاملـة، متواترة، متواصلة، ولهذا فإننا وجدنا ضرورة، بـل ضرورة ماسـة، لعقد ندوة، في مطلع كانون الأول ١٩٩٠، في دمشق، تحت عنـوان «الثقافة العربية - الاسبانية عبر التاريخ» يدعى إليهـا كبـار العلـماء العرب والإسبان والأجانب، ونحن نعد لها إعداداً حسناً، نأمل أن يكون مستوفياً، وفي التمهيد لهذا الإعداد، نصدر الكتيبات والكتب التي تتحـدث عـن الحـضارة العربيـة في اسـبانيا، وعـن الـصلات والعلاقات الثقافية العربية -الاسـبانية المتبادلـة، والمتفاعلـة، تـأثراً وتأثيراً، ومنها هذا الكتاب المهم الذي وضعه المقري، أبـو العبـاس أحمد بن يحيى، التلمساني المولد، والذي نزل فاس ودمشق والقاهرة وغرناطة، وتنقل بينها، ووضع بتكليـف مـن مـولى دمـشق، أحمـد الـشاهيني، كتابـه الـشهير: «نفـح الطيـب مـن غـصن الأنـدلس

الرطيب» الذي جاء في خمسة أجزاء، والـذي يتحـدث فيـه عـن الأنـدلس تاريخـاً وثقافـة وحـضارة وعمرانـاً واجتماعـاً، ووصـفاً مفصلاً، موسعاً، لكل ما رآه وشاهده وعاينه، من أمـور الأنـدلس، والفتح العربي لها، والعمران الذي أقاموه فيهـا، والعلـماء والأدبـاء والشعراء والمؤرخين الذين عاشوا في بلاطاتها وقـصورها، ونقلـوا من المشرق، عـبر المغـرب، إلى الأنـدلس، كـل، أو أكثـر، نتاجـات العرب العلمية والفكرية والأدبية والفنية، ومن الأنـدلس انتقلـت هذه الكنوز المعرفية إلى أوروبة كلها، على نحو ما هو معروف، لكن انتقالها تم بعد أن أرست، في التربة الأندلسية، بذورها، فنمت هذه البذور وأينعت فأورقت وأثمرت، وظلت قائمـة إلى اليـوم، وظـل التلاقح الثقافي العربي - الإسباني ذا حضور وفاعلية، في النتاجـات العربية والإسبانية معاً، وذا قدرة إبداعية خلاقة، وتأثيرات متبادلة، جدير بنا أن نعنى بها، وأن نعيد سيرتها، ونطورها، وننشرها، وننظر فيها دراسة وبحثاً وتمحيصاً.

ولقد كان المتخصصون السوريون والعرب، في الثقافة العربية الأندلـسية، وفي الأدب العـربي الأندلـسي، والموسـيقا العربيـة الأندلسية، وكل الفنون المتصلة بذلك، أولى، وأدرى منـي، بكتابـة هذه السطور، في تقديم كتاب المقري الذي نعيد طباعة أجزاء مختارة منه، لولا أن مديرية تحقيق وإحياء التراث في وزارة الثقافة، رغبـت أن أكتب كلمة هي تمهيد للكتاب لا مقدمـة لـه، لأن نفـح الطيـب المعـروف والمـشهور، بغنـى عـن المقـدمات والتعـاريف.. وهكـذا

استجبت لهذه الرغبة، واستعنت بـما تبقـى في الـذاكرة مـن كتـاب المقري، الذي طالعته منذ زمن غير يسير، كي أقول فيه كلمات، هي دلالات، وإشارات، وسطور، ورؤوس أقلام، لما يحتويه من فصول بلغـت خمـسة عـشر فـصلاً، تناولـت مغـاني الأنـدلس وموقعهـا وثرواتها، وعجائبها وسكانها، وفتحها من قبل المسلمين، والقبائـل العربية التي نزحت إليها، وأقاليمهـا، ودولهـا المتتاليـة، وحكمهـا، وإدارتها، ومجتمعها، وثقافتها، وصناعاتها، وأعيانها، وأعلامها مـن النساء..الخ.

إن المقري أبا العباس، الذي عده الأدباء جاحظ المغرب، هـو جاحظه حقاً وصدقاً، قولاً وفعلاً، لأنـه مثـل الجـاحظ أبي عـثمان، انـسياب أسـلوب، وطـلاوة حـديث، وطلبـة حقيقـة، ودراسـة تفصيلات، يريدها عياناً، وبياناً، واختباراً، وتقرّياً لهـا في مواطنهـا، ومظانهـا، في الكتـب والواقـع، في المـشاهدة والتجربـة، في الرؤيـة والسماع، وفي الأخذ عن الثقات، حتى يبلغ الغايـة، شـأن الجـاحظ عمرو بن بحر، في إتمام وإكمال العدة لموضوعه، يبلغ به شأوه، بعـد أن بذل فيه كل جهد مستطاع.

ويزيد في تثميننا لكتاب المقري هذا، وتقديرنا له، وسـعينا إلى نشر مختارات منه، ما كان للمقري في دمشق مـن أثـر، ومـا تركـت دمشق في نفسه من انطباع، فقد علق أهل الشام وعلقـوه -حـسب تعبيره- وأعجب بهـم وبكـرمهم وأريحيـتهم، وشـمائلهم وحـسن وفادتهم، وسخاء ضيافتهم، لذلك فقد عني بأن يذكرهم في مطلـع

كتابه ذكراً حميداً، قائلاً إن الفاتحين للأندلس، هم من أهل الشام «ذوي النجدة والشوكة الحديدة» وإن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين «اتخذوا بالشام وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة» وان غرناطة التي نزل بها أهل دمشق، وسموها باسمها، هي شبه دمشق في القصر والنهر والدوح والزهر والغوطة الفيحاء، وهذه كلها وشائج قوية العرى، شديدة، وقد حفزتني - كما يقول - مغاني دمشق وفضائل أهلها على تأليف كتاب «نفح الطيب» الذي هو بمثابة مسح شامل لكل ما في الأندلس من معالم وعوالم ومرئيات ومؤثرات ثقافية وعمرانية.

إن الكلمة في التدوين، هي تسجيل صوتي على الورق، تماماً كما هي الحال في التسجيل على الأشرطة المرئية والمسموعة، وصوت المدون -الكاتب ينبعث ويبعث معه، أصوات الأقدمين من الأجداد والأسلاف كيما يقصوا علينا، بألسنتهم التي تستنطقها الحروف، كل ما كان في زمانهم، وكل ما دار في خلدهم، من قصص وروايات وخواطر، وكل ما اكتشفوه، في شتى فروع العلم والمعرفة، وفي ألوان الإبداع، من شعر ونثر، وفي اللقى الأثرية، التي كان النقش عليها، رموزاً وصوراً هي، في آخر المطاف، كلمات ذات أصوات، رنت عبر دهورهم فبلغت دهرنا، وعبر عصورهم فبلغت عصرنا، ومنها أخذنا ذاكرتنا التراثية، الذاكرة التي تبقى حية ما بقي التراث حياً، وفي إحياء التراث، بعد تحقيقه، حفظ له، وحفظ لذاكرتنا معه، وهذا ما نفعله، ونطمح إلى المزيد منه، في منشوراتنا التراثية، وفي

اكتشافاتنا الأثرية، وفي كتابة أنفسنا وأعمالنا ومشاعرنا كلمات على الورق، أو تسجيلاً على الأشرطة، لأن أمة دون تراث، أمة دون ذاكرة، وهي، في المآل، أمة إلى زوال، مهما بلغ شأوها الصناعي، مادامت الصناعة تالية للحضارة، وما دامت الزراعة سابقة للصناعة، لكنها في تعاقب الأنظمة البشرية، ممهدة لها، وتراكم العلوم، وفتوحاتها المدهشة في القرن العشرين هذا، واندفاعاتها في الابتكارات المذهلة، يعطي الدول الصناعية الكبرى أن تكون دولَ صناعة، مهما عظمت إنجازاتها، وتظل تفتقر إلى ذاكرتها: تراثها، وهي به وحده، وبما ينضاف إليه من معطيات ثقافية، قادرة على إنشاء حضارة، بها تقاس العظمة، وبها، مع مرور القرون، يتشكل التراث الذي هو التاريخ، في أمجد صفحاته.

في ضوء هذا الوعي المعرفي، وفي ضوء التوجيهات التي يزودنا بها الرئيس القائد حافظ الأسد، ويبدي فيها حرصه، بل تشدده، في الحفاظ على التراث، وتحقيقه ونشره، وفي رعاية الثقافة وتوفير وسائل نهضتها، استطعنا أن ننهض ثقافياً، وأن نعيد إلى دمشق مركزها الفكري الإشعاعي، وإلى سورية مكانتها العلمية والأدبية والفنية، وما نشر كتاب «نفح الطيب» إلا بعض هذا الجهد في إحياء التراث، والاستمرار في نشر سلسلة المختار منه، وما إقامة ندوة «الثقافة العربية -الاسبانية عبر التاريخ» إلا بعض هذا الجهد في تعميم الثقافة، والكشف عن مؤثراتها في الوطن العربي، وفي العالم من حولنا، وتطوير عملية إنتاجها، وإغنائها بالبذل والدعم

والعنايـة، وتبيـان مـا كـان لهـا مـن معطـىً رحـب المـدى، عميـق الانغراس، في تربة البلاد التي طالها الفتح الإسـلامي، وفي المقدمـة الأندلس، حيث ازدهرت فيها الثقافة العربية ازدهاراً بالغاً ورائعـاً وباقياً ما بقيت الثقافات.

هـذا هـو المـدخل الـذي أردتـه، أو قـل اسـتطعته، لكتـاب المختارات من «نفح الطيـب» وإني لأعـرف أن الطيـب، والمـسك، والغالية، في الكتاب نفسه، لا في هذا التمهيد القصير اليسير له.

دمشق، ٣١/ ١٠/ ١٩٩٠

الدم العربي الذي انسكب
قطرة غمامة في الدم الاسباني(*)

الكاتب، مهما يكن الجنس الأدبي الذي يكتب فيه، لابد أن يستمد من الإنسان، وأن يتوجه إلى الإنسان، لأن هذا الكائن الذي هو مصدر الجمال والخير في العالم، وحده القادر على أن يعطينا، فكراً وشعوراً، المادة المطاوعة التي تتشكل منها إبداعاتنا، مأخوذة عنه ومعادة إليه، باعتباره غاية الحياة، ومحور الكون، أي الملهم والملهم في آن.

في هذا السياق، يغدو الإنسان فتنة جمالية، بقدر ما هو مفتون بالجمال، ومن هذه الجدلية البسيطة والمركبة، فإننا نحن الذين نحمل غار الإبداع وصليبه، الأبناء الأوفياء لنعمة الكينونة، نتلقاها عيشاً فيه المعاناة، فيه تحقيق الذات، فيه السيرورة والصيرورة معاً، ثم نخلع على هذا العيش نعمى الوجود، فإذا به وجود آخر، من صنعنا، وإذا بنا نخلق أدباً، عالماً خاصاً بنا، نحن بناته، تصوراً

(*) في افتتاح أيام الثقافة الاسبانية بحضور نحو من ثمانين من أبرز المبدعين الإسبان. دمشق، ٢١ -٢٥ /٩ /١٩٩١.

وتصميماً وتنفيذاً، حتى إذا استوى، لكل منا، العالم الخاص به، المتميز والمفرد في تميزه، فتحنا أبوابه ليدخل إليه المتعبون ويستريحوا.

هذا العالم الذي نبنيه، نحن المبدعين، هو الكتاب. وما هو الكتاب؟ إنه نسق من الكلمات، فكرية وأدبية، تطمح إلى قول ما تريد، بالأسلوب الذي تريد، وهذا القول، بدءاً كان، وختاماً سيكون، فالكلمة أصل الخليقة، بما هي فعل، ومن الفعل، حلماً ممكناً، وثورة متفجرة، يكون التغيير، الذي هو نحو الأفضل دائماً، مادام تاريخ البشرية هو تاريخ التقدم الإنساني، أزلاً وأبداً على السواء،. ويبقى السؤال هو: ماذا نقول؟ وكيف نقول؟ وتلك هي قصة الإبداع، مضموناً وشكلاً، دون أن نستشعر، ونحن نقرأ، أن هناك مضموناً وشكلاً، لأن الفن العظيم قد حقق الاتحاد العضوي بينهما، وهذا الاتحاد، في التكوين السحري الذي كان، قد صار، في المآل، قصيدة أو رواية أو مسرحية أو بحثاً أو مذكرات أو يوميات أو دراسات، نودعها دفاتر أيامنا التي تقص، على من يعايشنا أو يأتي بعدنا، قصة حياتنا، في غناها وفقرها، في هناءتها وشقائها، في أملها ويأسها، وباختصار، في معاناتها التي تثري الذات الإبداعية بما تشحنها به من طاقة التجربة، والمعايشة، والتأمل، والتفكير، والتي تنصهر كلها في بوتقة النفس وعنها تصدر عملاً إبداعياً يمنحنا الرؤية، ويتيح لنا المتعة والمعرفة وحب الإنسانية العظيم.

إذن أنتم، صانعي الكتب الخلاقة، وما فيها من صور الواقع والخيال، ومن تهاويل الطبيعة والابتكار، جديرون بالتكرمة حارة

حرارة الخافقة التي تتجلى في نزوعها إلى إكبـار الإبـداع والمبـدعين، ومنحهم ما يستحقون من محبة، هي التعبـير عـن الـصفاء، سـطوع شمس أو زرقة بحر.

إن الثقافة العربية، في مدى تاريخها الطويل، قد كانت منفتحة على الـدوام، تمـارس عفويـاً وقـصدياً في آن، التفاعـل الـدائم مـع الثقافـات الأخـرى، أخـذاً وعطـاءً. وجـدير بالملاحظـة، في هـذه المناسبة السعيدة، المناسبة التي يلتقي فيها مبدعو اسبانيا وسورية في دمشق، أن التفاعل بين الثقافتين العربية والاسبانية، قد كـان مجلبـة نفع عظيم لكليهما، ففي رحاب اسـبانيا، حـين العـرب وغرناطـة، عناق إبداع مع مدريد واشبيلية، قد أزهرت وأثمرت ثقافـة عربيـة اسبانية، متمازجـة، متماهيـة، منتجـة للمعـارف الإنـسانية في شـتى فروعها، وعن غسبانيا، عربية وإسبانية، في النسغ الثقافي المـتلاقح، بين مشرق ومغـرب، أخـذت أوروبـة الكثـير الكثـير، مـن عطايـا فتوحـات الإبـداع المـشترك، في الفكـر والفلـسفة والأدب والفـن والموسيقا والبناء وعلم الاجتماع، وكانت في كل ذلك سباقة، بسبب مـن أن الـدم العـربي قـد انـسكب قطـرة غمامـة في الـدم الاسـباني وبالعكس، فكان التـوهج المعـرفي شريانـاً أرجوانيـاً دافقـاً في نهـر الحضارة البـشرية، هـذه التـي تكونـت منهـا كنـوز الإرث الثقـافي الإنساني.

تأسيساً على هذا التلاحم بين الثقافتين العربية والاسبانية، فإن الحوار الذي يجري بيننا الآن ليس حواراً منبتّاً، منقطعاً، مستأنفاً، بل

هو حوار متصل، متكامل، متفاعل، مضمر في بعض المراحل التاريخية، معلن في بعضها الآخر، باقٍ على الدوام، وهو الآن، أي في الأعوام الأخيرة، يستعلن في نشاط مكثف، للتبادل الثقافي العربي الاسباني، وهذا تعبير عن إرادة مشتركة، في إحياء التراث الثقافي المشترك، وفي الإغناء والاغتناء من ترجمة الفكر والأدب الاسبانيين إلى العربية، وترجمة بعض الآثار الفكرية والأدبية العربية إلى الاسبانية.

وبالنسبة إلينا، فإن الحوار الثقافي الحضاري، أحد مبادئ العملية الثقافية التي نعمل لإنتاجها، ونحن نطمح، ونعمل عملاً دؤوباً، لتوسيع هذا الحوار الثقافي المتبادل بيننا وبين جميع البلدان، ليشمل عالمنا الكبير -الصغير معاً، فتتفتح فيه مئات الزهور الإبداعية، التي من تنوعها، عطراً ولوناً، ومن تعايشها فكراً وأدباً وفناً، ومن تبادلها، تجارب ومفاهيم، تغتني الدوحة الثقافية رياً ونماءً وإزهاراً وإثماراً. ولنا من عزمنا، على مواصلة هذه الحوارات، في ندوات ولقاءات علمية وثقافية، دافع أصيل لترجمة فكر رئيسنا حافظ الأسد، الذي رفع شعار «الثقافة هي الحاجة العليا للبشرية»، ومنحها الدعم والرعاية، فكانت هذه الأيام الثقافية الاسبانية، وهذا اللقاء بين الأدباء الإسبان والعرب، وكانت ندوة الثقافة العربية - الإسبانية التي سبقته، بعض ثمار هذه النظرة العلمية للثقافة، من حيث هي ضرورة لا غنى عنها، في بناء الدولة العصرية الحديثة.

فيا أيها الضيوف الإسبان المبدعون، ويا أيها الشعراء والروائيون والمسرحيون والباحثون والدارسون، أهلاً بكم في دمشق العربية، أقدم مدن التاريخ، التي من نبضها التاريخي والحضاري نقبس جمرة الإبداع، في نارها المقدسة التي تتوهج شعراً ونثراً، فتضيء دنيانا، وتفيء نعيمات على حياتنا ولتتأكدوا أن صلات القربي، أو ما هو أعمق منها، صلات الرحم والدم، التي تجمعنا بكم، ماضياً وحاضراً، وتشد بعضنا إلى البعض الآخر، هي صلات للتطور المستمر، بفضل هذا التبادل الثقافي المستمر، الذي أخذنا به، أنتم ونحن، وسنواصله، رغم كل ما لدينا من مشاغل وتبعات.

إن الرعاية، في أبرز وجوهها، هي المشاركة معرفياً وتكريمياً مع المشمولين بها، وهي الذائقة التي تتكون إبداعياً من العطاء والأخذ معاً، ففي العطاء تكون الرعاية إسهاماً بما هو معطى، وفي الأخذ تكون تحفيزاً لهذا المعطى، كي يزداد بازدياد الاحتفاء به، وهذا هو المعنى الحقيقي لرعاية السيد الرئيس حافظ الأسد لهذه الأيام الثقافية الاسبانية، مادام الراعي مع الكلمة على نسب، ومع الاحتفال بها على سبب، حين كان، وسيبقى، من مبدعي هذه الكلمة ومن متذوقيها، ومقدريها تقديراً لا يصدر مثله إلا عن عظيم في القيادة، إذ هي عناق قلم وسيف، وتعبير عن فهم للدور المتولد عن هذا العناق، في صياغة رفيعة متبادلة لوجدان الفارس والكاتب في آن، وإني لأوجه إلى سيادته التحية باسمكم، وأنقل

إليكم تحياته وتمنياته على اسم الحرف، ترفّ عليه مطارف المجد، في رسمه البليغ للمشاعر الوطنية والقومية والإنسانية، وفي إنارته للمشعل الثقافي الذي تبادلته أيدينا، عربية واسبانية، في تاريخنا الطويل والمشترك، وفي استئنافنا لهذا الشوط التاريخي الذي نزيد مشعله زيتاً مباركاً، فيزيدنا من ألقه إضاءة للمستقبل الوضاء، في علاقاتنا الثقافية وغير الثقافية التي نرغب في إقامتها، وتمتينها وتطويرها، مع الثقافة الاسبانية بخاصة، ومع ثقافات كل الشعوب والدول بعامة.

وكما أوجه إليكم التحية الحارة باسم السيد الرئيس، أوجه إليكم الترحيب الحار باسمه، فقد كان دائماً، ورغم مشاغله متعددة الجوانب، إذ نحن دولة مواجهة، وطلبة تحرير وتقدم، نناضل لأجلهما نضالاً لا هوادة فيه، أقول: رغم مشاغله هذه، فإنه يولي الثقافة والعلاقات الثقافية، في كل شأن من شئونها، رعاية كريمة تعطي دمشق الحق في أن تعاود، في عهده الميمون، مركزها في الإشعاع الفكري، الذي وحده هو عنوان نهضة الأمم التي تتطلع إلى مراقي العز والرفعة، جامعة بين ماضيها المجيد وحاضرها الأمجد.

أتمنى للملتقى الثقافي هذا، كل توفيق في تحقيق أغراضه المرجوة، وأنا على ثقة أن تبادل الآراء والخبرات، والتعرف بشكل أو بآخر على الآفاق الإبداعية في البلدين، سيسهم في تطوير علاقاتنا الثقافية، ويزيد في دفع وتسريع وتأثر النشاطات الثقافية المتقابلة بيننا، وبالتالي في تعميق الحوار الحضاري الثقافي العربي الأوروبي في وجه من وجوهه.

فريديريكو غارسيا لوركا
هو لنا بمقدار ما هو لكم(*)

أيها الأصدقاء المبدعون

في التعامل مع الثقافة، يبقى ثمة ما يقال دائماً، فهذا الكنز المعرفي إلى تعاظم واغتناء، من حضارة إلى حضارة، ولشد ما يسعد المرء أن يكون من الذين ينهلون منه، ويضيفون إليه، إبداعاً وإنتاجاً وإسهاماً في نشر الثقافة التي تسبق، وتمهد، لما هو بعدها من علاقات تنشأ بين الشعوب والأمم، على أساس من الاحترام المتبادل، وقيم الأخذ والعطاء، في كافة مجالات النشاط الإنساني التي تتطور وتتنوع إلى غير حد، في قرننا العشرين هذا.

لقد أسهمت ندوة«الثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ» التي عقدت في شهر كانون الأول من العام الماضي ١٩٩٠ في دمشق، بالتعريف العميق والشامل بهاتين الثقافتين، وتفاعلهما المثمر والخلاق في فترة وجود العرب في الأندلس، وصدرت دراساتها

(*) في اختتام أيام«الثقافة الإسبانية«، في دمشق، ٢٥ /٩/ ١٩٩١

وأبحاثها في كتاب يشكل مرجعاً ممتازاً للباحثين في هـذا الموضـوع، كما صدرت، قبـل النـدوة، كتـب تتنـاول الأثـر المتبـادل للتعـايش الفعلي، بين العرب والإسـبان، خـلال الحقبـة العربيـة الأندلـسية، تتناول جوانبها التاريخية والفكرية والفلـسفية والعلميـة والمعماريـة والفنية، وكان جماع هذا النشاط، الـذي لـه مـا يقابلـه عـلى الـضفة الأخرى في إسـبانيا، انتـشاراً غـير معـروف وغـير مـسبوق لكلتـا الثقافتين، تبعته، أو جاءت قبله، ترجمات قمنا بها نحـن في سـورية، لكتب اسبانية كثيرة إلى اللغة العربية، وقامت بمثلهـا، ولكـن عـلى نطاق أضيق، ترجمات من العربيـة إلى الاسـبانية، بحيـث نـستطيع القول ان جسر التبادل الثقافي بيننـا، وعـلى أوسـع نطـاق في أقـصر زمن، قد تم تشييده، وعلى هـذا الجسر مـررتم إلينـا، أيهـا الأدبـاء والمبدعون الإسبان، وعليه سيمر أدباؤنا ومبدعونا العرب إلـيكم، دون حـواجز، دون عوائـق، وبـسهولة الانتقـال، مـن حديقـة إلى أخرى، متجاورتين تاريخاً قديماً، وحاضراً جديـداً، لا يحـول بيـنهما البعد الجغـرافي، عـلى فـرض وجـوده، لأن مـا يجمعهـما، ويقـرب إحداهما إلى الأخرى، هو رابط الزمن الرائع من الصلات، المؤسسة على العيش الطويل المشترك، والفكر المتماهـي المـشترك، والعـادات والتقاليد المـشتركة، التـي تجلـت مظاهرهـا في كثـير مـن الكلـمات والمفردات المقتبسة، وتجلت أدبياً بـشكل أفـضل في التـأثر والتـأثير المتبادلين، بين شعرائكم وشعرائنا، هذا التأثر والتأثير اللذان أثبتت الدراسـات النقديـة وجودهمـا، واسـتبانتهما، لا في شـتى المظـاهر فحسب، بل في الأجواء والتعابير ومصادر الإلهام أيضاً.

إن الشاعر الإسباني الماجد فريدريكو غارسيا لوركا، هو لنا بمقدار ما هو لكم، وقد ترجمناه شعراً ونثراً، وأعدنا ترجمته في سورية والوطن العربي مراراً، وكتبت حول قصائده ومسرحياته الأبحاث العديدة، وحول حياته في نهايتها الفاجعة، مقالات لا عدد لها، وأنشدت أشعاره، ومثلت مسرحياته، التي مارست تأثيرها الفكري والفني على شعرائنا، ورجال المسرح عندنا، ومازال الاهتمام بهذا الشاعر الشهيد والعظيم، الذي فيه ملامح عربية بينة، تنداح دوائره، حتى ليداني، من ناحية ممارساته على الوجدان الشعري العربي الحديث، ممارسات اليوت في«أرضه اليباب»، وممارسات نيرودا أو اراغون وناظم حكمت وسواهم من كبار شعراء العالم.

هذا مثل بسيط، لكنه ذو دلالة، فالمثقفون والمبدعون العرب يعرفون المثقفين والمبدعين الاسبان، سواء في وقتنا الراهن، أو في ما تقادم عليه الزمن، امتداداً إلى قرون طويلة، حتى ليمكن القول ان لسرفنتس، في رائعته دون كيشوت، حضوراً كبيراً، ودوراً كبيراً، وتأثيراً كبيراً، في تشكيل وصياغة الذات الإبداعية، لكثيرين من روائيينا وقصاصينا وسائر العاملين في الحقل المعرفي العربي عندنا.

إذن نحن نعرفكم جيداً، ونقرؤكم كثيراً، وهذا الشوط في اللقاء الثقافي بيننا ليس مستأنفاً، بل هو موصول ومستمر، وهو شوط رحبت دروبه وآفاقه في الأعوام الأخيرة، وهي إلى رحابة

أرحب، وأمداء أبعد، وبسبب منها فإنكم الآن بيننا اخوة، نقبس منكم، ونرغب أن تقبسوا منا، والإبداعات التي تمثلونها، في سائر أجناسها الأدبية، قد صارت أقرب إلينا، في أيام الثقافة الاسبانية، هذه التي كانت موضع ترحيب حار منا، وستبقى معطياتها في ذاكرتنا، ورنين أجراسها، في نغمها الموسيقي ووقعها الوزني، في آذان المثقفين والمتذوقين العرب السوريين الذين شاركوكم، وتابعوكم وحاوروكم، في الجلسات التي انعقدت خلالها.

والآن، ونحن نختتم هذه الأيام الثقافية الجميلة والمثمرة، نشعر بالسعادة لأننا تلاقينا، فليس مثل اللقاءات الشخصية من وسيلة أفضل للتعارف والتمازج، ونأمل أن يكون ما سمعتموه، وما اطلعتم عليه، من شأننا الثقافي والحضاري، قد ترك انطباعاً إيجابياً لديكم، وقد كنتم، خلال الأيام التي أمضيتموها بيننا، في قلب تظاهرتنا الثقافية المتمثلة في معرض الكتاب، في باحة مكتبة الأسد، وهذه التظاهرة سنوية، بكل زخمها وعناوينها وجماهيرها، هي واحدة من عدة تظاهرات وندوات ومهرجانات ثقافية نقيمها، ونبذل لها، تحقيقاً لشعارنا القائل «الثقافة للجميع وفي خدمة الجميع»، لا قولاً خلبياً، بل ممارسة فعلية على أرض الواقع المعاش.

ومثلما أتيتم إلينا سنذهب إليكم، فالجسر المتين، في العلاقات الثقافية وغيرها، الذي أقيم بين سورية واسبانيا، قد أصبح معبراً

لكم ولنا، ومن طرفيه سيكون التبادل الفكري والأدبي والفني بيننا إلى استمرار وتطور، وهذه رغبتنا الأكيدة المشتركة.

وكما رحبت بكم ضيوفاً كراماً على مهاد الإبداع والصداقة، وباسم السيد الرئيس حافظ الأسد، راعي أيام الثقافة الاسبانية هذه، أودعكم باسمه، متمنية لكم السلامة والتوفيق، والعطاء المثمر والدائم، فيما تأخذون به من نسج الحروف قلادات للرؤى الأبهى، والأبقى، في حياتنا وحياة البشرية جمعاء.

ماذا بعد أن يتوسط القمر قبة السماء؟(*)

بتوجيه كريم من السيد الرئيس **حافظ الأسد** رئيس الجمهورية العربية السورية قامت وزارة الثقافة، بين يومي ٢١ و٢٥ أيلول ١٩٩١، بدعوة وفد اسباني من كبار المبدعين والمسرحيين وأهل الفكر والكتاب والشعراء والنقاد الإسبان، نزلوا ضيوفاً على الحكومة السورية لتقديم ما سمي بأيام الثقافة الاسبانية بغية التعرف عن قرب عليها وعلى رجالها.

إن سورية وإسبانيا هما الكفتان المتقابلتان على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في شرقه وغربه، وقديماً كانت سورية أحد منابر الحضارة الإنسانية في وسط العالم القديم، وكانت اسبانيا نهاية العالم على الطرف الآخر، ومع ذلك فقد زحفت إليها على الماء الجموع الفينيقية من الشواطئ السورية حتى وصلتها، وزرعت على شواطئها الجذور الأولى للحضارة. ثم زحف العرب بعد قرون ليتابعوا رسالتهم الحضارية العربية هناك. أغريب بعد هذا ألا تجد

(*) أعد هذا البيان الختامي المغفور له الدكتور شاكر مصطفى بصفته المقرر العام لندوة«أيام الثقافة الاسبانية«، في دمشق، ٢٥ /٩/ ١٩٩١

نفسك غريباً على الأرض الإسبانية في الوجوه، وفي الزقاق والسوق، أو أمام الأعمدة المرردة بالذهب والزخرف؟

وهكذا فإن دمشق اليوم إذ تفتح صدرها لضيوف الثقافة الإسبانية ومبدعيها، فإنما تفتحه لأبناء عمومة لها، وإن اغتربت بهم اللغة وطال الأمد على اللقاء العربي -الاسباني السابق، إنها تعرف أن هذه القربى ما تزال حية في الشرايين. ألم يقل الشاعر الإسباني فيلا سباما: «لو كشط أحدنا جلد يده لظهر تحته الجلد العربي»؟.

غربة اللغة هي التي تقف بيننا. لا شيء آخر. وما كانت اللغة يوماً حاجزاً دون لقاء الشعوب وتآخيها، ومع ذلك فقد استمعنا من الإخوة الضيوف المبدعين إلى موسيقية اللغة الإسبانية، وإلى أسماء وأعمال في القمة من الفن الرائع، وإلى بعض من الأربعة آلاف كلمة عربية تغلغلت في لحم اللغة الاسبانية، وعرفنا إلى هذا وذاك أن الأدب الإسباني عالم وحده. ليس مما عرفنا من الآداب الأخرى. هو وريث دون كيخوته وسرفانتس. إنه يحمل من أوروبة نفحة شمالية فيها الضباب والمطر والفروسية، ويحمل من الشرق، شرقنا العربي، عشرات الشموس والأحلام الصوفية، وفيه إلى هذا نكهة البخور والقرنفل العتيق.

تناولت «أيام الثقافة الإسبانية» مواضيع شتى خصبة العطاء، حول الشعر والمسرح والأبحاث والدراسات الأدبية، توزعت على الأيام الأربعة التي استمرت خلالها الندوة. وكانت الأمسيات تقضى في عرض الأبحاث من السادة المشاركين، كما كانت

الأصابيح التالية تقضى في المناقشة والحوار حول مواضيع الأمس. وقد رئس الجلسات على الدوام رئيسان، أحدهما من الجانب الإسباني والآخر من الجانب السوري.

استمع الحضور إلى ١٨ موضوعاً وبحثاً، كان بعضها مختصراً ولكن معظمها كان واسعاً عميقاً، كما كانت كلها قيمة هامة سواء في موضوعها أم في الزوايا الفكرية التي عالجتها. وكانت المناقشات التي تبعتها جيدة المستوى، أضاءت الكثير من الجوانب الغامضة في المحاضرات.

على أن الشعر فاز في «أيام الثقافة الإسبانية» بالنصيب الأوفى، فقد قدمت فيه سبعة أبحاث واسعة الإيحاء والغنى، وصل بعضها إلى حدود دراسة التصوف الشعري، ودراسة الظاهرة الشعرية، ودراسة الشاعر أمام الوحدة والحلم والضمير، والشعر بوصفه الروح المحيط.

وكما حظي الشعر بالاهتمام الأول تضاءل بالمقابل مع الأسف حظ الرواية والقصة والسينما والنقد الأدبي. فلم يقدم أي بحث عنها، سوى بحث واحد، في النقد ومن زاوية محددة. وهكذا لم تبرز مكانة تلك الكنوز الهامة، في الثقافة الإسبانية، من الروايات والقصص المتنامية منذ أيام دون كيخوته إلى اليوم، مع أنها دنيا من الدنيا، وعالم ضخم من الكتاب والمبدعين الروائيين والقصصيين والنقاد والسينمائيين لهم السمعة العالمية.

وقد يعوض عن هذا بعض التعويض، أن المسرح فاز بثلاثة أبحاث قدمها الضيوف الباحثون، وغطت جوانب هامة من هذا النوع الأدبي المميز في اسبانيا، وتحدثت عن الكاتب المسرحي في إسبانيا التسعينات، وعن المجموعات المسرحية، وعن جمعية المخرجين المسرحيين، وتفرد باحث بدراسة مخطوط وجد في سرقسطة، كشف عن أديب نابه من أدباء القرن التاسع عشر، عني بدراسة العرب، ويلفت النظر أن سبعة من الأبحاث التي قدمت خصصت لمواضيع عربية، أو ذات وشائج وثقى بعلاقات العرب وإسبانيا، ثلاثة منها قدمت في ندوة الشعر، أحدها عن فلسطين في الشعر الاسباني، وثانٍ عن دمشق في عيني شاعر إسباني، والثالث عن البصمات العربية عند بعض شعراء القرن العشرين الإسبان، أما ندوة الدراسات فاستأثرت كلها بالأبحاث الأندلسية العربية. فكانت عن مكنون الأندلس الإسلامي، وعن ما وراء القلب العربي، وعن الأندلس في الشعر القشتالي العربي. وإن دل ذلك على شيء فعلى ان المشاعر العربية ما تزال حية في حنايا الأضلاع الاسبانية، وعلى أن جذور العلاقات العربية الاسبانية أعمق بكثير مما يظهر على سطح الأحداث.

كانت أيام الثقافة الاسبانية تظاهرة ثقافية خصبة العواطف، خصبة العطاء، تعارف فيها على الود والمحبة أدباء الجانبين الشرقي والغربي من البحر المتوسط، وكتابه ومبدعوه ومفكروه، ووجدوا أن العرى الوثقى التي تجمعهم هي أعمق وأشد من أن يعبر عنها

القول، وأن وجود الشعبين لدى الآخر وجود أخوي قديم لا تهـزه العواصف العابرة، وان احتاج دوماً إلى الإيقاد والتألق.

وقد أجمع حضور «أيام الثقافة الإسبانية» على أمرين:

الأول: الفائدة الواسعة لمثل هذه اللقاءات الثقافيـة، وضرورة العمل على إقامة أمثالها في البلدين. لأن الثقافة هي طريق التواصل والمحبة والسلام بين بني الإنسان، وبخاصة بين العرب واسبانيا.

الثاني: رفع برقية شكر جزيل إلى راعـي هـذه الأيـام الثقافيـة السيد الرئيس **حافظ الأسد**، رئيس الجمهورية العربية السورية، لمـا أولاه لهذه الأيام من العناية والرعاية، وقد رجـوا الـدكتورة نجـاح العطار وزيرة الثقافة أن ترفع هذه البرقية الشاكرة باسمهم.

نجمة صداقتنا ستبقى ساطعة!(*)

الأمم، جميعاً، تفخر بالصلات بين بعضها البعض، لكنه، في الجهات الأربع من كرتنا الأرضية، ما من أمة بينها وبين أمة أخرى، ما بين الأمة العربية واسبانيا. إن روابط التاريخ ليست خيوطاً عنكبوتية، يمكن لأي خيط منها أن يقطع بفعل الإنسان أو الطبيعة، وقد أحكم التاريخ، بين العرب واسبانيا، صلات فولاذية، سقيت بماء الحضارة الذي جعلها عصية على الانبتات. فإذا قلنا الأندلس، ازدهى في سِفر الكون جناحان للتحليق، أحدهما في دمشق، والآخر في قرطبة ومدريد.

الوطن هو دائماً وطن الجذور الضاربة في الأرض. إنه وطن الطفولة والشباب واستواء الرجولة، وهذا الوطن، في مراحله الثلاث، قد كان لؤلؤة ازدان بها تاج الأندلس، من حيث هو وطن حضارة أفاءت على الدنيا بظلال المعرفة، ومن فيئها الحضاري

(*) كلمة كُتبت لتكون افتتاحية العدد الأول للمجلة الاسبانية التي أصدرها معهد سرڤانتس في دمشق، ونُشرت في صفحة خاصة سبقت كلمة افتتاح العدد، وذلك بعد المعرض الذي أقيم في غرناطة برعاية الملك خوان كارلوس والرئيس بشار الأسد، عام ٢٠٠٣.

اقتبست أوروبة، عبر إسبانيا، الكثير، وحقائق التاريخ شاهدة، تومض كالبرق، لا في الذاكرة فحسب، وإنما في الوقائع المعروفة أيضاً. ورغم ذلك بقيت الأندلس قلباً تواضع في غمار كبريائه، وظل باني مجد الأندلس، عبد الرحمن الداخل، صقر قريش، عقلاً مؤسساً، مستنيراً، بناءً، مشعاً، عاملاً للمجد، صانعاً أسطورته، كما يصنع عظماء الرجال أساطيرهم، فكان في صنيعه الباهر، فذاً، جريئاً، خارقاً في كل ما صنع، وما أرسى من إمارة مهابة، هي للسيف والقلم معاً.

ولن أعدد مآثره، فأنتم تعرفونها، لكنني سأكتفي، ومعرضنا في قرطبة والرصافة، بالتذكير بأنه هو من شاد جامع قرطبة، وأسس مدينة الرصافة في ضاحيتها، وبنى فيها قصراً رفيع العماد، عالي الشرفات، استقطب كبار رجال الفكر والأدب والموسيقا من ديار الشام، وأنشأ حولها الحدائق والبساتين، كما جدد أسوارها، وأقام حصونها وأبراجها، واهتم اهتماماً خاصاً بالفن المعماري الذي أسهم في تزيين اسبانيا بأجمل المباني التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا.

ولقد تميزت دولة الأندلس التي أسسها، بالإبداع في مختلف الميادين، وكانت ذات مكانة ورفعة، ومن مجدها الشامخ المرتكز على حضارة عربية أندلسية، ومن عطاءاتها المعرفية والعمرانية، انتشرت العلوم والفنون والفلسفة والآداب، نهلاً ونقلاً وتأثراً، وبلغت البلدان الأوروبية وتجاوزتها، فكان الازدهار التاريخي الذي عرفته هذه الدولة، طوال ثلاثة قرون ونيف، من حكم عبد الرحمن الداخل وأولاده وأحفاده، كريماً، معطاءً، نادر المثال.

إن التفاعل بين الشعبين العربي والاسباني في دولة الأندلس التي نحتفل بتألق مجد الأمويين، في عاصمتها قرطبة، وفي معرض يقام على اسمها الزاهر، نشارك فيه معاً، عرباً وإسباناً، قد كان سبيلاً إلى نهوض عظيم لكليهما، ففي رحاب اسبانيا، حين العرب وقرطبة، عناق إبداع مع مدريد وغرناطة، أزهرت وأثمرت حضارة عربية اسبانية متمازجة، متماهية، منتجة للمعارف الإنسانية في شتى فروعها، وعن اسبانيا، عربية وأندلسية، في النسغ الثقافي المتلاقح بين مشرق ومغرب، أخذت أوروبة الكثير من عطايا فتوحات الإبداع المشترك، في الفكر والفلسفة والأدب والفن والموسيقا والبناء وعلم الاجتماع، وكانت في ذلك سباقة، وكان التوهج المعرفي شرياناً أرجوانياً دافقاً في نهر الحضارة البشرية، هذه التي تكونت منها كنوز الإرث الثقافي الإنساني.

والحوار الذي يجري بيننا، ضمن مفاهيم هذه الحضارة، ليس حواراً منبتاً، منقطعاً، مستأنفاً، بل هو حوار متصل، متكامل، متفاعل، مضمر في بعض المراحل التاريخية، معلن في بعضها الآخر، باقٍ على الدوام، وصلات القربى، أو ما هو أعمق منها، صلات الرحم والدم التي تجمعنا بكم ماضياً وحاضراً، وتشدّ بعضنا إلى البعض الآخر، هي صلات للتطور المستمر، بفضل هذا التبادل المستمر الذي أخذنا به، أنتم ونحن، وسنواصله كضرورة حضارية وإنسانية لا غنى عنها. إن العلاقات العربية الاسبانية متميزة، على أصعدة كثيرة، لكننا نرغب رغبة صادقة في جعلها أكثر تميزاً،

ونسعى للانطلاق بها إلى محيط أكبر، يتعدى ما هو حضاري إلى ما هو شمولي، في علاقات بلدينا ذات العمق التاريخي المعروف.

لقد كتبت بمناسبة ندوة سابقة عربية أندلسية هذه الكلمات: «قد يكون غريباً أن يجتمع في الخاطر، في ومضة برق نيزكية، الأسكوريال ولوركا، الجامع والقصر، زرياب والتروبادور، سرڤانتس وابن عربي، وابن رشد وابن زيدون.. وأسماء كثيرة عربية أندلسية، لولا أن بين هؤلاء جميعاً، رابطاً هو الأدب، وقاسماً هو الفن، ونسيجاً هو المعرفة، وشبكة ذهبية الأعراق هي الثقافة العربية الاسبانية، هذه التي عل اسمها يأتي التاريخ في هذا المعرض الرائع، معرض قرطبة، صانعاً، عبر الثقافة، ما هو نتاجها الأسمى، تواصلاً إنسانياً، وتلاقحاً فكرياً، وبناءً حضارياً، حين يعمل كل منا لمدّ جسور الصداقة، قوية متينة، معيدة ومستعيدة لكل الروابط التي جمعتنا، وألّفت بيننا».

إننا نشيد بجهود حكومة الأندلس التي كانت سباقة إلى فكرة مدهشة هي إحداث مؤسسة تراث الأندلس، والارتقاء بمشاريعها إلى مستوى أشمل، يتابع «طريق الأمويين» منذ بداياته من بلاد الشام، وصولاً إلى الأندلس، تماماً كما تابعنا «طريق الحرير» الذي يمتد من الشرق الأقصى إلى أوروبة، عبر سورية. ولقد أقمنا، بالتعاون مع الأصدقاء الإسبان، على مدار عقدين أو أكثر، مجموعة ندوات دولية ومعارض في سورية، حظيت برعاية الرئيس الراحل واهتمامه، كما تحظى اليوم برعاية الرئيس **بشار الأسد** واهتمامه

أيضاً، ونـشرنا وننـشر كتبـاً هامـة ومخطوطـات رائعـة، في بلـدينا، وناقشنا معـاً جملـة أمـور منهـا هـذا المعـرض الـذي يـبرز تاريخيـة العلاقات الثقافية والفنيـة والإنـسانية بـين اسـبانيا والعـالم العـربي الإسلامي، وما كان لها من شـأن، و«طريـق الأمـويين» الـذي هـو بالفعل طريـق بـالغ الأهميـة، فعـلى جانبيـه أمجـاد حـضارة علميـة وعمرانية آثارها باقية على امتداده، شامخة بشموخه، وقد وعـدنا أن نسهم بكل ما يمكن مـن جهـد فيـه، وكـان للـسفارة الإسـبانية في دمشق، والمركز الثقافي الاسباني، دورهما المسعف والميسّر لكثير مـن الأمور.

وإنه لشيء هام، ذو دلالة كبيرة، أن يقوم ملك اسـبانيا خـوان كارلوس، والسيدة الملكة، بافتتاح هـذا المعـرض، وتـزداد الدلالـة سطوعاً أن يُفتتح المعرض بحضور الـرئيس بـشار الأسـد، رئـيس الجمهورية العربية الـسورية، الـذي لبّـى، والـسيدة حرمـه، دعـوة جلالة الملك كارلوس، لحضور الافتتاح، الأمـر الـذي يبعـث عـلى الغبطة، ويؤكد حرص الرئيس الأسد عـلى بنـاء أفـضل العلاقـات وإرسـائها، في كـل الحقـول، بـين سـورية واسـبانيا، الـدولتين الصديقتين، وقد دلّلت الوقائع على عمق هذه الصداقة بينهما.

ختاماً أوجه الشكر خالصاً، صادقاً، إلى كل الـذين بـادروا إلى إقامة هذا المعرض، وإلى كـل الـذين بـذلوا الجهـد كبـيراً في تحمـل إنجاحه على هذا النحو الرائع.

* * *

أيها الأصدقاء الإسبان

أرى في إصـدار مجلـتكم حـدثاً معرفيـاً هامـاً، ينـضاف إلى إنجازات أخرى كبيرة، في بلـدكم الـصديق، ولي مـلء الثقـة بأنهـا ستبرر الآمال المعقودة عليها، وستحقق الطموحـات المنوطـة بهـا، وسيكون لها حضور فكري وإبداعي رفيع.

مع أطيب التمنيات.

في رحاب تاريخ حافل(*)

تحية حب وتقدير لاسبانيا بعامة، والأندلس منها بخاصة، والمنكّب (المونيكير)،«بلد الحنين»، قولة هيجل، بشكل أخص.

تحية حب وتقدير للمنكب وأهله الأوفياء الميامين، وحاكمه الصديق السيد خوان كارلوس بنابيدس الذي كان ضيف دمشق في الندوة التي أقيمت في نيسان عام ١٩٨٦، احتفاء بعبد الرحمن الداخل، وامتداداً لندوة مهمة، أقيمت عام ١٩٨٥ في المنكّب أيضاً، بجهود العلماء الإسبان، واهتمام من الحكومة الاسبانية، واحتضان رسمي وشعبي من هذه المدينة الرائعة -المنكّب- التي حملت في ذاكرتها الخطوات الأولى، لعبد الرحمن الذي وصلها سباحة، فكانت أول أرض تمدّ له ذراعيها، وتمنحه، بشغفٍ، الأمان والحرية، والقدرة على تأسيس إمارته، وصنع معجزته.

وفي تلك الندوة –عام ١٩٨٥- نصبت اسبانيا للأمير عبد الرحمن تمثالاً فريداً بجلاله، تخليداً لذكراه، واعترافاً بما بنى وما

(*) كلمة شكر للمنكب الذي احتضن ملتقىً للنحت شارك فيه عدد من النحاتين السوريين في عام ٢٠٠٥.

أرسى وما جدّد من صروح معمارية باقيةٍ على الـدهر، وبكـل تلـك الحضارة الغنية بعطاءاتها المعرفية التي ازدهرت في الأندلس، خلال حكمه، وحكم أولاده وأحفاده من بعده.

كانت هاتان الندوتان بداية تعاون حقيقي واسع ومثمر، بـين سورية واسبانيا، يجدّد من التـاريخ صـفحات ألقـة، انطـوت ومـا انطـوت، ويتـيح أسـباب لقـاءات هامـة، تجـسدت في نـدوة عــن «العلاقات العربية الاسبانية عبر التاريخ» عام ١٩٩٠، وأخرى عن «أيام الثقافة الإسبانية» عام ١٩٩١، ثم معرض اشـبيلية، .Exp عـام ١٩٩٢، وندوات أخرى مشتركة عن ابن عربي وسواه، مـن الـروّاد المبدعين.

وتـأتي اليـوم دعـوة المنكّـب إلى النـدوة المقامـة فيـه، بعنـوان «الذكرى ١٢٥٠ لنـزول عبد الرحمن الداخل في المنكـب» اسـتئنافاً جميلاً وجدياً للعلاقة العربية الاسبانية، في المجالات المعرفية، يتـيح لنا أن نلقي الضوء على صفحات ماجدة، من تاريخ مشترك، أبدعنا فيه حضارة فائقة، علـماً وفلـسفة، وعمرانـاً وثقافـة، وفنـاً وفكـراً، أشرقت شمسها المنيرة والنيّرة مـن الأنـدلس، وامتـدّ إشـعاعها إلى أوروبة، مزيحاً عنها جهالة القرون، وظلمات التخلف، آنذاك.

أشـكر للمنكّـب احتـضانه لهـذه الأيـام الهامـة، بالتأكيـد، واستضافته لملتقى النحت ضمنها، ولعدد من نحاتي سورية الـذين نقـدّر، ولتظـاهرات بحثيـة أخـرى، تلقـي أضـواء جديـدة، عـلى انتصارات تاريخ قديم، يحسن أن يـستعاد، وألا تطـوى صـفحاته،

لتكون الأساس في استمرارية علاقات مجيدة، مادمنا نحن وأنتم ننتمي إليها معاً.

ولن أنسى أبداً أنني عشت في المنكّب أياماً لم يمحُ الزمن أثرها في نفسي، ومحالٌ أن أنسى وَقدة الشعلة المقدسة، في القلب وفي الضمير، أو حالة الانخطاف التي أخذتني، حين حُملت آنذاك، على أجنحة من سنى نوراني، فوجدت نفسي على أعتاب تمثال عبد الرحمن، وفي يدي باقة من زهر، وموج البحر المتلاطم في سمعي، وحولي أصدقاء أندلسيون. أضع الباقة على قاعدة التمثال، وأرفع رأسي، وفي عيني دمعتان، كي أمعن النظر في الوجه النبيل، وأمكث حيناً وأنا غير قادرة على الحراك.

لا تزال هذه اللحظات تملأ نفسي، وتستثير أفكاري، وتحيلني، بين حين وآخر، إلى تلك الرؤى التي عشتها في رحاب تاريخ حافل، وواقع راهن لا يقل بهاء، بين أصدقاء يملكون من القيم، ومن الوفاء لها، ما صار نادراً في أيامنا.

تحية حب وتقدير مرة ثانية لاسبانيا، للأندلس، للمنكّب التي وفت واحتضنت، ورعت، واحتفت، وأحيت قيماً إنسانية من التاريخ، ستظل تحفل بزهو عطاءاتها، وبما تملكه من إمكانات، لفتح الآفاق أمام عمل مستقبلي، نرجو أن يكون كبيراً وبناءً..

وسلامٌ على عبد الرحمن الداخل،

وعلى نظرائه من صنّاع التاريخ وأبطاله.

ابن عربي في جلوة صوفيته(*)

أن تعقد الندوة الدولية، حول تراث محي الدين ابن العـربي في دمشق، فهذا من طبيعة الأمور، وخلافه خـارج عـن هـذه الطبيعـة تماماً، لا لأن ابن العربي قد عاش ومات ودفـن في دمـشق، بـل لأن دمشق هي الطريق المستقيم، لمن تتعرج به الطرق، وهي المنبر الحـق للكلمة التي التوَت بها سبل الحقيقة، وهي، أيضاً، مركـز الإشـعاع الفكري، منذ أن أرسل الفكر إشعاعه في دنيـا العـرب والإسـلام، وكما في الماضي السحيق، والحاضر المتبلج، والمستقبل المضفور عـلى الأمل، فإن دمشق تتلألأ حتـى مـع ترمّـد ماعـداها، ودمـشق قـد كانت، يوم لم يكـن سـواها، ودمـشق، فيحاؤنـا، فيحـاء المفكـرين والعلماء والأدباء، هي اليوم، كما كانت بالأمس، غرة أموية في جبين التاريخ العربي الإسلامي، وغرة للتاريخ العربي الإسـلامي، تكتبـه ويكتبها، تقوله ويقولها، تعطيه ما ازدادت العطايا، ويأخذ عطاياهـا ملء راحتيه: فكرية، أدبيـة، فنيـة، علميـة، فلـسفية، وغيرهـا، ثـم

(*) في افتتاح الندوة الدولية في ٣ /٧ /١٩٩٧حول«تراث محي الدين ابن العربي» بين مرسية ١١٦٥ودمشق ١٢٤٠.

لا انقطاع في السلك الذي ينتظم النجوم، لأنها، هي، دمشق، هذا السلك، ومبدعوها هم النجوم، قرناً فقرناً فقرناً، وتزداد نجومها ألقاً، تزداد توهجاً، لا بمن يتفتح ضوءاً في سمائها من الأبناء المبدعين، وإنما أيضاً، في من يأتيها مكرساً بهالات الضوء، على نحو ما كان عليه الأمر مع مفكرنا الكبير، الجليل، محي الدين ابن العربي، وأنتم أساتذة، ومتخصصين، في الفكر والفلسفة والعلم على دراية، ومعرفة، وفهم متكامل لموضوع هذه الندوة التي يسعدني أن أفتتحها، متمنية لها النجاح الذي يعطي إضافته في موضوعها، وتشقيق صيغها، وتكامل منطلقاتها، واتساع آفاقها، سعة تغني ما هو غني في شأنها، وبغير حد.

لقد اصطفى ابن عربي دمشق بعد طول إقامة في الأندلس، مسقط رأسه، وطول ترحال بعدها، واصطفته دمشق فكان من أحبتها، وكان، في ذاتها، إحدى شعلاتها المتقدة، المنيرة، الباهرة، رغم كل التناقض في القول حول هذه الشعلة، إبان هذه الإقامة. وقد شكّل هذا التناقض ظاهرة مفردة، من هنا انبثقت، وههنا استطالت ودامت حتى أيامنا الراهنة، وتلك هي ظاهرة الحوار المفتوح، الحوار الضروري، الصحي، المختلف، وفي اختلافه، قل جدليته، كان الإثمار المعرفي الذي نحرص عليه، ونريده، ونتقصده، في ندواتنا ومؤتمراتنا، على مدار الأعوام، وفي مجالات المعرفة كلها، لأننا، في نهضتنا الثقافية الشاملة، نؤمن أن الحوار يأتي بالعبقرية إلينا، وتجدنا هذه العبقرية، أو هذا النبوغ، مفتوحي الذراعين

ترحيباً وتسهيلاً، بذلاً وعطاء، رعاية وتشجيعاً، مع ملاحظة بسيطة وغير بسيطة في آن، يمكن تلخيصها بأننا نياسر إلى تناول الحرية الفكرية، من أي يد امتدت إلينا، وفي المقابل نمد يدنا بهذه الحرية، إلى من يرغب في تناولها منا، لأنه كما قال الرئيس الأسد: «لا رقابة على الفكر سوى رقابة الضمير»، والمؤسسات الثقافية في سورية، تسعى حريصة، مثابرة، جادة، لتطبيق هذا الشعار، كي يكون النقد بناء، مفيداً ومستفيداً، في تطوره إلى ما هو أرقى فأرقى، على الدوام.

قلت إن العبقرية جاءت إلينا، وكان هذا حدثاً كبيراً، رحباً في اندياح دوائره، واسعاً في تخطيه التخوم الشامية إلى ما بعدها، وكانت هذه العبقرية صوفية خالصة، فيها الكشف، وفيها، الشطح، وفيها الجلوة الربانية، وفيها النزعة الإنسانية، وهذا واضح في سيرة ابن عربي، وفي مصنفاته العديدة، الوفيرة، وفي تعاليمه الكلامية الغزيرة، وفي أشعاره السهلة الممتنعة معاً، التي في تطلبها، وفهمها، وكشف إيماءاتها، تحتاج إلى الصبر والمصابرة، والجهد وإمعان الفكر، تدبراً لها، وفهماً لرمزيتها التي استبقت الرمزية، في اصطلاحها الحداثوي، في وقتنا هذا، وقد عَلِق ابن عربي أهل الشام وعَلِقوه، حسب تعبير المقريزي عن حاله هو، وكان في هذا التعالق، بين طرفي المعادلة، معطى ثقافي رحب المدى، عميق الانغراس في تربة البلاد التي طالها الفتح الإسلامي، وفي المقدمة الأندلس، حيث ازدهرت الثقافة العربية الاسبانية المتمازجة المتناغمة المتلاقحة، ازدهاراً بالغاً، رائعاً، باقياً ما بقيت الثقافات،

وهي، طبعاً، إلى بقاء، ومن الأندلس انتقلت هذه الثقافة إلى أوروبة، على النحو الذي نعرفه، أو يجب علينا نحن أن نعرفه، ومن خلال هذه الندوة، أيضاً، كما هو المأمول منها.

إن الإشراق في شعر ابن عربي، قد امتزج بالغالية، وهذا متوقع من شاعر صوفي، له ديوان واحد، بين أربعين من المصنفات، وقد وصف شعره بكلمات كثيرة، من قبل مجايليه ومن تلاهم، وأجمعت هذه الكلمات على أن هذا الشعر كان رائقاً، بليغاً، شفافاً، مرهفاً، وهذا، تقريباً، في المسلمات، بالنسبة لمفكر وشاعر، له علم واسع، وذهن وقاد، وتحتاج عباراته، في أكثريتها، إلى تأويل، وهذا مألوف في الشعر الصوفي، وله دلالات قد تستغلق على من ليس له دربة وإمعان نظر. أما فكر ابن عربي فهو خلق جديد، لكنه غير منبت الجذور، فالشيء، كما سبق ولاحظت الفلسفة اليونانية، لا يخرج من لا شيء، وفكر متصوفنا ابن عربي، في حدود رأيي، كان إعادة إنتاج للفكر الصوفي الذي سبقه، إلا أن محاولة التأصيل، والتثبيت، والاستنبات التحديثي، في خصوصية اللفظة، كانت واضحة، وبعد التلاقح، الذي هو تأثر وتأثير دائمان، صار فكر ابن عربي غرساً مستقراً، من ذات البيئة، ذات البنية، ذات النتاج المنتمي إلى أمة بعينها، هي الأمة العربية، بعد انتقاله من مرسية إلى إشبيلية، في الأندلس، وارتحاله عنها إلى المغرب فالمشرق، حيث دخل مصر، وأقام في الحجاز، وفي بغداد والموصل وبلاد الروم، إلى أن استقر في دمشق.

غير أن علينا، ألا ننكر، في الكلام على فكر ابن عربي، وتجـذره في التربة العربية، التمازج الثقافي الانـدغامي، والمـؤثرات الفكريـة، والأحداث التاريخية، التي هي متشابكة، متداخلة، فاعلة، منفعلـة، بين حضارتين عريقتين هما الحضارة العربية والحـضارة الاسـبانية. وقد اعترف العالم، بما كان للعرب في الأنـدلس، مـن إسـهام ثقـافي وحضاري ظاهر، واضح، يقينـي، انتقلـت بعـده الكنـوز المعرفيـة العربية إلى أوروبة، بعـد أن أرسـت في التربـة الأندلـسية بـذورها، فنمت هذه البذور وأينعت، وأورقت، وأثمرت، وكانت الأندلس، بهذا المعيار، جسراً عبرت عليه الإبداعات العربية الأدبية والعلمية، إلى أوروبة وأمريكا اللاتينية، ومع هذا العبور، ظل التلاقح، العربي الاسباني، ذا حـضور وفاعليـة عطائيـة، في حقـل المعرفـة بمعناهـا الواسع، وقدم في تلاقحه هذا، نتاجات عربية وإسبانية معاً، وكانت هذه النتاجات ذات طاقة إبداعية خلاقة، وتأثيرات متبادلة، جـدير بنا أن نتوقف عندها، وأن نعنـى بهـا، ونعـاود سـيرتها، ونطورهـا، دراسة وبحثاً، ونمحصها تحقيقاً ودلالة، إلى أن نصل بها إلى مرحلة متقدمة، عن طريـق الإحيـاء والنـشر، عـلى نطـاق تتـسع حلقاتـه، الواحدة بعد الأخرى.

ولقد تمكنا خلال العقـدين الأخـيرين، مـن تحقيـق خطـوات متقدمة متداخلة، نحن والبلد الصديق اسبانيا، فأقمنا ندوات ذات أهمية بالغة، عنوان الأولى«من الشام إلى الأندلس»، والثانية«الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ»، والثالثة«أيـام الثقافـة الاسـبانية»،

ونشرنا العديد من الدراسات والكتب والأبحاث، وكان من دواعي السعادة أن نعلم أن مؤسسة هامة قد نهضت في اسبانيا، اسمها«تراث الأندلس»، وبدأت بمشروع عنوانه«طريق الأمويين»، وسنسهم نحن فيه بكل ما يمكن من جهد، وها نحن نستقبل الآن وفداً كريماً برئاسة السيد نائب رئيس الحكومة الإقليمية لمرسية، السيد أنطونيو غوميث فايرين، تعزيزاً لندوة ابن عربي التي نفتتحها الآن.

إن الإرادة المشتركة، والرغبة المتبادلة، كانت، ولا تزال، قائمة، وفي ضوء توجيهات الرئيس الأسد، نؤكد تأكيداً قاطعاً، أن المقومات والوسائل لدينا إلى ازدياد، لتحقيق المزيد مما هو مطلوب على الصعيد الثقافي، بكل مدلولاته الحضارية والإنسانية، فالثقافة التي له فضل العناية بها، والرعاية لها، قد ازدهرت في الربع الأخير، من قرننا هذا، كما لم تزدهر في أيما حقبة أو مرحلة سابقة، وهذا ليس بجديد في القول، ولا هو بالمستغرب في الفعل، وشهادتنا على ذلك نهضتنا الثقافية، هذه التي ندين بنموها وتطورها إلى سيادته، هو المثقف القادر المثابر، الجامع بين صفتين متلازمتين: الاطلاع المعرفي الأشمل، والاستعداد الدفاعي التحريري الأكمل، وفي سبيلهما، عناقاً بين قلم وسيف، يبذل ويبذل، سخاءً في المادة، وكرماً في الرعاية، ومأثرة في المتابعة، رغم المشاغل السياسية التي تكاد تجعل منه صاحب نهارين، لا ليل فيهما، أو معهما، أو بينهما، بسبب من أننا دولة مواجهة، وطلاب حق في استعادة الأرض مقابل السلام، هذا

المبدأ الثابت، المتجذر، الذي لا رجعة عنه، ولا حيدة فيه، مهما تطل مراوغة العدو المحتل، ومهما يتفنن لوأد عملية السلام، ومهما يحاول ويناور، كي يجعلنا نتخلى عن طلاب السلم العادل، وفق مرجعية مديد، وما ارتكزت عليه من شرعية دولية.

إن مبادرة الحكومة الإقليمية في مرسية الإسبانية الأندلسية، ومعها معهد سرڤنتس ممثلاً بمديره البحاثة السيد لويس خابيير رويث سييرا، في دمشق، قد لقيت منا كل قبول وترحيب، وهذه الندوة المنعقدة انبثاقاً من هذه المبادرة، ننظر إليها كإنجاز آخر مهم، من الإنجازات المهمة للتعاون الثقافيين بين سورية واسبانيا. ولقد يكون الكلام على ابن عربي، هذا المتصوف الذي عاش هناك وهنا، ثم مات هنا، وحمله أصحابه ودفنوه في الصالحية شمالي دمشق، بسفح جبل قاسيون، في تربة خاصة بأسرة ابن الذكي، ولا يزال ضريحه مزاراً للناس إلى الآن، وإلى ما سوف يأتي ويأتي من الأعوام، أقول: إن الكلام على ابن عربي يغري، وفي إغرائه يتطلب كفاءة، من تخصص أنتم أصحابه، وأنتم مجيدوه، في المعرفة العميقة، والذائقة الدقيقة، في ذكائها والإمتاع، ولأنني لست على هذا الكفاء المطلوب، وأرغب عن كل مصادرة مسبقة، قد يستجرها استحواذ إغرائي، فإنني أكتفي بالقول: أهلاً ومرحباً بكم، فأنتم، في دمشق، أهل دمشق، وأنتم، في التحية اللائقة، خليقون بالتحايا الأكثر لياقة، لأنكم الأكثر، والأوفر نبلاً، في هذا المسعى المشكور، وما فيه من مشاق السفر، وعناء البحث، وإرهاق الإصغاء، والمداخلة

والمناقشة، كي توفروا لنا، نحن المستمعين، المتعة والفائدة، وهما بغية كل ساع إلى المعرفة والمعارف جميعاً.

أكرر الترحيب، والشكر، والتمنيات الصادقة، في نجاح لا شك فيه ولا ريب ولا هون، وكم هو بليغ الدلالة قول ابن عربي:

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

ففي نسيج هذا القول، تتجلى الصوفية في روعة تساؤلها، وتتجلى صوفية ابن عربي في تأملها، ولم تكن الفلسفة الصوفية يوماً إلا هذا التساؤل وهذا التأمل للكون وما فيه.

الذاكرة العربية الإسلامية في البرتغال(*)

أيها السادة

إنها لسعادة غامرة أن أقف بينكم اليوم، باسم سورية العربية، مشاركة في اليوم العربي، وأن أنقل بداية تحيات الرئيس **حافظ الأسد**، رئيس الجمهورية العربية السورية، الحارة والمخلصة، إليكم جميعاً، وأفضل تمنياته بالنجاح المؤزر، لهذا الملتقى الذي يقام في بقعة من الأرض الإيبرية البرتغالية، عزيزة علينا نحن العرب، بقدر ما هي عزيزة على الأصدقاء البرتغال، لأنه عليها تلاقى أسلافنا المشتركون، في إطار من التعاون المثمر والإخاء المتبادل، ليقيموا حضارة باقية على الدهر، هي نتاج للعمل العربي الإيبري الخلّاق والمتبادل، في جميع حقول الإبداع، العلمي والأدبي، وفي فنون العمارة بأشكالها المتميزة، مما كان ذات يوم دنيا حضارية كاملة، وهو الآن كنوز معرفية، آثارية وتقنية وثقافية، بها يستعيد التاريخ إضافته، ليكتب إضافة جديدة، بإقامة جسر حضري يعبر

(*) في ملتقى اليوم العربي في البرتغال، لشبونة في ١٥و١٦ /٥ /١٩٩٧، الذي أعدته ودعت إليه الغرفة التجارية الصناعية العربية في البرتغال.

عليه الماضي إلى الحاضر، فيتلاقيان على سموق في المواهب والمآثر، لتكون الانطلاقة نحو المستقبل من بعد، انطلاقة استمرار في التبادل الثقافي والحضاري، بين الشعب العربي والشعب البرتغالي بخاصة، وبين شعبينا وشعوب العالم بعامة.

وأحسب أنه يحق لنا، نحن ممثلي الأمة العربية، في هذا اللقاء البالغ الأهمية، أن نقول باعتزاز ومحبة: هنا كان أجدادنا العرب الأُول، ولمدة قرون متواصلة، وهنا بنوا وشادوا، وهنا زرعوا وأقاموا، وهنا نبغوا نبوغاً فائق الأثر والخطر، ومن هنا طلعوا على من حولهم، في الجهات الأربع، طلوعاً حضارياً، كان المنهل لمن نهل منه دارساً ومقيماً، أو مقتبساً مرتحلاً، وكان المورد لمن ورد إلى لشبونة أو اشبونة -كما أسماها أجدادنا - وإلى باجه وشلب وغيرها وغيرها، في شبه الجزيرة الايبرية، في طلب العلم، فتزود منه خير زاد.

أيها السادة

منذ تلقيت الدعوة الكريمة، وأنا أجوس في الخيال أرضاً لم أزرها من قبل، وأستشعر شيئاً من التقصير في حق ماضٍ مشترك، وأحاول أن أستسقي الغمام ذكريات هي صور في قلبي وكتب التاريخ معاً، بل هي في قلبي بأكثر وأنضر مما في كتب التاريخ، لأنني أحياها وأنفاس الماضي تلفحني، بسبب من أن زمان الوصل الايبري، هو كل الأزمنة، كذلك كان، وكذلك سيبقى، أنغاماً وموشحات وتصوفاً وفلسفة واحورار عين، بين سوادها والبياض

يلتقي مجدان، وتتعانق ثقافتان، وترحل على جناح الـشمس، بقـدر زهوها، رؤى تنداح إلى أن تبلغ، وتحيط بالمغرب والمشرق، هالة هي بعض غار، وبعض أشعة، وبعض غالية، تعطر الدنيا.

وفي ومضة برق نيزكية، اجتمع في خاطري تاريخ مـن الأدب والشعر والفن والعمران والمغـامرة المرتبطـة بخـضم محـيط رائـع، أطلق عليه العرب ذات يوم بحر الظلمات، ورحـل فيـه وإليـه مـن أسموهم المغرّرين، في بداية رحلات بحريـة استكـشافية، خاضـها البرتغال من بعد، بعنفـوان وصـلابة، وحققـوا اكتـشافات رائعـة، ويأتي هذا الملتقى، أو هذا النـديّ، في اليـوم العـربي، نـديّ أصـول حضارية، ظلت هاجعة في الذات، كامنة في ضمائر العلماء، وما زلنا نحاول إيقاظها بالكلمـة، وإشـاعتها بـين النـاس، وإحياءهـا مـن جديد، كي تولد في علاقات جديدة، تعيد وصل خيوطهـا، وضـفر وشائجها، واستلهام فحواها، وتفسير دلالاتها، وبعث مكنوناتهـا، وتحويلها من أفكار تسبح في الفضاء، إلى وقائع تترسخ في الأرض، فيكون منها اليوم، ما كان بالأمس، إزهاراً وإثماراً، وقربى ونعمى، تعطي وتزيد وتفيء، صانعة عبر الثقافة مـا هـو نتاجهـا الأسـمى، تواصلاً إنسانياً، وتلاقحاً فكرياً، وبناء حضارياً، حـين يعمـل كـل منا، لمدّ جسور الصداقة، قوية متينة، معيدة ومستعيدة لكل الروابط التي جمعتنا، وألّفت ما بيننا، فكان من هذا الترابط والتـآلف، خـير عميم مشترك، نتطلع إلى مثله الآن، مـن خـلال نـدوات ولقـاءات ومبادلات، نرغبها ونـسعى لهـا، ونجهـد في سـبيلها، مـا وسـعت

الرغبة، وأجدى السعي، وأمكن الجهد، وأنا على ثقة أننا إذا ما اندفعنا في هذا المزدلف، ومضينا قدماً في هذا الشوط، بالغون ما نصبو إليه، ومحققون ما نبتغيه، مادامت لنا، نحن الطرفين العربي والبرتغالي، هذه الأمنية العزيزة: أن نقيم من وشائج الأصول القديمة، روابط ثابتة للأصول الجديدة، وأن نعيد العلاقات الثقافية والاقتصادية إلى ما كانت عليه أصولها. إننا لن ننسى أبداً أن التفاعل بين ثقافتينا، قد أثمر في الماضي ثقافة متمازجة، متماهية، منتجة للمعارف الإنسانية في شتى فروعها، ومن هذا النسغ الثقافي المتلاقح، بين مشرق ومغرب، أخذت أوروبة كلها الكثير الكثير من عطايا فتوحات الإبداع المشترك، في الفكر والفلسفة والأدب والفن والموسيقا والبناء وعلم الاجتماع. «لقد انسكب الدم العربي، قطرة غمامة في الدم الإيبري وبالعكس، فكان التوهج المعرفي شرياناً أرجوانياً دافقاً في نهر الحضارة البشرية، هذه التي تكونت منها كنوز الإرث الثقافي الإنساني»، كما سبق وأكدت، في حديث عن الثقافة العربية الإسبانية، عبر التاريخ.

* * *

الشكر لمنظمي هذا الملتقى. إن مجرد تنظيمه للتذكير بالتواجد العربي الإسلامي في البرتغال هو كسب كبير، وهذا الكسب يتمثل في أنه لأول مرة، في تاريخنا القريب، تعطى للعلاقات العربية البرتغالية هذه الأهمية، وتسلط الأضواء على ما كان بيننا من ثقافة مشتركة، وتواصل اقتصادي، وهذا بالتأكيد سيكون حافزاً لنا في

متابعة جهودنا، لاستئناف ما كان في الغابر بلغة الحاضر، منطلقين من إيماننا ببطلان دعاوى الثقافات المغلقة، ومن قناعتنا بأن حضارتنا المشتركة كانت منفتحة، متفاعلة، لا تلغي غيرها، ولا يلغيها غيرها، وبأنه ما من حضارة لاحقة تنفي حضارة سابقة، بل تؤكدها بالتداخل معها تأثراً وتأثيراً. إن الاحتفاء بالتراث لا يكون لأجل ذاته فحسب، وكشيء لا يمس، بل لاكتشاف ما يكمن فيه من عناصر التفكير البشري السليم، ذي الطابع الإنساني المشترك..

ولعله يحسن هنا أن أشير إلى أن الدورة التاسعة عشرة لليونيسكو، المنعقدة في نيروبي عام ١٩٧٦، وكذلك اجتماع الهيئة الاستشارية للخبراء في العلاقات الثقافية الإيبرية والثقافة العربية المنعقد في مدريد عام ١٩٧٧، قد وافقا على مشروع يتضمن دورات ودراسات، لتنمية وتوسيع هذه العلاقات، تقديراً للمؤثرات الثقافية العربية والإسلامية، في عدد من القارات، حسب التحديد الجغرافي الذي لاحظه المشروع، وشمل الأقطار العربية والبلاد الإسلامية، المتصلة بالثقافة الايبرية الأندلسية، مثل البرتغال واسبانيا وبلدان أمريكا اللاتينية (....) ووضع السادة الخبراء قائمة بالمشاريع الواجب القيام بها، لتحقيق التعاون الثقافي والاقتصادي والمؤسساتي..

* * *

إننا في سورية نؤمن إيماناً راسخاً بأن التعاون الثقافي الحضاري بين شعوب العالم، يشكل الإضافة الحقيقية إلى ثقافة البشرية

وحضارتها، وتوجهاتها الأكثر إنسانية، وأن الحوار هـو اللغـة التـي ينبغي أن تسود، ويأتي الحوار العربي الأوروبي في طليعة اهتماماتنـا، وفي كل الميادين، ويعنينا كثيراً أن يكون لأوروبة، ومنهـا البرتغـال، دور في التـسوية الجـاري البحـث في شـأنها، بيننـا وبـين إسرائيـل، لتحقيق السلام العادل ولدرء الأخطـار التـي تتعـرض لهـا منطقـة الشرق الأوسط كلهـا، بـسبب مـن سياسـة إسرائيـل الاسـتيطانية التوسعية العدوانية، وبسبب من تنكرها أيضاً لكـل أسـس عمليـة السلام، وقرارات الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ومفاهيم الشرعية الدولية، ومرجعية مدريد، ومبدأ الأرض مقابل السلام، والعدوان على القدس، بكل ما لها من قدسية، لدى المسلمين والمسيحيين عـلى السواء.

ولابد من أن أشير هنا إلى أن ظروف المواجهـة القاسـية التـي نتصدى لها، في وجه هذه المطامع العدوانية، المترافقـة مـع ضـغوط دولية متعددة المصادر والأهداف، لم تحل بيننا وبين الاهتمام بكل ما هو ثقافي وحضاري وإنساني، ولقد ثبتنا لهـذه الظـروف، وكافحنـا ضدها نصف قرن من الزمان ونيفاً، وسنبقى في الثابتين المكـافحين إلى أن يحـل الـسلام العـادل الـذي لا نـرضى عنـه بـديلاً، ولا فيـه نقصاناً.

* * *

أخيراً، وقد أطلت، أود باسم بلدي أن أحيي شعب البرتغـال الصديق، والسيد رئيس الجمهوريـة جـورج سـامبايو، راعـي هـذا

اللقاء الهام، والسيد رئيس مجلس إدارة الغرفة التجارية الصناعية العربية البرتغالية السيد انجلو كوريبا، وكل المنتمين إلى هذه الغرفة برتغالاً وعرباً، كما أحيي السادة العلماء الذين أغنوا رؤانا بأبحاثهم، وكل الذين أسهموا في تنظيم هذا الملتقى، مؤكدين حرص سورية الأكيد على المزيد من التعاون مع البرتغال، وفي كل المجالات الممكنة، ثقافة أو اقتصاداً، وعلى تعميق الحوار بما يسهم في توثيق العلاقات، ويدفع ويسرّع وتائر النشاط المتقابل، ويسعف بالتالي في تعميق الحوار الحضاري الثقافي العربي الأوروبي، في كل وجه من وجوهه.

اسمحوا لي في الختام أن أحمل إليكم من دمشق، منبر الإشعاع الفكري، قبساً من هذا الإشعاع، كما أحمل في راحتي عبق الياسمين من الغوطة، وبهاء الشموخ من قاسيون، ومحبة، وتحية، الشعب السورية، إلى الشعب البرتغالي الصديق، وإلى الإخوة العرب المقيمين في البرتغال، الذين يعتزون بانتمائهم العربي، ويعملون لإعلاء شأن العروبة والإسلام، مبرهنين على صدق هذا الانتماء، والاعتداد الجميل به، والعمل الدؤوب لأجله.

أنتم في الأصدقاء أمس واليوم وغداً(*)

بداية أشكر الإخوة العرب الذين منحوني شرف الكلام باسمهم..

صاحب الفخامة د. جورج سامبايو

أيها السادة - أيها الأصدقاء

كما الماء الذي منه كل شيء حي، كذلك الثقافة التي منها الضوء معرفة تشع، تتقدم نجمة صبح مبشرة بالنور الذي يهزم الظلمة، وبالنهار الذي منه البدء، فيه نسعى إلى غاياتنا، وأنبل هذه الغايات، أسماها، أبهاها، الغاية الثقافية، الغاية الثقافية التي جئنا، من أرجاء الوطن العربي، رسلاً لها، ملبين الدعوة الكريمة التي تلقيناها من رئاسة الغرفة التجارية الصناعية العربية البرتغالية، للمشاركة في اليوم العربي، المنعقد تحت عنوان«تذكير بالتواجد العربي الإسلامي في البرتغال» وهو عنوان جميل في ذاته، رائع

(*) في حفل العشاء الذي أقامه رئيس الجمهورية للمؤتمر، وكان في تكريمه لي، تكريم خاص لسورية. لشبونة في ١٥ /٥ /١٩٩٧.

بإيحائه، نبيل في إيمائـه إلى ذلـك التـاريخ العريـق، تـاريخ التواجـد الثقافي الحضاري والإنساني، الذي أسس لعلاقات عربية إسـلامية برتغالية منقوشة ذكرياتها عـلى لوحـات الـصدور، قبـل أن تكـون مدونة، مرسومة، على صحائف الماضي العريق، بكل ما كان فيه من تعاون شمل جميع مجلات الحياة، وفي طليعتها المجال الثقـافي الـذي دشّن عهداً جديداً، مثمراً في العلاقـة التبادليـة، الثقافيـة والحرفيـة والتجارية، بين الوطن العربي والبرتغال، وبشّر بـما يـلي ذلـك، مـن تواصل حضاري امتد حتى يومنا هذا، وشـعّ عـلى المتوسـط، ومـا يزال، قيماً معرفية وإنسانية، كتب بها التاريخ الغرّ من صفحاته.

لقد جئنا إلى هنا، كما قلـت، تلبيـة للـدعوة الكريمـة، تحـدونا الرغبة في تمتين العلاقات الثقافية والاقتصادية الراهنة مع البرتغال، ويعمر قلوبنا الصدق والحرص على إقامـة تعـاون وتبـادل ثقـافتين وطيدين، كما هي الحال مع اسـبانيا وبلـدان المجموعـة الأوروبيـة، وهذا التبادل والتعاون اللذان نسعى إليهما أيضاً، وتحرصون عليهما، لا يسبحان في فراغ الفضاء، ولا يدوران في إطار الرغبـة المجنحـة، بل يرتكزان، ويتأسسان على تراث حـضاري مـشترك بيننـا، فـأنتم لكم ثقافتكم العريقة، ونحـن لنـا ثقافتنـا العريقـة أيـضاً، تـذهب جذورها عميقـاً في مهـاد التـاريخ، ومـن المؤكـد أن إنـماء وتطـوير العلاقات المتبادلة، المتكافئة، عـلى أسـاس مـن الاحـترام المتبـادل، والـدعم المتبـادل، همـا رغبـة أكيـدة، واضـحة، متجليـة في نـبض صداقتنا، وفي أمنية حقيقية بالتواصل، نحملها كلمة صريحـة الآن،

وفعلاً مأمولاً، ثابتاً، مثمراً، في كل آن، ولنا، وكذلك لكم، ثقة في أن هذا كله سيخرج من حيز الأماني إلى حيز الوقائع.

صاحب الفخامة الدكتور سامبايو

إننا نتقدم بالشكر الجزيل لك على رعايتك الكريمة لهذه التظاهرة الهامة، وعلى كلماتك العميقة الدلالة، صباح هذا اليوم، إذ بدأتْ خطاباً، ثم كبُرت فكانت رسالة، سيكون لها، رجعها الدوي، في الوطن العربي والعالم الإسلامي، لأنها، بحق، تحمل نبالتها ومصداقيتها ونقاءها، ومنطقها السليم والمستقيم، وحسن العدالة الذي صار هاجساً ملحاً في قرننا هذا الماجد والتعيس في آن.

لقد أنصفت التاريخ، تاريخنا المشترك، يا فخامة الرئيس، وطويت بذلك صفحة، طويناها نحن أيضاً، ليبقى في الماضي المشترك، كل ما هو بهي وجميل، وإن كنت أحب أن أشير هنا، ودون مغالاة، إلى أننا أمة لا تحمل الحقد، ولا تتسم بالتعصب أو الانغلاق، وأنها تصفح عن السيئ، وتستبقي الحسن، وتعتمر بالإخاء، وتستشعر العرفان إزاء كل موقف منصف، ولهذا فإن خطابك النبيل هذا الصباح، سينساب عميقاً عميقاً في وجدان أمتنا، وقلبها والعقل، وسيزهر صداقة وتقديراً ومحبة.

وإننا نتقدم أيضاً بالشكر الخالص إلى الغرفة التجارية الصناعية العربية البرتغالية رئيساً وأميناً وأعضاء، وإلى كل الجهات التي أسهمت في تنظيم هذا الملتقى، وخصصت هذا اليوم العربي

للتعبير عن المشاعر الخيرة الطيبة، الإنـسانية، الثقافيـة، الاقتـصادية التي يأتي البوح بها، في مثل هذا اليوم، بوحاً معطراً، مقروناً بومضة الاسترجاع التذكارية، لما كان للعرب من مدٍّ في الانتقال إلى اسبانيا والبرتغال، ومنها إلى أوروبة، على النحو المعروف.

صاحب الفخامة الرئيس جورج سامبايو

أيها الأصدقاء، وأنتم في الأصدقاء، أمس واليوم وغداً، تقبلوا منا المحبة صادقة، والنفحة الوجدانية خالـصة، والمجـرة بنجومهـا مضيئة، رغبة في أن نترجم بعض ما في الخـواطر مـن إعـزاز لكـم، ومن أمنية في مواصلة السير المشترك معكم، على طريقنـا المـستقيم، الذي كان اسم دمشق منبت الأمويين، في سحيق التـاريخ، والـذي بهذا اللقاء الجميل، وهذه الحفـاوة الدافئـة، يتـسع أكثـر، ويـصبح مستقيماً بالعواطف الأخوية المتبادلة، اسـتقامة لا التـواء فيهـا، ولا تعـرّج، ولا وعـر، بـل انطـلاق مـع رهـو الـريح التـي نـسوقها، وتسوقونها، مركباً يقلع في بحور المودات، زاده الرؤى الجمـيلات، التي منها الخيال والتخييل معاً..

لتتسع رحاب ثقافاتنا ![*]

يسعدني، بدءاً، أن أنقل إليكم، تحيات وتمنيات الرئيس حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، الذي أولى، ويولي، حركة عدم الانحياز، اهتماماً فائقاً، ويقدر تقديراً رفيعاً، مؤتمر وزراء الثقافة، المنبثق عن هذه الحركة، لتعزيز التعاون بين دولها وشعوبها، واثقاً من أن هذا المؤتمر سيكون انطلاقة ذات أهمية كبيرة في الحقل الثقافي، وفي الحقول الأخرى ذات الصلة بالثقافة، وبأهميتها البالغة في وقتنا الراهن، ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين.

إن الكلام على الثقافة، إذا وضعنا جانباً تعريفاتها التي لا حصر لها، هو كلام على النشاط الذهني والسلوكي والإبداعي للإنسان، في كل جوانب كرتنا الأرضية، المستديرة كتفاحة من جنة عدن، وليس بجديد أبداً، القول إن الثقافة، في العقد الأخير من القرن العشرين، كانت لها نقلة نجمية، لا في دوران الأفلاك، وإنما في ثباتها بين منطلق ومنطلق، من حركة الكواكب، في سماء البشرية.

(*) كلمة سورية في افتتاح مؤتمر وزراء الثقافة لدول عدم الانحياز – كولومبيا، ميدئين من ٤ -٥ /٩ /١٩٩٧.

بكلمة أخرى، أكثر تحديداً، صـارت الثقافـة، الآن، نجمـة المجـرة الكبرى، ومن حولها تتلألأ النجوم الأخرى، الأصـغر حجـماً، وفي هذا التميز للثقافة، وكذلك في رفعة الشأن، يمكننـا القـول إنهـا في مكـان الـصدارة، وهـذا مـا ينبغـي أن نلاحظـه، وأن نقـدره، وأن نطـوره، وبـذلك نطـور كـل التفرعـات الأخـرى، الـسياسية والاجتماعية والعلميـة، المرتبطـة بهـذه الثقافـة، ارتبـاط ضرورة لا ترف، فالثقافة أصل الحضارة، والحضارة أصل العلـم، والعلـم، في زمننا هذا، صاحب الكـشوفات الثوريـة المدهـشة في كـل مجـالات التقنيـات، مـن المعلوماتيـة، إلى الالكترونيـة، إلى الاتـصالية التـي جعلـت مـن كوكـب الأرض«قريـة صـغيرة» حـسب التعبـير الاصطلاحي السائد.

إذن حسناً فعلت القمة العاشرة لرؤساء الدول أو الحكومـات التي انعقدت في كارتخينا عـام ١٩٩٥، باعتمادهـا الـدعوة إلى عقـد مؤتمر لوزراء الثقافة في دول عدم الانحياز، فهـذا المـؤتمر، في بحثـه عن تأصيل الهوية الثقافية لكل أمة، وكـل بلـد، وكـل شـعب، قـد وضع خط تشديد تحت كلمة الثقافة، جاعلاً منها محوراً تتفرع عنـه كل المحاور الأخرى. إنما علينا، في الكلام على الثقافة، أن نفرق بين ثقافة وثقافة، وهوية ثقافية وهوية ثقافيـة، لأننـا أمـام نمطـين مـن الثقافة، أحدهما الثقافة الوطنية التقدمية الإنسانية، وثـانيهما الثقافـة اللا إنسانية التي هي ضد كـل هـذه القـيم النبيلـة، وغايتهـا زيـادة التشوه الأخلاقي، وغزو ثقافاتنا الوطنيـة، بغيـة الـسيطرة عليهـا، وإضعافها، وتالياً محوها تـدريجياً، والتـسيّد عليهـا، بفعـل محوريـة

قطبية، أحادية، انفرادية، تسلطية، هي ثقافة القطب الواحد، التي تشكل خطراً لا على ثقافات بلدان الجنوب وحدها، بل على ثقافات بلدان الشمال معها، وأوروبة من ضمنها، حسب الوقائع الموضوعية التي تشهد على ذلك كل يوم.

وإذا كانت الثقافة قد تبوّأت هذه المكانة، فذلك يعود إلى الأهمية التي اكتسبتها من خلال مصداقية خطابها، بعد المتغيرات الدولية التي هزّت العالم، وجعلت سياسة العولمة، والهيمنة، والانفراد بالعالم، تؤثر على الخطاب السياسي الاستقطابي، وتفقده الكثير من مصداقيته، أمام الشعوب المعتدى عليها، والمحتلة أرضها، مثلما هي الحال في المنطقة العربية، من جرّاء تعنّت إسرائيل التي ترفض مبادئ مرجعية مدريد، وقرارات الشرعية الدولية، ومبدأ السلام مقابل الأرض، وتتشبث باحتلالها أراضي الغير بالقوة، خلافاً لميثاق الأمم المتحدة.

تأسيساً على ذلك، وعلى مكانة الثقافة، وقدرتها، وفعاليتها، ونزوعها إلى المساعفة في التغيير نحو الأفضل، نجد أن هذ المؤتمر يكتسب أهمية استثنائية، بسبب من أن الثقافة لا تنفصل عن السياسة، وهذا المؤتمر الثقافي، المكرس لوزراء ثقافة دول عدم الانحياز، ذو شأن سياسي من الدرجة الأولى، وأولوية هذا الشأن هي التأكيد على أهمية حركة عدم الانحياز، ودورها البارز في حفظ التوازن الدولي، وفي هذا الوقت بالذات، الوقت الذي نرى فيه أن هذا التوازن قد اختل، لمصلحة قطب واحد، وأن في وسع حركة

عدم الانحياز، إذا ما أوليناها الثقة اللازمة، والقوة الدافعة، أن تخفف من وطأة هذا الخلل، وأحسب أن جميعكم يعرف، كما نعرف، أن ثمة إشارات متتابعة، متوالية، تدل، وبإصرار، على نشر فكرة خاطئة، مضللة، مفادها أن ضرورة وجود حركة عدم الانحياز قد انتفت، بينما العكس هو الصحيح كما بينت، آنفاً، لهذا فإن هذا المؤتمر مدعو إلى دعم حركة عدم الانحياز، ثقافياً وسياسياً واجتماعياً، لخيرنا جميعاً، نحن دول الجنوب خصوصاً، ودول العالم الثالث عموماً.

إن الواقع الذي لا حيلة لنا فيه، راهنا على الأقل، يثبت، عياناً، أن ثمة قطباً أحادياً في عالمنا الحاضر، وان هذا القطب الأحادي يسعى، من خلال العولمة، إلى جعل نفوذه هو السائد، في عالم تابع لهذا القطب الأحادي بعينه، وفي هذه الحال، وإذا ما أفقد هذا القطب الأحادي حركة عدم الانحياز قدرتها على الحركة، وعلى التأثير، والتغيير، وحفظ التوازن الدولي، فمن يبقى، بعد غياب القطب الآخر، المواجه، للدفاع عن حقوق الشعوب؟ الجواب: لا أحد تقريباً، لا في هيئة الأمم ولا في مجلس الأمن، أو المنظمات المنبثقة عن هذه الهيئة، لذلك، وحرصاً على وجود من يدافع عن حقوق الشعوب، في دول الجنوب والعالم الثالث، علينا أن نتفهم الوضع الدولي بدقة، وفي فهمنا هذا نجد ضرورة قصوى لتأييد حركة عدم الانحياز، وتقويتها، والارتصاص من حولها، ونحن في سورية ندعم، إلى ابعد الحدود، هذه الحركة، في ظل المتغيرات

الدولية الحالية، كما دعمناها في كـل الظـروف والمراحـل الـسابقة، لأنهـا ضرورة توازنيـة في العلاقـات الدوليـة. ذلـك أن القطبيـة الأحادية تثـير القلـق، وتـؤدي إلى انعـدام المـساواة، والافتقـار إلى العدل، وتاليـاً إلى حالـة عالميـة أكثـر تعقيـداً، تـدعو إلى التـوجس الشديد، في وقت يحتاج فيه العالم إلى نظام جديد للعلاقات الدولية، تكون فيه للتعددية السياسية والاقتـصادية والثقافيـة مكانتهـا غـير المنقوصة، ويكون المقام الأول فيها لحريـة الـرأي، وحمايـة الأمـن، وتحصين المثل العليا، ومنع الإضرار بالتجـارة الدوليـة عـن طريـق الغزو التجاري، وعدم تشويه هذه المثل عن طريق الغزو الثقافي، مع الأخذ بالمرونة كجزء من طبيعة حركة عدم الانحياز ذاتها.

ومع الأخذ في الاعتبار، انطلاقاً من جدلية الأشـياء، أن ثمـة تفاعلاً دائماً بين الثقافة والسياسة، يحسن بنا أن نراعي بدهية ماثلـة، مؤداها أن الثقافة تقوى بالـسياسة، وأن الـسياسة تقـوى بالثقافـة، ومن هنا يكون لهذا المؤتمر الثقافي شـأن سـياسي، ويكـون علينـا أن نحدد هذا الشأن السياسي بأنـه، الرغبـة الأكيـدة في الحيلولـة دون المزيد من تردي الوضع الدولي، من جرّاء غياب التوازن فيـه، فقـد أصبحت القوة وحدها هي المهيمنة، وهذا يبعث عـلى الخـشية مـن هذه الهيمنة، وما يصحبها من تدخل في الشئون الداخليـة للـدول، ومن سيطرة على مواردها، والتأثير على قراراتهـا الوطنيـة، وتهديـد سيادتها، والـسعي إلى إعـادة النفـوذ الاسـتعماري إليهـا، في وقـت يتطلب فيه العـالم العـدل والمـساواة والديمقراطيـة، وتثبيـت حـق

الشعوب بتقرير مصيرها، والامتناع القاطع والمطلق، عن التدخل الخارجي في الشئون الداخلية لأيما دولة في هذا العالم، تمشياً مع ما نطمح إليه من نظام عالمي جديد، له قواعده المبدئية العادلة، مرعية الإجراء، المستندة إلى ميثاق الأمم المتحدة، والمتوافقة مع تطلعات شعوب العالم إلى الحرية والمساواة، بعيداً عن الهيمنة، والتسلط، وفرض التبعية على الدول الأخرى، وبعيداً أيضاً عن تعميق الهوة بين الدول الصناعية المتقدمة، الغنية، ودول العالم الثالث الفقيرة، العاجزة عن توفير فرص النمو، وفرص الاستثمار الأمثل لمواردها الطبيعية والبشرية، وما يجره كل ذلك من بطالة وعجز ومديونية تتضخم عاماً بعد عام.

إن الثقافة، في كل دلالاتها، تعبر عن فرح المعرفة، وتوق الشوق إلى النور، والحضارة المنبثقة عن التراكم الثقافي، تقف ضد كل مظاهر الجهل، والقهر، والتخلف، لذلك لا يمكنها أن تلتزم الصمت أمام كوارث الجوع والفقر والتشرد والتشريد، لما لهذه الآفات من خطر على المجتمع الدولي، وتهديد للأمن والسلم الدوليين، وزرع الفوضى في العلاقات الدولية، والاعتماد على القوة العسكرية وحدها، هذه القوة التي لا يمكن أن تقود العالم لمجرد أنها قوة ضاربة وعمياء، فالعالم يحتاج إلى التعاون، والتضامن، والتآزر، من أجل ردم الهوة المتسارعة في تعمقها وتوسعها، بين مجتمع الغنى والقوة، ومجتمع البؤس والمعاناة والضعف.

لقد قامت حركة عدم الانحياز، منذ نشوئها التاريخي، لتعزيز استقلالات الشعوب، والإسهام في الاستقرار، ولو نسبياً، في

العلاقات الدولية، والحد من مخاطر الحرب الباردة، ويتعاظم، الآن، دور هذه الحركة، في سعيها لتحقيق توازن جديد، وإظهار دور الأمم المتحدة وترسيخه، في وجه محاولات تغييب هذا الدور أو تعطيله، ومادامت الثقافة هي الوجه الآخر للسياسية، فإن علينا في مؤتمرنا الثقافي هذا، أن نترجم السياسة بلغة الثقافة، والعكس صحيح أيضاً، حماية للاستقلال الوطني السياسي والثقافي معاً، ودرءاً للهيمنة القطبية المفردة، وحدّاً لأخطارها المتفشية أكثر فأكثر، وسبيلنا إلى ذلك هو الحرص على استمرارية، وفعالية، نشاط حركة عدم الانحياز، في كل الميادين، وعلى جميع الجبهات، وبذلك نبعد نذر حرب باردة جديدة، تلوح في الأفق حالياً، ونحمي السلم العالمي، ونفرض السلم العادل والشامل في منطقة الشرق الأوسط، الذي تحاول إسرائيل اغتيال عمليته، ونقوم بعمل دؤوب لحماية البيئة، من التلوث الذي يلحقه بها التقدم الصناعي، ونسهم / بهذا القدر أو ذاك، في التخفيف من حدة التوترات الإقليمية، وهذا كله ما عملت له سورية، وستظل تعمل، انطلاقاً من إرادتها الثابتة في تحقيق سلم عادل، يجنب المنطقة انبات بذور حروب جديدة، حروب عدوانية، عنوانها امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية المدمرة، وقيامها بتحالفات تطويقية لسورية، من الشمال والجنوب معاً.

إننا على اتفاق تام حول ضرورة التبادل الثقافي، والتنوع الثقافي، وحماية هوياتنا الثقافية، ومع ما تقوله السيدة ماريا إيماميخيا فيليز، وزيرة خارجية كولومبيا، من أن الهوية الثقافية لكل بلد، هي ميراث لا يقدر بثمن، ينبغي لنا أن نحافظ عليه، وأن نورثه للأجيال

المقبلة، وأن نصونه للذراري البشرية من بعدنا، وهذا من أهداف النهضة الثقافية في سورية، النهضة الشاملة، التي شعارها«الثقافة للجميع وفي خدمة الجميع» لذلك نمد يدنا بسخاء واحترام، لكل يد تمتد نحونا، وغايتها زيادة التبادل الثقافي، في كل تنوعاته، وتطويره، وتوسيع آفاقه، إلى ما هو أبعد من المدى المنظور.

قال شاعر تشيلي العظيم بابلو نيرودا، في قصيدته البحر الأول:«اتسع رحب حياتي، منداحاً بغير حدود، نحو الفضاء» ونحن نردد مع نيرودا: لتتسع رحاب حيواتنا، ورحاب ثقافاتنا، ورحاب مجتمعاتنا، وبكلمة رحاب أوطاننا، لتغدو وطناً واحداً كريماً، فاضلاً، إنسانياً، لكل العاملين في سبيل الحق والخير والجمال، في عالمنا الكبير الصغير هذا.

أيام قصيرة في مداها
رائعة في محتواها(*)

فخامة رئيس المؤتمر أرنستو سامبر بيزانو

أستأذنكم في أن أقول كليمات باسم المجموعة الآسيوية، وبصفتي نائبة لرئيس المؤتمر، ممثلة لهذه المجموعة، بعد أن منحتني هذا الشرف. ولعله لا يغيب عن الذهن أن آسيا من أقصاها إلى أقصاها، قد انتظمها ذات يوم بعيد، ووصل بين بقاعها، طريق عجيب للحرير، عبّده الإنسان ليكون طريقاً أسطورية، هي نسيج وحدِها، ومن هذا الحرير، في نسيجه الماسي، حاك أسلافنا الصورة الأبهى لحضارة الماضي، كما نحاول أن نحيك اليوم الصورة الأبهى لحضارة الراهن والآتي، من خيوط حريرية ثقافية، هي الأبقى، وهي الأغنى، لأنها إلى ازدياد، وكل ما عداها إلى نقصان.

(*) في ختام مؤتمر وزراء الثقافة لدول عدم الانحياز، وكنت قد انتخبت بإجماع نائباً للرئيس الذي هو رئيس الجمهورية، ممثلة للمجموعة الآسيوية. ألقيت هذه الكلمة تحية وداع.. كولومبيا، ميدئين ٥ /٩ /١٩٩٧.

أيها السيدات والسادة

بعد هذه الأيام القصيرة في مداها، الرحبة في محتواها، في عالم الثقافة المسحور الذي نجد فيه سعادتنا وغبطتنا في آن، لم يعد ثمة ما يمكن أن يضاف إلا الإشادة بأهمية الكلمات التي ألقيت، وباللقاءات والحوارات التي أجريت، وبالجدية التي اتسمت بها المواقف المسئولة، للوفود الصديقة المشاركة، من آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، في هذا المؤتمر الذي حقق الكثير مما كان يتطلع إليه، منطلقاً وأهدافاً ونتائج.

ليس ثمة ما يضاف إلا التحية من القلب لكم جميعاً، من دول المجموعة الآسيوية، وإلا التعبير عن التقدير الكبير لجمهورية كولومبيا التي جلونا واجتلينا وجهها الحقيقي المتألق، والتي فتحت ذراعيها على رحبهما، لمؤتمر للثقافة أعطاها الصدارة، وبذلت من أجل إنجاحه الكثير، تنظيماً متميزاً، وكرم ضيافة، ورعاية فائقة، في جو من الصداقة والكرامة والمودة، مع إتاحة الفرصة كاملة لطرح الأفكار، وضمان حرية الحوار المسئول، في أسمى أشكالها.

إن كولومبيا التي أعطت العالم إبداعاتها الرائعة، في الأدب والفن، تحتضن الآن، وفي إطار دول عدم الانحياز، وممثلة برئيس هذه الحركة، فخامة الرئيس أرنستو سامبر بيزانو، المؤتمر التأسيسي الأول لوزراء الثقافة، حيث تتعانق على أرضها القارات الثلاث، مؤمنة بضرورة المبادرة إلى الفعل الإبداعي الخلّاق الذي يمهد لتغيير العالم، باتجاه تحقيق قيم الحق والعدالة والخير، مهما بلغ من سطوة قوى الشر الغاشمة فيه..

تحية تقدير باسم المجموعة الآسيوية لمعالي السيدة وزيرة الخارجية ماريا إيما ميخيا فيليز، ولمعالي وزير الثقافة السيد راميرو أوساريو، لكل ما قدماه وما بذلاه من جهد، وتحية، أيضا، للعاملين الذين أسهموا في إنجاح المؤتمر بسهرهم الدائم عليه، للجميع ممن نعرف ولا نعرف، مع شكر كبير..

والتحية الأسمى، والتقدير اللامحدود لفخامة رئيس الجمهورية، رئيساً ومفكراً وكاتباً، وللكلمة البليغة التي أمتع المؤتمر بها، وأطيب الأمنيات للشعب الكولومبي الرائع، ولمثقفيه ومبدعيه.

ومعاً نتطلع، قناعةً وفعلاً وممارسةً، من أجل عالم أكثر تضامناً وعدالة، عالم متعدد الثقافات، متعدد الهويات، تمارس فيه شعوبه حقها الطبيعي في السيادة وتقرير المصير، في مناخ من الحرية والمساواة وإعلاء شأن الإنسان..

شكراً كولومبيا مرة ومرة ومرة..

مدينة للشمس ومدينة لمجد التاريخ ! (*)

بين المتحف والمدينة رباط من حرير، فكما دودة القز، في حريرها الماسي، كانت فتحاً في النسيج، كذلك كانت المدينة فتحاً في السكن، وكان المتحف فتحاً في تأريخية المدينة، لأنه أعطاها، بعد الله، الإنسان في تجلياته الكبرى، ما بين أثر وأثر، وحجر وحجر، وحرير وحرير، كلها كانت صنيع يديه اللتين، في موهبة العطاء، أعطتا الوجود، في فجره الأول، أبهى مكوناته، السيرورة البشرية، بدءاً بآدم وحواء، مروراً بالذراري، واستمراراً في هذه الذراري إلى أمسنا، يومنا، غدنا، ولا نهائية حياتنا على هذه الأرض، باعتبارها منحة ربانية، فيها نفحة الخالق والخلق على السواء.

أما المدينة، حتى في تشكلها الأول، فقد كانت مقراً ومستقراً لهذا الإنسان، وفي استقرارها صارت لها ذاكرة، وكان المتحف حافظ هذه الذاكرة، وكان الحرير، في سره البدئي، اكتشافاً لدودته،

(*) ألقيت في جامعة طوكيو، احتفاءً بمرور ١٢٠ عاماً على إنشائها، ونقلتها الفضائية اليابانية، في تشرين الثاني عام ١٩٩٧. وكنا آنذاك نعد لبناء متحف للتاريخ الطبيعي، بتمويل مشترك، دعا إليه اكتشاف إنسان نياندرتال بجهود يابانية وسورية.

وكانت هذه الدودة، في الكائنات الأرضية، آية على عظمة بارئها، وبسبب من اكتشافها صار للحرير طريقه الأبعد في الطرق، ورباطه الأوثق في المتانة، وثمنه الأغلى في الأثمان، وتجارته الأربح في التجارات، عبر آسيا التي انتشر تدريجياً منها، ثم تجاوزها إلى ما بعدها، إلى الكون كله.

هكذا تكون العلاقات، بين سورية واليابان، علاقات قديمة جداً، ففي تدمر، وشهرتها الأوسع انتشاراً، كانت هذه المملكة التدمرية عقدة مواصلات شهيرة بدورها، منها تفرعت طرق الحرير، ومع الحرير أو قبله، كانت الثقافة تعارفاً، ونما التعارف الثقافي هذا صلة تجارة، تولدت منها صلة ديبلوماسية، ثم صلة أثرية، أنتجت صداقة وطيدة بين الشعبين، السوري والياباني، هي الآن إلى تطور دائم، يوماً بعد يوم، ومجالاً بعد مجال، وهذا اللقاء الكبير، الذي عنوانه«متحف جديد، في المدينة الأقدم في التاريخ - دمشق» هو تتويج لهذه الصلات، وهو تعزيز لهذه العلاقات القديمة الجديدة على الدوام.

ولئن كانت طوكيو مدينة الشمس، فإن دمشق مدينة الطريق المستقيم، وتعتبر، في نظر المؤرخين، جدة المدن في العالم كله، وأقدم مدينة تحدثت عنها الكتب المقدسة، وكذلك أقدم النصوص التاريخية، المصرية والآشورية والآرامية والإغريقية، واللاتينية، ومختلف اللغات الحديثة، دون أن يتوصل أي مؤرخ، إلى مقاربة تاريخها المجهول، ودون أن يجرؤ، أيضاً، على تحديده، خشية الوقوع

في خطأ فاحش. وبلد كسورية له عاصمة كدمشق، هو بلد الحضارات الأمعن في القدم، وأرضها الأغنى في هذه الحضارات، التي نفاجأ كل يوم بجديد منها، في اللقى التي تكتشفها بعثات التنقيب، من مختلف البلدان ومختلف الأمم، والبعثات التنقيبية اليابانية في المقدمة، لأنها، ولأول مرة، أتيح لها أن تنقب في البر وفي البحر معاً، وكان التنقيب الياباني البحري، بين مدينتي بانياس وطرطوس، في مواسم الأعوام ٨٥ -٨٦ -١٩٨٧م، وبمشاركة المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، موفقاً جداً، فقد كشفت التنقيبات في القيعان البحرية، عن سفينة غارقة على ساحلنا -في جملة سفن أخرى - وعليها حوالي ألف جرة -أنفورا - سليمة من الفخار المتين، تعود إلى القرن الثالث عشر ميلادي، وتبرهن عن صلات تجارية، كانت قائمة بين سورية والعالم، كما توفقت البعثة اليابانية، إلى حزم أخشاب السفينة الغارقة وتعويمها.

ومن المؤكد أن هذه المكتشفات الأثرية تغني التراث الإنساني، وتيسر سبل الكشف العلمي الذي يوفر عطاءات جديدة، تنير ظلمة الماضي، وتجلو التاريخ الأثري في سحيق أبعاده، ونحن نقدر كل جهد تنقيبي يؤدي إلى كشف حلقات هذا التاريخ البشري، ووصلها، وسد ثغراتها، ثم نظمها في أمكنتها من السلسلة التاريخية، وإضافة صفحات جديدة لحكايا ممالكها، وهذا ما كان يطمح إليه المؤرخون والعلماء والآثاريون، وقد تواصلت، نتيجة هذا الطموح، المكتشفات الأثرية، وامتدت إلى ممالك كثيرة، من أوغاريت إلى

ماري إلى بصرى إلى تدمر إلى إيبلا، والأهم الأهم إلى كهوف الديدرية، التي عثرت فيها بعثة جامعة طوكيو المشتركة مع البعثة السورية، على طفل الديدرية، في هيكله العظمي المدفون منذ حوالي ١٠٠ ألف عام، وهو أكمل هيكل عظمي لطفل نياندرتالي معروف حتى الآن في العالم كله، إضافة إلى اكتشافات البعثات اليابانية الأخرى، في تنقيباتها المتواصلة، منذ الستينات من قرننا، والتي لا مجال لتعدادها، وحصرها، في هذه الكلمة التحية.

لقد كان طريق الحرير طويلاً، وكان طريق دمشق طوكيو بهذا الطول أيضاً، إلا أننا في العام ١٩٧٧، امتطينا ما يشبه بساط الريح في الطيران، وطوينا مسافات الزمان والمكان لنصل إليكم، إلى عاصمتكم، إلى بلدكم الجميل، صاحب النهضة الصناعية الكبرى، وهكذا تلاقى فضاء دمشق بفضاء طوكيو، منذ إقامة معرضنا الأثري الأول في اليابان، قبل عشرين عاماً، ولا تزال في الذاكرة صور كثيرة لذلك المعرض، وذلك اللقاء، المفعم بالحفاوة، المترع بالاحتفاء، وبالحميمية، بيننا وبينكم، وقد تعمقت، منذ ذلك الحين، العلاقات الثقافية بيننا، كما ترسخت العلاقات الأخرى، في مختلف الميادين، ولكم أسعدتنا الأيام الثقافية اليابانية في سورية، وأبهجتنا الفرق الفنية والموسيقية، وكذلك معارض الفنان الكبير هيرايامـا التشكيلية، وأمسيات تنسيق الزهور – الايكابانا - أو تقديم الشاي على الطريقة اليابانية التقليدية، المتسمة بالشاعرية والمشاركة الإنسانية ذات الخصوصية.

وإذا كان الكشف الأكبر، في كهف الديدرية، الذي حققته بعثة جامعتكم جامعة طوكيو اليابانية -السورية المشتركة، قد هزّنا من الأعماق، بما قدم من سبق في العثور على لقى ثمينة جداً، في تلك الكهوف التي تشكل نهاية خط الانهدام المار من جنوب أفريقيا إلى مرتفعات الشمال في سورية، وإذا كان هذا الكشف قد أعطى علماء الآثار مفتاح حقبة تاريخية بالغة القدم، فإن علينا، أن نغتنم هذه المناسبة لتقديم التهاني إلى جامعة طوكيو، بمناسبة مرور ١٢٠ عاماً على إنشائها، وللإشادة بالرسالة العلمية التي تنهض بها، وتواصل البذل في سبيلها، على مدى هذه الأعوام الطوال، الرسالة التي أدت إلى كشف الهيكل العظمي لطفل لا يتجاوز السنتين من عمره، مدفون في كهوف الديدرية، وهذا مثل واحد، من أمثلة عديدة، لكشوفات عديدة، نتقاسم فرحتها مع بعثة جامعة طوكيو ذائعة الصيت، والتي يرأسها السيد آكازاوا، وقد حدا بنا هذا الكشف الآثاري النادر، وحثنا كذلك على التفكير جدياً نحن والأصدقاء اليابان بإحداث متحف للتاريخ الطبيعي في دمشق، سيكون الأول من نوعه في المنطقة العربية المحيطة، وسيحمل بصمات يابانية، تخلد تخليداً ماجداً تعاوننا المثمر والمتواصل. (للأسف لم نتمكن من إنجاز هذا المشروع).

وأصارحكم أن العنوان الذي اختارته جامعة طوكيو، لتأكيد التصميم على إنشاء هذا المتحف، هو عنوان ذو أبعاد مترامية، وقد رغبنا في أن يكون المكان الذي سيقام فيه، متكافئاً وأهميته، لذلك

اخترنا خان أسعد باشا، في أعرق أحياء دمشق القديمة، على مقربة من الجامع الأموي الشهير، ليكون مقراً لهذا المتحف، وهذا الخان من الجمال والأبهة المعمارية، والندرة التزيينية، والسعة المكانية والطابقية، والموقع المتميز، ما يعطي للمتحف قيمة تاريخية كبرى، ويعطي لتعاوننا العلمي نموذجاً فريداً، ولأواصر دمشق -طوكيو مكانة رفيعة.

وفي سياق الكلام على متحف التاريخ الطبيعي، وعلى موقعه المتميز بالنسبة لمعالم دمشق، لابد من الكلام على الجانب الثقافي الذي يشكل هيكلية هذا المتحف وعاموده الفقري في آن، وأن نربط قيمته، فائقة الأهمية، من الناحية المعرفية، بالعلاقات الثقافية بين سورية واليابان، المؤسسة على قاعدة وطيدة منذ البدء. ففي عالم اليوم، تتقدم الثقافة لتكون طليعة التعاون الدولي، ومن حسن الحظ، أو من حسن التدبير، أن العلاقات السورية اليابانية انبنت، أصلاً، على مهاد ثقافي، وعلى هذا المهاد قامت الصداقة بين بلدينا، وأحسب أنكم تلاحظون، كما نلاحظ، أن تطور هذه الصداقة، واتساع دوائرها، وترسخها عاماً بعد عام، مرجعه إلى التوجه الصائب، من قبل حكومتينا، في اعتماد الثقافة جسراً لهذه الصداقة، وفي هذا سبق مؤكد، وقدوة تقتدى، في أيامنا هذه، من قبل كل دول العالم، التي تنشد التعاون، والتبادل، وتبعث بالأنشطة الثقافية، رسائل طليعية، تمهد للصداقة المنشودة، وبعد ذلك، لا قبله، تأتي الأنشطة الأخرى، الاقتصادية والسياسية، وصولاً إلى علاقات متميزة، على أساس من التكافؤ والاحترام المتبادل.

وقد أدركت سورية واليابان هذه الحقيقة، فكان التلاقي بينهما اختصاراً للمسافة، وامتلاكاً للغة العصر الثقافية، الجامعة بين الأمم والشعوب، وعلى هذا النحو قامت علاقاتنا، سالكة السبيل الصحيح، وهذا ما أدى إلى نجاح ملموس في هذه العلاقات، وتطورها، وتجذرها أيضاً. ومن وضع الحقائق في أنصبتها، علينا أن نشير هنا إلى المبادرات اليابانية، التي انطوت على مساعدات قيمة لنا في حقل الثقافة، وفي مجال التنقيب عن الآثار، وتوفير الوسائل الحديثة لهذا التنقيب بخاصة، وكمثل على هذه المبادرات، السعي للمساعفة في إنشاء متحف التاريخ الطبيعي هذا، والحماسة الكاملة للتعاون في إنشائه، وإنجازه مستقبلاً.

وأصارحكم أن هذا المتحف سيكون مهماً جداً بالنسبة إلينا، فهو الأول من نوعه في سورية والشرق الأوسط، وهو، في الوقت نفسه، متحف ومركز بحث وتعليم، والحاجة إليه ماسة، لأن بلدنا غني بمعطيات التاريخ الطبيعي، وواقعنا البيئي يدل على تنوع بيولوجي فريد، ذي مناخات ونباتات ساحلية وجبلية وصحراوية كانت منذ القدم، ولا تزال، وهي تمتلك ثراءها الذي لا مثيل له، وقد تم الكشف عن بقايا مستحاثات إنسانية، وجيولوجية ونباتية وحيوانية، في مختلف المواقع الأثرية، ومنها أقدم آثار لزراعة القمح والشعير، ولتدجين الماعز والغنم والبقر، منذ الألف التاسع قبل الميلاد، وسيكون هذا المتحف مرفقاً لجمع وحفظ ودراسة المستحاثات وتحليلها، وقاعدة للاتصال بين الباحثين السوريين

واليابانيين وباحثي العالم، ومكاناً مناسباً لأمور أخرى لا تقل أهمية عما سبق.

إن معرض الآثار السورية الأول في اليابان، منذ عشرين عاماً، لقي إقبالاً شعبياً، وحفاوة رسمية قل نظيرهما، ويكفي أن أشير هنا، مع الشكر والاعتداد، إلى أن الأمير ميكاسا كان في مقدمة الذين زاروه، مع بعض السادة المحترمين من أفراد الأسرة الإمبراطورية، الذين أبدوا إعجابهم، ودونوا انطباعاتهم الجيدة عن هذا المعرض، وها نحن مرة أخرى في اليابان، بدعوة كريمة من جامعة طوكيو، نشد على أيديكم بقوة الصداقة وحرارتها، ويسعدني، بهذه المناسبة، أن أحمل إلى اليابان، إمبراطوراً وحكومة وشعباً، تحيات وتمنيات الرئيس حافظ الأسد، المعني عناية بالغة، بالثقافة والتراث والآثار والقيم الإنسانية الرفيعة، وأن أحيي باسم المثقفين في سورية، مثقفي اليابان، من كتّاب وفنانين، وكذلك أحيي جامعة طوكيو رئيساً وأساتذة، وعلماء آثار، منوهة بشكرنا الخاص لبعثة هذه الجامعة برئاسة الأستاذ آكازاوا، التي حققت اكتشافاً باهراً سيكون له شأن كبير في العالم كله، وكذلك أحيي وأشكر إسهام محافظة نارا المتواصل، ومؤسسة .N.H.K الإعلامية، ومؤسسة سينوتشي شيمبم التي حققنا معها معرضنا الأول في اليابان، وكذلك البروفسور ايغامي الذي قاد البعثات الأثرية الأولى في سورية منذ الستينات، وكل الذين كان لهم إسهام طيب في إغناء علاقاتنا الثقافية، وعددهم ليس بالقليل.

أيها السادة

يقال، في أساطيرنا، إن السائر إلى هدف بعيد، عليه ألا ينظر إلى وراء، وأنا هنا لهدف جليل، لكنني أخالف الأسطورة وأنظر إلى وراء، إلى ما قبل عشرين عاماً حين قمت بزيارتي الأولى، وما تحقق في غضون هذه السنين الطوال، من تواصل بنّاء، وإنجازات مشتركة غير قليلة، كثمرة لجهدكم وجهدنا، هذا الجهد الذي تتوّجه جامعة طوكيو الآن، بسعيها الحثيث لدعم مشروع هو من بين الأهم من مشاريعنا الثقافية المتعددة والهامة.

شكراً لكم أيها الأصدقاء الأعزاء، في كل أنحاء اليابان، وإني لواثقة أنكم ستكونون مثلي، وستخالفون الأسطورة وتنظرون إلى وراء، إلى الأعوام العشرين التي تصرمت، وتغتبطون مثلي، بما حققه تعاوننا النزيه، الخالص، المخلص، من إنجاز في حقل الثقافة، وفي حقل التبادل المعرفي، وقد تلا هذا الإنجاز إنجازات أخرى لا تقل أهمية، ومن هذا المنطلق أجدني سعيدة، وأجدكم سعداء معي، في قطف زهور وثمار هذا التعاون الخلّاق.

حكاية الكنز المقدس ذي الوشاح الكبير ! (*)

حافظ إبراهيم، شاعر العرب الكبير، كان أول من حدثنا، ونحن صغار، في قصيدة شهيرة له عنوانها «غادة اليابان» عن صبية يابانية مناضلة، روى عنها قولها:

إن قومي استعذبوا ورد الردى — كيف تدعونيَ ألا أشربا
أنا يابانية لا أنثني — عن مرادي أو أذوق العطبا
هكذا الميكاد قد علمنا — أن نرى الأوطان أماً وأبا
ملك يكفيك منه أنه — أنهض الشرق فهز المغربا
بعث الأمة من مرقدها — ودعاها للعلا أن تدأبا
فسمت للمجد تبغي شأوه — وقضت من كل شيء مأربا

أدبياتنا المدرسية، ويوميات حياتنا. شدتنا إلى عالم ناءٍ وغريب، يشبهنا بشكل ما: فهو شرق ونحن كذلك، واليابانية فتاة مثلنا، والوضع مقارب، ولن نكون أقل شجاعة منها، أو أضعف استجابة لنداء الوطن، أو هذا قلنا لأنفسنا..

(*) في حفل تقليد الوسام الذي أقامه سفير اليابان آنذاك في سفارته بتاريخ ٢٠٠٢.

كانت أحلامنا الصغيرة تنمو آنذاك، متطلعة إلى الآفاق البعيدة، في إطار من الحس الوطني والقومي، طاوية مسافات الزمان والمكان، ترود فيها ترود، عبر قراءات بسيطة متاحة، العالم من حولنا، في غربه المعادي، في تلك الحقبة، وشرقه المؤاخي، وتتوقف من هذا الشرق في أقصاه اليابان، البلد الجميل، الناهض بما يشبه الأعجوبة، نهضة صناعية كبرى، كانت بها حققته، في أمد قصير، مدار حديث الناس، وهم يعيشون هم التحرر والتحرير، وجدية الحرص على تحقيق نهوض مطلوب. ولم يكن غريباً أن يرى البعض، في الأمثولة اليابانية، دليلاً على إمكان قهر المستحيل، وتجربة رائدة، يمكن لأمتنا التي أعطت الوجود، في فجره الأول، أبهى مكوناته، وأعطت، فيما بعد، لإنسانية القرون الوسطى، أعظم تجليات العلم والفكر والفلسفة، أن تفيد منها، في صنع نهضتها، واستعادة مواقعها.

ذلك كان في المراحل المبكرة من حياتنا، أيام الطفولة واليفاع..

ثم دارت الأيام، وجدّت أمور بعدها أمور، كما تعلمون..

وحين ألفيتني وزيرة للثقافة، كان في جملة همومي، ومنذ البدء، أن تكون الثقافة مدار التلاقي بيننا وبين العالم من حولنا، وفضاء التعارف الإنساني الذي ينبغي أن يتأسس على قاعدة معرفية نزيهة، وأن نعطي له أن يبني بالتالي جسور التواصل والصداقة، القائمة على التكافؤ والتفهم والاحترام المتبادل.

وهكذا، وضمن هذا المفهوم، بدأت علاقاتنا مع اليابان، ثقافية فعلاً. ثم توسعت وتنامت، لتصير الثقافة، اللغة الجامعة

بيننا، وبدأنا، بجرأة، خططنا الثقافية المشتركة، واختصر تلاقينا هذا المسافة بيننا، وفتح أبواباً جديدة، وآفاقاً لم نكن نتصورها من قبل، وأنتج صداقة هي، اليوم، إلى تطور دائم.

وكان ما تحقق في غضون هذه السنين الطوال، من تواصل بناء، وانجازات مشتركة، كثمرة لجهودنا المتواصلة، كبيراً بحق. البداية كانت معرض الكنوز الأثرية السورية الذي أقيم في طوكيو عام ١٩٧٧، بالتعاون مع مؤسسة شينوتشي شيمبم الإعلامية، وحظي برعاية خاصة ومتميزة، من الأسرة الامبراطورية، ومن جماهير الناس، وكانت له امتدادات على أكثر من صعيد، وأتاح فرص التعارف مع الوسط الثقافي، ومع شخصيات كبيرة مسئولة، واسهم في الإسراع بافتتاح السفارة السورية في اليابان. ثم تلته، وعلى مدار الأعوام، نشاطات لا حد لها، معارض فنية، وايام ثقافية، وعروض إيمائية، وأمسيات تنسيق الزهور، على أرفع مستوى جمالي، واحتفالات تقديم الشاي الشاعرية التي تسمح بالمشاركة الإنسانية الدافئة، وفرق فولكورية، وندوات اقتصادية وعلمية، وتنقيب في البحر على شواطئ طرطوس، بالتعاون مع الـ NHK ومحافظ نارا ومحافظتها، واحتفاء بطريق الحرير في ندوتين كبيرتين في تدمر وحلب، سينمائية وثقافية وإعلامية وآثارية، وشخصيات متميزة في ميادين مختلفة، وشبكات تواصل مخلصة، والسفارة اليابانية والسادة السفراء الذين تعاقبوا جميعاً ومن معهم، في صلب كل هذه العلاقات التي حملت الرغبة الصادقة المشتركة، في بناء جسور الثقافة والصداقة.

واستمرت البعثات الأثرية اليابانية تقوم بدورها العلمي الهام، على صعيد العمل الثقافي الحضاري، في أكثر من موقع، في تدمر ومنطقتها، وكهوف الديدرية في شمال سورية، حيث توّجت أعمالها باكتشاف إنسان نياندرتال، على يد البعثة المشتركة، برئاسة البروفسور أكازاوا من اليابان، والدكتور سلطان محيسن من سورية، ولقد احتفت اليابان حفاوة بالغة بهذا الاكتشاف، بالطفل الذي يزيد عمره على أكثر من مئة ألف عام، بأكمل هيكل عظمي إنساني في العالم، وبدأنا معاً، من أجل ذلك، بالعمل على إنشاء متحف للتاريخ الطبيعي، في خان أسعد باشا، أردنا له أن يكون متحفاً ومركز بحث وتعليم، وسيكون، بالتأكيد، مشروعاً فريداً لأنه الأول من نوعه في منطقتنا، ومثالاً رمزاً للتعاون الخلّاق والبنّاء بين اليابان وسورية، يخلد تخليداً ماجداً هذا التعاون المثمر والمتواصل، وهو يحظى بمتابعة واهتمام بالغين من السيد كيشيشيرو آماييه سفير اليابان بدمشق، ومن البعثة الأثرية المكتشفة.

ولقد قمنا، من جانبنا، بنشاطات مكثفة أيضاً في اليابان، وأقمنا معارض أثرية، وغير أثرية هامة، في أكثر من مدينة، وتعاونا مع مؤسسات ذات شأن بالمقياس العالمي، ومع مثقفين وكتّاب وفنانين، كانوا في علاقاتهم معنا يجسدون أنبل القيم، بما يمتلكون من مصداقية واستقامة وإخلاص ونزاهة.

ولا يمكن أن نمر مروراً عابراً، بالمساعدات المالية القيمة التي تقدمها اليابان كل عام، ومنذ أمد بعيد، لوزارة الثقافة، ثم لوزارات

أخرى كوزارة التربية والتعليم العالي والصحة، وجهات مختلفة لا مجال لتعدادها هنا، ولابد من أن نوجه الشكر الكبير للحكومة اليابانية، وللجهات اليابانية الداعمة، على كل المبادرات والمساعدات التي قدمت وتقدم، في إطار التعاون الثقافي والعلمي الذي يسمو بإنسانية الإنسان، باتجاه بناء عالم يرتكز إلى مفاهيم الخير والمحبة والتآخي، واحترام التراث البشري الحضاري المشترك، ماضياً وراهناً، والسعي لبناء المستقبل الأكثر تقدماً وإشراقاً.

* * *

السيد السفير

أيها الأصدقاء

على مدار تاريخي الوزاري الذي قارب ربع قرن، نلت الكثير من الأوسمة، وفي أبهى أشكالها، وأعلى مراتبها، وكنت أجد فيها تكريماً غير محدود، ليس لي فحسب، وإنما لكل الذين عملوا معي على إنجاز ما استطعنا إنجازه. كنت أرى، بصدق، أن المسئول مستطيع بغيره أيضاً، وبمقدار ما يلقى من تعاون جميل يغدو فعله جميلاً، والوسام تعبير عن تقدير لهذا الفعل الجميل الذي نشترك فيه مع آخرين، وحين أبلغني السيد سفير اليابان إرادة منحي هذا الوسام الإمبراطوري الرفيع، البديع اسماً، والقيّم مرتبةَ، وسام الكنز المقدس ذي الوشاح الكبير، أسلمتني مشاعر الفرحة الأولى إلى مدارات من التفكير المتأمل، وألوان من المشاعر التي تنبجس فجأة بتأثير ظرف أو أمر غير متوقع، من القلب والوجدان.

بعد أن تركت الـوزارة بنحـو سـنتين، يـذكرني الأصـدقاء في اليابان، ويمنحني جلالة الإمبراطور وساماً رفيعاً، ربما كـان الأول الذي يمنح في سورية، فأنـا لم أسـمع، بعـد، عـن أي وسـام يابـاني خاص، قُدِّم لأسباب مماثلة؟!

إذن هي السمات الإنسانية البهية التي تميز بهـا شـعب اليابـان العظـيم، مثقفـوه والعـاملون في حقـول الفكـر والفـن والمعرفـة والتراث، وديبلوماسيوه في سورية، وعبرت عنهـا الحكومـة، وفـاءً وتقديراً، لعمل مشترك طموح، ترك لنا ثروات من روائع الإنجاز!

إذن هـي الـذاكرة الحيـة للـذين لا يريـدون أن ينـسوا، أو أن يسمحوا للحاضر بالتنكر للماضي.

وعدت في الذاكرة أستعرض ما فعلنا معاً.. الجانب الـسوري والجانب الياباني.. لأقول لكل الذين تعاونوا معي في تلـك الحقبـة المديدة من الزمن، في سورية واليابان، شكراً لكم بالتأكيد، الوسـام لنا جميعاً، ولن أشعر يوماً أنه لي وحدي..

أيها الإخوة

السيد السفير

بمقدار ما أنا سعيدة بالوسام الرائع الذي كرمت به، وكـذلك بهذا الاحتفال الذي جمع الأصدقاء، فإن سحابة من الحزن الشفيف العميق تلفني، وأنا أقف بيـنكم اليـوم، تلامـس جرحـاً حارقـاً في القلب، على الوطن الـشهيد فلـسطين، وتـذكرني ومـا نـسيت، مـا

عانيت في بلدكم، بلد الفتنة والبهاء والسحر الأخاذ، يوم زرت هيروشيما، ومتحفها، تلك المدينة التي شكلت، وماتزال، فصلاً من فصول المأساة الإنسانية، في أشد صورها حلكة وقسوة، تماماً كما تشكل فلسطين اليوم، فصلاً آخر من فصول هذه المأساة، وفي أشد صورها حلكة وقسوة أيضاً. جنين والمذابح، ونابلس وطولكرم وبيت لحم وبيت جالا، وغيرها وغيرها، أحزان لا تمحى، حتى ونحن في حالات السعادة والإشراق، إلى أن ينتصر الحق، ويحل السلام العادل، ويستعيد شعبنا أرضه وحقوقه، ويقيم دولته، ويبني المستقبل الكريم الذي يسعى إليه.

أيها السادة

اسمحوا لي، قبل اختتام كلمتي، أن أوجه تحية إجلال وإكبار للرئيس الكبير الراحل حافظ الأسد الذي أعطاني فرصة إنجاز ما أنجزت، حين اختارني لأكون وزيرته الأولى، ولمدى زمني طويل، وكان له الدور الأساس في التوجيه لبناء العلاقات الدولية على مهاد من الثقافة والحضارة، في طموح مؤسَّس على جهد المبدعين، في شتى حقول المعرفة، وعلى إيمان عميق بأن مكانة أي بلد إنما تقاس بعراقته الثقافية، ومجده الحضاري والعلمي الذي ينبسط على كل معطيات الفكر والعقل البشري. ولقد كان -رحمه الله - حريصاً بالغ الحرص على توطيد العلاقة مع اليابان، سعيداً بما أنجزناه، عبر تواصلنا المستمر المثمر.

وإني لأحيي أيضاً وبتقدير كبير الرئيس بشار الأسد، الساعي إلى مد جسور الصداقة والتواصل مع العالم من حولنا، على أساس من التعاون والتكامل والتكافؤ والاحترام المتبادل، وإجلال القيم الإنسانية.

أيها الأصدقاء

لن أقول ما اعتاد البعض أن يقولوه من أن الكلام عاجز عن التعبير.. أقول العكس. إن كل كلمة، حين تكون صادقة، تحمل مدلولها الدقيق، بمعناه وهالاته وتلاوينه وإيحاءاته، بعيداً عن مبالغات لا نرضاها لأنفسنا أو لغيرنا. ومن هنا فإنني أتمنى على السيد السفير أن يتقبل، بكثير من المحبة، أنبل معاني التقدير والإعزاز، وأسماها، وأصدقها، للذي أمر بمنحي هذا الوسام، لجلالة إمبراطور اليابان والسيدة عقيلته، وقد كان لي شرف مرافقتهما حين كان صاحب الجلالة ولياً للعهد، في زيارة كرّم بها معرضنا عام ١٩٧٧، وكشف فيها عن شفافية النفس التواقة للمعرفة، وكذلك لصاحب السمو الأمير ميكاسا، شقيق الإمبراطور الراحل الذي عني عناية خاصة بمعارضنا، وزارها كلها أكثر من مرة، وقبل دعوتنا لزيارة سورية، وقدم لنا دعماً متواصلاً، وأحاطنا برعاية كبيرة.

التحية والتقدير للحكومة اليابانية التي مهرت براءة الوسام بختمها، وللسيدة وزيرة الخارجية، وكذلك إلى حاكم نارا الذي منحنا المودة، واهتم اهتماماً خاصاً بالآثار.

التحية والتقدير، أيضاً، إلى المؤسسات اليابانية، شينوتشي شيمبم والـNHK ومحافظة نارا، وجامعة طوكيو ومعهد كيوتو بعلمائهما الأجلاء، والبعثات الأثرية العاملة في سورية، وكل المثقفين والفنانين والباحثين الذين مدوا أيدي الصداقة النزيهة والمخلصة لنظرائهم في سورية، بحثاً عن تبادل معرفي، يجاوز الحدود والمواضعات.

من دمشق، مدينة الطريق المستقيم، بعراقته ونبالته، إلى طوكيو، مدينة الشمس بإشراقها وعظمتها، صار الدرب الطويل الطويل، قصيراً بالصداقة، والمحبة، وألق المعرفة، والتعاون الخلّاق. ولقد كان لك، أيها الصديق، إسهام ملحوظ في إنماء ما بنياه، وإغنائه، وفي تحقيق نقلة تنضم إلى سابقاتها، وإني لأشكرك من القلب على كل ما قدمت، وأتمنى أن أترجم مسئولية الوسام الذي قلّدتنيه، وكرمتموني به، واستشعرته أمانة في العنق، إلى عمل مستقبلي لخير بلدينا، والقيم الإنسانية التي نجلّ.

آفاق العلاقة بين سورية واليابان(*)

لم أتردد لحظة في قبول الدعوة التي وجهت إلي لزيارة اليابان، ولإلقاء محاضرة في بلدكم الصديق الذي تربطنا به علاقات ثقافية وإنسانية وحضارية، بنيناها بإرادتنا المشتركة، وقناعتنا بضرورة شد الأواصر بيننا، بما يتيح لنا جميعاً، في عملية البحث الملح، أن نفتح آفاقاً رحبة جديدة، تتلاقى في مساحاتها المنيرة، قيم تمد بالأمل والعزيمة، والثقة بأن الإنسان الذي اخترق الفضاء والبحار والأرضين، وأبدع التكنولوجيات، قادر أيضاً أن يعيد إنتاج ذاته، وإبداع فلسفاته، وبالمستوى الذي يجعله يرقى بإنسانيته إلى ما يليق بمتطلبات عصرنا الذي نسعى لأن يكون أكثر نزاهة، وقدرة على تحقيق العدالة والمساواة، وتوفير الحرية الحقة، للمجتمعات البشرية كافة، وأن تكون الثقافة فيه هي جسر التواصل، الناقل للمعرفة بين أمة وأمة، والحامل لأرقى ما يتوصل إليه الفكر من اكتشافات مذهلة، وإبداعات في سائر الآداب والفنون.

(*) بدعوة من وزارة الخارجية اليابانية، وبمناسبة الذكرى الخمسين لتحرر اليابان، ألقيت هذه المحاضرة في معهد الشرق الأوسط – مركز الإعلام الأجنبي، في جامعة طوكيو، عام ٢٠٠٣.

ولم يكن عجيباً أن يعيد التاريخ نفسه، في شرقنا، أقصاه وأدناه، وأن يومض ثانية، ذلك الألق الإنساني، الذي كان يعلو بطاقة الحياة وديمومتها، ليشكل في ضمير التاريخ وأخلاقيته، درباً يماثل «طريق الحرير» الذي شق الأجداد به الحدود، فيما يشبه المعجزة، ليحقق التنامي الإنساني، في مسيرة امتدت من طوكيو بلد الشمس، إلى القدس بلد النبوّات، وتناهت في تدمر، واحة الصحراء، وحلب، المدينة الأقدم في التاريخ، محققة معجزة التواصل، في ذلك الزمن البعيد البعيد..

وارتأينا والثقافة تتقدم لأداء دورها المميز، في تحقيق التقارب بين الدول والشعوب، وسط المتغيرات العالمية، بإشكالياتها ومفارقاتها، وتناقضاتها، أن تكون الثقافة مدار التلاقي بيننا وبين العالم من حولنا، هي القادرة على خلق فضاء التعارف الذي يمكن أن يعطي الحياة حقيقتها الإنسانية.

وضمن هذا المفهوم، استأنفنا شوط الماضي بيننا وبين اليابان، وأعدنا إلى الحياة من جديد، طريق حرير آخر، اختصر المسافة بيننا، وحوّلها إلى رؤى حضارية، ولغة جامعة، تنامت مع الأيام، مداراتها المختلفة، وفتحت أبواباً على كنوز الماضي في سحيق التاريخ، كشفاً له رحابته على المستوى المعرفي، في أعماق الموروث المجهول، وبنت للحاضر أشكالاً من العلاقات الإنسانية، في جميع زوايا المعرفة، والأهم الأهم أنها أنتجت صداقة، وجعلت من المستحيل ممكناً، وبنت جسوراً للتواصل، تقوم على التكافؤ والتفهم والاحترام المتبادل، والحرص على تحقيق الإنجازات المشتركة.

وأخذت البعثات الأثرية طريقها إلى تدمر التي هـي في عـرف دارسين كثر، في الكوم وما جاورها، موطن الإنسان الأول، حيـث اختبأت في صـحرائها كنـوز بـاهرة، وصـمدت أطلالهـا لعاتيـات الأيام، مدينة مزهـوة بجلالهـا، مطوقـة بالرمـل الأسـمر، ملتفحـة بعبـاءة الـصمت الـدهري، وانطـوت في جوفهـا بقايـا الإنـسان الهوموسيبيان والهوموإيريكتوس، على أمدائها المحيطة، كما انطوت، في قبورها، حيوات وحكايات، تجسدت في منحوتاتهـا وكتاباتهـا، ورسومها ولقاهـا، ولم تـتمكن أعاصـير الطبيعـة مـن العبـث بهـا، وظلـت رهنـاً بمـن يكتـشفونها، ويرفعـون عنهـا سـتائر الـتراب والحجارة، بالأساليب المختلفة، أو بأدق تكنولوجيات العصر، كـما فعلت البعثة اليابانية، حين اختارت مـدفناً متميـزاً للكـشف عنـه، واتفقنا، آنذاك، مع حاكم نـارا أن يُنقـل نمـوذج عنـه، يعـرض في متحف نارا التي كانت، في يوم بعيد، عاصمة بهيـة لليابـان، ولعـل ذلك قد تم.

وتابعـت البعثـات الأثريـة اليابانيـة، والهيئـات العلميـة، في سورية، مهد الحضارات، وموطن أقدمها وأعرقها، أرضـاً وبحـراً، تنقيبها في أكثر من موقع، مـن الـشمال إلى الجنـوب، ومـن الـبر إلى البحر، وغاصت في أعماق المتوسـط، عـلى شـواطئ طرطـوس، في محاولة فريدة من نوعها، تبنتها مؤسسة الـ N.H.K بحثاً عـن سـفينة قديمة غارقة، ثم كان الكشف الكبير الهام الذي حققته بعثة جامعة طوكيو اليابانية السورية المشتركة، في كهوف الديدرية التـي تـشكل

نهاية خط الانهدام، المار من جنوب أفريقيا إلى مرتفعات الشمال في سورية، حين تم العثور على أكمل هيكل عظمي لإنسان نياندرتال، لطفل يزيد عمره على مئة ألف عام.

ولا أريد أن أعدد، فالجهود المبذولة في هذا المنحى العلمي الذي شكل، في مرحلة ما، الجسر الأساس، في علاقاتنا، لعبت دوراً أكثر شمولية، ونقلتنا، في إطار الثقافة والصداقة، نقلة نوعية، في ميادين متعددة، قرّبت بين منطق الحياة في البلدين، حين فتحت أبواب جامعات ومعاهد ذات تميز، لألوان من البحث العلمي المرتبط بما يتم اكتشافه، ولما يحتاج إلى تعمّق في الدرس، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال، جامعة طوكيو ومعهد كيوتو الفريد، الذي ربط ربطاً محكماً، في دراساته، بين التاريخ والأنتربولوجيا والآثار، واحتفى بطفل نياندرتال، ليكون محور دراسات هامة، أعطت علماء الآثار مفتاح حقبة بالغة القدم، هي في تراث الإنسانية، بوثائقية وضوحها ودلالاتها، وما تقدمه من معلومات عن مراحل ما قبل التاريخ، ذات شأن بالغ.

واكتسبت العلاقات، من بعد، ومنذ بداية السبعينات بالتحديد، أشكالاً أكثر حيوية، إلى جانب مستوياتها العلمية الصارمة، وتداخلت، وتشابكت، وانفتحت على المجتمع الأوسع، ودخلت البيوت في سورية، بدفء المحبة وحرارة الشعور، حين صارت أياماً ثقافية، وعروضاً سينمائية ومسرحية وإيمائية، وفرقاً موسيقية وفولكلورية، ومعارض فنية، واحتفالات شاعرية، تجسد

التقليد الأعرق والأجمل، كما في تقديم الشاي، بالأسلوب الاحتفائي، وحين أخذت مسارها، في ندوات اقتصادية وعلمية وبيئية، ولقاءات بين شخصيات سياسية واقتصادية وبرلمانية وأدبية، وزيارات متبادلة، في أجواء من ألفة التعارف الذي يحمل من نسمات الشرق، وروحانيته، الشيء الكثير.

ولم يدخل في تصوري أننا سنستطيع أن نحمل التاريخ، في كنوزه وكشوفه، من دمشق إلى طوكيو، لإقامة معرض الكنوز الأثرية عام ١٩٧٧، بالتعاون مع مؤسسة شينوتشي شيمبم الإعلامية والسيد كوياما، رئيسها، وكنت حديثة العهد بالوزارة التي تسلمتها في السابع من آب عام ١٩٧٦.

ولشد ما أذهلتني، آنذاك، الرعاية الخاصة والمتميزة للمعرض، من الأسرة الإمبراطورية الكريمة، متمثلة بسمو الأمير ميكاسا، وبابن الإمبرطور وولي العهد عهده، ومن مسئولي الدولة، بدءاً من السيد رئيس الوزراء، والوزراء، ومن جماهير الناس، والوسط الثقافي الرسمي وغير الرسمي، وكانت فرحة رائعة بالنسبة إلي، أن أقارب اليابان هذه المقاربة الثقافية والاجتماعية، وأن يعد لي برنامج ألتقي فيه وزراء وعلماء ومفكرين، وأن تتاح لي فرصة التعرف، بشكل أكبر، على وجوه من الحياة، في البلد الذي كانت صورته في نفوسنا ترتسم، من قبل، بهيّةً، في أحلام اليفاعة، وأخيلة الشباب، وتصورات المؤمنين بوجوب الكفاح، من أجل استنهاض الحياة، وتتجسد في ملامح النهوض الاقتصادي والعلمي الكبير الذي

يستحق أن يكون أمثولة، دعوناها في بلادنا الأمثولة اليابانيـة التـي قدمت برهانها في قهر المستحيل، وتحقيق تقدم يشبه الأعجوبة، وفي تجربة رائدة ورائعة، يمكن لأمتنا التـي أعطـت الوجـود، في فجـره الأول، أبهـى مكوناتـه، وأعطـت، فـيما بعـد، لإنـسانية القـرون الوسطى، أعظم تجليات العلم والفكر والفلسفة، أن تفيد منهـا، في صنع نهضتها، واستعادة مواقعها.

لقد أذهلني، كذلك، إقبال غير معهود على المعرض، ممـا كـان يعكس الاهتمام البعيد بالتراث الإنساني، في جذوره الأولى، ويعنـي التعطش للمعرفة، وجدية الحرص على تجاوز ثقافة التسلية، المكتوبة بالطريقة البليدة، والحـروف الباهتـة، مـن أجـل اجتيـاز متاهـات التاريخ، والعبور إلى أغوار العالم.

وأدركت، منذ ذلك الحين، أن دربنا طويل بعدُ، كي نحقق مـا نصبو إليه من تواصل رصين، لا يبقـى عـلى الهـوامش، أو في إطـار المجاملات، والإعجاب العابر، ويكون له بعده الحضاري الـذي لا يتحدد بتظاهرات أو نشاطات، تظل عابرة، ما لم يكن لها مـضمونها الهادف والعميق.

ثمة فجوة، وستتـسع، تـأتي مـن حـاجز اللغـة، واللغـة هـي الإنسان، هي الأدب والفكر والشعر والفلسفة والعلم، وهي الحياة بكل وجوهها، وإذا لم نتمكن من تجاوز هذا الحاجز، فـلا سـبيل إلى الارتقاء بالمعرفة والتعارف، وهما لا يـتمان إلا بالاطلاع على النتـاج الأدبي والفكري، قديمه والحديث.

وعن هذا الطريق يمكن أن تتحدد السمات الإنسانية لشعب اليابان العظيم الذي نعرف أنه غالب الطبيعة والوجود، دهراً، ورسم بآدابه قصة انبعاثه وعقائده، وتشكله الفكري والنفسي، ليكون منه، في الحاضر، هذا الشعب الذكي الدؤوب، بما يمتلك من أخلاقيات مفعمة بالجد والنزاهة، وإكبار العمل، والحرص على الصعود المتواصل بوسائله الخاصة، وبإمكاناته الكبيرة التي ازدهت بارتقائه، ووضعته في الصميم من العالم المتقدم، علماً وإبداعاً وتقنية، مع الحفاظ على الكثير الكثير من الصفات التي يجدر بشعب نبيل أن يمتلكها، دون أن يجنح إلى بعض متاهات «التقدم» التي تنذر البشرية أحياناً بشر مستطير، عانت منه اليابان معاناة لا حد لمأسويتها، وترك في ذهنية القرن الماضي جرحاً ظل مفتوحاً، رغم امتداد الزمن، لا في اليابان فحسب، بل في العالم كله.

ومن ينسى أيها الأصدقاء هيروشيما، ومأساتها الدهرية؟

إنني حين أتحدث عنها، لا أفعل ذلك مدفوعة برغبة في الاستطراد، لكنني، وحتى هذه اللحظة، منذ زرتها عام ١٩٩٧، ما أزال أشعر بوخز في الصدر، حين أعود إلى ذكراها، فثمة دفق من المشاعر الحزينة، لا يستطيع الإنسان أن يلجمه، وصور لا يمكن أن تمحى بالسهولة التي تمحي بها صور أخرى، ودعاء واجف كي لا يحدث هذا الذي حدث، في أي مكان آخر من العالم.

لقد قرأنا الكثير، منذ كنا صغاراً، عن هذه المأساة، لكن ما رأيناه كان يفوق كل ما خلنا أننا نعرف، ولم يكن الفيلم الشهير

الذي يحمل عنوان«هيروشيما يا حبيبتي« المأخوذ عـن الروايـة، إلا تشكيلاً بسيطاً لحدث اهتز له الكون كله.

هيروشيما هي الدمعة التي تحجـرت في المقـل، عـبر كـل هـذا الزمان الطويل، وسهل أن تـذوب في دمـوع حـرّى، في كـل لحظـة تذكّر، لتعود فتمكث في مكانها، متجمدة بين المحاجر من جديد. لم أعد أعرف ماذا كتبت في دفتر الذكرى، لكنني أعرف أنني لم أكتـب شيئاً مماثلاً من قبل، بكل جوارحي، كما فعلت في ذلك اليوم.

* * *

أيها الأصدقاء

إبداعات مرهفـة كثـيرة ورائعـة، تلتقطهـا العـين في اليابـان، وتتجلى حتى للزائر العابر، في الهندسة المعمارية فائقة الجـمال، فائقـة الجلال، وتتجسد في الحدائق والمعابد، على اختلافها، حيث تـرعش زهرة اللوتس، بوشوشات حياة مفعمة بالمحبة والإنسانية، ومشاعر التعــاطف، وروحانيـــة الميثولوجيـــا المؤنـــسنة، إلا أن الحيـــاة في شموليتها، لا يمكن أن تنقل إلا بالكلمة، وبـالتعرف عـلى الآداب شعراً، ورواية، وحكايات وتراثاً.

ومن حسن الحظ أن ترجمات لأعمال أدبية وفكرية واقتـصادية بدأت تظهر بالعربية، ولقد ترجمنا في وزارة الثقافة مجموعات أدبيـة وشعرية متعددة، لكن كل ذلك بقي دون مستوى الطموح.

وظللنا لا نعرف، مـثلاً، إلا القليـل عـن كتـاب الكـوجيكي Kojiki الذي شكل بداية الحياة الأدبية في اليابان، وهـو كتـاب نـادر

بالتأكيد، لا لأنه الكتاب الأول وهذا هام، ولكن لأن له خصوصية الشعب الذي أبدعه، فحمل روعة السمات الأولى، لما يسميه عالمنا المعاصر بالأساطير الكونية، حيث أحاديث النشوء والبدايات، وملامح استيقاظ الخيال المتوهج بعمق الإحساس بدبيب الحياة، بالتكوّن والكينونة، في إطار من الغموض اللامتناهي، ومن نصوصه نعرف كم هو صعب ومتعثر تصور العلاقة بين السماء والأرض، وكل المكونات لطبيعة حالمة وقاسية في آن.. البحر من كل جانب، والنجوم تلتمع في ضبابية الغيم، والأرض تهتز هنا وهناك، فيما دعي، من بعد، بالزلازل، والأرز لقمة عيش بالغة الأهمية، والشعر مدى، والتواصل مع الشواطئ الأخرى معجزة إبحارٍ، لم يمتلكوا، ولا نعرف متى امتلكوا، وسيلتها، في فضول يلهبه الشوق إلى المعرفة، إلى التواصل مع المجهول، إلى تكوين رؤى ومفاهيم، بها تتم النقلة التي تعطي للحياة أشكالها الأسمى، والأشد إرهاقاً.

لقد بدأنا بتعليم اللغة اليابانية، في الجامعة السورية، في دمشق، منذ أمد قريب، ولقد سبقتنا اليابان كثيراً في هذا المجال، بتعليم اللغة العربية وآدابها، في الجامعة اليابانية، ويظل علينا أن نغني عملية الترجمة، ونحرّض عليها، ولو عبر لغات أجنبية وسيطة، ونأمل أن تترجم أعمال أدبية وفكرية أيضاً، من العربية إلى اليابانية..

لقد قدّمت اليابان، في أصالة مشروعها الانفتاحي، للتعرف على آداب العالم، أنموذجاً متميزاً، إذ ظلت محافظة على أصالتها

المتجسدة، في تاريخية الأفكار الأولى التي كانت صورُ الحياة، في كل أنحاء اليابان، الحاملَ لها، بما فيها من ملامح ميثولوجية وأسطورية، وعراقة مشبعة بمفاهيم كونية إنسانية، أغنتها، على رأي النقاد، «واقعيات الآداب الأخرى»، دون أن تحيلها إلى مستوى النقل أو التقليد، أو تلزمها بالبقاء ضمن حدود المدى الجغرافي المحدود.

الشاعر الياباني ميتسو هارو - في قصيدة له عنوانها أغنية الوحدة يقول:

في قلب الضباب الكثيف ولدت
في صميم هذه الأرض المغلقة بالوحدة..
الضباب المندفع عبر البحيرة
حاجباً قمم الجبال وبطون الوديان
ليخفي درب أعوامي الخمسين
وما ينتظرني في المستقبل

* * *

الشرق والغرب، المحاطان بالمحيطات
دون شق ننزل عبره، نحن اليابانيين
ننغلق على أنفسنا فيه
معتقدين أن أرضنا هي أرض الشمس المشرقة
والحزن يتبدى في نمط الكتابة، في اللون، في حاسية الإنسان..

* * *

غير أن اليابان فتحت آفاق العـالم المترامية أمامهـا، وحققـت مشروعها الفكري الانفتاحي، متحدية كل الصعوبات، ولم تستطع أسلاك السياسات الدولية الشائكة، والصراعات المرتبطة بمـصالح يوميات الحياة، أن تمنع إمكانات التواصل الخلاق والبنـاء، المعـرفي والإنساني.

إن القوة، مهما بلغ من عتوها، لا تـستطيع أن تحـبس العـالم في دوائر مغلقة، وأن تسد آفاقه، وتحرمه من أجواء أكثر رفعة ونبالة في إنسانية قيمها.

وفي كـل مـشاريع الانفتـاح والتحـديث والاستـشراف التـي كانت تتم، منذ الزمن البعيد والقريب، كان الحفاظ على الشخـصية اليابانية، وحماية التراث، واحترام الأصالة، هـدفاً أساسـاً، تجـلى في الخطوات التي رسمت في عهد الامبراطـور مـايجي Meiji (١٨٦٨ - ١٩١٢)، كما يتجلى اليوم في حماية اللغة اليابانية، وتأهيلهـا المـستمر لاستيعاب منجزات العصر. وإذا كان عـالم الكمبيـوتر والانترنـت والمعلوماتية قد أسهم في فرض لغـة شـبه وحيـدة، تمتلـك وسـائل الأداء المعلوماتي في العالم، فقد أعطى اليابانيون أمثـولتهم الفريـدة، في هذا المجال أيضاً، منطلقين من فهمهم للغة عـلى أنهـا الإنـسان، وليس هويته فحسب، حين قـدموا باليابانيـة أيـضاً كـل مـا يقـدم بالانكليزية، ولم يرزحوا تحت عبء عمل بهذا الضخامة.

إننـا نـؤمن بوجـوب احـترام الـذاتيات، وبنـاء العلاقـات الحـضارية عـلى مفـاهيم الحـوار والتـآخي والتعـاطف والتـسامح

والعمل النزيه، متجاوزين أعباء الراهن الحدثي إلى الجوهري العقلاني الإنساني الكوني، بالرغم من كل أشكال الاستلاب التي وقعت على الإنسان عبر الدهور، وحروب التاريخ التي ما انقطعت، وألوان العدوان التي ما تزال تقع، وجهد بعض الباحثين لتصوير هذا كله على أنه صدامات حضارية بين أشكال من الحضارات، ستظل في حال من الصراع، مادامت مرتبطة بقوميات أو بأديان لا يمكن لها أن تلتقي. إن الدراسات الموضوعية الرصينة التي تناولت تاريخ الحضارات، نشوءها وتطورها واستمرارها، عبر زمن طويل أو قصير، أو انكفاءها ليحل محلها غيرها، تكشف عن أن كل حضارة قد تركت إضافتها، وكل حضارة تتقدم، تغتني بما قبلها، وما حولها، وأن تواصلاً حضارياً مستمراً، وفي الكون بقاراته، كان يتجاوز الصراع، قرناً بعد قرن، ليشكل إرثاً بشرياً ينتمي العالم كله إليه، وعلى أرضيته ينهض البناء متجاوزاً كل الصراعات، المزمن منها والعابر.

الذاكرة الحية تستبقي ما هو أكثر إشراقاً، وفي مسيلة الزمن يذوب الوجع الإنساني، والثقافات والحضارات تتفاعل وتتواصل، وتأخذ وتعطي، على مدار تاريخيتها، وتدخل جميعاً متساوية في أبعاد التجربة الإنسانية، من مشرق الأرض إلى مغربها.

هكذا نفهم نحن الحضارة الإنسانية، كينونة واحدة، وليست أحادية، ونرى على ضوئها مخايل علاقاتنا المقبلة مع اليابان، البلد

الصديق، التي نسعى كي تكون منفتحة، متنامية، مفعمة بالسعي المخلص لتحقيق ما هو خير لبلدينا، ولعالمنا الكبير والصغير في آن.

* * *

أيها الأصدقاء

من حقي أن أزهو وأعتز، وأنا أضع على صدري وساماً رفيعاً كرمني به جلالة الامبراطور، هو وسام الكنز المقدس ذي الوشاح الكبير، ووسم بتوقيعه الكريم براءته. وأعترف أن حجم الفرح الذي غمرني كان كبيراً جداً، بالرغم من أنه قد سبق ومنحت أوسمة رفيعة عديدة.

كان لهذا الوسام معنى خاص ارتبط بامبراطور الدولة الصديقة، وتراءت فيه السمات البهية التي عرفتها في شعب اليابان العظيم، مثقفيه والعاملين في حقول الفكر والفن والمعرفة والآثار والتراث، وديبلوماسييه الذين عرفت على مدار عملي وزيرة للثقافة خلال خمسة وعشرين عاماً، وعبّرت عنها الحكومة، وفاءً وتقديراً، لعمل مشترك طموح، بدأناه بثقة وإيمان، وترك لنا ثروات من روائع الإنجاز.

ومن حق الحكومة اليابانية، والجهات الداعمة، أن نوجه لها الشكر، على كل المبادرات والمساعدات التي قدمت، وتقدم لسورية، في إطار التعاون الثقافي والعلمي والصحي والبيئي الذي يسمو بإنسانية الإنسان، باتجاه السعي لبناء المستقبل الأفضل.

لقد استطاعت اليابان أن تنهض بحركة تحديث مذهلة، خلال زمن قصير، قبل الحرب وبعد الحرب، لتكون مثلاً وقدوة، للبلدان التي تحاول أن تشق درب نهوضها بالكفاح والجد والدأب، وسورية اليوم، في طموح رئيسها الشاب الرئيس بشار الأسد، الذي يعمل على تحقيق مشروعه التحديثي والتطويري، تخوض كفاحها على جبهات متعددة، وتسعى، بالعزم الدؤوب، وبالجهد المثابر، كي تدفع باتجاه التقدم الذي هو رهن بتنمية شاملة، تنهض معوقات كثيرة في وجهها، فالأرض محتلة، والعدوان متواصل، في الجولان وفلسطين، وفصول المأساة تتتالى في منطقتنا، مجازر واجتياحات واغتيالات، وغارات على البيوت والشوارع، ودبابات تزحف، تدمر المنازل والناس، والمزروعات والمزارع، وظلال الحرب على العراق تهديد طويل، يلقي بسواده على حياة الناس التي صار الخوف والحزن بعضاً من يومياتها..

وإنه لمن الطبيعي أن يأمل الناس بدور لليابان، في الإطار الدولي، يمسح بيد العدالة على جراح المصابين، وينتصر للحق والشرعية، والحرية والتحرر، والسلام العادل الذي يعيد الأرض والحقوق، ويبني للمظلومين والمقهورين والمحرومين والمعذبين، المستقبل الكريم الذين هم جديرون به.

كما كان طبيعياً أن ينتظر الناس، وحتى اليابانيون بينهم، دوراً اقتصادياً مميزاً لليابان، ضمن الدول الكبرى السبع الأغنى في العالم، ودعماً أكيداً لدول الجنوب الفقيرة والجائعة، ولدول آسيا.

وقد طرح الكاتب الكبير كينـزابورو أو حامل جائزة نوبل، أفكاراً مؤثرة، بهذا الخصوص، في خطابه التحليلي لرائع الذي ألقاه بمناسبة نيله الجائزة، والذي تحدد فيه موقفه النبيل من هذه القضايا التي شكلت عار العصر، ومأساته في آن.

أود أن أحيي من القلب، الأسرة الإمبراطورية الكريمة، والحكومة اليابانية، والشعب العظيم، وكل المؤسسات اليابانية التي تعاونا معها خلال ربع القرن الماضي، وكل الأصدقاء الذين عرفت فأكبرت، من مثقفين وباحثين وفنانين وكتاب.

كما أود أن أشكر وزارة الخارجية، على دعوتها الكريمة التي أتاحت لي فرصة تجديد المودات، والتعرف على المستجدات، في بلد يحمل دوماً مفاجآت إنجازاته، في مسيرته البهية والرائعة.

أخيراً، وليس آخراً، تهنئة أكبر من كل التهنئات، لكم جميعاً أيها الأصدقاء، لكل اليابان، التي تحتفي بالذكرى الخمسين لتحررها من الجيوش الأجنبية الذي أعاد لليابان ما استُلب، وكرامة هي كل الكرامات..

الثقافة في عصر المعلومات (*)

في الكلام على الثقافة، كلام على النار. ثمة، عندئذٍ، رهب، لأننا نكون قد أوقدنا شموع أناملنا، وفي ضوئها، استنارة، نقرع باب المعرفة، نقرع باب الكون، والرحابة، هنا، سعة بغير قياس، والخطا وئيدة، خفيفة الوطء، نصيحة الذي، كما قال الجواهري:

«على الحصير وكوز الماء يرفده

وفكره ورفوف تحمل الكتبـا»

الأصعب يبقى اهتياباً، لأننا، في مصر الثقافة، نتكلم على الثقافة، وفي هذا حرج وإحراج: حرج أن يقال «بضاعتنا ردت إلينا»، وإحراج لذات المتكلم، أن يكون كلامه، حتى مع الذات الإبداعية، في المدرك من الأشياء، وأن يقال، مرة أخرى، ندرك هذا الذي يقال، فماذا بعد؟ الذي هو بعد، والذي هو قبل، يتساويان دهشاً، في نقطة صغيرة، كبيرة، تأخذنا إلى بعيد، على مركب أبيض

(*) بدعوة من اللجنة المصرية للتضامن إلى ندوة «آفاق العمل العربي المشترك»، ورئاسة جلسة "الثقافة العربية في عصر المعلومات" عام ١٩٩٨ - كانت هذه الكلمة.

الشراع، أو لوح أزرق الخشب، لنواجه، في اللامدى، متاهة اللفظ، في حين ننشد صراط المعنى، كي نقول فيه، وفيه وحده، اقتصاد الكلمات، في دلالاتها القصوى: الثقافة في عصر المعلومات، وما عصر المعلومات إلا عصر المعرفة، تتشعب، تتعدد، تتنوع، تصبح بإرادة منا ودونها، إحاطة شبوباً في أربع رياح الأرض، وكيف، أيها السادة، نحيط بها لا سبيل إلى الإحاطة به، لأنه ثورة، بركان، يقذف إلينا، كل يوم، بحمم الاكتشافات، ونحن، بعضنا، جلنا، نقف في ذهل، من هذه الحمم، في فتوحاتها والجديد، الذي يصير مع كل عام، قديماً، لأن ثمة جديداً وجديداً، بغير توقف، بغير تردد، وبغير ونىً أيضاً؟

إنني، في هذا، أياسر، أحاول، لا ملكاً بل امتلاكاً، ولو بسيطاً، للموضوعة التي نحن بصددها: الثقافة في عصر المعلومات، العصر الذي يلحق آخره أوله، لأنه عجل، ولأن علينا اللحاق به عجلين، بعد أن تخلفنا، تأخرنا، عن ركبه المندفع إلى هدف غير محدود، ومن فوقه هدهد العلم، يحلّق في علٍ، ومن علٍ، يدل على النبع، بما هو مصدر ثرّ، لماء ثرّ، ولكن من نوع آخر، هو الكوثر المعرفي الذي يشرب في أكواب أخر، من شمس أو قمر، لصعوبة الارتقاء، إلى المرتقى الصعب، وهو معلوماتية هذا الزمن. وقد أحسنت اللجنة المصرية للتضامن، في إقامة ندوة «آفاق العمل العربي المشترك» بمناسبة مرور أربعين عاماً على الوحدة العربية المصرية السورية، فهذا الحدث الأول من توعه في تاريخنا الحديث، كبير في مغزاه، كبير

في معناه، وفي طموحه وثوريته، لأن الوحدة العربية هي المرتجى الأكثر ترسخاً في الوجدان العربي، والأشد تطلباً وضرورة للأمة العربية، وهذا التوافق، بين إقامة الندوة وذكرى الوحدة، يعود الفضل فيه إلى اللجنة المصرية للتضامن، ونحن العرب، بأمس الحاجة، الآن، إلى مثل هذا التضامن العربي، وحتى التنسيق العربي، لأن ذلك يشكل ضرورة وجود، تعود بالفائدة على بلدان الوطن العربي كلها، كما يعود البحث في الثقافة والمعلومات، من منظور ثقافتنا الواحدة والموحدة، بمثل هذه الفائدة، أو بما يماثلها، وقد يزيد عليها، وتبقى مصر العربية، الشقيقة العزيزة والكبيرة، هي المبادرة أبداً إلى إقامة مثل هذه الندوات، على اسم الثقافة، وفي سبيل تعميقها، وإعلاء شأنها، وتطويرها، والحفاظ عليها كما الحفاظ على النور في العين، والخافق في الصدر.

ولكن ما هي المعلومات، أو المعلوماتية حسب المصطلح الدقيق للكلمة؟ إنها ثقافة من الثقافة، ولأنها كذلك فإن الثقافة تنتشر، تتقدم، تنتج المعلوماتية، لتعود هذه فتنتج ذاتها ثقافة فنية، أو علمية، مستوعبة كل معطيات الثقافة إيجاباً وسلباً، في زمن الاتصالات السريعة، والرؤى السريعة، والحسابات السريعة، واختزان الذاكرات السريعة أيضاً، التي تقدم إجابات بالوتيرة نفسها، هذه التي يعجز الإنسان أن يجاريها، أو يتجنبها، أو يغفلها، أو يقف محايداً منها، ولابد له، مع التقدم العلمي الانهماري، على شكل قفزات متوالية، أن يجد نفسه في إطار شبكة المعلوماتية لا

خارجها، ولابد له، تالياً، أن يأخـذ بهـا، وأن يجـدّ للحـاق بهـا، في مجتمعات بلدان الجنوب خصوصاً، التي نحن منها، والتـي تطمـح للمجاراة، إلا أنها، بسبب الإعداد البدئي، أسروياً وتربوياً للطفل، وبساطة تلقيه للمعلومات، وكذلك عمله على الآلة، من الحاسوب إلى الانترنت، بشكل بدئي أيضاً، فإن الناشئة والشبيبة لـدينا، غـير مؤهلة بشكل كافٍ، وهنا الصعوبة، وهنا الدأب الـدؤوب لتـذليل هذه الصعوبات، وتأهيل الناشئة والشبيبة، بتطوير التعلـيم تطـويراً سريعاً، وعلى أحدث الأساليب المعمول بها في بلدان الشمال.

لنعترف. إنساننا العربي الجمعي لم يحقق تطوراً علمياً موازياً لما في الغرب، وهذه هي الإشكالية، وقد لاحظ العـالم لـويس بويـل، أننـا، حتـى في الغـرب، نعـيش زمنـاً دخـل فيـه العلـم إلى الكـون الروحي، وبدّل عقل الملاحظ نفسه، ورفعه إلى مـستوى لـيس هـو بمستوى الذكاء المتعارف عليـه، لأننـا لم نعـد ملتـصقين بـالأرض وحدها، بعد أن أخذنا نتحرك في الـزمن النجمـي، وبـات وجوبـاً علينا أن ننتقل إلى وعي الكون من حولنا، وأن نوسع أفق معلوماتنا إلى ما بعد نقطة اللانهاية، لأن هناك ثـورة معلوماتيـة تجـري تحـت أبصارنا، وتـتجلى بـالعودة إلى التـزاوج غـير المتوقـع، بـين العقـل والحدس، ويجمل بنا، بل يفترض بنـا، أن نقبـل الحقيقـة الواقعيـة، حقيقة أننا ندرك فقط جزءاً من المليون مما نعرف أنه متغيرات علمية متـسارعة، مندفعـة إلى أمـام، منطلقـة في الجهـات الأربـع لكونـنـا وحياتنا، والتي هي، في المآل، فوق حدود الرؤية الإنـسانية تقريبـاً.

«إننا نرى أسلاك الهاتف، لكننا لا نرى المكالمات التي تجري فيها، ونرى معدن الطائرة، إلا أننا لا نعرف القوة النسبية لهذا المعدن مستقبلاً».

تأسيساً على هذا التفجّر العلمي المعلوماتي، يحسن بنا التأكيد على ضرورة تطور، بل تفجر، الثقافة العربية، كحامل لهذا الكشف الاختراقي العلمي، غير المسبوق، وغير المحدود في إنجازاته الراهنة والمقبلة، ويبقى السؤال: هل يعني عصر المعلومات هذا مزيداً من التقارب الإنساني، أم مزيداً من التباعد الإنساني؟ وهل هذا العصر، في حالتيه معاً، يعني الهيمنة من قبل الأمم الأكثر تطوراً، على الأمم الأقل تطوراً؟ وهل يفرض القوي، من خلاله، سلطانه على الضعيف؟ أو الفاحش في الثراء، على المدقع الفقير؟ وهل العولمة، في هذا الإطار، تنهض على ركيزتين، أو جانبين، من جيد وسيء؟ وكيف العمل للإفادة من الجيد ومقاومة السيء، دونما تنازل، من أي نوع، عن الخصوصية التاريخية والمعرفية لأي أمة من الأمم؟ وأين موقع الثقافة العربية، والمعلومات المعرفية العربية من كل هذا؟

في حدود رأيي، ومهما كانت النتائج التي ستتوصل إليها البحوث والمناقشات، في هذه الجلسة أو سواها، يجدر بنا أن نكون على حذر لا على خوف، وعلى ثقة لا على إحباط، وانطلاقاً من هذه الثقة المتوفرة، غير المبنية على تفاؤل أرعن أو تشاؤم أحمق، يترتب علينا أن نبادر، وأن نسعى، وأن نجهد، لدفع عمليات الإبداع الثقافي، في حديه المعرفي والعلمي على السواء.

إن مصر وسورية قد كانتا، في عناق الفكر بغير قيد، عناق سيف بغير غمد، وليستا في هذا على تقصد، إنما على تساوق مع التاريخ، وانطلاقاً من هذا الواقع، برهنتا، في الماضي والحاضر، على أنهما تسلكان إلى الغاية الواحدة، المأمولة، المنشودة، المنضفرة على ظفر مرجو، سبيلاً واحداً، مقترناً، في الملمات، على عزم واحد، لا لأنهما، مصر وسورية، تتقاربان بصراً وبصيرة في رؤية الأشياء، وتتشابهان، خطى وعزماً، في التمسك بالعروة الوثقى، بل لأنهما، فوق ذلك، تنعمان بقيادة رئيسين، بينهما أخوة سلاح، وبينهما، في السعي لوحدة الصف العربي، سعي مشترك، وتفكير مشترك، أثمر قمة عربية، كانت، وتبقى، خطوة مباركة في الاتجاه الصحيح.

تحية من بردى إلى النيل، ومن قاسيون إلى المقطم، وتحية من الرئيس الأسد إلى مصر، رئيساً وشعباً، وحكومة.

كلمات مواطنة عربية

في الذكرى الخمسين لثورة ماجدة(*)

ساطع الحصري - الكاتب القومي الكبير - يروي أن القائد يوسف العظمة قال لصحبه المجتمعين به ليلة الثالث والعشرين من تموز عام ١٩٢٠، وهو يعتزم الذهاب في اليوم التالي إلى ميسلون، رغم إدراكه أنه يسري إلى مشارف الشهادة، وأنه يخوض معركة غير متكافئة، فلا سلاح ولا رجال، إلا قلة من المؤمنين بأرضهم ووطنهم، في مواجهة جيش نظامي مدجج بأحدث أسلحة تلك المرحلة، قال: «إني أعرف ما يجب علي، وسأقوم بواجبي، ولست آسفاً على نفسي، بل أسفي على الأمة التي ستظل سنوات، كثيرة أو قليلة، هدفاً لكل أنواع المحن والمصائب، وإني مع ذلك مطمئن إلى مستقبل الأمة، لما رأيته وخبرته بنفسي من قوة الحياة الكامنة فيها».

واستشهد يوسف العظمة في معركة ميسلون مع غروب اليوم التالي، مؤدياً واجبه كما أراد، وتحققت نبوءته، في مطالع القرن العشرين، بالأسف على أمته التي تستهدفها المحن والمصائب.. كما

(*) ألقيت في القاهرة في افتتاح ندوة الذكرى الخمسين لثورة يوليو عام ٢٠٠٢.

تأكد إيمانـه أو طمأنينتـه التـي ظلـت ترتـسم في حياتنـا، الرافـضة لليأس، أو التعب، أو الاستسلام، مهما اشتدت عوادي الأيام..

القرن العشرون كان قرناً دامياً بالنـسبة لأمتنـا. تعاقبـت فيـه الأحـداث جـساماً ومبهظـة، لكـن شـعوبنا صـمدت ولم يتوقـف نضالها، عاثراً في كثـير مـن الأحـوال، ومـسعفاً في بعـضها. وطـن محاصر بأشكال الاستعمار والاحتلال، وبكـل التـسميات الممكنـة، وفي القلب المقدس فلسطين، أرض نذرت للاستلاب، فدية يـدفع العرب ثمنها، وحرب عالمية أولى تجـزئ وتقـسم، وتتلوهـا حـرب ثانية تتحرر بعدها أراضٍ عربية، لنقع في قبضة عام بائس هـو عـام ١٩٤٨، أسمينا حربه الجولة الأولى دفاعاً عن هزيمة دعوناها نكبة، وتكشفت أوراق وزالت أوهـام، وواجهنـا واقعـاً لم نـدرك أبعـاده الحقيقية، وأوّلنا وفسرنا. حكام خانوا، وجبهات زيّف فيها القتال، وأسلحة فاسدة هنا وهنـاك، ووعـي قـومي لم يتكامـل، الـخ هـذا الكلام الذي قبلناه وما قبلناه، إلا أن الأمـل كـان الأقـوى، وظـل مشتعلاً، والحميّة كانت ناراً تحرق اليأس، وتولد الإيمان بإمكانـات المقبل الذي ستحقق فيه أجيالنا التحرر والتحرير، ضـمن منظومـة إنسانية تلتقي ومواثيق هيئة الأمم التي كتبت صحفات جديدة أملاً لإنسانية أرهقها عذاب الحروب، وباتـت تحلـم بالعـدل والـسلام والحرية.

وجاء تموز آخر، كان بشارة من نوع جديد، حمل معه الأحلام الوليدة التي أبت أن تتكسر، في مرحلة مدّ عربي، تحولت فيه مشاعر

الأمة العربية إلى وقدٍ وثاب مجنح، يرسم للأجيال حياة أكرم وأفضل، ومدّ إنساني انتصر لحركات لتحرر في كل مكان، وأعطاها زخماً ودعماً واستقواءً.

جاء تموز آخر، بالثورة المصرية العربية، على يد شباب نصبوا ، في الأرض العربية، منارات يتوهج على لهيبها المعبأ بالتوق والشوق، العزم والحزم والقوة، وكل إمكانات التحدي، والأمل العريض بالتحرر والتقدم من المحيط إلى الخليج، إلى الأرض التي طوقها الوجه الأشد سواداً للعدوان والاحتلال والاغتصاب، فلسطين..

كانت مهمات الثورة على أرض مصر بخاصة، وعلى الأرض العربية بعامة، مهام كبيرة، كانت مصر، على أيدي أبنائها المفادين، مدعوة إلى التحرر من الاحتلال البريطاني، وإلى بناء قواتها المسلحة، ومجابهة الأحلاف والمؤامرات، وتغيير وجه الحياة في الداخل، نهوضاً بالاقتصاد، وتنمية تقضي على البؤس والتفاوت الطبقي، وتحقق الازدهار الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وتوفر منابع الحياة الكريمة، للشعب بأكمله في ظروف صعبة.

الأعداء يتربصون بها من كل جانب، بريطانيا وأمريكا وإسرائيل.. بريطانيا تعتبر نفسها «الحليف الكبير الذي يضحي بالدم في سبيل حرية الأمم» حسب التعبير الملكي المعلن، والقناة حقها التاريخي، وأمريكا تخشى أن تتأثر مصالحها الحيوية، لا في مصر التي تحلم بها فحسب، بل في بلدان النفط والثروات، وإسرائيل تخشى هذه الثورة التي حملت معها متغيرات كبيرة،

وزعيماً عربياً فذاً وفريداً هو جمال عبد الناصر، يعرف كيف يرسم سياساته، النابعة من استراتيجية عربية مناضلة، لا تقبل الانحياز، وتؤسس للحياد الإيجابي، وترفض رفضاً قاطعاً أي لقاء مع العدو الإسرائيلي، ويكون رده على اقتراح لقاء بينه وبين بن غوريون، بهذه الكلمات التي سجلها تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، ومن قبل سجلتها الأمة العربية في القلب والضمير، «ذلك مستحيل لأن الشعب المصري لن يسمح به، ولن يسمح به الجيش المصري، ولن تسمح به شعوب الأمة العربية».

ويحلّق عبد الناصر، وثورة الثالث والعشرين من تموز هي الراية والمنارة، يحلّق كنسر يرتفع فوق قنن الجبال، وينحط على منطق الإقليمية فيهمشه، وتنطلق من أرض الكنانة الدعوة إلى وحدة العرب، على اسم قومية عربية صنعها التاريخ والحضارة والانتماء، ويعلن أن المعركة في كل مكان من أرض العروبة واحدة، ولا موقف بين بين، وأن المواطن العربي مدعو إلى أن يرفع رأسه، ويحمي حقيقته، وتكون الذروة المدوية في تأميم القناة التي هزت تاريخاً من النكسات والهزائم، وحمل عبد الناصر بهذا التأميم مصر والعرب إلى مجد لا يمكن أن يكسف، لأنه صار حياً في أعمق أعماق القلوب والضمائر، وهز موازين القوى لصالح حركات التحرر، بجهارة في الأداء، استعلن معها العمل السياسي، ولم يبقَ شيء في الظل..

وتشابكت المؤامرات من كل جانب، وتضافرت قوى العدوان على الثورة الوليدة التي باتوا يخشونها، بدءاً من حرب

السويس إلى السقوط الحزين، لأول وحدة بين سورية ومصر. وامتد الصراع إلى الأرض العربية كلها واشتد، وإن ظل صوت الثورة مدوياً من الخليج إلى المحيط، يوقظ ويضيء وينذر ويحذر ويدعو ويلهم، وشعاره الله أكبر فوق كيد المعتدي، إلى أن كانت نكسة عام ١٩٦٧ التي حاول أعداء الثورة أن يجعلوا منها حربة، يطعنون بها مصر الثورة وعبد الناصر.

إن حقائق التاريخ تؤكد، بمعطيات الواقع، أن مصر ومعها سورية لم تخوضا، ومنذ البدايات، حرباً ضد إسرائيل، بل كانت أمريكا هي التي تخوض الحرب ضدنا، إلى جانب إسرائيل، بمالها وسلاحها وعتادها كله، وجسورها الجوية وخبراتها، تماماً كما فعلت من بعدُ، في حرب عام ١٩٧٣ التي سبقتها حرب الاستنزاف. وأخذ الموقف الأمريكي الذي كان مستتراً من قبل، بادعاءات إنسانية، يستعلن يوماً بعد يوم، ويستقطب بعض المحاور، ويدخل في الحياة السياسية للمنطقة العربية بقوة، وحديث ذلك يطول، وينأى بنا عن حديث الثورة، في عيدها الخمسين.

غير أن الأمانة التاريخية تدعوني أن أسجل للثورة، ولزعيمها عبد الناصر، أنه كان قادراً على تحويل النكسة في حزيران إلى نصر سياسي، وأن يكشف للعالم كله أبعاد اللعبة الإسرائيلية الأمريكية، ويجعل معظم دول العالم، بدعم كبير كبير من الاتحاد السوفييتي آنذاك، تعزل إسرائيل وتقاطعها ديبلوماسياً -افريقيا بكاملها تقريباً، وآسيا، ودول المنظومة الاشتراكية، ودول أوروبية أخرى،

وأن تستقوي المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، تلك التي بدأت بالتلاشي، في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، حتى بتنا نشاهد حكاماً عرباً، ودولاً عربية، تبيح لنفسها أن تمد اليد للقتلة الإسرائيليين، تصافح أيديهم الملطخة بدمائنا، وتفتتح المكاتب الخاصة بهم، دون أن تستشعر غضاضة، من التقارب مع محتلي أرضنا، وقتلة أبنائنا.

الآن وبعد مضي خمسين عاماً على الثورة الرائدة، امتلأت بأحداث جسام، هزت الدنيا من حولنا، واعتصرتنا في قلب المتغيرات الدولية، لا تأتي ذكرياتنا عن أيام مجيدة قريبة، من تاريخنا المعاصر، رومنسية كما يحاول البعض أن يدّعي متهماً، وخصوصاً أولئك الذين حاولوا أن يقتلعوا جذور الثورة وزعيمها عبد الناصر، ويقضوا على أفكاره، بل على نهج في التفكير الثوري، وليست كذلك طفولة سياسية أو مراهقة، فعلى اسم العقلانية والديبلوماسية والفكر السياسي الناضج، وضرورة المناورة والمداورة، والارتفاع إلى مستوى الدول التي تسلبنا حقوقنا وإرادتنا وكرامتنا، تتابع التنازلات والصدمات والانهيارات، ونجدنا في الممر المظلم، المردوم بشتى أنواع القهر، وها نحن الآن نراقب، بأسىً، أولئك الذين ينكسون الرايات، ونسمع الذين يعلنون بأنهم لن يشاركوا في أي نضال تحريري، يقوم به العرب، لتحرير أراضيهم واسترداد حقوقهم..

ويختال شارون، تيهاً، مدعوماً بصكوك البراءة الأمريكية، الداعمة لإجرامه وجرائمه.

أيها السادة

إننا نأسى على أنفسنا، لكننا لا نخشى على المفادين الذين يملكون شجاعة الروح الصدامية التي لا تقهر، والعزم الذي لا يلين، والتصميم على الاحتفاظ بالأرض، رغم بطش الصهيونية الباغية، وحليفتها أمريكا، ورغم ممارسات الإرهاب التي يهتز لها الضمير.

ونحزن، نحزن لأنهم -المفادين هؤلاء- وهم يعرضون صدورهم لرصاص المحتل، وجسومهم لعذاباته، وبيوتهم لجرافاته، يلامحون وطنهم العربي الكبير، بانتظار تصاعد المد الكفاحي فيه، لا بانتظار الصمت المزري، والمسيرة الكسيرة، التي يسلكها البعض، على طريق الاستسلام المتقبل للاتجاه السياسي التصفوي.

تُرى لو كان لثورة الثالث والعشرين من يوليو أن تتكلم، ماذا كانت ستقول؟

أليس عاراً علينا، نحن العرب، أن نغدو رهائن «الرؤية» القاتلة لرئيس أمريكي، يصطنع الذرائع بعد الذرائع، ويختلق التسميات بعد التسميات، ويلقي دروسه على شعوب العالم وعلينا، ويبتدع مصطلحاته في انحياز لإسرائيل، تخطى كل القيم والمفاهيم الإنسانية، ويقول لنا في جملة ما يقول: أوقفوا تمويل الإرهاب -أي أبقوا الفلسطينيين جياعاً وعراة في الأرض المحتلة- واختاروا بين السلام والإرهاب، ويطالب حكامنا أن يشجبوا الشهادة، وأن

يصرحوا بأن المفادي ليس شهيداً، ذلك أن الشهيد عنده هو الإسرائيلي المعتدي، والقاتل هو الفلسطيني الذي يدافع عن أرضه وحقوقه.

لقد انتهى القرن العشرون في ظل العولمة الأمريكية، والسياسة الأمريكية، وغياب التوازن الذي كان بوجود الاتحاد السوفييتي، إلى نقض شبه كامل للمواثيق الدولية ذات المنحى الإنساني، وإلى تمزقات عرقية وعنصرية وطائفية، وإيديولوجيات تناقض كل مفهوم كانوا يدعونه للديمقراطية والعدالة وحريات الشعوب، واحترام الأساسيات في القوانين الدولية.

وفي ظل هذه العولمة انتهى القرن العشرون، فلسطينياً، إلى صورة أشد بؤساً، أرادتها أمريكا حين استقوت بتفردها في العالم، وبفرض هيمنتها على دوله، بشكل أو بآخر.

فإلى أمد قريب كانت إسرائيل تدان في مجلس الأمن على ما ترتكبه، والحديث دولياً وإعلامياً يدور حول العنف الإسرائيلي، والمقاومة الفلسطينية المشروعة، والاعتداءات المتواصلة على كل الحقوق الفلسطينية..

ثم أخذت الأمور تسير في منحىً مختلف، تحت الضغط الأمريكي المتبني للعدوان..

وهكذا بدؤوا في المحافل الدولية، في هيئة الأمم، ومجلس الأمن، بإيقاف الإدانات لإسرائيل، ورفع بعضها، وفي جملتها سمة العنصرية التي هي فعلاً سمتها الأساس، بقرار دولي إجماعي،

متناسين سلاسل المجازر التي تتالت، وتتالى حتى اللحظة الراهنة، ثم بالموازاة المضحكة المبكية بين العنف الفلسطيني، والعنف الإسرائيلي، وانتهينا الآن إلى تهمة مطلقة للمقاومين بالإرهاب، ودفاع مطلق عن شارون وأعوانه، وكل أرباب الإجرام اللاإنساني، وألوان البطش والجور والتدمير،

الصورة بائسة جداً، وعلينا ألّا نخدع أنفسنا، وألّا نتقبل - خوفاً أو انصياعاً - مزاعم أمريكا ودعاواها، وهي تمارس إرهابها وعتوها علينا، وأن ندرك جيداً أنها تتبنى إسرائيل تبنياً كاملاً، وأن مفهومها للإرهاب مختلف عن مفهومنا، والحقيقة الحقيقة هي أن أعداءنا هم صانعو الإرهاب على أرضنا، وممارسوه، ومسببوه، وأنهم هم الذين يعتدون على قيمنا وإسلامنا، وقناعاتنا وحقوقنا وأرضنا وتاريخنا، وعلينا نحن أن نعلن رأينا وموقفنا بجهارة الصوت، وألا نخاف بطشهم، فالسلام الذي نريد يختلف عن حمأة الخضوع والاستخذاء التي يريدون إلقاءنا فيها، وعلى ضمير العالم أن يستيقظ..

ويا بطلنا الشهيد يوسف العظمة

نبوءتك بجانبيها قد صحت، وما خبرته من قوة الحياة الكامنة فيها يستيقظ ويستعلن ويتحدى.

ويا ثورة الثالث والعشرين من يوليو

إن إرادة المقاومة تزداد تجذراً في أرضنا، وافكارك المناضلة تورق وتزهر في نفوس أبنائنا، والرفض للخط الانهزامي يستعلي،

ولن يسلم العرب مقاليد أمورهم لأمريكا، ولن يمنح أحد الشرعية لمغالطاتها.

ويا عبد الناصر

كلماتك ولاءاتك تدوّي في السمع وفي النفس، تعلّم الأجيال معنى رفض الخنوع، والانتصار على الخوف، وتحدي المستكبرين المزهوين بعتوهم، وأخذ المصير باليدين.

ويا مصر

يا مصر الغالية كنور العيون،

عيد ثورتك المعطر بالكبرياء، والصمود، ونبالة النضال، وتقديس التضحيات، هو عيد العروبة وأبنائها، في كل بقعة يعيشون فيها، على هذا الكوكب..

وهو عيدنا في سورية، سورية الكفاح والإباء والثورات المتلاحقة، منذ الثورة السورية الكبرى، ضد الاحتلال، إلى ثورة الثامن من آذار إلى ثورة التصحيح، سورية المواقف المشهودة الصامدة لشعبها ورئيسها الكبير الراحل حافظ الأسد، ورئيسها الجريء المفادي الرافض للاستلام والمساومة، والحلول المجحفة، بشار الأسد، سورية هذه، بثوريتها المبدئية، إلى جانب قيم ثورة يوليو، كانت وما تزال، ولن تسقط راية الصمود، حتى تنتصر قضايانا، وتتحرر أرضنا..

أيها السادة

الذكريات، في الكفاح المشترك، غوال، والوفاء لها حق لمصر على العرب، وللعرب على مصر، والعهد والوعد، في الذكرى الخمسين للثورة، أن ننتصر على مآسينا، وأن نتابع نضالنا، ونتجاوز أحزاننا، ونعتصر الأمل، حتى من قلب جراحنا، ولا ندع لليأس سبيلاً إلى نفوسنا، ونعمل كي يبقى شمل العرب جميعاً، وتضامنهم فعالاً حقيقياً، العهد والوعد ألا نتراجع حتى يعلو الحق، وقريباً، يا ثورة يوليو، أو بعيداً يعلو الحق، وفي ذمة تاريخ الأمجاد يبقى عبد الناصر، وثورة يوليو، بعد رؤية، وعمق فكر، ونبالة تضحيات وسموق بطولات، على درب الكفاح.

عبق تراب الجولان
المعطر بدم الشهداء(*)

أيها الإخوة والأخوات

على اسم الجولان الغالي، أصدرت محافظة القنيطرة أسبوعيتها التي نحتفي بها اليوم، آملين لها أن ترسم بالكلمة الحرة، دربها النضالي المعرفي، بما يليق بقيم النضال، وشيم الصمود، وأن تنفتح على أقلام المفكرين والكتّاب والإعلاميين الذين يحملون إلى القارئ عبق تراب الجولان، المعطر بدم الشهداء من أبنائنا الأبرار، وصور مدنها وأريافها وتلالها وشلالاتها وآثارها، من بانياس إلى الحمة، إلى العال إلى مسعدة إلى العليقة إلى تل الندى إلى كفر حارب إلى واسط إلى القلع إلى الخشنية إلى فيق، إلى كل هذه الأماكن الملتصقة بالضمير، والتي يجرُّ اللص، اليوم، فوقها مزهو الذيول، قولة شاعرنا سليمان العيسى، مستهيناً بشرائع الحق والتاريخ، محمياً بقوى ليس للعدالة والإنصاف موقع في مسيرتها.

(*) أُلقيت في احتفال بمناسبة إصدار مجلة الجولان. دمشق،١٢ /١٢ /٢٠٠٦.

نأمل أيضاً أن يكون، في مساحات صفحاتها، موقع متميز، للفكر السياسي المنير والمستنير، وللتحليل الذي يساعد على إغناء المعرفة، وتفتيح الوعي، ضمن إرادة المقاومة، ورفض الاستسلام، وعلى تكوين جبهة للعمل المجدي الذي ترتسم فيه ملامح المستقبل الأفضل.

إن مهمة أسبوعية الجولان ستكون، دون شك، صعبة، لأنه مطلوب منها أن تكون تعريفية، استشرافية، نضالية، بعيدة عن السقوط على أعتاب الكليشيهات المستعادة، مطلوب منها أيضاً أن يكون بمقدورها أن تجسد في ذاكرتنا الجمعية، مرحلة هي من أشق المراحل في تاريخنا، وأكثرها كفاحية، في الوقت ذاته، في ارتباطها بمصير الأمة، من محيطها إلى الخليج.

* * *

ثمة مواقف لسورية ينبغي ألا يغيبها النسيان، ليكون مفهوماً للمتجاهلين، أو المتغافلين، الذين يتهموننا بالتخلي عن النضال من أجل استعادة الجولان، كيف أدارت سورية معاركها، في الحرب والسلم، وحقيقة توجهاتها التي جسدتها، ذات يوم، مقولة للرئيس الكبير الراحل، أعلنها متحدياً كل ما استجد، آنذاك، من انعطافات، قال: "نحن لنا انتماء واحد، هو انتماؤنا العربي، والصراع مع العدو، وكل ما يتفرع عن هذا الصراع، هو قومي عربي، ليس سورياً، ولا مصرياً، ولا أردنياً ولا فلسطينياً، ولا شيء آخر. هو عربي وحسب."

وأنتم أيها السادة، تعرفون جميعاً أن سورية التي كانت ومازالت، النقطة المركزية في قضية الشرق الأوسط كله، قد رفضت، على مدار زمن طويل، الحلول الجزئية الانفرادية، في كل تسوية طرحت لأزمة الشرق الأوسط، وأصرت على حل الصراع حلاً شاملاً كاملاً.. ولم تقبل بما عُرض عليها، منذ كامب ديفيد، من إعادة كاملة للجولان، لا تعترف باسترداد الحقوق على الجبهات الأخرى، ولم تساوم.

ومن المؤسف أن ينسى كثيرون مواقف سورية، المبدئية النضالية الفريدة، فلا يذكروا لها أنها احتضنت القضية الفلسطينية، منذ البدايات، واعتبرتها جوهر القضية العربية، ومحورها الأساس..

وأنها قد أدركت، والظلمات بدأت تطبق، والمساومات تتنامى، أن استراتيجية العدو، إنما تقوم على تمزيق جبهاتنا، وتشتيت صفوفنا، وتفتيت قضيتنا، وكان ردها الدائم أنه«لن تجري مباحثات إلا حول الجبهة السورية والفلسطينية معاً، وإذا كان هناك توجه إلى محادثات أو تفاوض، حول عمل جديد، في الجبهة السورية، فيجب أن يترافق مع عمل جديد مماثل أيضاً على الجبهة الفلسطينية».

ولا سبيل إلى القبول بأي حل آخر، غير الانسحاب الكامل من جميع الأراضي التي احتلتها إسرائيل، بعد عدوان حزيران، الجولان وفلسطين، وإعادة الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني..

إن خروج قطر من المعركة، على الأهمية البالغة لذلك، لا يمكن أن ينال من إيمان أمتنا بعدالة قضيتنا، ومن قدرتنا على مواصلة الكفاح.

كان في سورية قناعة، كاليقين، بأنها هي المؤهلة لأن تقود معركة التحرير إلى أن تستعاد الأرض والحقوق.

وأنها بماضيها وحاضرها، وبمبدئيتها وصلابتها وثباتها، وقدرتها على الحركة والفعل، القادرة على مجابهة الصهيونية وحلفائها، والقادرة أيضاً على خوض المعركة، سلماً وحرباً ضدها، حتى تحقيق النصر.

وجدَّت بعد ذلك، أمور كثيرة، تحتاج إلى كثير من الدرس والتوضيح، بالمنطق، لا بالمهاترات.

لكننا، في سورية، مازلنا نؤمن بأننا في الموقع الذي حدده نضال الأمم، ورسمه كفاح الشعوب، وفي الحد الفاصل بين الشرف والعار، وفي جبهة المقاومة التي هي أمانة العروبة في أعناقنا، أقسمنا لها أن نكون في الأوفياء، إلى أن تتحقق أهدافنا، جميع أهدافنا، بغير تطفيف ولا نقصان..

ولا نخلط بين الأمور، فنحن أيضاً مع العمل السياسي ولكن دون تفريط بالحق، ودون ميوعة في الموقف، ودون استسلام للضغوط، ودون انحناء للأعداء، ودون قبول بأنصاف الحلول وأجزائها.

ونحن مع التضامن العربي، وسنبقى، وسنعمل على ألا يفـرغ من محتواه، وأن يظل تضامناً نضالياً، لا يسمح بأي تخاذل، ويمتنـع على أية مواقف تراجعية.

ومع القوى الوطنية المقاومة، في لبنان وفلسطين والعراق التي لا تصنع بطولات فحسب، ولكنها تصنع تاريخاً أيضاً.

أسبوعية الجولان، ستنطلق دون شـك، مـن وثـوق بالقـضية التي صدرت من أجلهـا، ووثـوق بـالوطن الـذي نماهـا، ووثـوق بالقائـد البـشار الـذي يمتلـك الكفـاءة والـشجاعة وقـوة المـراس ومصداقية الثبات على المبادئ، ويعطي للصمود مدلوله عـلى أرض الواقع، ويسير بنا في الطريق المستقيم لإكـمال المـسيرة، عـلى طريـق التحرير والنهوض وحماية الأرض والحق.

مبارك صدور هذه الأسبوعية، وشكر للسيد محافظ القنيطرة، وكل العاملين عليها، وأمل في أن يكون للأقلام المبدعـة دور فيهـا، هو بحجم ما نحمله لهذه البقعة الرائعة من أرضنا - الجولان، مـن محبة تضعه في الشغاف من القلب، وتغليه كنور العيون.

لماذا لا تجتمع أمتنا
على مشروع علمي قومي كبير؟(*)

السادة العلماء

باعتزاز كبير، وسعادة مؤطرة بالأمل المشترك، ينعقد مؤتمركم هذا في سورية، البلد الذي إلى العروبة منتماه، وفي الوطن العربي أواصره، وفي العالم كله أمداؤه، أرضاً، وكفاحاً، وتطلعاً إلى مستقبل يغدو فيه التعاون شاملاً لكافة وجوه النشاط الثقافي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، قادراً على الارتفاع بالطاقة الإنتاجية إلى مستوى أعلى فأعلى، لأن قدرنا في أي بلد عربي، هو نفسه قدر الوطن العربي، ذي الرحابة الرحبة في المدى، والعطاء المخصب في المواهب والموارد.

أحييكم، أيها الإخوة، باسم السيد الرئيس بشار الأسد الذي تفضل فأسبغ، على هذا المؤتمر، رعاية مشكورة، فيها العرفان بمكانة الثقافة، وما تشعه من ألق، وتحدثه من أثر، في بناء الإنسان

(*) كلمة افتتاح مؤتمر آفاق البحث العلمي والتطوير التكنولوجي في الوطن العربي، نيابة عن السيد الرئيس راعي المؤتمر. دمشق، ١١ -١٤ /١٢ /٢٠٠٦.

والوطن، وفيها الإيمان بضرورة العمل الجاد، في السعي لإنتاج المعرفة ونشرها، وتوفير متطلباتها، مادام الفكر العلمي، تنويرياً، نهضوياً، معرفياً، هو الفاعل التغييري الارتقائي، أو هو الممهد الأساس في التغيير، والتطوير، والتحديث، لأنه يبني الأرضية السليمة، لكل سموق مقبل، نكافح، من أجله، كفاحاً دؤوباً، في السعي لتحقيق الأماني القومية النهضوية، الاقتصادية والتنموية والسياسية.

أيها السادة

إن أجمل ما يؤثر عن تاريخنا، أنه في عراقته الحضارية، قد مدَّ سلكه السحري بين دمشق وغرناطة، ومن ثم إلى أوروبا، وانبسط في فضاءات الأرض، وأننا كنا في مسيرتنا الطويلة البعيدة المتحدية، رسلاً للوعد البكر، المسوّر بألق النبوة، وللإشعاع المسرج بزيت إبداع، ملأ الدنيا وأفاض، واننا، في عطاءات العقول الملهمة، أعرنا العالم الآتي قبساً فقبساً، في الطب والفلك والجبر والهندسة والفلسفة وعلم الكلام والشريعة والفقه والقانون، ومن بعدنا، وبإسهامنا، شعّت العلوم، وشقت لمنظومتنا المعرفية، طريقاً إلى المجرة.

ألم يكن من المدهش أن نقرأ، وبأقلام باحثين غربيين، ومؤرخين مشهود لهم، أن فردريك الثاني، أسس، في عام ١٢٢٤، جامعة في نابولي، وجعلها - والنص بحرفه -«مدرسة لجلب العلم العربي إلى العالم الغربي» وفي هذه الجامعة، وضعت ترجمات هامة

مـن العربيـة إلى اللاتينيـة، في مجـال العلـوم والفلـسفة والفلـك والطبيعيات، وفيها تلقـى القـديس الفيلـسوف، تومـا الإكـويني، تعليمه.

وأن جامعة مونبلييه التي كانت مركزاً للدراسات الطبية، قد أسسها الأطباء العرب، وكانت منذ بداية القرن الرابع عشر، تُدرِّس كتب العرب في الطب.

ألم يكن من الجميل أن يؤكد من عُرفوا بالموسوعيين الغـربيين تأكيداً لا لبس فيـه،«أن الغـرب مـدين إلى الأبـد، للعـرب الـذين شجعوا علوم الفلك والطب والجراحة والحساب والجبر، وأطلعوا مؤرخين وشعراء مهمين»*.

وأن يعـترف، وبـلا تحفـظ، فيلـسوف مهـم، وأحـد أغـزر الموسوعيين إنتاجاً، دوجوكور، الذي عاش في القرن الثـامن عـشر إلى مشارفه، أن يعترف«بأن تدفق العلـم العـربي إلى أوروبـا، كـان أعظم ثـورة في العلـم، حـدثت في ذلـك الـزمن، ثـورة في النظريـة والممارسة على السواء».

أيها السـادة

إن الذي يـدرس، عـن كثـب، تراثنـا، سـيلاحظ أن المفـاهيم والمقولات والمناهج الأساسية للعلم الحديث قد صـيغت، أول مـا صيغت، على أيدي علمائنا، حين كان مسار العلـم مـن الجنـوب إلى

(*) ص من الموسوعة الفرنسية للإسلام.

الشمال، وأنه لا يجوز لنـا، أبـداً، أن ننطلـق، في الـراهن، مـن عقـد نقص، أو مشاعر إحباط، تدفعنا إلى الحـديث عـن العقـل العـربي، اتهاماً أو نقـداً أو ضرورة تـرميم، وأن ننكـر عـلى أنفـسنا الإشـادة بالماضي، خوفاً من الانكفاء عليه، أو الغـرق فيـه، أو أن تـستهلكنا مخاوف التخلف أو التفاوت القائم اليوم، بين شمال وجنوب.

بل إن علينا أن نقرع أبواب العـصر بثقـة وقـوة، وأن نخطـو، بثبات، في كل الميادين، مؤمنين بأننا، حين تستقيم دروبنـا، وتـصحّ اختياراتنا، ويسلم نهجنا ومنطقنا، قادرون، في مسيرتنا، على تحقيـق التقدم الذي نحن به جديرون.

وفي هذا الزمن الذي«لم يعد فيه الإنسان ملتصقاً بالأرض، بل صار يتحرك في الزمن النجمي» كما يقول العالم الفيلسوف بويل، في هذا الزمن الذي تحرك كل ما فيه حتى الحجـر، قولـة شـوقي وهـو يطالب أبا الهول بالتحرك، نجدنا مدعويّن إلى توسيع أفقنـا، إلى مـا بعد نقطة اللانهاية، ساعين إلى تنمية التوجه العلمي لـدى أجيالنـا، كي يدأبوا في البحث، ويتابعوا مسيرتهم في مواكب العلم، متطلعين إلى الآتي، الذي سيفتح لهم مغاليق المجهول.

لم يأخذنا في يوم من الأيـام وهـم، ولم يحـل بيننـا وبـين إدراك الواقع المتخلف الذي عشناه، ونسعى إلى تغييره.

بدأنا بالتعليم، ولم نكتفِ بتوفير فرصه، إلزامياً، ولأبناء الوطن جميعاً، وعلى كل مستوياته، بل كان السعي الدؤوب، فـيما بعـد، إلى دخول العصر من بابه الواسع، تعزيزاً للبحث العلمـي، مـع إيجـاد

نوع من التساند بين التعليم - العالي منه، بشكل خاص، وأوساط العمل، وشروعاً بتلبية الحاجة إلى دراسة العلوم والتقنيات المستجدة.

وشرع الاهتمام بقضايا التنمية يأخذ أبعاده يوماً بعد يوم، فالنهضة بالحياة لا يمكن أن تكون، إذا لم نقدم على مشاريع جريئة، تؤسس لبُنى علمية سليمة، لا يبنيها غير الفكر المتقدم والمتوهج، الذي يخترق بنا جبهات كانت بعيدة، أو في مواقع المستحيل، ويؤجج فينا الشغف بالبحث الحر والمحرر الذي يجاوز بنا النمطية والتقليد، وأنماط إنتاج محدود، لا تتحقق معه أي تنمية، وبالتالي أي تقدم.

ومن الإنصاف أن أشهد أن الرئيس الكبير الراحل، كان أول من أدرك، بمنطقه القوي، وبصيرته النفاذة، وفهمه العميق للأمور، دور العلم المميز في عملية التنمية، وفي تحرير الإرادة السياسية، بتحقيق الاستقلال الاقتصادي الذي به يرتبط، ضرورة، الاستقلال السياسي، ووجّه بإيلاء البحث العلمي عناية فائقة، والاستقواء بإرادة المعرفة، كي يكون بمقدورنا أن نأخذ قضايانا بأيدينا، ونتحكم بمصائرنا.

وفي مطالع قرننا هذا، تجاوزنا الخطى الخجلى التي كنا فيها نتلمس الطريق، وتحددت استراتيجية هادفة، ذات أبعاد تطويرية تنموية، في منظورها أن العلم هو البعد الأساس في التنمية الشاملة، وله الدور الهام في المشروع القومي النهضوي، وهو ليس رافداً

للعملية الاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل هو في الصميم من نسيجها، لأنه صيغة التقدم التي بها تُبنى الأوطان.

لم يأخذنا، في يوم من الأيام، وهمٌ، ونحن ندرك تماماً أن الدرب طويل، وأن عملية التخطيط لأولويات وطنية قابلة للتنفيذ، ضمن ظروف كل بلد، يستدعي توفير الشروط الملائمة لنمو البحث العلمي، وإنشاء مراكز قادرة على التخطيط الجذري، المرتبط بالأهداف المستقبلية للأمة، وعلى إعداد البحوث المطلوبة، من أجل إيجاد حلول ملموسة لمشكلات التنمية وعوائقها، وعلى التحول إلى إنتاج التكنولوجيا بدلاً من استهلاكها، وإنشاء قواعد المعلومات وتطويرها، بما يسمح بتجاوز التخطيط النظري، إلى واقعية التحقيق، ويربط التنمية بحاجات المجتمع، كما يستدعي توفير التمويل الضروري، مهما رتب من أعباء مبهظة، على دولنا النامية.

وكي يظل الوجه الإنساني للحياة الأسمى والأبهى والأندى، يكون علينا، وبوعي كوني، أن نُعنى بمراكز الأبحاث المكرسة للعلوم الإنسانية، إنشاء وإغناء، عنايتنا بالمراكز العلمية الأخرى، كي «نبنيمن جديد، جبهة للعقل» كما يقول أحد كبار المؤرخين المعاصرين، إريك هوبسبوم، وكي نوائم بين العلوم والتقنيات وبين القيم الإنسانية، فالمفارقة التي أدت إلى هذا السقوط الحضاري، والانهيار الإنساني، تكمن، في رأي مفكرين كثر، في ان العلم تقدم كثيراً، وبشكل متسارع، وغير معقول بتسارعه، في حين أن الدراسات الإنسانية لم تستطع أن تحقق تطوراً موازياً، لا في الفلسفة، أو في علم الاجتماع، أو الدراسات الأخرى.

وإذا كان الإنماء المعرفي قد قاد إلى ثورة التقانة والمعلوماتية التي نعيشها اليوم، فقد صار لزاماً علينا أن نستخدم، في بلداننا، كل هذه المعطيات، وأن نسعى إلى توفير هذه التقنيات الحديثة، لكل المؤسسات التعليمية والاقتصادية، كي ترتبط بمراكز وشبكات المعلومات.

وهذا كله أيضاً يضعنا أمام مشكلة التمويل، وإن كان لا يحول دون توفير كل ما هو ضروري لتحقيق البرامج الوطنية.

وهنا أود أن ألفت إلى ظاهرة خطيرة، أخذت تتنامى في بلداننا من مشرقها إلى مغربها، هي قيام مراكز بحث، بتمويل أجنبي مشبوه، واجهتها العلم والبحث والتعاون، وهدفها الحقيقي مختلف تماماً، وهي مرفوضة في المنظور الوطني والقومي، ولا يعني هذا أننا نرفض التعاون المدروس، أو نريد الانغلاق، لكنه يعني أننا ندرك التحدي الحقيقي الذي يواجهنا، ولا نقبل، بحال من الأحوال، هيمنة المؤسسات الأجنبية، أو التبعية للقوى الأكثر تقدماً، ونربأ بعلمائنا وكتابنا والباحثين، أن يقعوا فريسة إغراء من أي نوع.

أيها السادة

يقول قائلون: إن مشاريع الإنماء العربية بقيت مشاريع أجنبية، مئة بالمئة، وإن معظم المشاريع في بلداننا تقوم بها شركات أجنبية، بوصفها مشاريع جاهزة - المفتاح باليد - .

ويتهم مفكر معاصر حضارة العرب بأنها، في هذه الأيام، صارت حضارة مسبقة الصنع، يقول : صار العرب مستهلكي

حضارة بما يملكون من أموال، مستهلكي تقنيات لا حصر لها، ولا يتمتع ببعضها منتجوها، وهم بحاجة إلى من يمكّنهم من استخدامها، أو إصلاح ما يفسد منها.

وأتساءل وأنا أقرأ، بأسىً، مثل هذه التعليقات، لماذا ونحن أمة واحدة، ذات ثقافة واحدة موحدة، لا نجتمع على مشروع علمي قومي كبير، يكون له فروع في بلداننا، يجمع مواهب علمائنا وباحثينا ومبدعينا، وهم بحمد الله كُثر، ويقدم من المال المشترك، ما يوفر، حين يجتمع، حاجات البحث المحقق لأهدافنا، في التقدم العلمي والتنموي، الاقتصادي والاجتماعي والثقافي..؟

وأتذكر لأذكِّر، بالمشروع الذي عرضته اليونيسكو في مؤتمرها الذي عقد عام ١٩٧٤ على الوفود العربية، حين اقترحت إنشاء مؤسسة عربية للبحث العلمي، وقدرت أكلافها بثلاثمئة مليون دولار، وتعهدت بالإسهام بثلثي النفقات.

كان المدير العام، آنذاك، هو السيد ماهو المعروف بصداقته للعرب، وكانت الأمور كلها مختلفة.

طلبت الوفود العربية تأجيل البحث بذريعة الرغبة في دراسة ورقة العمل..

وفي المؤتمر التالي عام ١٩٧٦ وكان الرئيس الجديد لليونيسكو، السيد مختار امبو، صديقاً للعرب أيضاً، طلبت دولتان عربيتان تأجيل البحث للموضوع، مرة ثانية، من أجل التشاور حوله.. ثم توارى المشروع..

تُرى هل نستطيع أن نفكر، من جديد، وعلى ضوء كل ما استجد في حياتنا، بخطى مشتركة أوسع، توحّد بيننا، في مشروع قومي كبير، يستنهض أمتنا، بجهود علمائنا، ويضعنا ثانية في جبهة الشمس؟

إننا لا نحلم بأن تكون لنا الطاقة التي يمتلكها العالم المتقدم، وفي الطليعة منه الولايات المتحدة، التي يشكل ما تنفقه ثلث الإنفاق العالمي، لكننا نستطيع، بإمكاناتنا العربية منفردة ومجتمعة أن نحقق ما قد يفوق تصورنا، ذاكرين أن«المستقبل كامن في الحاضر» وأن«الغد يبدأ اليوم».

أيها السادة

إني لأشكر جهود المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا التي أغلت التوجه العربي، عنواناً لنشاطاتها التي تنطلق من الشارقة، وأقدر إسهامها في تنظيم المؤتمر..

كما أشكر وزارة التعليم العالي على كل الجهود التي بذلتها، هي والجهات البحثية التابعة لها أو المستقلة عنها من أجل تنظيم هذا المؤتمر - مركز الدراسات والبحوث العلمية - هيئة الطاقة الذرية - الهيئة العليا للبحث العلمي - الهيئة العامة للبحوث الزراعية – الجمعية العلمية السورية للمعلوماتية.

وأزيد في الشكر للعلماء والباحثين الأفاضل، وأقدر تقديراً كبيراً دورهم المتميز، في مسألة بالغة الأهمية، كبيرة الأثر، شديدة الخطر، في حياة المجتمعات الراهنة.

وأُحيي باسمكم، وباسمي، ومن القلب، السيد الرئيس بشار الأسد الذي يريد لأمتـه، وبكـل مـا يمتلكـه مـن نـصاعة الفكـر، ووضوح الرؤى، أن تتساوق النهضة الشاملة فيها، سياسياً وثقافيـاً واقتصادياً واجتماعياً، لتظل على ثبـات في مواقفهـا المبدئيـة، حـول قضايانا العادلة، وحقوقنا المستهدفة، تستقوي بقـدرات أبنائهـا، في الإنماء المعرفي، ولا تخضع للضغوط، أو يخيفها التهديـد، في سـعيها الدائب، كي تستعيد دورها، ومجدها، وتصون حقوقهـا ووجودهـا معاً.

من حق لغتنا علينا
أن نرفع عنها الضيم
ونعيد إليها زهوها وبهاءها(*)

العلماء الأجلاء

أيها الإخوة في العروبة، والأشقاء في المواجهة، والشركاء في الوجود والمصير، والزملاء في الحرف الذي منه كانت الكلمة، فكانت الثقافة، وكانت الحضارة، وكان هذا الهم الجميل، هم المعرفة الذي نحمله في أنفسنا وسرائرنا، وننهض به في مؤتمراتنا ودراساتنا، ولقاءات أمتنا.

يسعدني أن أرحب بكم باسم السيد الرئيس بشار الأسد الذي تفضل فرعى مشكوراً مؤتمركم هذا، عرفاناً منه بمكانة الثقافة وأهمية الفكر، وحرصاً على الوفاء لرسالة الحضارة، إذ هي إرث بين أصالة وحداثة، وبين لسان كان بياناً، وعلم كان رهاناً، ومعرفة نحن الذين حملنا مشاعلها، في ظلمة العصور الأولى.

(*) ألقيت هذه الكلمة نيابة عن السيد الرئيس بشار الأسد راعي مؤتمر مجمع اللغة العربية الخامس "اللغة العربية في عصر المعلوماتية". دمشق، ٢٠ -٢٢ تشرين الثاني ٢٠٠٦.

ولم نغـفل على مدار الأيام، ومنذ مطالع النهضة بالتخصيص، عن الإيمان بدور الثقافة بما هي فكر وإبداع، وما تمنحه مـن رؤى في مدارات حياتنا، تسهم في خلق الوعي المـسئول، وتـسمح بتجـاوز التخلف في كل مـستوياته، والارتقـاء بنـا إلى فهـم أعمـق لحقـائق الوجـود، وقـدرة أكـبر عـلى التفـسير والتحليـل، ليكـون التفـتح التنـويري سـبيلنا إلى التغيـير، بحجمـه الفعـلي، وتـأثيره التـاريخي المرتجى.

لم نغـفل عن أهمية الثقافة ودورها، في كليتهـا وشـموليتها، في بناء الإنسان، والارتقاء بالوطن، وصناعة التقـدم، ورسـم حـدود المستقبل، المنفتـح على الممكن، وعن ضرورة إعطائها كفاء مـا هـي عليه، وما هي جديرة به، في عصر الثورة التكنولوجيـة، وفتوحاتهـا الإلكترونية، ولقد تقدمت، ومنذ الخمسينات من القرن العـشرين، وفي الجهات الأربع من كوكبنا الأرضي، لتحتـل موقـع الـصدارة، وأصبحنا نحتاجها في أقطارنا العربية، على الخصوص، لا كواجهـة حضارية، بل كتمهيد معرفي للمدّ الآتي، بعـد هـذا التراجـع المهـين للوضع العربي ككل. وهذا المدّ المنتظر يحتاج إلى جهـد كبـير دؤوب مستنير، كي يعاود مدّه، ولا سبيل إلى التـسريع في اسـتحداث هـذا المدّ إلا بالثقافة كمهاد نهضوي انبثق في مطلع القرن الماضي، وعلينا الآن استحداثه بشكل يتفق مع مجمل معطيات العصر، ومع الثـورة التكنولوجية فيه بالتخصيص، استيعاباً لها، وحسن استخدام، كـي لا نتخلف عن الركب المتقدم جداً لهذه المعطيات، وخاصة في حقل

المعلوماتية، وما يتصل بها كعنوان ثوري للعلم في قرننا الواحد والعشرين.

ولقد صار واضحاً أن هذه الثقافة المنشودة، في ارتباطها مع الحاجات الأخرى، الاجتماعية والاقتصادية والتنموية والدفاعية، لا تنهض إلا على ركائز استنادية، مادية ومعنوية، وأنه، في السعي لامتلاك ثقافة علمية تربوية روحية مستنيرة مستقبلية، تتصدى للتحديات السياسية والاقتصادية والنضالية، ثقافة تعي عصرها، عصر المعلوماتية في فتوحاتها الكبرى، وتتماشى مع ركبه، يجدر بنا أن نلاحظ أن قوة هذه الثقافة من قوة اللغة، وقوة اللغة من قوة الفكر، وقوة الفكر من قوة الأمة، وقوة الأمة من مكانتها الدولية، في محيطها والعالم، وأن كل هذه البديهيات تتمحور في إنتاج الثقافة ونشرها، وأن الإنتاج لابد له من حامل إبداعي، ترتبط في وطننا العربي الكبير، عصريته بتراثيته في وحدة متكاملة، تأتي اللغة العربية في صميمها، مكوناً أساساً لفكر الأمة، وللشخصية العربية المتماسكة والواعية.

وينبغي أن نذكر دائماً، أنها اللسان الذي وحّد بين أبناء أمتنا العربية، الكبيرة والمجيدة، وكان وما يزال أحد أهم مكوّنات الوعي في الفكر الجماعي لها، المرتبط بمحددات شخصيتها وهويتها، والذي ضمن لها استمرار وحدتها ووجودها عبر كل العصور، وفي مواجهة كل المحاولات الخارجية التي هدفت إلى تدميرها وإبادتها.

ويكفي لغتنا نبالة أنها استوعبت الوحي الإلهي، في كلم القرآن الجامع، الذي وسّع، في منزل أحكامه، أمداءها، إلى غير حدود،

فحفظها من جهـة، ونـشرها في أربـع جهـات الأرض، مـن جهـة أخرى..

وأنها دللت على عبقريتها، كما دلّلت على سعتها التي هي دون حدود أيضاً، حين شملت الكون بكـل معطياتـه، شـمولاً كـاملاً، فكانت مفرداتها وعاء لهـذه المعطيـات، في الطـب والفلـك والجـبر والرياضيات، وفي علوم الفقه والكلام والمنطق والعمران، بها كتب الشيخ الرئيس ابن سينا كتابه القانون في الطب، وبها كتب ابن رشد والغزالي كتبهما الفلسفية، وكذلك بها كتـب ابـن خلـدون مقدمتـه الـشهيرة، ومفاهيمـه في العمـران، وبهـا تـرجم المترجمـون أمهـات الكتب اليونانية، كي ينقلها المترجمون الغربيون فيما بعد، من العربية إلى اللاتينية وسواها.

وفي مواكبتها للفكر العربي والعالمي، عبر العصور، كانت لغـة حية، قادرة على الفعل والتفاعل، متطورة إلى أبعد حـدود التطـور، وفي مواكبتها للفكر العربي والعالمي، قد أعطـت عطـاءات جليلـة، ليس في مجال استيعاب هذا الفكر وإغنائه فحسب، بل في المفردات التي وفرتها للغات الأخرى المواكبة، فحققت بذلك حضوراً عظيماً في المضمار اللغوي، ويكفي في هذا المقام أن نذكر تأثير اللغة العربية في اللغات الفارسية والتركية والأوردية والاسبانية في شبه الجزيـرة الإيبـرية ودول أمريكا اللاتينيـة، هـذه اللغـات التـي أفـادت مـن العربية مفردات تـصل إلى حـدود الآلاف، وتتجاوزهـا، في العلـم والأدب والفن وسائر شئون المعرفة.

لماذا إذن هذا الضيم الذي ندخله عليها، واعين أو غير واعين، في هذه الأيام، قابلين لما يقوله المدّعون من أن العربية لغة قاصرة فقدت قدراتها، ولم تعد قابلة للاستجابة لمتطلبات العصر؟

لقد أخذت لغتنا، في مراحل النهوض من تاريخنا، موقعها المتميز، وانتشرت في آفاق الدنيا، وأحاطها أبناؤها بجلال الفهم، وابتدعوا من علومها ما كان فريداً في زمانه، ومن فلسفتها ما كشف عن مرونة اشتقاقاتها واقتباسها، وطاقتها على التعريب والتجديد والتجدد، والتداخل والتفاعل مع لغات أخرى، أعطتها أكثر مما أخذت منها، وابتدعت لمتطلبات الحياة المتقدمة، في التأليف والترجمة، ما أعطاها من القوة والصلابة والانتشار والغنى، ما تجاوزت به لغات عصرها.

لقد جلوا عبقريتها، وما لها من قدرات فائقة، وطاقات في الدلالة، وغنى في التلاوين، وفي منحى الترادف وظلاله وهالاته، مما لا يدركه إلا الذين امتلكوا ناصيتها، وأبعاد شاعريتها، وعمق فلسفتها، وسلامة منطقها، وألفوا في ذلك كتباً يكفي أن نذكر منها مزهر السيوطي المدهش، والقواميس التي ما تزال بين أيدينا مراجع فريدة في دقتها واستيعابها.

لماذا إذن نتهم لغتنا، مع المتهمين، بالقصور، ونعزو تخلفنا عن مقاربة العلوم الحديثة إليها؟ لماذا نسعى إلى التهالك على أبواب العولمة التي تروج لفكرة أحادية هي أن هناك لغة أجنبية وحيدة تصلح لدخول عصر المعلومات، والإفادة من إمكانات الحواسيب، ومعطيات التقدم العلمي المبهر؟

الأمم المتقدمة لا تـدخر وسـعاً مـن أجـل التمكـين للغتهـا، وإبقائها حية، دينامية، متفجرة، مبدعـة، غنيـة، قـادرة عـلى تحـدي الانتقاص أو الانكفاء، أو الاستخدامات التقنية في عوالم الحواسيب والانترنيت، وإن من حق لغتنا علينا، وهي القادرة على التعبير الحي الدقيق الخلاق، أن نـنفـي عنها التغريب، وأن نعزز مكانتها، وندفع عنهـا الانتهاكـات المتواصـلة، ونعيـد إليهـا زهوهـا وبهاءهـا، وفي سورية اليوم مـشروع يـنهض، بـدعم مـن الـسيد الـرئيس، ليعيـد الاعتبار إليها، ويقربها أكثر من أبنائها، فاللغـة في حقيقتهـا مفهـومٌ حياتي، وانتماءٌ وجودي، ونأمل أن يأخذ هذا المشروع بعده العـربي، وما يستحق من اهتمام، يحمي أبناءنا من غزو ينتهك قيمنا، ويعتدي على مقومات وجودنا.

وهذا لا يعنـي أننـا نريـد قطيعـة مـع العـالم، وجهـلاً بلغاتـه وثقافاته، وحصاراً نفرضه على أنفسنا دون مبرر.

لقد قصرنا، وينبغـي أن نعترف. وها نحن نحـاول أن نـسابق الزمن، وان نستدرك ما فات، ونتساءل أيـن هـي مـثلاً الدراسـات التي فاضت بها مكتبات الغرب عن اللسانيات، وليس بين أيـدينا، من إنتاجنا، إلا ما هو أقـل مـن القليـل منهـا؟ وأيـن هـي المواقـع الإلكترونية العربية، وفي العالم ما يزيد على مئة مليون منهـا؟ ومـاذا عن ترجمة المصطلح، والاتساع في التعريب، واستدراك مـا تحتاجـه لغتنا التي أغلقنا عليها باب التطور؟

إن دور الجامعات، ومجامع اللغة، في وطننا الكبير، ينبغـــي أن يكون مؤثراً، ملبياً للضرورات المعرفية، وحاجات التثقيف، يتلافى ما فات، بإرادة وعزيمة، بعد أن انطلقت حركة عربية مباركة، تدفع باتجاه تطوير العمل المعلوماتي، وفتح الآفاق لاستخدام العربيـة، في البرمجيات المتقدمة، بعيـداً عـن الانهزاميـة النفـسية، والاسـتسهال المتكئ على ما يفعله الغير، والرضى بالمواقع الهامشية، والاسـتسلام لمحاولات التنميط.

وإني لأذكر في محاولة للإنصاف، الدور الهام الذي كان للـسيد الرئيس البشار، قبل ولايته وبعدها، في توفير الإمكانات، من أجل دخول أجيالنا عصر المعلومات، من البـاب الواسـع، ومـن موقـع الثقة بالذات، والإيمان بإمكانات الوطن، وبقدرة لغتنا على التعبـير الخلاق المبدع.

ومن هنا كان إحداثه للجامعة الافتراضية، ولكليات الهندسـة المعلوماتية، وحرصه على الارتقاء بالعمل فيها، إلى مستوى علمـي رفيع، يوازي ما تمتلكه الدول المتقدمة في العالم.

ومما يؤسى له أن التواصل بـين مؤسـساتنا العلميـة ومجامعنـا اللغوية، في وطننا الكبير، ضعيف، ولا نكاد نجد بين أيدينا المراجع التي ينبغي أن نطّلع عليها، مما تنتجه هذه المؤسسات، والتي تعرفنـا بعمليات التعريب الجارية، على سـبيل المثـال، أو الدراسـات التـي توضع في علوم اللغة، أو في إطار المعلومات، ممـا يحتـاج إلى تعمـيم يُعرِّف بها، ولا شيء كالجهد الجميع..

أيـها السـادة

في وطننا العربي إشكالات كبـيرة راهنـة، وقـضايا تحتـاج إلى معالجات حاسمة، قد يكون في طليعتها التعليم واكتساب المعرفـة، وقـضايا اللغـة، واسـتيعاب التقنيـات، عـلى مـستويات الحداثـة، والتواصل مع كل معطيات العـصر وإمكاناتـه، وتلـك حقـائق لا يجهلها أحد، ولا يختلف عليهـا اثنـان، ونحـن جميعـاً مـدعوون إلى التصدي لها، مـن أجـل تجاوزهـا، بعقـل منفـتح، وفكـر مـستنير، وعزيمة صلبة ورؤى خلاقة، تحررنـا مـن تبعيـة التخلـف، وتمهـد السبل لكل ما هو مستقبلي تقدمي، متساوق مع رهانات العصر.

ختاماً، أكرر ترحيبي بكم وتقديري لجهودكم، شـاكرة مجمـع اللغة العربية الذي عمل على تنظيم هذا المؤتمر الهام، وكل من شارك في أبحاثه، من مجمعيين وعلماء ودارسين، كما أشكر باسمكم السيد الرئيس الحريص على اللغة العربية، المؤمن بـأن القوميـة والوحـدة واللغة هي قوام وجودنا ومـصيرنا، وأن اللغـة تواكـب الفكـر، إذا استطاع مجتمع هذه اللغة أن يواكب العـصر، وهـو يمـضـي بنـا في الدرب الصاعد، مناضلاً صلباً، في شجاعة مبدئيته، وجرأة مواقفه، وإيمانه بأمته، وحرصه على تحقيق أهدافها والانتصار لها ولحقوقهـا، مهما ادلهمت الظروف.

المرأة صنو الرجل في بناء الحياة والمجتمع لا ينهض إلا بهما(*)

يواجه عالمنا الراهن تحولات كبيرة لا سابق لها، سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية، وإذا كان من شأنها أن أعطت للإنسان أن يخترق حجب الفضاء، ويصعد إلى الكواكب، ويسير على القمر، ويبني مملكة الأحلام على المريخ، فإنها، في الآن ذاته، قد سمحت لكل مخاطر الخلل أن تغزو الحياة، من التلوث الطبيعي، إلى الانهيار الإنساني، إلى مزيد من الانكفاء على الذات، والانقسام العرقي والطائفي، إلى فيض من البؤس الذي يجرح إنسانيتنا في الصميم، إلى تفاوت بين بلدان الوفرة، وبلدان الجوع حتى الموت، إلى عودة إلى مفاهيم القوة والعنف والاستبداد والعنصرية والتمييز والعدوان والانقسام البشري، والانحباس في الحدود الضيقة التي تمليها عدوانية تقوم على السيطرة الاقتصادية والمصرفية والشركات المتعددة الجنسية،كما تقوم على شن الحروب، واحتلال أراضي الغير

(*) ألقيت بمناسبة إشهار تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٥«نحو نهوض المرأة في الوطن العربي»، دمشق، ١١ /٢ /٢٠٠٧.

بالقوة، خلافاً لمواثيق الشرعية الدولية، وتحدياً لقراراتها، ومفاهيمها، وقيمها.

وفي مقابل ذلك، وفي تلمس الحلول، يسعى كثير من المفكرين إلى تخطي المسافة التي تعزل بعضنا عن بعض، وتجعل من كرتنا الأرضية مدارات للتناحر والصدام وسوء الفهم واستعلاء القوة، وإلى إيجاد الوسائل التي تقرب بين الإنسان والإنسان، بالمعرفة والتعارف، وتسهم في تحديد طريق مشترك واضح، يأخذ في الحسبان ما يواجه عالمنا الراهن من إشكالات وتناقضات ومفارقات ومنازعات.

وإذا كنا نجد أنفسنا الآن أمام منعطف تاريخي بالغ الاتساع، بالغ الخطر، بالغ العمق، بالغ الأهمية، في تقرير مصائر الأمم، ونواجه خطر هيمنة ثقافية ذات أنماط فكرية وسلوكية تروج للعرقية وللتفرقة الدينية، والعنف والجريمة، وكل إفرازات المجتمع الاستهلاكي، وكل مضار التكتلات الإقليمية المبنية على رؤية تسلطية، فإن هذا يفرض أن نعمل جميعاً من أجل استتباب السلام، المبني على العدل، وإحقاق الحقوق، ووقف عدوان القوى الطامعة بالسيطرة على العالم وثرواته، والإسعاف بما افترضته رهانات قمة كوبنهاچن، من الإلزام الملح بالتنمية العالمية المشتركة الشاملة ضد الحرمان، وحلّ مشكلات الشعوب المقهورة، وفتح آفاق رحبة جديدة، تتلاقى في مساحاتها قيم تمدّ بالأمل والعزيمة، والثقة بأن الإنسان الذي اخترق الأرض، والفضاء وأبدع التكنولوجيات

المذهلة، قادر أن يعيد إنتاج ذاته، وإبداع فلسفاته، بالمستوى الذي يجعله يرقى بإنسانيته إلى ما يليق بمتطلبات عصره، بعيداً عن انحيازات يحكمها منطق القوة، وتفوق التكنولوجيا، وغياب حس التواصل الإنساني.

لقد حملت الحروب غير المشروعة «ضربات قاسية» لمنظمة الأمم المتحدة، وصار من المهم أن نعترف بأنها، مع ذلك، وبمؤسساتها المختلفة تسعى جاهدة من أجل تأصيل بُنى تنموية تنتصر فيها ثقافة الحياة على ثقافة الموت، والتعاون على الهيمنة، وتقديم العون للدول النامية بأساليب مختلفة، انتصاراً للقيم التنويرية الإنسانية، قيم الحرية والإخاء والمساواة ومجازات التنمية الشاملة.

وفي هذا الإطار تأتي الجهود التي بذلت من قبل برنامج الأمم المتحدة الإنمائي بالتعاون مع الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي وبرنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية، في إعداد تقارير تمس مشاكل الراهن، في بلدان مختلفة، ومنها بلداننا العربية، ملتمسة الحلول والمعالجات البناءة.

وإنـي لأحيـي هذه الجهود والأقلام التي أسهمت في إعدادها، منذ مطالع قرننا الراهن، وبإشراف المكتب الإقليمي للدول العربية، على اسم التنمية الإنسانية.

لم تتح لي ظروفي الخاصة، وللأسف، قراءة تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٥، وهو موضع اهتمامنا اليوم - اطلعت

فقط على خلاصة له أعدها المكتب في دمشق، لكنني كنت قد قرأت تقارير سابقة، وكانت لي عليها ملاحظات، أشير إليها إشارة سريعة، مع تقديري للجهود المبذولة، وأكرر، على أمل أن يتم تلافيها في الدراسات المقبلة.

التقرير الأول الذي صدر عام ٢٠٠٢ وحمل عنوان تقرير التنمية الإنسانية العربية، كان صادماً للقراء إلى حدٍ بعيد.. الذين قبلوا كل ما جاء فيه والذين كانت لهم ملاحظاتهم عليه..

منها أنه كان هناك ضرورة لتوخي الحذر في استخلاص المعلومات من إحصاءات كمية، لم تتسم بالدقة، ولم تكن أحياناً متوفرة، ولقد أهملت دول كان ينبغي أن تأخذ دورها في الدراسات والإحصاءات، وكان من الضروري أن نتوقف عند التنمية الإنسانية كظاهرة أكثر تعقيداً، تسمح بعض مكوناتها بالقياس الكمي بينما لا تسمح في مجملها إلا لمقاربات تعميمية، مما جعل التقرير أقرب، في بعض جوانبه، إلى صياغات تقديرية، بعيداً عما يفترض في بحث بمثل هذه الخطورة - ولن أدخل في التفاصيل، وهي كثيرة، لكنه يكفي أن أشير إلى أن التقرير يؤكد أن العالم العربي مثلاً يترجم /٣٣٠/ كتاباً في السنة قياساً إلى بلدان العالم الأخرى، وهذا الرقم مجانف للحقيقة إلى حد بعيد، وإن كان قد أسهم في إحباط الناس إلى حد بعيد أيضاً.

التقرير الراهن الذي قرأت خلاصته، فحسب، شدّني لأنه يتناول موضوع المرأة في الوطن العربي .. هذا الموضوع الذي يراوح

منذ زمن بعيد في أروقة المؤتمرات المختلفة، في الغرب وفي الشرق، لأسباب نزيهة أحياناً، وذرائعية في بعض الأحيان.

ولقد ذكّرني، ولا أدري لماذا، بدعوة إلى مؤتمر تلقيتها من شخصية غربية كبيرة، منذ أمد غير بعيد، وكانت صيغتها غريبة، مفاجئة، بعيدة عن حدود المنطق والحقيقة.

جاءت في صفحتين، محددة بدقة هدف المؤتمر الذي ستسهم فيه شخصيات فكرية وسياسية ذات شأن، من المدير العام لليونيسكو إلى قائمة مهمة من الأسماء الأخرى..

تقول الرسالة: إن اليهود والمسيحيين ينتمون إلى نسق فكري واحد يجمع بينهم، ويوحّد بين مفاهيمهم، ولا يفرقهم إشكال، بحكم إيمانهم بكتاب مقدس واحد، التوراة والإنجيل، أما المسلمون فهم مختلفون، وينتمون إلى نسق فكري آخر مختلف، يتجلى في افتقادهم - بحكم دينهم - إلى الإيمان بحرية الإنسان، الذي هو عندهم عبد لله، وفي احتقارهم للمرأة وسلبهم لإنسانيتها، ورفضهم لاعتبارها مساوية للرجل.. وهم يريدون مني أن أشارك لتوضيح هذه الأمور ومناقشتها، على أمل الوصول إلى تقارب ما..

ولم أحضر هذا المؤتمر لأكثر من سبب، وإن كان قد ولّد استياءً كبيراً في نفسي بسبب من زيف المنطق المستعلي فيه.

غير أنني تابعت بعد ذلك موضوع المرأة، في المدارات الإقليمية والدولية، وكيف يقوّمون المرأة العربية، ومسيرتها من جانب، والمرأة الغربية من جانب آخر، وألفيتني أمام وقائع، قديمة

وحديثة، تجعل من قضية المرأة في العالم قضية واحدة، ترتبط بمعطيات متقاربة، مما يلقي شبهات كثيرة على لاحيادية هذا الطرح الذي جسدته تلك الرسالة، والذي يستمر حتى الساعة، من قوى غير معنية أو مهتمة بواقع المرأة العربية أوغير العربية.

ومع أن ظروفي لم تسمح بقراءة هذا التقرير كاملاً، رأيت أن أسهم بوجهة نظر ما، في هذا الموضوع المرتبط بقضية هي على مستوى بالغ من الأهمية، مع رفضي المطلق لعزل موضوع المرأة عن موضوع المجتمع ككل، والفصل الإنساني بين الرجل والمرأة، متابعة للملاحظات التي بدأت بإيراد بعضها.

* * *

في كتابها "الجنس الآخر" طرحت الكاتبة سيمون دوبوڤوار، سؤالاً جديراً بأن نتوقف عنده طويلاً، لأنه لخص واقعاً تاريخياً امتد على مدار آلاف من السنين، منذ بداية التاريخ المكتوب، وربما قبله، أي منذ انتهى ما دُعي ذات يوم بالنظام الأمومي، سألتْ: «كيف حصل أن امتلك الرجل العالم دائماً، وأن الأمور لم تبدأ بالتغير إلا منذ أمد قصير؟»

والسؤال هنا، بشموليته، مطروح في الشرق وفي الغرب، وفي كل أرجاء كرتنا الأرضية، وعلى اختلاف مفاهيم المجتمعات، عبر التاريخ، بأنماطها الثقافية المتباينة، وموروثاتها المعرفية، وتنوع الحضارات، قديمها والحديث، ونُظمها الاجتماعية، وأعراقها وعقائدها، وأنساق تفكيرها، لا فرق، أو هو فرق بسيط وشكلي،

لا يمس المضامين الأبعد التي ترتبط بصميم إنسانية المرأة، في اعتبارها الكائن الأضعف، الكائن الهامشي، السلبي، الجنس الآخر، المختلف بخصائصه البيولوجية والنفسية، وبمهامه في هذا الوجود، التي تنحصر أساساً بالوظيفة الطبيعية الحيوية، أي بأن تكون المرأة أماً وزوجاً، لا شأن لها في هذه الحياة إلا الإنجاب والعناية بالأسرة، وتهيئة الظروف الأمثل للرجل، وإلغاء أي اهتمام آخر، خارج إطار هذا المحيط الضيق الذي يرتضيه لها الزوج أو الأهل، وفي حدود الطاعة المطلقة، والقبول بكل ما يفرض عليها من قهر واستلاب لإنسانيتها وحريتها وحقوقها.

لماذا امتلك الرجل العالم؟ وكيف انتزع حقه في السيادة والهيمنة وفرض الإرادة، والتمتع بحرية الاختيار، وتحديد منظومات القيم، وبامتياز لا يجادل فيه، ولا ينتقص منه، كمسلَمة هي من البديهيات!

السؤال ما يزال مطروحاً، ومبرراً، رغم كل المتغيرات التي بدلت كثيراً من الأوضاع والمواصفات، وقلبت من المفاهيم ما كان يبدو كثوابت، ورغم كل ما حققته المرأة من تقدم، وانتهت إليه المؤتمرات الدولية المختلفة في مكسيكو وكوبنهاچن ونيروبي وبكين وغيرها، من اتفاقات وتوصيات تستهدف القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، اعتمدتها الهيئات الدولية، ومنها الجمعية العامة لهيئة الأمم، فإن الواقع الراهن يجبهنا بحقيقة لا يمكن تجاهلها هي أن«التفاوتات غير المقبولة بين الجنسين لا زالت قائمة في جميع

البلدان. واليوم ليس ثمة بلد واحد يتمتع فيه الرجال والنساء بالمساواة الكاملة» كما جاء في إعلان مؤتمر بكين.

إن قضية المرأة في عالمنا، كما سبق وأشرت، تكاد تكون واحدة في أبعادها الإنسانية وخطوطها العامة، وجوهر مضامينها، على خلاف في المستويات والدرجات، مما يجعل نضال المرأة المشروع، في أربع أرجاء الأرض، متقارباً، متوازياً، متشابه السمات والأهداف، من أجل تحقيق ذاتها، والدفاع عن حقوقها، وتوفير الشروط الموضوعية التي تسهم فعلاً في تغيير واقعها، وإزاحة المعوقات التي تمنعها من أداء دورها، وقد أسهمت الندوات والمؤتمرات واللقاءات العالمية المختلفة في تقريب المسافة، والكشف عن نقاط التقاطع الجديرة بالتأمل، والتي تستدعي تفكيراً مشتركاً، يسمح للمجتمعات البشرية المختلفة أن تنتج نظماً تنتفي منها كل أشكال التمييز بين الجنسين، ويعطي للمرأة أن تكون صنو الرجل في عملية بناء الحياة وتقدم الأوطان.

غير أن ما نكتشفه من تشابه لا يمكن أن يعني التماثل، أو يلغي الاختلاف، أو الحاجة إلى مقاربة موضوع المرأة، في كل مجتمع، حسب ما يمليه واقعه الموضوعي الراهن الذي هو نتاج تطور، تمتد جذوره إلى التاريخ البعيد لكل أمة، والذي يرتبط بمستوى التقدم الحضاري الذي حققه هذا المجتمع أو ذاك.

ولعلي أمام النظرة الراهنة، من قبل بعض دول الشمال، لواقع المرأة في العالم العربي، والمخاوف التي يطرحونها، وربط تخلف المرأة

بمفاهيم الإسلام، وتفسير بعض مظاهر التــزمت بالانكفـاء عـلى الدين نفسه، أذكّر، وبموضوعية، أن الإسلام كرّس تكـريم المـرأة، وساوى بينها وبـين الرجـل، وأعطاهـا حـق الاسـتقلال الفكـري والاقتصادي الكامل، وأنها بايعت الرسول كـما بايعـه الرجـال، في صيغة انتخابية هي طـرف أسـاس فيهـا، وقاتلـت معـه، ودخلـت الحروب، وناقـشت في المـساجد، ودرّسـت، وأخـذ عنهـا النـاس، وتعلموا على يديها*.

وفي ظل الإسـلام، والمرحلـة مرحلـة صـعود، وعـلى امتـداد قرون، نبغت شاعرات ومفكرات، ومناضلات يَفدن على الخلفـاء، ويحاورن ويجادلن في قضايا الحكم، ويتصدين للخليفـة وسياسـته، وقد حفظ الأدب لهـن أجمـل المواقـف، بـل روى الـرواة أقـوالهن، وسجلتها كتب الأدب، وكان أول نديّ أدبي (صـالون) ذاك الـذي افتتحته حفيدة الإمام علي، سكينة بنت الحسين، للشعر والـشعراء. ولقد مارست المرأة السياسة، مشاركة في القيادة، وفي الظهور العام، وإلقاء الخطب، وحمل السلاح، والتحزّب لمبـدأ أو مـذهب حـسب قناعاتها وما تراه، والانتصار لما تعتقد أنه الصواب.

ولم تبدأ الأمور بالتغيّر إلا في مراحل عصر الانحطاط، الـذي انعكس على الوضع العام، ووضع المرأة بشكل خاص، حين عُزلت

(*) ليس في موروثنا مقولة تماثل هذه المقولة لأرسطو: «حتـى المـرأة يمكـن أن تكـون حرة وكذلك العبد، مع أنه يمكن أن نقول إن المرأة كـائن متـدنٍ والعبـد مخلـوق لا قيمة له على الإطلاق».

عن الحياة، ودخلت في الإسار راضية أو مكرهة، وكان عليها، وعلى المتنورين من الرجال، أن يناضلوا فيما بعد، إلى جانب النساء المتنورات، كي يزيحوا هذا الضباب الأسود الذي خيم على حياتنا عبر قرون قاسية، وكي نتخلص من إرث باهظ ومبهظ، في التخلف الذي هو آفة عالمنا الثالث، بدءاً بتصحيح الأمور بالنسبة للمرأة بخاصة، وللحياة في كافة وجوهها بعامة.

وفي مسيرة الوعي المتنامية، شهد النصف الثاني من القرن العشرين، كما في الغرب، تطوراً كبيراً متسارعاً، وفّر لها الظروف المواتية التي تستطيع من خلالها، أن تحقق ذاتها، وتؤدي رسالتها، وتنال حقوقها، وتكون طاقة عمل وإنتاج، تقبض بما تبذل من جهد، وتمتلكه من معرفة ووعي، على مصيرها، وخياراتها، وإمكانات تقدمها وتحررها.

* * *

من بين الملاحظات التي رأيت أن أوردها جملة مسائل تستحق المتابعة:

- لا يمكن الاهتمام بالمرأة بمعزل عن الاهتمام بالمجتمع ككل، اقتصادياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً وبُنى أساسية وتربوياً. إن وضع المرأة لا يتقدم، مهما جهدنا، في مجتمع متخلف، والحياة السليمة لا تبنى إلا على كفاح المرأة والرجل معاً، وتساندهما من أجل تغيير شرطهما الإنساني السيء، وتبديل الأوضاع القائمة بأوضاع أفضل، وعلينا أن نتجنب الفصل التعسفي بينهما لأنهما معاً ركيزتا كل تطور اجتماعي منشود.

- إن تمكين المرأة الذي يكثر الحديث عنـه، مطلـب ملـح، لكنـه ينبغي أن يقترن بتمكين الرجل أيضاً، لأنه في مجتمعاتنا بحاجة إلى هـذا التمكـين، ولا يمكـن للمـرأة أن تحقـق النهـوض المطلوب، ما لم تسمح البنية العامة للمجتمع الذي تعيش فيه، وإمكانات هذا المجتمع، بتحقيق هذا النهوض.
- ثمة توصيات هامة انبثقت عن المـؤتمرات الدوليـة المختلفـة، والندوات العديدة المتتابعة، والتقارير التي صـدرت، وصـار الكثير مما جاءت به مسلمات معروفة، وكاد بعـضها يـستحيل إلى كليشيهات مكررة، وهـي في مجملهـا تـشكل دليـل عمـل مسعف، وإن كان فيها، إلى جانـب إيجابهـا، شـطط في بعـض الأحيان، أو إمعان في التخصيص حيث ينبغي الشمول، كما في طرح قضية الفقر الواقع على المرأة، وضرورة تحريرها منه.
- إن الفقر الواقع عليها ليس فقراً مؤنثاً، بل هو جزء من الفقـر الواقع على المجتمع، ولا يمكن تحرير المرأة منه إذا تعذر تحرير المجتمع. إن هم المرأة الإنساني، في بيئتها القريبة الصغيرة، كما الكبيرة، لا ينفع معه رفع مستواها المعيشي وحده، حين يكون مَنْ حولها بحاجة ماسة، مثلها، إلى أبسط متطلبات العيش.
- وكذلك الأمر عندما تمعن التوصيات بالحـديث عـن ضرورة حماية المرأة في الحروب، أو في ظروف الاحـتلال، أو العـدوان المـسلح، وكـأن حيـاة الرجـل الأب والأخ والـزوج والابـن لا تعنيها أو تعنينا في شيء، وكـأن مـوت الـشباب، واجتيـاح

الأرض، أمر منطقي طبيعي ومسلّم به. ولن يكون الحديث عن حماية المرأة ذا معنى، دون العمل بجدية ومصداقية ودأب، من أجل إيقاف الحروب وتحقيق السلام العادل، وإنصاف الشعوب، وإطفاء بؤر التوتر، وحماية الحقوق المشروعة لمختلف الأمم، من كل ألوان العدوان الواقع عليها.

• إن الإمعان في تأنيث قضية المرأة، وفتح طرق أكثر طولاً وعمقاً في هذا الاتجاه، وتكوين شبكات محض نسائية، ونوادي وروابط وجمعيات، وبغزارة، في الغرب بشكل خاص، وفي بلداننا العربية، بنسبة أقل، قد يكون فيه تكريس، نخشاه، للجدار الفاصل بين الجنسين، وقد ناضلنا طويلاً من أجل هدمه، ورفضنا اعتبار المرأة قطاعاً من قطاعات المجتمع، لأنها جزء أساس في كل قطاعاته، والأمل ألا يكون ثمة إسراف في«النزعة النسوية» لا جدوى وراءه.

أخيراً أجد أننا نهمل أمراً هو في غاية الخطورة، وأن سعينا الأكبر ينبغي أن يكون منصباً على مواجهته، أعني تحويل المرأة إلى سلعة، في تماثل مع ما كان يجري في الماضي في أسواق النخاسة التي تباع فيها الجواري ويباع العبيد، في أربع جهات الأرض.

وكالنخاسين، وبمنطق مرضي، عمل محترفون من الرجال على تسليع المرأة، والدفع بها إلى مهاوي السقوط، لتكون«وسيلة تسلية وإمتاع»، كما يقول چالبرت، أحد كبار الاقتصاديين الأمريكيين، وليصبح جسدها وسيلة كسب لمؤسسات استغلال الجسد

التجارية، في علب الليل، وفي فضائيات العالم، وأفلام الإباحة. «والمرأة هي التي تدفع الثمن، بل إن الوضع النسائي كله هو الذي يدفع الأثمان، ثمن الأزمة الاقتصادية، وأزمة البطالة، في قلب الهيمنة الذكورية»(*).

ومع ذلك لا يتم تركيز على هذا الأمر، أو توصيات تدفع بحزم إلى تغيير هذا الواقع المزري.

ومهما كان لنا من وجهات نظر أو ملاحظات، مرة ثانية، ونحن نطلق تقرير التنمية الذي عُني باستنهاض المرأة في الوطن العربي، أوجه الشكر إلى كل الذين جهدوا في إعداده وإصداره، وإلى الأستاذ الفاضل الدكتور علي الزعتري الممثل المقيم لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي -المنسق المقيم للأمم المتحدة،

على أمل بأن نعمل جميعاً، وفي جبهة واحدة، كي نحقق التطور المنشود، على مسارات التقدم، خياراً إنسانياً هو حق علينا لوطننا العربي الكبير برجاله ونسائه، ولهذه الإنسانية في أبعاد الكون، وهو في النهاية مسئولية واجب وضمير، من أجل بناء عالم يسوده السلام العادل، وتُحترم فيه حقوق الشعوب، وتتنامى العلاقات المتكافئة.

ختاماً، ووفاءً وإنصافاً، أحيي الراحل الكبير الرئيس حافظ الأسد الذي أتاح للمرأة أن تقطع شوطاً أسطورياً في تحقيق ذاتها، والحصول على حقوقها.

(*) اللوموند ديبلوماتيك، أحد أعداد عام ١٩٩٦.

كما أحيي الرئيس الفذّ بشار الأسد الذي أحدث نقلة نوعية جديدة في وضع المرأة، وعلى مختلف الصعد، واختط درب الوطن على مسارات البناء والنضال، بكفاءة بالغة، وذكاء متوهج، وشجاعة وثّابة، وإيمان عميق بثوابت الأمة.

حوار الحضارات تكامل وشراكة (*)

ميرسيا إيلياد، الفيلسوف والكاتب والمفكر يرى أن«الإنسان المعاصر يقدّم نفسه ككائن تاريخي، تشكل بفعل تاريخ الإنسانية بمجموعه»، مما يضعنا في فضاء الارتسامات الحضارية البعيدة الأغوار التي نستعيد معها الذاكرة التاريخية، ونلج بها إلى نمط من الوجود الكلي، حين ننأى بأنفسنا عن«وهم اللحظة»، حسب تعبير الفيلسوف الألماني نيتشه، ونسعى إلى بناء وعينا الكوني بالعالم، من مفهوم شمولي، أكثر صدقاً وإنسانية، يكاد يكون بدؤه بدء الحياة، من طفولة الإنسان إلى مطالع القرن الواحد والعشرين، وأبعد ما يكون عن تحيزات الراهن، وحدود الجغرافية الضيقة، والانعزال في إسارها، منذ تلاحمت شطآن الفكر والحياة، طاوية أمداء الزمان والمكان.

(*) ألقيت في المؤتمر السابع الذي عُقد في جامعة سانت بيترسبورغ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، وشاركت فيه مجموعة متميزة من الآكاديميين الروس والأجانب، حول موضوع يرتبط بالحوار بين الحضارات والثقافات، في شهر نيسان ٢٠٠٧.
وخلال المؤتمر قدم رئيس أكاديمية موسكو إلى جلسة من جلساته، وقلدني وسام «كاترين العظيمة»، ومنحت شرف عضوية الأكاديمية بامتيازاته، ومنها إعطائي إمكان إلقاء محاضرات في الأكاديمية حين أرغب في ذلك.

ولقد كان رائعاً أن نرى، في بحثنا الملح، ما وراء العصور من أنوار ساطعة، ومن أعماق مدهشة، في التاريخ المجهول وغير المكتوب، لبدايات البشرية، عبر الاكتشافات، والبحوث المتقصية، التي اجتذبت مساحات الرؤية لمثقفي العالم، وأن نصغي إلى الشاعر السوري القديم ميلياغر - ابن مدينة جدرة القديمة، يقول منذ ذلك الزمن البعيد، في إشراقة وجد صوفية: «لا تظنوني غريباً، كلنا من وطن واحد هو العالم».

وفي أيامنا الراهنة هذه، يغدو تفعيل الحوارات المعرفية بين الحضارات، وبناء العلاقات، وتوثيق التلاحم، أمراً غاية في الضرورة، بل ينبغي أن يكون الهم الإنساني المشترك، إذا فهمنا الحضارة على أنها هذا الفعل الكلي الذي يشكل جوهر المجتمع البشري، وينتظم جماع السمات المميزة للأمة، ومجموع معارفها، وقيمها، وإبداعاتها، وذاكرتها الضاربة في أبعاد التاريخ، ويعني بالتالي هويتها، وأصالتها، ومعنى وجودها، وإسهامها الخلاق في ثقافات العالم.

بفضلها يبني الإنسان كفاءاته الروحية والعقلية والجسدية والإبداعية، ويجسد أعظم طموحاته التي تعطي حياته، وقيمه، ومستقبله، مدلولات جديدة، تشكل مشروعه الإنساني، في جوهره، بعيداً عن الضبابيات التي تتدثر بعباءة الحضارة، وتستخدم منطوقاتها، بابتذال مرفوض.

ولقد كان رائعاً أن تتبنى جمهورية روسيا الاتحادية، مؤتمرات «حوار الحضارات» بمفاهيمها النزيهة، البعيدة عن النزوع

المتعـصب، عـبر جامعـة العلـوم الاجتماعيـة الإنـسانية، في المدينـة العريقة الشهيرة سانت بيترسبورغ، في وجه نهج مسيّس، مسرف في تهوره، تقمّص موقفاً من الحضارات، أطلقـه مؤدلجـون، طليعـتهم هانتينغتون الذي يرى أن العلاقة بينها هي علاقة صراع، حسب ما تعرفون، في موازاة مقولة أخرى، هي مقولة نهاية التاريخ التي طلع بها فوكوياما، وكلاهما يحمل لواء إيديولوجية أحادية القطب، ضالة مضللة، غايتها التبشير بعلاقات عدائية، صراعية، بـين الـشعوب، وبأن تاريخ العدالة والتنوير انتهى. لكن هاتين المقـولتين انكـشفتا، وأدرك العالم خطورتهما، وكان لابد، في المقابل، من الدعوة إلى حوار الحضارات، وصولاً إلى مفـاهيم، ترتقـي بنـا إلى مـصالحة الحقيقـة والمنطـق، ووضـع الأمـور في موضـعها الـصحيح. ذلـك أن الحضارات، في راهنيتها والتاريخ، كانت دائماً، حضارات متفاعلة، متبادلة الأخذ والعطاء، متطورة نتيجة هذا التفاعل والتبادل، تقـدم كل منها إضافتها، في مسيرتها المتعالية عن منطق الصراع الزائف.

إن العالم من حولنا، في كرتنا الأرضية، قد ضاق ذرعـاً بمثـل هذه المقولات التي تنضح عداء، وهـو يتطلـع إلى البـديل المنـصف الذي يمليه الوعي، والبديل هو هـذا الحـوار الـذي يـشكل صـبوة ضمير، وأمنية نفس، وإرادة فكـر، تحقيقـاً لتواصـل إنـساني، يبنـي بأخلاقية رسالته، «جبهة العقل» التي تحدث عنها إيريك هوبسبوم، والأمل أن يمكّن الحوار الحضاري الذي يدار في مؤتمرنـا هـذا، وفي اللقاءات والمؤسسات الأكاديمية الأخرى، من استعادة ذاكرة العالم الحضارية، ومن تكوين جبهـة منيعـة، مـن مثقفـي العـالم، المعنيـين

برسم ملامح المستقبل الأفضل، تنتفي، في حدودها، محاولات الإلغاء، والقطيعة، مع شعوب متعددة الثقافات والأعراق، وترعى، بمصداقية، أشكال التنوع والتفاعل، وتؤمن بأن لكل أمة، مهما بدا شأنها ضئيلاً، ما تقدمه للأمم الأخرى.

وإذا كان الإنسان ومضة برق على صفحة الحياة، فإنه، دون ريب، يترك بصماته على جدار الزمن، وهي، في تراكمها، جديرة بأن نرى إليها، وبأن تكون جزءاً من رؤانا.

«ولنتذكر أن إلغاء الحواجز، بين الشعوب، شيء، وإلغاء الشعوب، وتاريخها، وما أبدعته، شيء آخر، وأن إلغاء الحدود، بين الحضارات والثقافات، أمر أساس، لكن إلغاء حضارات الأمم وثقافاتها، استصغاراً لها، من أجل إحلال حضارة الوجه الواحد، ذي اللون والملامح الواحدة، أمر مرفوض، وهو في غاية الخطورة».

ولا بأس بأن أشير هنا إلى أن أرضنا التي تعوم على بحر من الحضارات القديمة والوسيطة والحديثة، والتي أرجعت حدود الماضي إلى وراء، وأسهمت، بما كشفت عنه، باتساع معرفتنا بتاريخ الإنسان والكون، قد كانت المهد الحضاري الأهم، كما أكدت الأبحاث الموثقة، بالاكتشافات الآثارية المتتالية، إذ كانت منطلق الحياة المدنية، وأقدم بقعة ابتدع الفكر فيها أصول الحضارة، وأصول الحكم، ومنها عرفت الإنسانية أوائل مكتشفاتها، ومن شطآنها امتدت الجسور الأولى للتواصل مع العالم، سلماً وبناءً، ومعلومات، وتجارة، وتبادل هدايا، وإبحاراً إلى الآفاق البعيدة.

وأنها، إلى ذلك، ظلت، وفي كل الظروف، كريمة، شماء، إنسانية النزوع، نبيلة المقاصد، مغلية للقيم، ولكل أشكال التعاون والعطاء.

إن الحضارة، في قناعتنا، لا تتواطأ، وينبغي أن تكون متفتحة، منفتحة، متفاعلة، «فهي أساساً، لا تلغي غيرها، ولا تُلغى بغيرها، إذ ليس من حضارة لاحقة تلغي حضارة سابقة، بل هي تؤكدها، بالتداخل معها»، تأثراً وتأثيراً، ثم هي، في النهاية، ملك للإنسانية جمعاء، شعلتها المقدسة تضيء أبداً، متخطية كل الحواجز والحدود.

وأود أن أؤكد، أيضاً، أننا ننبذ، على قاعدة معرفية، مبدأ صراع الحضارات الذي يؤدي إلى التدمير بدل التطوير، وإلى التباعد بدل التقارب، وإلى التناقص بدل التكامل.

أيها السادة

لقد تحدثنا، ونتحدث طويلاً، عن حوار الحضارات، وليس هذا خطأ أبداً، لكن سؤالاً يبقى عالقاً في الذهن عن العلاقة بين الحضارات، هل هي فعلاً علاقة حوار أم أنها علاقة تكامل، تأخذ فيها كل حضارة من سابقاتها، تتمثل ثم تبتدع تأليفاً جديداً، يقدم إضافته، تماماً كما فعلت الحضارة العربية، حين حملت، عبر الأندلس، كنوز المعرفة إلى أوروبا..

إن دورها لم يكن ترجمة فحسب، لفلسفة الإغريق مثلاً، ولكنه كان بناءً معرفياً حضارياً، تناول ما سبقه، وأفاد منه، وتمثّله، وبنى عليه..

وحضارة اليوم، في دول العالم المتقدم، تبني إضافاتها على ما سبق، مما يسمح لنا بأن نتحدث عن تكامل حضاري، أو مشاركة،

أو تشارك، لا يسلب الراهن مضامينه وما أضاف، لكنه يتلمس أساس البنيان وجذوره، وما قدّم الماضي للحاضر.

ومن هنا فإن ما تنهضون به، أيها الأصدقاء، في مسعاكم إلى تكوين مفاهيم جديدة، مغنية، جدير بالتقدير الكبير، وهو جهد يستهدف ضمان الترابط الإنساني العميق الذي لا تتحقق إنسانية الإنسان إلا به.

ولا يبدو لي هذا غريباً، فلطالما حاورت حضارة بلادكم الضمير الأدبي، في العالم، عبر إبداعات أدبية مدهشة، شكّلت ذاكرتنا، منذ بدأ وعينا يرتسم خلال قراءاتنا لعباقرة الأدب الروسي، عبر العصور.

وفي المسافة التي تعزل بعضنا عن بعض، وتجعل من كرتنا الأرضية مدارات للتناحر وسوء الفهم، ينبغي ألا نسمح بأن تعزلنا حضارياً ومعرفياً، إذ لابد من أن يقترب الإنسان من الإنسان، بالمعرفة التي تولد الفهم، وربما تقود إلى طريق مشترك أوضح.

إننا نتطلع، من خلال الانفتاح الثقافي، والتبادل النزيه، إلى آفاق من التعاون، يكون فيها الإبداع سفيراً مؤهلاً، لبناء أفضل الأسس، في العلاقات العربية الروسية، المبنية على التفاهم والاحترام، والمستندة إلى الأمانة الحضارية التي نغلي، كما نشيد بالدور الذي تؤديه جامعة العلوم الإنسانية، ونثق بأن النجاح سيكون حليفها، في أداء رسالتها، وأنها ستحقق التقدم المأمول، في ربوع مدينة هي للإبداع ألق تاريخ، ومجد حضارة.

الرئيس بشار الأسد

قائد عليه ينضفر الأمل وينعقد الرجاء(*)

أيها الإخوة، أيتها الأخوات

أيها الأبناء الأعزاء الذين بهم يتجذر الإخلاص، ويخضر الأمل، ويزهر الكفاح، وبهم تنضفر إرادة الأمة، ويشتد العزم، ويتواصل الدرب، طريقاً إلى المستقبل الأمثل.

لكم منا المحبة صادقة، والنفحة الوجدانية خالصة، تترجم بعض ما في الخواطر من وثوق بكم، ومن أمنية في مواصلة السير المشترك معكم، كي نحفر بيد البذل، اسم العروبة، على صخرة الوجود الإنساني.

أرحب بكم أجمل ترحيب، باسم راعي مؤتمركم الرئيس بشار الأسد، وأنقل إليكم تحياته، ونبيل عواطفه، وطيب أمنياته، مؤكدة حرصه على «تعزيز الروابط بين المواطنين ذوي الأصول العربية في بلدان الاغتراب، وبين وطنهم الأم»، وما يبذل من جهد كي تكون

(*) في افتتاح مؤتمر المغتربين الثاني نيابة عن راعيه الرئيس بشار الأسد في ١٢/ ٥/ ٢٠٠٧.

سورية، سباقة في شوط الحضارة، كما هي سباقة في شوط النضال، وكي تظل قلعة صمود، ومسيرة كفاح، وكلمة حاسمة في شئون المنطقة.

ولقد كان جلياً، ومنذ بداية عهده في الرئاسة، أنه ينطلق من رؤية واضحة في ذهنه، مدروسة بعمق ووعي، دقيقة في التناول والأداء، جريئة في المجابهة، صارمة ومرنة في الحوار في آن، ومنذ البداية أيضاً، شكل كلامه، وثيقة سياسية نضالية، رصينة، بعيدة عن المنطق الأملس، والموقف المراوغ، ليكون بحق، التعبير الصادق الصلب عن إرادة كل مواطن عربي مخلص، والترجمة الأمينة لإرادة الملايين من أبناء شعبنا، ومناضليه.

لقد خبرناه في سبعة من الأعوام، فألفيناه رجل دولة يمتلك مزايا قيادية بالغة الأهمية، منها الثقافة السياسية الواسعة، الواعية، والمتابعة، والرؤية الوطنية والقومية الشاملة، والمبدئية الواثقة المناضلة، والذكاء المتوقد، والطموح الكبير على مستوى الوطن، من أجل الارتقاء به، إلى أبعد الحدود الممكنة، وتوفير حاجات هذا الارتقاء.

وكان طبيعياً أن يتجه تفكيره، فعل النهضويين الكبار، عبر التاريخ، والراحل الكبير حافظ الأسد واحد منهم، إلى نهج التطوير والتحديث، مستلهماً منه خطابه الفكري التجديدي، المنطلق بداية من إيمانه بأمته وإمكاناتها وطاقاتها، وبضرورة التغيير، مدركاً أن هذه الطاقات تحتاج إلى من يطلقها أكثر، ويحررها أكثر، ويعطيها المدى الحيوي الذي تتحرك فيه.

ومن هنا - أيها السادة - أخذت خطانا في سورية تنطلق، متسارعة، وفي وعينا المتنامي أنه لا يمكن أن نبقى هامشيين، وأن مسيرة التاريخ، وحركة المجتمع، لا تسمح بالمراوحة، أو الجمود الذي هو في النهاية موت، فانكفاء، فتخلف، فانهيار، لأي أمة تريد أن يكون لها دور في هذا العالم الموّار بالمتغيرات، ونحن، بالتأكيد، أشد ما نكون حرصاً على استعادة دورنا، وأداء رسالتنا، على مسرح الوجود.

أيها الإخوة والأخوات

الفيلسوف هيچل قال مرة: «إن بلدان الهجرة، هي بلدان الحنين» وتلك قولة بعيدة الأغوار والمرامي، يؤكد مغتربونا مصداقيتها، منذ بداية الرحيل الأول، حين حملوا إلى الأمريكتين إحباطاتهم وآلامهم، وفداحة مغادرة الوطن، وهاجروا مكرهين، لكنهم استطاعوا أن يتجاوزوا المحن، وأن يبنوا حياة كريمة، فكان منهم أولئك الذين غنوا مجد وطنهم وأمتهم، في شعرهم ونثرهم، وما نشروه من صحف ومجلات، بلغ عددها السبعين، في مرحلة مبكرة، وربما تجاوزت هذا العدد، وكتبوا باللهب صفحات تدافع عن قضايا الوطن الذي غادروه وأرضه، وأنشؤوا من الروابط والجمعيات، كالرابطة القلمية، في شمال أمريكا، والعصبة الأندلسية، في جنوبها، ما شكل معلماً بارزاً في أدبنا الحديث، ونهضوا بنشاط توصيلي سياسي ثقافي واقتصادي فريد، في منتدياتهم ومصانعهم ومشاريعهم المختلفة التي انتشرت في عواصم البلدان

التي اختاروها، للحياة فيها، وحملت إلينا نحن المقيمين تراثاً تجديدياً، فياضاً بالشوق الذي يجمع، في بؤرة الخيال، كل مرابع الطفولة ومغاني الشباب، وما أقام بالخاطرة، بالرغم من أنه ابتعد بالباصرة، وظل منقوشاً على لوحات الصدور، ويرسم ما يعانيه وطنهم الأم، من وطأة الاحتلال، ومن ضرورات التحرير، ويكفي أن نعود إلى بعض الافتتاحيات، والمقالات التي تصدرت مجلات الاغتراب لندرك حجم الارتباط بالوطن، وشدة التعلق به، والحنين إليه، وبعض هذه المجلات، لحسن الحظ، يحتل مكانه على رفوف مكتبة الأسد الوطنية في دمشق.

وكم كان زهونا كبيراً، بأبنائنا المغتربين في أمريكا اللاتينية، الذين حققوا نجاحات كبيرة، في أعمالهم ونشاطاتهم، والمكانة الاجتماعية والسياسية التي تبوؤوها، بين بدايات القرن الماضي، حين هاجروا، تحت وطأة ظروفهم، ونهايته، حين جاؤونا عام ١٩٨٥، في مؤتمر للبرلمانيين المتحدرين من أصل عربي، بعددهم الذي يربو على الأربعمائة، بين برلماني وحاكم ولاية، وكلهم يحمل في قلبه هوى، وجوى، وشوقاً لاهباً، إلى مرابع الأهل، ويحاول أن يبذل ما يستطيع، كي يسفر لهذا الوطن الأم، حيثما كان في وطنه الثاني، يعيش قضاياه، ويدافع عنها، ويشرح مضامينها، وينشر عروبته رايةً فوق بيته ومنتداه ومكان عمله، ويجلب لهذه القضايا الكثير من الدعم والتأييد، والكثير من الفهم والتعاطف والمساندة..

ومع ارتباطهم بالوطن الثاني الذي يعيشون فيه، وذلك حق له عليهم، فإنهم يعملون بجد، ويبذلون كل ما في وسعهم، من أجل الوطن الأم، وتتحول مشاعرهم النبيلة هذه تجاهه، إلى كفاح في سبيله، وإلى فهم لقضيته، ورغبة في تفهم أكبر لقضاياه، واطلاع على كل جديد فيه.

ولا أكتمكم ما اعتراني من أسى، حين كنت أحضر منتدى، في جامعة هارفاد، عام ١٩٦٦، يشرف عليه السيد كيسنجر، ولم يكن بعد قد تولى منصب وزير الخارجية في الحكومة، وكنا، على مدار شهرين، نعقد ندوات عامة، تلقى فيها محاضرات، في السياسة والاقتصاد، ويحضرها جمهور كبير، وكان يقلقني ألا أجد عربياً واحداً يسهم في مناقشة أو حضور، في حين أن حضور الصهاينة كان كبيراً ومستمراً..

وبعد نحو من أسبوعين، زارني ثلاثة طلاب، أحدهم سوري، وبدؤوا يبوحون لي بتخوفهم من الحضور، والتهديدات التي يتلقون، وعجزهم، بالتالي، عن أي مشاركة، وسألتهم، يومذاك، لماذا إذاً هذا الحضور اليهودي الدائم والمكثف؟

وأجابوني: لأنهم يمتلكون روابط وجمعيات تضم أعداداً كبيرة منهم، في الجامعة وخارجها، ولا يمكن لأحد أن يعتدي عليهم، وسألتهم باستغراب: لماذا لا تبدؤون بالتجمع، بتشكيل الروابط؟ وكأني بسؤالي هذا قد زدتهم حيرة. ألححت! ابدؤوا،

تجمعوا وتقحّموا، الخوف لا يولّد إلا الخوف ثم الهزيمة.. آن لكم أن تدركوا ذلك.

ومرت الأيام، وما تزال صورتهم في خاطري، وهم يتخبطون بالحديث عن مخاوفهم، غير أن الأمور، فيما بعد، بدأت بالتغير، كانت نكسة وتم تجاوزها، وصرنا نقرأ ونسمع عن روابط جديدة تتشكل، وجمعيات تنشأ، ونوادي ونشاطات، عربية وإسلامية في أمريكا وأوروبا، تنتظم في مجموعات، يتوجها إحساس بضرورة التضامن والتعاون والتماسك، ليكون للمغتربين المتحدرين شأن في الحياة العامة، وليدفعوا الأذى عن أنفسهم وعن انتمائهم.

* * *

أيها الإخوة والأخوات

الأخطار المحدقة بمنطقتنا كبيرة، وعلينا أن نتكاتف لدرئها، بعطائنا والفداء، وإننا لنحتاج إلى هذا العطاء والفداء، حاجتنا إلى الرغيف والبصر، لكننا لا نرضى أن تشكل مخاطر هذه المرحلة وصعوباتها، وتزايد الشمولية في مشكلاتها، عقداً، في حياتنا، أو أن تكون مدعاة للانكسار النفسي، فهي، في النهاية، عابرة وموقوتة، ومرتهنة بظروف دولية، هي بذاتها متغيرة.

ونحن، في سورية، إذ نجبه دنيا من هذه التحديات والإشكالات والافتراءات، نحاول أن نقرع أبواب مستقبل مختلف وجديد، مصممين على التمسك بمبادئنا، مهما اشتدت المحن، وعتا المعادون والمتواطئون، وعلى أن تبقى عزائمنا منضفرة،

متجاوزة، لا تقبل الهزيمة، ساعين إلى تصحيح ما انقلب من مفاهيم، متسلحين بثقافة مقاومة، مناضلة، تفهم الأمور على وجهها الصحيح، وتحمل قيمها السامقة، المستعلية، التي اختزنتها، في أرضها التي احتضنت دهوراً من التاريخ، بعيداً عن القيم الزائفة التي يحاولون زرعها في منطقتنا، كي نؤمن معهم بأننا الإرهاب، وبأن عدونا هو الديمقراطية، وبأننا الخطأ والخطيئة، وهم الصواب والحق والحقيقة.

والكل يعلم أننا لم نقبل، ولن نقبل، أي خلط بين المقاومة والإرهاب، وأي حديث عن الإرهاب يتجسد في السعي المغالط، لإيجاد المزيد من الذرائع، من أجل استمرار احتلال العراق، وتطويق لبنان، وتهديد سورية، والتحرش بإيران، وتبرير استمرار عدوان إسرائيل، على أرضنا وشعبنا، في انحياز مطلق إليها، يوفر الحماية لها، ولعدوانها، على الأرض، وفي مجلس الأمن، والهيئات الدولية المختلفة.

ونحن، في سورية، لا ننفك نطرح أسئلة العدالة والحق، ونعيد صياغتها، في وجه المآسي الكبرى التي تعيشها أرضنا، في مثلث الفجائع، فلسطين والعراق ولبنان، ومثلثات كثيرة، للانتهاكات، والتعديات، والمغالطات، والطائفيات، وأنماط الاستتباع السياسي والاقتصادي والثقافي، نطرح أسئلتنا، في المحيط الدولي، وفي مؤسسات أممية، وعلى دول متقدمة، لا تريد، كما تدعي، أن تقيم ميزان العدل، وأن تقيس الأمور بمعيار المنطق، أو لم تعد قادرة على ذلك، بعيداً عن الاستكبار الفوقي، والاستسلام

لأحاديـة القطـب، وإيقـاع الأذى، وممارسـة القهـر، والانتـصار للمصالح الخاصـة، في البحـث الملـح عـن القواعـد الاسـتراتيجية والاقتصادية، في أربع أرجاء الأرض، والتحفز المستمر للحـرب أو العدوان، باسم الدفاع عن ديمقراطية هذه الدولة أو تلك، والقضاء على العنف الـذي يـمارس، في أقـصى أبعـاده، في الـسوق الدوليـة، اغتيالاً، وسجناً واحتلالاً لأراضي الغير، دون أي وازع.

* * *

أيـها الإخوة الأعزاء

أيـها الأبناء

إن مسئوليتنا كبيرة في هذه المرحلة، مقيمين ومغتربـين، عربـاً وسوريين، ونحن في وطنكم هذا، قلـب العروبـة، سـورية، ومنـذ تاريخ بعيد، كما تعلمون، لم نغفل، في يوم من الأيام، الوجه القومي للدولة القطرية، وسعينا، مع إخوتنـا وأشـقائنا، إلى بنـاء مـستقبل عزيز كريم لأمتنا، للعرب كـل العـرب، ودعونـا إلى التماسـك ثـم التماسك ثم التماسك، على درب النضال الطويل، دفاعاً عن حقوقنا ومشروعية كفاحنا، وحرصـنا أن نظـل أمنـاء عـلى الـنهج المبـدئي المقاوم، تحقيقاً للسلام العادل، وأداء لرسالتنا، بعيداً عن كـل يـأس أو إحباط أو تيئيس..

وتحملنا من أجل ذلك الكثـير مـن ألـوان الظلـم، حتـى مـن الأشقاء، في بعض الأحيان، والكثير مـن الافـتراءات والاتهامـات التي لا ترتكز على أساس من الواقع، وغفرنا، وتناسينا..

ونحن اليوم نريدكم أن تسهموا معنا، ودون انقطاع، في بناء الحياة، في وطنكم، وتحمل المسئوليات في ميادين التنمية والكفاح الوطني، القومي والسياسي والاجتماعي والإعلامي، وكذلك في الاقتصاد والثقافة وسائر المجالات التي بها يكون التقدم تقدماً حقيقياً، ناهضاً ومنهضاً، يجعل حضورنا في العصر أقوى، وأبهى.

نريد أن نكون معاً، في السعي لإبراز الوجه الحضاري للأمة العربية عموماً، ولسورية خصوصاً، وفي الدفاع عن قضايانا العادلة، والرد على محاولة الإساءة للعرب، وتاريخهم، ومعتقداتهم، وتوضيح مواقف سورية، من قضايا العالم الراهنة، المستمدة من مواقفنا القومية..

نريد أن نعمل معاً في تنظيم حوارات فكرية ثقافية معمّقة، وبناءة، تستهدف مدّ جسور التواصل مع العالم، وربطنا بحركة التاريخ، إغناءً للمشروع العربي النهضوي الحضاري، برؤية راهنة مستقبلية دقيقة، تستوعب روح العصر، وتقاناته الحديثة، وبالتفاعل مع كبار المعنيين في العالم، وعلمائه، ومفكريه، وبفتح آفاق التعاون، رحبة، في كل الميادين، بما يرسّخ الخط العلمي الموضوعي، في تناول مجمل معطيات الفكر والسياسة والاقتصاد، وكل ما يرتبط بالأمور التي تسهم في تطوير وطننا وازدهاره.

إننا نتمنى أن يكون للجالية العربية عموماً، والسورية تخصيصاً، شأن في العلاقات الدولية، ببعدها السياسي والاستراتيجي والاقتصادي والإقليمي، عبر كل نشاطاتها،

وأنـديتها، وروابطهـا، وجمعياتهـا، في الأمـريكتين، وفي الغـرب والشرق، وكل أرجاء المعمورة..

وتذكروا أيها الإخوة أن رسالتكم التي تبدأ هنا على أرضـكم، لا تكتمل إلا بـما تؤدونـه في بلـدان الاغـتراب، وبالحـضور الـذي تحققونـه فيهـا، وأنـتم تمـضون في طـلاب كـل مـا يطلبـه الـوطن والشعب، والأوطان والشعوب، ولتكن التسمية ما تكون.. اللـوبي العربي؟ ولم لا؟ ليس غيركم أقدر مـنكم، بـل إنكـم بالتأكيـد -إذا عزمتم - الأفضل والأقدر، وبلادكم هـي الأحـوج إلـيكم في هـذه الأيام.

ولتتذكروا أيضاً أن رسالتكم لا تكتمل، إلا بالاهتمام باللغـة العربية، والحرص على تعليمها لأبنائكم، بشتى الأساليب الممكنـة، فلغة المرء هي بيته، وهي كرامتـه، وهـي معنـى وجـوده، وحـصن انتمائه، وهي العروة الوثقى، في حياة أمته.

ولعلي أشير إلى أن الرئيس البشار قد وجه عناية خاصة لمـسألة الارتقاء باللغة العربيـة، وتـسهيل تعليمهـا، وتوضـع الآن خطـط لتيسير تعلم اللغة العربية، بالاستعانة بالتقانات الحديثة، إضافة إلى جهود الأهل.

أيـها الإخوة

إنه لشيء رائع أن يجتمع الشمل بين مغترب ومقيم، وأن تكون لنا فرحة تجاوز المـدى، بلقـاء الأحبـة، وأن يتـسع رحـب حياتنـا،

مناداحاً بغير حدود، قولة نيرودا، في مؤتمر سيحمل ثمراتـه الطيبـة، بفضل جهودكم، والفيض الصادق من عواطفكم ،

كما يسعدني أن أنقل، إلى السيد الـرئيس بـشار الأسـد، معـزة المشاركين في المؤتمر، ومحبتهم وتقديرهم، وبالغ ثقتهم به، قائداً عليه ينضفر الأمل، وينعقد الرجاء، وبشجاعته يثق الواثقون..

الكل، يا سيادة الرئيس، مقيم على العهد، ثابت عـلى الوفـاء، يحمّلك الأمانة، وأنت أهل لحملهـا، بالعزيمـة الـصادقة، والإرادة النـزيهة، ومحبة الناس التي هي الرصيد الأكبر، والحرص على تحقيق التقدم الذي نصبو إليه.

رسالة محبة وشوق

من الذين أقاموا، إلى الذين اغتربوا(*)

لا المسافة، مهما تطل، ولا الزمن، مهما يباعد، بقادرين على قطع الخيط الدقيق، الرقيق، الشفاف، الذي يربط الإنسان بوطنه، وأرضه، وناسه، وكل الأشياء العزيزة على القلب والنفس، التي تجمع، في عروتها الوثقى، بين من ارتحل ومن أقام، بين من اغترب، وظل الوطن حنيناً في جانحيه، وبين من بعد، وشدت به التربة، من حيث هي بيت، وأم، وأب، واخوة، وجيران، وحديقة، وزهرة، وشجرة، وربوة، وخضرة، ورف من العصافير المنطلقة في الأصباح والأماسي، على ذهبية من أشعة الشمس، في شروقها وغروبها على السواء.

إن خيط بنلوب، كما في الأسطورة، ينطلق من بؤرة الشوق، ويمتد إلى بؤرة الشوق، جامعاً بين قلبين، بل بين قلوب، كأنه النداء

(*) كتبت هذه الكلمة عام ١٩٨٦، والأمل اليوم، أن تعود الحياة إلى ألقها، والأبناء إلى مرابع الطفولة، وتنتفي الهجرة المفروضة تهجيراً، في ظروف صعبة، ويرتفع البناء عالياً في مواقع الدمار، ويظل الوطن شامخاً في إبائه وتجدده وروعته وإحداثاته.

في الأذن، من نسيج المحبة ذراته الصوتية التي هي أسرع من الضوء، وأنصع من الثلج، وأحر من الجمر، في وقعها، واندياحها، ولونها، وومضة التذكار التي تحملها شحنة مكهربة أبداً، تعز على النسيان، وعلى السلوان، وعلى الصبر، وعلى الفرقة، وتبتعث الحنين مرضياً في مداه الأقصى، وتوقاً، غلاباً، عصياً، في مداه الأدنى، ودفئاً استرجاعياً لشرارة الذكرى التي تنقدح ناراً، كلما تلفت المهاجر إلى وطنه الأم، وذوباً قلبياً كلما غابت الوقائع، لتحل محلها الرؤى، هذه التي تدرك بعين الخيال، وبعين الحلم، وبعين الالتفات القلبي، منذ تغيب الأشياء عن البصر، وتبقى مدعى شوق، ومرتع أمل، كان يوماً وليداً، ثم نما، وكبر، وشبّ، واستوى في الرجولة، ونضج في الكهولة، لكنه ملازم للبدن، ما دامت فيه روح تغذي، بنسغها القدسي، أملاً موعوداً بالعودة.

ولست أذكر اسم الشاعر المغترب الذي وقف، كما العاشق في ماضي الزمن، على أطلال القبيلة، وراح يبكيها، إذ يبكي من كانوا أعزة على قلبه فيها، أو على الحبيبة التي ارتحلت، وظل عطر الشوق من بعدها، يتضوع في الهواء، بخوراً أريجه يفوح من مجمرة غير منظورة.

يقول الشاعر المهجري:

ولقد وقفت، كما وقفت، على الطلول الباليه
وبكيت حتى بلّ دمعي، كل تلك الناحيه
يا ليتني أمسيت فيكم، لا علي ولا ليه

إن لهفة النفس، الممتدة ناراً بين الضلوع، لا تصوغ ذاتها آهاً، ولا ترسمها أنيناً، بل تطلقها دمعاً، لأن الدمع وحده، في صدق اللوعة، وحسرة النفس، هو الذي يريح الأعصاب المتعبة، من فرط شوق وحنين، إلى الديار الأولى، ديار الطفولة والصبا، ديار الأبوة والأمومة، ديار الاخوة والأصدقاء والأتراب، ديار القرية المشرورة، ببيوتها البيض، وقرميدها الأحمر، وأزهارها التي تتصاعد درجاً، من سفح الرابية إلى ذروتها، من منبسطها إلى خاصرتها، حيث أرض الأجداد التي خاطبها حليم دموس، وهو في مغتربه في البرازيل قائلاً:

عليك مني السلام، يا أرض أجدادي
ففيك طاب المقام، وفيك طاب إنشادي

ولقد جاهدت عيناي، مجاهدة غير يسيرة، كي لا تذرفا الدمع، حين كنت أصغي إلى مطرب لبنان، مطرب جبله الأشم، وأرزه السامق، وديع الصافي، وهو يغني حوارية بين أم مقيمة، وابنها المرتحل، من خلال رسالة وصلت الأم، حاملة التحايا إلى القرية، والقرى، والعاصمة والمدن، والأهل والأحباب، والأم تريد أن تكتب رسالة جوابية، فيها التحية بمثلها، والشوق بما يوازيه، والحنين بما يفوق طاقة الابن على إدراكه، وهو يعتمل في قلب الأم، التي تنادي ابنها، لا في طلب الجواب، بل أن يكون هو الجواب، لأنه بشخصه، بلحمه ودمه، بشميمه ونداوته، قادر على أن يكف لوعة هذه الأم، التي طال انتظارها، وطال حنينها، وطال عذابها،

فحملت صوت المغني صرخة ملهوفة، أن يكون ابنها، هو الجواب على جوابها، في هتفة تصعد من الأعماق، وتصرخ على الشفاه: «ولك يا ابني أنا مش ناطرة منك جواب، بدّي الجواب تكون أنت موضعو».

في لغتنا العربية عبارة مفردة، معبرة، ما أحسب أن ثمة مثلها في لغات العالم، وهي عبارة«الوطن قتّال»، والقتل هنا هو الجوى، هو الهوى، هو المعزة التي تنبت في الذات، وتمد فروعها إلى الذوات التي فارقت، فيكون، رغم المسافة، تشابك في غصون الشوق، والحب، والحنين الذي لا يبرح يتسعر جذوة لا تطفئها السنون في تطاولها، وتقادمها، وإمعانها في مسيلة الزمن.

فإذا أضفنا إلى الحب العائلي، والحب الأبوي، والحب للأشياء الخاصة، ذلك الانتماء الذي لا انفصام له، بين مغتربينا وعروبتهم، وبينهم وبين اوطانهم، فإننا نستطيع أن نفهم مواسم الحج، كل عام، أو كل أعوام، إلى أرض الآباء والأجداد، وتلك الفرحة الصارخة في العيون، وعلى الشفاه، وفي الأكف، وعلى الأنامل، وفي كل ذرة من كيان المغترب إلى كيانات الذين يعود إليهم في أرضه التي فارق، وحقلته التي خلّف، وذويه الذين نأت به الدار عنهم، لكن قلبه مايزال يملأ بشوقه أركانها الأربعة.

وما من شك في أنّ إخوتنا المغتربين، الذين يحملون الوطن ماسات تحت أثدائهم اليسرى، ويحملونه تميمة في العنق، وزاداً في اليد، وظمأً في القلب، يسفرون لهذا الوطن الأم، حيثما كانوا في

أوطانهم الثانية، ويعيشون قضاياه، ويدافعون عنها، ويشرحون مضامينها، وينشرون عروبتهم راية فوق بيوتهم، ومنتدياتهم، وأماكن عملهم، ويجلبون لهذه القضايا الكثير من الدعم والتأييد، والكثير من الفهم، والعطف، والمساندة، فيكون لهذه المساعدة المعنوية، إضافة إلى المساعدة المادية، الوقع الطيب، المرتقب، والمرتجى من مواطنين مخلصين، إلى وطنهم الأول الجدير بالإخلاص، ومن أبناء بررة، إلى أمة خليقة ببرهم وحبهم ونضالهم، على كافة الجبهات.

ومع ارتباطهم بالوطن الثاني الذي يعيشون فيه، فهم يعملون، صباح مساء، ويبذلون كل ما في وسعهم، لأجل الوطن الأم، وتتحول مشاعرهم النبيلة هذه تجاهه، إلى كفاح في سبيله، وإلى فهم لقضيته، ورغبة في تفهم أكبر لقضاياه، وبذلك تكون المعاناة مشتركة بيننا، نحن الذين نجاهد هنا، وهم الذين يجاهدون هناك، في سبيل دفع العدوان، والوثوب على الأذى، والذود عن الحدود، وصيانة الأرض من أن تدنسها قدم محتل، أو تبقى تحت وطأة قدم محتل، أو تستكين للاحتلال، أو يلوي بطشه من شكيمتها، أو ينالها من طغيانه هوان، أو تصبر على وجوده، أو تهادن هذا الوجود، أو تتقبله، مادام الدم الأرجواني فدية أرض، ووطن، وأمة، ومصير، وقد بذلنا هذا الدم، ونبذله كل يوم، في سبيل تحرير الأرض، واستعادة الحقوق، وجبه خطر الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، والحيلولة دون تحقيق مشروعه، في التوسع والانتشار، من النيل إلى الفرات.

لقد كان لأدب المهجر المتميز، الرائع، الذي شكل جزءاً عزيزاً وعظيماً، من أدبنا العربي في هذا القرن، أثره الكبير فينا، لأنه عبر عن ضمائرنا، وأفصح عن مشاعرنا، وأثبت، بما انطوى عليه من فكر وأدب وفن، وبما كان له من شأن في الشعر والنثر، أنه كنز في تراثنا، ومفخرة في حياتنا، لأنه أدب صادق المعاناة، صادق الصياغة، صادق العاطفة، ولأنه أفاد من آداب الأمم التي صدر في بلدانها، فكان ثميناً في تأثره وتأثيره، علمنا الكثير، وتعلمنا منه الكثير، واتخذ له ركنا فسيحاً، ضخماً، في مكتبتنا العربية، وصار له قوام بذاته، وشخصية فنية بعينها، تميزه، وتمجده، وتتمجد به، في كل آن.

ومن دواعي غبطتنا أن مغتربينا قد حققوا نجاحات كبرى، في أعمالهم ونشاطاتهم، والمكانة الاجتماعية والسياسية التي تبوؤوها، وإنهم، من منطلق هذه المكانة، وباستفادة منها، قد عملوا لقضاياهم الوطنية والقومية، وشاركوا في مؤتمر البرلمانيين المغتربين، المتحدرين من أصل عربي، الذي عقد العام الماضي، ١٩٨٥، في دمشق، مشاركة قيمة وطيبة، ورفعوا الصوت القوي، والجريء، في الدفاع عن حقنا الواضح، وقضيتنا العادلة، وعادوا إلى مهاجرهم لمتابعة الرسالة التي وفدوا إلى دمشق من أجلها.

إننا لا ننسى فرحة القاء بهؤلاء الأشقاء الأعزاء، وباجتماع شملنا بهم، واجتماع شملهم بأهلهم، وزيارة مراتعهم في قطرنا، ومعاينة منجزاتنا وتحولاتنا الكبرى على الطبيعة التي يعود الفضل فيها إلى الرئيس حافظ الأسد ورعايته وعنايته المباشرة، والتمتع بما

في سورية من مواقع جميلة، ومناظر خلابة، وأماكن أثرية وتاريخية هامة، في تدمر وبصرى وأوغاريت وإيبلا وغيرها، التي يقصدها العلماء والآثاريون والسياح من كل أنحاء الدنيا، ليعاينوا المكتشفات الأثرية التي أحدثت ضجة كبرى في العالم، وكشفت عن حضارة عريقة، تعود إلى آلاف الأعوام قبل الميلاد، وتتساوى مع حضارتي مصر وبلاد ما بين النهرين، وكان شأنها أن قلبت مفاهيم تاريخية كانت سائدة، وغيرت الكثير من كتب تاريخ الحضارة المقررة للدراسة في الجامعات.

إن هذا الحجم الحضاري الباذخ الذي يجعل من سورية بلداً ينهض على أرض ممتلئة بالكنوز الأثرية، إضافة إلى ضخامة النهضة العمرانية والثقافية، وإلى بناء الوطن وجعله دولة حديثة، في كل مرافقها ومنشآتها، وفي كل بقعة فيها، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وإلى مناخها الرائع، في فصوله الأربعة، وإلى مصايفها الجميلة، المشهورة، في الزبداني وبلودان، وغابات كسب، وجبال اللاذقية، حيث تتجاور زرقة الماء وخضرة الغابات، وفي مدينتها الجديدة، تماماً، مدينة الثورة، وسد الفرات العظيم فيها، وبحيرة الأسد الخلابة، والمشروع الرائد الذي يجاورها، ويمتد على الفرات العظيم، مستصلحاً التربة، مستنبتاً الخضرة، حاملاً الري عبر أقنية ضخمة، حديثة، إلى أرض تتفتح من جديد للحياة، وتحفل بحقول زراعية واسعة، وبساتين فاكهة معطاءة، ان كل ذلك، مع النهضة الثقافية الشاملة، ونشاطاتها الكثيرة ، في المسرح، والسينما،

والمتاحف والمعارض، والمهرجانات العديدة، مثل مهرجان دمشق المسرحي، ومهرجان دمشق السينمائي، ومهرجان بصرى الدولي، وفرق الباليه والرقص الشعبي، والفرق الفنية الأخرى، التي تأتي من أوروبة والقارات الأخرى، وتقدم حفلات الباليه، في أرقى ما وصل إليه هذا الفن الجميل، على مدرج بصرى، وقصر العظم، وفي المسارح الأثرية مثل مسرح جبلة وقلعة حلب وغيرهما، وعلى مسارح المراكز الثقافية في المحافظات، وفي الهواء الطلق، وليالي الصيف والخريف المقمرة، وتحت أشعة الأنوار الكهربائية المقامة للصوت والضوء، تجعل من سورية بلداً جديراً بأن يزوره الأبناء المغتربون، ويتمتعوا فيه، إلى جانب كل ما ذكرت، بالأمسيات الساهرة الساحرة، التي تقدم فيها حفلات الغناء، ويتردد صوت الميجانا والعتابا وآهات«أبو الزلف» معيداً ذكرى الماضي ونشوته، ومذاقه العربي الشرقي، ذا النكهة الفريدة.

لقد أضحى العالم، في عصرنا، وما فيه من سرعة المواصلات، صغيراً، قريباً، في متناول العين واليد، وزيارات أبنائنا المغتربين ميسرة إلى درجة لا تصدق، وهم في زياراتهم هذه، يكحلون العيون بمرأى المراتع التي ولدوا فيها، وترعرعوا على أرضها، ويعانقون الأهل، ويرتوون خافقة وبصيرة، ويطلعون على الجديد، كل الجديد، في بلدانهم التي رحلوا عنها ذات يوم، وكانت، عمرانياً، في حال، وأضحت في حال أخرى، مترعة بالفرحة والبهجة، بسبب التغيرات التي طرأت عليها.

إننا نعرف أن خيط الأسطورة الاغريقية الجميلة، الذي يمتـد بين الحبيبة المقيمة وحبيبها الراحل، مازال خيطاً قوياً متيناً، يـربط بيننا وبين أحبتنا في مهاجرهم، وإذا كان هذا الخيط من الدقة بحيث لا يرى بالعين، فإنه في الـصدر نيـاط يجمـع بـين القلـب والجـسم، ويجمع بين قلوب وجسوم الذين هنا، والذين هنـاك، ولـن ينقطـع هذا الخيط أبداً، لأنه خيط العروبة، وخيط الذكريات، وخيط الذين يتواصـلون عـبر مـودات الأهـل، وقـضايا الـوطن، ويتنـاجون ولا كلام، لأن النجوى أقوى من الكلم، وأشد قدرة على التوصيل، وأسرع في الاستقبال، وفيها، وعبرها، نبث اشواقنا، ونتبادلها، كـل يوم، وكل ساعة، من عمرنا الذي يزهر فيه التوق، ويحلق بأجنحـة الحساسين، مرتفعاً إلى أعلى، كالصلاة عند الغروب.

الإخاء في وجه الإنساني
تحية من بردى إلى النيل(*)

إلى لجنة التضامن في ذكرى التأسيس

يشعر المرء أحياناً أن الكلمة أكبر من الوجود، وأن حكاية الكفاح فيه هي الأكبر وهي الجوهر، والمهمات التي تلقيها على عاتقنا ذات أبعاد، تملي علينا مسئوليات لا نعرف، حتى مع ثقتنا بأنفسنا، كيف ننهض بها، وإن كنا نمتلك العزم على النهوض، ونؤمن أن العمل الدؤوب هو الذي يذلل الصعاب، ويأتي بالثمار، ويعطي الجهد أن يبلغ غايته المنشودة.

خمسون من الأعوام! لقد مرت كلمح البصر، والزمن يمضي بنا في سيلانه، ونحاول وهو يأخذنا مع الريح الذهبية، أن نعود به إلى وراء، في نظرة استرجاع حانية، إلى أيام من التاريخ حافلة، فياضة بالطموحات، متألقة بتوجهات إنسانية، وبوجوه وزعامات ومواقف، تسامت في البحث عن قيم التآخي والتضامن والتساند، كي تجعل منها قاسماً مشتركاً بين شعوب العالم، وعلى أرض الواقع،

(*) مساهمة بكلمة في الكتاب الذي أصدرته اللجنة المصرية للتضامن بمناسبة العيد الخمسين لتأسيسها، أيلول ٢٠٠٧.

وفي بلـدان العـالم الثالـث، وأهزوجـة نـصر لكـل مـا يـستنهض الشعوب، ويحقق التوازن، ويبني السلام، ويدفع العدوان.

ويتلامح في ذاكرتنا الحية المـؤتمر الأول المؤسـس لـدول عـدم الانحياز، مؤتمر پـاندونـچ، والمسيرة الفريدة التي شق دربها الزعيم العربي الكبير جمال عبد الناصر، مع رفاق له من زعماء العالم الأفذاذ آنذاك، حين حُملنا، في إشراقة لحظات بهية من التاريخ، على جناحين نسريين، إلى آماد بعيدة، وآفاق مستقبلية واعدة، تطرح الهم والحلم، وتضج بأشواقها وهي تصغي لنداء الأرض، مدركـةً أبعـاد معانـاة الشعوب، والمآسي التي تلف حياتها، لكنها ترسم بالوعي العميـق، وبـالنظرة المستبـصرة، وباستـشراف الآتي، الـرابض عـلى تخـوم المجهول، النهجَ السليم المناضل الذي ينبغي أن يرود لحياتنـا، لأنـه وحده الذي يسعف أحرار العالم، في تكوين جبهة منيعـة قويـة، بهـا يتحقق التقدم والنهـوض، وتـشرق شـمس الحريـة عـلى الجميـع، لتغمر بنورها الجميع أيضاً.

وهكذا، وفي هـذا الجـو اللاهـب، الحـالم، والواثـق، تطلعـت شعوب آسيا وافريقيـا ودول العـالم الثالـث، فكـراً وقناعـة وفعـلاً وممارسة، إلى عالم أكثر تضامناً وعدالة، عالم متعدد الهويات، متعـدد الثقافات والحـضارات، تمـارس فيـه الـشعوب حقهـا الطبيعـي في السيادة وتقرير المصير، وفي مناخ من الحرية والمساواة وإعلاء شـأن الإنسان.

وكأشقاء في وحدة الموقف والهدف، وبالمفاهيم التـي أخـذت تتـشكل وتتعمـق، أحكمنـا، نحـن العـرب، الـربط بـين شـعوبنا،

وتوجناه بالتعاضد بين أمتنا العربية، وبلدان آسيا وافريقيا، وكان من هذا الربط العربي الافريقي، التضامن الافريقي مع العرب، في كفاحهم ضد عدوان إسرائيل، ومطامعها التوسعية، وكان التأييد العربي لكفاح الافريقيين ضد العنصرية، في جنوب أفريقيا، وضد التدخل الأجنبي في شئون البلدان الافريقية الأخرى، وما ابتعثوه من فتن ومن إحن، ومن حروب بين بعض هذه البلدان، وبين أبناء البلد الافريقي الواحد أحياناً،

وإذا كان للتضامن العربي الافريقي هذا الأثر، في إجلاء المحتلين، وقهر العنصريين، وفي مدافعة العدوان المتواصل على أرضنا وحقوقنا، فإن هذا يحدو بنا الآن ضرورة، وأكثر من أي وقت مضى، إلى الاستقواء بهذا التضامن، في عالمنا الثالث، وإلى تقوية الصلات، بأكثر مما هو مستطاع، بين بلداننا العربية، والبلدان الآسيوية والافريقية،

إننا نثمن عالياً، وفي هذا السياق، الرسالة التي حملتها لجنة التضامن العربية المصرية، عبر تاريخ طويل، أعطت خلاله، للجدية في العمل صدقيتها، وقدمت مثلاً يحتذى به، في متابعة سيرورتها، المنفتحة على قضايا الشعوب، المتفاعلة معها، وهي تصدر، في ذلك، عن قناعة بأن الإخاء، في وهجه الإنساني، هو المثل، وهو الهدف، في وجه كل المتغيرات التي زلزلت وتزلزل عالمنا، وأن الكفاح المشترك هو الذي يجعلنا نحقق دورنا في التجميع لا التشتيت، دور الإنارة والتلاقي، على الصعيد الإنساني، لا التنائي على الصعيد نفسه، وفي

بناء التفاهم الدولي، على أساس الاحترام المتبادل، وليس الاستعلاء أو الاستصغار.

لقد أسهمت لجنة التضامن التي نحتفي بعمرها الخمسيني اليوم، في إرساء التقاليد العربية، في الكفاح الوطني والقومي، عبر هذا الزمن المديد، وقد عرفها وخبرها كل مطلع على تاريخها المرتبط بتاريخ تلك الحقبة، وإننا لنعتز بها جميعاً، في وطننا العربي، ونستمسك بعروتها الوثقى..

وفي ظل الوضع الدولي الراهن الذي انتهينا إليه، ذي القطب الأحادي، والمتغيرات المتسارعة، وانعدام التوازن الدولي، وما يثيره من قلق، ومن انعدام للمساواة، وافتقار إلى العدالة، وإلى الدفاع عن حقوق الشعوب، حتى ضمن المنظمات الدولية، وفي إطار حالة عالمية شديدة التعقيد، شديدة التوتر، نعاني فيها من حجم التوجهات العدوانية، ومن تهديد متواصل للأمن والسلم الدوليين، وزرع للفوضى في أرهب أشكالها، واعتماد على القوة العسكرية، وإمعان في سياسات التسلح الضارية، وفي شن الحروب على الشعوب البريئة ونهب ثرواتها،

في ظل هذا الوضع الراهن البائس والمتأزم والخطير، تغدو هذه اللجان ومثيلاتها، والمنظمات التي انبثقت هي عنها، ضرورة قصوى، في وقت يحتاج العالم فيه إلى نظام جديد للعلاقات الدولية، يحقق التوازن، ويكون المقام الأول فيه لحرية الشعوب، وحماية الأمن، وتحقيق المثل وقيم الحق، والاهتمام بقضايا التنمية، والإيمان بأن العالم لا يحتاج إلى الحروب والقتل والتدمير وممارسة أشكال

القهر والعدوان والنهب والإفقار، بل إلى التعاون والتضامن والتآزر، من أجل ردم الهوة المتسارعة، في تعمقها وتوسعها، بين مجتمع الغنى والقوة والاستئثار، ومجتمع البؤس والمعاناة والضعف، بين شمال وجنوب، ومن أجل تحقيق خلاص إنساني وتوازن دولي جديد، يرسخ دور الأمم المتحدة في وجه محاولات تغييب هذا الدور، وتعطيله، من قبل الدول القادرة على ذلك.

ولم يكن في الخاطر أبداً، ونحن نتحدث عن التضامن، أن نجد أنفسنا، في حدودنا العربية، محتاجين حاجة بالغة، إلى أن نستعيد هذا التضامن شبه الغائب، كي يتجلى وجه الإنسان العربي، ماجداً كما كان، وكما سيظل، وكي تستعيد أمتنا مجدها، وتصون حقوقها، ووجودها، فالأمم الحية تقفز فوق آلامها وتخلفها، ولا تجعل منهما سبباً لتجريح الذات، أو اليأس من إعادة الوهج إلى شعلة وجودها التي تبشر دائماً ببزوغ فجر للتضامن والوعي والتعاضد..

ويهمني، بهذه المناسبة، أن أذكر بأن الشعب العربي في الوطن العربي، ثابت على مواقفه المبدئية، من مسألتي تحرير الأرض العربية واستعادة الحقوق الفلسطينية المغتصبة، وإجلاء الأجنبي عن كل شبر من ترابنا، مهما طال الزمن، ومهما بلغ حجم التضحيات، وحجم التآمر والاستلاب والتهميش والقهر.

ويهمني أن أذكر بأن أمتنا أمةٌ محبة للإنسان ولمجده وخيره، ومحبة للسلام والتفاهم الدوليين، وأنها تقف بشجاعة مخلصة ضد العنصرية والعدوان والموت والاستلاب، وفي مواجهة العدوان المتواصل الإسرائيلي والأمريكي على أرضنا وحقنا وأبنائنا، في

محاولة لفرض الأمر الواقع علينا، خارج كل منطق، وتحويل الجلاد إلى ضحية، والمعتدي إلى معتدىً عليه.

* * *

لقد قلت مرة: «القاهرة، بالنسبة إلينا، أكبر من عاصمة، وأضخم من مدينة. إنها المنارة التي تسطع بنورٍ ألِق، من ألوانه الأخوة والصداقة والتعاون والدعم والتضامن..

ومن رموزه القوة التي يستقوي بها المناضلون، في سبيل التحرير، ورفع العدوان، وتحقيق الاستقلال، والدفاع عن حق تقرير المصير، في مواجهة الاغتصاب والاستلاب،

ومن معانيه الحرية والسلام والعدالة الاجتماعية التي هي مطمح الشعوب»..

خمسون ! والتهنئة، مهما كانت حارة، لا تحمل ما في نفوسنا من تقدير ومحبة، وحرص على أن تظل لجنتكم العروة التي تجمع وتساند، والوعدُ أن نعمل، كمثقفين، من أجل تمتين الأواصر، ودعم التضامن، بالكلمة والفعل.

تحية إليكم في لجنة التضامن، رئيساً هو الأخ العزيز الدكتور أحمد حمروش، وأعضاء مخلصين متميزين، وإلى مصر العزيزة، المركز الأكبر للإشعاع الثقافي الإبداعي العربي، وإلى أهلها الذين هم أهلنا..

تحية من بردى إلى النيل، ومن زرقة بحرنا المتوسط هنا إلى زرقته على شواطئكم، ومن قاسيون إلى المقطم..

والمستقبل لأمتنا العظيمة، أولاً وأخيراً.

وجهة نظر في حوار الحضارات(*)

في أيامنا الراهنة هذه، يغدو تفعيل الحوارات المعرفية بين الحضارات، وبناء العلاقات، وتوثيق التلاحم، أمراً غاية في الضرورة، بل ينبغي أن يكون الهم الإنساني المشترك، إذا فهمنا الحضارة على أنها هذا الفعل الكلي الذي يشكل جوهر المجتمع البشري، وينتظم جماع السمات المميزة للأمة، ومجموع معارفها، وقيمها، وإبداعاتها، ووجوه حياتها، السياسية والثقافية والاجتماعية والتنموية، وذاكرتها الضاربة في أبعاد التاريخ، ويعني، بالتالي، هويتها وأصالتها، ومعنى وجودها، وإسهامها الخلاق، في ثقافات العالم.

وقد يكون علينا أن نذكّر وألا ننسى، أن أرضنا العربية التي تقوم على بحر من الحضارات القديمة والوسيطة والحديثة، والتي أرجعت حدود الماضي إلى وراء، وأسهمت، بما كشفت عنه، باتساع معرفتنا بتاريخ الإنسان والكون، قد كانت المهد الحضاري الأهم،

(*) كلمات موجزة في حوار الحضارات، أرسلت للأمانة العامة لجامعة الدول العربية حول نشاط القطر العربي السوري في دعم حوار الحضارات والتعريف بالحضارة العربية، ٢٠٠٧.

كما أكدت الأبحاث الموثقة، والاكتشافات الآثارية المتتالية، إذ كانت منطلق الحياة المدنية، وأقدم بقعة ابتدع الفكر فيها أصول الحضارة، وأصول الحكم، ومنها عرفت الإنسانية أوائل مكتشفاتها، ومن شطآنها امتدت الجسور الأولى للتواصل مع العالم، سلماً وبناء، ومعلومات، وتجارة، وإبحاراً إلى الآفاق البعيدة.

وبعد قرون من الانغلاق، ومع انطلاقة النهضة، في مطالع القرن الماضي، اتضح لرواد هذه النهضة أن الحياة في العصر، وسيلتها الثقافة، بما هي علم ومعرفة، وما لها من دور تغييري كبير، وأن التبادل الثقافي مع الدول الأخرى، هو السبيل الصحيح للتفاهم، وإنماء المعارف والخبرات، وصار الحرص كبيراً على تحقيق التفاعل بين ثقافتنا العربية، والثقافات العالمية، بقصد الإغناء والاغتناء، وفتح آفاق التعاون المثمر، بأطره الفكرية التنويرية النهضوية المعرفية والإبداعية.

وكان طبيعياً، فيما بعد، أن نستجيب في سورية، كما في الأقطار العربية، للدعوات الأولى إلى حوار الحضارات، منذ مطالع الستينات، إيماناً منا بأن هذا الحوار هو الذي سيقود عالمنا، بما يشهد من متغيرات وتداعيات، لمفاهيم ترتقي به إلى مصالحة الحقيقة والمنطق، ووضع الأمور في موضعها الصحيح.

وفي فرح المعرفة، وتوق الشوق إلى النور، لم تراودنا شكوك في أي دعوة للحوار، ذلك أن الحضارات، في راهنيتها والتاريخ، كانت دائماً حضارات متفاعلة، في الأخذ والعطاء، متطورة نتيجة هذا

التفاعل والتبادل، تقدم كل منها إضافتها، في مسيرتها المتعالية على منطق الصراع الزائف.

لقد تطلع العالم الذي أنهكته الحروب، كما تطلعنا نحن، إلى هذا الحوار الحضاري الذي شكّل، منذ بداياته، صبوة ضمير، وإرادة خلاص، تحقيقاً لتواصل إنساني، يبني بأخلاقية رسالته "جبهة العقل" ويمكن من استعادة الذاكرة الحضارية للبشرية، ومن تكوين جبهات منيعة، من مثقفي العالم، المعنيين برسم ملامح المستقبل الأفضل، تنتفي في حدودها، محاولات الإلغاء والقطيعة، بين الشعوب والأعراق، وترعى، بمصداقية، أشكال التنوع والتفاعل، وتؤمن بأن لكل أمة، مهما بدا شأنها ضئيلاً، ما تقدمه للأمم الأخرى،

وأن إلغاء الحدود بين الحضارات والثقافات، أمر أساسي، لكن إلغاء حضارات الأمم، وثقافاتها، استصغاراً لها، من أجل إحلال حضارة الوجه الواحد، ذي اللون والملامح الواحدة، أمر مرفوض، وهو في غاية الخطورة.

لقد أسهمنا في عملية الحوار هذه، منذ البدايات، كما قلت، وشاركنا في مؤتمرات وندوات، وملتقيات، في بلدان مختلفة من العالم، وألقيت محاضرات هامة، وألّفت كتب، كما عقدنا على أرضنا مؤتمرات على مستوى عربي ودولي، وأقمنا معارض للحضارة في أرجاء العالم، من اليابان إلى الولايات المتحدة، إلى أوربا، إلى روسيا .. وقطعنا أشواطاً في إسهاماتنا، مؤمنين إيماناً كبيراً بأن الحضارة

لا تتواطأ، وينبغي أن تكون متفتحة، منفتحة، متفاعلة، فهي أساساً، لا تلغي غيرها، ولا تلغي بغيرها، إذ ليس من حضارة لاحقة تلغي حضارة سابقة، بل هي تؤكدها، بالتداخل معها، تأثراً وتـأثيراً، ثـم هي، في النهاية، ملك للإنسانية جمعاء.

ظاهرة حوار الحضارات هذه، تتسع أكثر فـأكثر، وتنـشأ مـن أجلها مؤسسات، في أوربا وروسيا واليونان وغيرها مـن البلـدان، وهي تطرح، في هذه الأيام، سؤالاً جديداً، نطرحه نحن أيضاً، وعن قناعة، في محاولة لتصعيد الحوار إلى ما هو أعـلى وأصـح، والـسؤال المطروح اليوم، بعد أن تجاوز الجميع فكرة صراع الحضارات، التـي تؤدي بنا إلى التدمير بدل التطوير، وإلى التباعد بدل التقـارب، وإلى التناقص بدل التكامل، السؤال المطروح هو عن طبيعة العلاقة بـين الحضارات: هل هي، فعلاً، علاقـة حـوار أم هـي علاقـة تكامـل، تأخذ فيه كل حضارة من سابقاتها، تتمثل ثم تبتدع تأليفـاً جديـداً، يقدم إضافته، تماماً كما فعلت الحضارة العربية، حـين حملـت، عـبر الأندلس، كنوزها المعرفية إلى أوروبا ؟

وحضارة اليوم، في دول العالم المتقدم، تبني إضافاتها عـلى مـا سبق، مما يسمح لنا أن نتحدث عن تكامل حضاري، أو مشاركة، أو تشارك، لا يسلب الراهن مضامينه، لكنـه يـتلمس أسـاس البنيـان وجـذوره، ومـا قـدّم المـاضي للحـاضر. وهـذه المفـاهيم الجديـدة والمتجددة التي أخذ بها مفكرون كثر في العـالم، جـديرة بالتقـدير، لأنها تستهدف ضمان الـترابط الإنـساني العميـق الـذي لا تتحقـق إنسانية الإنسان إلا به، وفي المسافة التي تعزل بعـضنا عـن بعـض،

وتجعل من كرتنا الأرضية مدارات للتناحر وسوء الفهم، ينبغـي ألا نسمح بأن تعزلنا حضارياً ومعرفياً، إذ لابد من أن يقترب الإنـسان من الإنسان، بالمعرفة التي تولد الفهم، وربما تقود إلى درب أوضح، تستعلي فيه العدالة، وينتفي القهر.

ولا بـد هنـا مـن أن أشـير إلى أننـا سـعينا، وسـنظل نـسعى، مستندين إلى الأمانة الحضارية التـي نغـلي، ومـن خـلال التعـاون الثقافي والتبادل النـزيه، إلى حوار مفتوح، على أسـاس النديـة، بـين الوطن العربي والغرب، وإلى تطوير هذا الحوار، وصولاً إلى التفاهم الصادق، وإلى تبديل نظرة بعض الغرب إلى العـرب، إذا مـا كانـت هذه رغبته، ولابد أن تكون، وإلى تخليه عن كل تعسف، أو تعصب، أو تمويه للقهر الممارس ضـدنا، أو المحـاولات المتواصـلة لتـذويب شخصيتنا، واستلاب هويتنا، وكل ما هو ناشـئ عـن إيديولوجيـة مضللة، تعمل لتشويه صورتنا أمام الشعوب التي نؤكد عـلى أهميـة التعاون معها، بشكل موازٍ ومساوٍ، ولا نقول ذلك خشيةً من اتهام، أو انطلاقـاً مـن مخـاوف لا وجـود لهـا في ضـمائرنا، ولا يمكـن أن نتبرع بتنازلات تمس جـوهر وجودنـا، وتقلـب كـل معطـىً نبيـل في حياتنا.

لقد أردنا لثقافتنا وحضارتنا أن تكون جسراً تعبر عليـه ثقافـة الآخرين إلينـا وحـضارتهم، كـما تعـبر ثقافتنـا وحـضارتنا إلـيهم، وسعينا إلى أن يكون المدى الفكري الـذي يـشكل فـضاء التواصـل بيننا، مترامي الأبعاد، لكنه ينبغي أن نعترف بأن علينا أن نسهم مـع

البلدان التي سبقت، في هذا المضمار، بتأسيس بُنىً مستدامة، هدفها البحث عن آليات مجدية لهذا الحوار المنشود، ونشر مفهومه، في أرجاء الأرض، عبر شبكات الانترنيت، وإحداث تغييرات أساسية، في بنية المجتمع الحديث، باتجاه خلق رؤى مشتركة، من أجل تكوين مجتمع دولي ذي نظام عالمي جديد، تتعايش فيه الحضارات، ويتأسس على معايير قيمية، وعلى القانون الدولي، وعلى الإيمان بالعدالة، وضرورة تدعيم السلام والتوافق بين الأوطان، ولجم العدوان.

* * *

العالم يبني جبهته ومؤسساته .. فأين نحن من ذلك ؟!

وهل ننسى أننا أصحاب حضارة تطاول التاريخ، وقد وضعتنا، يوماً، في جبهة الشمس، وأنه من حق تاريخنا علينا، وما يُلزمنا به الوفاء لحضارتنا، أن يكون دورنا كبيراً، ومستشرفاً، على كل مستويات حوار الحضارات، الذي هو اليوم خطاب العالم ولغته، والحامل لطموحاته في التقدم والتآخي والسلام.

التنمية شاملة
تكون أو لا تكون(*)

السادة العلماء

المستقبل لمن يستطيع، في زمن الاكتشافات العلمية المذهلة هذا، أن يتخذ الثقافة زاداً، والعلم منهلاً، والتقدم سبيلاً، والتشبع بالمعارف النظرية تنويراً، والصبوات الإبداعية تأسيساً، المستقبل لمن يستطيع أن يحول العلم إلى واقع، والطموح إلى ممكن، والغايات إلى وسائل، بها وحدها تصبح الممارسة حقيقية، لأنها توفر لها مقوماتها، كي تتجلى عطاءات ملموسة، هي الغاية المنشودة لخير الوطن والشعب والأمة.

أحييكم باسم الرئيس الدكتور **بشار الأسد**، ذي الرؤية النفاذة، والاستبصار الواعي، والقدرة على استشراف المستقبل، بشخصيته الواثقة، وثقافته الواسعة، ورحابة آفاقه، ورباطة جأشه، حتى في الملمات.

(*) في افتتاح مؤتمر التنمية الزراعية المستدامة والأمن الغذائي، برعاية السيد رئيس الجمهورية، وقد عُقد هذا المؤتمر في جامعة تشرين، في اللاذقية ٢٠٠٧، وكلفني بأن أنوب عنه.

لقد آمن - هو الدارس للعلوم - أن النقلة الاجتماعية، وعملية التطوير والتحديث، إنما تتم من خلال العلم وفتوحاته، وأراد أن يأخذ بشعبه في طريق نهضته الحديثة، ثقافية واقتصادية، بيد سمحاء، في مواضع الإحياء والإنماء، ويد شماء في مواقع الكفاح، من أجل تحرير الأرض، واسترداد الحقوق، كما أراد لسورية أن تظل، أبداً، منارة الصمود، وموئل الإيمان بأن الفجر آتٍ، ولا ريب.

إنني - أيها السادة - أرحب بكم، على الأرض التي شهدت أول ثورة زراعية، في تاريخ البشرية، منذ الألف التاسع قبل الميلاد، فكانت بذلك أول من وضع الأسس البنَّاءة، للحضارة الحديثة للإنسانية، في إنشاء القرية الزراعية الأولى التي سمحت بالاستقرار المتموضع، وتربية الحيوان، حسبما انتهت إليه دراسات علماء كبار، أبرزهم جوردن تشايلد.

هنا، في المشرق العربي القديم - حسب تعبيرهم - وفي حوض الفرات، هنا، في جرف الأحمر والمريبط، على كتف الفرات، وتحت بحيرة الأسد، بدأت الزراعة الأولى للحبوب، وأخذت مسارها إلى وادي الأردن، جنوباً، مروراً بحوض الفرات، وصعّدت باتجاه الأناضول، امتداداً إلى أوربا، على شواطئ الدانوب، ومن سواحل المتوسط، إلى الشمال الافريقي..

لقد أكدت الدراسات المخبرية أن ما اكتشفه المنقبون كان حبوباً مزروعة، تحجرت على مر السنين، وعثر على بقاياها متفحّمة،

وفيها القمح والشعير، والعدس والحمص، في رأي علماء النباتات القديمة، وعلماء البيئة، بغطائها النباتي والحيواني، الذين شاركوهم في دراساتهم..

وهنا، على أرضنا أيضاً، يتحدث الدارسون عما بلغته الزراعة لدى الأنباط الذين صنعوا معجزتهم، حين استطاعوا أن يزرعوا الصحراء، ويحوّلوا إقفارها المرعب، إلى مساحات مزروعة، مستخدمين، في ذلك، تقنيات ابتدعوها، بإحداث مجاري للطمي، تنقله إلى الأراضي التي شرعوا يرسمون حدودها، وبجمع المياه التي استخدموها في السقاية -كان ذلك منذ القرن الخامس قبل الميلاد، إلى القرن الأول بعد الميلاد.

لقد سجّل التاريخ البعيد إنجازات كبيرة للعرب، في عالم الزراعة، ليس أقلّها ما نقلوه إلى الأندلس، أو الكتب التي وضعوها، وكان من أشهرها وأجملها، كتاب الفلاحة لابن العوام، الذي طبع مؤخراً في اسبانيا.

* * *

في مرحلة ما، من القرن العشرين، راودت المخاوف مجموعات من الباحثين وعلماء الاجتماع، ممن اهتموا بالوضع الغذائي العالمي، وبدؤوا ينذرون بيوم لا يتوفر فيه الغذاء الكافي، لسكان كرتنا الأرضية، الذين يتزايد عددهم بنسب كبيرة، وتحول إنذارهم إلى أدبيات ضمتها كتب عديدة، بثّت شيئاً من الذعر، بما جاء فيها من تحذيرات، بنضوب مصادر الغذاء.

وكان جواب الذين لم يتأثروا بموجات التشاؤم تلك، اهتماماً أكبر بالزراعة، وانتقالاً بها إلى موقع متقدم، على أعلى مستويات العالم، حين اعتبرت مشكلة الغذاء إحدى أهم المشكلات، وصار التخطيط للتنمية الزراعية هو السبيل المفترض، في الجهد المبذول، لمواجهة الاحتياجات المتزايدة، إنقاذاً للعديد من الشعوب، وللدول التي كانت مرشحة لمجاعات وكوارث، بسبب تزايد حجم السكان فيها.

واختفت تلك النظريات التي كانت تنطلق من قناعة بأن الغذاء إلى تناقص، وموارد العالم إلى نفاد، والمجاعة آتية في قريب عاجل.

كان جيداً أن تغدو التنمية الزراعية الأمل البشري، في الحفاظ على الوجود الإنساني، وأن تأخذ أبعادها وحجمها، وأن تعقد المؤتمرات، وتنشأ الهيئات الدولية والإقليمية والوطنية، من أجل الاستمرار في إغنائها، وتطويرها، وحسن برمجتها، على اعتبارها الحل الأمثل، لمشكلة يهابها الجميع.

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، على الساحة الدولية، وما أفرزته الحروب والعصبيات والصراعات، من مفاهيم للتسلط، وعشق الهيمنة، والحرص على نهب ثروات الشعوب المستضعفة، واستغلالها، وانحيازات القوة المؤدلجة، لاستباحة كل مقومات الوجود، بروح لم تبرأ من تطلعات الاستعمار، حين تتيح لها القوة العسكرية أن تبسط نفوذها، في فضاءات العالم.

ويكفي أن نرى إلى عالمنا الراهن، منذ القرن العشرين الذي رحل، إلى أيامنا هذه، في مطلع القرن الواحد والعشرين، لنشهد كيف رسم تاريخنا الحديث، في افريقيا ومجاعاتها وحروبها، وكيف سلبت خبزها وحريتها، ولم يكن في مقدور مزارعيها مثلاً، في بعض بلدانها، أن يزرعوا القمح بدلاً من المطاط، كي يطعموا أطفالهم الخبز، ويدفعوا عنهم جائحات الموت..

ولم يكن الحال في أمريكا اللاتينية بأفضل من ذلك، حتى في البلدان الغنية، التي يغتالها النهب المبرمج، حيث يفرض قانون الربح نفسه، في كل مكان وميدان، حتى في مجال الصحة والغذاء.

يضاف إلى ذلك، أن شعوباً بكاملها تركت للجوع والفاقة، وفقدان أبسط متطلبات الحياة، بفعل إرادي سياسي، وبذريعة أو بأخرى، كأن تفرض على دولها مقاطعة اقتصادية، أو عقوبات تُقرُّ بتصويت شبه جماعي، في مجلس الأمن، وغيره من الهيئات، لأسباب مفتعلة، واهية، ويترك مئات الألوف من الأطفال، في حال من الوهن والتشوه والمرض والنحول، كما كنا نشاهدهم في أفلام اليونيسف، على شاشات التلفزيون، والعالم لا يعترض، ولا يكسر الحصار، بل يغضي على فرض المقاطعة الاقتصادية على المقاطعين، هم الذين لا يملكون الحد الأدنى من أمنهم الغذائي، بدعوى الاختلاف في الرأي أو الإيديولوجيا، دون أن يؤرق إنسانيته هذا الاغتيال الممارس للحياة والحق والكرامة، ويكفي أن نتذكر ما جرى في العراق، قبل الحرب الأخيرة، ويجري في فلسطين حتى اللحظة.

ومع الوعي المتنامي، لـدى شـعوب العـالم التـي عانـت مـن عدوان القوة عليها، وتلك التي استقلت وما استقلت، بسبب مـن ضغط الظروف المتخلفة، التي استتبعتها لدول أخرى، أدركت هذه الشعوب أن الاستقلال الاقتصادي هو المرتكز الأساس للاستقلال السياسي، والحافظ له، كما أدركت أن البنـاء الاقتـصادي لا يكـون دون تنمية اقتصادية، والتنمية الزراعية منها، هي في الصميم من أي استراتيجية تستهدف إنماء الحياة، وتوفير المستلزمات، لـوطن يريـد أن يتقـدم، وشـعب يـسعى إلى التحـرر، دون أن يـسترهنه بـؤس الحاجـة، أو العجـز الاقتـصادي الـضاغط، الـذي لا يـسمح بـأي نهوض حقيقي، ولا يعطي للإنسان حـق البحـث عـن مـدلولات جديدة لحياته، وقيمه، ومستقبله، وما يمكنه من التفوق على ذاته.

مرة ثانية، الأمور ليست بهـذه البـساطة، والمعركـة مـستمرة، والمعتدون على حقوق الشعوب وثرواتها، أكثر قوة وعتـواً، في ظـل ما يدعونه«النظام العالمي الجديد»، الذي تبنت الدعوة إليـه الـدول الرأسمالية، والشركات الضخمة العابرة للقارات.

لكن الأمل، مع ذلك، يتوهج في قلب هذه الهزائم، كما يقـول الكاتب الإنساني الكبير إيغناسيو رامونيه، والنوافذ الصغيرة تتسع، والأبواب الضيقة تغدو أعلى وأكبر، والتخلف لن يدوم.

وحملة الرؤى الإنسانية يبحثون عن كـل مـا يمكـن أن يحفـظ الحقوق للناس وللشعوب، وها هم أولاء يعملون من أجـل تأكيـد الحق البشري في التنمية، كجزء مـن حقـوق الإنـسان غـير القابلـة

للتجزئة، وتصدر الجمعية العامة قرارها الأول، عام ١٩٧٧ باسم حق التنمية.

وبالجهود المتواصلة المبذولة، تصدر الجمعية العامة، مرة ثانية، إعلاناً حول هذا الحق، بقرار تصدره عام ١٩٨٦ - ليكون توفيقياً، متوازناً، أمام تعنت «الولايات المتحدة وبريطانيا، المغاليتين في موقفهما المناهض للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والحق في التنمية» كما يرى أحد الباحثين، وليشكل رداً بصيغة ما على الاستلاب والاحتكار والهيمنة الاقتصادية التي يسعى هذا النظام إلى تحقيقها.

وهكذا نرى أنهم يتحدثون كثيراً عن حقوق الإنسان الفرد، لكنهم يبيحون ما هو أكبر، اعتداء الأقوى على الأضعف بين الدول، والأكبر على الأصغر، في تجاوز للمواثيق الدولية، والعهود التي اتفقوا على احترامها.

أكثر من ذلك .. حقوق الإنسان والشعوب بما فيها حق التنمية لم تعنِ أبداً الحماية السياسية، لما تمتلكه هذه الأمم والشعوب، من إمكانات تساعد على تنمية معقولة، في الزراعة، كالسقاية، وتوفير المياه النظيفة، بل امتدت يد الاغتصاب إلى مياه الجوار، في تحد للقوانين الدولية، فاستلبت حقوق هذه الشعوب بمنابع أرضها، أنهارها، وجداولها، وبحيراتها، والمثل على ذلك إسرائيل، وكل ما تعانيه دول الجوار من اغتصابها الدائب للمياه.

ويكفي أن نذكر لإسرائيل، إضافة، أنها لا تغتال الحياة، ولا تستلب الأرض فحسب، ولكنها تقضي على المزارع، تقتلع

الأشجار المثمرة، وتجرف الحقول، وتقضي على كل إمكانات الحياة، وهي، أيضاً، تمنع أي مساعدة للشعب الصابر الصامد، الذي بلغت نسبة الفقر فيه ٨٠٪، فارضة بذلك عقوبات جماعية، برضى من الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد علقت آمال كثيرة، على تناقص عدد الجياع في العالم، بعد القمة التي عقدت عام ١٩٩٦، وبشرت بأن العدد سيهبط إلى النصف خلال عشر سنوات، لكن العدد وللأسف ازداد، والأجور تدنت، والبطالة تفاقمت، وحتى في الغرب كما يقول جان بول مارشال، في كتابه الاقتصاد التضامني،«الغرب الذي لم يكن يوماً على مثل هذا الثراء، فيه اليوم عشرات الملايين ممن يعيشون في الفقر المدقع».

ما هي الحال إذن في محيطنا العربي؟..

يكاد المرء لا يصدق ما جاء في تقرير عام ٢٠٠٢ حول الأمن الغذائي العربي«من أن العالم العربي يقف في أدنى درجات السلم الإنساني فيما يتعلق بفقر الشعوب وغنى الحكومات، وانخفاض الإنتاجية إلى أدنى مستوىً في العالم..وأن مشكل الأمن الغذائي العربي، يتربع على قمة المشاكل في الوطن العربي»، وهذا يعني أن علينا، نحن أبناء الأمة العربية، أن نعيد النظر في أمور كثيرة، حين نرسم استراتيجيتنا، ونحدد خططنا وبرامجنا، ومناهج عملنا، ضمن منظماتنا كلها، والمنظمة الزراعية بشكل خاص، كي نخرج من متاهة مظلمة، مسدودة الأفق، إلى فضاء منفتح نحو المستقبل،

تنتظم فيه خطوط عمل تضامني تكـافلي وتكـاملي عـربي مـشترك، يهيء لتنمية حقيقية، متفاعلة مـع التحـولات الكـبرى، الـسياسية والاقتصادية، في عالمنا الراهن، وفي إطار حركة التطور الشامل.

* * *

حين نرفض الحديث عن المستحيل، كما نرفض الانكسار النفسي الملفّع بأحاسيس العجز، يكون بمقدورنا أن نحقق ما لم نحلم بتحقيقه، أو ما كنا نخشى أن ننكفئ به ومعه، إلى الزوايا الخلفية.

في مطالع الثمانينات من القرن الماضي، وجدنا أنفسنا، أكثر من مرة، في سورية، في دوامة العجز عن توفير ما يكفي من القمـح، ولم نكن نمتلك القطع الأجنبي لشرائه، وكنا أحياناً نواجه مأزقاً يكون علينا حله في خلال يومين، حين تعلن الجهات المـسئولة أن القمـح سينفد بعد يومين على الأكثر..

لكن الرئيس الكبير الراحل، رسم بذهنه الخلاق، وقدرته على مجابهة الأزمات، خطة ألزم الدولة بتنفيذها - اقتـصادنا كـان دائـماً زراعيـاً، وأرضـنا خـصبة، إذن فلنتـسع بالمـساحات المزروعـة بـالقمح وسواه، ولنواجه الأمور بشجاعة المبادهة، ولنثق بأن الحل هنا يكمن ..

وبالفعل، نجحت الخطة التي رسم، وتوفر لنـا القمـح الـذي فاض عن الحاجة، ومنع الرئيس آنذاك تصدير ما لم يزد عـن مؤونـة عامين، وكان يرى أنه لا يمكن لسورية أن ترهن قرارهـا الـسياسي بواقع اقتصادي غير ملائم.

وتابع الرئيس البشار العمل في المجال الاقتصادي والتنموي، منذ تولى مسئولياته، ساعياً لرسم سياسة للتخطيط والتنفيذ، ترتبط

في استراتيجيتها كل آفاق التنمية، لأن التنمية شاملة تكون أو لا تكون، والأهم فيها هو تحريض الجانب الإبداعي في الإنسان، كي يغدو هو منتجاً للتكنولوجيا، وليس مجرد مستهلك لها..

ولقد جابه بشجاعة، مشكلات كثيرة وكبيرة، تصدى لها بالفكر النير، والعزم المنضفر، وقطع أشواطاً في مسيرة التطوير، وفي عمليات الإنماء، على كافة الجبهات، ومنها ما يتصل بالزراعة تحديثاً وتمكيناً، وبتحقيق الأمن الغذائي الذي نعتبره، في سورية، مطلباً قومياً نضالياً، من الدرجة الأولى.

أيها الباحثون الكرام

إننا وإياكم نقتسم هماً مشتركاً،ونثق أنكم، بجهودكم الموصولة بجهودنا، ودراساتكم المعمقة، ستحققون نقلة بعيدة، تسمح بانبثاق رؤى جديدة، نتشاطرها وإياكم، ونبني بها معاً كوننا العربي، الصغير الكبير.

الشكر لكم ومن القلب، ولوزارة التعليم العالي، والمجلس الأعلى للعلوم، وجامعة تشرين، لتنظيم هذا المؤتمر الهام، ولمدينة اللاذقية التي احتضنته، والشكر منكم، منا جميعاً، للسيد الرئيس الذي تفضل فرعى هذه التظاهرة العلمية الرفيعة.

أخيراً ، أختم بكلمتين لشاعر وفيلسوف -الشاعر خوسيه مارتي يقول:«أود، في عالمنا الدامي، أن أزرع وردة بيضاء على الأيدي الحرة، وأن أتقاسم نصيبي مع فقراء الأرض.».

ونيتشه الفيلسوف يقول: «احترس أيها الإنسان! ماذا يقول منتصف الليل المظلم؟ لقد نمت ونمت، واستيقظت من حلم بعيد المعاني. إن العالم بعيد غوره، وأبعد غوراً مما ظنه النهار. إن ألمه لعميق، ولكن الفرح أوفر عمقاً من الحزن».

اللغة العربية تراث وضمير
وانتماء إلى تاريخ
وهي الوحدة والآصرة والعروة الوثقى(*)

الإخوة العلماء

السادة الضيوف

أرحب بكم أبلغ ترحيب، على اسم الثقافة العربية ولأجلها، حين هي، في بهاء العطاء الفكري والعلمي، والإبداع الأدبي، وهجاً في الحرف كانت، وحضارة في اللسان ازدهرت، ووحياً بلغتها تنزل، فإذا هي النطق المبين، ديناً للهدى، وبياناً للسحر، ورابطة مع أسلافنا الذين، من مطلع الشمس إلى مغربها، قطعوا رحلة ولا أكبر، في المسيرة البشرية،

فكانوا الشهب حين الأرض ليل ... وحين الناس جدّ مضللينا

مشت بمنارهم في الأرض روما ... ومن آثارهم قبست أثينا

(*) في افتتاح المؤتمر السنوي للبرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية، المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، شبكة تعريب العلوم الصحية. دمشق، ٨ -١٠ حزيران ٢٠٠٨.

أيـها الـسادة

لسنا ضيوفاً على هذا الكوكب، كما يقول أمين معلوف، ولسنا طارئين، فنحن ننتمي إليه بقدر ما ينتمي إلينا، وماضـيه ملـك لنـا، وكذلك مستقبله.

نحن أبناء أمة تحمل إرثهـا في دمهـا، وفي ذاكرتهـا، وفي لغتهـا المشحونة بهذا الموروث العظيم.

ولغتنا هي هويتنا، ونحن المؤتمنون عليها، واللغة عندما تصبح هوية، تصبح هي الحـضارة والثقافـة والفكـر والأدب، بـل تغـدو المعطى الوجودي الأشد أهمية في حياة الأمة، والحلقة المركزية التـي تعكس خصائصها، وتربط بين أجيالها، فهي ليست لغـة فحـسب، وإنما هي تراث وضمير وتكوين نفسي وعقـلي ووطنـي، وانـتماء إلى تاريخ، وسياج دفاع عن الـذات والقـيم والمقدسـات، بـروح مـن الشهامة والوفاء، لإرث حضاري، كان بعضاً من رسالتنا إلى الدنيا، ومن إسهامنا الخلاق في بنيان العالم.

وإذا كانت اللغة هي الوحدة الكيانية في صـميم تكـوين كـل أمة، وهي الضمير الجماعي لها، الناظم لتماسـكها، ولنـسيج حياتهـا الإنسانية، وجوداً وتنامياً، ولإرادتها الكلية، فإن اللغة العربية، كـما الثقافة العربية، هي، فوق ذلك، الرابطة القومية الأصيلة، بـل هـي الوحـدة والآصرة والعـروة الـوثقى التـي صـمدت، واسـتعلت، وحققت انتصارها، في وجه كل المحاولات التي استهدفتها، حـين استهدفت تغييب الثقافة العربية بعامـة، واسـتلابها أهـم مقوماتهـا بخاصة، اللغة العربية.

وظلت اللغة العربية التي بها تنزل الوحي العظيم، وصيغت الآيات البينات الرائعات، والتي تشكل أهم مكونات قوميتنا العربية، ظلت الجامع والحافظ للتراث العربي، ماضياً وحاضراً، واللسان الذي يوحد أبناء أمتنا جميعاً، ويشد بعضهم إلى بعض كالبنيان المرصوص، ويضمن لهم وحدتهم الثقافية، على مدار القرون، ويضفر عزائمهم في طريق الكفاح، وفي مواجهة الحقب المظلمة، من التاريخ.

ولقد كانت هذه اللغة من أغنى لغات العالم، باعتراف الكتّاب والعلماء الذين يتخذون من اللغة وسيلتهم إلى التعبير، وكان اعترافهم هذا صادراً عن تجربة أثبتت قدرة اللغة العربية، وصلاحيتها للكتابة والترجمة معاً، وقدموا، بإنتاجهم الفلسفي والعلمي والأدبي، شهادة دامغة، لا على حيوية اللغة العربية فقط، ولا على قابليتها للتطور فحسب، بل على إمكاناتها الكبيرة والرائعة التي هي منها في الذات، لأنها منها في صلب بنيتها، صرفاً، ونحواً، ودقة تعبير، وجمال إيقاع، وقابلية للنحت والاشتقاق، هذه التي كان القياس منطلقها الرحب، إلى آفاق جديدة، بها اغتنت العربية وأغنت في آن، وكشفت عن طاقاتها الهائلة التي مكنتها من الاحتفاظ بقوتها، ونضارتها، واكتنازها، واستعصائها على كل محاولات محوها، أو طمسها، أو تحديدها، أو إفقارها، بل أذهب أبعد من ذلك فألاحظ أن اللغة العربية لم تصمد لهذه المحاولات فقط، بل انتصرت عليها، فأثرت في اللغات الأخرى التي أخذت

عنها آلاف الكلمات، في أوروبة وأمريكا وآسيا، بل في كل أرجاء العالم. ويكفي أن أشير إلى كتاب يترجم الآن في سورية عن الفرنسية، عنوانه «الكلمات المسافرة»، وفيه تذكر مؤلفته أن في اللغة الفرنسية ما يجاوز ألفي كلمة جاءتها من اللغة العربية، وكان هذا الأخذ في عملية التقدم المعرفي، مفهوماً ومقبولاً آنذاك، بسبب ما أبدعته العربية من كلمات لكل معطيات حضارتها، وهي في أوج ازدهارها، وما حفلت به من كلمات كثيرة، من نحتها، استوعبت التطور الفكري والعلمي، وعنها أخذت اللغات الأخرى، إضافة إلى المفردات، مصطلحات ما تزال تحمل هويتها حتى اليوم.

وبالمقابل فقد أفادت العربية أيضاً -ودون تردد، من قابلية التطور الكامنة فيها، فأخذت عن هذه اللغات مفردات، صارت في صلب بنيتها اللغوية، ومكنتها، خصوصاً في أيامنا الراهنة هذه، من ترجمة أحدث معطيات العلم والفلسفة والأدب، بكثير من الأمانة والدقة والوضوح.

ولأن العربية تمتلك حيويتها الخاصة الدينامية، فقد رفضت التقوقع، ولم تسقط في الجمود والانغلاق، واستطاعت أن تواكب، فعلاً، العصور كلها التي مرت عليها، وأن تكون لغة كل عصر، بكل معطياته، وبما في ذلك مراحل الوهن من تاريخنا، لتحقق انتصارها الرائع، وقدرتها الفائقة على نقل كل ألوان الحداثة، وعلومها، وفلسفاتها، في أشكالها الأكثر ثورية، ومصطلحاتها المرتبطة بجديد مفاهيمها، وما ترجم من كتب يصلح شاهداً على ذلك.

* * *

أود أن أستطرد قليلاً، وأرجو المعذرة، لكنها كليمات لا بد منها، كي لا نبقى في حدود التنظير، أو الحماسة المتدفقة، في الدفاع عن موروثنا، ولغتنا، وتراثنا الثقافي، وأجدادنا الذين وضعونا يوماً في جبهة المجد.

كليمات أتوجه بها إلى الذين انساقوا وراء مفاهيم خاطئة، ربما كانت نتاج غزو فكري أجنبي، مكشوف أو مقنع، اتجه بنا، تحت اسم الحداثة، أو العصرنة، إلى طرح الأمور طرحاً خاطئاً، قد يسهّل السقوط على أعتاب نمطيات [كليشهات]، معادة أو مستعادة، تتنكر للتراث، في سخرية مارقة، بدعوى رفض التغني بما مضى، أو بتراث الأجداد، لأنه يشكل عائقاً أمام التقدم، ظناً منهم أن هذا الأمر يقود إلى الاكتفاء بالماضي، وأنه لا يحفز على بناء حاضر موازٍ، ومستقبل أكثر تطوراً، وهنا المفارقة. ومن هنا أيضاً يأتي الإصغاء الحالم، إلى توصيات دوائر أجنبية، ومؤسسات تملي علينا ضرورة التخلي عن لغتنا في التعليم، إذ لا سبيل إلى الدخول في العصر، إلا باستخدام لغة الدول العظمى، بل الدولة الأقوى، ومنذ المراحل الأولى، حتى ينشأ أبناؤنا في إطار معارف العصر!!

والمتابع للحياة الثقافية الغربية، يعرف ولا يحتاج إلى براهين، حجم إيمان الأمم المتقدمة بتراثها، منذ أيام الإغريق، فلسفة وأدباً وفنوناً، وكيف يستعيدونه، ويعيدون إنتاجه، بطبعات لا حد لها، وبأعمال فنية راقية، يترجمون ويدرسون ويحللون، ويعلّمون كل ذلك في مدارسهم، ويقدمونه للعالم، بزهو منقطع النظير، على أنه تراث الإنسانية الفريد.

إن ما هو مطلوب منا، في وجه هذه الأطروحات، أن نكون أشد وعياً، وحذراً، من انبتات جذورنا الحضارية الباهرة، وإضاعة كنزنا الثقافي، وإحداث قطيعة معرفية إيبيستمولوجية، بين تراثنا وراهننا، وتغريبٍ تذوب معه الشخصية الوطنية العربية، ويحكم، على أوطاننا، باغتراب الفئة المتعلمة فيها عن مواطنيهم، وبالتعثر في الإبداع، والسقوط في حال من الضياع، إذا أغفلوا لغتهم، وتعلموا بلغة الغير وحدها، مما يمنع عليهم الاندماج الاجتماعي والسياسي والثقافي، أو إمكان الإسهام في خلق نموذج عربي للتحديث الفكري والعلمي، في مجتمعاتهم التي تسعى إلى تحقيق نهضتها غير المنبتّة، أو المنقطعة عن الجذور..

إن ما هو مطلوب منا هو ألا نسمح بعزل لغتنا، ووضع الحواجز أمام انطلاقها أو إعطائها كفاء ما تستحق منا، تحت أي ذريعة من ذرائع تزييف الوعي - تتهمها، جهلاً وزوراً، بالقصور، وبعدم القدرة على أن تكون لغة علم، أو لغة فكر، مما يعني الحكم عليها بالتوقف أو الجمود، هي التي أبدع بها المبدعون، وما يزالون، في شتى ميادين الفكر والعلم، ونقل المترجمون، وينقلون إليها، أبلغ النصوص العلمية والفلسفية، المرتبطة بالمعارف المتطورة.

الشاعر الألماني الكبير چوته يقول :« يمكن للإنسان أن يتكلم بلغات عدة لكنه لا يعيش إلا بلغة واحدة» ..

ويتوجه مفكر كبير، في تقرير تربوي، أعده إلى المعنيين في وطنه، بهذه الكلمات:« إن العمارة الجديدة لمدرستنا تنتظم حول

العمود الفقري، للغة الوطنية، ومنها الكل ينمو، ونحوها الكل ينعطف».

* * *

السادة العلماء

يحق لنا والموضوع المطروح للتشاور، يتناول قضايا تعليم العلوم بعامة، والصحة بخاصة، باللغة العربية، وهو أمر يُشكر المكتب الإقليمي للصحة العالمية، ممثلاً برئيسه الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، بالتعاون مع مجمع اللغة العربية في سورية، وممثل منظمة الصحة في دمشق، على إثارته في هذا المؤتمر المهم والشيّق.. يحق لنا أن نعيد الذاكرة إلى مراحل حافلة من تاريخنا، ونطرح أسئلة، تحمل إجابتها في نصها، مؤيّدة بوثائق مكتوبة، ووقائع لا سبيل إلى جحودها.

كيف اتسعت اللغة العربية، لكل هذا الإبداع المتفجر، في شتى العلوم والفنون والفلسفات -الطب والفلك والجبر والرياضيات والفيزياء والكيمياء، وعلوم الفقه والكلام والفلسفة والعمران؟

ألم يترجم الأجداد، عن الإغريقية، أهم إنتاج عباقرتها؟ ألم ينقل عنهم الغرب ترجماتهم ومؤلفات مبدعيهم؟ ألم يتعلم أبناؤه العربية كي يدرسوا على أيديهم؟..

أتمنى أن نمعن النظر، في بعض ما روته كتبهم، وموسوعاتهم، وجاء على لسان علمائهم، وفلاسفتهم، حين كنّا ولم يكونوا..

ورد في الموسوعة الفرنسية، في مقابلة بين حال التعليم في بلاد العرب، وتخلف أوروبة، أنه« منذ بداية القرن التاسع الميلادي وحتى القرن الرابع عشر، وعندما كانت أوروبة غارقة في الظلام، أطلع العرب أعلاماً كباراً، في كافة المجالات العلمية، وترجموا أهم كتب القدماء، وأن التنوير العربي قد بلغ شأواً بعيداً، في أواخر القرن العاشر، في الوقت الذي كان الجهل والبؤس يلفّان أوروبة».

ويعترف دوجوكور، أحد فلاسفة القرن الثامن عشر، ودون تحفظ، بأن« تدفق العلم العربي إلى أوروبة، كان أعظم ثورة في العلم، حدثت في ذلك الزمن -ثورة في النظرية والممارسة على السواء.

ويؤكد أن الأوربيين مدينون أيضاً للعرب، بالمعالجات الطبية الجديدة التي كانت أكثر نجوعاً، من المعالجات المنسوبة إلى أبقراط وچالينوس،

وأن علم الكيمياء الذي نجده في كتابات علماء عرب مشهورين، من مثل ابن سينا وابن رشد والزهراوي الأندلسي والفارابي، قد بدأ يتسرب إلى أوروبة منذ بداية القرن الثالث عشر».

ودون ميل إلى المبالغة، يمكن تأكيد حقيقة صارت تاريخية بوثائقها، هي أن تأثير العرب في الغرب كان عظيماً، وأن أوروبةكانت مدينة للعرب بحضارتها. يقول غوستاف لوبون:« لا نستطيع أن نذكر، قبل القرن الخامس عشر الميلادي، عالماً أوروبياً ابتكر شيئاً، غير استنساخ كتب العرب، وأن أكثرهم شهرة كانوا تلاميذ للعرب أو ناقلين عنهم».

أما رينان فيقول :« إن البرت الكبير مدين لابن سينا بكل شيء، والقديس توما الاكويني، بوصفه فيلسوفاً، مدين لابن سينا، بكل شيء أيضاً، وكذلك لابن رشد في فلسفته».

ومن المؤلفات التي ترجموها من العربية إلى اللاتينية، مؤلفات أبقراط وچالينوس، وكل المؤلفات اليونانية -تقريباً- التي ترجمها، قبلهم، العرب إلى العربية، كما ترجموا مؤلفات الكندي، وكتاب القانون في الطب، هذا السفر الضخم لابن سينا، وجراحة أبي القاسم ذات الأثر العظيم.

والوثائق تؤكد أن كبير أساقفة طليطلة، في القرن الثاني عشر، سعى سعياً خاصاً، لنقل المادة العربية إلى اللاتينية، وأنه أراد أن يجعل الفلسفة العربية في متناول المسيحيين، وحين أسس مدرسة طليطلة، جعل من واجبها أن تعد ترجمات لاتينية، لأهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية، وقد عثر على ترجمات كثيرة، للنسخ العربية لأرسطو، والشروح والمختصرات التي وضعها الفارابي وابن سينا الذي ذاعت شروحه ذيوعاً كبيراً..

أما فردريك الثاني الذي كان يقرأ العربية، فقد أسس، في القرن الثالث عشر جامعة في نابولي، وجعلها«مدرسة لجلب العلم العربي إلى العالم الغربي»، مما أتاح لها أن تنجز ترجمات مختلفة، من العربية إلى اللاتينية، ولن أعدّد..

غير أن طوائف الفرير، ومنذ بدأت تحتل مكانها في الجامعات، أخذت تتخلى عن السياسات المحافظة، وتشرع باستعمال كتب أرسطو والشراح العرب، بالعربية، ودون تردد..

وهكذا، أيضاً، وبتقدير لأمر واقع، رأت النسطورية أن الإسلام جعل اللغة العربية وسطاً عالمياً، لتبادل الفكر.ويكفي أن أذكر أخيراً أن جامعة مونبيليه -وهي مركز الدراسات الطبية - قد أسسها الأطباء العرب الذين نزحوا من اسبانيا، وأن كتبهم في الطب قد استخدمت في التدريس، وأن قوانين ابن سينا دخلت المنهج الرسمي المقرر على المرشحين للدرجات العلمية في الطب، منذ عام ١٣٤٠، حيث كانت المحاضرات تشتمل على دراسات للأطباء العرب .

واستمر التأثير العربي غالباً في الطب، في جامعة بولونيا وجامعة بودوا، حتى القرن السابع عشر، وامتد إلى القرن الثامن عشر..

إذن، أي حديث هذا الذي يمكن أن نسمعه عن قصور اللغة العربية، وعدم قدرتها على مجاراة مبتكرات العصر، في الطب والعلوم وأحدث معطيات الفكر المعاصر، وما أبدعته الدراسات الفلسفية والإنسانية؟

أم أن الذين أخذوا العالم رهينة، يريدون أن يسترهنوا تاريخنا وثقافتنا، وحضارتنا ولغتنا، كي تتم القطيعة بين ماضينا وحاضرنا، ونستسلم لغزو يسمونه تحديثاً، ويأتي على اسم اكتساب علوم العصر ومعارفه، وفي ما ينشر على الشابكات [الانترنت]، دلائل

مضنية على هذا الغزو، وعلى حجم الافتراء المبرمج، والاعتداء المدروس على ديننا وعقائدنا وحضارتنا ولغتنا، وكل ما يرتبط بوجودنا عبر التاريخ، والمثل الأخير على ذلك كتاب صدر في فرنسا مؤخراً، وتحدثت عنه صحيفة عربية، نقلاً عن صحيفة فرنسية، وعنوان هذا الكتاب«الجذور الإغريقية للمسيحية في أوروبة» وأطروحته الأساس هي إنكار دَيْن أوروبة الثقافي للعالم الإسلامي.

لقد أرادت الحركات النهضوية الإسلامية في الوطن العربي، ومنذ البداية، أن تضع الأمور في مواقعها التي يمليها المنطق والتاريخ، وحقائق الأمور، ومستلزمات الدفاع عن الوجود، وتمت عملية الإيقاظ، وبناء الوعي، على أيدي مناضلين أشداء، إحياءً وغرس مفاهيم، واستعادة لبهاء اللغة وطاقاتها التي أماتتها مراحل الانحطاط، فنهضت هذه اللغة على ترابنا، بكامل عنفوانها، ورحابة فضاءاتها، وكان لإحيائها الدور الكبير في بناء الشخصية المبدعة، المرتبطة بالمعارف المتطورة، وفي استعادة الذاكرة القومية، ومسايرة متطلبات مجتمع المعرفة.

لقد حققت حركة الترجمة نجاحاً كبيراً، وكان لمجامع اللغة دورها المهم، ولم تكن لغتنا العربية قاصرة عن الوفاء بمستلزمات هذه الترجمة، ولمعت أسماء كالشهب، في فترة قصيرة، في ميادين الترجمة والتدريس الجامعي، ونقل معطيات التكنولوجيا، التي أعطاها مجتمعنا العربي أهمية خاصة، وأخذنا على عاتقنا في سورية،

أن نترجم كتبها، وأهم المراجع الطبية، كي يتم التدريس في كليات العلوم، وكلية الطب، وكافة الفروع العلمية الخالصة، بالعربية، وكانت التجربة مثمرة، حققت أهدافها بجهود نخب من علماء سورية، أسهموا منذ البداية، في عملية الترجمة، وانتقاء المصطلح، وإعداد المعاجم، ولعلي أذكر منهم المغفور لهم د. مرشد خاطر، ود. حمدي الخياط، ود. صلاح الدين الكواكبي ثم من بعد د. حسني سبح، وآخرون تابعوا الشوط... وبجهود مجامع اللغة في عدد من البلدان العربية، فيما بعد، وببعض مراكز التعريب فيها أيضاً، وأؤكد أن تجربتنا كانت متميزة ومشجعة، وأن أبناءنا الذين درسوا الطب في سورية بالعربية، حققوا الكثير من النجاح في مراحل الاختصاص، خصوصاً وأن الدراسة بالعربية لم تكن تعني أبداً إهمال تعلم اللغات الأجنبية، إذ لا تناقض إطلاقاً بين إتقان اللغة الأم، وإتقان اللغات الأخرى..

لقد رفضنا اختيار النهج الخاطئ، وأردنا أن نعيش العصر حداثة وتحديثاً، وفي العمق، وليس على سطوح لغة لا ننتمي إليها، وليست جزءاً من تكويننا النفسي والأخلاقي.

ولعلي أشير إلى أننا في مرحلة المد العربي، التي تميزت برفض الاستلاب، حين كانت أمتنا أشد صلابة، وأشد مناعة، وأكثر ثقة بالمستقبل، وبالحق الذي تدافع عنه.. تنامت حركة التعريب العربي، وتوجهت بلدان عربية حرمها الاستعمار من تعلّم لغتها، إلى إعادة الاعتبار إليها، محاولة استخدامها في التعليم بكل مراحله، وفي بناء

مجتمعها المعاصر، ضمن ثوابتها، ومفاهيمها، ولغتها التي بها يتم التكامل، ويكمن التقدم.

ولقد شددت مؤتمرات وزراء الثقافة العرب، على «تعميم استعمال العربية لغة للتعليم، في جميع مراحله وأنواعه، وعلى أن تكون اللغة العربية الفصيحة هي أداة الإنتاج العربي، لما لها من أهمية في وحدة الثقافة العربية، وفي التقريب بين البلاد العربية، فكراً واتحاداً.».

وأضيف: وبما لها من قدرات على استيعاب كل وجوه الحياة، ومظاهر الكون..

* * *

المسافات، بين الأهل، للأسف، تتباعد، والمراوغات الدولية تتمادى، والأرض نهبٌ، وحقوق الشعوب كلمات لا تحمل دلالاتها، وحرياتها مغيبة، والإحساس الفوقي في غلوائه، والأمة العربية تحتاج إلى الحفاظ على مصداقية توجهها، وإلى تعزيز الإيمان بلغتها التي صار القابض عليها كالقابض على الجمر، وعلى اسم العلم ترتكب بحقها خطايا لا حدّ لها..

إني مرة ثانية أُحييكم، وأتمنى، والقياد بأيديكم، أن نعمل جميعاً جاهدين على متابعة النهج الصحيح، وأمامكم، في سورية، بلدكم الذي تحبون، تجربة طويلة متقدمة ذات مصداقية، وهي جديرة بالمتابعة.

ولعلي أغتنم الفرصة لأشيد بالدعم الكبير الذي تلقاه لغتنا من السيد رئيس الجمهورية - بشار الأسد - القائد الوفي لشعبه،

المخلص لأمته، الحكيم في اتخاذ قراراته ، الحريص على بناء نهضة ثقافية عمرانية ترتقي بالوطن، وتحيله إلى دولة حديثة.

لقد كان للغة في تفكيره حيّز كبير، تجلى في قرار مؤتمر قمة دمشق الذي يخص اللغة العربية، والذي كان تالياً لقرارات أخرى اتخذها، طليعتها المشروع القومي للتمكين للغة، والاهتمام بتجديد مجمع اللغة العربية، وبرفع التغريب عن مدننا التي أراد لها أن تكون قلاع صمود، وموئل فكر، ونبت وعي أصيل، بدور الثقافة في تقدم الأمم، ودور اللغة، في تحصين الوعي.

أخيراً، أيها الإخوة الأعزاء، أتمنى لمؤتمركم النجاح، والقدرة على الإسهام في الانتصار للعربية، وفي استرداد دورها التعليمي، لتظل، في ثوابت الأمة، مشعلاً في قبس الفكر العظيم.

الثقافة قمر لا يغيب
وهي أساس تماسك الأمة ونهوضها(*)

السادة الوزراء الأشقاء – الوفود العربية المشاركة

بكثير من المحبة أرحب بكم في عاصمة الثقافة لهذا العام، وفي الأرض التي تقاسمناها انتماء، ونتقاسمها اليوم أملاً ووعداً، وثقة بآصرة الأخوة، وروابط التاريخ، وعلاقات المصير..

بكثير من الاعتزاز، أيها الإخوة، أنوب عن السيد رئيس الجمهورية، الدكتور بشار الأسد الذي حمل مشعل الثقافة، فكراً وتنويراً وإبداعاً، بيد، ومشعلَ النضال إقداماً من أجل تحرير الأرض، واستعادة الحقوق، وتطوير الحياة، واستنهاض مشاريع التنمية والتحديث، بيد، وتقدم المسيرة يرود لها الدرب، وفي القلب حماسة ومحبة، وإيمان بالأمة العربية، من محيطها إلى الخليج، وبالمستقبل المنوّر بالمعرفة، وبمعطيات التاريخ، إرثَ حضارة هزت الدنيا أمداً، وبالراهن تطلعاً واعياً إلى إشراقة فجر جديد، وبالمقبل

(*) ألقيت هذه الكلمة نيابة عن السيدالرئيس بشار الأسد راعي مؤتمر الوزراء المسئولين عن الشئون الثقافية في الوطن العربي، وعنوانه "نحو تحديث الخطة الشاملة للثقافة العربية". دمشق، ١٦ -١٧ تشرين الثاني ٢٠٠٨.

وعـداً مـسوّراً بالتوحّـد، وبانـضفار العزيمـة، وانتـصار الحقيقـة، واستعادة مجد الأيام التي تسنّمنا فيها ذروة التاريخ.

الوفود المشاركة

الإخوة الوزراء

يا زملاء درب للثقافـة قطعنـاه معـاً، كتفـاً بكتـف، في عمـل مشترك، تلاقينا على أهدافـه، ورسـمنا معالمـه، ليكـون الـسبيل إلى تحقيق تقدم، يضع أجيالنا في قلب العصر، ويمدّها بالنسغ المحيـي، دون أن تضيع الهوية الجامعة، واللغة الموحدة، والثقافـة المتجـذرة، والثوابت المرتكزة على وعي لحقائق الوجود، وإيمان بطاقات الأمة، وإمكاناتها، وبتلك الآصرة التي يستحيل أن تنفصم بيننا، لأنها جزء من تكويننا، وعامل حاسم لا تقضي عليه رعود الأيـام وصروفهـا، وغزو من هنا، وعدوان من هناك، ومعارك لا يمكن، في النهاية، أن تحسم إلا لصالحنا، أمةً عربية واحـدة، بثقافتهـا وتكوينهـا، ولغتهـا وهويتها، وكل عوامل تقدمها.

كلكم أهل مكة - وأهل مكة أدرى بشعابها، ولن أحمل التمـر إلى هجر، وما أحب أن أقول معاداً، ولكنها بعض المعالم، على طريق رحب، نرنو إليه بالعيون التي لا تريد أن تغفـو عـن حقـائق، هـي الـسبيل إلى استـشراف المـستقبل الأبهـى، لأمـة هـي الأعـرق في الحضارات، والأنبـل في التعـاطي مـع القـيم، وفي الإيـمان الكبـير بإنسانية الإنسان، وبكل مـا تتطلبـه هـذه الإنـسانية، مـن سـيرورة

متقدمة، تفجّر منابع العطاء والإبـداع، والتغيـير والارتقـاء، بحثـاً متواصلاً عن فجر منوّر في حياة كوننا هذا الذي لم يستحل إلى قريـة صغيرة إلا بالمعنى الرمزي، المـؤاتي لـدول الهيمنـة التـي تحـاول أن تخضع الـشعوب الأضـعف قـوة، والأقـل شـأناً، وأن تمـسك بهـا وبمصائرها، في راحة اليد.

ولعلي أبدأ بالتذكير بالمؤتمر الثقافي العربي الأول الذي عقـد في عمان عام ١٩٧٦، ليشكل حدثاً فريداً، في تاريخ الوطن العـربي، إذ يجتمع لأول مرة، في تاريخ هذا الـوطن، وزراء الثقافـة العـرب، في مؤتمر يضم أبرز العاملين في الحقل الثقافي، وفي محاولة لتحديد هوية الثقافة العربية، وتوضيح مفاهيمها، وتعيين الأهداف التي عليها أن تعمل لتحقيقها، حتى تسهم هذه الثقافة في العمليـة المعرفيـة التـي تنشر الوعي، وتـصوغ الوجـدان والإنـسان، وتـسهم في الارتقـاء بالعلوم والفنون، وتقف ضد العنصرية البغيضة التي تبرأ حضارتنا منها، في كل تاريخها.

ولقد كانت المهمة الأساس لهذا المؤتمر، بحث السياسة الثقافية العربية، وآفاق التعـاون الثقـافي العـربي البينـي، والتعـاون الثقـافي العربي في المجال الدولي، مما يعطي أهمية خاصة لهـذا المـؤتمر الأول، لأن دراسة الأوضاع الثقافية في الأقطار العربيـة، باتجـاه توحيـدها وتنسيقها، يعنيان أن يدرس المؤتمر مجمـل النـشاط الثقـافي العـربي، فكراً وتطبيقاً، لوضع الثقافـة العربيـة، سياسـة وهـدفاً، في خدمـة أهـداف أمتنـا العربيـة، وقـضيتها المـصيرية: التحريـر، واسـتعادة

الحقـوق وتحقيـق الوحـدة العربيـة، وتكـوين الإنـسان الجديـد، والمجتمع الجديد، لبنـاء المـستقبل الـذي يـسوده الـسلام العـادل، ويتحقق فيه الازدهار الاقتصادي والثقافي والاجتماعي على السواء.

وكان السؤال الذي يطرح نفسه، في قضية الثقافة العربيـة هـو التالي: ماذا نصنع لبناء ثقافة عربية أصيلة ومتميزة، قومية وإنسانية، تكون على مستوى العصر، تثري الحضارة، وتسهم في إغناء المعرفة، مع الحفاظ على الأصالة، والإفادة من خيرة ما في التراث، وخيرة ما في النتاج الثقافي الراهن، وصولاً إلى كلٍّ ثقافي عـربي موحّـد، نـاتج من هذا اللقاء بين إرث الماضي ومعطيات الحاضر ؟

وكان الجواب على هذا الـسؤال يعنـي ضرورة تجديـد الثقافـة العربية وتطويرها، ولا نقول إحياءها، لأن ثقافتنا كانت حية دائـماً، وأثبتـت جـدارتها بالحيـاة، عـلى مـدى التـاريخ. وتجديـد الثقافـة وتطويرها، فيما يفهم من هاتين الكلمتين، هو رفدها بالدم الجديـد، والنهوض بها على أساس المقاييس الحضارية الحديثة، وجعلها تأخذ نصيبها من العلم والتكنولوجيا، وتتفاعـل معهـما، حتـى تـستطيع النماء وإثبات الوجود، ودخول العصر من الباب الواسع.

وهكذا كانت البداية التي تجلت، في بيان عمان، بدايـة رائعـة، وكان الأمل أن ينتقل العمل المشترك لـوزراء الثقافـة العـرب، مـن مرحلة متقدمة إلى أخرى أكثـر تقـدماً، في تحقيـق التكامـل الثقـافي العربي، وفي الاتجاه نحو وضع سياسة ثقافية عربية موحَّدة موحِّدة، واضحة الأهداف والمعالم والوسائل.

وفي الدورة الخامسة لمؤتمر الوزراء المسئولين عن الشؤون الثقافية الذي عقد في تونس عام ١٩٨٥، تحت عنوان «خطة ثقافية شاملة»، كانت المفاجأة الكبرى هي هذا الإنجاز الضخم الذي حققته اللجنة المشكلة لهذا الغرض، بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والتي رئسها المغفور له الأستاذ الفاضل عبد العزيز حسين، فتعهد أمرها، واستعان بأكثر من ستمائة مفكر عربي من أجل إنجازها، ونهضت دولة الكويت الشقيقة بأعبائها، وحملها إلى المؤتمر المفكر والمؤرخ والكاتب الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى، مقرر اللجنة، رحمه الله، وكان علينا أن نعكف على دراستها ليأتي موقفنا منها، رفضاً أو قبولاً أو تعديلاً، مبنياً على قناعة بعمق مضامينها، وسلامة محتواها، وتلبيتها لما يراد منها.

العنوان عريض، رحب المدى، ضخم المحتوى، لكننا نستطيع أن نقول باطمئنان: إن المبادئ النظرية، والأسس الموجهة للخطة الثقافية المنشودة، وما فيها من تعريف وتوصيف وفلسفة، وروح عربية أصيلة، ومبادئ عامة دقيقة، كل ذلك قد أرسى القواعد السليمة لها، وجعلها بياناً ثقافياً يحسن اعتماده، بعد المناقشة التي ستنمّيه وتغذيه.

وكان أول ما لاحظناه على الخطة الثقافية الشاملة، بعد استعراض أهدافها ومبادئها، هو التخطيط المدروس لها، والتحديد الواسع لأهدافها، وما تعنيه هذه الأهداف من تطوير للبنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، لأن الثقافة ركن البناء

الحضاري، وأساس تماسك الأمة. ولقد تناولت هذه الخطة قضايا كثيرة منها التنمية الثقافية، وإبراز الهوية الحضارية العربية الإسلامية، وتحقيق التحرر القومي الشامل، بوصف الثقافة عنصر دفاع، ورفض للتبعية والاستلاب والتشويه، ومنها تكوين شخصية المواطن العربي، وإغناؤها، وتأكيد حق الإنسان العربي، في اكتساب الثقافة، وحقه في حرية التعبير عنها، وهو مبدأ أساس، وحق مشروع، وديموقراطية نوهت بها الخطة، ونصت على ضرورتها في أكثر من موقع.

لقد حددت خطتنا الثقافية الشاملة، بدقة ووضوح، الخطوط الرئيسة الناظمة لفلسفتنا الثقافية، وهي خطوط تتماشى مع أحدث قواعد العملية الثقافية، من حيث سلامتها، وتقدميتها، واستلهامها تراثنا الباذخ عراقة، وحداثتنا الصاعدة طموحاً، وقد أعطت هذه الخطة مصداقية مسلماتها، وملأتنا يقيناً بأنه من حقنا أن نتطلع إلى دور ثقافي ريادي، يعيد مجد الماضي، ليلتئم وطموح الحاضر.

* * *

الإخوة الأعزاء

لقد أوجزت بشأن الخطة وما استوفيت، لكنني أحببت أن أعيد إلى الذاكرة لمحات مما كان، ما دام الموضوع الرئيس لمؤتمركم هو: نحو تحديث الخطة الشاملة للثقافة العربية، وهو أمر جدير أن يلقى من عنايتكم الكثير، وآمل أن يكون انطلاقةً تراجع ما تمّ، وأن تدخلوا في الصميم الرحب لموضوعكم الرئيس الذي بات يشكل

ضرورة، في ظل مستجدات كبيرة، ومتغيرات لم يكن بعضها في حسباننا، حتى لا يسبقنا الزمن، ونفتقر إلى القواسم الهادية المشتركة التي تؤلف بيننا.

إن من حق الأجيال علينا أن تتشكل فكرياً، في المناخات العقلية الأشد انفتاحاً على العصر، والأكثر تجاوباً مع الأصيل من التراث، وأن تكون في مجرى الحياة الثقافية السليمة التي ترى في الإنسان وتحرره وتقدمه، طموحاً مستقبلياً كبيراً.

لقد تغيرت الدنيا من حولنا، وتزلزلت قواعد ومفاهيم وأسس،«ولم يعد الإنسان ملتصقاً بالأرض، بل صار يتحرك في الزمان النجمي، وصار علينا جميعاً أن نوسع أفقنا إلى ما بعد نقطة اللانهاية». صار على الثقافة أن تلعب دورها التغييري الذي لابد من أن نعيد إليه وهجه وزخمه، وأن نعمل على خلق بيئة ثقافية مواتية لهذا التغيير، على مهاد من الفكر المتقدم الذي لا يتنكر لثوابت الأمة، ولا يخشى في الوقت ذاته، من الفناء في الحضارات الأخرى، وهو يمد جسور التواصل معها، وأن نحمل مسئولية الإنماء الثقافي، وأن نشرع الأبواب لفتوحات العلم المذهلة، ساعين إلى امتلاك التقنيات التي حققتها الكشوفات العلمية الثورية، في كل المجالات، من المعلوماتية إلى الالكترونيات إلى اقتصادات المعرفة، إلى الحواسيب والشابكات، والأقمار الصناعية، والمحطات الفضائية، والثورات الرقمية، كي نبقى في قلب ثقافة عصرنا، نعيه ونتماشى مع ركبه.

وبالمناسبة، فإني أذكّر بمشروع معروض عليكم في جدول أعمالكم عنوانه : النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، وقد سبق أن أقره مؤتمر قمة دمشق، ووضعت تفاصيله لجنة خبراء شكلتها المنظمة العربية بإشراف الأمين العام للجامعة العربية، وحضر اجتماعاتها الأستاذ الدكتور أمين المنظمة في دمشق، وأنا أتمنى أن يحظى باهتمامكم، وأن يكون جزءاً من خطة التحديث التي تدرسون.

* * *

وفي عملية التحديث المنشودة هذه، أتمنى على مؤتمركم أن يفيد من إمكانات المفكرين المثقفين في دفع هذه العملية الخطيرة إلى أمام، تماماً كما كان الحال عندما رأت هذه الخطة النور، ومثقفونا المفكرون هؤلاء هم ثروتنا الوطنية، وهم جديرون بالرعاية والاهتمام، وبأن يعطى لهم أن ينتجوا ثقافتهم بإبداعاتهم، وأن يجعلوا من إنتاجهم هذا درعاً للوطن.. في جو من الحرية، لا تشله الرقابة الصارمة التي تغلق النوافذ أمام الفكر الأصيل، ذي الرؤية القومية، والبعد الإنساني، والنهج التقدمي.

ولعلي لا أكون قد ألححت، إذا تمنيت عليكم العمل بكل الطاقات، على نشر ثقافتنا، داخلياً وعربياً ودولياً، وبذل المزيد من الجهد في عملية ترجمة نتاج مبدعينا إلى اللغات الأجنبية، حتى لا تبقى الترجمة وحيدة الجانب تقريباً، ونحن، في وطننا العربي، نملك المواهب والإمكانات، وكل ما بقي علينا أن نسهر عليها،

ونشجعها، وننشر إنتاجها، ونوفر لها وسائل ممارسة فعالياتها، والإسهام في عملية تحديث الخطط الشاملة، ورسم الاستراتيجيات.

* * *

القدس عاصمة للثقافة؟ نعم، ولِمَ لا ؟

في دمشق، أو في أي مدينة عربية سواء..

فالثقافة العربية، ومنذ فجر النهضة، تقوم بدورها النضالي، ثقافةً وطنية قومية إنسانية، وكفاحها هذا يجعلها ملتزمة تلقائياً بأرض الوطن، بترابه، ويتجلى حداءً موصولاً، للمناضلين الذين رووا هذه الأرض بدمهم،

القدس في القلب، كما هي فلسطين،

وإني لأستعيد كلمة للمغفور له، الراحل الكبير حافظ الأسد، في مؤتمر من مؤتمرات القمة العربية قال فيه:« إن أولى القبلتين تستصرخنا، والمسجد الأقصى يستحث إسلامنا، وأهل فلسطين ينادوننا»، فهل حقاً نسمع النداء ؟! وكيف إذن نغض الطرف عن عملية التهويد المتواصلة فيها، وتحت سمعنا وبصرنا وتحت سمع العالم وبصره؟

وحيدين يعتصمون في حي الشيخ جراح، ويستمر طردهم من بيوتهم، ويستمر صمتنا، وكأن أي عدوان لم يعد بإمكانه أن يهز الضمائر، ولكن إلى متى؟ السؤال مطروح علينا جمياً!.. ودون إغفال

للمأساة الرهيبة في غزة والاغتيال الممنهج للحياة فيها، والاكتفاء دولياً بمجرد إطلاق التحذيرات.

أتمنى - أيها الإخوة - حين يتم الاحتفاء بالقدس، عاصمة للثقافة، أن يتبدى ذلك، كما هو مرجوّ، في تاريخها، وجغرافيتها، وبطولاتها، ورجالاتها، ومعاركها الطويلة والمريرة، وراهنها الأليم، وفي طرح علمي فني أدبي لكل ذلك، ولما تعنيه القدس لنا، وما نريد للمستقبل أن يحمله لها، ولكل ما يستطيع دفاعنا الفكري الثقافي والسياسي أن يصنعه، في عالم يفتقد عدالته وإنسانيته، في مجمل ما يتعلق بقضايانا، منذ النصف الأول من القرن العشرين.

* * *

كلمة أخيرة

أعود في الختام فأحييكم باسم السيد الرئيس بشار الأسد، رئيس الجمهورية، كما أحييه باسمكم، راعياً للثقافة، حاضناً لها، متمسكاً، وبكل عنفوان التاريخ، بثوابت الأمة، وأتمنى لجهودكم أن تتكلل بالنجاح، وأن نخطو معاً بعملية تحديث الخطة الشاملة، خطوات تليق بثقافتنا المناضلة التي صانت وحدة أمتنا، وربطتنا على أرضية من التكوين المشترك، والمنظومة المعرفية الواحدة، وحققت التلاحم المصيري الذي يتخذ من وحدتنا الثقافية، ولغتنا الرائعة مهاداً، وتوكيداً.

الشكر كل الشكر للذين نظموا هذا المؤتمر، وفي الطليعة الأستاذ الدكتور المنجي بوسنينة الأمين العام للمنظمة العربية

للتربية والثقافة والعلوم، ولكل العاملين في وزارة الثقافة والمنظمة، وإني لعلى ثقة بأن جهودهم كلها ستكلل بالنجح والتوفيق.

* * *

الإنجاز الثقافي، أيها السادة، قمر لا يغيب..

ومن حق الوطن أن نوقد فيه شعلة التوق إلى المعرفة..

وأن نسعى كي يصبح هذا التوق، في نبالتـه، أمنيـة ارتفـاع إلى أعلى فأعلى، دون توقف..

وتلك هي الرسالة المنوطة بوزراء الشئون الثقافية، في الـوطن العربي.

التــواصـل الإنــسانــي
واسـتعادة الذاكرة الحضارية للبشرية(*)

السيد محمد الغنوشي، الوزير الأول

أحيي باسم السيد رئيس الجمهورية العربية السورية الـدكتور **بـشار الأسـد**، فخامـة رئـيس الجمهوريـة التونـسية، والأشـقاء في تــونس، شــعباً وحكومــة ومثقفــين، كــما أحيــي الأمــين العــام للفرانكوفونية الرئيس عبده ضـيوف، والمنظمـة الإسـلامية، وكـل الذين أسهموا في عقد هذا المؤتمر، احتفاء بمدينة القيروان، عاصمة للثقافة الإسلامية، حملت، عـلى مـدى العـصور، مكـارم أمـسٍ بـه نتواصل، وبه نستنير، وبه نحفظ ما انتهـى إلينـا مـن الـسلف، كـما حملت وقائع تاريخ كانت أقـوى مـن فنـاء الـذاكرة، وأعـصى مـن صروف الدهر، وظلـت عـلى الأرض أبـداً، قـوة نـشور، وحقـائق متوهجة، تنداح أشعتها معرفة وتنويراً، وتعطينا أن نطل عليها مـن أبهى شرفات التـاريخ، وفي أبهـى صـفحاته، يـوم القائـد المجـترح

(*) في افتتاح مؤتمر «حوار الحـضارات والتنـوع الثقـافي» - القـيروان، ٢ -٤ حزيـران ٢٠٠٩م.

للبطولات، عقبة بن نافع، يصل القيروان، في ومضة برق نيزكية، فيبني هذه المدينة ويشيد جامعها، ويمشي، من بعد، في رحاب الزمان، ومنبسط المكان، منطلقاً في مواكب الفتح، إلى الجزائر والمغرب، إلى تخوم الأطلسي، حاملاً رسالة الإسلام، متابعاً رحلة المجد الذي كان، والذي سيكون، رافعاً للإيمان راية، وللحق راية، مسربلاً بفضائل العقيدة، ودرع التقوى، ونبالة التسامي، وإشراقات الروح الخلاقة.

الإكبار كل الإكبار، والإجلال كل الإجلال، لذكرى الفاتح العظيم، عقبة بن نافع، ولمدينة القيروان التي تزدهي بتاريخها وواقعها، وما قدمت، وتقدم، والتي يزدهي بها العالم الإسلامي، من أقصاه إلى أقصاه.

* * *

أيها السادة

الموضوع المطروح في مؤتمرنا هذا، والذي يدور حول حوار الحضارات والتنوع الثقافي، جدير بأن نعيره الكثير من الاهتمام، في هذه المرحلة الصعبة، من تاريخ الإنسانية، ومن تاريخ منطقتنا، فالأمر لا يقتصر على إشكالات حضارية، ومفاهيم خاطئة، بين الشرق والغرب فحسب، بل يمتد إلى أربع جهات الأرض، في عالمنا المضطرب هذا الذي «تغيب عنه قيم غاليات، منها الحرية والعدالة، وحقوق الشعوب، كما تغزوه مخاطر الخلل، من فقدان التوازن إلى بؤس الاستلاب، وتفاقم أشكال العدوان، وشن

الحروب غير المشروعة، والتمييز والعنصرية، وإغراق الدول المستضعفة في ضائقات اقتصادية قاسية، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، مما يضع العديد من شعوب العالم أمام مآزق وأزمات ليس من السهل معالجتها».

من أجل ذلك، وفي أيامنا الراهنة هذه، يغدو تفعيل الحوارات المعرفية بين الحضارات، كل الحضارات، وبناء العلاقات، وتوثيق التلاحم، أمراً في غاية الضرورة، وهو بالتأكيد إرادة خلاص، تسمح بتحقيق تواصل إنساني، يمكّن من استعادة الذاكرة الحضارية للبشرية، ومن انتفاء محاولات الإلغاء والقطيعة، بين الشعوب والأعراق والمعتقدات، ويرعى أشكال التنوع والتفاعل، في المسيرة الحضارية المتعالية على منطق الصراع الزائف.

إن إلغاء الحدود بين الحضارات والثقافات، أمر أساس، لكن إلغاء حضارات الأمم وثقافاتها استصغاراً لها، أو اتهاماً مزوراً لمعطياتها، أمر مرفوض، وفي غاية الخطورة، ومن الإنصاف النابع من صدقية الواقع أن نؤمن بأن لكل بلد ثرواته وموروثاته، ودوره وما يمكن أن يعطي، وبأن التواصل ينبغي أن يكون القاعدة، وبأن الاستمرارية الحضارية هي جوهر هذا الواقع، بمعزل عن أي هوى أو أي تحيّز. والحضارة، أولاً وأخيراً، لا تتواطأ، وينبغي أن تكون متفتحة، منفتحة، متفاعلة، تؤكد ذاتها، بالتداخل مع غيرها، تأثراً وتأثيراً، لا تلغيه ولا يلغيها، وهي في النهاية ملك الإنسانية جمعاء.

ومن حسن الحظ أن ظاهرة حوار الحضارات هذه، تتسع أكثر فأكثر، وتنشأ من أجلها مؤسسات، في أوروبا وروسيا والنمسا،

والبلدان العربية والإسلامية، وغيرها، وهي تطرح، في هذه الأيام، سؤالاً جديداً، نطرحه نحن أيضاً، وعن قناعة، في محاولة لتصعيد الحوار إلى ما هو أعلى وأصح، بعد أن تجاوز الجميع فكرة صراع الحضارات التي تؤدي بنا إلى التباعد، وإلى التناقض، وسوء الفهم: هل العلاقة بين الحضارات هي فعلاً علاقة حوار أم هي علاقة تكامل، تأخذ فيه كل حضارة من سابقاتها؟ تتمثل ثم تبتدع تأليفاً جديداً، يقدم إضافته، تماماً كما فعلت الحضارة العربية، حين حملت عبر الأندلس كنوزها المعرفية إلى أوروبا.

وبما أن حضارة اليوم، في دول العالم المتقدم، لا تخرج على هذه القاعدة، بل هي تبني إضافاتها على ما سبق، فإن ذلك يسمح لنا أن نتحدث عن تكامل حضاري، أو مشاركة، أو تشارك، أو تصالح، أو تحالف، أو حوار تواصل، لا يسلب الراهن مضامينه، لكنه يتلمس أساس البنيان من جذوره، وما قدّم الماضي للحاضر. وهذه المفاهيم الجديدة والمتجددة التي أخذ بها مفكرون كثر في العالم، جديرة بالتقدير، لأنها تستهدف ضمان الترابط الإنساني العميق والنزيه، بالمعرفة التي تولِّد الفهم، وينتفي بها الجهل والتحيّز المغالط، وإني لأجد في كلمتي "تشارك وتحالف" اللتين اختارتهما بعض الملتقيات، صيغة جميلة، وودواً، جديرة بأن نتوقف عندها، ونأخذ بها.

*   *   *

يتأكد مع الأيام، وانعطافات الأحداث في العالم، أن الحوار الفكري هو الذي يشكّل القاعدة الأساس للتفاهم بين المجتمعات

الدولية، وهو الذي يستهدف توفير المقومات، لنهضة فكرية إنسانية، تحتاجها البشرية، في اتجاه تحقيق السلام والعدالة واحترام القيم، وشق الطريق الرحب للتفاهم الدولي، ورسم الخط البياني المتصاعد، لمشتركات الثقافة الإنسانية.

وفي إطار البحث عن هذه النهضة، يندرج موضوع الحوار الثقافي العربي - الأوروبي والعربي - العالمي، إذ بالحوار وحده تتقارب تصورات البشر عن أنفسهم، وعن الآخرين، ويزول ما يسم هذه التصورات من ضيق وتحيّز، ورغبة في طغيان ثقافي أحادي، يؤبّد التبعية الثقافية. بالحوار يتوطّد التعاون الدولي القائم على احترام التنوع الفكري والتساوي الثقافي، على أساس من الكرامة والتفتح والاعتراف المتبادل، بالثقافات المختلفة، والسعي لتنمية الحوار بينها.

لقد أكد العرب، منذ أقدم التاريخ، حرصهم على إقامة أفضل الصلات مع الأمم الأخرى، وهم أقاموا، بالفعل، صلات بأوروبا وافريقيا وآسيا، وأثبتوا عالمية اتجاههم، وقدموا أدلة كثيرة على قدرتهم على التعاون والتبادل والأخذ والعطاء، وكانت المشاركة من صفاتهم، والعزلة من مجتنباتهم، وما أحد ينكر بأنهم أرادوا لثقافتهم أن تكون جسراً تعبر عليه ثقافتهم إلى الآخرين، وثقافة الآخرين إليهم، وأن يكون المدى الفكري الذي يشكل فضاء التواصل، مترامي الأبعاد، باتجاه خلق رؤى مشتركة، لمجتمع دولي ذي نظام عالمي، تتعايش فيه الحضارات، ويتأسس على معايير

قيمية، وعلى القانون الدولي، وعلى الإيمان بالعدالة، وضرورة تدعيم السلام، والتوافق بين البلدان، ولجم كل أشكال العدوان.

ولقد سعوا ويسعون، مستندين إلى الأمانة التاريخية التي يغلون، ومن خلال التعاون النزيه، إلى حوار مفتوح، على أساس النديّة بينهم وبين الغرب، وإلى تطوير هذا الحوار، وصولاً إلى مزيد من التفاهم الصادق، والرؤية الدقيقة، وإلى تبديل نظرة بعض الذين في الغرب، إلى العرب والإسلام، ممن يفتقرون إلى معرفة الحقائق، أو يتسمون بالتعصب، أو ممن يسيئون عن قصد إلى معتقداتنا، في محاولة لقلب كل معطىً نبيل في حياتنا..

العرب أيها السادة متوسطيون أيضاً، وتلك حقيقة جغرافية تولَّدت عنها حقيقة تاريخية، أثبتت أن هناك حضارة متوسطية، أسهمنا فيها، كلنا، ونشترك في إنمائها، كلنا، وهناك ثقافة متوسطية، تتقارب مقوماتها، وهذه الثقافة، في تعدديتها، هي التي تقرِّب ما بيننا، وستجمع أيضاً بيننا، إذا ما توسلنا التعاون والتبادل غاية لذلك، وهذا ما ينبغي أن نعمل له، خصوصاً وأن الثقافة العربية هي إحدى المكونات الأساسية للحضارة الأوروبية، بوجهها الإنساني الأنقى الذي يتخطى تخوم العنصريات وأشكال التعصب، ويرفض تسخير الفكر والتاريخ، للسياسي، واليومي والعابر.

* * *

يؤسفني - ونحن نتحدث عن حوار الحضارات، والتآخي بين الأديان، والتضامن على مستوى الشعوب، والتمسّك بالمنطق

النـزيه الذي لا يصادر فيه الرأي الـرأي الآخـر، وعـن الـسعي إلى مكافحة آفات التعصب والتحيز والتمييز العنـصري، والاسـتهتار بالقيم الروحية، والعمل على تعزيز الجهد الدولي المشترك، من أجل إزالة العقبات التي تعترض التفاهم الحقيقي بين الـشعوب، كـي لا ينكفئ عالمنا الراهن إلى نازيات بائدة وفاشيات دفعنا ثمنها باهظـاً، من حياة ملايين الناس،

يؤسفني أن يُعلن، على حين غرة، عن مؤتمر سيعقد في ألمانيـا، تنظمه مجموعات عنصرية من يمين أوروبا، وممن ينتمون إلى مراحل نازية عفّى عليها الزمن، يستهدفون الإسلام، والمسلمين "بالتالي"، بهجـوم غرضــه تزييـف الـوعي، وإثـارة العـصبيات، وتحـريض الإرهاب، مدفوعين بجهل وجهالة، دون أي وازع من فكر أو خلق أو ضمير، ودون موقف رافـض، يعلنـه الـسياسيون، والمفكـرون، حين يلتزمون الصمت ويقنعون بدور الشهود، وحسب.

* * *

الإسلام أيها السادة دين سماوي، كان ومـا يـزال ديـن العلـم والتـسامح والخـير والـسلام، والعـرب أمـة ذات تـاريخ عريـق، وحضارة باذخة، وقد امتدت إلى العـالم، عـبر اسـبانيا والأنـدلس، بالمعرفة والفلسفة وشتى أشكال العلوم، ونحن أبنـاء هـذه الأمـة، نـستجيب لكـل المبـادرات الخـيِّرة، والحـوارات التـي تنطلـق مـن الحرص على التعاون الإيجابي، والانفتاح العقـلاني وقـيم التـسامح وثقافة السلام، بمفهومها السامي، وليس الملتبس، بالنسبة لشعوب

كثيرة، تحاول أن تدفع عـن نفـسها العـدوان، بأشـكاله العـسكرية والاقتصادية والثقافية، وأن تضع حداً لاغتصاب الأرض والحرية، وتقاوم كل المظـاهر التعـسفية للـسيطرة والاسـتلاب، يؤيـدها، في كفاحها، العاملون في سـبيل الحـق والعدالـة، والتفـاهم والـسلام الحقيقي، والتقدم، وتوفير الحياة الكريمة للإنسان.

إن استئناف شوطنا في الحاضر، ينبني على صرحنا الحـضاري في الماضي، وهذا الصرح، كما أشرت، كان من الضخامة والارتفـاع بحيث شعّ على الدنيا، وقـدم للعـالم إنجـازات كبـيرة، وفي فهمنـا للدور الحضاري الإنساني، وتعاملنا الواعي معه، نؤدي، في الراهن، رسالتنا في هذا الوجود، تماماً كما أديناهـا في المـاضي، ونفـتح آفاقـاً لعمل بنّاء، دؤوب، من أجل إبراز الوجه الحضاري للأمـة العربيـة عموماً، والدفاع عن قضايانا العادلة، والرد على محاولات الإسـاءة للإسـلام والعـرب، وتـاريخهم ومعتقـداتهم، وتوضـيح مواقفنـا من قـضايا العـالم الراهنـة، المـستمدة مـن مواقعنـا المبدئيـة، ومـن قيمنا الرفيعة، كي يكون لنـا، بـالحوار، شـأن في القـضايا الدوليـة، ببعدها السياسي والاستراتيجي والاقتصادي، يمـدّ حبـل الأمـل، ويعزز الثقة.

وأردنا، إلى ذلـك، أن نجعـل التواصـل في حـضارتنا شرعـة ثقافية، ومهمة قومية، تطل على الكون بعهـد شرف، يجعلـه رسـالة محبة وسلام وعدل، ونداء أمـة إلى الأمـم، في أن يكـون الـسباق في ميدان الحضارة هو السباق الذي تتجلى فيه روعـة الفكـر الإنـساني

العظيم، ونفحة الإشراقة البشرية، إذ هي طموح إلى عيش يعلو على معنى العدوان، ووجود لا اغتصاب لحق فيه، ولا احتلال لأرض الغير، ولا تمييز في العرق أو اللون، ولا افتراءات على حق شعب، وتشريده عن دياره، واستباحة محرماته ومقدساته، كما فعلت إسرائيل بشعبنا العربي الفلسطيني، وكما تفعل النازيات الجديدة بشرائعنا، وعقائدنا، وحياة أبنائنا.

أيها الإخوة – أيها المكافحون من أجل نهضة حضارية، ينتفي منها العدوان، والغدر، والتسلط، والاستلاب، والنهب، واحتلال أراضي الغير بالقوة، واغتصاب حقوق الغير بالقوة، معاً سنكافح، فعلاً وممارسة، لمجابهة كافة التحديات، من أجل عالم أكثر تضامناً وعدالة، عالم متعدد الثقافات، متعدد الهويات، يسوده حوار ديمقراطي مفتوح، وتمارس فيه شعوبه حقها الطبيعي في السيادة وتقرير المصير، في مناخ من الحرية والمساواة، وإعلاء شأن الإنسان.

الجهود المتسارعة
لتعزيز المحتوى الرقمي العربي (*)

عصرنا هذا، عصر التطورات التكنولوجية المذهلة، والالكترونيات الدقيقة، والإبداعات السامقة، والآلة التي لا يمكن التعامل معها إلا بالثقافة العلمية المتقدمة، يدعونا إلى أن نقرع باب التحصيل العلمي قرعاً دائباً، متصاعداً، لنمتلك المعارف التي تتيح لنا أن نكون في قلب عالمنا، وعلى صلة وثيقة بعلومه، وفي الموقع اللازم من شوطه، مادمنا، في بلدنا سورية، نريد أن نبني دولة عصرية، وأن نحقق تنمية متقدمة، تعطي لمنظومتنا المعرفية أن تكون عنصر تغيير في الحركة التاريخية التي لا تعرف السكون، وأن ترسي دعائم مشروع نهضوي كفاحي وحضاري، ينطلق من الواقع الحي في حركيته ومستقبليته، وفي فرادته وشموليته، وفي تفاعله الخلاق مع ما في العالم من جديد في العلم والمعارف والتكنولوجيات، وفي الفتح الالكتروني الذي هزّ الدنيا بمعطياته وكشوفاته.

(*) في افتتاح المؤتمر الوطني الأول لصناعة المحتوى الرقمي العربي برعايتي في دمشق، ١٣ -١٥ حزيران ٢٠٠٩.

وإني، ومنذ البداية، أوجه باسمكم وباسمي، تحية تقدير للرئيس الدكتور **بشار الأسد**، الذي وعى، وهو بعد في سن مبكرة، أن الحياة لا تأخذ معناها إلا من تكريسها لما هو أكبر وأسمى، لرؤىً تسع الكون، وتتندى لها الأرض، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بإعادة إنتاج المجتمع، وبناء الشخصية المبدعة، المرتبطة بالمعارف المتطورة، وبالنشاط الفكري الخلاق، والنظرة العلمية الصائبة، منطلقاً من إيمانه بمحورية الثقافة، في منظومة مجتمع المعلومات، ومحورية اللغة في منظومة الثقافة، على أمل دخول العصر من بابه الأوسع، وحتى لا يبقى دورنا دور الشهود على ما يجري في العالم من حولنا.

وإذا كنا نذكر بالتقدير الكبير، والعرفان، هذا الدور الاستثنائي للرئيس البشار، فذلك لأننا مانزال نختزن في الذاكرة، كيف كنا خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي، نتابع بدهشة، وبشيء من أسى المتفرج عن بعد، ومن تطلّع كان أقرب ما يكون إلى رؤى الأحلام، مستجدات القرن التي تبدّت في ما حققته الثورة الالكترونية، وعوالم الحواسيب، وما كانت تعد به من تطورات مقبلة، وندرك أنها ستجعل التعامل مع كل وجوه العلم والثقافة، وقضايا التنمية والاقتصاد، وأمور الإعلام، ومجمل التراث الإنساني، والإبداع البشري، تعاملاً مختلفاً، لا يستند إلى الذاكرة الإنسانية وحدها، وإنما، وبغير قياس، إلى الذاكرة الحاسوبية، فالحاسوب، في تطوره العاصف، ووظائفه المتعددة، سيكون ذاكرة

زماننا، ومصدر معارفنا، وكتاب عصرنا، وسيكون مـردود نتاجـه، كما هـو متوقـع، هـائلاً، بطاقتـه التـي لا حـدّ لحجمهـا، ولا سـعة لرحابتها، ومن الضرورة بمكان أن يأخذ موقعه في حياتنا..

وخلال مؤتمرات ثلاثةٍ، عقدتها سـورية تحـت عنـوان تطـوير التعليم، في الربع الأخير من القرن العشرين، كان التأكيد والإصرار على ضرورة إدخـال الحواسـيب في مدارسـنا، وتـوفير الإمكانـات المادية والتعليمية والتدريبية للإفادة منها، وكان التحذير المتواصـل من أن يفوتنا الركب، ونتأخر عن اللحاق به، ولقد تأخرنا بالفعل..

وفي مؤتمرات وزراء الثقافة العرب، على اختلاف موضوعاتها التي كنا نعـالج، كنـا نلـح عـلى هـذا الأمـر، في صـلب مناقـشاتنا وهوامشها.. وكانت قد بدأت بعض البوادر الواعدة، في بعض من بلداننا، وإن لم تـرق أبـداً إلى مـستوى التفجّـر العلمـي المعلومـاتي المتواصل، والذي كان يطرح علينـا أكثـر مـن سـؤال عـن وضـعنا العربي، وما يمكن أن نحققه، في يوم قريب أوبعيد، لثقافتنا العربية، كحامل مأمول لهذا الكشف الاختراقي العلمي غير المسبوق، وغير المحدود، في إنجازاته الراهنة والمقبلة.

ومن الإنصاف أن أشير إلى أن هذا التحول النوعي، وما حمـل من مستجدات ومفاجآت، قد أذهل، حتـى في الغـرب، مجتمعـات النخبة، وصاروا يتحدثون عن شبح القنبلة المعلوماتية بعـد القنبلـة الذرية، ويخشون في بلد كأمريكا أن ينقسم المجتمع، طبقياً، إلى فئـة الذين يملكون، والذين لا يملكون، يقصدون بذلك من في قدرتهم

المالية والثقافية أن يستفيدوا من الحواسيب، وما تعطيه على كل الصعد، وأن يبقوا في أعلى السلم، ومن ليس بمقدورهم أن يحققوا ذلك، ويبقون، بالتالي، في الموضع المتدني.

وأن عالماً فيلسوفاً، هو لويس بويل يقول، في كتاب له عنوانه نحو وعي كوني،« إننا -حتى في الغرب - نعيش زمناً دخل فيه العلم إلى الكون الروحي، وبدّل عقل الملاحظ نفسه، ورفعه إلى مستوىً ليس هو بمستوى الذكاء المتعارف عليه، لأننا لم نعد ملتصقين بالأرض وحدها، بعد أن أخذنا نتحرك في الزمن النجمي، وبات وجوباً علينا أن ننتقل إلى وعي الكون من حولنا، وأن نوسع أفق معلوماتنا إلى ما بعد نقطة اللانهاية، لأن هناك ثورة معلوماتية تجري تحت أبصارنا، وتتجلى بالعودة إلى التزاوج غير المتوقع، بين العقل والحدس، ويجدر بنا، بل يفترض بنا، أن نقبل الحقيقة الواقعية، حقيقة أننا ندرك، فقط، جزءاً من المليون مما نعرف أنه متغيرات علمية متسارعة، مندفعة إلى أمام، منطلقة في الجهات الأربع لكوننا وحياتنا، والتي هي، في المآل، فوق حدود الرؤية الإنسانية تقريباً..».

لقد كان تأسيس الجمعية المعلوماتية في دمشق عام ١٩٨٩، بمبادرة من الشهيد باسل الأسد، هو الخطوة الأولى التي استهدفت نشر الثقافة المعلوماتية، وثقافة المعلومات، ثم تابعت عملها، وبزخم، حين تولاها الدكتور بشار الأسد، ووضعها على رأس سلم أولوياته، وهيأ لها إمكانات كثيرة، ساعياً إلى توفير الحواسيب،

وإمكانات التدريب، مؤسساً لمراكز متعددة، وبدأت الأوساط الثقافية والتعليمية الرسمية تطرح أسئلتها حول المعلومات والمعلوماتية، ما هي حسب المصطلح الدقيق للكلمة؟ وكيف للثقافة في شموليتها، علماً وفكراً واقتصاداً وأدباً، أن تتقدم فتنتج، عبر المعلوماتية، مجتمع المعرفة، في زمن الاتصالات السريعة، والرؤى السريعة، والحسابات السريعة، واختزان الذاكرات السريعة أيضاً التي تقدم إجابات بالوتيرة نفسها، هذه التي يعجز الإنسان أن يجاريها، أو يتجنبها، أو يغفلها، أو يقف محايداً منها، ولابد له، مع التقدم العلمي الانهاري، على شكل قفزات متوالية، أن يجد نفسه في إطار شبكة المعلوماتية لا خارجها، ولابد له، تالياً، أن يأخذ بها، أو أن يجدّ للحاق بها، في مجتمعاتنا التي تطمح إلى المجاراة، إلا أنها لم تكن مؤهلة بشكل كاف، ولابد من تذليل الصعوبات أمامها، وتأهيل الشبيبة والناشئة، بتطوير التعليم، وتوفير المستلزمات، وإمكانات التدريب، على أحدث الأساليب المعمول بها في بلدان العالم المتقدم.

وحين صعب على جهات رسمية، في النصف الثاني، من التسعينات، تقبل فكرة انتشار الانترنيت، أو الشابكة، حسب المصطلح العربي، وداخلتهم خشية من مخاطرها، تماثل تلك التي توقفوا عندها، يوم الفضائيات تقرع الأبواب، ويحتاج مستخدموها إلى الصحون المعلقة، كان لتدخل الدكتور بشار دور حاسم، في رفع الحظر، وفي السماح باستخدامها، إدراكاً منه لضرورتها، فدونها لا تستقيم الأمور ولا تأخذ الحواسيب معناها.

إنساننا الجمعي العربي لم يحقق تطوراً يقارب، ولو إلى حد ما، هذا الذي يجري، في العالم المتقدم، وباتت معرفة اللغة الأجنبية، بل اتقانها، ضرورة لدخول عالم الانترنيت، مما دفعنا، في وطننا العربي، إلى التفكير الجدي بضرورة الاهتمام بالمحتوى العربي، مستشعرين أهمية الاتساع في تطبيقات المعلوماتية، بما يغني الحياة الثقافية، ويطور الأداء، ويختصر الزمن، ويحمي التراث، ويوفر المرجعيات بيسر وسهولة، ودقة علمية بالغة.

لقد صارت مساحة المحتوى على الشابكة في العالم، بحجم هذا العالم واحتياجاته، صارت تشكل كماً مذهلاً من المعلومات، في حقول المعرفة المختلفة، من العلوم الإنسانية والتطبيقية والبحتة، وشؤون الاقتصاد والمال، والطب والسياسة، وهي منظمة في بنوك معلومات، ومواقع جامعات وشركات، ومراكز بحوث، وأكثرها يأتي باللغة الإنكليزية، مما يحرم الغالبية، من أبناء شعبنا العربي، من القدرة على الإفادة من كل هذا المطروح على الشابكة.

والذي يعود إلى الإحصاءات التي تعطي، بلغة الأرقام، وضع اللغات المختلفة على الشابكة، يدهشه أن يرى أن لغة المحتوى هي الإنكليزية أولاً، ونصيبها نحو من سبع وستين بالمئة، أما اللغة العربية فنصيبها /١٫٥ / بالمئة، وهذا يعني حجم التقصير الكبير الذي يعزل نحواً من ثمانين بالمئة، من أبناء شعبنا العربي عن دخول هذه المدارات الموّارة بالمعرفة، في حدودها الكونية.

نضيف إلى ذلك أن هذا المحتوى العربي كاد يقتصر،إلى أمد قريب، على خدمات بسيطة، فيها من التفاهات، ومن الألعاب، ما

صرنا نخشى منه على صغارنا، وتسمّرهم أمام الحواسيب، دون أن يكون لها أي أثر في تطوير العلم والاقتصاد وقضايا التنمية، في بلداننا.

ومن الإنصاف أن أشير إلى أن جهات عربية مختلفة، ومنها سورية، تعمل الآن بجدية كبيرة، لتعزيز المحتوى العربي، وتلافي هذا التقصير البالغ، من وزارات وجامعات، ومراكز بحث، ومنظمات، ومجامع للغة العربية، وهيئات عامة، وجمعيات، وتتقدم بمشاريع مختلفة، بعضها لتحديد الاستراتيجيات، وبعضها الآخر يرتبط مباشرة بالمحتوى، كمشروع الذخيرة العربية، وهو، في نظري، من أهم هذه المشاريع، في المرحلة الراهنة، وهو في الأصل جزائري المنشأ، تبنته الجامعة العربية، وتنهض به الآن مجامع اللغة العربية، وقد انطلق تحت اسم الذخيرة اللغوية، باعتبار أنه يعنى بالنتاج اللغوي، المتعلق باللغة، ثم وسع نطاق المشروع ليشمل جميع ميادين المعرفة، وتحدد الغرض منه بإيجاد بنك نصوص يتضمن أمهات الكتب الأدبية والعلمية والتقنية، والإنتاج الفكري العربي المعاصر، ووضع هذه النصوص في موقع على الانترنيت، وبمشاركة أكبر عدد من المؤسسات العلمية، في الوطن العربي.

الجهود متسارعة، وعلى أكثر من مستوىً، ولعله من المفيد الاطلاع على ما أورده الدكتور مروان البواب، في كشف له دقيق، عما صار متوفراً من موسوعات وكتب، على الشابكة، أو الأقراص المتراصة، ومن مراكز عديدة متخصصة في إدخال النصوص إلى الحاسوب للإفادة منها.

ولا بد من أن أشير إلى مشروع ذي شأن، ينهض به اتحاد مجامع اللغة العربية، هو إعداد معجم تاريخي، يهدف إلى تحديد التطورات التي طرأت على الألفاظ، حسب التسلسل الزمني للنصوص التراثية والحديثة، كي يكشف هذا التاريخ التبدلات في الأساليب والتراكيب اللغوية، ومستويات الخطاب.

وإلى مشروع آخر لا يقل شأناً هو مشروع تعريب مصطلحات تقانات المعلومات والاتصالات الذي يستهدف وضع معجم موحد، متخصص، شامل، يضم زهاء عشرين ألف مصطلح، تنهض به وزارة الاتصالات والتقانة والجمعية السورية للمعلوماتية.

أما مجمع اللغة العربية في دمشق فسيعمل على إدخال كل ما يصدر عنه من بحوث وكتب ومجلات، في مشروع معرفي، يسمح بالاطلاع على أعمال المجمع العلمية، منذ تأسيسه، ويضع قراراته اللغوية في متناول الجمهور.

* * *

سورية تنشط على أكثر من صعيد، وتلقى كل التوجهات التحديثية فيها دعماً كبيراً من رئيس البلاد الذي أحدث كلية للمعلوماتية، وجامعة افتراضية، وعزز وزارة الاتصالات والتقانة، وفي سعيه لبناء مجتمع جديد، ذي نبض جديد، حرص على التمكين للغة العربية، وحمايتها، ودفع الأذى عنها، لأنه يدرك أن اللغة العربية هي من أهم أسس قوميتنا، وأنها الهوية والآصرة، وإذا كنا

حريصين على موقعنا، في قلب العصر، فإن هذا لا يعني أن تضيع الهوية الجامعة، والثقافة المتجذرة، والثوابت المرتكزة على الإيمان بالأمة العربية، لغة وتراثاً وتاريخاً وانتماءً، ومن المحيط إلى الخليج.

أما المشروع الأكثر أهمية، والأكثر جدوى، في تصوري، فهو «مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة» الذي تبناه الرئيس الأسد، وطرحه على مؤتمر القمة الذي عقد في سورية العام الماضي -٢٠٠٨- لتكون الموافقة عليه بالإجماع، وبعد أن تبنته، بتفاصيله، جامعة الدول العربية، كان صدور القرار بتبنيه الكامل، وبمواده كلها، في مؤتمر قمة الدوحة، ليوضع موضع تنفيذ في الأقطار العربية كلها.

انطلق المشروع، في بنده الثاني، من تحديث مناهج تعليم اللغة العربية، واستخدام تقانة المعلومات والاتصالات، وزيادة عدد مؤسساتها، واعتماد مبدأ التعليم مدى الحياة.

وفي البند الرابع أكد على إصدار تشريعات وطنية، لحماية اللغة العربية، وترقية استخدامها، وتطوير استعمالاتها في الإعلام والإعلان، بكل أشكاله، وفي المواقع العربية على الشابكة، وزيادة المحتوى العربي.

وفي نصوصه أن يشجع القطاع الخاص والمجتمع المدني، ويدعمان، لإقامة مدن للصناعات اللغوية، مثل صناعة المحتوى، وصناعات البرمجية اللغوية العربية، وصناعات تعرف الحروف، وتعرف الكلام، وصناعات الجيل القادم للحواسيب والاتصالات،

القائمة على الدلالة، ويشجعان على القيام بالتعليم والبحث والتطوير والابتكار، في هذه المجالات..

إن كل هذا يستدعي أن نولي اهتماماً خاصاً للبحث العلمي، الذي يشكل بالتأكيد عامل القوة في المجتمعات المتقدمة، ولا يمكن الحديث عن مجتمع المعرفة دونه، فالبنيان الأساس لمجتمع المعرفة يرتكز على الإنسان المبدع أولاً، وعلى التقنيات المتقدمة، ومراكز البحوث المنتجة للمعلومات العلمية والتقنية، وفي المشروع الذي طرحته سورية كلام كثير حول هذا الموضوع.

لقد كان، لدى البعض منا، خشية من أن تشكل اللغة العربية عائقاً، يؤخر صناعة المحتوى العربي، لأسباب مختلفة، منها شكل الحروف، مثلاً، لكن لغات أخرى إشكالاتها أكبر، تجاوزت ما يعيق، وعززت محتواها على الشابكة، وطوّرت برمجيات لغوية خاصة بها، وبسبب من تقاعسنا نحن، تأخرت بعض الشركات العالمية التي ساعدت غيرنا، في تقديم تطبيقاتها في اللغة العربية. تأخرت مثلاً شركة مايكروسوفت، في إنتاج برنامج «انترنت اكسبلورر» الذي يسمح بالنشر والقراءة على الانترنيت، ولم يصدر إلا بعد أعوام من صدوره باللغات الأخرى.

* * *

لعلي قد أطلت، لكنني وددت أن أضعكم في صورة ما كان، على أمل أن تتضح الرؤى لما سيكون. أما موضوعكم المرتبط بوضع استراتيجية للمحتوى العربي، صياغةً للسياسات، ووصولاً إلى

صناعة عربية مستدامة، تستهدف تطوير هـذا المحتـوى، وإغنـاءه، على ضوء الفهم المعمق لأساسيات مجتمـع المعرفـة، فـأنتم الـذين سترسـمون بجهـودكم الفكريـة، ومعـارفكم التقنيـة، خطوطهـا، وآليات تحقيقها، مستأنسين بما طرح في لقـاءات سـابقة، ومنهـا مـا طرحته الإسكوا، وبالاستراتيجيات الدولية التي رسختها دراسات معمقة، وعلى ضوء الحاجـات القائمـة، والارتبـاط بالاسـتراتيجية العامة لسورية، في مجالات الإعلام والتعلـيم والاقتـصاد والتنميـة والثقافة وسواها، لكنني أريد أن أشير إلى ما يلي:

١- ضرورة توضيح المفـاهيم، وشرح المـصطلحات المـستخدمة، والكلمات الخاصة، وتجنب التعقيد الذي نراه فـيما بـين أيـدينا من نصوص.

٢- الشابكة والحواسيب كانت يوماً للنخبة، ونحن نريـدها حقـاً عامـاً للنـاس، وينبغـي أن تكـون في متنـاولهم، وجـزءاً مـن ثقافتهم، وأن نوفر لهم إمكانات الإفادة، من ثورة المعلوماتيـة الراهنة، مع توجيـه اهـتمام خـاص للأبنـاء في كافـة مراحـل التعليم، بدءاً من الطفولة الأولى.

٣- بذل أقصى ما يمكن من أجل توفير الكوادر المؤهلـة، وإعـداد الإنسان القادر بتكوينه العلمي، على استخدام كـل التقنيـات المتاحة..

٤- زيادة المحتوى الرقمي العـربي فـيما يتعلـق بتراثنـا الحـضاري والثقافي، وفي إغناء المكتبة الرقمية العربية، وبذل كل الجهـود الممكنة، لتظهير صورتنا الحقيقية، بمصداقيتها التاريخية.

٥- إحداث مواقع خاصة بسورية على الشابكات، يتولى الكتابة فيها مفكرون ومثقفون وعلماء وسياسيون مناضلون، بالقدر الذي نستطيع، تحقيقاً لوجودنا الدولي، وتصحيحاً للمفاهيم الخاطئة. ولعل العمل الذي تنهض به الجمعية السورية للمعلوماتية، بالتّآزر مع وزارة الإعلام، يندرج في هذا السياق.

٦- علينا أن نتذكر أن كل ما نقول عن اقتصاد المعرفة، ومجتمع المعرفة، لا يمكن أن يتحقق، إلا إذا قطعنا أشواطاً في عملية صناعة المحتوى العربي، إغناءً وارتقاءً.

٧- نريد أن نحرق المراحل، كما يقولون، لكن الأشواط التي قطعتها المجتمعات المتقدمة صارت بعيدة الآماد، ومستمرة التنامي، ولا أتحدث هنا عن الكتاب الالكتروني، وعن تجاوز معنى المكان الجغرافي، وعن برامج كبرامج الـ«غوغل Google Earth» التي تجعلك ترى بيتك في دمشق، وأنت في باريس، فثمة أشياء أكبر خطراً من ذلك بكثير، ولكنني أؤكد أن الطريق صار مفتوحاً أمامنا، وعلينا أن نحث الخطا، ونبذل أقصى ما نستطيع، ولا نتوقف عند القرار، بل نسعى إلى التنفيذ، وذلك ليس صعباً، ولكنه السبيل إلى التطور الذي نريد.

*　　*　　*

في الختام أشكر جزيل الشكر، كل الذين عملوا على تنظيم هذا المؤتمر، وزارة الإعلام ووزارة الاتصالات والتقانة، والجمعية العلمية السورية للمعلوماتية، واللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، ومنظمتي الاسكوا واليونيسكو، وكل المشاركين والباحثين، من سورية والخارج..

ولي ملء الثقة بأن مؤتمركم هذا سيحقق، بجهودكم، النجاح المأمول.

المحتوى

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة